

يقول الحق سبحانه : ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ .. (٢٥)﴾ [النور]

يعنى : شجرة زيتون لا شرقية ولا غربية ، يعنى : لا شرقية لأنها غربية ، ولا غربية لأنها شرقية ، فهي إذن شرقية غربية على حد سواء ، لكن كيف ذلك ؟

قالوا : لأن الشجرة الزيتونة حينما تكون في الشرق يكون الغرب مظلماً ، وحينما تكون في الغرب يكون الشرق مظلماً ، إذن : يطرا إليها نور وظلمة . إنما هذه لا هي شرقية ولا هي غربية ، إنما شرقية غربية لا يحجز شيء عنها الضوء .

وهذا يؤثر في زينها ، فتراه من صفائه ولمعانه ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ .. (٢٥)﴾ [النور] ، وتعطي الشجرة الضوء القوي الذي يناسب بنورها للشمس ، فإن كانت الشمس هي التي تنير الدنيا ، فالشجرة الزيتونة هي ابنيتها ، ومنها تستمد نورها ، بحيث لا يغيب عنها خسر الشمس .

إذن : مثلُ تنوير الله للسموات والأرض مثل هذه الصورة مكتملة كما وصفنا ، وانظر إلى مشكاة فيها مصباح بهذه المرافقات ، أليكون بها موضع مظلم ؟ فالسموات والأرض على سعتهما كمثل هذه المشكاة ، والمثل هنا ليس لنور الله ، إنما لتنويره للسموات والأرض ، أما نوره تعالى فشيء آخر فوق أن يُوصَفَ . وما المثل هنا إلا لتقريب المسألة إلى الأذهان .

وسبق أن ذكرنا قصة أبي تمام حين وصف الخليفة ومدحه بابرز الصفات عند العرب ، فقال :

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمٍ أَحْنَفٍ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسٍ

فجمع للخليفة كل هذه الصفات ومدحه بأشهر الخصال عند العرب ؛ لذلك قام إليه أحد الحاقدين وقال معترضاً عليه : كيف تشبه الخليفة بصعاليك العرب ؟ فالأمير فوق مَنْ وصفت .

فاكمل أبو تمام على البديهة وبنفس الوزن والقافية :

لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلًا شَسْرُودًا فِي النَّسْدَى وَالْبَاسِ
فَإِنَّهُ قَدْ خَسِرَ الْأَقْلَّ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنُّبْرَاسِ

فإنه - تبارك وتعالى - هو نور السموات والأرض أي : مُنُورُهُمَا ، وهذا أمر واضح جداً حينما تنظر إلى نور الشمس ساعة يظهر يجلو الكون ، بحيث لا يظهر معه نور آخر ، وتتلأشى أنوار الكواكب الأخرى والنجوم رغم وجودها مع الشمس في وقت واحد ، لكن يغلب على نورها نور الشمس ، على حد قول الشاعر في الممدح :

كَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا ظَهَرْتَ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوَكِبٌ

ثم يقول سبحانه : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ .. ﴾ (٣٥) [النور] فلم يتركنا الحق - سبحانه وتعالى - في النور الحسى فقط ، إنما أرسل إلينا نوراً آخر على يد الرسل هو نور المنهج الذى ينظم لنا حركة الحياة ، كأنه تعالى يقول لنا : بعثت إليكم نوراً على نور ، نور حسى ، ونور قسمى معنوى ، وإذا شهدتم أنتم بأن نورى الحسى يغير لكم السموات والأرض ، وإذا ظهر تلاشت أمامه كل أنواركم ، فاسمعوا أن نور منهجى كذلك يطفى على كل مناهجكم ، وليس لكم أن تأخذوا بمناهج البشر فى وجود منهج الله .

وقوله تعالى : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ .. ﴾ (٣٥) [النور] أى : لنوره المعنوى نور المنهج ونور التكليف ، والكفار لم يهتدوا إلى هذا النور ، وإن اهتدوا إلى النور الحسى فى الشمس والقمر وانتفعوا به ، وأطفأوا له مصابيحهم ، لكن لم يَكُنْ لهم حظ فى النور المعنوى ، حيث أغلقوا دونه عيونهم وقلوبهم وأسماعهم فلم ينتفعوا به .

وكان عليهم أن يفهموا أن نور الله المعنوى مثل نوره الحسى لا يمكن الاستغناء عنه ، لذلك جاء فى أثر على بن أبى طالب : « من تركه من جهار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » .

والعجيب أن العبد كلما توغل في الهداية ازداد نوراً على نور ،
كما قال سبحانه : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَغْفُوا اللَّهَ يَجْعَلُ لَكُمْ
فُرْقَانًا .. ﴾ (٢٩) [الأنفال]

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (١٧) [محمد]
ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ .. ﴾ (٢٥) [النور]
يعني : للعبارة والعظة مثل المثل السابق لنوره تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا
عَلِيمٌ ﴾ (٢٥) [النور]

﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ
لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (٣٦)

بدأت الآية بالجار والمجرور ﴿ فِي بُيُوتٍ .. ﴾ (٣٦) [النور] ولا بدُّ
أن نبحث له عن متعلق ، فالمعنى : هذا النور الذي سبق الحديث عنه
في بيوت أُذِنَ الله أن تُرْفَعَ ، والبيت : هو ما أُعِدَّ للبيتوتة ، بل لمعيشة
الحياة الثابتة ، وإليه يأوي الإنسان بعد عناء اليوم وطوافه في مناكب
الأرض ، والبيت على أية صورة هو مكان الإنسان الخاص الذي يعزله
عن المجتمع العام ، ويجعل له خصوصية في ذاته ، وإلا فالإنسان
لا يرضى أن يعيش في ساحة عامة مع غيره من الناس .

وهذه الخصوصية في البيوت يتفاوت فيها الناس وتتسامى حسب
إمكاناتهم ، وكل إنسان يريد أن يتحيز إلى مكان خاص به ؛ لأن
التحيز أمر مطلوب في النفس البشرية : الأسرة تريد أن تقتصر عن
المجتمع العام ، والأفراد داخل الأسرة يريدون أن يتحيزوا أيضاً ، كل
إلى حجرة تخصه ، وكذلك الأمر في اللباس ، ذلك لأن لكل واحد منا

مساتير بينه وبين نفسه ، لا يحب أن يطلع عليها أحد .
وقد اتخذ الله له بيتاً في الأرض . هو أول بيت وضع للناس .
كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا .. ﴾ (٩٦)
[آل عمران]

وهذا هو بيت الله باختيار الله . ثم تعددت بيوت الله التي اختارها
خلق الله . فكما اتخذتم لأنفسكم بيوتاً اتخذ الله لنفسه بيوتاً ﴿ أَذِنَ اللَّهُ
أَنْ تَرْفَعُ وَيَذْكُرَ فِيهَا اسْمُهُ .. ﴾ [النور] وانتم جميعاً عباد الله وعيال
الله . وسوف تجدون الراحة في بيته تعالى كما تجدون الراحة في
بيوتكم ، مع الفارق بين الراحة في بيتك والراحة في بيت الله .

الراحة في بيوتكم راحة حسية بدنية في صالون مريح أو مطبخ
ملء بالطعام ، أما في بيت الله فالراحة معنوية قيمة : لأن ربك - عز
وجل - غيبٌ غير يريك أيضاً بالغيب .

لذلك كان النبي ﷺ كلما حزبه أمر يقوم إلى الصلاة^(١) ليُلْقِي
بأحماله على ربه . وماذا تقول في صنعة تُعرض على صانعها مرة
واحدة كل يوم ، أيبقى بها عطل أو فساد ؟ فما بالك إنْ عُرِضَتْ على
صانعها خمس مرات في اليوم والليلة ؟

فربك يدعوك إلى بيته ليريحك . وليحمل عنك همومك ، ويصلح
ما فسد فيك ، ويفتح لك أبواب الفرج . إذن : فنور على نور هذه
لا تكون إلا في بيوت الله التي أذن سبحانه أن تُرفع بالذكر وبالطاعات
وترفع عما يحل في الأماكن الأخرى وتعظم .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٨/٥) وأبو داود في سننه (١٢١٩) من حديث حذيفة بن
اليمان رضي الله عنه .

فالبیوت كلها لها مستوى واحد ، لكن ترفع بیوت عن بیوت وتُعلی
وقد رُفِعَتْ بیوت الله بالطاعة والعبادة ، فالمسجد مكان للعبادة لا بُعِثَ
الله فيه أبداً على خلاف البیوت والأماكن الأخرى ، فعظم الله بیوته أن
يُعْصَى فيها ، وعظم روادها أن يشتغلوا فيها بسفاسف الأمور الحياتية
الدنيوية ، فعليك أن تترك الدنيا على باب المسجد كما تترك الحذاء .

لذلك نهى الإسلام أن نعقد صفقة في بيت الله ، أو حتى ننشد
فيه الضالة ؛ لأن الصفقة التي تُعقد في بيت الله خاسرة باثرة ،
والضالة التي ينشدها صاحبها فيه لا تُردُّ عليه ، وقد أمرنا رسول
الله ﷺ أن نقول لمن يفعل هذا بالمسجد : « لا ردها الله عليك »^(١) .

وإن جعل الله الأرض كلها لأمة محمد ﷺ مسجداً وظهوراً ، لكن
فَرَّقَ بين الصلاة في المسجد والصلاة في أي مكان آخر ، المسجد
خُصَّص للعبادة ، ولا نذكر فيه إلا الله ، أما الأماكن الأخرى فتصلح
للصلاة ، وأيضاً لمزاولة أمور الدنيا .

والا ، فكيف تعيش كل وقتك لأمر الدنيا على مدار اليوم والليلة ،
ثم تستكثر على ربك هذه الدقائق التي تؤدي فيها فَرَضَ الله عليك
فتجرح الدنيا معك حتى في بيت الله ؟ ألا تعلم أن بیوت الله ما جعلت
إلا لعبادة الله ؟ لا بد للمؤمن أن يترك دُنياه خارج المسجد ، وأن
ينوى الاعتكاف على عبادة ربه والمداومة على ذكره في بيته . فلا
يليق بك أن تكون في بيت الله وتنشغل بغيره .

فإن التزمت بآداب المسجد تلقيت من ربك نوراً على نور . وزال

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال ﷺ : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد
فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا : لا ردها الله عليك ،
أخرجوه الخسائي في عمل اليوم والليلة (ص ٧٢) والدارمي في سنته (٢٢٦/١)
والترمذي في سنته (١٢٢١) وقال : حسن هريم .

عن كاهلك الهم والغم وحلت مشاكلك من حيث لا تحتسب .

إذن : فالحق - تبارك وتعالى - جعل في الفطرة الإيمانية أن تؤمن بالله ، فالإيمان أمر فطري مهما حاول الإنسان إنكاره ، فالكافر الذي ينكر وجود الله ساعة يتعرض لازمة لا منجاة منها بأسباب البشر تجده تلقائياً يتوجه إلى الله يقول : يا رب ، لا يمكن أن يكذب على نفسه في هذه الحالة أو يسلم نفسه ويبيعها رخيصة .

وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ^(١) نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا .. ﴾ (٨)

ومن دقة الأداء القرآني في هذه المسألة قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّى لِّلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ﴾ (٩)

فذكر طرفاً واحداً من عملية التجارة وهو البيع ، ولم يقل : والشراء . قالوا : لأنه حين يمنع البيع يمنع الشراء في الوقت نفسه ؛ ولأن الإنسان يحرص على البيع لكن قد يشتري وهو كاره ، فشهوة الإنسان متعلقة بالبيع لا بالشراء ، لأن الشراء يحتاج منه إلى مال على خلاف البيع الذي يجلب له المال .

إذن : قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ﴾ (٩) [الجمعة] إنما ذكر قمة حركة الحياة وخلصتها ، فكل حركات الحياة من تجارة أو زراعة أو صناعة تنتهي إلى مسألة البيع ؛ لذلك يحزن البائع إذا لم يبيع ، أما المشتري فيقول حين لا يجد الشيء أو يجد المحل مغلقاً : بركة يا جامع .

(١) خوله كذا : ملك إياه متفضلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ٢٦٤/١]

ثم إذا انتهت الصلاة يعيدنا من جديد إلى حركة الحياة : ﴿فَإِذَا
قُضِيََتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ..﴾ (١٠) [الجمعة]
كانك ذهبتَ للمسجد لتأخذ شحنة إيمانية تعينك وتسيطر على كل
حواسك في حركتك في التجارة ، وفي الإنتاج ، وفي الاستهلاك ،
وفي كل ما ينفعك ويُنعى حياتك . وحين يأمرك ربك أن تفرغ لاداء
الصلاة لا يريد من هذا الفراغ أن يُعطّل لك حركة الحياة ، إنما يعطيك
الوقود اللازم لتصبح حركة حياتك على وَفْق ما أراده الله . وما أشبه
هذا الوقت الذي نختزله من مصالح دنيانا في عبادة الله بشحن بطارية
الكهرباء . فحين تذهب بالبطارية إلى جهاز الشحن لا نقول : إنك
عطلت البطارية إنما زدتَ من صلاحيتها لاداء مهمتها وأخذَ خيرها .

فأنت تذهب إلى بيت الله بنور الإيمان ، وبنور الاستجابة لنداء : الله
أكبر ، فتخرج بأنوار متعددة من قيوضات الله : لذلك ضرب لنا الحق -
تبارك وتعالى - مثلاً لهذا النور بالمصباح الذي يتنامى نوره ويتصاعد ؛
لأنه في زجاجة تزيد من ضوئه ؛ لأنها مثل كوكب دُرّى والنور
يتصاعد ؛ لأنها بزيوت زيقونة ، ويتصاعد لأنها شرقية وغربية في أن
واحد ، إذن : عندنا ألوان متعددة في المثل ، فكذلك النور في بيوت الله .

لذلك قال بعض العارفين : أهل الأرض ينظرون في السماء نجوماً
متألّكة ، والملائكة في السماء ينظرون نجوماً متألّكة من بيوت الله .
ولا عجب في ذلك لأنها أنوار الله تتلألأ وتتدفق في بيته وفي
مسجده ، وكيف نستبعد ذلك ونحن نرى نور الشمس كيف يفعل
حينما ينعكس على سطح القمر فيُلقي إلينا بالضوء الذي نراه ؟
والشمس والقمر أثر من آثار نور الله الذي يَسْطع في بيوت الله ، ألا
يعطينا ذلك الإشعاع الذي يفوق إشعاع البدور ؟

ثم يقول تعالى : ﴿يُسَبِّحُ^(١) لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور]
فالمساجد جعلت لتسبيح الله ؛ لذلك كان بعض الصالحين إذا نزل بلدًا
يتحيل أن ينزلها في غير وقت الصلاة ، ثم يذهب إلى المسجد فإن وجده
عامرًا في غير وقت الصلاة بالمسبحين علم أن هؤلاء ملتزمون بمنهج الله ،
حيث يجلسون قبل وقت الصلاة يُسَبِّحُونَ الله وينتظرون الصلاة ، وإن
وجد الحال غير ذلك أنصرف عنها وعلم أنها بلد لا خير فيها^(٢) .

والغُدُوُّ : يعنى الصباح ، والآصال : يعنى المساء ، فهي لا تخلو
أبدًا من ذكر الله وتسبيحه ، وقد وصف هؤلاء الذين يعمرن بيوت الله
بالذكر والتسبيح بأنهم :

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ
الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور]

قلنا : إن التجارة هي قمة حركة الحياة ؛ لأنها واسطة بين منتج
زارع أو صانع وبين مستهلك ، وهي تقتضى البيع والشراء ، وهما قمة
التبادلات ، وهؤلاء الرجال لم تُلْهِهِمُ التجارة عن ذكر الله لأنهم عرفوا
ما في الزمن المستقطع للصلاة من بركة تنثر في الزمن الباقي .

(١) هناك قراءة أخرى - يُسَبِّحُ - قرأها عبد الله بن عامر وعاصم في رواية أبي بكر عنه والحسن
بفتح الياء على ما لم يُسمِ ناعله . ذكره القرطبي في تفسيره (٤٨١٢/٦) .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٤٨١٢/٦) : « رأى سالم بن عبد الله أهل الأسواق وهم مقبلون إلى
الصلاة ، فقال : هؤلاء الذين أراد الله بقوله ﴿لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور] ثم
قال : « اختلف العلماء في وصف الله تعالى المسبحين . فقليل : هم الواقيون أمر الله ، الطالبون
رضاه . الذين لا يشغلهم من الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا » .

(٣) كناية عن الحيوة والفرح الشديد والبحث عن موضع للفرار من أهوال يوم القيامة . [القاموس
الترويم ١٢٩/٢] . وقيل : تتقلب القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك ، والابصار
تنظر من أي ناحية يعطون كتبهم وإلى أي ناحية يؤخذ بهم [تفسير القرطبي ١٨١٧/٦] .

أو نقول : إن التجارة لم تُلْهِهم عن ذكر الله في ذاتها ، فهم حال تجارتهم لا يغفلون عن ذكر الله ، وقد كنا في الصُّقَر نسمع في الأسواق بين البائع والمشتري ، يقول أحدهما للآخر : وحَدَّ الله ، صلَّ على النبي ، مدَّح النبي ، بالصلاة على النبي ، كل هذه العبارات انقضت الآن من الأسواق والتعاملات التجارية وحلَّ محلُّها قيم وعبارات أخرى تعتمد على العَرَض والإعلان ، بل الغش والتدليس ، ولم نَعُدْ نسمع هذه العبارات ، حتى إذا لم يتم البيع كنت تسمع البائع يقول : كسبنا الصلاة على النبي ، فهي في حدِّ ذاتها مكسب حتى لو لم يتم البيع .

﴿وإِقامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ..﴾ [النور] (٢٧) الصلاة لأنها تأخذ وقتاً من العمل ، وكثيراً ما ينشغل المرء بعمله وتجارته عن إقامة الصلاة ظاناً أنها ستُضَيِّعُ عليه الوقت ، وتُفَوِّتُ عليه مصالح كثيرة ، وكذلك ينظر إلى الزكاة على أنها تنقص من ماله ، وهذه نظرة خاطئة حمقاء ؛ لأن الفلاح الذي يُخْرِجُ من مفرته أردباً من القمح ليزرع به أرضه : الأحق يقول : المخزن نقص أردباً ، أما العاقل فيثق أن هذا الأردب سيتضاعف عند الحصاد أضعافاً مضاعفة .

أو : أن الله تعالى يفيض عليه من أنواره ، فيبارك له في وقته ، وينجز من الأعمال في الوقت المتبقى ما لا ينجزه تارك الصلاة ، أو : يرزقه بصفة رابحة تأتيه في دقائق ، ومن حيث لا يحتسب ، والبركة كما قلنا قد تكون سكباً وقد تكون إيجاباً ، وهذه كلها أنوار وتجليات يفيض الله بها على الملتزم بمنهجه .

ثم يقول سبحانه في صفات هؤلاء الرجال : ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور] (٢٧) ذلك لأنهم يتاجرون لهدف أسمى

وأخذ ، فاهل الدنيا إنما يتاجرون لصيانة دنياهم ، أما هؤلاء فيتاجرون مع الله تجارة لن تبور . تجارة تصون الدنيا وتصون الآخرة .

وإذا قستَ زمن دنياك بزمن أخراك لوجدته هباء لا قيمة له . كما أنه زمن مظلون لعمر مظلون ، لا تدري متى يفاجئك فيه الموت ، أما الآخرة فحياة يقينية باقية دائمة ، وفي الدنيا يفوتك النعيم مهما حلأ وطال ، أما الآخرة فنعيمها دائم لا ينقطع .

إن : فَمَنْ يَعْمَلْ لِلْآخِرَةِ ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور] واليوم في ذاته لا يخاف منه . وإنما يخاف ما فيه ، كما يقول الطالب : خفت يوم الامتحان ، واليوم يوم عادي لا يخاف منه ، إنما يخاف مما سيحدث في هذا اليوم ، فالمراد : يخافون عذاب هذا اليوم .

ومعنى ﴿تَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور] يعنى : رجفة القلب واضطراب حركته ، وما ينتابه من خفقان شديد ، ونحن نرى ما يصيب القلوب من ذلك لمجرد أحداث الدنيا ، فما بالك بهول الآخرة ، وما يحدث من اضطراب في القلب ؟

كذلك تضطرب الابصار وتتقلب هنا وهناك : لأنها حين ترى الغزع الذى يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وتنظر هنا علها ترى ما يُطمئنها أو يُخفف عنها ما تجد ، لكن هيهات قلن ترى إلا نزعا آخر أشد وأكث .

لذلك ينتهى الموقف إلى : ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ..﴾ [القم] ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) [النازعات] يعنى : ذليلة منكسرة حيث لا مفر ولا منجى ، ولن يجد فى هذا اليوم راحة إلا من قدم له العمل الصالح كالتلميذ المجتهد الواثق من نفسه ومعلوماته .

المعدمين ، واعلم أنك مُتَأَوِّلٌ عَنْ اللَّهِ ، وَالرِّزْقُ هِيَ الْأَصْلُ مِنْ اللَّهِ وَقَدْ تَكْفُلُ لِعِبَادِهِ بِهِ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا يَدُ اللَّهِ الْمَمْدُودَةُ بِالْعَطَاءِ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ مَا دُمْتَ وَاسْطَةً فِي الْعَطَاءِ ، فَأَنْتَ تَعْطِي مِنْ خَزَائِنٍ لَا تَنْفَدُ ، فَلَا تَصْنُ وَلَا تَبْحُلُ بِمَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ .

وَالْحِسَابُ أَنَّ تَحْسِبَ ثَمَرَةِ الْأَعْمَالِ هَذِهِ تَعْطَى كَذَا ، وَهَذَا يَنْتَجِ كَذَا ، بِعَنْ مِيزَانِيَّةٍ وَبِرَاسَةِ جَدْوِيٍّ ، أَمَّا عَطَاءُ اللَّهِ فَيَأْتِيكَ دُونَ هَذِهِ الْحِسَابَاتِ ، فَانْتَ تَحْسِبُ ، لَا رِوَاءَكَ مِنْ سِيحَاسِكَ ، أَمَّا رَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا يَحَاسِبُهُ أَحَدٌ ، لِذَلِكَ يَعْطِيكَ بِلَا عَمَلٍ وَدُونَ أَسْبَابٍ ، وَيَعْطِيكَ مَا لَا مُقَدِّمَاتٍ وَيَعْطِيكَ وَابْتَ لَا تَسْتَحِقُّ ، أَلَا تَرَى مَنْ تَنْعَثُ قَدَمَهُ فَيَجِدُ تَحْتَهَا كَنْزًا ؟

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ
مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ دُفُوفًا
حِسَابُهُمْ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٣١)

انطق - تبارك وتعالى - يريد أن يلفت أنظار مَنْ شغلتهم الدنيا بحركتها ونشاطها عن المراد بالآخرة ، فَيَصْنَعُونَ صَوَائِعَ مَعْرُوفٍ كَثِيرَةً ، لَكِنْ لَمْ يُحْلَصُوا فِيهَا النِّيَّةُ اللَّهُ ، وَالْأَصْلُ فِي عَمَلِ الْخَيْرِ أَنْ يَكُونَ مِنَ اللَّهِ وَتَكُونَ ، وَسَوْفَ يُؤَاجَهُ هَؤُلَاءِ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ فَيَقَالُ لِأَحَدِهِمْ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « عَمِلْتَ لِيُقَالُ وَقَدْ قِيلَ » (١) .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٥) وأحمد في مسنده (٢٢٢/٢) والسنائي في سننه (٢٢/٦ ، ٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه « إِذَا أَوَّلَ النَّاسُ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَفَهُ بِعَمَلِهِ فَعَرَفَهَا ، قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ قَاتَلْتُ فَبِكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتِلٌ لِأَنْ يَقَالَ جَرِي ، فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ رُجُلِهِ حَتَّى أُتِيَ مِنَ النَّارِ ، الْحَدِيثُ

لقد مدحوك واثنوا عليك وأقاموا لك امتثاليل وخلدواذكرك .
لذلك رسم لهم القرآن هذه الصورة ﴿ وَلَذِينَ كَفَرُوا أَغْمَالُهُمْ كَسْرَابٍ
بَقِيعَةٍ يَخْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ۖ ﴾ (٢٩) [النور]
﴿ أَغْمَالُهُمْ ۖ ۖ ﴾ (٢٩) [النور] أى التى يظنونها خيراً وينتظرون
ثوابها ، والسراب ما يظهر فى الصحراء وقت الظهيرة . كأنه ماء
وليس كذلك وهذه الظاهرة نتيجة انكسار الضوء ، و « قِيعَة »
جمع قاع وهى لأرض المستوية مثل حار وجبرة .

وأستند الفعل ﴿ يَخْسِبُهُ ۖ ﴾ (٢٩) [النور] إلى الظمان ، لأنه فى
حاجة للماء ، وربما لو لم يَكُنْ ظمآنًا لما التفت إلى هذه الظاهرة ،
فلاضئته يجرى خلف الماء ، لكنه لا يجد شيئًا . ولبت الأمر ينتهى عند
خيبة المسمى إنما ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَرْقَافًا حَمَالَةً ۖ ﴾ (٣٠) [النور]
فُوجيء بـ « لَمْ يَكُنْ عَمَى نَاله حينما فعل الخير ، إله لم يؤمن به ،
والآن فقط يتنبه . ويمسح من غفلته ، ويُعَاجِز بِضِيَاعِ عمله .

يذن تجتمع عليه مصيبتان مصيبة الظما الذى لم يجد له ريثًا .
ومصيبة العذاب الذى ينتظره . كما قال الشاعر^(١)

كَمْ أَبْرَقَتْ قَوْمًا عَطَاشًا غَمَامَةً فَلَمَّا رَأَوْهَا أَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتْ^(٢)

وسبق أن ضربنا مثلًا لهذه المسألة بالسجين الذى بلغ منه
العطش مبلغًا ، فطلب الماء . فأتاه الحارس به حتى إذا جعله عند فيه

(١) هو كثير بن عبد الرحمن أبو حمير الباهلي . يقال له « كثير مرة » وهى عزة بنت
جميل الضمرية ، كان عفيفًا فى حبه لها . شاعر متيم مشهور . من أهل المدينة أكثر إقامته
بمصر . كان مسرط النصر ديمًا فى نفسه شمم وترفيع . توفي عام (١٠٥ هـ) (الاعلام
للرؤكى (٢١٩/٥)

(٢) ديوان كثير (ص ٢٧) وأورده شهاب الدين الملبى (ج ٧٢٥ هـ) من « حسن التوسل
إلى صناعة التوسل » ص ١٢١ وأقشعت الغمامة انكشفت وذهبت

وَسَتَشْرَفُ الْمَسْكِينُ لِلْأَرْتَوَاءِ أَرَأَيْتَ إِنْ حَارَسُوا الْكُوفَ ، وَيُسْعُونَ ذَلِكَ
يَأْسٌ بَعْدَ إِطْمَاحٍ

لذلك الحق - ثبارك وتعالى - يعطينا في الكون أمثلة تُزهدُ الناس
في العمل للناس من أجل الدس ، فالعمل للناس لا تُدُّ أن يكون من
أهل الله وفي الواقع تصادف من ينكر الجميل ويتنكر لك بعد أن
أحسنْتَ إليه ، وما ذلك إلا لأنك عملتَ من أحله ، فوجدتَ الجزاء
العادل بختاب بعدها ولا تعمل من أهل الدس ، ولو فعلتَ ما فعلتَ
من أجل الله وجدتَ الجزاء والثواب من الله قبل أن تنتهي من مباشرة
هذا الفعل

وفي موضع آخر يُشبهُ الحق سبحانه الذي ينطق ماله رياء الناس
بالحجر الأملس الذي لا ينطق بالماء ، فلا ينبت شيئاً ﴿كَأَنَّهُ يَنْفَقُ
مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ
قَاصِبٌ رَابِلٌ﴾ فتركه صلباً^(١) لَأَيُّ قَدْرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

[البقرة]

وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [التور] مإياك أن
تستبعد الموت أو النعت ، فالزمن بعد الموت وإلى أن تقوم الساعة
زمن لا يُحسبُ لأنه يمرُّ عليك دون أن تشعر به ، كما قال سبحانه
﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْحَقُوا إِلَّا بَرَصَةً أَوْ ضَعِيفًا﴾ [الزمر]

والله تعالى أخفى الموت أسباباً وميخاداً ، لأن الإيهام قد يكون
غاية البير ، وبإيهام الموت نخل ذاكرة له عاملاً للأخرة ، لأنك تتوقعه

(١) الصلوان الحجر الأملس الذي لا يصلح للزرع [القاموس القويم ١ / ٢٨]

(٢) إرابين قطر الكثير القطر والوبيل الثقيين يغليظ جوداً [لسان العرب مادة وبن]

(٣) السد الحجر الصلب الأملس فلا يصلح لإحداث ساب [القاموس القويم ١ / ٢٨١]

فى اى لحظة ، فهو دائماً على بالك ، ومن يدريك لعلك إن خفصت طرفك لا ترفعه . وعلى هذا فالحساب قريب وسريع ، لذلك قالوا من مات لقد قامت قيامته^(١) .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ أَوْ كُظِّلُمْنِي فِي بَحْرِ لَيْلِي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَرْقٍ مَّوْجٍ مِّنْ فَوْقِهِ مَحَابُّ ظَلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدَهُ لَوْ يَكْدِرْنَهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (٤٠)

هذا مثل آخر توضيحي لأعمال الذين كفروا والبحر البحر الواسع الكبير الذى تتلاطم فيه الأمواج ، بعضها فوق بعض ، وعمق هذا كله سحاب إذن قلاطم مطبق ، لأنه طبقات متخالية ، وفى أعماق بعيدة ، وقد بلغت هذه الظلمة حداً لا يرى الإنسان معها حتى يده النى هى جزء منه ، فما بالك بالاشياء الأخرى ؟

وقوله ﴿ لَمْ يَكْدِرْنَهَا ﴾ (٤٠) [النور] أى لم يقرب من أن يراها ، وإنه لى القرب من أن يرى فقد غشى الرؤية من باب أولى ، ذلك لأنه ليس به نور من الله يرى به ويهتدى ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (٤٠) [النور] فكما أنه لم ينتفع بالنور ، ولم يز حتى يده ، كذلك لا ينتفع بشيء من عمله

(١) ذكره العجلوتى فى كشف الحفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أس بن مالك رضى الله عنه وشبهه . أكثروا ذكر الموت ، منكم إلى دكرتموه فى عسى كذره عليكم ، وإن دكرتموه فى صيق وسعه عليكم ، الموت القيامة ، فمن مات قامت قيامته . وأخرج السيلفى فى مسند الفردوس (حديث ١١١٧) عن أس رفته بلفظ : إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته فاعبدوا الله كما كنتم ترونه واسمغفروه كل ساعة .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالطَّيْرِ صَفَّيْنَ كُلِّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١)

يريد الحق - سبحانه وتعالى - أن بلغتنا إلى ما يدل على وحدة
الخالق لأعلى ، وكمال قيوميته وكمال قدرته ، ودُكرت هذه الآية بعد
عدة أوامر ونواه ، وكان ربك - عز وجل - يريد أن نُطمئنك على أن
هذا الكون الذي خلقه من أجلك وقبل أن تُولد ، بس ، وقبل أن يخلق
الله آدم أعد له هذا الكون ، ويجعله في استقباله بسمائه وأرضه
وشمسه وقمره ومائه وهوائه يقول لك ربك اطمنن فليس يخرج
شيء من هذا الكون عن خدمتك فهو مُسَخَّرٌ لك ، ولن يأتي يوم يتمرر
فيه ، أو يعصى أوامر الله

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٤١) [النور]

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ (٤١) [النور] يعني أليست تعلم ، كما في قوله تعالى
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (٦) [الفيل] ومعلوم أن
النبي ﷺ ولد عام الفيل ، ولم ير هذه الحادثة ، فلماذا لم يضطمر ربه
بألم تعلم ويريح الناس الذين يتشككون في الالفاظ ؟

قالوا ليدلّك على أن ما يخبرك الله به - غيباً عنك - أوثق بما
تخبرك به عينك مشهداً لك ، لأن مصدر علمك هو الله ألا ترى أن
المنظر قد يصيبه مرض منحتل رؤيته ، كمن عنده عُمى ألوان أو قصر

(١) سموات مصطفات الأجنحة في الهواء ، فهي باسطات الأجنحة وقال سفيان لطيور
ملاة ليس فيها ركع ولا سجود وفيل إن صربها ياجتمتها صلاه ، وإن صربها
تسبيح حكاه النقاش [تفسير القرطبي ١/ ٤٨٧٤]

نظّر .. إلخ إنّ فالنظر نفسه وهو أوثق شيء لديك قد يكذب عليك والتسبيح هو التنزيه ، والتنزيه أن ترتفع بالمرتبة عن مستوى ما يمكن أن يحول بخاطرك فالله تعالى له وجود ، وأنت لك وجود ، لكن وجود الله ليس كوجودك ، الله له ذات وصفات لكن ليست كذاتك وصفاتك .. إلخ .

إنّ نزه ذات الله تعالى عن الدواب التي تعرفها ، لأنها ذوات وهنت الوجود ، أما ذات الله فغير موهوبة ، ذات الله ذاتية ، كذلك لك فعل ، والله تعالى معّل

رقد ذكرنا في قوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا .. (١)﴾ [الإسراء]

إن الذين اعترضوا على هذا الفعل اعترضوا بغيباء ، فلم يفهموا بغير فعل الله وفعل العبد ، فرسل الله ﷺ لم يقل سرّيت من مكة إلى بيت المقدس إنما قال أسرى بي

فالاعترض على هذا فبسه معالطة ، فإن كنتم تحسبون إليها أكباد الإبن شهراً ، فذاك لأن سبركم خالص لقدرتكم ومكاناتكم ، أما الله تعالى فيقول للشيء كن فيكون فلا يحتاج في فعله سبحانه إلى زمن فمن الأدب ألا تقارن فعل الله بفعلك ، ومن الأدب أن تُنزه الله عن كل ما يخطر لك ببال ، نزه الله ذاتاً ، ونزهه صفاتاً ، ونزهه أفعالاً

ألا ترى أن (سبحان) مصدر للتسبيح ، يدل على أن تنزيه الله ثابت له سبحانه قبل أن يخلق من ينزهه ، كما جاء في قوله تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. (٢٨)﴾ [ال عمران] فشهد الحق - تبارك وتعالى لنفسه قبل أن تشهدوا ، وقبل أن تشهد الملائكة ، وهذه هي

شهادة الذات للذات . وقبل أن يخلق الله الإنسان المسيح سُبِّحَ الله
السموات والأرض ساعة خلقهما سبحانه وتعالى

وحين تتبع لفاظ التسبيح في اقرآن الكريم تجدها جاءت مرة
بصيغة اىماضى ﴿سُبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ..﴾ (١) [العديد]
فهل سَبَّحَتِ السموات والأرض مرة واحدة . فقالت سبحانه الله ثم
سكنتُ عن التسبيح ، لا إنما سَبَّحْتُ في الماضى . ولا تزال تُسَبِّحُ في
الحاضر ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ..﴾ (١) [الجمعة]
وما دام أن الكون كله سُبِّحَ الله . وما يزال يُسَبِّحُ هم يبقُ إلا أنت
يا ابن آدم ﴿سُبِّحَ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (٣) [الأعلى] يعنى استبح أن
يكون الكون كله مُسَبَّحًا وأنت غير مُسَبِّح . فصل أنت تسبيحك
بتسبيح كل هذه المخلوقات

وعجيب أن نسمع من يقول أن (مَرَّ) في الآية للعاقل . فهو
الذى يُسَبِّحُ أمّا السموات والأرض فلا دخل لهما في هذه المسألة
ويقول لا دخل لها في تصورك أنت ، أمّا الحقيقة فإنها مثلك تُسَبِّحُ
كما قال تعالى ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ..﴾ (٤٦) [المود]
وقال ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ حِجَّتِهِ ..﴾ (١٣) [الرعد]
فليس لك بعد كلام الله كلام

وأخر يقول لك التسبيح هنا ليس على الحقيقة . إنما هو تسبيح
دلالة وحال ، لا مبال ، يعنى هذه المحوقات تدلُّ بحالها على
تسبيح الله وتثريه . وأنه واحد لا شريك له . على حد قول الشاعر
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

وهذا القول مرادود بقوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (١٤) [الإسراء]

إذن هذه المخلوقات تُسَبِّحُ على الحقيقة وبها سائر لغة ، لكنك لا تفهم عنها ولا تفقه لغاتها ، وهل فهمت أنت كل لغات بني جنسك حتى تفهم لغات المخلوقات الأخرى ؟ إن العرسي إذا لم يتعلم للإنجليزية مثلاً لا يستطيع أن يفهم منها شيئاً وهي لغة منطوقة مكتوبة ، وبها ألفاظ وكلمات وتراكيب مثل العربية

إذن لا تقل تسبيح حال ، هو تسبيح عقل ، لكنك لا تفهمه ، وكل شيء له مقال ويعرب مقاله ، بدليل أن الله تعالى إن شاء أطلع بعض أهل الاصطقاء على هذه اللغات ، ففهمها كما فهم سليمان عليه السلام عن النملة ﴿فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ (٩) [النمل] وسمع كلام الهمدود وفهم عنه ما يقول عن مكة سبياً

ونقول لأصحاب هذا الرأي تأملوا الحلية المسدسة التي يصنعها النحل وبها من هندسة تتحدى ساططين الهندسة والمقاييس أن يصنعوا مثلها ، تأملوا عش الطائر وكيف يسج عيدن القش ، ويدخل بعضها في بعض ، ويجعل لعش حافة تحمي اصغار ، فإذا وضعت يدك في العش وهو من القش وجدت به ملمس الحرير ، تأملوا خيوط العنكبوت وكيف يصطاد بها فرائسه ؟

لقد شاهدت فيلماً مصوراً يُسَجِّلُ صراعاً بين دب وثور ، الدب رأى قرون الثور طويلة حادة ، وعلم أنها وسيلة الثور التي ستقضى عليه ، فما كان منه إلا أن هجم على الثور وأمسك قرنیه بيديه ، وظل ينهش رأس الثور بأسنانه حتى أثخنه جراحاً حتى سقط فراح يأكله

إذن كيف يستبعد أن يكرر لهذه المخلوقات لغات تُسَبِّحُ الله بها

لا يعرفها إلا بنو جنسها ، أو من أفاض الله عليه بعلمها .

ثم ألم يتعلم الإنسان من العراب كيف يدفن الموتى لما قتل قابيل هابيل ؟ كما يقول سبحانه ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غَرَابًا يَنْحُثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ .. ﴾ (٢٦) [المائدة] وكان ربنا - عز وجل - يعلمنا الأدب وعدم الغرور

وقرأنا أن بعض الباحثين ولدارسين لحياة النمل وحدوا أنه يكون مملكة متكاملة تلعت القمة في النظام والتعاون ، فقد لاحظوا مجموعة تمر هنا وهناك ، حتى وجدت قطعة من طعام فتركوها واصرموا ، حيث أتوا ، ثم جاءت بعدهم كوكبة من النمل التفت حول هذه القطعة وحملتها إلى العش . ثم قام الباحث بوضع قطعة أخرى ضعف الأولى ، فإذا بمجموعة الاستكشاف (أو الناصورحية) تمر عليها وتذهب دون أن تحاول حملها . وبعدما جاء جماعه من النمل ضعف الجماعة الأولى ، فكان النمل يعرف الحجم والوزن والكتلة ويجيد تقديرها

وفي إحدى المرات لاحظ الباحث فتاتاً أبيص أمام عش النمل ، فلما فحصه وحده من حين الحبة الذي يكون النملة ، وقد امتدى النمل إلى فصل هذا الجبين حتى لا تثبت الحبة فتهدم عليهم العش ، لهذا الحد علم النمل قاتون صيانتهم وعلم كيف يحمي نفسه . وهو من أصغر المخلوقات ، أبعد هذا كله نستبعد أن يكون للنمل أو لغيره لغته الخاصة .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَتْ كُلُّ فِدْ عِلْمَ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ .. ﴾ (٤١) [النور] فلماذا خص الطير بالذكر مع أنها داخلية في ﴿ من في السموات والأرض ﴾ (٤١) [النور]

قالوا - خَصَّهَا لَأَن لَهَا حِصْصَةً أُخْرَى وَعَجِيبَةٌ ، يَجِبُ أَنْ نَلْتَمِسَ إِلَيْهَا ، لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ الطَّيْرَ مِثْلًا وَمَوْجِدًا لَشَيْءٍ أَعْظَمَ فَالطَّيْرَ كَأَنَّ لَهُ وَزْنَ وَثَقَلَ ، يَخْضَعُ لِقَانُونِ اجْذَابِيَّةٍ لَتَى تَجْذِبُ لِلْأَرْضِ كُلُّ ثَقَلٍ يَعْطِقُ فِي أَسْهَاءِ

لَكِنَّ الْحَقَّ - سَبَّحَاهُ وَتَعَالَى - يَخْرِقُ هَذَا الْقَانُونِ لِلطَّيْرِ حِينَ يَصِفُ أَجْنَحَتَهُ فِي الْهَوَاءِ . يَنْطَلِ مَعْلَقًا لَا يَسْقُطُ ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ .. ﴾ (٦٩) [الملك]

وَكَانَ الْخَالِقُ - عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ خُذُوا مِنَ الطَّيْرِ الْمَشَاهِدَ نَمُودَجًا وَوَسِيلَةً إِيضًا ، فَإِذَا قُلْتُ لَكُمْ ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ .. ﴾ (٦٥) [الحج] فَصَدَّقُوا وَأَمِنُوا أَنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاءَ ، بَلِ ﴿ إِنْ أَلَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِذْ مَسَّكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. ﴾ (٤٦) [فاطر]

مَحْذُومٌ مِنَ الْمَشْهَدِ الَّذِي تَدْرِكُهُ دَلِيلًا عَلَى مَا لَا تَدْرِكُهُ لَكِنْ . مَنْ الْفَاعِلُ فِي ﴿ عِلْمُ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ .. ﴾ (٤٦) [سور] ؟

يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ لَطِيرٌ وَكُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ ، وَأَحْسَنُ مِنْهُ أَنْ نَقُولَ عِلْمُ اللَّهِ صَلَاتُهَا وَتَسْبِيحُهَا ، لِأَنَّهُ سَبَّحَاهُ خَالِقُهَا وَهَادِيهَا إِلَى هَذَا التَّسْبِيحِ^(١) إِذَنْ فَكُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ يَعْلَمُ صَلَاتَهُ وَيَعْلَمُ تَسْبِيحَهُ ، كَمَا تَعْلَمُ أَنْتَ الْمَنْهَجَ ، لَكِنَّهُ اسْتِقَامَ عَلَى مَنْهَجِهِ لِأَنَّهُ مُسَخَّرٌ وَانْحَرَفَتْ أَنْتَ لِأَنَّكَ مُخَيَّرٌ

(١) قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَقْسِيمِهِ (٤٨٢٤ / ٦) : « يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى كُلُّ قَدِّ عِلْمِ اللَّهِ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ أَيْ عِلْمُ صَلَاةِ الْمَعْلُومِ وَتَسْبِيحِ الْمُسَبَّحِ » وَلِهَذَا قَالَ ﴿ وَاللَّهُ عَزِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٤٦) [الدور] أَيْ لَا يَحْفَظُ عَلَيْهِ طَاعَتَهُمْ وَلَا تَسْبِيحَهُمْ وَبَدَّ قِيلَ الْمَعْنَى قَدْ عِلْمُ كُلِّ مَخْلُوقٍ وَتَسْبِيحُ صَلَاةِ نَفْسِهِ وَتَسْبِيحِ الَّذِي كَلَّمَهُ .

فإن أردت أن تستقيم أمور حياتك فطبق منهج الله كما جاء ،
لذلك لا تجد في الكون خللاً أبداً إلا في منطقة الاختيار عند الإنسان
كل شيء لا دخل للإنسان فيه يسير منتظماً ، فالشمس لم تعترض
في يوم من الأيام ولم تتحلف ، كذلك القمر والنجوم والهواء ، إنها
منضبطة غاية الانضباط حتى إن الناس يضطرون عليها حساباتهم
ومواعيدهم واتجاهاتهم

لذلك يقول تعالى ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحَسَابٍ﴾ (٥٠) ﴿[الرحمن]
يعني بحساب دقيق ، وما كان للشمس أن تصبغ الوقت إلا إذا كانت
هي في ذاتها منضبطة

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١) ﴿[النور] أي لقيوميته تعالى على
خلقه

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٠٢)

يريد ربك عز وجل أن يطمئنك أن الذي كلّفك بما كلّفك به
يصنع لك مقومات حياتك ، فس يقطع عنك الهواء في يوم من الأيام ،
وبن تنأى عليك الشمس أو القمر أو الأرض ، لأنك ملك لله لا
يشركه سبحانه في ملكيتها أحد يمتعها عنك ، فساظمئن إلى أنها
ستؤدي مهمتها في خدمتك إلى يوم القيامة ولا تشغل نفسك بها ،
فقد صمدك الله

ثم يقول رب العزة سبحانه

﴿الْقُرْآنَ اللَّهُ يُرْسِي سَعَابًا ثُمَّ يُنَزِّلُ مِنْهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا
فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا
مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سُنَّابُ رَبِّهِ
يَلْهَبُ يَأْتِي الْبَصُرَ ٤٣﴾

قوله تعالى ﴿الْمُ تَر . (٤٣)﴾ [النور] يعني : ألم تعلم . وقد وقفنا مع تطور العلم على كيفية تكون المطر بين التبخير والتكثيف الذي يكون اسحاب ، وقلنا سابقا ، ان سطح الماء على الارض ثلاثة اربع اليابسة حتى تكفي هذه المساحة البخار اللازم لتكوين المطر ، ونحن نجرى مثل هذه العملية في تقطير الماء حين يغى الماء ونستقبل البحار على سطح بارد فتحدث له عملية التكثيف .

وقد أوضحنا هذه العملية بكوب الماء حين تتركه ممثلاً وتسافر مثلاً ، فحين تعود تجد الكوب قد نقص قليلاً ، أما إذا رقتة على الأرض ، فإنه يجف سريعاً ، وقبل أن تغادر المكان لماذا ؟ لأنك وسعت مساحة البخر

ومعنى ﴿يُرْسِي سَعَابًا . . (٤٣)﴾ [النور] أى يرسه برفق ومهل ، لذلك لما وصف الشاعر حبش الغداة قال

كَأَنَّ مَشْيَتَهَا مِنْ بَيْتٍ جَارَتْهَا مَرُّ السَّحَابِ لَا رَيْثٌ^(١) وَلَا عَجَلٌ

(١) الودق : المطر ، شدده وهنّه [لسان العرب - مادة ودق]

(٢) السحاب : غيوم النار والبرق قال أبو زيد : سنا السرق غصوه من غير أن ترى البرق أو ترى محرجه في موضعه ، وإنما يكون العسا بالليل دون النهار ، وربما كل في غير سحاب [لسان العرب - مادة سد]

(٣) الريث : الإبطاء ، وان يرث : لبطا وترث ملار عليه أى لبطا [لسان العرب - مادة ريث]

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ..﴾ [النور] أى يجمع بعضه على بعض ،
وحين يُجمع الشيء بعضه على بعض لا بُدَّ أن يبقى بينه فاصل ، فلا
يلتصم بفيره التحاماً تاماً ، ولولا هذه الفواصل بين قطع السحاب ،
ولولا هذه الفتور ما نزل الودق من خلاله .

ولو شاء سبحانه لجعل السحاب قطعة واحدة ، ولكنه سبحانه
يؤلف بينه ويجمعه بعضه على بعض دون أن يُوحده تكريناً ، فيحدث
بذلك قرعاً بين قطع السحاب أرادت حين يلصق الورق دالصمغ مثلاً
معهما وضعت عليه من ثقل لا بُدَّ أن يبقى بينه فراغات ، لأنه ليس
دائماً واحدة

وعملية تفريغ الهواء هذه نلاحظها حين تضع كوباً مبلولاً وتتركه
لفترة ، فيتبخر الماء من تحته ويخرج الهواء ، فإذا أردت رفعه وجبته
صعباً لماداً ، لتفريغ الهواء من تحت قاعدة الكوب ، وفي هؤلاء الذين
يعالجون الآلام الناتجة عن البرد فيضعون الكوب مقلوباً على مكان
الآلم ، ثم يُشعلون بداخله قطعة من القماش مثلاً لتحرق الهواء بداخل
الكوب .

وبذلك نمنح الحل في التقاء الكوب بالجسم ، وهذه المسألة هي
سرُّ عظمة قدماء المصريين في البناء ، حيث تتماسك الحجارة دون
وجود (مونة) تربط بينها

إذن وجود الهواء بين اثنين يحدث خللاً بينهما ، ولولا هذا
الخلل في السحاب ما نزل منه الماء ، والمطر آية عطيمة من آيات الله
لا نشعر بها ، ولك أن تتصور كم يكلفنا كوب الماء المقطر حين نُعده
في المعمل ، فما بالك بالمطر الذي يسقي الأرض كلها ؟

ثم يقول تعالى ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ..﴾ [النور] يعنى مُكَمَّمًا

بعضه على بعض . وفي آية أخرى . ﴿ وَإِذَا يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ (٤٤) [العدس] متبرأكم بعضه على بعض ﴿ فتري الودق .. ﴾ (٤٥) [النور] أى . المطر ﴿ يخرج من خلاله .. ﴾ (٤٦) [السود] أى من خلال هذه الفجوات والفواصل التى تفصل بين السحب

وهذا الماء الذى يَنزَل من السماء فيصيب به الله الأرض قد يأتى نعمة وعداباً ، كما قال سبحانه ﴿ وَيُنَزِّل مِّنَ السَّمَاءِ مِزَاجًا مِّنْهَا مِزَاجٌ لِّمَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ .. ﴾ (٤٣) [السود] ولما فى أهل مارب الذين أعزتهم الله عذرة وعظه

ولو تأملت لوجدت الماء ولنار عذويز مقابلين يصعب مقاومتهما ، لذلك كان العرب إلى عهد قريب يحافون الماء لما عابوه من غرق بعد انهيار سد مارب ، لذلك أثروا أن يعيشوا فى الصحراء بعيداً عن الماء

وبإمضاء نحيى الله تعالى موسى - عليه السلام - وأغرق عذوة فرعون ، ففعل سبحانه أشنع وضده بالأشنع الواحد

وقوله تعالى ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ (٤٣) [السود] أى الضوء الشديد الذى يحدثه السحاب يكاد أن يخطف الأبصار ، وهو البرق تتولد النار من الماء ، بذلك حسماً يقول تعالى ﴿ وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ (٦) [التكوير] فصدق هذه الآية الغيبية ، لأنك شاهدت نموذجاً لها فى مسألة البرق

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ يَغْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (٦٠)

فالليل والنهار آيتان يفتابحان لكن دون رتبة ، فالليل قد يأخذ من النهار ، والنهار يأخذ من الليل ، وقد مسويان في الزمن تماماً ومن تغليب الليل والنهار ما يعتريهما من حر أو برد أو نور وظلمة

إذن فالمسألة ليست ميكانيكية رتيبة ، إنما هي قىومية الله تعالى وقدرته في تصريف الأمور على مراده تعالى ، لذلك يقول تعالى بعدها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [البقرة]

العبرة والعبرة والعبور والتعبير كلها من مادة واحدة ، نقول هذا مكان العبور يعنى الانتقال من جهة إلى جهة أخرى ، وفلان عبّر عن كذا ، يعنى نقل الكلام النفسى إلى كلام باللسان ، والعبرة أن ننظر في الشيء ونعتبر ، ثم ننقل منه إلى غيره ، وكذلك العبرة لأنها حذر أسأل شيئاً ، فنزل من عيني النعم

والعبرة هنا لمن « ﴿لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ » [البقرة] والمراد الأبصار الواعية لا الأبصار التى تدرك فقط ، والإنسان له إدراكات بوسائنها ، وله عقل يستقبل المدركات ويغيرها ويخلص منها إلى قضايا ، ومن الناس من يبصر لكنه لا يرى شيئاً ولا يصل من رؤيته إلى شيء ، ومنهم أصحاب انظر لواعى المدقق فالذى اكتشف قوة البخار رأى القدر وهى تغلى وتغور فيرتفع عليها العشاء ، وهذا مظهر براه جميعاً الرجل والمرأة ، والكبير والصغير ، لكن لم يصل أحد إلى مثل ما وصل إليه .

إذن المراد الأبصار التى تنقل المبصر إلى العقل ليحلّله ويستنبط ما فيه من أسباب ، لعله يستفيد منها بشيء ينفعه ، والله تعالى قد حقق في الكون ظواهر وآيات لو تأملها الإنسان ويطر إليها بتفكير وتبصر لاستنبط منها ما يثري حياته ويرتقى بها .

ثم يقول الحق سبحانه

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ
يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥﴾

الدابة كل ما يدب على الارض ، سواء أكان إنساناً أو انعاماً أو
وحشاً ، فكل ما له دبيب على الأرض خلقه الله من ماء حتى النملة لها
على الأرض دبيب

وكل شيء يضخم قابل لأن يصغر ، وقد يضخم تصميماً لدرجة
أنك لا تستطيع أن تدرك كُنْهه ، وقد يصغر تصغيراً حتى لا تكاد تراه
وتحتاج في رؤيته إلى مكبر ، ومن عجائب الخلق أن النملة أو الناموسة
فيها كل أجهزة الحياة ومقوماتها ، وفيها حياة كحياة الفيل الضخم ،
ومن عظمة الخالق سبحانه أن يخلق الشيء الضخم الذي يفوق الإدراك
لضخامته ، ويخلق الشيء الضئيل الذي يفوق الإدراك لضآلته

الأقرب أن ساعة (بج بن) أخذت شهرتها لضخامة حجمها ، ثم
جاء بعد ذلك من صنع اساعة في حجم فص الخاتم وفيها نفس الآلات
التي في ساعة (بج بن) ، كذلك خلق الله من الماء الفيل الضخم ،
وخلق الناموسة التي تؤرق الفيل رغم صغرهما سبحانه لخالق

ولما كان الماء هو الأصغر في حلقة كل شيء حتى وجدنا العلماء
يقتلور حتى الميكروب الصغير الدقيق بأن يمجسوا عنه المائية
فيموت ، ومن ذلك مداواة الجروح بالعسل ، لأنه يمتص المائية أو
يحجبها ، فلا يجد الميكروب وسطاً مائياً يعيش فيه

وهذه الخلقة ليست على شكل واحد ولا وتيرة واحدة في قواب
ثابتة . فما هي ألوان وأشكال ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ
يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ..﴾ (٤٥) [النور]

والمشي هو انتقال الموصوف بالمشي من حيز مكاني إلى حيز
مكاني آخر ، والناس تفهم أن المشي ما كان بالقدمين ، لكن يوضح
لنا سبحانه أن المشي أنواع فمن الدواب من يمشي على بطنه .
ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع^(١)

وربنا - سبحانه وتعالى - بسط لنا هذه المسألة بسطاً يناسب
وعجار القرآن وإيجازه ، فلم يذكر مثلاً أن من الدواب من به أربع
وأربعون مثلاً ، وفي تنوع طرق المشي في الدواب عجائب تدلنا على
قدرته تعالى وبديع خلقه

لذلك قال بعدما ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ..﴾ (٤٥) [النور] الآية لم
تستقص كل ألوان المشي ، إنما تعطينا نماذج وتمت ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا
يَشَاءُ ..﴾ (٤٥) [النور] تدرج مثلاً (أم أربعة وأربعين) وغيرها من
الدواب ، والآية دليل على طلاقة قدرته سبحانه

وكما سخر الله الإنسان لخدمة الإنسان ، كذلك سخر الحيوان
لخدمة الحيوان ليوفر له مقومات حياته ، ألا ترى الطير بقات على
فضلات الطعام بين أسنان النمساح مثلاً فيحلفها له ، إذن فما هي

(١) قال القاش : إنما كفى من القول بذكر ما يمشي على أربع من ذكر ما يمشي على أكثر
لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع ، وهي قوائم مشية ، وكثرة الأرجل في بعضه
زيادة في خلقه ، لا يحتاج تلك الحيوان من مشية إلى جميعها وقال ابن عطي : والظاهر
أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلاً بل هي مستتاج إليها في تنقل الحيوان وهي كلها
تتحرك في تصرفه [تفسير القرطبي ٦ : ٤٨٢٩]



فم التماسح من الخمائر والبكتيريا هي مخزن قوت لهذه الطيور ،
ويحدث بينها توافق وانسجام وتعاون ، حتى إن الطير إن رأى الصياد
الذى يريد أن يصطاد التماسح فإنها تُحدث صوتاً لتنبه التماسح حتى
ينحو

ومن المشئى أيضاً السَّعى بين الناس بالنميمة ، كما قال تعالى
﴿ هَمَّازٌ مِّثْلُ مَثَاءٍ بِمِثْمٍ ﴾ (١١)

[النظم]

وبعد أن أعلنا الحق - تبارك وتعالى - الأدلة على أن الملك له
وحده وأن كل شيء يُسبَّح بحمده تعالى وإليه تُرجع الأمور وأنه
تعالى خلق كُلُّ دابة من ماء ، قال سبحانه

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ كِتَابَ الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١٦)

يعنى من ملك هذا الملك وحده ، وخلق لكم هذه العصائب أنزل
لكم آيات بينات تحمل إليكم الأحكام ، فكما فعل بكم الجميل ، ووفر
لكم ما يخدمكم فى الكون ، سماته وأرضه ، فأدوا أنتم ما عليكم نحو
منهجه وأحكامه ، واتبعوا هذه الآيات البينات

ومعنى ﴿ مِثْلُ مَثَاءٍ ﴾ (١٦) [البور] أى لاستقامة حركة الحياة ، لأن
حركة الحياة تحتاج لأن يتحرك الجميع ويؤدى كُلُّ مهمته حتى تتساند
الحركات ولا تتعاند ، بالذى يتعب الدنيا أن تنفى وغيرك يهدم

إذن لا بُدَّ من ضابط قيمي يضبط كل الحركات ويحث كل

(١) الهمار صيغة مبالغة والهمرة كثير الهمر والمر والمر واغشايب الناس وعيهم وقيل
« الهمر » فى القنفذ والسر ، و « المر » عيب فى الوجه فى العلانية [القاموس القويم
٢٧/٢]

صانع أن يتقن صنّعه ويخلص فيها ، والإنسان غالباً لا يحسن إلا زاوية واحدة في حياته ، هي حرفته وتخصصه ، وربما لا يحسنها لنفسه ، لأنه لا يتقاضي عليها أجراً ، لذلك يقولون (باب الدجاء مخع) أما إن عم للأخرين فإنه يحسن عمله ويتقن صنّعه ، وكذلك يتقن الناس بك ما في أيديهم ، فتستقيم الأمور ، فأحسن ما في بيت للناس ، يحسن بك الناس ما في أيديهم

وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [النور]

ولنقاتل كن يسأل . وما ذنب من لم يدخل في هذه المشيئة فلم يهتد ؟ وسبق أن قلنا إن الهداية نوعان هداية الدلالة وهداية المعونة على الدلالة

فائدة تعالى يهدي الجميع هداية الدلالة ، ويبين لكل أسباب الخير وسبل النجاح وطريق الفلاح والأسلوب الأمثل في إدارة حركة الحياة . فمن سمع كلام الله ووتق في توجيهه وأطاع في هداية لدلالة أعانه بهداية المعونة

فساعة تسمع ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة]

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة]

فاعلم أنهم امتنعوا عن هداية الدلالة فامتنعت عنهم هداية المعونة لا هداية الدلالة والإرشاد والبيان

وقلنا إن كلمة ﴿ أَنْزَلْنَا .. ﴾ [سرد] تشعر باحترام الشيء المنزل ، لأن الإنزال لا يكون إلا من العلو إلى الأدنى ، فكان ربك عز وجل - حين يكلفك بقول لك أريد أن أرتفع بك من مستوي الأرض إلى علو السماء ، لذلك يقول تعالى في موضع آخر ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. ﴾ [الأنعام]

أى لا تضعوا لأنفسكم القوانين ، ولا تسيروا حلف أرائكم وأفكاركم ، إنما تعاونوا لى الله وخذوا منه سبحانه منهج حياتكم ، فهو الذى خلقكم ، وخلق لكم هذه الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧)

وفى آية أخرى يقول سبحانه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ (٦٦) [النساء]

وهؤلاء هم المنافقون ، وحيثبة المنافق أنه متضارب الملكات النفسية ، ذلك لأن الإنسان ملكات متعددة تتسابق حال الاستقامة ، وتتعاقد حال المعصية ، فالإنسان تراه طبيعياً حين ينظر إلى بنته أو زوجته ، لأن ملكاته منسجمة مع هذا الفعل ، أما حين ينظر إلى محارم لعير فتراه يختلس النظرة بخاف أن يراه أحد يتلصص ويحتاط لأن مكانه مضطربة غير منسجمة مع هذا الفعل

لذلك يقولون الاستقامة استسامة^(١) فملكات النفس بطبيعتها متسامة لا تتعارض أبداً ، لكن العناق مضللاً عن كذبه ، فهو متضارب الملكات في نفسه ، لأن القلب كافر واللسان مؤمن .

لذلك هكرامه الإنسان تكون بيه وبين نفسه قبل أن تكون بينه وبين الناس فقد يصنع الإنسان أمام الناس صنائع خير تُعجب الآخرين ، لكنه يعلم من نفسه الشر ، فهو من كسب ثقة المجتمع من حوله ، إلا أنه خسر رأى نفسه فى نفسه ، وإذا خسر الإنسان نفسه

(١) من تقلد الوسام وأثر الحسن والجمال فالاستقامة طلب الحسن والجمال

قلن يُعَوِّضُهُ عَنْهَا شَيْءٌ حَتَّىٰ إِنْ كَسَبَ الْعَالَمُ كُلُّهُ ، لِأَنَّ الْمَجْتَمَعَ لَا يَكُونُ مَعَكَ طَوْلُ الْوَقْتِ ، أَمَّا نَفْسُكَ فَعَلَاظِمَةٌ لَكَ كُلَّ الْوَقْتِ لَا تَتَفَكَّرُ عَنْهَا ، فَإِنَّ كَبِيرَ أَمَامِ النَّاسِ مَا دُمْتَ مَعَهُمْ ، أَمَّا حَسِينُ اخْتَلَىٰ بِنَفْسِي أَجْدَاهَا حَقِيرَةٌ مَعَلَتْ كَدًا ، وَمَعَلَتْ كَدًا

إِذْ أَنْتَ حَكَمْتَ أَنَّ رَأْيَ النَّاسِ أَنْفَسُ مِنْ رَأْيِكَ ، وَلَوْ كَانَ لِرَأْيِكَ عِنْدَكَ قِيَمَةٌ لِحَاوَلْتَ أَنْ يَكُونَ رَأْيِكَ فِي نَفْسِكَ صَحِيحًا ، لَكِنْ أَنْتَ تَرِيدُ أَنْ يَكُونَ رَأْيُ النَّاسِ فِيكَ صَحِيحًا ، وَإِنْ كَانَ رَأْيُكَ عِنْدَ نَفْسِكَ غَيْرَ ذَلِكَ

وَيَقُولُ بَعَالِي فِي هَؤُلَاءِ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَرُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٦) [البصاء]

فَقَدْ حَكَمَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَرْعُمُونَ ، وَالزَّعْمُ مَطْيَةُ الْكَذِبِ ، وَالِدَلِيلُ عَلَى أَنَّهُمْ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ، وَلَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ لَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ مَا تَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ، وَهَكَذَا قَصَحُوا هَمَّ أَنْفُسِهِمْ مَالِثَانِيَةً فَضَحَّتْ الْأُولَى

لِلْأُخْرَى قَالُوا إِنَّ الْكَافِرَ أَحْسَنَ مِنْهُمْ ، لِأَنَّهُ مُنْجِمُ الْمَلَائِكَةِ قَلْبُهُ مُوَافِقٌ لِلْسَّائِبِ ، قَلْبُهُ كَافِرٌ وَلِسَانُهُ كَذَّابٌ ، وَمَنْ هَذَا كَانَ لِمُتَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ لِاسْفَلِ مِنَ النَّارِ

وَالْحَقُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يُعْطِيَانَا صُورَةً وَنَمُودَجًا يَحْذَرُنَا أَلَّا نَحْكُمَ عَلَى الْقُلُوبِ وَحْدَهُ ، فَيَقُولُ تَعَالَى عَنِ الْمُتَفَقِّهِينَ ﴿إِذَا حُيِّدَ الْمُتَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١) [السامعون]

وهذه المقولة ﴿يُثَبِّتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ..﴾ [المنافقون] مقولة صادقة . لكن القرآن يُكَذِّبُهُمْ فِي أَنَّهُمْ شَهِدُوا بِهَا

وقد نزلت هذه الآية^(١) في أحد المنافقين أظن أنه بشر^(٢)، وكانت له خصومة مع يهودي، فطلب اليهودي أن يتحاكما عند رسول الله ﷺ، وطلب المنافق أن يتحاكما عند كعب بن الأشرف، لكن ردَّ اليهودي حكومة كعب لما يعلمه من تزيفه وعدم أمانته - والإنسان وإن كان في نفسه مُزَيِّفاً إلا أنه يحب أن يحتكم في أمره إلى الأمين العادل - ففعلاً تغلب اليهودي وذهبوا إلى رسول الله ﷺ فحكم لليهودي وفي هذا دلالة على أن اليهودي كان ذكياً فطنا يعرف الحق ويعرف مكانة رسول الله ﷺ

لكن المنافق لم يَرْضَ حُكْمَ رَسُولِ اللَّهِ ، وانتهى بهما الأمر إلى
عمر رضي الله عنه وقصاً عليه ما كان ، ولما علم أن المنافق ردَّ حُكْمَ

(١) يقصد الآيتين التاليتين من سورة المائدة ٤٨ ، ٤٩ .
 (٢) هذه القصة وردت في سبب نزول آية أخرى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَتُوا بِهِ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يُصْحَكُوا إِلَيْكَ فَصَاحَتُكَ أَسْمَاءُ﴾ [النساء] وأوردتها الواحدي في أسباب النزول (ص ٩٢) عن ابن عباس قال : « نزلت - أي آية سورة النساء - في رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودي خصومة ، يقال اليهودي اسطلق بها إلى محمد وقال المنافق بل تلتى كعب بن الأشرف وهو الذي سماه الله تعالى الطاغوت ، فابى اليهودي إلا أن يحاصمه إلى رسول الله ﷺ ، فلما أتى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ ، فاشتدما إليه ، فلقى رسول الله ﷺ اليهودي ، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال تنطلق إلى عمر بن الخطاب فاقبل إلى عمر فقال اليهودي احتسبنا لك وهذا إلى محمد ففضى عليه فلم يرض بقضائه ورغم أنه مضى إليك وتعلق بي فجئت إليك معه فقال عمر للمنافق أكانك قال نعم فقال لهما رويداً حتى أخرج إليكما فدخل عمر وأخذ السيف فاشتد عليه ثم خرج إليهما وضرب به المنافق حتى برد وقال هكنا أتضى لمن لم يرض بقضاء الله والقضاء رسوله ، وهرب اليهودي ودرت هذه الآية وقال جبريل إن عمر فرق بين الحق والباطل فسنى الفارق »
 وقد أوردتها أيضاً في أسباب النزول (ص ١٨٨) وكذا أوردتها القرطبي في تفسيره (٤٨٣١/٦)

رسول الله قام عمر وجاء بالسيف يُشهره في وجه المنافق وهو يقول مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَاءِ رَسُولِ اللَّهِ فذلك قصائي فيه .

إذن . هؤلاء يقولون ﴿أَمَّا بِاللَّهِ وَبِالرُّسُولِ وَأَطَعَا ..﴾ (٤٧) [السور] كلام جميل وأكثر الله من خيركم ، لكن هذا قول مقط لا يسانده تطبيق عملي ، والإيمان يقتضى أن تجيء الأعمال على وفق مصدق الإيمان فهذا منهم مجرد كلام . أما التطبيق ﴿ثُمَّ لَنَزَلُنَّ فِيهِمْ مَتَرًا مِنْ بَرَدٍ فَأَنصَرَفُوا بِالْحُجَّاتِ وَالْعُنُتِ كَالضُلَالِ الْمُنْتَهِيَةِ﴾ (٤٨) [السور] وانقرئ . الانصراف عن شيء كان موجوداً إلى شيء مافض ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٩) [السور] فما داموا قد تولوا فهم لم يطيعوا ولم يؤمنوا

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٥٠)

وَلَا يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعِينَ ﴿٥١﴾

المراد ما كان من أمر بشر واليهودى ، وقد أعرضا عن حكم الله ورسوله ، وإن كان إعراض المناق واصحاً فالآية لا تريد قسرة ساحبة اليهودى ، لانه ما رضى بحكم الله إلا لانه واثق أن الحق له واثق أن رسول الله ﷺ لن يحكم إلا بالحق ، حتى وإن كان يهودى ، وإذن ما أذن لحكم الله ورسوله محبة فيه أو إيماناً به ، إنما لمصلحته الشخصية ، لذلك يقول تعالى بعدها (١)

﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْكَبُوا أَلْمُ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

وَرَسُولُهُ كُلُّ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٥١)

(١) الحيف الخس في الحكم والجور به خاف بحيف جاز وظلم | القاموس القويم

والمرض خروج الشيء عن استقامة سلامته ، فكل عضو من أعضائك له سلامة العين لها سلامة ، والاذن لها سلامة الخ والعجيب أن تعيش بالجراحة لا تدري بها طالما هي سليمة صحيحة ، فإذا أصابها مرض تنهت إليها ، وأحسست بنعمة الله عليك فيها حال سلامتها .

﴿ أَمْ أَرْتَابُوا .. ﴾ [البور] يعنى شكوا فى رسول الله ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ ﴾ [البور] يعنى يجرور ويظلم ﴿ بَلْ أَوَلَيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البور] أى لأنفسهم أولاً ، وذلك منتهى الحق أن يظلم الإنسان نفسه ، لى ظلم غيره لقلنا خير يجلبه لنفسه ، لكن ما الخير فى ظلم الإنسان لنفسه ؟ ومن ظلم نفسه لا تلمه بن ظلم الآخرين .

والحق تبارك وتعالى حينما يعاقب الظالم ، فذلك لمصلحته حتى لا يتمادى فى ظلمه ، ويجر على نفسه حزاء شر بعد أن كان الحق سبحانه يُمْنِيه بجزاء خير

ثم يأتى السياق بالمقابل

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [٥١]

فما دمت قد أمنت ، والإيمان لا يكون إلا عن رغبة واحتيار لا يجبرك أحد عليه ، فعليك أن تحترم احتيار نفسك بأن تطيع هذا الاختيار ، وإلا سفهت رأيك واحتيارك ، لذلك كان حال المؤمنين إذا دعو إلى الله ورسوله أن يقولوا سمعنا وأطعنا

وبو تأملت الكون من حولك لوجدته يسير على هذه القاعدة ، فم دون الإنسان من كون الله مُسِير لا مُخِير ، وإن كان الأصل أنه خير

أولاً ، فاختار أن يكون مُسَيِّراً من البداية ، وأراح نفسه ، كما قال سبحانه

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. ﴾ (٧٢) [الأحراب]

وتصدير الآية الكريمة بـ (إنما) يدل على أنها سبقها مقابل ، هذا المقبل على التقيض لما يجيء بعدها ، فالمنافقون أعرضوا وردوا بحكم الله ورسوله ، والمؤمنون قالوا سمعنا وأطعنا ، كما تقول ملان كسول إنما أخوه مُجِدٌّ . فقول المنافقين أنهم لا يقبلون حكم الله ورسوله ، أما المؤمنون فيقبلون حكم الله ورسوله

ومعنى ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .. ﴾ (٥١) [التود] يعنى سمعت سمعاً واعياً يليه إجابة وطاعة ، لا مجرد أن يصل الصوت إلى أذن السامع دون أن يؤثر فيه شيء .

ويقول تعالى في موضع آخر ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .. ﴾ (٨٣) [المائدة]

فالسمع له وظيفة ، وهو هنا بمعنى : لَجَبْتُ يا رب ، وصممنا على الإجابة ، وهذا وعد كلامي يتبعه تنفيذ وطاعة . مثل قولنا في الصلاة سمع الله لمن حمده . يعنى أجاب الله من حمده

﴿ وَأَوَّلُكُمْ هُمُ الْمُفْلَحُونَ ﴾ (٥١) [الزور] المفلحون الفائزون الذين بلغوا درجة الفلاح ، ومن العجيب أن يستخدم الحق سبحانه كلمة الفلاح ، وهى من فلاحه الأرض ، لأن انفلاحة فى الأرض هى أصل الاقتنيات ، وكل مَنْ اتقن فلاحه أرضه حصدت عليه بالثمره الطيبة ، وزاد خيره ، وتصاعف محصوله ، حتى إن حبة القمح تعطى سبعمئة حبة . فإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعالى تعطى من يزرعها كل

منك إعداد خطاب تلقيه في ربيع ساعة في كم تُعده ؟ قال في
أسبوع ، قالوا : فإن كان في نصف ساعة ؟ قال : أعدّه في ثلاثة
أيام ، قالوا : فإذا كان في ساعة ؟ قال : أعدّه في يومين ، قالوا
فإن كان في ثلاث ساعات ؟ قال : أعدّه الآن

وقالوا : إن سعد باشا رغلول رحمه الله أرسل من قبرسا خطاباً
لصديق في أربع صفحات قال فيه : أما بعد ، فإني أعتذر إليك عن
الإلتئاب (الإطالة) ، لأنه لا وقت عندي للإيجاز

وبعد أن تحدّث القرآن عن قول المنافقين وعن ما يقابله من قول
المؤمنين وما ترتب عليه من حكم ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰئِرُونَ ﴾ [البورج] ذلك لأن ذكر المقابل يُظهر المقابل ، كما قالوا والضد يظهر حسنة
الضد . بعدها عاد إلى الحديث عن اللغاق والمنافقين ، فقال سبحانه

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَإِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ
لَأَنْقَسِمُنَّ وَأُنْصِرَ مَعَكُمْ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [٥٣]

القسم هو اليمين والحلف ، والإنسان يُقسم ليؤكد المقسم عليه
يريد أن يطمئن المحاطب على أن المقسم عليه حق ، وهؤلاء لم يقسموا
بالله سراً في أنفسهم ، إنما ﴿ جَهِدَ أَيْمَانَهُمْ .. ﴾ [٥٣] يعني
بأنقروا وآثروا بمنتهاى الجهد في القسم ، فلم يقل أحدهم : وحياة أمي أو
أبي ، إنما أقسموا بالله ، وليس هناك قسم أبْلغ من هذا القسم ، لذلك
يقول النبي ﷺ « مَنْ كَانَ حَالِقًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ ، أَوْ بِصِمْتٍ »^(١)

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٢٦٧٩ ، ٢٨٢٦ ، ٦١٠٨) وكذا مسلم
في صحيحه (١٦٠٦) كتاب الأيمان من حديث عبد الله بن مسعود : ومي بلفظ مسلم أن
ابن مسعود أدرك عمر بن الخطاب في ركب وعمر يحلف بأبيه فدأدهم رسول الله ﷺ : ألا
إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالقاً فليحلف بالله أو بصمته .

فلما أقسموا بالله للرسول أن يخرجوا من بيوتهم وأرلادهم
وأموالهم إلى الجهاد مع رسول الله فضح الله سرائرهم ،
وكشف سترهم ، وأبان عن ريب نواياهم ، كما قال في آية
أخرى ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي
تَقُولُ ..﴾ (٨١)

[النساء]

وتأمل دقّة الاداء القرآني في ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ..﴾ (٨١)
[النساء] وهذا احتياط ، لأنّ منهم أناساً يراود الإيمان قلوبهم ويفكرون
في أن يخلصوا إيمانهم ونواياهم لله تعالى ، ويعودوا إلى الإسلام
للصحيح

والقرآن يوضح أمر هؤلاء الذين يُقسمون عن غير صديق في القسم ،
كمن تعود كثرة الحلف والحنث فيه ، لذلك ينهاهم عن هذا الحلف ﴿قُلْ
لَا تَقْسَمُوا ..﴾ (٥٢) [النور] ولا يمكن أن ينهى المستكلم للمصاحب عن
القسم خصوصاً إذا أقسم على خير ، لكن هؤلاء حذثون في قسمهم ،
فهو كعدمه مهم يُقسمون باللسان ، ويحالفون بالوجدان

وقوله تعالى ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ..﴾ (٥٣) [النور] يُشعر بتوبيخهم ، كأنه
يقول لهم طاعتكم معروفة لدينا ولها سوابق واضحة ، فهي طاعة
باللسان فحسب ، ثم يؤكد هذا المعنى فيقول ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ
(٥٣)﴾ [النور] والذي يؤكد هذه الخبرة أنه يفضح قلوبهم ويفضح نواياهم

والعجيب أنهم لا يعتبرون بالأحداث السابقة ، ولا يتعطون بها ،
وقد سبق لهم أنه كان يجلس أحدهم يُحدث نفسه الحديث فيفضح الله
ما في نفسه ويخبر به رسول الله ، فيبلغهم بما يدور في نفوسهم ،
كما جاء في قول الله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا
تَقُولُ ..﴾ (٨)

[العنكبوت]

ومع ذلك لم يعتبروا ولم يعترفوا لرسول الله بأنه مُؤَيَّد من الله ،
وأنه تعالى لن يتخلّى عن رسوله ، ولن يدعه لهم يحاسنوه
ويغشّونه ، وهذه سوابق تكررت منهم مرات عدّة ، ومع ذلك لم ينتهوا
صا هم فيه من النفاق ، ولم يُخلصوا الإيمان لله

وبعد هذا كله يوصي الحق تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يُبقى
عليهم ، والأمر يرمى (طويتهم) لمن وعسى ، فيقول عز وجل

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ
وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ
إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ٥٤ ﴾

وكانه تعالى لا يريد أن يُغلق الباب دونهم ، فيعطيههم الفرصة
جَدُّدوا طاعة الله ، وجَدُّدوا طاعة لرسوله ، واستدركوا الأمر ، ذلك
لأنهم عباده وخلقه .

وكما ورد في الحديث الشريف « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم
وقع على بعيره وقد أضسه في فلاة .. »^(١)

ونلاحظ في هذه الآية تكرار الأمر اطيعوا ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
الرُّسُولَ .. ﴾ [النور] وفي آيات أخرى يأتي الأمر مرة واحدة كما
في الآية السابقة ﴿ وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴾ [النور] . وفي
﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴾ [الأنفال] وفي ﴿ مَنْ يَطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ
اللَّهَ .. ﴾ [البقرة] أي أن طاعتها واحدة

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٦٢٠٨ ، ٦٢٠٩) وكذا مسلم في
صحيحه (٢٧٤٤) من حديث عبد الله بن مسعود ر.الافلاة الصحراء الراسدة التي تليها
عن الردع والإمبات

قالوا لأن القرآن ليس كتاباً أحكام فحسب كالكتب السابقة ، إنما هو كتاب عجز ، والأصل فيه أنه مُعْجَز ، ومع ذلك أدخل فيه بعض الأصور والأحكام . وترك البعض الآخر لبيان الرسول وتوضيحه في الحديث الشريف ، وجعل له ﷺ حقاً في التشريع بضم القرآن ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (٧) [المشر]

واقتران حين يُورد الأحكام يوردها إجمالاً ثم يُفصلها رسول الله ﷺ ، فالصلاة مثلاً أمر بها الحق تبارك وتعالى ومرضها ، لكن تفصيلها جاء في السنة النبوية المصهرة ، فإن أردت التفصيل فانظر في السنة

كالذي يقول إذا غاب الموظف عن عمله خمسة عشر يوماً يفصل . مع أن الدستور لم ينص على هذا ، نقول لكن في الدستور مادة خاصة بالموظفين تنظم مثل هذه الأمور ، وتضع لهم اللوائح المنظمة للعمل

وذكرنا أن الشيخ محمد عبده سأل بعض المستشرقين . تقولون في القرآن ﴿مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٣٨) [الانعام] فهناك لي من القرآن . كم دغيفاً في إردب القمع ؟ بما كان من الشيخ إلا أن أرسل لأحد الخبازين وسأله هذا السؤال فأجابه . في الإردب كذا دغيف . فاعترض السائل أريد من القرآن .

مرّد الشيخ هذا من القرآن ؛ لأنه يقول ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) [البقر]

فالامر الذي يصدر فيه حكم من الله وحكم من رسول الله ، كالصلاة مثلاً ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (١١٣) [النساء]

وفى الحديث « الصلاة عماد الدين »^(١)

ففى مثل هذه المسألة نقول أطيعوا الله والرسول ، لأنهما متواردان على أمر واحد ، فحاء الأمر بالطاعة واحداً .

أما فى مسائل عدد الركعات وما يُقال فى كل ركعة وكونها سرّاً أو جهرّاً ، كلها مسائل بيننا رسول الله إذن فهناك ساعة لله فى إحمال التشريع أن الصلاة مفروضة وهناك طاعة خاصة بالرسول فى تفصيل هذا التشريع ، لذلك يأتى الأمر مرتين ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٥٤)﴾ [المود]

كما نلاحظ فى القرآن ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٥٦)﴾ [المود] هكذا فحسب قالوا هذه فى المسائل التى لم يرد فيها تشريع ونص . فالرسول فى هذه الحالة هو المشرع ، وهذه من مصيغات النبى ﷺ عن جميع الرسل ، فقد جاءوا جميعاً لاستقبال التشريع وتبييغه للناس . وكان ﷺ هو الوحيد الذى فُوض من الله فى التشريع .

ثم يقول تعالى ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ .. (٥٤)﴾ [المود] لأنه تعالى أعظم مَحْرُصِ النِّسَى على هدىة القوم ، وكيف أنه يجهد نفسه فى دعوتهم . كما خاطبه فى موضع آخر ﴿لَعَلَّكَ بَاحِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء] وكان الحق - تبارك وتعالى - يقول لنبيه قُلْ لَهُمْ وَأَدْعُهُمْ مَرَّةً ثَانِيَةً لِّتُرِيْعَ نَفْسَكَ ﴿قُلْ

(١) تمام الحديث « من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين » قال الحافظ العراقي فى تجميعه لأحاديث الأحياء (١١٧/١) « رواه البيهقى فى الشعب بسند صحيح من حديث عمر ، وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » ، (حديث ٥٧٨) . قال ابن الصلاح فى « مشكل للسيوطى » : « إنه غير معروف » وذكره السيوطى فى الدرر المنثورة (ج ٢٧٩)

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾ [النور] وَإِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَكْلُفٍ
بِالتكرار ، فما عليك إلا البلاغ مرة واحدة

ومعنى ﴿لَا تَأْخُذْ بِهِ مَا خَلَّ عَلَى فُؤَادِكُمْ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِلْتُمْ﴾ . ﴿٥٤﴾ [النور]
أى من الله تعالى ، فالرسول حُمِّلَ الدعوة والبلاغ ، وأنتم حُمِلْتُمْ
الطاعة والاداء ، فعليكم أَنْ تَزِدُّوا مَا كَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِهِ

﴿وَإِنْ تُطِيعُوا تَهْتَدُوا﴾ .. ﴿٥٤﴾ [النور] تلحظ أَنَّ المفعول فى ﴿وَإِنْ﴾
تَطِيعُوا . ﴿٥٤﴾ [النور] مفرد . فلم يقل تطيعوهما ، لتتناسب صدر
الآية ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ .. ﴿٥٤﴾ [النور] ذلك لان الطاعة هنا
غير منقسمة . بل هى طاعة واحدة

وقوله ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ﴾ .. ﴿٥٤﴾ [النور] تكليفاً من الله ﴿لَا
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٥٤﴾ [النور] المحيط بكل تفصيلات المنهج التشريعى
لسطيم حركة الحياة

ثم بقول الحق سبحانه

(١) سبب نزول الآية مكث رسول الله ﷺ بمكة عشرة سنين بعدما أوحى الله إليه حاقاً هو
وأصحابه ينهرون إلى الله سبحانه سرّاً وعلاوية ، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا بها
حائشين ، يصبحون فى السلاح ويمسون فى السلاح فقال رجل من أصحابه يا رسول
الله ما باقى علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح ، فقال رسول الله ﷺ من تألمثوا إلا
يسيراً حتى يجلس الرجل منكم فى العلاء العظيم محتجباً ليست فيهم حديدته ، وأمر الله
تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (٥٥) [النور] إلى آخر الآية ماظهر
الله تعالى بيبه على جزيرة العرب ، فرصعوا السلاح وأمروا ثم قدس الله تعالى به
فكانوا آمنين كذلك فى إمارة نبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم حتى وقعوا فيما
وقعوا فيه وكفروا بالحق فأنهض الله عليهم الخوف وعيروهم ففجأ الله بهم رواء الربيع
بين لئس عن أبي العالية أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٨٨) ، وابن كثير فى
تفسيره (٢ / ١٢) ، والقرطبي فى تفسيره (١ / ٨٣٥)

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥١﴾

في أول الحديث عن سورة النور قلنا إنها سُمِّيَتْ بالنور ، لأنها تبين للناس الدور الحسِّي في الكون ، وتقبس عليه الدور المعنوي في القيم . وما دُمنا نطفئ أنوارنا الحسية حين يظهر نور الله في الشمس ، يجب كذلك أن نطفئ أنوارنا المعنوية حين يأتي شرع من الله

فليس لأحد رأي مع شرع الله . ذلك لأن الخالق - عز وجل - يريد لحليفته في الأرض أن يكون في نور حسِّي ومعنوي ثم ضمن به مقومات بقاء حياته بالطعام والشراب شريطة أن يكون من حلال حتى تبني خلاياه وتتكون من الحلال فيسلم له جهاز الاستقبال عن الله وجهاز الإرسال إن أراد الدعاء

وفي الحديث الشريف : أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبض إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِن لِّطَائِمَاتِ وَعَمَلُوا صَالِحًا إِنَّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون] وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن لِّطَائِمَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. ﴾ [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أعبر بعد يديه إلى السماء يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذَى

بالحرام فأنى يُستجاب لذلك ؟^(١)

فهذه أجهزة مُعطلة خربة أشبه ما تكون بالراديو انذى لا يحسن استقبال ما تذييه محطات الإذاعة ، فالإرسال قائم يستقبله غيره . أما هو فحهاز استقباله غير سليم .

فإذا ضمنت سلامة تكوينك بالقمة الحلال صمى الله لك إجابة الدعاء ، وفى الحديث يقول النبى ﷺ لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : « أطلب مَطْلَعَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ »^(٢)

ثم ضمن الله للإنسان مَقُومَات بقده نوعه بالزواج لاستمرار الذرية لتستمر الخلافة فى الأرض طاهرة نظيفة ، ثم تحدثت السورة مُحذِّرة بياكم أَنْ تَجْتَرِثُوا عَلَى أَعْرَاضِ النَّاسِ ، أَوْ تَرْمُوا الْمُحَصَّنَاتِ ، أَوْ تَدْخُلُوا الْبُيُوتَ دُونَ اسْتِئْذَانٍ ، حتى لا تَطْلَعُوا عَلَى عَوْرَاتِ النَّاسِ .. إلخ

فالحق - سبحانه وتعالى - يريد سلامة المجتمع وسلامة الخلافة فى لارض ، وكل هذه الأحكام والمعانى نصب فى هذه الآية

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ .. (٥٥)﴾ [النور] فمن فعل ذلك كان أهلاً للخلافة عن الله ، إنها معركة ابتلاءات وتمحيص ثَبِينُ الْفِتْنِ^(٣) من السَّيِّئِينَ ، أَلَا تَرَى الْمُسْلِمِينَ

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٥) ككتاب الزكاة ، وأحمد فى مسنده (٣٢٨/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه

(٢) أورده البيهقى فى صحيح الزيادة (٢٩١/١) من حديث ابن عباس قال : ثبت عند رسول الله ﷺ ﴿يَسْأَلُهَا النَّاسُ كَلَّوْا بِهَا فِي الْأَرْضِ حِلَالًا حَبِيبًا.. (١١٢)﴾ [البقرة] فقال سعد يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال ﷺ : يا سعد ، أطلب مَطْلَعَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ ، والذي نفس محمد بيده ، إن العبد يهدف القمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه العمل أربعين يوماً ، وأبما عهد نيت لحمه من سحت فاقنار أولى به ، قال البيهقى : « رواه الطبرانى فى الصغير وقيه من ثم أمرتهم »

(٣) الفت الرديء من كل شيء ولحم فتن مهزول [لسان العرب - مادة فتن] [

الأوائل كيف كانوا يُعَذَّبُونَ وَيُضْطَهَدُونَ ، ولا يجروا أحد على حمايتهم حتى اضطروا للهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وقد قال تعالى ﴿ أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت]

وهؤلاء الصحابة هم الذين حملوا للدنيا مشاعص الهداية ، وساحوا بدعوة الله في أنحاء الأرض ، فلا بُدَّ أَنْ يُرَبِّوا هذه التربية القاسية ، وأن يُمتَحِنُوا كل هذا الامتحان ، وهم يعلمون جيداً ثمن هذه لتضحية وينتظرون ثوابها من الله ، فأهل الحق يدفعون الثمن أولاً ، أما أهل المبادئ الباطلة فيقبضون الثمن أولاً قبل أن ينحركوا في أنحاء مبادئهم وهذا الابتلاء الذي عاشه المسلمون الأوائل هو من تقوية الخليفة ليكون أهلاً لها

لذلك قال سبحانه ﴿ وَعَدَ اللَّهُ .. ﴾ [٥٥] ﴿ [التور والوعد بشارة بحير لم يأت زمنه بعد ، حتى يستعد الناس بالوسيلة له ، وضده الوعيد أو الإنذار بشر لم يأت زمنه بعد لتكون هناك فرصة للاحتياط وتلافى الوقوع في أسبابه

وما دام الوعد من الله تعالى فهو صدق ، كما قال سبحانه ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء] وقال سبحانه ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ [١٦١]

والذي يفسد على الناس وعودهم ، ويجرُّ عليهم عدم الوفاء أن الإنسان مُتَغَيِّرٌ بطبعه مُتَغَلِّبٌ ، فقد يَعدُّ إنساناً بخير ثم يتغير قلبه عليه فلا يفي له بما وعد ، وقد يَأْنِي زمن الوفاء فلا يقدر عليه ، أمَّا الحق - تبارك وتعالى - فلا يتغير أبداً وهو سبحانه قادر على الوفاء بما وعد به ، فليست هناك قوة أخرى تمنعه ، فهو سبحانه واحد لا إله غيره ، بذلك قوَّعه تعالى ناجر

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (٥٥) ﴿[النور] قلنا
إن الإيمان الذي يقوم على صفاء اليبسوع واعتقيدة ليس مطلوباً لذاته ،
إمّا لا بُدَّ أن تكون له ثمرة ، وأن يُرى أثره طاعة وتنفيذاً لأوامر الله ،
فطالما آمنت بأفقه فسُفِّد ما يأمرك به ، وهناك من الناس من يفعل
الخير ، لكن ليس من منطلق إيماني مثل المنافقين الذين قال الله
فيهم ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ (١٤) ﴿[الحجرات] فردَّ الله عليهم ﴿قُلْ لَمْ
تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسَلَمْنَا﴾ (١٤) ﴿[الحجرات] يعني خضعنا للأوامر ،
لكن عن غير إيمان ، إنَّه فقيمة الإيمان أن تُنفَّذ مطلوبه

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى ﴿وَالْمَصْرُ﴾ (١) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ
خَسِرٌ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا
بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [المصر]

فماذا وعد الله الذين آمنوا ؟ ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (٥٥) ﴿[النور]
وهذه ليست جديدة ، فقد سبقهم أسلافهم الأوائل ﴿كَمَا
اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (٥٥) ﴿[النور] ، فاستخلاف الذين آمنوا ليس
بدعاً إنما هو أمر مُشاهد في مواكب الرسل والنبوة ومُشاهد في
المسلمين الأوائل من الصحابة الذين أُذِّبُوا وَعُذِّبُوا واضطهدوا
وأُخْرِجُوا من ديارهم وأولادهم وأموالهم ولم يُؤْمَرُوا بِرَدِّ أَعْدَائِهِمْ

حتى إن رسول الله ﷺ حينما قدم المدينة في جَمْعٍ من صحابته
استقبله الأنصار بالحفوة ، واحتضنوا هؤلاء المهاجرين ، ومطروا
معهم نموذجاً من الإيثار ليس له مثيل في تاريخ البشرية وهل هناك
يثار أعظم من أن يعرض الانتصاري زوجاته على المهاجر يقول
اختر إحداهما أطلقها لك ، إلى هذه الدرجة فعل الإيمان يتفوس
الانتصار

ولما رأى كفار قريش ما صنعه الأنصار مع المهاجرين توقدروا ذراً كيف يعيش المهاجرون في المدينة هذه العيشة الهبة وتكتلوا جميعاً ضد هذا الدين ليضربوه عن قوس واحدة ، وتآمروا على القدوة ليقضوا على هذا الدين الوليد الذي يشكل أعظم الحصر عليهم .

حتى إن الأمر قد بلغ بالمهاجرين والأنصار أنهم لا يبيتون إلا بالسلاح ، ولا يصحبون إلا بالسلاح مخافة أن ينقض عليهم أعداؤهم ، حتى إن أحد الصحابة يقول لإخوته أترون أنا نعيش حتى نأمن وتطمئن ولا نبيت في السلاح ونصبح فيه ، ولا نحشى إلا الله ؟ يعني . أمناك أمل في هذه الغاية ؟

وأخر يذهب إلى رسول الله ﷺ يقول يا رسول الله أريد الدهر نحن خائفون ؟ ألا يأتينا يوم نضع فيه السلاح ونبيت آمين ؟

فيقول النبي ﷺ بلسان الواثق من وعد ربه ، وليس كلاماً قد يكذب فيما بعد « لا نصبرون إلا يسيراً . حتى يجلس الرجل منكم في الملا العظيم مُحْتَبِياً ليست فيه حديدة »^(١) يعني في الملا الواسع ، والاحتباء جلسة المستريح الهنيء ، والحديدة كناية عن السلاح

وقد قال ﷺ « إن الله زوى لى الأرض ، فرايت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك امتى ما زوى لى منها »^(٢)

ومعنى « إن الله زوى لى الأرض ، معلوم أن للإنسان مجال رؤية يلتقى فيه إلى نهاية الامق ، أما الأرض نائها فواسعة ، فزويت الأرض لرسول الله يعني جمعت في زاوية ، فصار ينظر إليها كلها

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (٢٠١/٢) سبباً في مدول الآية مروياً عن ابن العنابة
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٦٨٨٩) كتاب الفتن ، وأحمد في مسنده (٢٧٨ ، ٢٨٤)
من حديث ثريان رضي الله عنهما

إذن فهم في هذه المرحلة يشتهون الأمن وهدوء البال ، وقد قال تعالى عنهم في هذه الفترة . ﴿ وَرَزَّلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ ... ﴾ (٢١٤) [البقرة]

وفي غمرة هذه الشدة وقمة هذا الضيق ينزل تعالى على رسوله ﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (٤٤) [النجم] حتى إن الصحابة ليتعجبون ، يقول عمر رضي الله عنه أي جمع هذا ؟ وقد نزلت الآية وهم في مكة في أشد الخوف لا يستطيعون حماية أنفسهم .

لكن بعد بدر وبعد أن رأى ما نزل بالكفار قال صدق الله ﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (٤٥) [النجم]

ثم ينزل الله تعالى على رسوله ﷺ بعض الآيات التي تُطمئن المؤمنين وتُصبرهم ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ... ﴾ (٤٦) [الرعد]

فاطمثوا ، فكل يوم نقص من أرض الكفر ، ونزيد في أرض الإيمان ، فالمقدّمات في صالحكم ، ثم يأتى فتح مكة ويدخلها النبي ﷺ في موكب مهيب مُطاطئاً رأسه ، تواضعاً لمن أدخله ، مُظهراً ذلة العبودية لله .

حتى إن أبا سفيان لما رأى رسول الله ﷺ في هذا الموكب يقول للعباس لقد أصبح مُلك ابن أخيك عظيماً ، فيقول العباس إنها النبوة يا أبا سفيان^١ ، يعنى المسئلة ليست مُلكاً إنما هي بشائر

١ أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٤٠١/٤) أن جيوش المسلمين غرقت على أبي سفيان في فتح مكة وهو مع العباس عم رسول الله ﷺ فقال ما لأحد بؤلاء قبيل ولا طاعة ، والله ما أنا الفضل ، لقد أصبح مُلك ابن أخيك العداة عظيماً ، قال قلت يا أبا سفيان ، إنها النبوة قال نعم إنى

النصر لدين الله وظهوره على معقل الأصنام والأوثان في مكة

ثم يذهب إلى خيبر معقل أهل الكتاب من بني قَيْثَقَاع وبني
النضير وبني قريظة وينتصر عليهم ثم تسقط في يده البحرين
ومجوس هَجَر ، ويدفعون الحزبة

بعد ذلك يرسل ﷺ كُتُبِهِ إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى
الإسلام ، فيرسل إلى النجاشي ملك الحبشة ، وإلى أمقوقس ، وإلى
هرقل ، وإلى كسرى ، وتأتي الهدايا من كُلِّ هؤلاء .

ويستمر المد الإسلامي والوفاء بوعد الله تعالى لحليفة رسول الله .
وإن كان المد الإسلامي قد شمل الجزيرة العربية على عهد رسول الله ،
فإنه تعداها إلى شتى أنحاء العالم في عهد الخلفاء الراشدين ، حتى ساد
الإسلامُ العالم كله ، وأظهره الله على أكبر حضارتين في ذلك الوقت
حصارة فارس في لشرق ، وحصارة الروم في الغرب في وقت واحد ،
ويتحقق وعد الله لذين آمنوا بأن يستخلفهم في الأرض

وبعد وفاة رسول الله ﷺ تتحقق النبوءات التي أخبر بها ، ومنها
ما كان من أمر سراقه بن مالك الذي خرج خلف رسول الله في رحلة
الهجرة يريد طلبه والفوز بجائزة قريش وبعد أن ثاب سُرَاقَة وعاد
إلى الجادة كال الصحناء يحبون لدقة ساعديه ويصفونهما بما يدعو
إلى الصحك فكان ﷺ يقول عن ساعدي سراقه : « كيف بهما في
سوارى كسرى »^(١)

(١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٢٢٥/٦) أن عمر بن الخطاب أتى بهزوة كسرى فوضعت بين
يديه ومى القوم سراقه بن مالك قال فقلت إني سوارى كسرى بن هرمز فجعلتهما في يديه
فبذل منكنيه عليهما في يدي سراقه قال الحمد لله سوارا كسرى بن هرمز في يد سراقه
ابن مالك بن جُعْشَم أعرابي من بني مدلج وذكر الحديث قال الشافعي رحمه الله رأيت
البسهما سراقه لأ النبي ﷺ قال لسراقه وبطل إلى دراعيه . كأنني بك قد لبست سوارى
كسرى .

ويفتح المسلمون بعد ذلك مُلْك كسرى ، ويكون سِيراً كسرى من نصيب سُرّاقة ، فيلبسهما ، ويأمرهما الناس في يديه

هذه كلها بشائر ومقدمات لوعده الله بمراف المؤمنين في أنفسهم ، لا فيمن يأتي بعد ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ (٥٥) [النور] يعني المسألة من تطول .

كذلك أم حرام بنت ملحان^(١) التي خرجت في غزوة ذات الصواري وركبت البحر ذكرت أن رسول الله ﷺ كان يذم هناك ثم يصحو وهو يضحك ، فقالت له ما يضحك يا رسول الله ؟ قال : « أدس من أمتي يركبون زبد هذا البحر ، ملوك على الأسرّة أو كالمملوك على الأسرّة » فقال ادع الله أن أكون منهم مدعاً لهم فاستجاب الله دعاءه ، وخرجت في الغزوة ، ولما ركبا البحر الأبيض أرادت أن تخرج فصاحت^(٢)

إذن فالبشارة في هذه الآية ليست بشارة عظيمة إنما هي بشاره واقعة لها واقع يؤيدها ، قد حدث فعلاً

لكن ما المراد بالأرض في ﴿ لَنَسْفَعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٥٥) [النور] ؟ إذا جاءت الأرض هكذا مُقَرَّدَةٌ غير مضافة لشيء فتعني كل الأرض ، كما في قوله تعالى ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَيْنِ إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا

(١) أم م سليم ، أسلمت وبعث رسول الله ﷺ ، وكان يقيل من بيتها وتزوجها حيدة بن الصامت قال مشام بن الغار قهرام حرام قبرس ، وهم يقولون هذا قبر المرأة الصالحة ، لمؤتمات الملاحان لتقى النبي المصطفى توفي ٨٢٩ هـ - ص ٥٢ - ٥٤ - دار البشير بحقيق عاص أبو المعاطر .

(٢) أخرجه أبو يعقوب في حلية الأبياء (٦١/٢) بهذا اللفظ ، وأخرجه الصغرى في صحيحه (١٢٦ - فتح الباري) أبو يعقوب في الحلية (٦٢/٢) باللفظ . أبو جيثم من أمتي يحررون البحر قد أوجيوا ، قال م حرام أنا منهم ؟ قال : أنت منهم ،

الأَرْضِ .. ﴿١٣﴾ [الإسراء] يعنى . تَقَطَّعُوا عَنِ كُلِّ اِمْرَأَتِهَا ، ﴿قَدْ جَاءَ وَعْدُ الْاِمرَةِ .. ﴿١٤﴾ [الإسراء] الذى وعد الله به ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَئِيْمًا ﴿١﴾﴾ [الإسراء] يعنى جمعناكم من الاراضى كلها ، وهذا هو الامل القوى الذى نعيش عليه ، ومنتظر من الله ان يتحقق .

ثم يقول تعالى ﴿وَلْيُمْكِّنْ لَهُمْ دِيْنَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ .. ﴿٥٥﴾﴾ [النور] معوق الاستخلاف فى الارض يُمْكِّنُ الله لهم الدين ، ومعنى تمكين الدين سيطرته على حركة الحياة ، فلا يصدر من امور الحياة امر إلا فى صوته وعلى هديه ، لا يكون ديننا مُعْطَلًا كما نُعْطَلُهُ نحن اليوم . تمكين الدين يعنى توظيفه وقيامه بدوره فى حركة الحياة تنظيمًا وصيانة

وقوله سبحانه ﴿وَلْيُبَدِّلْهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ اَمْنًا ﴿٥٥﴾﴾ [النور] وهم الدين قالوا نبيت فى السلاح ، ونصبح فى السلاح ، فيبدلهم الله بعد هذا الخوف أمنًا ، فإذا ما حدث ذلك فعليهم ان يحافظوا على الخلافة هذه ، وأن يقوموا بحفظها ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور]

ومعنى ﴿كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ .. ﴿٥٥﴾﴾ [النور] يعنى بعد ان استحلطه الله ، ومكَّن له الدين وأمنه وأزال عنه أسباب الخوف

وفرق بين تمكين الإسلام وتمكين من يُنسب إلى الإسلام ، فالبعض يدعى الإسلام ، ويركب مرجته حتى يحكم ويستتب له الأمر وتنتهى المسألة ، لا لأن التمكين ليس لك أبداً الحاكم ، إنما التمكين لدين الله .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴾

دائماً ما يقرن القرآن بين هذين الركنين ، وتأتي الركاة بعد الصلاة ذلك لأن الصلاة هي الركن الوحيد الذي فُرض من الله مباشرة ، أما بقية الأركان فقد فُرضت بالوحي ، وضرباً لذلك مثلاً ، والله تعالى المثل الأعلى بالرئيس الذي يكلف مرؤوسيه بتأشيرة أو بالتليفون ، فإن كان الأمر مهماً استدعى الموظف المختص إلى مكتبه وكلفه بهذا الأمر مباشرة لأهميته .

فكذلك الحق - تبارك وتعالى - أمر بكل التكاليف الشرعية بالوحي ، إلا الصلاة فقد فرصها على رسول الله بعد أن استدعاه إلى رحلة المعراج فكلفه بها مشافهة دون واسطة ، ولما يعلمه الله تعالى من محبة النبي ﷺ لامته قال له : أما فرضت عليك الصلاة بالقرب ، وكذلك أحاطها للمصلي في الأرض بالقرب ، فإن دخل المسجد وحده

وإن كانت أركان الإسلام خمسة ، فإن الشهادة والصلاة هما الركنان الدائمان للدين لا ينحلان عن المؤمن بحال من الأحوال ، فقد لا تتوفر لك شروط الصوم أو الزكاة أو الحج فلا تجب عليك ، كما أن الصلاة هي الفريضة لمكررة على مدار ليوم واللييلة خمس مرات ، وبها يتم إعلان الولاء لله دعماً ، وقد رزّعها الحق سبحانه على الزمن ليظل المؤمن على صلة دائمة بربه كلما شغلته الدنيا وجد (الله أكبر) تناريه .

وانظر إلى عظمة الخالق - عز وجل - حين يطلب من صعبه أن

تقابلهُ وتُعرض عليه كل يوم خمس مرات ، وهو سبحانه الذى يطلب هذا اللقاء ويفرضه عليك لمصلحتك أنت ، ولك أن تدحور صبعة تُعرض على صانعها كل يوم خمس مرات أيصيبها غُطْب ؟

وربك هو الذى يباديك ويدعرك للقاءه ويقول : « لا أَمْرَ حَتَّى تَعْلُو » ^(١) ومن رحمته بك ومحبتك لك ترك لك حرية اختيار الرمان والمكان ، وترك لك حرية إنهاء العبادة متى تشاء ، فإن أردت أن تنالَ فى بيته وفى معيته فاعلى الرُحْب والسَّعة

ولاهمية الصلاة ومكانتها فى الإسلام اجتمع فيها كس أركان الإسلام ، وفى الصلاة تتكرر الشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وفى الصلاة ركاة ، لأن الركاة فرع العمل ، والعمل فرع الوقت ، والصلاة تأخذ الوقت نفسه ، وهى صيام حيث تمتنع فى الصلاة عما تمتنع عنه فى الصوم بل وأكثر ، وفيها حج لأنك تتجه فى صلاتك إلى الكعبة

إنَّ فالصلاة نائمة عن جميع الأركان فى الاستيقاء ، ذلك كانت هى عمود الدين ، والذى لا يسقط عن المؤمن حال من الأحوال حتى إن لم يستطع الصلاة قائماً صلى جالساً أو مضطجعا ، ولو أن يشير بأصبعه أو بطرفه أو حتى يخطرها على ماله ، ذلك لاستدامة الولاء بالعبودية لله المعبود.

والصلاة تحفظ القيم ، وتُسَوِّى بين الناس فيقف الغنى والفقير والرئيس والمرؤوس فى صفٍّ واحد ، الكل يحلس حسب قدمه ،

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول : « خذوا من العمل ما تطيقون » فمن الله لا يمل حتى تملوا ، أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٨٢) كتاب صلاة المسافرين

وهذا يُحدث استطرافاً عودياً في المجتمع ، ففي الصلاة مجال يستوى فيه الجميع .

وإن كانت الصلاة قوامَ القيم ، فالركاة قوام الماده لمن ليست له قدرة على الكسب والعمل إذن ، لدينا قوتان للحياة ، ولاستدامة الخلافة على الأرض قوام القيم في الصلاة ، وقوام الماده في الزكاة ثم يقول سبحانه ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور] وهنا في الصلاة والزكاة حصن الرسول بالإطاعة ، لأنه صاحب البيار والتفصيل لما أجمله الحق سبحانه في قرصية الصلاة والركاة ، حيث تفصيل كل منهما في السنة المطهرة ، فقال ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴾ [٥٦]

[النور]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ
وَمَا أُولَئِكَ إِلَّا فِي النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [٥٧]

يعود السياق لحديث عن الكافرين ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ [٥٧] [النور] يعنى لا تظنن ، والشيء المعجز هو الذى يثبت العجز للمقابل ، نقول عملياً شيئاً مُعْجِزاً لعلان يعنى لا يستطيع لإتيان مثله

هناك أن تظن أن الكافرين مهما عانت مراتبهم ومهما استشعروا طغيانهم يفلتوا من عقاب الله فلن يشيتوا به سبحانه العجز عنهم أبداً ، ولن يُعجزوه ، إنما يُعلى لهم سبحانه ومهملهم حتى إذا خدعهم أخذهم أحد عزيز مقتدر ، وهو سبحانه مُبركهم لا محالة

وجاء على لسان الحن ﴿وَأَنَا ظَنَّا أَنْ لَنْ نَجْعَزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نَجْعَزَهُ هَرَبًا﴾ (١٦) ﴿[الحن]

ونلاحظ في قوله تعالى ﴿وَمَا أَوَاهُمُ النَّارُ ..﴾ (٥٧) ﴿[النور] انها عطف هذه الجملة على سابقتها ، وهي منفية ﴿لَا تَحْسِبَنَّ﴾ (٥٧) ﴿[النور] فهو يعنى هذا ان معناه ولا تحسبن ماواههم النار ؟ قالوا . لا ، إنما المعنى ولا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض لان ماواههم النار

﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٥٧) ﴿[النور] أى المرجع والمآب

ثم ينتقل السياق إلى سلوك يمس المجتمع من داخله والأسرة في أدق خصوصياتها . بعد أن ذكر في أول السورة الأحكام الخاصة بالمجتمع الخارجى ، فيقول سبحانه

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْرَأُوا فِي الْمَسَاجِدِ وَالْذِّكْرِ وَالَّذِينَ تَرَبَّعُوا خَلْفَ الْمَنَافِقِ
ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ
وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْدَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوَافُوتٌ عَلَيْكُمْ بِمَعْصِيَتِكُمْ عَلَى
بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٨) ﴿

نُعلمنا هذه الآية آداب الاستئذان داخل الأسرة المكوّنة من لأبوين والأبناء ، ثم الاتساع مثل الخدم وغيرهم ، والحق تبارك وتعالى

(١) حلم الصبي يحتم حكماً بلع مبلغ الرجال [القاموس القويم ١/ ١٦٩]

يريد أن يُنشئ هذه الأسرة على أقصر ما يكون ، ويحصن بالبناء هنا
ابدين آمنوا ، يعني - يا من آمنتم بي رباً حكيماً مُشرعاً لكم حربصاً
على مصلحتكم استمعوا إلى هذا الأدب ﴿لِيَسْتَأْذِنَكُمْ اللَّهُ مَلَكُ
أَيْمَانِكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَتَّبِعُوا الْحِلْمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ..﴾ (٥٨) [النور]

معلوم أن طلب المتكلم من المخطب يأتي على صورتين فعل
الأمر وفعل المصارع المقترن بلام الأمر ، فقوله تعالى
﴿لِيَسْتَأْذِنَكُمْ ..﴾ (٥٨) [النور] يعني - علموا هؤلاء أن يستأذنوا عليكم ،
مثل ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ..﴾ (٣٣) [النور] يعني
استغفروا لأن اللام هنا لام الأمر ، ومثل ﴿لِيَسْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ
سَعَتِهِ ..﴾ (٧) [الطلاق]

وهذا الأدب تكليف من الله تعالى يُكَلِّفُ به كل مسؤم داخل
الأسرة ، وإن كن الأمر هنا لغير المأمور ، فالمأمور بالاستئذان هم
ملك اليمين والأطفال الصغار ، مأمور الله الكبار أن يُعَلِّمُوا الصغار ، كما
ورد في الحديث الشريف « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ،
واصربوهم عليها لعشر »^(١)

فلم يُكَلِّفْ بهذا الصغار إتباع كَلَفِ الكبار ، لأن الأطفال لم يبلغوا
بَعْدَ مبلغ التكليف من ربهم ، إنما بلغوا مبلغ التكليف عندهم أنتم ،
لذلك أنت الذي تأمر وأنت الذي تتابع وتعاقب^(٢)

وأمر الصغير بالصلاة أو بالاستئذان لتربي فيه الدربة والتعود

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٧/٢) وأبو داود في سننه (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص واللفظ لأحمد

(٢) قال الشيخ أبو يحيى زكريا الأنصاري في كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يتبس في القرآن » من ٢٨٩ « إن قلت كيف أمر الله تعالى بالاستئذان لهم ، مع أنهم غير مكلفين ؟ قلت الأمر في الحقيقة لأولادهم ليؤدبهم »

على أمر قد يشق عليه حال كبره ، إنما بن عودته عليها الآن فإنها تسهل عليهم عند سر التكليف ، وتتحول العادة في حقه إلى عادة يسير عليها .

وشرع الله لنا أدب الاستئذان ، لأن للإنسان ظاهراً يراه الناس جميعاً ويكثر ظاهره للخامة من أهله في أمور لا يظهرها على الآخرين ، إذن فرقة الأهل والملاصقين لك أوسع ، وهناك ضوابط اجتماعية للمجتمع العام ، وضوابط اجتماعية للمجتمع الخاص وهو الأسرة وحرية المرأة في أسرته أوسع من حريته في المجتمع العام ، فإن كان في حجرته خاصة كانت حرته أوسع من حرته مع الأسرة

فلا ند إذن من ضوابط تحمي هذه الخصوميات . وتنظم علاقات الأفراد في الأسرة الواحدة ، كما سبقت ضوابط تنظم علاقات الأفراد خارج الأسرة

ومعنى ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ .. (٥٨) [النور] هم العبيد الذين يقومون على خدمة بعض الناس وليس الأجير، لأن الأجير حر يستطيع أن يترك في أي وقت أم لعبد فليس كذلك ، لأنه مملوك الرقبة لا حرية له ، فالمملوكية راجحة في هؤلاء ، والسيد السيطرة والمهابة فلا يستطيع أن يقلت منه .

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ .. (٥٩) [النور] هم الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا مبلغ التكليف ، ويقصون المصالح ، فدراهم في البيت يدخلون ويخرجون دون ضابط ، فهل تتركهم هكذا يطلقون على خصوصياتنا ؟

والخدم في البيت طبعة تقتضي أن يدخلوا علينا ويخرجوا ،

وكذلك الصغار ، إلا في أوقات ثلاثة لا يُسْمَح لهم فيها بالدخول إلا بعد الاستئذان ﴿مَنْ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ ..﴾ (٥٨) ﴿[النور] لأنه وقت متصل بالنوم ، والإنسان في اليوم يكون حُرَّ الحركة واللباس ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ ..﴾ (٥٨) ﴿[النور] وهو وقت القيلولة ، وهي وقت راحة يتخفَّف فيها المرء من ملابسه ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ..﴾ (٥٨) ﴿[النور] وبعد العشاء اليوم ، هذه أوقات ثلاثة ، لا ينبغي لأحد أن يدخل عليك فيها إلا بإذنك

وانظر إلى هذا التحفُّظ الذي يوفِّره لك ربك - عز وجل - حتى لا تُعَيِّد حريتك في أمورك الشخصية ومسائلك الخاصة ، وكان هذه الأوقات مُكَّةً لك أيها المؤمن تأخذ فيها راحتك وتتمتع بخصوصياتك ، والاستئذان يعطيك الفرصة لنتهاء لعقابة المستأذن .

أما في بقية الأوقات فالكل يستأذن عليك حتى الروجة

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ أراد سيدنا عمر في أمر من الأمور ، فأرسل إليه علامة^(١) من الأنصار ، فلما ذهب العلامة دنع الباب ونادى يا عمر فلم يرد ، لأنه كان نائماً ، فخرج الغلام وجلس في الخارج ودق الباب فلم يستيقظ عمر ، فمأذا يفعل الغلام ؟

رفع الغلام يديه إلى السماء وقال يا رب أيقظه ثم دفع الباب ودخل عليه وكان عمر نائماً على رصع لا يصح أن يراه عليه أحد ، واستيقظ عمر ولحظ أن الغلام قد رآه على هذا الوضع ، فلما ذهب إلى النبي ﷺ قال يا رسول الله نريد أن يستأذن عينا أبنائنا

(١) هو مداح الأنصاري ذكره ابن حجر العسقلاني في « تهذيب الصحابة » (درجة رقم ٧٨٥٦) وذكر هذا الحديث وقال « أخرجه ابن مده من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس » ذكره ثم قال « ورواه عن النبي ﷺ قال للغلام أنت ممن يلج الجنة »

وساؤنا ومولينا وخدمنا ، فقد حدث من القلام كيت وكيت ، فنزلت هذه الآية^(١) .

وَيُسَمَّى الله تعالى هذه الأوقات الثلاثة عورة ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ .. (٥٨) [النور] والعورة هي ما يحب الإنسان ألا يراه أحد ، أو يراه عليه ، لأنها نوع من الخلل والخصوصية ، والله لا يريد أن يراك أحد على شيء تكرهه

لذلك يقولون لمن به خلل في عينه مثلاً أعور ، والعرب تقول للكلمة القبيحة عوراء^(٢) ، كما قال الشاعر

وعوراء جاءت من أخ فرددتها بسالمة العينين طالبة عذراً^(٣)
يعنى كلمة قبيحة لم أره عليها بمثها ، إنما بسالمة لا عين واحدة ، بل سالمة العينين الاثنين

ثم يقول سبحانه ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ .. (٥٨) [النور] يعنى بعد هذه الأوقات لا إثم ولا حرج عليكم ، ولا على المماليك ، أو الصغار أن يدخلوا عليكم ، ففي غير هذه الأوقات يجلس العراء مستريحاً لممارسة حياته العادية ، ولا مانع لديه من استقبال الحدم أو الأطفال الصغار دون استئذان لأن طبيعة المعيشة في البيوت لا تستغنى عن دخول هؤلاء وجروحهم باستمرار

لذلك قال تعالى بعدها ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ..

(١) قال القرطبي في تفسيره (٦ / ٤٨٤) : قال مقاتل : نزلت في أسماء بنت مرثد ، دخل عليها حلام لها كبير فاشتكت إلى رسول الله ﷺ فزلت هذه الآية وقيل : سبب دخولها دخول مدبر على عمر .

(٢) قال أبو الهيثم : يقال للكلمة القبيحة عوراء ، والكلمة المساء عياء وقال النيث العوراء الكلمة التي تهوى في عهد عقل ولا رشد [لسان العرب - مادة عور]

(٣) ذكره أبي منظر في لسان العرب : جادة عور - ولم يذكر اسم الشاعر

﴿٥٨﴾ [النور] يعنى حركتهم فى البيت دائمة ، دخولاً وخروجاً ، فكيف نُقيِّدها فى غير هذه الأوقات ؟

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ..﴾ [النور] أى : بياناً واضحاً ، حتى لا يحدث فى المجتمع تناقضات فيما بعد ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ ..﴾ [٥٨] ﴿[النور] مكل ما يصلح الخلافة فى الأرض ﴿حَكِيمٌ﴾ [٥٨]﴾ [النور] فى تشريعاته وأوامره ، لا يضع للحكم إلا بحكمة ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

الطفل حين كان طفلاً لم يبلغ الحُلم كان يدخل دُور استئذان فى غير هذه الأوقات ، فإن بلغ الحُلم فعليه أن يستأذن ، لا يقول إنه تعود الاستئذان فى هذه الأوقات فقط لا ، إنما عليه أن يستأذن فى جميع الأوقات فقد شبَّ وكَبُرَ وانتهت بالنسبة له هذه الحالة

وبلوغ الحُلم أن يضع الإنسان نُضْجاً يجعله صالحاً لإنتحاب مثله ، فهذه علامة اكتمال تكوينه ، وهذا لا يتأتى إلا باستكمال الغريزة الجنسية التى هى سبب الحُمل والإنتحاب ، ومثلنا ذلك بالثمرة التى لا تحلو إلا بعد نُضْجها ، فإن تركتها بعد النضج سقطت من نفسها ، وهذه آية من آيات الله لبقاء النوع ، فلو أكلنا ثمرة قبل نُضْجها لا تثبت بذرتها ويقرض نوعها ، فمن حكمة الله فى الخلق ألا تحلو الثمرة إلا بعد النُضْج .

كذلك الولد حين يبلغ يصبح صالحاً بالإنجاب ، ونقول له انتهت
الرخصة التي منحها لك الشرع وعليك أن تستأن في جميع
الأوقات .

بذلك يقول تعالى في موضع آخر ﴿ أَوْ الطُّفُلُ الَّذِينَ لَمْ يَنْهَرُوا
عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. ﴾ (٣١) [النور]

وحاء بالطفل بصيغة المفرد ، لأن الأطفال في هذه السُّر لم
تتكون لديهم الغريزة . وليست لهم هذه الميول أو المآرب ، فكانهم
واحد أما بعد البلوغ وتكون الميول العريضة قال ﴿ الْأَطْفَالُ
(٣٢) [النور] لأن لكل منهم بعد البلوغ ميوله وشخصيته وشطحاته

وفوله ﴿ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ (٣٣) [النور] أي من
الكفار الذين يستأذنون في كل الأوقات ﴿ كَذَلِكَ .. ﴾ (٣٤) [النور] أي
مثل ما بيئنا في الاستئذان الأول ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ .. ﴾ (٣٥) [النور]
لأنه سبحانه ﴿ عَلِيمٌ .. ﴾ (٣٦) [النور] بم يصلحكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ (٣٧)
[سور] لا يشرع لكم إلا بحكمة
ثم يقول سبحانه

﴿ وَالْفَوَاحِشُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْحُونَ نِكَاحًا
فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَوْ يَصْغُرُ ثِيَابُهُنَّ
فَإِنْ مَتَّيَحَّتْ بِرِيْسَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ
لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٨﴾

نعلم أن الشارع الحكيم وضع للمرأة المسلمة قواعد تسيير عليها
في ربها وسلوكها ومشئيتها ، حماية لها وصيانة للمجتمع من الفتنة .

وحتى لا يطمع فيها أصحاب النفوس المريضة ، فحس لها حجاباً يسترهما يُخفى رينتها لا يكون شفافاً ولا واصفاً وقال ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنُ مِنْ جِلْبَابِهِنَّ .. (٥١)﴾ [الاحزاب]

لكن القواعد من النساء والكبيرات منهن لهنّ حكم آخر

والقواعد جمع قاعد لا قاعدة ، قاعدة تدل على الجلوس ، أما القاعد نكراً أو أنثى فهو الذى تعد عن دورة الحياة ، ولم يُعَدَّ له مهمة الإحباب ، ومثل هؤلاء لم يُعَدَّ فيهنّ [ربة ولا مطمع ، بذلك لا مانع أن يتخفّفن بعض الشيء من اللباس الذى تُرِصن عليهنّ حال وجود الفتنة ، ولها أن تصنع (طرحتها) مثلاً .

لكن هذه مسألة مقولة بالتشكيك نسبية يعنى فمن النساء من يقطع حيضها ويدركها الكبر ، لكن ما يزال فيها جمال وفتنة ، لذلك ربّ - تبارك وتعالى - وضع لنا الحكم الاحتياطى ﴿فليس عليهنّ جناح أن يضعنّ ثيابهنّ غير متبرجاتِ بريئة .. (٦٠)﴾ [البور] ثم يدلّهنّ على ما هو خير من ذلك ﴿وَأَكْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ (٦٠)﴾ [البور]

والعقود بوضع الثياب التخفّف بعض الشيء من الثياب الخارجيّة شريطة ﴿غير متبرجاتِ بريئة .. (٦٠)﴾ [البور] فلا يحور للمرأة أن تضع ثيابها أحداً بهذه الرخصة ، ثم تضع الزينة وتتبرج ونخشى أن نعلم النساء هذا الحكم فلا يأخذنّ به حتى لا تقصّ عنهنّ إنهن قواعد !!

وتعجب حين ترى المرأة عندما تسلم هذه السنّة فتحدف ورعة فى ملابسها ، ورعة فى مظهرها ، ورعة فى سلوكها فتزداد جمالاً وتزداد بهاءً وأسرية على خلاف التى لا تحترم سنّها فتضع على

وجهها المساحيق والألوان فتندثر مستخاً مشوهاً

ومعنى ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٦٠) [النور] أى يحتفظون بملابسهن لا يضعن منها شيئاً ، فهذا أدعى للعفة

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا
مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ حَلَائِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاحِكُهُ
أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا
جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ
تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ عَلِيمٍ﴾ (٦١)
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَوْلَادِ

قوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ (٦٠) [النور] الحرج هو الضيق ، كما جاء فى قوله سبحانه ﴿وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَسْلَمْ يُعَلِّمْ صَدْرَهُ صَيْقًا حَرْجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (٦١)
[الأنعام]

أو الحرج بمعنى الإثم ، فالحرج لمرفوع عن هؤلاء هو الضيق

أو الإثم الذي يفتلق بالحكم الآتى فى مسألة الأكل ، بدليل أنه يقول ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ..﴾ (٦١)

[النور]

والأعمى يتحرّج أن يأكل مع الناس ، لأنه لا يرى طعامه ، وربما امتدّت يده إلى أطيب الطعام فيأكله ويترك أدناه ، والأعرج يحتاج إلى راحة خاصة فى جلسته ، وربما ضيق بذلك الآخرين ، والمريض قد يتأفف منه الناس ، فرفع الله تعالى عن عباده هذا الحرج ، وقال ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .﴾ (٦١)

[النور]

فيصح أن تأكلوا ممّا ، لأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد أن يجعل التكامل فى الذوات لا فى الاعراض ، وأيضاً أنك إن رأيت شاباً مؤوّفاً^(١) يعنى به أفة ، ثم تعامله معاملة خاصة فربما جرحت شعوره ، حتى إن كان ما به أمراً حلقياً من الله لا يتأباه ، ولبعص يتأبى أن يخلقه الله على هيئة لا يرضاها

لذلك كانوا فى الريف نسمعهم يقولون اللى يعطى العمى حقه فهو مبصر ، لماذا ؟ لأنه رضى بهذا الامتلاء ، وتعامل مع النفس على أنه كذلك ، فطلب منهم المساعدة ، بذلك ترى الناس جميعاً يتسامقون إلى مساعدته والأخذ بيده ، فإن كان قد فقد عيناً فقد عوّضه الله بها ألف عين ، أما الذى يتأبى ويرفض الاعتراف بعجزه ويرتدى نظارة سوداء ليحفى بها عاهته فإنه يسير متعسراً يتخبط لا يساعده أحد

وكان الحق - تبارك وتعالى - يريد لأصحاب هذه الآفات أن يتوافقوا مع المجتمع ، لا يأخذون منه موقفاً ، ولا يأخذ المجتمع

(١) مؤوف أصابته أفة والأفة العاهة وأفت البلاد سارت فيها أفة [لسان العرب

سادة أوف]

مهم موقفاً^(١) ، لذلك يعصف علي ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ [النور] (٦١) ثم يقول سبحانه ﴿ ولا على أنفسكم .. ﴾ [النور] (٦١) بمعنى هم مثلكم تماماً ، فلا حرج منكم في شيء

﴿ ان تأكلوا من بيوتكم .. ﴾ [النور] (٦١) إلح .

وكان في الانصار قزاة^(٢) ، إذا جلس في بيت لا يأكل منه إلا إذا أدب له صاحب البيت ، وقد يسافر الرجل منهم ويترك التابع عنده في البيت دون أن يأذن له في الأكل من طعام بيته ويعود ، فيجد الطعام كما هو ، أو يجده قد فسد دون أن يأكل منه التابع شيئاً ، فاراد الحق سبحانه أن يرفع هذا الحرج عن الناس ، فقال

﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم .. ﴾ [النور] (٦١) إلى آخر هذه المعطوفات

ولفائل أن يقول وأى حرج في أن يأكل المرء من بيته ؟ وهل كان يخطر على لبال أن تجد حرجاً ، وأنت تأكل من بيتك ؟

قالوا لو حاولت استقصاء هؤلاء الأقارب المذكورين في الآية لتبين لك احوال ، فقد ذكرت آية آباءكم وأمهاتكم وإخوانكم وأخواتكم وأعمامكم وعماتكم وأخوالكم وخالاتكم ، ولم تذكر شيئاً عن الأبناء وهم في مقدمة هذا القريب ، لماذا ؟

(١) قال ابن عباس لما نزل الله تعالى ﴿ لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [النور] (٦١) حرج المصلون من مؤكلة السرهم والرمي والفرج وقطوع الطعام أصلاً الأموال ، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل والأصلي لا يحرم موضع الطعام لطيب ، والمريض لا يستقر في الطعام فانزل الله تعالى هذه الآية ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج .. ﴾ [النور] (٦١) [أورده الراشد في أسباب النزول ص ١٨٩]

(٢) الفرار الحياء قوت نفس من الشيء أبه وهايته وتكرر الرجل من الشيء بم يطعم ولم يشرب بإرادة [لسان العرب - مادة قوز]

قالوا لأن بيوت الأبناء هي بيوت الآباء ، وحين تأكل من بيت ولدك كأنك تأكل من بيتك ، على اعتبار أن الولد وما ملكه يداه ملك لآبيه ، إذن لك أن تضع مكان ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ .. ﴿٦٦﴾ [النور] بيوت أبنائكم . ذلك لأن الحق - تبارك وتعالى - لم يرد أن يجعل للأبناء بيوتا مع الآباء ، لأنها شيء واحد .

إذن لا حرج عليك أن تأكل من بيت أمك أو أميك أو أمك أو أخيك أو أختك أو عمك أو عمتك أو خالك أو خالتك ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مِّمَّا تَحْتَهُ﴾ [النور] يعني يعطيك صاحب البيت مفتاح بيته^(١) . وفي هذا إذن لك بالتصرف ولأكل من طعامه إن أردت

﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾ .. ﴿٦٧﴾ [النور] وتلاحظ في هذه أمها الوحيدة التي وردت بصيغة المفرد في هذه الآية ، فقبلها بيوتكم ، آبائكم ، أمهاتكم ، إلح إلا في الصديق فقال ﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾ .. ﴿٦٧﴾ [النور] ولم يقل أصدقائكم

ذلك لأن كلمة صديق مثل كلمة عدو تستعمل للجميع بصيغة المفرد ، كما في قوله تعالى ﴿فَأَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ .. ﴿٧٧﴾ [الشعراء] لأنهم حتى إن كانوا جماعة لا بد أن يكونوا على قلب رجل واحد وإلا ما كانوا صدقاء ، وكذلك في حالة العداوة نقول عدو . وهم جمع ، لأن الأعداء تجمعهم الكراهية ، فكانهم واحد .

(١) عن سعيد بن المسيب أنه كان يقول في هذه الآية : أبوت في أناس كانوا إذا خرجوا مع النبي ﷺ وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم وكانوا يأمرونهم أن يأكلوا مما في بيوتهم إذا احتاجوا إلى ذلك وكثفوا يقولون أن يأكلوا منها ويقولون بحسبي أن لا تكون أنفسهم بسلك طيبة ، فسألت الله تعالى هذه الآية [أورده الواحدي في أساليب الدول من ١٩٠]

ثم يقول سبحانه ﴿يَسْ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .
 (٦١)﴾ [النور] ﴿جَمِيعًا . (٦١)﴾ [النور] سَوِيًّا يَعْضُكُمْ مَعَ بَعْضٍ ، ﴿أَوْ
 أَشْتَاتًا .. (٦١)﴾ [النور] مَتَفَرِّقِينَ ، كُلُّ وَحْدَةٍ .

وقوله تعالى ﴿وَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ
 عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ . (٦١)﴾ [النور] على أنفسكم ، لأنك حين تُسَلِّمُ
 على غيرك كأنك تُسَلِّمُ على نفسك لأن عيرك هو أيضاً سَيَسَلِّمُ
 عليك ، ذلك لأن الإسلام يريد أن يجعل المجتمع الإيماني وحدة
 متماسكة ، فحين تقول لغيرك السلام عليكم سيردُ عليكم
 السلام فكانك تُسَلِّمُ على نفسك

أو أن المعنى إن دخلتم بيوتاً ليس فيها أحد فسلموا على
 أنفسكم ، وإذا دخلوا المسجد قالوا السلام على رسول الله وعليه من
 رسا ، قالوا تُسمع لملائكة وهي رد

وقوله تعالى ﴿تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ .. (٦١)﴾ [النور] وهي
 آية أخرى يقول سبحانه ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ
 رُدُّوها .. (٨٦)﴾ [النساء]

والتحية فوق أي من عند الله فقد وضعها لها ﴿مُبَارَكَةٌ .
 (٦١)﴾ [النور] والشيء المبارك الذي يعطى فوق ما ينتظر منه
 ﴿كَذَلِكَ .. (٦١)﴾ [النور] أي كما بين لكم لأحكام السابقة يُبَيِّنُ لكم
 ﴿الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (٦١)﴾ [النور]

(٦١) قال القرطبي في تفسيره (٤٨٥٧/٦) « الأوجه أن يقال إن هذا عام في دخول كل
 بيت ، فإن كان فيه ساكن مسلم يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وإن لم يكن
 فيه ساكن يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وإن كان في البيت من ليس
 بمسلم قل السلام على من اتبع الهدى أو السلام على عباد الله الصالحين »

أَيُّ أَنْ النَّبِيِّ كُلَّكُمْ بِهَذِهِ الْأَحْكَامِ رَبُّ يَحِبُّ الْخَيْرَ لَكُمْ ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ هَذِهِ ، نَمَا يَأْمُرُكُمْ بِأَشْيَاءَ لِيَعُودَ نَفْعُهَا عَلَيْكُمْ ، فَإِنْ أَطَعْتُمُوهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ انْتَفَعْتُمْ بِأَوَامِرِهِ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ يَنْتَظِرُكُمْ جَزَاءُهُ وَثَوَابُهُ فِي الْآخِرَةِ .
ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كُنُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ٦٦

الْمُؤْمِنُ مَنْ آمَنَ بِإِلَهِهِ وَآمَنَ بِالرَّسُولِ الْمُبَلِّغِ عَنِ الْإِلَهِ ، وَمَا دُمَّتْ قَدْ آمَنَتْ بِالرَّسُولِ الْمُبَلِّغِ عَنِ اللَّهِ فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ حَرَكَتُكَ خَاضِعَةً لِأَوَامِرِهِ ، وَيَحِبُّ أَنْ تَكُونَ ذَاتَكَ لَهُ فَإِذَا رَأَى الرَّسُولُ أَمْرًا جَامِعًا يَجْمَعُ الْمُسْلِمِينَ فِي حُطْبٍ أَوْ حَدِّثٍ أَوْ حَرْبٍ ، ثُمَّ يَدْعُوكُمْ إِلَى التَّشَاوُرِ لِيُدْلِيَ كُلُّ مِنْكُمْ بِرَأْيِهِ وَتَجْرِبَتِهِ ، وَيُوسِّعَ مَسَاحَةَ الشُّورَى فِي الْمَجْتَمَعِ لِيَأْتِيَ الْحُكْمَ صَحِيحًا سَلِيمًا مُوَافِقًا لِلْمَصْلَحَةِ الْعَامَةِ

فَالْمُؤْمِنُ الْحَقُّ إِذَا دُعِيَ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ الْجَامِعِ ، لَا يَقُومُ مِنْ مَجِيسَةٍ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَلَيْسَ إِلَّا مَا أَنْ يَأْذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، لِأَنَّ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ الْجَامِعَ لَهُمْ قَدْ يَكُونُ أَهَمُّ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي يَشْغُوكَ ، وَتَرِيدُ أَنْ تَقُومَ مِنْ أَمْرِهِ ، وَتَتْرَكَ مَجْلِسَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(١) اختلف في الأمر الجامع ما هو ؟ فليل المولد به ما للإمام من حاجته إلى جمع الناس فيه لإداعة مصلحة من إقامته سنة في الدين أو لترتيب عذر بإجتماعهم والسرور وقال مكحول والزهري الجمعة من الأمر الجامع . تفسير القرطبي ٦/ ٤٨٥٨ [

وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ .. (٦٢)﴾ [النور] فالاستئذان هنا من علامات الإيمان ، لا يقوم خلصة (ويبسّلت) من المجلس ، لا يشعر به أحد ، لا بدّ من أن يستأذن رسول الله حتى لا يفتوت مصلحة على المؤمنين ، ولربما كان له رأى ينتفع به

والرسول إنما يستشير أصحابه ليستشير برأيهم وتحاربهم فحين يدعهم إلى أمر جامع يجب أن يفهم هذا الأمر على نطاق منزلة الرسول من بلاعه عن الله للأمة ، فإذا دعا نفر للنشاور ، فما يتشاوران في أمر شخصي يخص صاحبه ، لكن حين يدعهم رسول الله لا يدعو لخصوصية واحدة ، وإنما لخصوصية أمة . شاء الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، وسوف يستفيد الفرد أيضاً من هذه الدعوة ، وربما كانت استفادته من الاستجابة للدعوة العامة التي تنتظم كل الناس خيراً من استفادته من دعوته الخاصة ، فيجب أن يُقدّر المدعو هذا الفارق .

ومع وجود هذا الفارق لم يحرم الله بعض الناس الذين لهم مضاعف أن يستأذِنوا فيها رسول الله وينصروها ، لذا شرع لهم الاستئذان ، لكن يجب أن يضعوا هذا الفارق في بالهم ، وأن يذكروا أنهم انصرفوا لبعض شأنهم ، والرسول قائم في أمر لشئون الدنيا كلها إلى أن تقوم الساعة

فكانه إن شارك في هذا الاجتماع فسيستفيد كفرد ، وستستفيد أمته لمعاصروهم منهم والأثون إسي أن تقوم الساعة ، فإن فضل شأنه الحاص على هذه الشئون فقد أساء وفعل ما لا يليق بمؤمن ، لذلك أمر رسول الله أن يأذن لمن يشاء ثم يستغفر له الله

يقول سبحانه . ﴿ فَإِذَا سَأَدْتُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ۖ ﴾ [النور] فالأمر متروك برسول الله يُقَدِّره حسب مصلحة المسلمين العامة ، فله أن يأذن أو لا يأذن .

إذن لا بُدَّ من استئذان رسول الله ﷺ فيأذن لمن يشاء منهم ممن يرى أن في الباقيين عوصاً عنه وعن رأيه ، فإن استأذن صاحب رأى يستفيد منه المسلمون لم يأذن له .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ ۖ ﴾ [النور] . وكان مسألة الاستئذان والقيام من مجلس رسول الله ﷺ أمر لا يريده الله تعالى

حتى إن استأذنت لأمر يهمك ، وحتى إن أذن لك رسول الله ، فالأفضل ألا تستأذن ، لأن الرسول ﷺ حين يدعو لأمر جامع يهم جماعة المسلمين ، يجب ألا ينشغل أحد عما نعى إليه ، وألا يُقدَّم على مصلحة المسلمين ومجلس رسول الله شيئاً آخر ، ففي الأمر الجامع ينبغي أن يُكْتَلَّ الجميع مواهبهم وخواطرهم في الموضوع ، وساعة تستأذن لأمر يحصك فانت مشغل عن الجماعة شارد عنهم .

حين تشغل بأمرك الخاص عن أمر المسلمين العام ، فهذه مسألة تحتاج إلى استغفار لك من رسول الله ، فالرسول يأذن لك ، ثم يستغفر لك الله

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لَوْ أَدَّاهُمْ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ٦٣ ﴾

قوله سبحانه ﴿ لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرُّسُلِ بِتَكْمٍ كَدَعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۖ ﴾ [النور] (١٣) فأنتم يدعو بعضكم بعضاً في مسألة خاصة ، لكن الرسل يدعوكم بمسألة عامة تتعلق بحركة حياة الناس جميعاً إلى أن تقوم الساعة .

أو أن الدعاء قد بمعنى الداء يعنى نداءكم الرسول أو تداونه ، لأن نداء الرسول ﷺ أدباً يجب مراعاتها فهو ليس كأحدكم تداونه يا محمد ، وقد عاب القرآن على جماعة لم يلتزموا أدب النداء مع رسول الله ، فقال ﴿ إِنَّ الدِّينَ يَتَذَكَّرُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَرَاتِ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٤) [الحجرات]

فأسءوا حين قالوا يا محمد ، ولو قالوا حتى يا أيها الرسول فقد أساءوا ، لأنه لا يصح أن يتعطلوا رسول الله ، ويجب أن يتركوه على رحته ، إن وجد مراغاً لثقافتهم خرج إليهم ، إذن أسءوا من وجهين

ولا يليق أن نناديه ﷺ باسمه يا محمد لأن الجامع بين الرسول وأمه ليس أنه محمد ، إنما الجامع أنه رسول الله ، فلا بد أن نناديه بهذا الوصف ولم لا ورثه عمر وجل وهو حالقه ومصطفاه قد ميّزه عن سائر إخوانه من الرسل ، ومن أولى العزم ، فناداهم بأسمائهم

﴿ بِأَسْمَاءِ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ۖ ﴾ (٣٥) [البقرة]

وقال ﴿ يٰ نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ (٤٨) [هود]

وقال ﴿ يٰ إِبْرَاهِيمُ ﴾ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ۖ (١٥) [الصافات]

وقال ﴿ يٰ مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ ۖ ﴾ (٢٠) [القصص]

وقال ﴿ يٰ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ آتَتْ قُلْتُ لِلنَّاسِ ۖ ﴾ (١٦) [المائدة]

وقال ﴿ يٰ دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ حَافِظًا عَلَى الْأَرْضِ ۖ ﴾ (٢٦) [ص]

لكن لم يُنادِ رسولَ الله ﷺ باسمه أبداً ، إنما يناديه بـ «يا أيها الرسول ، يا أيها النبي» وإذا كان الحق - تبارك وتعالى - لم يجعل دعاءه للرسول كدعائه لبقى رسوله ، أفندعوه نحن باسمه ؟ ينبغي أن نقول يا أيها الرسول ، يا أيها النبي ، يا رسول الله ، يا نبي الله ، فهذا هو الوصف اللائق المشرف

وكما نُصيرُ دعاء رسول الله حين فتاده ، كذلك حين ينادينا نحن يجب أن نُقدِّرَ هذا النداء ، ومعلم أن هذا النداء لخير عام يعود نفعه على الجميع

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لَئِذَا فَلَحْظَرُ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣) [السور]

لا شك أن الذين يستأذنون رسول الله فيهم إيمان ، فيراعون مجلس رسول الله ، ولا يقومون إلا بإذنه ، لكن هناك آخرون يقومون دون استئذان ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾ (٦٣) [السور] والتسلل هو الخروج بتدريج وحقية كأن يتزحزح من مكان لأخر حتى يخرج ، أو يؤمك أنه يريد الكلام مع شخص آخر ليقوم فستسلت من المجلس حقية ، وهذا معنى ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لَئِذَا ..﴾ (٦٣) [السور] بلود بأخر ليخرج بسببه

ويحذر الله هؤلاء ، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ..﴾ (٦٣) [السور] والتحذير إنذار بالعاقبة السيئة التي تترتب على الانسحاب من مجلس رسول الله ، كأنه يقول بهم قارنوا بين انسحابكم من مجلس الرسول وبين ما ينتظركم من العقاب عليه

وقال ﴿يُحَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ (٦٣) ﴿[التور] لا يخالفون أمره ،
فحمل في المخالفة معنى لإعراض ، لا مجرد المخالفة ، فالمعنى
يُعرضون عنه

والأمر . يُراد به فعل الأمر أو النهي أو الموضوع الذي نحر
بصدده يعنى نيس طلباً ، وهذا المعنى هو المراد هنا أى الموضوع
الذى نبحثه ونتحدث فيه ، فانظروا ماذا قال رسول الله ولا تخالفوه
ولا تعرضوه ، لأنه وإن كان بشراً مثلكم إلا أنه يُوحى إليه

لذلك يحدد الرسول ﷺ مركزه كبشر وكرسول ، فيقول « يردُ
على - يعنى من الحق الأعلى - فأقول أنا لست كأحدكم ، ويُؤخذ
مى فأقول ما أنا إلا بشر مثلكم »

بذلك كان الصحابة يفهمون هذه المسألة ، ويتأدبون فيها مع
رسول الله ، ويسألونه في الأمر أهو من عند الله قد نزل فيه وحى ،
أم هو الرأى والمشورة ؟ فإن كان الأمر فيه وحى من الله فلا كلام
لأحد مع كلام الله ، وإن كان لم يرد فيه من الله شيء أدلى كل منهم
برأيه ومشورته

وهذا حدث فعلاً في غزوة بدر حين نزل رسول الله ﷺ منزلاً رأى
بعض الصحابة أن غيره خير منه ، فسألوا رسول الله أهذا منزل أنزلك
الله ، أم هو الرأى والمشورة ؟ فقال « بل هو الرأى والمشورة »
فأحبروه أنه غير مناسب ، وأن المكان المناسب كذا وكذا

(١) قال الباب بن المنذر بن الجموح يا رسول الله ، أرايت هذا المنزل أمراً أم لك الله
ليس به أن تتقدم ولا تتأخر عنه م هو الرأى والحد والمكيدة ؟ قال بل هو الرأى
والحد والمكيدة فقال يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض ياأبا س حتى تأتي
أدى ماء من التوم سمره ، الحديث . أورد ، ابن هشام في السيرة النبوية (٤ / ٦٢) نقلاً
عن ابن إسحاق

وقوله تعالى ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور] أى فى الدنيا
﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور] أى فى الآخرة ، فلنْ أفلتوا من
فتنة الدين فلنْ يُفلتوا من عذاب الآخرة

ثم تختم السورة بقوله تعالى

﴿الْآيَاتُ كُنَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ
مَا أَنْشَأَ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُزْجَفُونَ إِلَيْهِ فَيُنْشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا
وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

ألا أداة تنبيه لشيء مهم بعدها ، والتنبيه يأتى لأن الكلام
سفارة بين المتكلم والمخاطب ، المتكلم عادة يُعد كلامه ، ولديه أنس
بما سيقول ، لكن المخاطب قد لا يكون خالى الذهن فبفاجئته القول ،
وربما شغله ذلك عن الكلام ، فصنع منه بعضه .

والحق - تبارك وتعالى - يريد ألا يضيع منك حرف واحد من
كلامه ، فيببئك بكلمة هى فى الواقع لا معنى لها فى ذاتها ، إلا أنها
تنبهك وتذهب ما عندك من دهشة أو عطفه ، فعنى ما يُقال لك ، وهذا
أسلوب عربى عرفته العرب ، وتحدثت به قبل نزول القرآن

ويقول الشاعر^(١) الجاهلى يحاطب المرأة التى تناوله انكاس

ألا مَبِّى بصحنك فأصْبَحِيْنَا وَلَا تُبْقِى خُمُورَ الْأَنْدَرِيْنَا^(٢)

(١) هو عمرو بن كلثوم ، من بني علف ، أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى
شمال جزيرة العرب فى بلاد ربيعة ، ساد قومه تغلب وهو مثنى وعمره ماوياً توفي ٤ ق هـ
وهو الذى قتل الملك عمرو بن عبد ، مات فى الجزيرة العراقية [الأعلام للزركلى ٨٤/٥]
(٢) اندريت من مملكة عمرو بن كلثوم والصحن القصب المعظم والأندرون قرى بالشام كان
الرومى فى شرجه (من ١٦٥) ، ألا استيقظى من نومك أيتها الساقية واسقبنى الصبوح
بقنحك العظيم ولا تدهرى حمر هذه القرى .

يريد أن ينبها إلى الكلام المفيد الذي يأتي بعد

وبعد إلا التبييهية يقول سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ . (٦٤)﴾ [النور]

والسموات والأرض ظرف فيهما كل شيء في الكون العلوي
والسُّفلى ، قلله ما في السموات وما في الأرض أي المظروف
فيهما ، فما دل الظرف نفسه ، قالوا هو أيضاً لله ، كما جاء في آية
أخرى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . (١٦)﴾ [النور] إن فاعل ظرف
والمظروف ملك له سبحانه .

وعادة ما يكون الظرف أقل قيمة من المظروف فيه ، فما بداخل
الحرية مثلاً أثنى منها . وما بداخل الكيس أثنى منه . وكذلك عظمة
السموات والأرض بما فيهما من مخلوقات ، لذلك إياك أن تجعل
المصحف الشريف ظرفاً لشيء مهم عندك فتحفظه في المصحف ،
لأنه لا شيء أعلى ولا أثنى من كتاب الله ، فلا يليق أن تجعله حافظة
لنقودك ، أو لأوراقك المهمة ، لأن المحفوظ عادة أثنى من المحفوظ
فيه

وفي الآية ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . (٦٤)﴾ [النور]
أسلوب قصر بتقديم الجار والمجرور ، فكل ما في السموات ، وكل
ما في الأرض ملك لله وحده ، لا يشاركه فيه أحد ، وعلى كثرة المفترين
في الألوهية والفرعونية لم يدع أحد منهم أن له ملك شيء منها

حتى إن النمرود الذي جادل أبانا إبراهيم عليه السلام وقال أنا
أحي وأميت لما قال له إبراهيم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ
وَأَنْتَ بِنَهَا مِنَ الْمَغْرِبِ . (٢٥٨)﴾ [البقرة] لم يستطع فعل شيء وبُهِت
وانتهت المسألة

ومُلْكُه تعالى لم يقتصر على الخلق ، فخلق الأشياء ثم تركها تؤدي مهمتها وحدها ، إنما خلقها وله تعالى قيومية على ما خلق . ونصرف في كل شيء ، فلا تظن الكون من حولك يحذمك آلبا . إنما هو حصص لإرادة الله وتصرفه سبحانه .

فالماء الذي يساق لك من الأمطار والأنهار قد يمنع عنك ويصيب أرضك الجفاف ، أو يريد عن حذو ، فيصح سيولا تمرق وتدمر إذن المسألة ليست رغبة خلق ، وليست المخلوقات آلات (ميكانكية) إنما لله الملك والقيومية والنصرف في كل ما خلق

ثم يقول سبحانه ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أُتِمَّ عَلَيْهِ . ﴾ [٦٤] [السود] لقهم هذه الآية لا بد أن تعلم أن علاقة الحق - تبارك وتعالى - بالأحداث ليست كعلاقتنا نحن ، فنحن نعلم من علم النحو أن الأفعال ماض وهو ما وقع بالفعل قبل أن نتكلم به مثل : جاء محمد ومضارع وهو إما للحال مثل يأكل محمد أو للاستقبال مثل سيأكل محمد

أما بالنسبة لله تعالى ، فالأحداث سواء كلها ماض وواقع ، وقد تكلمنا في هذه المسألة في قوله تعالى ﴿ أَتَى أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ . ﴾ [٦١]

ومعوم أن الاستعجال يكون للأمر الذي لم يأت بعد ، والقيامة لم تات بعد لكن عبر عنها بالماضى (أتى) لأنه سبحانه لا يعوقه ولا يخرجه شيء عن مراده ، فكأنها أتت بالفعل ، إذن ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴾ [٦١] [الدحل] ليست منطقية مع كلامك أنت ، إنما هي منطقية مع كلام الله

كذلك في قوله تعالى ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أُتِمَّ عَلَيْهِ .. ﴾ [٦٤] [السود] فقد للتحقيق ، ويعلم بالنسبة لله تعالى تعنى علم ، لكنه بالنسبة لك

أنت تعلم إذن فهناك طرف منك وصرف من احق سبحانه ،
فبالنسبة للتحقيق جاء بقدر ، وبالنسبة للاستقبال جاء يعلم

ثم يقول سبحانه ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُسْأَلُهم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾ [السور] وجاء في آية أخرى ﴿وَمَا يَعْزُبُ^(١) عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١)﴾

[يونس]

فإياك أن تفهم أن نظر الله ورؤيته سبحانه للأعاض المختلفة في
الاماكن المختلفة رؤية جرتية ، تتجه إلى شيء فلا ترى الآخر ، إما
هي رؤية شاملة ، كان بكل شيء رؤية وحده ، وهذا واضح في قوله
تعالى ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (٣٣)﴾ [الرعد]

فسبحانه لا يشغله سماع عن سماع ، ولا يَصْرُ عن بصر فيصره
سبحانه محيط وإطلاعه دقيق ، لذلك يأتي جزاؤه حقاً يناسب دقة
اطلاعه ، وإياك إذن أن تغفل هذه الحقيقة ، ربك قائم عليك ، ناظر
إليك . لا تخفى عليه منك خافية

فيا مَنْ تتسلل لوإذا حذر ، فلا شيء أهم من مجلس مع رسول
الله ﷺ ، ورسول الله نفسه كان حريصاً أن يرى أصحابه في مجلسه
بإستمرار ، والله تعالى يوصيه بذلك فيقول له ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ (٢٨)﴾

الكهف

وكان بعض أصحابه يُصَلِّي خلفه ، فكان عندما يسلم ينصرف
الرجل مسرعاً فيره ﷺ في أول الصلاة ، ولا يراه هي أمرها ،

(١) عزب الأمر يمحوب بقر وحاب وصعب مطبوع أى لا ينجب ولا يبعد عنه أى شيء فهو
يعلم الصغير والكبير من الأمور ولا يشبه [القاموس القويم ١٨/٢]

فاستوقفه في إحدى الصلوات وقال له « أزهذا فينا » ، وكأنه يعرّ على رسول الله أن يجد أحد أصحابه لا يتواجد مع حصرتة ، أو يزهد في مجلسه ، فيُحرم من الحبرات والتجليات التي تنزل على مجلس رسول الله ، ويُحرم من إشعاعات بصيرته وبصره إليه

لذلك أخرج الرجل ، وأحد يوضح لرسول الله ﷺ ما يدفعه كل صلاة إلى الإسراع بالانصراف ، وأن هذا منه ليس زهداً في حصرة رسول الله ومجلس رسول الله ، فقال يا رسول الله إن لي امرأة باليب تنتظر دنائي هذا لتصلي فيه

يعنى ليس لديه في بيته إلا ثوب واحد ، فدعا له النبي ﷺ بالخير ، فم عاد لزوجته سالت عن سبب غيابه ، فقصر عنها ما كان من أمر رسول الله ، وأنه استوقفه وحكى لها ما دار بينهما فقالت لزوجها أنتشكر ربك لمحمد

ولما سألوها بعد ذلك قالت « غاب عني مقدار مائة تسبيحة » فانظر إني ساعتها التي تصبى عليها وقتها

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

بعد أن خُتِمتْ سورة النور بهذه الآية لنى نبيى مالله تعالى من ملك وقهر وحسوت ، وبيئت أن العودة إليه والرجوع يوم القيامة للحساب ، بدأت سورة الفرقان تُبَيِّن أن هذا الملك ليس ملك استعداد ، إىء ملك رحمة ، نظمت لكم الحياة لتعيشوا فيها على هدى ومور ، فقال تعالى

سورة الفرقان^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ

لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾

﴿تبارك﴾ (١) [الفرقان] مادة الباء والراء والكاف عادة تدلُّ على البركة . وهى أن يعطيك الشىء من الخير فوق ما تظن فيه ويزيد عن تقديرك ، كما لو رأيت طعام الثلاثة يكفى العشرة ، فنقول إن هذا الطعام مُباركٌ أو فيه بركة

(١) سورة مكية كلها فى قول الجمهور وقال ابن عباس وقتادة الا ثلاث آيات منها برئت بالمدينة وهى قوله تعالى ﴿والذى لا يدعوب مع الله إليها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يرمون﴾ (٢٨) [الفرقان] الى قوله ﴿وكان الله عسورا رحيم﴾ (٢٩) [الفرقان] وقال الضحك هى مدينة ، وفيها آيات مكية [تفسير القرطبي ٤/٤٨٦٢] وسورة الفرقان عند آياتها ٧٧ آية ، وهى السورة رقم (٧٥) فى ترتيب سور المصحف ، أما فى ترتيب التورل فهى السورة رقم (١٦) برئت بعد سورة يس ، وقبل سورة الملائكة (سورة قاطر)

ومن معاني تبارك تعالى قدره ﴿تبارك..﴾ [الفرقان] سره
عن شبه ما سواه ، وتبارك عظم خيره وعطوه وهذه الثلاثة
تجدها مكملة لبعضها

ومن العجيب أن هذا اللفظ ﴿تبارك..﴾ [الفرقان] معجز في
رسمه ومعجز في اشتقاقه . لو تتبعنا القرآن لوجدت أن هذه الكلمة
وردت في القرآن تسع مرات سبع منها بالالف ﴿تبارك..﴾
[الفرقان] ومرتين بدون لالف ، فمادام نكتب بالالف في الجميع ،
أو بدونها في الجميع ، ذلك يدلُّك على أن رسم لقرآن رسم
توقيفي ، ليس أمراً (ميكانيكياً) . كما في قوله تعالى هي أول سورة
العلق ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [العلق] رسم كلمة اسم هد
بالالف ، وفي باقي القرآن بدون الالف

إذن فالقرآن ليس عادياً في رسمه وكتيبته ، وليس عادياً في
قراءته ، فأنت تقرأ في أي كتاب آخر على أي حال كت لا في
القرآن لا بد أن تكون على وضوء وتدخل عليه بظهور الخ ما نعلم
من آداب تلاوة القرآن

ومن حيث الاشتقاق نعلم أن الفعل يشتق منه الماضي والمضارع
والأمر واسم الفاعل الخ ، لكن ﴿تبارك..﴾ [الفرقان] لم يذكر منها
القرآن إلا هذه الصيغة ، وكأنه يريد أن يخصها بنبيه الله تعالى .
مثلاً مثل كلمة سبحان ، لذلك على كثرة ما مر في الأربع من
الجهابرة أرغموا الناس على مدحهم والخضوع لهم ، لكن ما رأينا
واحداً مهما كان محرماً في الدين يقول لأحد هؤلاء سبحانك

١) وردت ﴿تبارك﴾ في سبعة مواضع بالالف (الأعراف ٥٤) (المؤمنون ١١)
(الفرقان ١ ، ١٠ ، ٦١) ، (عن ٦٤) ، (الأحرف ٨٥)
وردت مرتين بدون الالف ﴿تبارك﴾ (الرحمن ٧٨) (الملك ١) قال
السيوطي في (الإنشاد في علوم القرآن) (١٨٨، ٢) . تبارك عن ٧ يستعمل إلا بلفظ
الماضي ولا يستعمل إلا ٥ .

لذلك نقول في تسييح الله سبحانه ، ولا تُشال إلا لك . مهما
اجترأ الملاحدة فإنهم لا ينطقونها لغير الله

إذن ﴿تبارك﴾ (١) [اعرفان] تدور حول معان ثلاثة تعالى
قُدْرُهُ ، وتَنَزُّهُ عَنْ مِثَابِهِة مَا سِوَاهُ ، وَعَظْمُ خَيْرِهِ وَعِظَازِهِ ، وَمَنْ
تَعَاظَمَ خَيْرُهُ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ فِي قُدْرِهِ ، وَلَا فِي ذَاتِهِ ، وَلَا
فِي صِفَاتِهِ ، وَلَا فِي فِعْلِهِ . وهذا كله من مصلحتنا نحن . فلا كبير
إلا الله ، ولا جبار إلا الله ، ولا غنى إلا الله

وسُمِّيَ الْقُرْآنُ فَرْقَانًا ، لَأنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ . وقد ميز
الْقُرْآنُ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، فَيَسِيرَ النَّاسُ عَلَى هُدًى
وَعَلَى بَصِيرَةٍ ، فَالْقُرْآنُ إِذْ فَرَّقَ لَهُمْ مَوَاضِعَ الْخَيْرِ عَنْ مَوَاضِعِ
الْعُطْبِ فَالْفَرْقَانِ سَاطِرٌ فِي كُلِّ حِفْهِ الدِّيرِ ، فَمِنَ الدِّينِ قِمَّةٌ هِيَ
الْحَقُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَمُبْلَغٌ عَنِ الْقِمَّةِ هُوَ الرَّسُولُ ﷺ ، وَمُرْسَلٌ إِلَيْهِ
هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ، فَجَاءَ الْفَرَانُ لِيُفَرِّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ

فَمِنَ الْقِمَّةِ ، وَجُدَ مَنْ يَنْكُرُ وَجُودَ إِلَهٍ خَالِقٍ لِهَذَا الْكَوْنِ ، وَآخَرُونَ
يَقُولُونَ بِوُجُودِ آلِهَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، وَكِلَاهُمَا عَلَى طَرَفِي تَقْيِضُ لِلْآخِرِ لَيْسَ
هَنَّاكَ سَمَالُ فِكْرٍ سَجَمَعُهُمْ ، فَجَاءَ الْفَرَانُ لِيُفَرِّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فِي
هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَيَقُولُ الْأَمْرُ وَسَطُ بَيْنَ مَا قُلْتُمْ فَإِلَهُ مَوْجُودٌ ،
لَكِنَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَفَرَّقَ فِي مَسْأَلَةِ الْقِمَّةِ

كَذَلِكَ فَرَّقَ فِي مَسْأَلَةِ الرَّسُولِ وَهُوَ بَشَرٌ مِنْ قَوْمِهِ ، فَلَمَّا اعْتَرَضَ
بَعْضُهُمْ عَلَيْهِ وَحَسَدُوهُ عَلَى هَذِهِ الْمَكَانَةِ وَهُوَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَيْدَهُ اللَّهُ
بِالْمُعْجَزَةِ الَّتِي تُؤَيِّدُهُ وَتُظْهِرُ صِدْقَهُ فِي لِبْلَاحٍ عَنِ اللَّهِ ، وَكَانَتْ
مَحْصَرَّتُهُ ﷺ فِي شَيْءٍ نَبَغَ قِيَهُ الْقَوْمِ ، وَهِيَ الْعَصَاحَةُ وَالْبَلَاحَةُ
وَالنِّيَارُ ، وَالْعَرَبُ أَهْلُ نِيَارٍ ، وَهَذِهِ بِصَاعَتِهِمُ الرَّائِجَةُ وَتَحْدَاهُمْ بِهِمُ
الْمُعْجَزَةُ فَمِمَّ يَسْتَطِيعُونَ

وكذلك فرق في مسألة الخلق من حيث مقومات حياتهم ، فبين لهم الحلال والحرام ، وفي استبقاء النوع بين لهم الحلال ، وشرع لهم الزواج ، ونههم عن الزنا ليحفظ سلالة الخليفة لله في الأرض

إذن فرق القرآن في كل شيء هي إليه ، وفي الرسول وفي قوام حياة المرسى إليهم ، وما دام قد فرق في كل هذه لمسائل فلا يوجد لفظ أفضل من أن نسميه « الفرقان »

ولا شك أن الألفاظ التي ينطق بها الحق - تبارك وتعالى لها شعاعات ، وهي طيابها معان يعلمها أهل النظر والبصيرة ممن فتح الله عليهم وما أشبهها بخصوص الماس ، والذي جعل الماس ثمناً أن به في كل ذرة من درته نكسرات إشعاعية ليست هي شيء غيره ، فمن أي ناحية نظرت إليه قابك شعاع معكوس يعطى مريقاً وصعناً يتلأل من كل نواحيه ، وكذلك ألفاظ القرآن الكريم

ومن معاني الفرقان التي قال بها بعض العلماء أنه مرل مُفرقاً كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَفُرْقَاناً فُرْقَاناً ﴾ (١٦) [الإسراء] يعني أنزلناه مُفرقاً لم ينزل مرة واحدة كالكتب السابقة عليه ، ولحق - تبارك وتعالى - حكمة هي إنزال القرآن مُفرقاً ، حيث يعطى الفرصة لكل نجم ينزل من القرآن أن يستوعبه الناس ، لأنه يرتبط بحادثة معينة ، كذلك ليحدث التدرج المطلوب في التشريعات

يقول تعالى ﴿ وَفُرْقَاناً فُرْقَاناً لِنَقُرَّاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (١٦) [الإسراء]

لقد كان المسلمون لأول في فترة نزول القرآن كثيرى لأسئلة ، يستفسرون من رسول الله عن مسائل الدين ، كما قال تعالى

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَمَلَةِ ..﴾ [١٨٩] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَعْرِ وَالْمَيْسِرِ .﴾ [١٩٠] [البقرة] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَمْفَالِ .﴾ [١] [الأنفال] فكان النجم من القرآن ينزل ليُجيب عليهم ويُشرع لهم ، وما كان يتأني ذلك لو نزل القرآن حملة واحدة

وكلمة ﴿مَوْلَى الْفُرْقَانِ .﴾ [١] [الفرقان] تؤيد هذا المعنى وتسانده ، لأن نزل تفيد تكرار الفعل غير « أنزل » التي تفيد تعدى الفعل مرة واحدة

وقوله تعالى ﴿عَلَى عِبْدِهِ ..﴾ [١] [الفرقان] كان حيثبه التنزيل عليه هي العبودية لله تعالى ، فهو العبد المأمون أن ينزل القرآن عليه وسبق أن قلنا أن العبودية لفظ بغيض إن استعمل في غير حاسب الحق سبحانه ، أما العبودية لله فهي عزّ وشرف ولفظ محبوب في عبودية الخلق للخالق ، لأن العبودية للبشر يأخذ السيد خير عبده ، أما العبودية لله فيأخذ العبد خير سيده .

لذلك جعل الله تعالى العبودية له سبحانه حيثية للارتقاء السماوي في رحلة الإسراء ، فقال ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ..﴾ [١] [الإسراء] فالرُفْعَةُ هما جاءت من العبودية لله

ثم يقول سبحانه ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [١] [الفرقان] العالمين جمع عالم ، والعالم ما سوى الله تعالى ، ومن العوالم عالم الملائكة ، عالم الإنس ، وعالم الجن ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم الجماد ، إلا أن بعض هذه العوالم لم يأتها بشير ولا نذير ، لأنها ليست مُحيرة ، والبشارة والنذارة لا تكون إلا للمحير

يقول تعالى ﴿إِنَّمَا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ

يَحْمِلُهَا وَأَشْفَىٰ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٦﴾ [الاحزاب]

فإن عرلت من هذه العوالم من ليس له اختيار ، فينبقى منها الجن والإنس ، وإليهما أرسل الرسول ﷺ بشيراً ونذيراً ، لكى لماذا قال هنا ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ مَدًى ﴾ [الفرقان] ولم يقل بشيراً ونذيراً ؟ قالوا لأنه سبحانه سيحكم هنا عن الذين خاضوا فى الألوهية ، وهؤلاء تناسهم النذارة لا البشارة ، لذلك قال فى الآية بعدها

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾

فى آخر سورة النور قال سبحانه ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ [النور] فذكر ملكية المظروف ، وهنا قال ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ [الفرقان] مذكر ملكية الطرف أى السموات والارض

ثم تكلم سبحانه فى مسألة لقمة التى تجسروا عليها ، فقال ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَهُمْ يَكُنُّ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ ﴾ [الفرقان]

وسبق أن تكلمنا كثيراً عن مسألة اتخاذ الولد والحكمة منها ، فالباس تحب الولد إما يكون امتداداً للذكر وإما ليسانده والده حال صغفه ، وما للكثرة ، والحق - تبارك وتعالى - هو الحى الباقي الذى لا يموت ، ولا يحتاج لمن يُخلد ذكراه ، وهو القوى الذى لا يحتاج لغيره فلم يَتَّخِذْ وَلَدًا ؟

وقوله ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ .. ﴾ [الفرقان] وهذا أمر

يؤيده الواقع ، لأن الله تعالى أول ما شهد لشهده لنفسه ، فقال سبحانه ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوْثَرُوا الْعِلْمَ..﴾ (٢٨) [آل عمران] أي : لما خلقت الملائكة شهدوا لله تعالى ، ثم شهد أولو العلم بالاستدلال ، فشهادة الحق سبحانه لنفسه شهادة الذات للذات ، والملائكة شهدت شهادة المشاهدة ، ونحن شهدنا شهادة الاستدلال والبرهان

والحق - تدرك وتعالى - يُعطينا الدليل على صدق هذه الشهادة ، فيقول تعالى ﴿مَا تَتَّخِذُ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذْ أَذْهَبَ كُلَّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ..﴾ (١٦) [المؤمنون]

وقال سبحانه ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأُتْبِعُوا إِلَىٰ دِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (٤٧) [الإسراء]

وهو التفصيل المنطقي العاقل الذي تردُّ به على هؤلاء ، ولو كان مع الله تعالى آلهة أخرى لأذهب كل منهم جزء من الكون ، وجعله إقطاعية خاصة به ، وعلاً كل منهم على الآخر وحارب ، ولو كان معه سبحانه آلهة أخرى لاجتمعوا على هذا الذي أخذ الملك منهم يحاكموه أو يتوسَّكوا إليه

وقلنا إن الدَّعوى تثبت لصاحبها إذا لم يدَّعها أحد غيره لنفسه ، وهذه المسألة لم يدَّعها أحد ، فهي - إذن - ثابتة لله تعالى إلى أن يوجد من يدَّعي هذا الخلق لنفسه .

وسبق أن متَّكنا لذلك جماعة في مجلس فقد أحدهم محضته فيه ، ولم انصرفوا وجدها صاحب البيت ، فسألهم عنها فلم يدَّعها أحد منهم ، ثم اتصل به أحدهم يقول إنها لي . فلا شك أنها له حتى يوجد مدَّع آخر ، فيفصل بينهما

ثم يقول تعالى ﴿وَحَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ فَقْدْرُهُ تَقْدِيرًا ۝٢١﴾ [الفرقان] فخلق الله تعالى ليس خلقاً كما اتفق ، إنما خلقه سبحانه بقدر وحساب وحكمة ، فيخلق الشيء على قدر مهمته التي يؤدّيها ، لذلك قال في موضع آخر ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى ۝٢٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝٢٣﴾ [الاعلى]

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرَاءٌ وَلَا نَفْعَاءٌ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝٢٤﴾

أى اتوا بالآلهة غير الله ، هذه الآلهة بإقرارهم وبشهادتهم وواقعهم لا يطق شيئاً ، ويا ليتها فقط لا تخلق شيئاً ، ولكن هي أنفسها مخلوقة ، فاجتمع فيها الامران

وهذه من الآيات التي وقف عندها المستشرقون وقالوا إن فيها شبهة تناقض لأن الله - سبحانه وتعالى - قال ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون] فاشتت أن معه آخرين لهم صفة الخلق ، بدليل أنه جمعهم معه ، وهو سبحانه أحسنهم وهو موضع آخر بقول سبحانه ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَنُفِخُ فِيهِ فَيَكُونُ مِثْرًا ۚ يَذَّنُ اللَّهُ .. ۝١٥﴾ [ال عمران]

وللرد على هؤلاء نقول تعالوا أولاً نفهم معنى الخلق ، إيجاد لمعدوم ، كما مثّلنا سابقاً بصناعة كوب الزجاج من صهر بعض المواد ، فالكوب كان معدوماً وهو أوجدته ، لكن من شيء موجود ، كما أن الكوب يجمد على حاله ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُوجد من معدوم معدوماً من معدوم ، ويُوجدته على هيئة فيها حياة ونمو

وتكاثروا من دانه ، كما قال سبحانه ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم
تذكرون ﴾ (٤٩) [الذريات]

والذين يصنعون الآن الررد الصناعي ، ويحاولون جاهدين مضاهاة
الورد الطبيعي الذي خلقه ، فيصنعون عليه رائحة الورد يتوفر لها اشكل
والرائحة ، ثم ترى الوردة للصناعية رامية لا تدب ، لكن العظمة في
الوردة الطبيعية أنها تدب ، لا تدب لها يد على أن بها حياة

لذلك سمى الله الإنسان خالقاً ، وأنصفه واحترمه إيجاده للمعدوم ،
لكنه سبحانه أحسن الخالقين ، ووجه الحسن أن الله تعالى خلق من
لا شيء ، وأنت خلقت من موجود ، الله خلق خلقاً فيه حياة ومو وتكاثر ،
وأنت خلقت شيئاً جامداً على حالته الأولى ، ومع ذلك أنصفك ربك

ففى قوله تعالى ﴿ أخلق لكم من الطين كهيئة الطير . . ﴾ (٥١) [ال عمران]
معلوم أنه فى مقدور كل إنسان أن يَصُورَ من الطين طيراً ، ويُصممه
على شكله ، لكن أيقال له إنه خلق بهذا التصوير طيراً ، وهل
العظمة فى تصويره على هيئة الطير ، العظمة فى أن تفت فيه
لحياة ، وهذه لا تكون إلا من عند الله ، لذلك قال عيسى عليه
السلام ﴿ فأفصح فيه فيكون طيراً بإذن الله . . ﴾ (٥٢) [ال عمران]

فإن سلمنا أنهم يخلقون شيئاً فهم فى ذات الوقت مخلوقون ،
والأدهى من هذا أن الذى يتحدوه إلهاً لا يستطيع حتى أن يحمى
نفسه أو يقيمها ، إن أطحت به الريح وإن كسر ذراع الإله أخذوه
ليُرْموه ، الإله فى يد العامل يصلحه " شيء عجيب وعقليات حمقاء .

لذلك يقول تعالى عن آهتهم ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لم يخلقوا
شيئاً ولن يجتمعوا له وإن يسألهم الباب شيئاً لم يستفدوه منه ضعف الطالب
والمطلوب ﴾ (٥٦) [الحج]

ثم يقول سبحانه ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ فِرًا وَلَا نَفْعًا...﴾ (٣) ﴿[الفرقان] يعنى لا تنفعهم إن عبدوها ، ولا تضرهم إن كفروا بها ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ (٤) ﴿[الفرقان] أى موتاً أو حياة لغيرهم ، مهم لا يملكون شيئاً من هذا كله ، لأنه من صفات الإله الحق الذى يُحْيى وَيُمِيت ، ثم ينشر الناس فى الآخرة إذن للإنسان مراحل متعددة ، فبعد أن كان عذماً أوجده الله ، ثم يطرا عليه الموت فيموت ، ثم يبعثه الله ، ويُحييه حياة الآخرة ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِلَهُكَ فَأْتِنَا بِآيَاتِهِ﴾
﴿قَوْمٌ مَّا خَرُوتُمْ فَكَدْجَاءُ وَظُلُمَاءُ زُورًا﴾ (٥)

بعد أن تكلم الفرقان وفرق فى مسألة الفضة والالوهية واتخاذ ابولذ والشركاء ، وبيّن الإله الحق من الإله الباطل ، أراد سبحانه أن يتكلم عن الفرقان فى الرسالة فيحكى ما قاله الكفار عن القرآن ﴿إِنَّ هَذَا...﴾ (٥) ﴿[الفرقان] يعنى ما هذا - أى القرآن - الذى يقوله محمد ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ (٦) ﴿[الفرقان] الإله - تعمد الكذب الذى يقلب الحقائق ، وسبق أن قلنا إن النسبة الكلامية إن وافقت الواقع فهى صدق ، وإن خالفت فهى كذب .

والإله قلب للواقع يجعل الموجود غير موجود ، وغير الموجود موجوداً ، كما جاء فى حادثة الإله حين اتهموا عائشة أم المؤمنين بما يحالف الواقع ، فالواقع أن صفوان^(١) أتاه لها ناقتة حتى ركبت

(١) هو صفوان بن المعطل بن رجيلة السلمى الدكاوى أبو عمرو صعبى ، شهد الجندق والمشاهد كلها ، وحضر فتح دمشق ، واستشهد بارسبى عام ١٩ هـ [الاعلام للدرزلى

دون أن ينظر إليها ، وهذا يدل على منتهى العفة والصيانة ، وهم بالإفك جعلوا الطُّهْر والعفة عُمُرًا

ومن العجيب أن هؤلاء الذين اتهموا القرآن بأنه إفك هم أنفسهم الذين قالوا عنه

﴿وَلَا تَرَلْ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٌ﴾ (٢١) [الزحرف]

فهم يعترفون بالقرآن ويشهدون له ، لكن يتعيبهم ويُغَصِّر عليهم أن يُنزل على محمد بالذاب ، فلو نزل - فرصاً - على غير محمد لآمنوا به

ومن حُجَّتْهم أن يقولوا ﴿الَّذِينَ إِذَا كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطَرُوا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٢) [الأنفال]

والمنطق أن يقولوا فاهْدِنَا إِلَيْهِ ، لكنه العناد والمكابرة

وقوله ﴿افْتَرَاهُ﴾ (٢٤) [الفرقان] أي : ادعاه ، وعجيب أمر هؤلاء ، متهمون القرآن بأنه إفك مُفْتَرِي ، فلماذا لا يفترون هم أيضاً مثله ، وهم أمة بلاغة وبيان ؟

وفي موضع آخر يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّئَلَّا يُخَذَّوبَ إِلَيْهِ الْأَعْمَىٰ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (٦٣) [النحل]

وقديماً قالوا : إِنْ كُنْتَ كَذُوبًا مَكَّنْ ذِكْرًا ، وإلا فكيف تتهمون محمداً أن رجلاً أعجمياً يُعَلِّمُ القرآن ، والقرآن عربي ؟

وقوله تعالى ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ أَسْرُودٌ﴾ (٦٤) [الفرقان] الذي قال هذه المقولة هو النضر بن الحارث ، ولما قالها ردها بعده آخرون أمثال عداس ، ويسار ، وأبي فكيهة الرومي ، ولقرآن يرد على كل هذه الاتهامات ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (٦٤) [الفرقان] أي حكموا به

والظلم هو . الحكم بغير الحق ، والزور هو عُدَّة الحكم ودليكه والظلم يأتى بعد الزور ، لأن الفاضى يستمع أولاً إلى الشهادة ، ثم يُرتَّب عليها الحكم ، فإن كانت الشهادة شهادة زور كان الحكم حينئذ ظلماً .

لكن الحق - تبارك وتعالى - يقول ﴿ ظَلَمُوا زَوْرًا ﴾ (١) [الفرقان] وهذا دليل على أن الحكم جاء منهم مُسَقِّفاً . ثم التمسوا له دليلاً ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

الاساطير جمع اسطورة ، مثل . اعاجيب جمع اعجوبة واحاديث جمع اُحدوثة ، والبكرة اول النهر ، والاصيل آخره وامضى انهم قالوا عن القرآن إنه حكايات واساطير السابقين ﴿ اكْتَتَبَهَا ﴾ (٢) [الفرقان] يعنى أمر بكتابتها . وهذا من ترددهم واضطراب اقوالهم فالنبي ﷺ أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وفرلهم ﴿ فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان] أى باستمرار ليكررها وبحفظها ويرد القرآن عليهم

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

﴿ أنزله .. ﴾ (٣) [الفرقان] أى . القرآن مرة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ﴿ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٤) [الفرقان] فلا تخزن أنك بمجرد خلقك قدرت أن تكشف أسرار الله في

كونه ، إنما ستظل إلى قيام الساعة تنف على سر ، وتقف عند سر آخر
 معاذاً ، لأن الحق ... سبحانه وتعالى - يريد أن يبطل هذه
 المدعيات ، ويأتى بأشياء غيبية لم تكن تخطر على بال المعاصرين
 لمحمد ، ثم تتضح هذه الأشياء على مرّ القرون ، مع أن القرآن نزل
 فى أمة أمية ، والرسول الذى نزل عليه القرآن رحل أمى ، ومع ذلك
 يكشف لنا القرآن كل يوم عن آية جديدة من آيات الله
 كما قال سبحانه ﴿ سُرِّيهِمْ آيَاتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ
 لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ ۝ (٥٢) ﴾ [تصلت]

والحق - تبارك وتعالى - يكشف لرسوله ﷺ شيئاً من الغيبات ،
 ليبرأها المعاصرون له ليلقم الكفار الذين اتهموه حجراً ، فيكشف بعض
 الأسرار كما حدث فى بدر حيث وقف أسبى ﷺ فى ساحة المعركة
 بعد أن عرف أن مكة القت بفلذات أكبادها وسادتها فى المعركة ،
 وقف يشير بعصاه إلى مصارع الكفار ، ويقول « هذا مصرع
 أبى جهل ، وهذا مصرع عتبة بن ربيعة »^(١) .. الح يخطط على
 الأرض مصارع القوم

ومن الذى يستطيع أن يحكم مسبقاً فى معركة فيها كَرٌّ وفَرٌّ ،
 وضَرْبٌ وانتقالٌ وحركة ، ثم يقول سيموت فلان فى هذا المكان .
 والوليد بن المغيرة والذى قال عنه القرآن^(٢) ﴿ سَنَسُومُهُ عَلَى

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) ، وأحمد فى مسنده (٢١٩/٢ - ٢٥٨) من حديث
 أسب بن مالك قال لما حاط أحدهم عن مصرع يد رسول الله ﷺ قال النبوى « فما
 عطف » أى فما تبعه

(٢) قال ابن حجر فى الفتح (٦٦٢/٨) : « اختلف فى الذى مرت فيه ، فقيل هو الوليد بن
 المغيرة وذكره يحيى بن سلام فى تفسيره وقيل الأسود بن عبد يغوث ذكره سيد بن
 داود فى تفسيره وقيل الأحسن بن شريق وذكره السهيلي عن الفقيس ، وحكى هذين
 القولين الطبري »

الْخُرُطُومِ (١٦) [القلم] يعنى . ستاتيه صرية على أفعه سَمُهُ سَمَةً تَلارمه ، وبعد المعركة يتفقده القوم فيجدونه كذلك

هذه كلها أسرار من أسرار الكور يخبر بها الحق - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ ، والرسول يخبر بها أمته فى غير مظنة العلم بها .

ومن ذلك ما يُروى من أن ابنتى رسول الله ﷺ قد تزوجتا من ولدين لآبى لهب فلما حدثت العداوة بينه وبين رسول الله أمر ولديه بتطليق ابنتى رسول الله ، وبعد ذلك رأى أحد الولدين رسول الله ماشياً ، فبصق ناحيته ، ورأى رسول الله ذلك فقال له « أكلك كلب^(١) من كلاب الله »^(٢) فقال آبى لهب بعد أن علم بهذه الدعوة أخاف على ولدى من دعوة محمد .

وعجيب أن يخلف هذا الكافر من دعوة رسول الله ، وهو الذى يتهمه بالسحر وبالكذب ويكفر به وبدعوته

ولما خرج هذا الولد فى رحله التجارة إلى الشام أوصى به القوم أن يحرسوه ، ويجعلوا حوله سياجاً من بضائعهم يحميه خشية أن تنفذ فيه دعوة محمد ، وهذا منه كلام غير منطقي ، فهو يعلم صدق النبى ﷺ وأنه مُرسَل من عند الله ، لكن يمنع من الإيمان حقه على رسول الله وتكبره على الحق.

(١) الكلب كل سبع عور ، ومنه الأسد ، قال ابن سنيته غلب الكلب على هذا النوع المباح وقد يكون التكليب واقعاً على العهد وسباع الطير [لسان العرب - مادة كلب] وانظر فتح الباري (٢٩/٤)

(٢) وذلك أن حنينة بن أبى لهب حين عارق لم كلثوم بنت رسول الله ﷺ جاء النبي وقال كفرت بدينك وبارقت ابنك ، لا تحببى ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشق قميصه ، فقال ﷺ « لما أتى أسأل الله أن يسقط عليّ كلبه » أخرجه السيوطى فى دلائل النبوة (٢/ ٣٢٨ ، ٢٢٩) وأورد البهيمى فى مجمع الروايات (٦/ ١٩) وعراء لطبرانى مؤسلاً وقال « فيه رهير بن العلاء وهو ضعيف » وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٥٣٩) من حديث أبى عروب رصحه وحسنه ابن حجر فى الفتح (٢٩/٤)

وخرج الولد في رحلة التجارة ورغم احتياطهم في حمايته هجم عليه سبع في إحدى الليالي واختطفه من بين أصحابه ، فتعجبوا لأن رسول الله قال : « كلب من كلاب الله » وهذا أسد ليس كلباً قال أهل العلم ما دام أن رسول الله نسب الكلب إلى الله ، فكلب الله لا يكون إلا أسداً

فالمعنى قل يا محمد في الرد عليهم ولإبطال دعاوهم ﴿ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَهْدِي السَّبِيلَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ ﴾ (٦) [الفرقان] وسوف يفضحكم ويُطِيطُ افتراءكم على رسول الله من قولكم إفاك وكذب وافتراء وأساسير الأولين ، وسوف يُحْزِيكُمْ أمام أعين الناس جميعاً .

وعلى عهد رسول الله قامت معركة بين الفُرس والروم غُلبت فيها الروم ، فحزن رسول الله لهزيمة الروم ، لأنهم أهل كتاب يؤمنون بالله وبالرسل ، أما الفرس فكانوا كفاراً لا يؤمنون بالله ويعبدون النار وغيره . فمع أنهما يتفقان في تكديسهم لرسول الله ، إلا أن إيمان الروم بالله جعل رسول الله يتعصب لهم مع أنهم كافرون به ، فعصبة رسول الله لا تكون إلا لربه عز وجل

فلما حزن رسول الله لذلك أنزل الله تعالى عليه ﴿ أَنْتُمْ غَلِبَ الرُّومُ ﴾ (٧) في أدنى الأرض وهم من بعد عليهم سيعلمون (٨) في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون (٩) بِبَصَرِ اللَّهِ (١٠) ﴿ [الروم]

فأيُّ عقل يستطيع أن يحكم على معركة ستحدث بعد عدة سنوات ؟ لو أن المعركة ستحدث عداً لا يمكن التنبؤ بنتيجتها ، بناءً على حساب لعدد والعدة والإمكانات العسكرية ، لكن من يحكم على معركة سمدور رجاها بعد سبع سنين ؟ ومن يجروا أن يقولها قرأنا يُتْلَى وَيُتَعَبَّدُ به إى يوم القيامة . فلما أن هذه المدة مرّت ولم يحدث ما أحير به رسول الله لكفر به من آمن وانفص عنه من حوله .

إِذْ مَا قَالَهَا رَسُولُ اللَّهِ قَرَأْنَا يُتْلَى وَيُتَعَبَّدُ بِهِ إِلَّا وَهُوَ وَاثِقٌ مِنْ صِدْقِ مَا يَخْبِرُ بِهِ ، لَأَنَّ الَّذِي يَخْبِرُهُ بِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لِذَلِكَ قَالَ هَذَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . ﴾ (٦) [الفرقان]

وَمِنْ الْعَجِيبِ أَنْ يَنْتَصِرَ الرُّومُ عَلَى الْفُرسِ فِي نَفْسِ الْيَوْمِ الَّذِي انْتَصَرَ فِيهِ الْإِيمَانُ عَلَى الْكُفْرِ فِي غَزْوَةِ بَدْرَ - هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ﴿ وَبِزَمْدٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) بَنَصَرَ اللَّهُ . (٥) [الرُّوم]

وَمَا دَامَ أَنَّ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ هُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَلَنْ يَحْدُثَ نَصَارٌ أَبَدًا سِوَى مَنْطُوقِ الْقُرْآنِ وَمَنْطُوقِ الْإِكْوَانِ ، لِأَنَّ خَالِقَهُمَا وَاحِدٌ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فَمَنْ أَيْنَ يَأْتِي الْاِحْتِلَافُ أَوْ التَّضَارُبُ ؟

ثُمَّ يَقُولُ سُبْحَانَهُ ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَمُورًا رَحِيمًا ﴾ (٦) [الفرقان] فَمَا مَنَاسِبَةُ ائْتِدَائِهِ عَنِ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ هُنَا ؟ قَالُوا : لِأَنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يَرِيدُ أَنْ يَتْرَكَ لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الدِّينَ يَفْرَعُهُمْ مَجَلًّا لِلتَّوْبَةِ وَطَرِيقًا لِعَوْدَةِ إِلَيْهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَإِلَى سَاحَةِ الْإِيمَانِ

لِذَلِكَ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِقَتْلِ الْكَفَّارِ ، لَعَلَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا .^(١)

وَكَانَ الصَّحَابَةُ يَأْكُمُونَ أَشَدَّ الْأَلَمِ لِيَنْ أَهْلَتْ أَحَدَ رَعُوسِ الْكُفْرِ مِنْ

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٣٢٢٦ ، ٧٢٨٩) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٧٩٥) عن حديث عائشة رضي الله عنها عن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ : يا الله قد سمع قوم يؤمنون لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليهم ملك الجبال لئلا يأمروهم بما شئت فيهم ، فنادى ملك الجبال فسلم عليهم ثم قال : يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال ﷺ : يا أبا جبريل إن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشارك به .

القتل في المعركة . كما حدث مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص قبل إسلامهم ، وهم لا يدرون أن الله تعالى كان يدحرجهم للإسلام فيما بعد
مقوله تعالى ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَصَوًا رَّحِيمًا ٦ ﴾ [الفرقان] حتى لا يقطع
سبيل العودة إلى الإيمان بمحمد على من كان كافراً به ، فيقول لهم
على رعم ما حدث منكم إن عدتكم إلى الجادة وإلى حظيرة الإيمان
فعى انتظاركم مغفرة الله ورحمته

والحق - تبارك وتعالى - يُبَيِّن لنا هذه المسألة حتى هي النزوع
العاطفي عند الحلق مهذب بنت عتبة^(١) التي أغرت وحشياً^(٢) بقتل حمزة
عم رسول الله وأسد الله وأسد رسوله . ولم تكتف بهذا ، بل مكنت به
بعد مقتله ، ولاكت^(٣) كسده رضى الله عنه ، ومع ذلك بعد أن أسلمت
وباعت النسي^(٤) نسيت لها هذه الفعلة وكانها لم تكن

ولما قال أحدهم لعمر بن الخطاب هذا قاتل أخيك (يشير إليه)
والمراد زيد بن الخطاب^(٥) ، فما كان من عمر إلا أن قال وماذا أفعل
به وقد هداه الله للإسلام ؟

(١) هي هند بنت عتبة بن ربيعة القرشية ، والدة معاوية بن أبي سفيان . شهدت أحداً في
جانب المشركين وفعلت ما فعلت بحمزة ، وقد أسلمت يوم الفتح . ماتت في خلافة عثمان
(الإصابة في تمييز الصحابة ٢٠٦/٨)

(٢) هو وحشى بن حرب الحبشى مولى بني نوفل . وهو قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ قتله
يوم أحد . وقد أمره النسي ﷺ أن يغيب وجهه عنه ، وقد شاك في حروب الردة في قتل
مسيلة وقد شهد معركة اليرموك ثم سكن حمص ومات بها ، وقد عاش إلى خلافة
عثمان (الإصابة مرجعاً ٩١١٠)

(٣) لاك مضغ وهو مضغ النسي ، الصلب تدبره في فمك واللوك إدارة الشيء في الفم
[لسان العرب - مادة لوك]

(٤) هو زيد بن الخطاب بن ثعلبة العدوي أخو عمر بن الخطاب لأبيه ، له أسماء بنت وهب
من بني أسد . أم عمر فهي حنمة بنت هاشم المحرومة ، وكان زيد أكبر سناً من عمر
وأسلم قبله وشهد بدرًا والمشهد واستشهد بليمة [تمييز الصحابة ٢٧/٣]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ
وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ
فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾

عجيب أمر هؤلاء المعاندين يعترضون على رسول الله أن يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لكسب العيش ، فهل سئو لهم أن رأوا نبياً لا يأكل الطعام ، ولا يمشي في الأسواق ؟ ولو أن الأمر كذلك لكان لاعتراضهم معنى ، إذن قوبهم ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ۝٧﴾ [الفرقان] قول بلا حجة من الواقع ، لستفدركوا بهذه المسألة على رسول الله

فماذا يريدون ؟

قالوا ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان] صحيح أن الملك لا يأكل ، لكن معنى ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ۝٧﴾ [الفرقان] يعني مسأله ، وفي هذه الحالة لن يُغيّر من الأمر شيئاً ، وسيظل كلام محمد هو لا يتغير . إذن لن يصيف الملك جديداً إلى الرسالة وعليه ، فكلامهم هذا سفسطة وجدل لا معنى له

وكلمة ﴿ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان] لم يقولوا مشيراً ، مما يدل على اللدّ واللجاج ، وأنهم لن يؤمنوا ، لذلك لن نغاريهم الإنذار

﴿ أَوْ يُلَقَىٰ إِلَيْهِ كَنُزٌ أَوْ كَوْنٌ لَهُ جَنَّةٌ
يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٨﴾

تلاحظ أنهم يتعزلون في لذتهم وجنكهم . فسمعوا أن طليبا مكا يقولون ﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كُرًۖا ۝٨ ﴾ [الفرقان] أى ينزل عليه ليعيش منه ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۝٨ ﴾ [الفرقان] أى بستان ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ﴾ [الفرقان]

والمسحور هو الذى ذهب السحر بعقله . والعقل هو الذى يختار بين البدائل ويرتب التصرفات . ففاد العقل لا يمكن أن يكون منطقيا فى تصرفاته ولا فى كلامه . ومحمد ﷺ ليس كذلك ، فأنتم تعرفون خلقه وأمانته وتسمونه « الصادق الأمين » وتعرفون بسلامة تصرفاته وحكمته ، كيف تقولون عنه مجنون ؟

ذلك يقول تعالى رداً عليهم ﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْتَفْهِمُونَ ۝١ ﴾ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَحْشُورٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم]

والخلق يسوى تصرفات الإنسان فيجعلها مسعدة غير منسدة ، فكيف - إذن - يكون ذو الخلق مجنونا ؟ إذن ليس محمد مسحورا وفى موضع آخر قالوا ساحر . وعلى فرض أنه ﷺ ساحر ، فلماذا لم يسحركم كما سحر المؤمنين به ؟ إنه لحج الباطل وتخطئه واضطرابه فى المجابهة ثم يقول الحق سبحانه

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَنَلَا

يَسْمَطِلُونَ سَيْبَالًا ۝١ ﴾

﴿ انظروا ۝١ ﴾ [الفرقان] خطاب لإيفس رسول الله وتصميمه ﴿ كيف ضربوا لك الأمثال ۝١ ﴾ [الفرقان] أى اتهموك بشئى القهم فقالوا ساحر وقالوا مسحور وقالوا شاعر وقالوا كاهن ﴿ فصلوا

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ [الفرقان] لَا يَهْمُ بِقَوْلِهِمْ كَذِبًا وَهَرَاءَ وَنَنَاقُضًا فِي الْقَوْلِ

﴿ فَضَلُّوا.. ﴾ [الفرقان] أَيْ عَنْ الْعَمَلِ الَّذِي يَصْدُقُ فِيكَ لِيَصْرِفَ عَنْكَ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ . وَيَحْعِثُ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا يُصِرُّونَ عَلَى كُفْرِهِمْ . فَلَمْ يَصَادَفُوا وَلَوْ مِثْلًا وَاحِدًا ، فَقَالُوا سَاحِرٌ وَكَذِبُوا وَقَالُوا مَسْحُورٌ وَكَذَبُوا ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان] أَيْ إِلَى ذَلِكَ ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ ^(١)

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ لَكَ قُصُورًا ۝١٠﴾

﴿ تَبَارَكَ.. ﴾ [الفرقان] كَمَا قُلْنَا . فَتَرَاهُ وَعَظْمُ حَبِيرِهِ . لَأَنَّ الْكَلَامَ هُنَا أَيْضًا فِيهِ عَطَاءٌ مُتَمَثِّلٌ فِي الْحَبِيرِ الَّذِي سَاقَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ ، فَحَصَاؤُهُ سُبْحَانَهُ دَائِمٌ لَا يَنْقَطِعُ . نَحِيثٌ لَا يَقِفُ حَبِيرٌ عِنْدَ عَطَائِهِ . بَلْ يَظَلُّ عَطَاؤُهُ خَيْرًا مُوَصَّلًا ، فَإِذَا أَعْطَاكَ الْيَوْمَ عَرَفْتَ أَنَّ مَا عِنْدَهُ فِي الْغَدِ خَيْرٌ مِمَّا أَعْطَاكَ بِالْأَمْسِ

(١) سَبَبُ ثُرُولِ الْآيَةِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَمَّا عَيَّرَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْقَائِلَةِ قَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْسُكُ فِي الْأَسْوَاقِ حِينَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَرَّلَ جِبْرِيلُ مِنْ حَيْدِ رَبِّهِ مَعْرِيًا لَهُ فَقَالَ أَسْلَامٌ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . رَبُّ الْعَرَةِ يَقْرُوكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِتْمَمَ بِمَا كُنَّا نَعْلَمُ وَيُخْبِرُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ ﴿٧﴾ [الفرقان] وَقَالَ جِبْرِيلُ ابْشِرْ يَا مُحَمَّدُ ، هَذَا رِضْوَانُ حَازِنِ الْجَنَّةِ قَدْ أَتَاكَ بِالرَّحْمَةِ مِنْ رَبِّكَ فَاقْبَلْ رِضْوَانَهُ حَتَّى سَلِمَ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ رَبُّ الْعَرَةِ يَقْرُوكَ السَّلَامَ . وَهِيَ سَقَطَ مِنْ نَوْرِ يَتَلَاوُا وَيَقُولُونَ لَكَ رَبُّكَ هَذِهِ مِثَابُكَ خَرَّاسَ الدُّنْيَا مَعَ مَا لَا يَنْتَقِصُ لَكَ مِمَّا عِنْدَهُ فِي الْأَعْرَةِ مِثْلُ جَنَاحٍ مِعْرُوضَةٍ . فَقَالَ يَا رِضْوَانُ لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا الْفَقْرُ أَحَبُّ إِلَيَّ وَأَنْ أَكُونَ عَبْدًا صَابِرًا شَاكِرًا . وَيَتَصَرَّفُ وَاجْتِمَاعُ [مِنْ أَسْبَابِ الثَّرْوَةِ لِلْوَحْدَى الْمَيْسَبُورَى ص ١٩ . ١٩٩] ، وَ [تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ ٦ ، ٤٨٦٩]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿يَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن
كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝﴾

يُضرب السياق عن الكلام السابق ، ويعود إلى مسألة تكذيبهم وعدم الإيمان بمحمد ﷺ ، لأن الإيمان ليس في مصلحتهم ، فالإيمان يقتضى حساباً وجزاءً وهم يريدون التماذى في باطلهم والاستمرار في لغوهم واستهناهم ومعاصيهم ، لذلك يُكذِّبون أنفسهم ويحذعونها ليلزلوا على ما هم عليه .

ولذلك ترى الذين يُسرفون على أنفسهم في الدنيا من الماديين والملاحدة والفلاسفة يسمون أن تكون قضية الدين قضية فاسدة كاذبة ، فينكرونها بكل ما لديهم من قوة ، قالدين عندهم أمر غير معقول ، لأنهم لو أقروا به فمصيبتهم كبيرة

ومعنى ﴿أَعْتَدْنَا.. (١٦)﴾ [الفرقان] هَيَانَا وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ سَعِيرًا ، لأن عدم إيمانهم بالساعة هو الذى جرَّ عليهم العذاب ، ولو أنهم آمنوا بها وبلقاء الله وبالحساب وبالجزاء لاهتدوا ، واعتدلوا على اجادة ، ولَنَجُوا من هذ السعير .

والسعير اسم للنار المسعورة التى تلتهم كل ما أمامها . كما نقول كَلْبٌ مَسْعُورٌ ، ثم يقول سبحانه فى وصفها

﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِّن مَّكَانٍ يَبْعِدُ سَمِعُوا مَا نَعِيْظُ وَزَفِيرًا ۝﴾

يريد الحق - تبارك وتعالى - أن يُشَفِّصَ لنا النار ، فهى ترى أهلها من بعيد ، وتتحرش بهم تريد من غيظها أن تُثَبَّ عليهم قبل أن يصلوا إليها والتنفيط ألم وجدانى فى انفس يجعل الإنسان يضيق بما يجد ،

ومن ذلك سمع مَنْ يقول (أنا ح أطلق من جنابى) ، يعنى نتيجة ما بداخله من الغيظ لا يتسع له جوفه ، وما دام الغيظ فوق تحمل النفس وسعته فلا بُدَّ أن يشعر الإنسان بالضيق ، وأنه يكاد ينفجر .

لذلك يقول تعالى عن النار فى موضع آخر ﴿ تَكَادُ تَمَيَّرُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ (٨) [الملك] تَمَيَّرُ يعنى تكاد أبعاضها تنفصل بعضها عن بعض

لكن ، لماذا تَمَيَّرُ النار من الغيظ ؟ قالوا لأن الكون كله مُسَبِّح لله حامد شاكر لربه ، بذلك يُسَرُّ بالطائع ويحبه ويكره العاصى ، ألا ترى أن الوجود كله قد فرح بمولد النبى ﷺ ، فرح لمولده الجماد والنبات والحيوان واستبشر ، لأنه ﷺ جاء ليعيد للإنسان انسجامه مع الكون المخلوق له ، ويعدل الميزان

ومع ذلك ترى من البشر الغفلاء أصحاب الاحتيار مَنْ يكفر ، لذلك تغتاظ النار من هؤلاء الذين شذَّوا عن مظلومة التسبيح والتحميد ورضوا لأنفسهم أن يكونوا أدنى من الجماد والنبات والحيوان ، ومن ذلك يقولون نأنا بهم المكان من كفرهم ، يعنى الأماكن من الأرض تُنكرهم وتتضايق من وجودهم عندها ، كما تفرح الأرض بالطائع وتحبسه ، لأنه ميسجَم معها ، المكان والمكين يتطمان فى مظلومة التسبيح والطاعة .

لذلك يُنْهِنَا إلى هذه المسألة الإمام على - رضى الله عنه - فيقول إذا مات المؤمن بكى عليه موصعان موصع فى السماء وموصع فى الأرض أما فى الأرض فموصع مُصَلَّاه ، لأنه حُرِّم من صلاته ، وأما موضعه فى السماء فموصع عمله الطيب^(١)

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (١٤٣/٤) وعنه لابن أبى حاتم بن عديا قال = إنه ليس من عب إلا أنه مصلى فى الأرض ومصدق عمله فى السماء ، وإن آل فرعون لم تكن لهم من صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء ، ومن أس بن مالك عن النبى ﷺ قال = منا من عبى إلا وله فى السماء باب يخرج منه ريقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه ، فإذا مات فنداه وبكىا عليه = قال الهيثمى فى المجمع = رواه أبو يعلى ، وبه موسى بن حبيبة قريدى وهو ضعيف .

والحق - تبارك وتعالى - يُظهر لنا هذه الصورة في قوله سبحانه ﴿يَوْمَ نَقُولُ لَجَهَنَّمَ هَلِ امْلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٢٠) ﴿٣﴾
فلنار تتشرق لاهلها كالذى يأكل ولا يشبع ، فمعها أنقى فيها من العصاة تقول ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٢٠) ﴿٥﴾

ومعنى ﴿وغيراً﴾ (١٦) [الدرار] النفس الخارج . وفي موضع آخر يقول تعالى ﴿إِذَا أَنْقَا فِيهَا سَمْعُوا لَهَا شَيْعًا وَهِيَ تَمُور﴾ (٧) [الملك] فذكر أن لها شيئاً وغيراً ، وهي في الممكن الضيق

وَإِذَا الْقَوَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَقْرِنِينَ
دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾

فجمع الله عليهم من العذاب ألواناً حتى يقول الواحد منهم لمجرد أن يرى العذاب ﴿يَلَيْسَ كُنْتُ تَوْباً ۚ﴾ (٤) ﴿ألبا﴾ وهنا يدعو بالويل واشتور ، يقول يا ويلاه يا شوراه يعني يا هلاكى تعالى حضر ، فهذا أولئك لتُحلّصى مما أنا فيه من العذاب ، فلن يُنجيى من العذاب إلا الهلاك ، لذلك يقولون أشدّ من الموت الذى يطلب الموت على حدّ قول الشاعر
كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسبُ المنيا أن يُكنُ أمانياً^(١)
ولك أن تتصور بشاعة العذاب الذى يحسن صاحبه يتمنى الموت ، ويدعو به لنفسه

(٦) قال عبد الله بن مسعود: إن جهنم لتضيق على الكافر كتضيق الرج على الريح ذكره ابن المبرث في رقيقته (٢٩٩ - رواه الزهد) وأورده القرطبي في تفسيره (٤٨٧١/٦)

(۲) مقرئین مکتفین قلہ ابو صالح وقین مصفدین قد قوت آپہم إلی اعاقہم فی الأعمال وقین قُربوا مع الشیاطین ای قُرب کل واحد سہم إلی شیطنہ [اور حدہ الاقوال القرطبی عن تفسیرہ (۱۸۷۱/۶)]

(٣) البيت لمسلمي (ديوانه ٢٨١/٤) وذكره شهاب الدين محمود الحلبي في « صناعة النربل » (ص ٢٥٢) في شواهد حسن الابتدات

ثم يقول الحق سبحانه

﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ ١١

يُوبِّخُهُمُ الْحَقُّ - سبحانه وتعالى - وَيُكَيِّدُهُمْ يا خبيبتكم
ويا ضياعكم ، لن سفحكم أن تدعوا ثُبُورًا واحدًا بل ادعوا ثُبُورًا
وثُبُورًا وثُبُورًا ، لأنها مسألة لن تنتهى ، فسوف يُسَلِّمُكم العذاب إلى
عذاب ، حتى ينادوا ﴿يَسْأَلُكَ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ تَأْكُلُونَ
(٧٧)﴾ [الرحمن] وهو عذاب متحدد ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَنَائِهِمْ
جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦)﴾ [النساء]

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل ليكون ذلك أنكى لأهل لشر وأعظم
لهم ، فيذكر بعد العذاب الثوب على الخير وعظم الجزاء على لطاعة ،
ومثل هذه المقابلات كثيرة فى كتاب الله ، كما فى قوله تعالى ﴿إِنْ
الْأَنزَارَ هِيَ يَوْمَ (١٧) وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الأنفطار]

ويقول سبحانه ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾ [التوبة]

ومنا بعد أن نذكر لنار وما لها من شهيق وزفير ، يقول
سبحانه

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ

الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ ١٥

﴿قُلْ (١٥)﴾ [الفرقان] أمر لرسول الله بأن يقول ، والمقول له هم
الذين عترضوا على نبوته ﷺ بعتراضات وهية من المعاصرين له ،

وكانوا يتحيطون في هذه المسائل تخط من لا يعرف فيها حقيقة ، وإنما غرضه فقط أن يتعرض لرسول الله في أمر دعوته ، والتعرض لأي نبي في أمر دعوته من المعاصرين له أمر طبيعي ، لأن الرسل إنما يجيئون حين يستشري الفساد .

وسبق أن قلنا إن الحق - سبحانه وتعالى - جعل في كل نفس ملكة تجعل الإنسان يفعل شيئاً ، ثم تأتي ملكة أخرى فيه لتلومه على ذلك ، حينئذ تكون الممانعة في ذات الإنسان ويسمونها النفس اللوامة ، لكن قد تنطمس فيه هذه الملكة فتتعاون كل ملكاته على الشر ، بحيث تكون النفس بكل ملكاتها أمارة بالسوء ، وهي أمارة بصيغة المبالغة لا أمرة أي أنها أخذت هذا الأمر حرفة لها .

كما لو رأيت رجلاً يتجوز في قطعة من الحشب تقول له : ناخر ، فإن اتخذها حرفة له ، لا يعمل إلا هي ، تقول له : نجار ، ومثله حائط وخياط فالمعنى أمارة بمعنى لم يعد لها عمل في أن تردع عن الشر ، بل دائماً تقوى نوازع الشر في النفس ، وتتأصل فيها حتى نصير لها حرفة .

فماذا يكون الموقف إذن ؟

لا بد أن يجعل الحق سبحانه في نفوس قوم آخرين ملكة الخير ليواجهوا أصحاب هذه النفوس الأمارة بالسوء ، يواجهونهم بالعصم والإرشاد والموعظة ، ويصرفونهم عن الشر إلى الخير فإذا ما سد المجتمع كله ، لا نفس مانعة ، ولا مجتمع مانع ، فلا بد أن تتدخل السماء برسول جديد

ومن رحمة الله بالعالم أنه سبحانه صمم لامة محمد ﷺ أن تكون فيها النفس اللوامة ، وضمن لها أن يظل مجتمعها آمراً بالمعروف ،

ناهياً عن المنكر ، لذلك لا حاجة لرسول بعد رسول الله ﷺ . إنر
فلمناعة موجودة في أمة الإسلام ، ولو لم تكن هذه المناعة موجودة
في النفس أولاً ، وفي المجتمع ثانياً لتسحلت السماء بعد رسول الله
برسول جديد ومعجزة جديدة لبعيد الخلق إلى رُشدهم .

ولا شك أن في المجتمع طائفة تستع بهذا الفساد ، ويعيشون في
ترف في ظله ، فطبعي - إدر - أن يدافعوا عنه ، وطبعي أن يتصدوا
لدعوة الرسول التي جاءت لتعدل ميزان المجتمع ، وأن يقفوا له
بالمرصاد ، لأنه يهدد هذه النفعية ويقصى على مصلحتهم .

وإن كان الرسل السابقون قد تعرضوا لمثل هذا الاضطهاد ، فقد
تعرض رسول الله ﷺ لأصعاف ما تعرضوا له ، لأن اضطهاده ﷺ جاء
مباشراً لضخامة مهمته ، فقد جاءت لرسول قبله ، كل إلى أمته خاصة
في زمن محدد ، أما رسالته ﷺ فقد جاءت للناس كافة ، تعم كل
الزمان وكل المكان إلى أن تقوم الساعة ، فلا بد أن تكون مهمته
أصعب

وهؤلاء اكبراء الدين ينتفعون بالفساد في المجتمع يظنون أن
رسول الله إذا لُوح له بالمال والنعيم يمكن أن يتنازل عن دعوته ،
ويترك لهم الساحة - لذلك اجتمع صناديد قريش على رسول الله ،
يلبسون له بالمال والجاه والسيطان ، ليصدوه عن الدعوة ويصرفوه
عنها ، هؤلاء الذين سماهم استأثنا الشيخ موسى دستة الشر ،
وكانوا اثنا عشر رجلاً ، منهم أبو ابخترى^(١) ، وأبو جهل ،
وأبو سفيان ، والأسود بن المطلب ، وأمية بن خلف ، والحاص بن
واثل وعتبة بن ربيعة ، ومثنى بن الحجاج ، وابوليد بن المغيرة .

(١) أبو البخترى اسمه الحاص بن هشام بن الحارث قاله ابن اسحاق وقال ابن هشام

عن الحاص بن هشام [السيرة النبوية ١/٢٦٤]

وتلاحظ أنهم ارتقوا في مساومة رسول الله من المار إلى الشرف والسياسة ، ثم إلى الملك . فماذا كان موقفه ﷺ ؟ كان موقفه هو الموقف الذي مهد الله له به ، حينما عرض عليه جبريل عليه السلام أن يجعل الله له حبال مكة ذهباً ، فقال ﷺ : بل أشبع يوماً فاشكر ، وأجدرع ثلاثة أيام فأتضرع^٦ .

(٣) عن أبي أمامة قال النبي ﷺ : عرض عليّ ربي ليجهل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً وقال ثلاثاً أو نحو هذا ، فإذا جعلت تصزعج إليك وذكرتك ، وإذا شبعك شكرتك وحمدتك أخرجك الترمذي في سننه (٢٣٤٧) - وحديثي في مسنده (٢٥٤٠) قال الترمذي حديث حسن

وفى موقف آخر ، قال به جبريل يُمِيرُكَ رَبُّكَ أَنْ تَكُونَ نَبِيًّا
ملكاً ، أو نبياً عبداً ؟ فقال « بل نبياً عبداً »^(١)

والنبي مالك منهج السماء ، والمست الذي يملك السيطرة بحيث
لا يستطيع أحد أن يقف في وجهه ، مثل سليمان عليه السلام ، حيث
آتاه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، ومع ذلك لم يكن هذا الملك هو
المطلوب في ذاته ، مدليل أن سليمان عليه السلام مع ما أوتيته من
الملك كان لا يأكل إلا لحوشكار يعنى الخبز الأسمر غير النقي (الردة)
في حين يأكل عبيده ومواليه الدقيق الفاحر النقي^(٢) ، فلم يكن سليمان
يريد الملك لذاته ، إنما ليقوى به على دعوته ، فلا يعارضه فيها أحد .

لذلك ، لما أرسلت إليه منكة سبأ بهدية لتسميه بها ونصرفه عما
يريد رد عليها ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ
مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (٣١) [المد]

ذلك جاءته صغرة تقول ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي رَأَيْتُ مَعَ
سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٤) [المد]

إذن مسألة المال هذه عُصمت على رسول الله قبل أن يقترحها
كفار مكة ، فإذا كان ﷺ قد رفضه ممن يملكه ، فكيف يقبله ممن
لا يملك شيئاً ؟ لذلك قال لهم والله ما بي حاجة إلى ما تقولون .

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص ٢٦٥) ، والطبراني في المعجم الكبير (١٠٦٨٦) ،
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٠/٩) « فيه بقية بين الوليد بن حجر مدلس » وقرأه
لطبراني في الأوسط وقال (٢١٥/١) « فيه سعدان بن الوليد ولم يعرف ، وبقيته
رجاله رجال الصحيح »

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١٤١ طبعة دار الكتاب العربي - بيروت) عن عطاء رضى الله
عنه قال كان سليمان عليه سلام يعمل الحرض بيده ويأكل خير الشعير ، ويطعم
بني إسرائيل الحواري وأورده السيوطي في الدر المنثور (١٨٩/٧) في تفسير آية ٣٥
سورة ص والحواري هو الدقيق الأبيض النقي

فلمست طالب مال ، ولا مُلك ، ولا شرف ، إنما أنا رسول الله أرسلتُ إليكم ومعى كتاب فيه منهجكم ، وأمرنى ربى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فإن جئتم على ما أحب فقد صعدتم حظ الدنيا والآخرة ، وإن ردبتم على قولى فإلى سائس سائس إني أن محكم الله بعباد ، وهو حبيب الحاكمين^(١)

فلجئوا إلى عم النبی ﷺ ، لعنه يستطيع أن يستعمله ، فلم كلمه عمه قال قولته المشهورة « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه »^(٢)

﴿ أَدْلِكُ (١٥) ﴾ [الفرقان] أى ما أنتم فيه الآن من العذاب خير ، أم جنة الفردوس وعد المتقون ؟ احكموا أنتم في هذه المسألة وسنرضى بحكمكم ، إنها إغصاة لأهل النار ، حيث جمع الله عليهم مقاساة العذاب مع النظر إلى أهل الجنة وما هم فيه من النعيم ، ولو كانت الأولى وحدها لكأت كافية ، إنما هو من العذاب ويأتيه أهل الجنة ليُبَكِّتوه ، أبقر ما عاتك من النعيم "

وعنها أيضاً تقرير لهم ، فليس هناك وجه لمقارنة بين الجنة والنار ، فانت مثلاً لا تقول العسل حرام أم الخل ، لأنه مر معروف بذاهة .

وسبق أن تكلمنا عن الصراط ، ولماذا ضرب على مثنى جهنم ، واجميع يعمرون علي ، لأن الله - تبارك وتعالى - يريد أن يجعل لك

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية نحو هذا (٢٩٦/١)

(٢) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٢٩٦/١) معزراً لابن إسحاق أن قريشاً قالوا لابی طالب يا أبا طالب إن بك سناً وشرفاً ومدره هينا ، وإنا قد استسهييناك من ابى أخيك فلم تنهه عن ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم أبائنا ونصفية أخلامنا وعيب آلنا حتى نكف عنه ، أو سارله وبناك من ذلك ، حتى يهلك أحد العرييين فقال رسول الله ﷺ نعمه أبى طالب هذه المقالة

من مرائى النار التى تمرُّ عليها فوق الصراط نعمة أخرى تُذكرك
بالنِجاة من النار قبل أن تباهر نعيم الجنة

لذلك لا يمتن الله علينا بدخول الجنة فحسب ، إنما أيضاً بالنِجاة
من النار ، فيقول سبحانه ﴿لَمَنْ زُحِرَ عَنْ لَوْنٍ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ
فَارَّ..﴾ (١٨٥) ﴿

فالحق - سبحانه وتعالى - يذكر لنا النار ، وأن من صفاتها كذا
وكذا ، أما في لآخرة فسوف نراها رأى العين ، كما قال سبحانه
﴿ثُمَّ نُرْوِيهِمْ عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ (٧) ﴿[التكاثر] وذلك حين تكون على الصراط ،
فتحمد الله على الإسلام الذى أنجأك من النار ، وأدخلك الجنة ، فكل
نعمة منها أعظم من الأخرى

وفى قوله تعالى : ﴿قُلْ أَذْكَاءٌ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ..﴾ (١٥) ﴿[المزمل] كلمة
خير فى اللغة تدور على معنيين : خير يقابله شرٌّ ، وخير يقابله خير
أعظم منه . كما جاء فى الحديث الشريف : « المؤمن القوي خير
وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلِّ خير »^(١) فكلاهما فيه
خير ، وإن راد الخير فى المؤمن القوي ، وعادة ما تاتى (من) فى
هذا الأسلوب . هذا خير من هذا

أما الخير الذى يقابله شر ، فمثل قوله تعالى ﴿أَوَلَيْسَ لَهُمْ خَيْرُ
الْبَرِيَّةِ﴾ (٧) ﴿[السنه]

والجنة كما نستعملها فى استعمالات الدنيا هى المكان الملبى
بالأشجار والمرروعات التى تستر السائر فيها ، أو تستر صاحبها أن
ينتقل منها إلى خارجها ، لأن بها كل متطلبات حياته ، بحيث يستغنى
بها عن غيرها ، لذلك أردفها الحق - تبارك وتعالى - بقوله
﴿الْخُلْدِ﴾ (١٥) ﴿[العنقا]

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده [٢٦٦/٢ ، ٢٧] ومسلم فى صحيحه (٢٦٦١)
وابن حبان فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه

إِنَّ فِ الْجَنَّةِ لَنَی تَرَاهَا فِی اَدْنِیَا مَهْمَا بَغْتَ قَلِیْسَتْ هِی جَنَّةُ الْخُلْدِ ، لِأَنَّهَا لَا یَدُ إِلَى زَوَالٍ ، فَعُمُرُهَا مِنْ عُمُرِ دُنْیَاهَا ، كَأَنَّهُ سَبْحَانُ یَقُولُ لِكُلِّ صَاحِبِ جَنَّةٍ فِی الدُّنْیَا لَا تَعْتَرُ مَجِئَتُكَ ، لِأَنَّهَا سَتَقُولُ إِلَى رِوَالٍ ، وَأَشَدُّ الْغَمِّ لَصَاحِبِ السَّرُورِ أَنْ یَتَقَنَّ زَوْلَهُ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ أَشَدُّ الْغَمِّ عِنْدِی فِی سُرُورٍ تَیَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ اِنْتِقَالَاً لِدَلِّكَ نُطْمَئِنُّ اِلِلّٰهِ نَعَالِی عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِیْنَ بِأَنَّ الْجَنَّةَ الَّتِی وَعَدَهُمْ بِهَا هِی جَنَّةُ الْخُلْدِ وَلِبَقَاءٍ ، حِثَّ لَا یَفْیُی بَعْمَهَا ، وَلَا یُنْعَصُ سُرُورُهَا ، فَلَذَٰلِكَ دَائِمَةٌ . لَا مَقْمُولُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ اَلَّذِیْ وَعَدَ الْمُتَّقِیْنَ (١٠٥) ﴾ [البقرة] الْوَعْدُ هُنَا مِنْ اِلّٰهِ تَعَالَى اِذْ یَمْلِكُ كُلَّ اَسْبَابِ الْوَفَاءِ ، وَالْوَعْدُ بِبَشَارَةِ خَیْرٍ قَبْلَ مَجِئِهِ لِتُسْتَعْدَّ لِأَنَّ تَكُونَ مِنْ اَهْلِهِ ، وَیَقَابِیهِ الْاِیْدَارُ ، وَهُوَ الْبَهْدِیْدُ شَرُّ قَبْلَ مَجِئِهِ لِتَتَلَفَّاهُ ، وَتَحْتَسِبُ اَسْبَابَ الْوُقُوعِ فِیهِ .

وَكَلِمَةُ (مَّتَّقِیْ) الْاَصْلُ فِیْهَا مَنْ جَعَلَ بَیْنَهُ وَبَیْنَ الشَّرِّ وَقَايَةً ، كَمَا یَقُولُ سَبْحَانَهُ ﴿ فَاتَّقُوا اِسَارَ (٢٤) ﴾ [البقرة] یَعْنِیْ اِجْعَلُوا بَیْنَكُمْ وَبَیْنَهَا وَقَايَةً وَمِنْ الْعَجِیْبِ اَنْ یَقُولَ سَبْحَانَهُ ﴿ اَتَّقُوا اللّٰهَ (١٩٤) ﴾ [البقرة] وَیَقُولُ ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ (٢٤) ﴾ [البقرة] وَالْمَعْنِیْ اِجْعَلُوا بَیْنَكُمْ وَبَیْنَ صِفَاتِ جَلَالِهِ الْقَهْرِیَّةِ وَقَايَةً ، لِأَنَّكُمْ لَا تَتَصَلَّوْنَ صِفَاتِ قَهْرِهِ ، وَالنَّارُ جُنْدٌ مِنْ حُنُودِ اِلّٰهِ فِی صِفَاتِ جَلَالِهِ ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ اِتَّقُوا حُنُودَ صِفَاتِ الْجَلَالِ مِنْ اِلّٰهِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ كَاثَتْ لَهُمْ جَزَاؤُ . (١٠٥) ﴾ [البقرة] أَمِیْ جَزَاءُ لِمَا قَدَّمُوا ، وَهَذَا الْمَعْنِیْ رَاضِحٌ فِی قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ كَلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِیْئًا بِمَا أُسْلِفْتُمْ فِی الْاَیَّامِ الْخَالِیَةِ (٢٤) ﴾ [البقرة] فَهَذَا بَعْلِیْلٌ مَا هُمْ فِیهِ مِنْ النِّعَمِ اَنَّهُمْ كَثِیْرًا مَا تَعَبُوا ، وَاضْطَهَدُوا رَعْدُبُوا ، وَجَزَاءُ مِنْ عَذَابٍ فِی دِیْنِنَا اَنْ تُسْعِدَهُ الْاَنُّ فِی الْآخِرَةِ

﴿وَمَصِيرًا ۝٢٨٥﴾ [المزمل] أى يصيرون إليه ، إذن لا تنتظر إلى ما أنت فيه الآن ، لكن انظر إلى ما نصير إليه حتمًا ، وتأمّن وجودك في الدنيا ، وأنه موقوت مظلون ، ووجودك في الآخرة وأنه باقٍ دائم لا ينتهى . لذلك يقولون إياك أن تدخل مدخلًا لا تعرف كيفية الخروج منه .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ
كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ۝٢٨٦﴾

في الآية السابقة قال سبحانه ﴿جَنَّةُ الْجَنَّةِ .. ۝٢٨٥﴾ [المزمل] وهذا يقول ﴿خالدين .. ۝٢٨٦﴾ [المزمل] وهذه من المواضع التي يرى فيها السطحيون تكرارًا في كلام الله ، مع أن الفرق واضح بينهما ، فالجنة الأولى للجنة ، أما الثانية فلاهلها ، بحيث لا تزول عنهم ولا يزولون هم عنها .

وقوله ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. ۝٢٨٦﴾ [المزمل] كان امتياز الجنة أن يكون الذي دخلها ما يشاء وفي هذه المسألة بحث يجب أن نتنبه إليه ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. ۝٢٨٦﴾ [المزمل] يعنى إذا دخل الجنة فلك فيها ما تشاء . إذن لك فيها مشيئة من العليم ولا تشاء إلا ما تعرف من العليم المحدود . أم نجمة ههنا ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر

وهذا الوعد لا يتحقق للمؤمن إلا في الجنة ، أما في الدنيا فلا أحد يبال كل ما يشاء - حتى الأنبياء - ألا ترى أن نوحاً عليه السلام طلب من ربه نجاة ولده فقال ﴿إِنْ أُنِي مِنْ أَهْلِي .. ۝٢٨٥﴾ [هود] فلم يحب إلى ما يشاء

ومحمد ﷺ - رغم كل الممارلات - لم يتمكن من عداية عمه
أبي طالب . وهذا لا يكون إلا في الدنيا ، لذلك فاعلم أن الله تعالى حسين
يحجب عنك ما تشاء في الدنيا إنما ليدخره لك كما يشاء في الآخرة ، مع
أن الكثيرين يظنون هذا حرماناً ، وحاشا لله تعالى أن يحرم عبده .

وفي قوله ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ (١٦) [الفرقان] عطاءات أخرى ،
لكل ربك يعطيك على قدر معرفتك بالنعيم ، ويجعل عليك (ككترولاً)
فأنت تطلب وربك يعطيك ، ويدخر لك ما هو أفضل مما أعطاك .

والمشيئة في الأخرى ستكون بنفسيت وملكات أخرى غير
نفسيات وملكات مشيئات الدنيا ، إنها في الآخرة نفوس صفاءة
حالصة لا تشتهي غير الخير ، على خلاف ما نرى في الدنيا من
ملكات تشتهي لسوء ، لأن الملكات هنا محكومة بحكم الجبر في
أشياء والاختيار في أشياء الجبر في الأشياء التي لا تستطيع أن
تترجح عنها كالمرض والموت مثلاً ، أما الاختيار ففي المسائل
الأخرى

ثم يقول سبحانه ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مُسْتَوْلاً﴾ (١٦) [الفرقان]
الوعد - كما قلنا - البشارة بخير قبل أوانه وبعض العلماء يرى أن
وعداً هنا بمعنى حق ، لكن هل لأحد حق عند الله ؟

وفي موضع آخر يُسميه تعالى جزاءً ، فهل هو وعد أم جزاء ؟
نقول حينما شرع الحق سبحانه الوعد صار جزاءً لأن الحق -
سارك رتعالى - لا يرجع في وعده ، ولا يحول شيء دون تحقيقه .

وكلمة ﴿مُسْتَوْلاً﴾ (١٦) [الفرقان] من السائل هنا ، قالوا الله تعالى
علّمنا أن نسأله ، واقرا قوله تعالى ﴿رَبِّاْ وَاٰتَاْ مَا وَعَدْنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ..﴾
(٩٣) [ال عمران] فقد سألناها نحن

وكذلك سألتها الملائكة ، كم جاء في قوله سبحانه على لسان
الملائكة ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ .. ﴾ (٨) [غافر]
فالجنة - إس - مسئولة من أصحاب لسان ، ومسئولة من
الملائكة الذين يستغفرون لنا^(١) .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ
أَنْتُمْ أَصْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ (١٧)

قوله ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ (١٧) [الفرقان] الحشر جمع الناس
أجمعين من لُدس آدم - عليه السلام - وإلى أن تقوم الساعة في مكان
واحد ، ولغاية واحدة ، وإذا كنا الآن نضج من الزحام ونشكو من
ضيق الأرض بأهلها ونحن في حين واحد ، فما بالك بموقف يجمع
فيه كل الخلائق من آدم إلى قيام الساعة ؟

والعبادة أن يطيع العابد أوامر معبوده ، فينبغي أن ننظر في كل
من له أمر بطيعه هو أمر من ذاته ؟ أم أمر مُبَلَّغ من أعلى منه
رسول أو إله ؟ فإن كان الأمر من ذاته فعليك أن تنظر أهو مُسَبَّح أم
يتعارض مع نص شرعي ؟ فإن كان مسابحاً فلا بأس في إطاعته ، أما
إن كان مخالفاً للشرع فإن أطعته فكانت تمعيده من دون الله .

(١) أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي من طريق سعيد بن ملال عن محمد بن كعب القرظي عن
قوله ﴿ كَانَ عَلَى رِبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ (١) [الفرقان] قال ابن الملائكة تسأل بهم دسه في قولهم
﴿ وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ (٢) [عائز] قال سعيد وسمعت أبا حازم يقول إن
كان يوم القيامة قال المفسرون ربنا صلنا لك سألني أمرفا فاسير لنا ما وعدت فذلك
قوله ﴿ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ (١٦) [الفرقان] ورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٤١

إِذْ نَحْيَمُ يَا مَرْكُ الْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ أَوْ الزَّكَاةِ أَوْ الصُّومِ فَأَنْتَ قَبْلَ
أَنْ تَطِيعَهُ أَطَعْتَ مَنْ حَمَلَهُ هَذِهِ الْأَمَانَةُ ، وَالَّذِينَ يَطِيعُونَ مَنْ يَأْمُرُونَهُمْ
بِأَشْيَاءٍ مُخَالِفَةٍ لِمَنْهَجِ اللَّهِ عِبَادِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَجَعَلُوهُمْ آلِهَةً
مُطَاعِينَ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي الشَّيَاطِينِ ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى
أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ (١٧١) [الأنعام] وَأَخْرَجُوا عِبَادُوا الطَّاعُونَ ، أَوْ
عِبَادُوا الشَّمْسِ ، أَوْ الْقَمَرِ ، أَوْ النُّجُومِ ، أَوْ الْأَصْنَامِ وَالْجَمَادِ

وَمَعْنَى أَنْ عِبَادَةُ هَذِهِ الْجَمَادَاتِ عِبَادَةُ مَاطِلَةٍ خَاطِلَةٍ ، فَالْعِبَادَةُ
إِطَاعَةُ أَمْرٍ وَغُلٍّ لِلْجَمَادَاتِ أَمْرٍ لِأَحَدٍ ، إِنَّمَا الْعِبَادَةُ إِنْ صَحَّتْ بِهَذَا
الْمَعْنَى فَتَكُونُ لِمَنْ يَمْلِكُ أَمْرًا أَوْ سُلْطَةً رَمَضِيَّةً مِنَ الرَّهْطِ ، أَوْ مِنْ
الشَّيَاطِينِ ، أَوْ الْمَلَائِكَةِ ، أَوْ مِنْ عَسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ قَالَ النُّعْمُ
بِالْوَهَيْتَةِ أَوْ الْهَرِيرِ الْخِ رَدَخَاتِ الْجَمَادَاتِ مَعَ هَؤُلَاءِ عَلَى سَبِيلِ
الْعُمُومِ

لِذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ وَفَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
(١٧٢)﴾ [الفرقان] يَعْنِي يَجْمَعُ الْعَابِدَ عَلَى الصَّلَاةِ وَالْمَعْبُودَ عَلَى الصَّلَاةِ
فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ مَعًا ، لِمَاذَا ؟ لِأَنَّ الْعَابِدَ إِذَا وَحَدَ نَفْسَهُ فِي الْعَذَابِ
رَبِّمَا أُنْتَظَرُ مَعْبُودُهُ أَنْ يُنْقِذَهُ مِنَ الْعَذَابِ ، لَكِنْ مَا هُوَ يَسْبِقُهُ إِلَى النَّارِ
وَيَقْطَعُ عَنْهُ كُلَّ أَمَلٍ فِي النَّجَاةِ

وَقَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ
صَلُّوا السَّبِيلَ﴾ (١٧٣) [الفرقان]

وَالْخَطَابُ هُنَا مُوَحَّدٌ لِمَنْ يَبْقَى مِنْهُمْ ، وَلَا مَانِعَ أَنْ يَكُونَ لِلْجَمِيعِ ،
فَنَحْنُ نَتَحَدَّثُ عَنِ الْقَابِلِ الَّذِي نَعْرِفُهُ ، وَقَدْ بَيَّنَّا لَنَا الْحَقَّ - تَدْرِكُ
وَتَعَالَى - أَنْ لِكُلِّ شَيْءٍ لُغَةٌ ، فَلِمَاذَا نَصْنَعُ أَنْ يَكُونَ الْخَطَابُ هُنَا
لِلْعَاقِلِ وَغَيْرِ الْعَاقِلِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَرُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ

بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُوْا تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ [الإسراء]

وقد قال سليمان عليه السلام وهو ممن فقه التسبيح . ﴿رَبِّ ارْزُقْنِي﴾^(١) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. ﴿١٥﴾ [الاحقاف] لما سمع النملة تُحَذِّرُ قومها ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ .. ﴿١٨﴾ [النمل] فتنسَّم سليمان عليه السلام - لما سمع من النملة وسعَاء قولاً - وفي هذا ردُّ على مَنْ يقول إن التسبيح هنا من النملة تسبيحُ حال ، لا تسبيح مقال .

وهو قولٌ مخالف لبعض القرآن الذي قال ﴿وَلَسْكَنَ لَّا تَفْقَهُوْا تَسْبِيحَهُمْ﴾ .. ﴿٤٤﴾ [الإسراء] فقد حكم الحق سبحانه بأنك لا تفقه هذا التسبيح ، فإن قلت هو تسبيح دلالة فقد فقته ، وقد حكم سبحانه بعدم فقهك له إلا إذا عرفك الله تعالى ، وأطلعك على لغت هذه المخلوقات .

ولماذا يستبعد هذه المسألة والعلم الحديث يُقرّر الآن أن لكل أمة من أمم الموجودات لغتها الخاصة ، وألسنتها تتحدث الآن فيما بيننا بلغة غير مطبوعة ، وهي لغة الإشارات التي يتفاهم بها البحارة مثلاً ؟

فالحق - سبحانه وتعالى - يسأل المعبودين ﴿أَأَنْتُمْ أَضَلُّهُمْ﴾ عبادى هؤلاء .. ﴿٧﴾ [الفرقان] والله يعلم إن كانوا أضلّوهم أم لا .
لذلك أجاب عيسى - عليه السلام - على مثل هذا لسؤال فى قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْصِي ابْنُ مَرْيَمَ أَمَّا قُلْتُ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَسَّى مَا فِى نَفْسِي .. ﴿١١٦﴾ [المائدة]

وسؤال الله للمعبودين تقريراً للعابدين أمام مَنْ عبدوهم ، ولو أن

(١) أورعه أن يفعل كذا دمعته وحجته وإعراجه أو ألهمه وأرشده قال تعالى ﴿رَبِّ ارْزُقْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ .. ﴿١٥﴾ [الاحقاف] أى ألهسى شكرك وأدعسى ربىبه وحجبه لى [القاموس اللوهم ٢ / ٣٧٤]

عبادتهم بحق لكان المعبودون دافعوا عن هؤلاء أمام الله . لذلك جاء عيسى عليه السلام ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أُمِرْتُ بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ ۝١١٧ ﴾ [المائدة]

أما الآخرون فقالوا ما أضللناهم ، بل هم ضلّوا السبيل .

وكلمة ﴿ عِبَادِي ۖ ۝١١٧ ﴾ [الفرقان] سبق أن قلنا إن (عبد) تُجمع على (عباد) و (عبيد) ، وعبد يعنى أنه خاضع لأمر السيد ، وليس له تصرف من ذاته ، إن نظرت هذه النظرة فكل خلق الله عبيد ، لأن هناك أشياء لا يخرجون فيها عن مراد الله تعالى كميلاده على شكل خاص أو مرضه أو وفاته

لذلك نقول لنذين ألقوا مخالفة أوامر الله وانتمرد عليه سبحانه قد تتمردون على الإيمان به فتكفروا ، وقد تتمردون على الإيمان برسوله فتكذبوا ، وقد تتمردون على حكم من الأحكام فتتحالفوه .

إذن لكم جرأة على المخالفة وإلّف للتمرد ، وما دام بك دُرْبَةٌ على ذلك ، فعليك أن تتمرد أيضاً عند المرض وتقول لن أمرض وبسمرّد على انموت فلا تموت لكن هيهات ، فهذه مسائل ، الكل فيها عبيد لله مقهورون لإرادته سبحانه ، المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي

وهناك أمور أخرى جعلها الله بالاختيار . فالدين سبقَتْ لهم من الله الحسنى وألهموا التوفيق يتنازلون عن اختيارهم لاختيار ربهم ومراده . فيكونون عبيداً لله فى كل الأمور القهرية وغير القهرية ، ومؤلاء هم الذين يستحقون أن يكونوا عباداً لله

فالعباد - إذن - يشتركون مع العبيد فى القهرية ، ويتميزون عنهم بتنازلهم عن مرادهم لمراد ربهم ، وعن اختيارهم لاختياره عز وجل . لذلك سمّاهم عباداً ، كما جاء فى قوله سبحانه

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا^(١) وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٢﴾ [الفرقان]

والاستعظام في قوله سبحانه ﴿أَأَنْتُمْ أَصْلَلْتُمْ عِبَادِي ۝١٧﴾ [الفرقان] يقول فيه بعض غير المؤمنين لفهم عن الله أما كان يقول أصللتهم عبادي - ونقول لهؤلاء - ليس لديكم الملكة اللغوية لفهم القرآن ، فأنت تستفهم عن الفعل إذا لم يكن موجوداً أمامك ، تقول أمنت الحث الذي أحبرني أنك سببني ٩ فيحذرك ببيتك أو لم أنه . أما حين تقول أبتيت هذا البيت ٩ فالسؤال ليس عن البناء ، إنما عن فاعله ، أنت أم غيرك ؟ لأن البناء قائم أمامك .

إن فرق بين السؤال عن الحدث ، والسؤال عن فاعل الحدث وإصلال هنا موجود فعلاً ، فالسؤال عن الفاعل ﴿أَأَنْتُمْ أَصْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝١٧﴾ [الفرقان]

وسمأهم عباداً هنا مع أنهم ضالون ، لأن الكلام في الآخرة . حيث لم يعد لأحد اختيار ، الاختيار كان في الدنيا وعليه ميزنا بين العبيد والعباد ، أما في الآخرة فالجميع عبيد والجميع عباد ، فقد زال ما يميزهم لأنهم جميعاً مقهورون لا اختيار لأحد منهم .

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ

يَدْبَعِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ

وَأَبْكَاهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۝١٨﴾

(١) المشي هوناً بالسكينة والوقار . قاله عكرمة ومجاهد قبيحا نكح عصب ابن منظور في [لسان العرب - مادة هون]

كلمة (سبحان) أى تنزيهاً لله تعالى فى ذاته عن مشابهة
الذوات . وتنزيهاً لله تعالى فى صفاته وأفعاله عن مشابهة الصفات
والأفعال ، فله سمع ولك سمع ، وله وجود ولك وجود . وله حياة
ولك حياة ، لكن أحياتك كحياة الله ؟ الله جبار وأنت قد تكون جباراً .
الله غنى وأنت قد تكون غنياً فهل غناك كغنى الله ؟ والله تعالى فعل
ولك فعل ، فهل فعلك كفعل الله ؟

إنَّ هناك فرقاً بين الصفات الذاتية والصفات الموهوبة التي يقصها وأهداها إن شاء

وَنَدُّ نَقَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَيُقَصِّدُ بِهَا التَّعَجُّبُ مَحِينٌ تَسْمَعُ كَلَامًا
عَجِيبًا نَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ بِعَيْنِي أَنَا أَمْرُهُ أُنْ يَكُونُ هَذَا الْكَلَامُ حَدَثٌ .

لذلك يقولون هنا ﴿سُبْحَانَكَ ..﴾ (٨) [الفرقان] يعنى عحية أنا
حصل ، كيف ونحن بعدد جعل الآخرين يعدونا ، والمعنى أن هذا
لا يصح مثلاً ، كيف ونحن ندعو الناس إلى عبادتك ، وليس من المعقول
أننا ندعهم إلى عبادتك وتحمّل نحن لكى يعدونا ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ
يَبْعَى لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ..﴾ (٩) [الفرقان]

هانت علينا الذي نتقرب إليه ، وقد بعثنا مهمة من المهمات ،
ولا بد أن صواب اختيارك لنا يصعب أن يفعل هذا ، وإلا ما كد أمماء
على هذه المهمة فسبحانك تنزيها لك أن تحتر من ليس جديرا
بالمهمة ، فباخذ الأمر منك لنفسه

ومعنى ﴿مَا كَانَ يَمْعَىٰ لَهَا﴾ (١٨) ﴿[العدون] نفى الانبغاء ،
نقول ما ينمى لفلان أن يفعل كذا كما قال تعالى في حق
رسوله ﷺ ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَمْعَىٰ لَهُ﴾ (٦١) ﴿[يسر] والشعر
ملكة وعوهة بيان أداتية ، وكان العرب يفاضلون بهذه العوهة ، وإن

نبيغ فيهم شاعر افتخروا به ورفع من شأنهم ، ولقد توهرت لرسول
الله هذه الملكة

ولو كان ﷺ شاعراً لكان شاعراً مُبدعاً ، لكنه ﷺ ما ينبغي له
ذلك لأن الشعر مبنى على التخيل ، لذلك أبعد الله عن الشعر حتى
لا يظن القوم أن ما يأتي به محمد من القرآن تخیلات شاعر ، فلم
تكن طبيعة رسول الله جامدة لا تصلح للشعر ، إنما كان ﷺ ذا
إحساس مرهف ، ولو قدر له أن يكون شاعراً لكان عظيماً

وقد قال الحق سبحانه وتعالى عن الشعراء

﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾
وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ [الشعراء]

وقالوا عن الشعر : أعذبه أكذب ، لذلك لم يدخل رسول الله طوال
حياته هذا المحال

إنذر قلوبهم ﴿ سُبْحَانَكَ .. ﴾ [المزمل] ربُّ على ﴿ أَأَنْتُمْ أَصْلَلْتُمْ
عِبَادِي هَؤُلَاءِ .. ﴾ [الفرقان] ثم يذكر الدليل على ﴿ أَمْ هُمْ صُلُوا
السَّبِيلَ ﴾ [المزمل] في قوله ﴿ وَلَنْسَكُنْ مَنَعْنَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا
الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفرقان] ﴿ ١٨ ﴾ بلما منعتهم يا ربُّ أترقهم
النعيم وشعلتهم النعمة عن النعيم ، فأنصرفوا عن الجادة

والآية تنبه المؤمن ألا يأسى على نعيم فاته ، وربما هتك هذا
النعيم وصرفك عن المنعم عز وجل ، فمن الخير : إنس . أن يمنعه الله
عك ، لأنك لا تضمن نفسك حال النعمة .

وقوله تعالى ﴿ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ .. ﴾ (١٨) [المزمل] أي نسوا
المنعم ، وحقق النعمية ألا تنسى المنعم لذلك سسبق أن قلنا إن

الصحيح إن كان في نعمة العافية من المنعم سبحانه فالمرضى الذي
حُرِمَ منها ليس في نعمة المنعم ، إنما في صحته ومعيقه .

ومن هنا لما مرض أحد العارفين بالله كان يعضب إذا دُعِيَ له
بالشفاء ، ويقول لعائده لا تقطع عليّ أنسى برى

وجاء في الحديث القدسي : يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدني
قال وكيف أعودك وأنت رب العالمين ، قال أما علمت أن عبي
فلاماً مرض علم تعدّه ، أما لك لو عدته لوجدتني عنده ^(١)

إس حينما يعلم المريض أنه في معية الله يستحي أن يجزع
ومعنى ﴿ قَوْمًا بُورًا ﴾ (١٨) [الفرقان] البور الهلاك ، ومنه أرض بُور ،
وهي التي لا تُنتج

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا
نَصْرًا وَمَنْ يَطْلِمَ مِنْكُمْ ثَقَلَهُ عَذَابٌ كَبِيرٌ ﴾ (١٩)

بعد أن سألهم الحق - تبارك وتعالى - وهو أعلم بهم ﴿ أَأَنْتُمْ
أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ .. ﴾ (٧) [الفرقان] وأجابوا ﴿ وَلَنْكَسَ مُتَعَتِهِمْ
وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى سَوَّاءُ الذِّكْرِ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ (١٨) [الفرقان] وقد هزهم هذا
السؤال هزّة عنيفة أراد سبحانه أن يبرّثهم فقال ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا
تَقُولُونَ ﴾ (١٩) [الفرقان] يعني أنا أعرب أنكم قلتم الحق ، لكنهم
كذبوا بما يقولون ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا .. ﴾ (١٩) [الفرقان]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٩) كتاب البر والصلة - من حديث أبي هريرة رضي الله
عنه

فالتفت إليهم . والصرف أن تدفع بدالك عن دالك الشر إن تعرض به أحد لك ، والنصر إذا لم تستطع أنت أن تدفع عن نفسك فيأتي من يدفع عنك

ثم يقول سبحانه ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [١٩] ﴿[الفرقان] وقد يسأل سائل لماذا يخاطب الحق سبحانه أولياءه بهذا العنف ؟ قالوا هي الراجع ليس هذا العنف نهراً لأولياء الله ، إنما رجر ولفئت نظر للآخرين ، فهذا كان الحق سبحانه يخاطب أهل طاعته بهذا العنف ، فما بالك بأعدائه والخارجين عني منه ؟

إنهم حين يسمعون هذا الخطاب لا يد أن يقولوا مع أن الله اصطفاهم وقرَّبهم لم يمنعه ذلك أن يوجههم إلى الحق وينهرهم

ألم يقل سبحانه عن حبيبه ونبيه محمد ﷺ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَحَدْنَا مِنْهُ بَأْسًا مِنْ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾ [الحاقة] فالحق - تبارك وتعالى - يتحدث عن نبيه بهذه الطريقة ليخيف الآخرين ويرهبهم .

واظلم أخذ حق الغير ومم دام أن الله تعالى حرَّم ذلك ، فهذا يعني أن الله يريد أن يتمتع كل واحد بثمرة مجهوده ، لأن أمر الحياة لا تستقيم إن أخذ الإنسان ثمرة غيره . وتعود أن يعيش على دماء الآخرين وعرقهم ، لذلك نرى في المجتمع بعض المحرمين والمنحرفين (الفاقدين) الذين يعيشون على عرق الآخرين وهم لا يعرفون

(١) الوتين عرق من القلب إن قطع مات صاحبه وهو الشر من الرئيس الهام الذي يغذي الجسم بالدم النقي الخارج من القلب قال تعالى ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾ [الحاقة] أي أمتد عاجلاً وأمكنه سريعاً إذا خالف أمرنا أي مخالفة [العاموس بقويم ٣٦٩/٢]

وحيث يُؤخذ الحق من صاحبه ، ثم لا يجد مَنْ ينصفه ، ويعيد له حقه المسلوب يميل إلى الكسل ويزهد في العمل وبذل المجهود ، ومعلوم أن العمل لا تعود ثمرته على صاحبه فحسب ، وإنما على الآخرين حيث يُيسر للناس مصالحهم ، ويُسهل بحركته في حركة المجتمع

وسبق أن قلنا إن الفرق بين المؤمن وغيره في العمل أن الكافر يعمل لنفسه أما المؤمن فيعمل لما يكفيه ، ويحدهد ليساعد الآخرين ، لذلك عليك أن تعمل على قدر طاقتك لا على قدر حاجتك ، فحاجتك تتوفر لك مما أتيت به بطاقتك ، ثم يكون الباقي عندك لمن لا يقدر على العمر وليس بديه طاقة

والمعركة التي تدور بين الكفار والمؤمنين وعلى رأسهم الرس ، الله تعالى يفصل فيها ، يقول لا يستطيع أحد من حكمي أن يظلمني لأن المظلوم فيه نقطة ضعف ، والظالم فيه نقطة قوة ، لذلك يقول سبحانه ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ (٥٧) ﴿[اسقرة] أى لا يقدر أحد على ذلك﴾ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿[البقرة] ٥٧﴾ فظلمهم لأنفسهم ، لا للمؤمنين

فالحق - تبارك وتعالى - يغار على عبده أن يظلم نفسه ، لأن لإنسان ملكات متعددة ملكة الاشتهاء العاجل وملكة التأني الآجل والتلميذ المحتهد اختار الراحة الآجلة ، والكسول اختار الراحة العاجلة ، فكلاهما مُحِبٌ لنفسه يسعى إلى راحتها ، لكن فرق بين حُبِّ واع ، وحُبِّ أحمق ، فالأول يتحمل المشاق لينال في نهاية الأمر أعلى المراتب والآخر تستهويه الراحة العاجلة ، وسرعان ما يجد نفسه ضالوكا في المجتمع ، فمتعة الأول أبقي وأطول ، ومتعة الآخر سريعة منتهية

هذه قاعدة عامة تُقال في عمل الدنيا ، وتُقال في عمل الآخرة ،
 فالحق - تبارك وتعالى - خلق الإنسان ويحب منه ألا تظلم ملكة في
 النفس ملكة أخرى ، وألا تظلم ملكة العجلة ملكة التأني ، لأن ملكة
 العجلة تأخذ خيراً عاجلاً منتهياً ، أما ملكة التأني فتأجل لحير الأجل
 الباقي غير المنتهى .

إذن فإِنَّه تعالى يريد لصنعتَه ، سواء المؤمن أو الكافر ألا يظلم
 نفسه ، لأن الله كَرَّمَه وخلق الكون كله لخدمته وسعَّره من أجله ،
 بذلك يقول له : إني لا أستطيع أن تظلمني ولا تظلم المؤمنين ، إنما
 تظلم نفسك ، فربُّ يعاقب الإنسان على أنه ظلم نفسه بهر نِعَمِ الرَّبِّ
 لذلك جاء في الحديث القدسي : « يا ابن آدم ، أنا لك مَحِبٌّ -
 بدليل أنتى أعاقبك إذا ظلمت نفسك - فيحَقُّ عليك كُنْ سى مُحِبًّا »^(١)

وحيث يُصَحِّمُ الحق - سبحانه وتعالى - العقوبة ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ
 نَفْسَهُ يَرْجُها كَبِيراً﴾ [الفرار] إنما لِيُنْفِرَ عبادَه منها ، ويبتعد
 بهم عن أسبابها فلا تقع .

وكثيراً ما يعترض أعداء الإسلام على قوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي
 الدِّينِ...﴾ [البقرة] يقولون : فساداً تقتلون مَنْ يرتد عن الإسلام ؟
 وهؤلاء لا يدرون أن هذا استحکم تضعه عقبة في طريق كل مَنْ يريد
 الإيمان ، وتنبيه له حتى يفكر جيداً فيمضو هو مُقبل عليه إن اختار
 الإسلام ، فلا يدخله إلا بعد رصاً واقتناع تام ، وحين يعلم هذا الحكم
 يحتاط للأمر عيديل عليه بمحض اختياره وتعقله

فالإسلام لا يريد كثره مُتسرعاً ، إني يريد بروياً وعقلاً وندراً .

(١) أورده الإمام أبو حامد الغزالي في : إحياء علوم الدين . (٢٩٦/٤) قال : « في بعض
 الكتب عيلى ما وحقك لك محب فيحقى عليك كن لى مدد »

وهذا يُحسب للإسلام لا عليه ، فهو سلعة غالية يثق صاحبها في جودتها كما تذهب إلى تاجر القماش مثلاً ، فيمرض عليك بضاعته ويظهر لك جودتها ويختبرها أمامك ، لماذا ؟ لأنه واثق من جودة بضاعته .

ومن ذلك ما حُتِمَتْ به كثير من آيات الذكر الحكيم مثل تفكروا ، تعقلوا ، تذكروا ، وهذا دليل على أنك لو تعمقت ، لو تدبرنا ، لو تذكرنا لاهتديت إلى ما جاء به القرآن

إذن فقوله تعالى ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ نَفْسًا كَبِيرًا﴾ (١٩) [الفرقان] كان الذي يؤخذ على القرآن ، أو على الحق سبحانه أن الظالم حين يظلم هو يعاقب لنفسه حيث أخذ منه شيء ، لكن الحق سبحانه ما أخذ منه شيء ، إنما هو سبحانه بصفت الكمال فيه سبحانه خلقكم ، فما ظلمتم إلا أنفسكم .

ثم يقول الحق سبحانه عن رسله وأنبيائه

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا إِنْهَارًا لِّأَكُونَ
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ
لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (٢٠)

سبق أن تكلمنا في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ
الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (٧) [الفرقان] وهذه صفة كل الرسل ، وليس محمد بدعاً في ذلك ، وإذا كان أكل الطعام يقدح في كونه رسولاً وكانوا يريدون رسولاً لا يأكل الطعام ، فيقول بالله إذا كان أكل الطعام منعه عندكم أن يكون رسولاً ، فكيف تقولون لمن أكل

الصعاب انه إنه ٩ كيف وأنتم ما رضيتم به رسولا ٩

وقد جعل الحق - تبرك وتعالى - الرسل ياكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، لأن الرسول يجب أن يكون قدوة وأُسوة في كل شيء للحق ، ولأنك كان رسول الله على أقل حالات الكون المادية من ناحية أمور الدنيا من أكل وشرب ولباس ، ذلك ليكون أُسوة للناس ، وكذلك نجده ﷺ حريصاً على أن يكون أهل بيته مثله ، لذلك لم يجعل لهم نصيباً في الزكاة التي يأخذها أمثالهم من الفقراء

ويقول ﷺ : « إِنَّا مَعَاشِرَ أَنْبِيَاءَ لَا نَوَرُثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ » (١) .

ومن كان عليه دين من المسلمين تحمكه عنه رسول الله ، وهذا كله إن دل فإنما يدل على أنه ﷺ واثق من جزاء أخراه ، فلا يحب أن يناله منه شيء في الدنيا

لذلك قلنا لو نظرت في مبادئ الحق ومبادئ الباطل أمامك في الدنيا لوجدت أن مبدأ الباطل يدفع ثمنه أولاً ، فمبدأ لكى تكون شيوعاً لا بد أن تأخذ الثمن أولاً ، أما مبدأ الحق فأنت تدفع الثمن مقدماً تنعب وتظلم وتُعذب وتجوع وتتشر ، وتخرج من أهلِكَ ومن مالك ، ثم تنتظر اجزاء في الآخرة وبهذا المقياس يستطيع أن تُفرق بين الحق والباطل

وقوله تعالى ﴿وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۖ﴾ (٢) [الفقار] أى يرتادونها لقضاء مصالحهم وشراء حاجياتهم ، دليل على تواضعهم وعدم تكبرهم على مثل هذه الأعمال ، ذلك كان سيدنا رسول الله

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٢/٢) بلفظ : « إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نَوَرُثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ » عاملي ونفقة سائلي سداة ، من حديث جى مريدة وأخرجه البخارى في صحيحه (٤٣٣) كتاب المعاري من حديث عمر بن الخطاب ، وكذا مسلم في صحيحه - كتاب الجهاد

يحمل حاجته بنفسه ، فإن عرض عليه أحدُ محابته أن يحميها عنه يقول ﷺ ، صاحب الشيء أحقُّ بحمله ^(١)

ومعنى ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾ أتميزون .. ﴿٢﴾ [الفرقان] فأى بعض فتنة لاي بعض ؟ كما فى قوله تعالى ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ .. ﴿٣٢﴾ [الزمر] أى بعض مرفوع ، وأى بعض مرفوع عليه ؟

نلاحظ فى مثل هذه المسائل أن الناس لا تنظر إلا إلى زاوية واحدة أن هذا عنى ومذا فقير ، لكنهم لو أخذوا فى المفاضلة بكل جوانب انفس الإنسانية لوجدوا أن فى كل إنسان موهبة حصنه الله بها ، فكلٌ من عنده مَيِّزَةٌ ليست عند أحيه ، ذلك ليتكاتف الناس ويتكامل الخلق ، لأن العالم لو كان نسخة واحدة مكررة ما احتاج أحدٌ لأحد ، وما سأل أحد عن أحد ، أما حين تتعدد المواهب فتكون عندك ما ليس عندى ، فيترابط المجتمع ترابط الحاجة لا ترابط التفصل

ولو تصورنا الناس جميعاً تخرجوا فى الجامعة وأصبحوا (دكاترة) فمن يكتمس الشارع ؟ ساعتها سيتطوع أحدنا يوماً لهذه المهمة ، إذن تصبح الحاجة ست تصوع وتفصل ، والتفصل لا يلزم أحداً بعمل ، فقد تحصل المصالح أما حين تدعوك الحاجة فانت الذى تُسرع إلى العمل وتبحث عنه .

ألا ترى أصحاب المهن الشاقة يخرجون فى الصباح يبحثون عن

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٢٢/٥) من حديث أبى هريرة وقال « رواه أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط وبه يوسف بن ريان البصرى وهو ضعف » قال المجلوس فى كشف الحياء (٢٥/٢) « ذكره القاسم عياض فى الشفاء بدران عزو وهو ضعيف بل بالغ بين الجورى فعده فى الموضوعات » وخطاه الحلا على القارى فى « الأسرار المربوعة » (حديث ٥٥٣)

عص ، ويفضّب الواحد منهم إذا لم يجد فرصة عمل في يومه مع ما سيتحمّله من آلام ومشق ، لماذا ؟ إنها الحاجة .

فالعامل الذي يعمل في المجارى مثلاً ويتحمّس أداها هو في قدرته على بهسه ورضاه بقدر الله فيه أفضل ممّي أنا في هذه المسألة ، لأنّ لا أقدر على هذا العمل وهو يقدر ، ولو ترك الله مثل هذه الأعمال للتفصّل ما أقدم عليها أحد ، إذن المسحيرات من الحق سبحانه وتعالى لحكمة .

ومثل هذه الأعمال الشاقة أو التي تؤذي العامل بعدها البعض أعمالاً حقيرة ، وهذا خطأ ، فأي عمل يصلح المجتمع لا يُعدّ حقيراً ، فلا يوجد عمل حقير أبداً ، وإنما يوجد عامل حقير .

فمعنى ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ۖ ﴾ (٢٥) [الفرس كل بعض ما فتنة للآخر ، فالغنى فتنة للفقير ، والفقير فتنة للغنى] إلح فحين يتعالى الغنى على الفقير ويستدلّه بالفقر هنا فتنة للغنى ، وحين يحقد للفقير على الغنى ويحسده ، فالغنى هنا فتنة للفقير ، وهكذا الصحيح فتنة للمريض ، والرسول فتنة لمن كذبوه ، والكار فتنة للرسول .

والناس يفرون من الفتنة في داتها وهذا لا يصح ، لأن الفتنة تعني الاختبار ، فإذا ينبغي أن نفر منه نتيجة الفتنة ، لا الفتنة داتها فالامتحان فتنة للطلاب ، من ينجح فالفتنة له خير ومن يفشل فالفتنة في حقه شرٌّ إذن الفتنة في داتها غير مذمومة

لذلك تؤخذ الفتنة من فتنة الذهب حين يُصهر ، ومعلوم أن الذهب أفضل المعادن ، وإن وجد ما هو أنف من ذهب ، لماذا ؟ لأن من ميّراته أنه لا يتأكسد ولا يتقاص مع غيره ، وهو كذلك سهل السبك ؛ لذلك

يقولون المعدن انتفيس كالأخيار بطيء كسره ، سريع جبره فمثلاً حين يتكسر الذهب يسهل إعادته وتصتيحه على خلاف الزجاج مثلاً .
إن . الفتنة اختار . الماهر من يفوز فيه ، فإن كان غنياً كان شاكراً مؤبداً لحق الغنى متواضعاً يبحث عن الفقراء ويعطف عليهم ، والفقير هو العاجز عن الكسب ، لا الفقير الذي احترق البلطجة وأكل أموال الناس بالباطل

ولما كانت الفتنة تقتضي صبراً من المفتون ، قال سبحانه ﴿ أَتَعْسِرُونَ .. (٢) ﴾ [الفرقان] فكل فتنة تحتاج إلى صبر ، فهن نصبرون عليها ؟

ولأهمية الصبر يقول تعالى في سورة العصر ﴿ وَالْعَصْرُ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَاسِرٌ (٢) ﴾ [العصر] يعنى مطلق الإنسان في خسر لا ينجيه منه لا أن يتصف بهذه الصفات ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

وتُختم الآية بقوله سبحانه ﴿ وَكَانَ رُبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) ﴾ [الفرقان] لينبهنا الحق سبحانه أن كل حركة من حركاتكم في الفتنة مبنية لنا ، وبصيرتنا للأعمال ليس لمجرد العلم ، إنما لترتب على الأعمال جزاء على وفقها

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٣١) ﴾

واللقاء يعنى البعث ، وقد آمَنَ بالله غيباً ، وفى الآخرة نؤمن به تعالى مشتهداً ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ..﴾ (١٦) [غافر] حتى مَنْ لم يؤمن فى الدنيا سيؤمن فى الآخرة .

لذلك يقول سبحانه فى موضع آخر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَرَجَدَ لِلَّهِ صَدَهُ نَوَقَّاهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٩) [النور]

ويا ليتَه جاء فلم يجد عمله ، المصيبة أنه وجد عمله كاملاً .
ووجد الله تعالى يحاسبه ويُجاريه ، ولم يكن هذا كله على ياله فى الدنيا ، لذلك يُفاجأ به الآن

وقوله ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ..﴾ (٧١) [الفرقان] يعنى لا ينتظرون ولا يؤمنون به ، لذلك لم يستعدوا له ، لماذا ؟ لانهم آثروا عافية العاجلة على عافية الآجلة ، وראوا أمامهم شهرات ومُنْعاً لم يصبروا عليها ، وغفلوا عن الغاية الأخيرة

ما هو اللقاء ؟ اللقاء يعنى الوصل والمقابلة ، لكن كيف يتم الوصل والمقابلة بين الحق - تبارك وتعالى - وبين الخلق - وهذه من المسائل التى كثر فيها الحدل ، وحدثت فيها ضجة شككت المسلمين فى كثير من القضايا

قالوا اللقاء يقنضى أن يكون الله تعالى مُجَسِّماً وهذا ممنوع ، وقال آخرون ليس بالضرورة أن يكون اللقاء وصلاً ، فقد يكون مجرد لرؤية ، لأن رؤية العين للرب ليست لقاء ، وهذا قول أهل السنة

أما المعتزلة فقد نفوا حتى الرؤية ، فقال لا يلقونه وصلاً ولا

رؤية ، لأن الراى يحدد المرئى ، وهذا محال على الله عز وجل
وتقول للمعتزلة انتم تأخذون المسائل بالنسبة لله ، كما
تأخذونها بالنسبة لمخلوقات الله ، لماذا لا تأخذون كل شيء بالنسبة
لله تعالى فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ .. (١٦) [الشورى] فإذا كان لكم
ببعض لقاء يقتضى الوصل ، فله تعالى لقاء لا يقتضى الوصل ، وإذا
كانت الرؤية تحدد فله تعالى رؤية لا تحدد إن لك سَمْعاً والله
سمع ، أسمعك كسمع الله عز وجل ؟ إنى لماذا تريد أن يكون لقاء
الله كلقاءك يقتضى تجسداً ، أو رؤيته كرويتك ؟

لذلك هى قصة رؤية موسى عليه السلام لربه عز وجل ، ماذا قال
موسى ؟ قال ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ . (١٤٢) [الأعراف] فطلب من
ربه أن يُريه لأنه لا يستطيع ذلك بذاته ، ولا يصلح لهذه الرؤية ، إلا
أن يُريه الله ويطلعه ، فالمسألة ليست من جهة المرئى ، إنما من جهة
الرائى لكن هل قرّعه الله على طلبه هذا وقال عنه استكبر وعتا
عُتُوا كبيراً كما قال هنا ؟ لا إنما قل له ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ .. (١٤٣) [الأعراف]
ولم يقل سبحانه لَنْ أَرَى وفرق بين العبارتين

مقوله ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ .. (١٤٣) [الأعراف] المنع من المرئى بل
المنع من الرائى ، لذلك أعطاه ربه عز وجل الدليل ﴿وَلَنَسُكِبَ أَنْظُرَ إِلَى الْجَبَلِ
فَإِنْ اسْتَفْرُغْنَا مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ .. (١٤٣) [الأعراف] يعنى أنت أقوى أم الجبل ؟
﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعْقًا﴾ . (١٤٣) [الأعراف]

ولاحظ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ .. (١٤٣) [الأعراف] كلمة تجلى
أى أن الله تعالى يتجلى على بعض خلقه ، لكن أيسبرون على هذا
التجلى ؟ وليس الجبل أكرم عند الله من الإنسان الذى سخر الله له
الجبل وكل شيء فى الوجود

إذن فالإنسان هو الأكرم ، لكن تكوينه وطبيعته لا تصلح لهذه الرؤية ، وليس لديه الاستعداد لتلقى الأتوار الإلهية ، ذلك لأن الله تعالى خلقه للأرض أما في الآخرة بالامر مختلف ، لذلك سيُعزل الله هذا الخلق بحيث تتغير حقائقه ويمكنه أن يرى ، وإذا كان موسى عليه السلام - قد صُنع لرؤية المتجلى عليه وهو الجبل ، فكيف به إذا رأى المتجلى عز وجل ؟

لذلك ، كان من مهمة الله تعالى على عباده في الآخرة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّأْمَرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا مُنِظَرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة]

وقال عن الكفار ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥)﴾ [المطعين] إذن ما يُمَيِّز المؤمنين عن لكافرين أنهم لا يُصْجَبُونَ عن رؤية ربهم عز وجل بعد أن تُغَيَّر تكوينهم الأخروي ، فأصبحوا قادرين على رؤية ما لم يَرَوْهُ في الدنيا ، وإذا كان الشر الآن يتقدم العلم يصنعون لضعاف البصر ما يُزِيد من بصرهم ورؤيتهم ، فلماذا نستبعد هذا بالنسبة لله تعالى ؟

لذلك ، تجد المشرفين على أنفسهم يجادلونك بما يريحهم ، فتراهم يُتَكْرَوْنَ البحث ، ويُبْعِدُونَ هذه الفكرة عن أنفسهم ، لا بهم يعلمون سوء عاقبتهم إن أيقنوا بالبحث واعتقدوا به

ومن المشرفين على أنفسهم حتى مؤمنون بآله ، يقول أحدهم ما دام أن الله تعالى قَدَّرَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ ، فمَنْ يُحَاسِبُنِي عَلَيْهَا ؟ ونعجب لأنهم لم يذكروا المقابل ولم يقولوا ما دام قد قَدَّرَ عَلَيَا الطاعة ، فلماذا يثيبنا عليها ؟ إذن لم يقموا الوقفة العقلية السليمة ، لأن الأولى ستجرُّ عليهم الشر فذكروها ، أما الأخرى فحير يُسَاق إليهم ، لذلك غفلوا عن ذكرها .

وقولهم ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ..﴾ (٢١) [الفرقان]
وهذا يدل على تكبرهم واعتراضهم على كون الرسول بشراً ، وهي
مرصع آخر قالوا ﴿أَبَشِّرْ يَهُودِيَّا ..﴾ (٦) [التغابن]

إس كل ما يغيظهم أن يكون الرسول بشراً ، وهذا الاستدراك
يدل على غيائهم ، فو جاء الرسول ملكاً ف صَحَّ أن يكون بهم قدوة ،
وما جاء الرسول إلا ليكون قُدْوَةً وَمُعَلِّمًا للمنهج وأُسْوَةً سلوك ،
ولو جاء ملكاً لأمكنه نعم أن يُعَلِّمَ منهج الله ، لكن لا يصح أن يكون
لنا أُسْوَةً سلوك ، هو أمرك بشيء وهو ملك لكان لك أن تعرض عليه
تقول أنت ملك تقدر على ذلك ، أما أنا فبشر لا أقدر عليه

فالحق سبحانه يقول لاحظوا أن للرسول مهمتين مهمة البلاع ،
ومهمة الأسوة السلوكية ، فلو أنهم كانوا من غير طبيعة ابشر لتأتى
لهم البلاع ، لكن لا يتأتى لهم أن يكونوا قُدْوَةً ونموذجاً يُحتذى

ولر جاء الرسول ملكاً على حقيقته ما رُئِيتوه ، ولاحتجتم له على
صوره بشرية ، وسأعنتها أن تعرفوا أنه ملك أم بشر إذن ، لا بد
أن تعود المسألة إلى أن يكون بشراً ، لذلك يقول سبحانه ﴿وَلَوْ
جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (٩) [الأنعام]

رسالة نزول الملائكة مع الرسول من الاقتراحات التي اقترحها
الكفار على رسول الله ليطلبها من ربه ، وهذا يعنى أنهم يريدون دليل
تصديق على نبوه محمد ﷺ ، وسبق أن جاءهم رسول الله بمعجزة
من جنس ما يدعوا فيه وعجزوا أن يجاروه فيها ، ليثبت أن ذلك جاء
من عند ربهم القوى ، ومعنى هذه المعجزة أنها تقوم مقام قوله
صديق عيسى في كل ما يُبَلِّغ عيسى . وما دامت المعجزة قد جاءت
بتصديق الرسول ، فهل هناك معجزة أولى من معجزة ؟

لقد كانت معجزة القرآن كافية لتقوم دليلاً على صدق الرسول في
البلاغ من الله ، وأيضاً جاءكم بغيبيات لا يمكن أن يطلع عليها إنسان ،
لا في القديم الذي حدث قسب أن يُؤلّد ولا في الحديث الذي سيكون
بعد أن يُؤلد

إذن فدلّيل صدق الرسول قائم ، معاً الذي دعاكم إلى اقتراح
معجزات أخرى ؟

وقولهم ﴿أَوْ يَرَىٰ رَبًّا﴾ [٢٦] ﴿[الفرقان] والله ، لو كان إله يُرى
لكم ما صَحَّ أن يكون إلهاً - لأن المرثى مُحَاطٌ بحدقة الرثى ، وما دام
أحاط به فهو - إدر - محدود ، ومحدوديته تنافي أنوهيته

والأ فالمعاني التي تختلج بها النفس الإسماوية مثل الحق والعدل
الذي يتحدث عنه الناس ويشدونه ويتعصبون له ، ويتهافتون عليه
لحل مشاكلهم وتيسير حياتهم أتدرك هذه المعاني وأمثالها
بالحواس ؟ كيف تطلب أن تدرك خالقها عز وجل بالحواس ؟

لذلك يحتم الحق سبحانه هذه المسألة بقوله ﴿لَقَدْ اِسْتَكْبَرُوا فِي
اَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيْرًا﴾ [٢٧] ﴿[الفرقان] استكبر وتكبر حاول أن
يجعل نفسه فوق قدره ، وكل إنسان منا له قدر محدود

ومن هنا جاء القول المأثور « رَحِمَ اللهُ امْرءً عَرَفَ قَدْرَ
نَفْسِهِ » . فلماذا إذن يتكبر الإنسان ؟ لو أنك إسماعيل سري فبذلك تسعد
حين نمنع عنك مَنْ يسرقك ، أو ينظر إلى محارمك أو يعتدي عليك
فلماذا تعضب حين يمنعك عن مثل هذا ؟

المنظرة العقلية أن تقارن بين ما لك وما عليك ، لقد منعنا يدك
- وهي واحدة - أن تسرق ، ومقابل ذلك منعنا عنك جميع أيدي الناس

أن تسرق منك ، منعنا عينك أن تمتد إلى محارم الآخرين ، ومنعنا جميع الأعين أن تمتد إلى محارمك ، فلماذا إذن تفرح بهذه وتغضب من هذه ؟ كان يجب عليك أن تحكم بنفس المنطق ، فإن أحسب ما كان لك وكرهت ما كان لعيرك فقد جانب الصواب وخالعت اعتداله .

ومن استنكارهم مواجعتهم لرسول الله في بداية دعوته وقولهم ﴿لَوْلَا بُرُكْ هَذَا اقْرَأْ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ﴾ [الرخرف] إذن اقْرَأْ لا عِبَارَةً عَلَيْهِ وهذا حكم واقعي منهم ، لانهم أمة بلاغة وفصاحة ، والقرآن في أرقى مراتب الفصاحة والبيان إما الذي وقف في حلوقهم أن يكون الرسول رجلاً من عامة الناس ، يريدونه عظيماً في نظرهم ، حتى إذا ما اتبعوه كان له حيثية تدعو إلى اتباعه

إذن الاستنكار أن تستنكر أن تكون تابعاً لمن تراه دونك ، ونحن ننكر هذا ، لأنك لم تر محمداً ﷺ قبل أن يقوم بالرسالة أنه دونك ، بل كنت تصعه في المكان الأعلى وتُسَمِّيهِ الصادق الأمين ، فمتى إذن جعلته دونك ؟ إنها الهمة التي وهبه الله ، إنها الرسالة التي جعلتك تأخذ منه ما كنت تعطيه قبل أن يكون رسولا

وهل سبق لكم أن سمعتم عن رسول جاء معه ربه عز وجل يقول لقومه هذا رسولي ؟ وما دام أن الله تعالى سيواجهكم هذه المواجهة فلا داعي إذن للرسول لأن الله تعالى سيخاطبكم بالتكليف مباشرة وتنتهي المسألة ومعلوم أن هذا الأمر لم يحدث ما تمّ تطلبون شيئاً لم تسمعوا به ، وهذا دليل على تكوّنكم واستنكاركم عن قبول الإيمان فجئكم بشيء مستحيل .

إذن المسألة من الكفار تلكؤ وعناد واستنكار عن قبول الحق الواضح ، وقد سبق أن اقترحوا مثل هذه الآيات والمعجزات ، فلما

أحاثهم الله كذبوا ، مع أن الآيات والمعجزات ليست ناقصة المرسل إليهم ، إنما تقض من الله تعالى وأمر هذه الرسالة

والاستكبار مادته الكاف والباء والراء وتأتي بمعنى عدة تقول كَبُرَ يَكُورُ أى فى عمره وحجمه ، وَكَبُرَ يَكُورُ أى عَظُمَ فى داته ، ومنها قوله تعالى ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ﴾ (٥) [الكهف] وتكثر أظهر صفة الكبرياء للباس ، واستكثر إذا لم يكن عنده مؤهلات الكبر ، ومع ذلك يطلب أن يكون كبيراً

فالمعنى ﴿ اسْتَكْبَرُوا .. ﴾ (٦) [الفرقان] ليس فى حقيقة تكوينهم إنما ﴿ اسْتَكْبَرُوا فى أَنْفُسِهِمْ . ﴾ (٦) [الفرقان] فى أنهم يتبعون الرسول ، أى أنها كبيرة عليهم أن يكونوا تابعين لرجل يروى غيره أعنى منه أو أحسن منه (على رءسهم) .

وبرى مثلاً أحد الفتوات الذى يحصع له الجميع إذا ما رأى مَنْ هو أقوى منه انكمش أمامه وتراضع ، لأنه يستكبر بلا رصيد وبشيء ليس ذاتياً فيه . إذن المتكبر بلا رصيد غافل عن كبرياء ربه . ولر استشعر كبرياء الله عز وجل لاستحي أن يتكبر .

لذلك يرى أهل الطاعة والمعرفة دائماً مكسرين ، لماذا ؟ لأنهم دائماً مستشعرون كبرياء الله ، والإنسان (لا يتفرعن) إلا إذا رأى الجميع بونه وليس هناك مَنْ هو أكبر منه فيستغنى إلا يتكبر الإنسان إلا بشيء ذاتى فيه لا يُسلب منه ، فإن استكبرت بفياك فربما اعتقرت وإن استكبرت بقرتك فربما أصابك المرض ، وإن استكبرت بعلمك لا تأمن أن يُسلب منك لى لا يعلم من بعد علم شيئاً

ومن لطف الله بالخلق ورحمته بهم أن يكون له وحده الكبرياء ،

وله وحده سبحانه التكبرُ والعظمة ، ويعلمها الحق تبارك وتعالى
« الكبرياء ردائي . والعظمة إراري فمن نازعني واحداً منهما أدخلته
جهنم » (١) .

والحق - تبارك وتعالى - لا يجعلها جسروناً على خلقه ، إنما
يجعلها لهم رحمة ، لأن الخلق منهم الأقوياء والفتوات والاعبياء
حين يعلمون أن الله تعالى الكبرياء المطلق يعرف كل منهم قدره
(ويرعى مساوى) ، فإنه هو المتكبر الوحيد . ونحن جميعاً سوء
لذلك يقول أهل الريف (اللى ملوش كبير يشتري له كبير) وحين
يكون فى البلد كبير يحاف منه الجميع لا يجرؤ أحد أن يعتدى على أحد
فى وجوده ، إنما إن فقد هذا الكبير فإن القوى يأكل الضعيف إذن
فالكبرياء من صفات الجلال لله تعالى أن جعلها الله نفع الخلق

ولو تصورنا للتكبر ممن يملك مؤهلاته ، كان يكون قويا ، أو يكون
غنياً إلخ فلا نتصور الكبر من الضعيف أو من الفقير ، لذلك جاء فى
الحديث « أبغض ثلاثاً وبغضى ثلاث أشد ، أبغض لغنى المتكبر
وبغضى للفقير المتكبر أشد ، وأبغض الفقير البحيل وبغضى للغنى
البحيل أشد ، وأبغض لشاب العاصى وبغضى للشيخ العاصى أشد » (٢)

وقوله تعالى ﴿ وَغَتَوْا غَتَوْا كَبِيرًا ﴾ (٣) [الفرقان] غتوا بالغوا فى
الظلم والتحدى وتجاوزوا الحدود ، وكان هذا غير كاف فى وصفهم ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣٧٦/٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢) وأبو داود فى سننه

(٤٩) وابن ماجه فى سننه (٤١٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه

(٢) عن أبى زر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة
يبغض الشيخ الرأى والفقير المحتال والمكتر السفيل ، ويحب ثلاثة : رجل كان فى كتبة
فكس حتى يحميهم حتى قتل أو فتح الله عليه ، ورجل كان فى قوم فأدلىوا فمروا من آخر
الذين » الحديث أخرجه أحمد فى مسنده وابن حبان ذكره المصنف الهنذى فى منتخب
الكنز (٢٨٧/٦)

فأكد العتو بالمصدر (عتوا) ثم وصف المصدر ايضاً ﴿ عَتَوْا كِبَرًا ﴾ [الفرقان] لماذا كل هذه المبالغة في التعبير ؟ قالوا لانهم ما عَتَوْا بعضهم على بعض ، إنما يتعاتون على رسول الله ، بن وعلى الله عز وجل ، لذلك استحقوا هذا الوصف وهذه المبالغة والعاتى الذى بلغ فى الظلم احدٌ مثل الطاغوت الذى إن خاف الناس منه انتفض ، وتعادى وازداد قوة .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتْيًا ﴾ [مريم] ومعلوم أن كِبَرَ ضعف ، كما قال سبحانه ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [الزمر] فكيف - إس - نصف الكبر بأنه عات ؟ قالوا العاتى هو القوى الجبار الذى لا يقدر احد على صدّه او رفع رأسه أمامه ، وكذلك الكبر على ضَعْفه ، إلا أنه لا توجد قوة تطغى عليه فتمنعه

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ
وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّتَّجُورًا ﴾

يتحدث الحق - تبارك وتعالى - عن هؤلاء الذين اقترحوا على رسول الله الآيات وطلبوا أن تنزل معه الملائكة فيرونها ، وتشهد لهم بصدقه ﷺ ، فيقول لهم سبحانه أنتم تشتهون أن تروا الملائكة ، فسوف ترونها لكن فى موقف آخر ، ليس موقف البُشريات والخيرات ، إنما فى موقف الخرى والندامة والعذاب .

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان]

فسوف ترونهم رؤيا الفزع والخوف عندما يأتون لقنص أرواحكم ، او سترونهم يوم القيامة يوم يُبشرونكم بالعذاب

يوم يستقبلون المؤمنين ﴿بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ..﴾ [الحديد] فيستشرف الكفار لسماع هذه الكلمة لكن مبهات ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ..﴾ [الفرقان] فيمنعون عنهم هذه الكلمة المحببة التي ينتظرونها . ويقاطونهم بكلمة أخرى تناسبهم .

يقولون لهم ﴿حَجَرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان] والحجر السبع ، ومنه حجر على فلان يعنى يمنعه من التصرف . وقديماً كانوا يقولون فى دفع الشر . حجراً محجوراً يعنى منعاً . ومثل ذلك ما نسمعهم يقولون إذا ذُكر الجن . حابس حابس يعنى ابتعد عنى لا تقربى

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ مَكَانَهُمْ كَانَتْ

هَبْءًا مَفْشُورًا﴾ [٣٢]

حين تنظر فى غير المؤمنين تجد من بينهم أهلاً للحير وعمل المعروف ، ومنهم أصحاب ملكات طيبة . كالدين اجتمعوا فى حلف الفصول لبصرة المظلوم وكأهل الكرم وإطعام الطعام . ومنهم من كانت له قدر عظيمة استظل رسول الله فى ظلها يوم حر قائط . وهذا يعنى أنها كانت كبيرة واسعة منصوبة وثابتة كالبناء . كان يُطعم منها الفقراء والمساكين ، وحتى الطير والوحوش ، وما زلنا حتى الآن

يضرب المثل في الكرم بحاتم الطائي . وكان منهم من يصل الرحم ويغيث الملهوف . الح .

لكن هؤلاء وأمثالهم عطلوا لحاء الدنيا ، ولم يكن في بالهم إله يبتغون مرضاته ، والعص يأخذ أجره ممن عمل له ، كما جاء في الحديث القدسي « فعلت ليقال ، وقد قيل ،^(١) .

والحق - تبارك وتعالى - يوضح هذه المسألة في قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَرَجَدَ إِلَى اللَّهِ عِنْدَهُ فُرْقَانٌ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور] وقال تعالى أيضاً ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ .. ﴾ [١٨] عاصف . [إبراهيم]

فقد عمل هؤلاء أعمالاً حير كثيرة ، لكن لم يكن في بالهم الله ، إنما عملوا للإنسانية وللشهرة وليقال عنهم ، لذلك نراهم في رغبة من العيش وسعة مُتَمَتِّعِينَ بالوان النعيم لماذا ؟ لأنهم أخذوا الأسباب المضبوقة لله تعالى ، وبغذوها بدقة ، والله - تبارك وتعالى - لا يحرم عبده ثمرةً مَحْهُودَةً ، وإن كان كافراً ، فإن ترك العبد الأسباب وتكاسل حرمه الله وإن كان مؤمناً . وهرق بين عطاءات الربوبية التي تشتمل المؤمن والكافر والطائع والعاصي ، وبين عطاءات الألوهية

فمن الكفار من أحسن الأخذ بالأسباب ، فاخترعوا أشياء نفعت الإنسانية ، وأدوية عالجت كثيراً من الأمراض . ولا بد أن يكون لهم

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٢٢/٢) . ومسلم في صحيحه (١٩٠٥) والنسائي في سننه (٢٤ ، ٢٦/٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أول الناس ينسى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به يعرفه معه فعرمها قال فما عملت فيها ؟ قال قاتلت منك حتى استشهدت قال كذبت وبكك قاتلت لأن يقال جرى . فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، الحديث بطوله

جراء على هذا الحير ، وحراؤهم أحده في الدنيا دكراً وتكريماً
وتخليداً لذكراهم ، وصنعت لهم التماثيل وأعطوا النياشين . وألفت في
سيرتهم الكتب . كان الله تعالى لم يحدد عملهم ولم يبخسهم
حقهم

ألا ترى أن أما لهب الذي وقف من رسول الله موقف العداء حتى
نزل فيه قوله تعالى ﴿ تَبَّتْ يُدَا أُمِّي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ () ما أعنى عنه ماله
وما كسب (٢٢) [المسد] ومع ذلك يخفف الله عنه العذاب . لأنه اعتق
جاريته ثوبية حينما بشرته بميلاد محمد بن عبد الله لأنه فرح بهذه
البشرى وأسعده هذا الخبر (١)

ومن العجيب أن هؤلاء يقفون عند صغائر البشر التي لا تعدو
أن تكون زوا في الحياة ، فيؤرّحون لها ولاصحابها ، ويسون خالق
الضروريات التي اعانته على الترقى في كماليات الحياة ونرمها

وكلمة ﴿ هباءً .. ﴾ (٢٣) [المدن] الأشياء تتبين للإنسان . إما لأن
حجمها كبير أو لأنها قريبة فإن كانت صغيرة الحجم عرت رؤيتها ،
فمثلاً يمكنك رؤية طائر أو عصفور إن طار أمامك أو حتى دبور أو
حلة ، لكن لو طارت أمامك بعوضه لا تستطيع رؤيتها

بذن الشيء يختفي عن النظر لأنه صغير الذكوى ، لا تستطيع
الحين إدراكه ، لذلك اخترعوا المحاهر والتلسكوب .

وقد يكون الشيء بعيداً عنك فلا تراه لبعده عن محروطة

(١) قال المصنف ابن حجر في « الإحسان في تفسير الصفة » (٢٦/٨) : قال ابن سعد
أخبرنا الرازي عن غير واحد من أهل العلم قالوا : كانت ثوبية مرضعة رسول الله ﷺ
يصنها وهو بمكة وكانت حديجة تكرمها وهي على ملك أبي لهب وسأله أن يبيعها لها
فامتنع فلما هجر رسول الله ﷺ آمنقها أبو لهب وكان رسول الله ﷺ يبعث إليها بصلة
وبكسوة حتى جاء العبر بها عانت سنة سبع مائة من حير ،

الضوء ، لأن الضوء يبدأ من نقطة ، ثم يتسع تدريجياً على شكل مخروط . كما لو نخرت من ثقب الباب الذي قطره سنتيمتر فيمكن رؤية مساحة أوسع منه بكثير

إذن إن أردت أن ترى الصغير تكبّره ، وإن أردت أن ترى البعيد تقرب

والهباء هو الدرات التي تراها في المحروط الضوئي حين بعد إلى حركتك ، ولا تراها بالعين المجردة لدقنتها ، وهذا الهباء الذي تراه في الضوء ﴿هَبَاءٌ مُثَوَّرَةٌ﴾ [الفرقان] يعنى لا تستطيع أن تجمعها ، لأنه منتشر وغير ثابت ، فمهما أوقفت حركة الهواء تجده في الضوء يتحرك لصغر حجمه

فإن قلت مراهم الآن بصيغون (فلانتر) لحجز هذا الهباء فتجمعه وتنفى الهواء منه ، وهى على شكل مسام اسفنجية يعلق بها الهباء فيمكن تجميعه

بقول حتى مع وجود هذه الفلاتر ، فإنها تجمع على قدر دقة المسام ، وتحجز على قدرها ، وعلى أرض أنك جمعته فى هذا الفلتر ، ثم امرغته وقلت لى هذا هو الهباء بقولك أنتستطيع أن ترد كل ذرة منها إلى أصلها الذى طارت منه ؟

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا

وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (٢١)

بعد أن وصف الحق - تبارك وتعالى - ما يؤول إليه عمل الكافرين أراد سبحانه أن يحدثنا عن جزاء المؤمنين على عادة القرآن فى ذكر المتفادلات التى يظهر كل منها الآخر ، وهذه الطريقة فى

التفسير كثيرة هي كتاب الله منها ﴿لِيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلِيَبْكُوا كَثِيرًا .
(٨٧)﴾ [التوبة]

ومنها أيضاً قول الحق سبحانه ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٣) وَإِنَّ
الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (٤)﴾ [الانعام]

وهكذا ، ينقلك القرآن من الشيء إلى ضده يتميز بينهما بالمؤمن
في النعيم ينظر إلى النار وحزها ، فيحمد الله الذي جاء بها ، وهذه
نعمة أخرى أعظم من الأولى والكافر حين ينظر إلى نعيم الجنة
يتحسر ويعلم عاقبة الكفر الذي حرمة من هذا النعيم ، فيكون هذا أبلغ
في النكاية وأشد في العذاب لذلك قالوا وبصدها تتميز الأشياء .

وقوله سبحانه ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا
(٢٤)﴾ [الفرقان] صاحب الشيء المرفق له عن حب ، فكان الجنة
تعشق أهلها وهم يعشقونها ، فقد نشأت بينهم محبة وصحبة فكما
تحب أنت المكان يحبك المكان ، وأيضاً كما تبغضه يبغضك ومنه
قولهم نأبأ به المكان يعني كرهه المكان .

وكلمة ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ .. (٢٤)﴾ [الفرقان] تدل أيضاً على المعكية ،
لأنهم لن يخرجوا منها ، وهي لن تنزل ولن تنتهي

وكلمة ﴿خَيْرٌ .. (٢٤)﴾ [الفرقان] قلنا إنها تستعمل استعمالين
خير يقابله شر كما في قوله تعالى ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ
(٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزال] وقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ
هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧)﴾ [الاسية] . ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦)﴾ [النبأ]

وهناك أيضاً خير يقابله خير ، لكن أقل منه ، كما لو قلب هذا
خير من هذا ، وكما في الحديث الشريف «المؤمن القوى خير

وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ،^(١)

وفي بعض الأساليب لا تكفى بصيغة (خير) للتمييز بين
شئين ، فنقول بصيغة أفعل التفصيل هذا أحير من هذا

وكلمة ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ . (٢١) ﴿[الفرقان] المستقر المكان الذي تستقر
أنت فيه ، والإنسان لا يُؤثر الاستقرار في مكان عن مكان آخر ، إلا
إذا كان المكان الذي استقر فيه أكثر راحة لنفسه من غيره ، كما نترك
الغرفة مثلاً في الحر ، ونجلس في الحديقة أو الشرفة

ومن ذلك نقول إذا صاقتك أرض فانركها إلى غيرها ، على
حدِّ قوله تعالى ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراعماً﴾^(٢)
كثيراً .. (١٠) ﴿[النساء]

ويقول اشاعر

لعمرك ما صاقتُ بلادُ بأمليها ولكن أحلاق الرجال تضيقُ

ومعنى ﴿وأحسن مقيلاً﴾ (٢٤) ﴿[الفرقان] المقيـل هو المكان الذي
كانت تقصى فيه العرب وقت اقبيلوة ، وهي ساعة الطهيرة حين
تشدَّ حرارة اشمس . ونسميها في العامية (القيالة) ويقولون لمن
لا يستريح في هذه الساعة العفاريـت مقيـلة ١١

لكي أقي الجنة قيلولـة وليس فيها حرٌّ ، ولا برد ، ولا زمهرير ٩

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٦/٢ ، ٢٧) ، ومسلم في صحيحه (٣٦٦٤)
 وابن حجة في سننه (٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه
(٢) أي يجد مكاناً متمسكاً يراغم فيه القوم الذين رغبوه واضطروه إلى الهجرة أو يجد
مكاناً يصلح مراغمة أعدائه أو اتقاء شره [القلموس البويم ١ / ٢٧]

قالوا ، القيلولة تعنى محل فراغ الإنسان لخاصة نفسه . ألا ترى أن الحق - تبارك وتعالى - حينما ذكر أوقات الاستثذان في سورة النور جعل منها هذا الوقت ، فقال سبحانه ﴿ وَحِينَ تَصْعُونَ فِي بَعْثِكُمْ مِنَ الظُّلُمَةِ ﴾ (٥٨) [النور] فأمر اصعب أن يستأذنوا علينا في هذا الوقت ؛ لأنه من أوقات العورة .

إذن المستقر شيء والمقيم للراحة النومية الشخصية شيء آخر ، لأنك قد تستقر في مكان ومعك غيرك ، أما المقيم فمكان خاص بك ، إسر لك في الجنة مكانان عام وخاص ، لذلك قالوا في قول الله تعالى ﴿ وَلِمَنْ حَافٍ مَقَامُ رَبِّهِ جَنَّاتُ (٤٦) ﴾ [الرحمن] قالوا جنة عامة وحنّة خاصة ، كما يكون لك مكان لاستقبيل الضيوف ، ومكان لخاصة نفسك وأهلك

ويقول الحق سبحانه

﴿ وَيَوْمَ تَشْهَقُ السَّمَاءُ وَالْغَمَمُ يَنْزِلُ السَّمَاءَ كَـ

تَنْزِيلًا ۝٢٥﴾

وقد سبق منهم أن طلبوا من الله أن ينزل عليهم ملائكة ، فيها هي الملائكة تنزل عليهم كما يريدون ، لكن في غير سرّة لكم ، ولا إجابة لسؤال منكم

واسماء هي السقف المرفوع فوقنا المحفوظ الذي ننظر إليه ، فلا يرى فيه فطوراً^(١) ولا شروخاً ، ولك أن تنظر إلى السماء حال صفائها ، وسوف تراها مليساء لا فتوة فيها ، ولا اعوجاج على اساعها هذا وقيامها هكذا بلا عمد .

(١) الفطور الشقوق والصمغ وتطرط الطير تنشق والعمد جمع فطور [لسان العرب - مادة فطر]

لذلك يدعوك الحق - تبارك وتعالى - إلى النظر والتأمل ، يقول لك ان تغشك انخرف في السماء وتأمل ﴿ ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ ٤٤ ﴾ [الملك]

والسماء التي تراها فوقك على هذه القوة والتمسك لا يُمسكها فوقك إلا الله ، كما يقول سبحانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ كُنَا إِدْ أَمْسِكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. ٤٦ ﴾ [طاهر]

ويقول تعالى ﴿ وَبِمْسِكَ السَّمَاءِ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ .. ٦٥ ﴾ [الحج] إذن هناك إذن للسماء أن تقع على الأرض ، وأن تتشقق وتتبدل ، كما قال سبحانه ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ .. ٤٨ ﴾ [براعم]

ويقول تعالى عن تشقق السماء في الآخرة ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأُدْتُ لِرَبِّهَا خُفَّتْ ٢ ﴾ [الاشفاق]

معنى ﴿ وَأُدْتُ لِرَبِّهَا ٢ ﴾ [الاشفاق] يعني استمعوا واطاعت بمجرد الاستماع

وهنا يقول تعالى ﴿ وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِغَمَامٍ .. ٢٥ ﴾ [الفرقان] أى تنشق وينزل من الشقوق الغمام ، وقد ذكر الغمام أيضاً في قوله تعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ٢٦ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى ﴿ رُمِزَ الْمَلَائِكَةُ نَزِيلاً ٢٥ ﴾ [الفرقان] يدل على قوة النزول ليباشروا عملية الفصل في موقف القيامة

﴿الْمَلِكُ يَوْمَ يَدُ الْحَقِّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾

بُنْ كانت الدنيا يُمْلِكُ الله فيها بعض خلقه بعض خلقه ، كما قال سبحانه ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ..﴾ [ال عمران] وقلنا : فرّق بين الملك والملوك ، الملك كل ما تملك ولو كان حتى ثوبك الذي ترتديه فهو ملك ، أما الملوك فهو أن تملك من يملك ، وهذا يعطيه الله تعالى ، ويهبه لمن يشاء من باطن مملكته تعالى ، كما أعطاه للذي حاج حبيبه إبراهيم عليه السلام ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ^(١) إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .﴾ [البقرة]

هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فلا ملك ولا ملوك لأحد ، فقد سلب هذا كله ، ولملك اليوم الله وحده ﴿كَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [الأنعام]

إذن فما في يدك من ملك الدنيا ملك غير مستقر ، سرعان ما تُسلب منك ، لذلك يقول أحد العارفين للحليفه لو دام الملك بغيرك ما وصل إليك . فالمسألة ليست ذاتية فيك ، فملكك من باطن ملك الله تعالى صاحب الملك ، وهو الملك الحق ، فملكه تعالى ثابت مستقر ، لا ينفك ولا يزول .

وإن انتقلت الملكية في الدنيا من شخص لآخر فإنها تُجمع يوم القيامة في يده تعالى ، وتجمع الملك والسلطة في يد واحدة إن كانت مضمونة عندنا في الدنيا ، حيث نذكره الاحتكار والدكتاتورية التي تجعل

(١) حاجته : بارجع الحاجة فهي معاملة من الجانبين ، أى : قدم كل منهما حجة ليطلب بها الآخر [القاموس القويم ١/ ١٤٣]

السلطة والقهر في يد واحدة ، إن كانت هذه مدمومة في البشر هي
محمودة عند الله تعالى ، لأنها تتركز في الدنيا في يد واحد صاحب
هوى

أما في الآخرة فهي في يده تعالى ، فالرحمة في الدنيا أن يوزع
الملك والسلطان ، والرحمة في الآخرة أن تُجمع في يده تعالى
﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ..﴾ [الفرقان] إذن اجتماع الملك
يوم القيامة لله تعالى من مظاهر الرحمة بنا ، فلا نأخذها على أنها
احتكار أو حبروت ، لأنها في يد الرحمن الرحيم

وكان الحق - تبارك وتعالى - يُطمئنك لا تقلق ، فالمُلك يوم
القيامة ليس لأحد تحاف أن تقع تحت سطوته ، إنما الملك يومئذ الحق
لرحمن

واسحق الشيء اثبات الذي لا يتغير وما دم ثابتاً لا يتغير فهو
لا يتناقض ولا يتعارض فالرجل إذا كُلمك بكلام له واقع في الحياة
وطليت منه أن يعيده لك أعاده ألف مرة ، دون أن يُعير منه شيئاً ،
لماذا ؟ لأنه يقور من خلال ما يستوحى من الحقيقة التي شاهدها ،
أما إن كان كاذباً فإنه لا يستوحى شيئاً ، بذلك لا بد أن يختلف قوله
في كل مرة عن الأخرى ، لذلك قالوا : **إِنْ كُنْتَ كَذُوبًا فَكُنْ ذَكُورًا**

ومن رحمانيته تعالى أن يقول سبحانه ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ
عَسِيرًا﴾ [الفرقان] فينبهنا إلى الخطر قبل الوقوع فيه ، وهذه رحمة بنا
أن ينصحننا ربما وبهدل لنا ، وإلا لو عاجانا بالعقوبة لكان الأمر صعباً

فإن ذكرت المقابل تقول نه سير على المؤمنين فاحرص أيها
الإسار أن تكون من الميسر لهم لا من المعسر عليهم

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ
يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧)

هذه عدة أيام ذكرتها هذه الآيات ﴿يَوْمَ يَرْوُنَّ الْمَلَائِكَةُ لَا يَرَوْنَ
يَوْمَهُدٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ..﴾ (٢٢) [الفرقان] ، ﴿يَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالسَّعَابِ ..﴾
(٢٥) [الفرقان] ، ﴿الْمَلَكُ يَوْمَهُدِ الْحَقُّ ..﴾ (٢٦) [الفرقان] ، ﴿يَوْمَ يَعْصُ
الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ..﴾ (٢٧) [الفرقان] فيوم القيامة جامع لهذا كله

وقلنا إن الظالم الذي يأخذ حق غيره ، والحق - تبارك وتعالى -
يوضح هذا الظلم بقوله تعالى ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ﴾ (٥٧) [البقرة]

لأنهم لا يقدرُونَ على ظُلم الله تعالى ، ولا على ظُلم النبي ﷺ ،
فكلمة الله ورسوله هي العليا ، وسيتصر دين الله في نهاية المطاف
ومع ذلك يعاقبهم الله تعالى على ظلمهم لأنفسهم ، ومنهم الإله إله يفعل
هذا مع مَنْ عصاه .

والكفر حتى في مظهرية ظُلمه للغير بظلم نفسه ، لأنه يضعها
في موضع المسئولية عن هذه المظالم . إن لو حقق الإنسان الظلم
لوحده لا يعود إلا على الظالم نفسه

وحين يرى الظالم عاقبة ظُلمه ، ويمأين جزاء فعله يعرض على
يديه ندماً وحسرة والغصُ استطاب الفكين الأعلى والأسفل على
شيء ، وللعصر مراحل تتناسب مع المفرع الذي يلحى الإنسان له ،
وعلى موضع آخر يقول سبحانه ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَالَمَهُمُ الْآثَامِ
الْعِظْ ..﴾ (٦٩) [آل عمران]

والأنامل أطراف الأصابع وعضها من الغيظ عادة معروفة حينما يتعرض الإنسان لموقف يصعب عليه التصرف فيه فيعض على أنامله عضاً يناسب الموقف والحدث ، فإن كان الحدث أعظم ناسبه أن يعض يده لا مجرد أصابعه ، فإن عظم عض على يديه معاً كما يحدث لهم في الآية التي معنا ، ﴿وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ (٢٧) [الفرقان] لأنه في موقف حسرة وندم على الفرصة التي فاتته ولن تعود ، والخطا الذي لا يمكن تداركه ، لذلك يُعَذَّبُ نفسه قهر أن يأتيه العذاب

فيعض على يديه معاً ، فكان الأمر المُفْرَع الذي يعنيه بلع الغاية ، لذلك عض على يديه ليلبغ الغاية في العضوض ، وهو العاصِ واسمعضوض ، ولا يُعَذَّبُ نفسه بهذه الطريقة ، لا مَنْ يَتَسَّ من النجاة ثم يبيِّن علة ذلك ﴿يَقُولُ يَأْتِيَانِي أَتُحَدِّثُ مَعَ الرُّسُولِ﴾ (٢٧) [الفرقان] وإن كانت هذه الآية قد نزلت في حدث مخصوص وفي شخص بعينه ، فإنها تعم كل مَنْ فعل هذا ، فالعبرة - كما يقولون - بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهذا جزاء كل ظالم حاد عن الحادة

وهذه الآية نزلت في حدث خاص باثنين^(١) عقبة بن أبي معيط ، وكان رجلاً كريماً يُطعم الطعام ، وقد دعا مرة رسول الله ﷺ إلى طعامه ، لكن رسول الله اعتذر له وقال لا أستطيع أن أحضر طعامك إلا أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فلما شهد

(١) أورده الوليدى الديسلبورى في أسباب الشول (ص ١٩١) قال ابن كثير في تفسيره (٣١٧/٢) : « سواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء منها عامة في كل ظالم »

الرجل الشهدتين زهره رسول الله وأكل من طعامه ، فأغضب ذلك أمية
 ابن حلف صاحب عقبة فقال له لقد صبوت يا عقبة ، فقال عقبة
 والله ما قلت ذلك إلا لأنني أحببت أن يأكل محمد عندي كما يأكل
 الناس ، فقال أمية فلا يترك مني إلا أن تذهب إلى محمد في در
 اندوة فتطأ عنقه وتبصق إلخ ، وفعل عقبة ما أشر عليه به
 صاحبه^(١) مبرلت الآية ﴿وَيَوْمَ يَعْصِيُ الْغَالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يٰلَيْتَنِي
 اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧)﴾ [الفرقان] والمرد بالسبيل قوله لا إله
 إلا الله محمد رسول الله

ثم يقول

﴿يٰوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَوِ اتَّخَذْتُ لِحَاثَتِ خَالِي﴾

ابويل الهلاك فهو يدعو الهلاك ويناديه أن يحل به ، والإنسان
 لا يطلب الهلاك لنفسه إلا إذا تعرض لعذاب أشد من الهلاك ، كما قال
 أحدهم

* أشد من السقم الذي يذهب السقما *

وقول لشاعر

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسب السبايا أن يكن أمياً^(٢)
 قلما كانت المسألة أكبر منه وقرق أحتماله نادى يا ويلتي
 احضري ، فهذا أوانك لتخلصيني مما أنا فيه من العذاب

(١) قال الصهاك لما برق عقبة في وجه رسول الله ﷺ عاد برفقه في وجهه مستشعب
 شعبين فأحرق حديه وكان أثر ذلك عليه حتى الموت نقله الوجدى في أسباب الديون
 (ص ١٩٢)

(٢) البيت بيت مشهور للمتنبي (ديوانه ٢٨١/٤) وأوردته شهاب الدين محمود الحلبي في
 كتاب «حسن التوسل إلى صناعة المرسل» (٢٥٢) في فصل «حسن الابتداءات»

وقوه ﴿لَيْتِي ..﴾ (٢٨) ﴿[امرقان] تَمَزَّ ، والتمنى طلب أمر محبوب
لا سجين إلى حصوله ، كما قال الشاعر في التمني
لَيْتَ الْكَوَاكِبُ تَدْتُو لِي فَأُطِمَّهَا عُقُودَ مَدَحٍ مِمَّا أَرْضَى نَكْمَ كَلَمِي
وهذا أمر لا يمكن أن ينال .

وآخر يقول

فيا لَيْتَ الشُّبَابِ يَعُودُ يَوْمًا فَأُحْبِرَهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ
فقصارى ما يعطيه أسلوب التمني أنه يدل على أمر محبوب ، كنت
أحب أن يحدث ، لكن أبعدت بالفعل ؟ لا

وكلمة (فلان) تقونها كناية عن شخص لا تحب حتى دكر
اسمه . فعقبة (ابن أمي مغيث) لم يقل ليتنى لم ألتخذ أمية (من
خلف) خليلاً إنما قال (فلاناً) لأنه كاره له يبغض حتى دكر اسمه .
والخليل من الخلَّة والمخالَّة يعنى الصداقة المتداخلة المتبادلة
وهى ذلك يقول الشاعر

وَلَمْ تَقْعَيْنَا قُرْبَ الشُّوقِ جَهْدَهُ خَلِيلَيْنِ ذَابَا لَوْعَةً وَعِثَابَا
كَانَ خَلِيلًا فِي خِلَالِ خَلِيلِهِ تَسْرُبُ أَثْنَاءَ الْعِنَاقِ وَغَابَا
ثم يذكر علة ذلك

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ

الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ (٢٩)

﴿خذولاً﴾ [الدرنا] صيغة مبالغة من الخذلان ، نفوس حادل
وحذول ، ومعنى خذلك أى تخلى عنك فى الامر بعد أن مد لك جمال
لامل ، فإذا ما جاء وقت الحاجة إليه تخلى عنك وتركك ، كذلك

الشيطان يفعل بأوليائه ، كما جاء في آيات أخرى ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أحالف الله رب العالمين ﴾ [الحشر] وفي آية أخرى ﴿ وإذ رعى لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم .. ﴾ (٤٨) [الأنفال]

وفي موضع آخر يقول لأتباعه ﴿ ما أنا بمصرحكم^(١) وما أنتم بمصرحي .. ﴾ (٤٩) [إبراهيم]

حين يقولون له لقد أغويتنا وأصلبتنا يقول لهم ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان .. ﴾ (٥٠) [إبراهيم] لا سلطان حجة اقنعكم به ولا سلطان قهر أحملكم به وأتسهركم على طاعتي ، بل كنتم على (تشويبة) ﴿ إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي .. ﴾ (٥١) [إبراهيم]

ثم يقول الحق سبحانه عن رسوله محمد ﷺ

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا

هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۝٣﴾

القوم قوم ارجل أهله وعشيرته والمقيمون معه ويجمعهم إما أرض ، وإما دين وسعوا قوماً لأنهم هم الذين يقومون على أمر الأشياء ، فهم ارجس خاصة ، لأن الفسء المفروض فيهن السكن والفرار في الحيوت

والحق - تبارك وتعالى - يوضح لنا هذا الفرق في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْجُرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا حَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا

(١) المصرح المفيث المنقذ من يستصرجه واستصرجه استفلا به والمصرح

الاستفاد والمستفيد والمفيد [اللاموس القويم / ٢٧٢]

نَسَاءً مِّنْ نِّسَاءِ عَمِيٍّ أَن يَكُونَ حَرِيْرًا مِّنْهُمْ .. ﴿١١﴾ [الحجرات] إذن والقوم هم الرجال خاصة

ومن ذلك أيضا قول الشاعر^(١)

وَمَا أَدْرِ وَلَسْتُ إِخَالُ أَذْرِي أَقَوِّمُ آلَ حَصْنٍ أَمْ نِسَاءً^(٢)
وقوله تعالى ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ﴿٢٠﴾
[الفدقان] أضباب اقوم إليه - ﷺ - لأنه منهم يعرفونه ويعرفون أصله ، وقد شهدوا له بالصدق والامانة ومكارم الاخلاق قبل ان يبعث ، وكان عندهم مؤتمنا على نفائس اموالهم ، لذلك حاطبهم الحق تبارك وتعالى بقوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٢٨﴾ [التوبة]

إذن فالرسول ليس بعيدا عنكم ، ولا مجهولا لكم ، فمن لم يؤمن به كرسول ينبغي أن يؤمن به كاسوة وقدوة سلوكك لسابق تاريخه فيكم

لذلك ترى أن سيدنا ابا بكر ما انتظر من رسول الله دعوة ، ولا أن يقرأ له قرآنا ، أو يظهر له معجزة ، إنما آمن وصدق بمجرد أن قال رسول الله ، فما دام قد قال فقد صدق ليس بمعجزة رآها أبو بكر ، إنما برهينه القديم في معرفة رسول الله في سلوكه وخلقه ، فما كان رسول الله ﷺ ليندع الكذب على الخلق ، ويكذب على الخالق

(١) الشاعر هو رهير بن أبي سلمى حكيم الشعراء من الجاهلية ، كان أبوه وحاله وأخته سلمى وابناه كعب وبجير وأخته الخساء شعراء ولد في بلاد مريئة ، ينواحي المدينة من أشهر شعراء مملكته ، توفي عام ١٣ ق هـ [لأعلام للزركلي ٥٢/٣]
(٢) ديوان رهير بن أبي سلمى ٧٢ ، وحسن التوسل صفحة ٢٣١

وكذلك السيدة خديجة هل انتظرت من رسول الله ما يُثبت نبوته ؟ إنها بمجرد أن قال رسول الله صدَّقتُ به ، ووقفت بجانبه وثبَّتته وهدأت من روعه . وقالت له : والله لا يُسلمك الله أبداً ، إنك لتصلُ الرحم ، وتحمل الكل^(١) ، ونعين على بوثب الدهر^(٢) .

ومعنى ﴿مَهْجُوراً﴾ (٣٠) [الفرقان] من الهجر وهو قُطْع الصلة ، فإن كسنت من حاسب واحد فهي هَجَر ، وإن كانت من الحائنين فهي (هاجراً) والمعنى أنهم هَجَرُوا القرآن . وتطعروا الصلة بينهم وبينه ، وهذا يعنى أنهم انقطعوا عن الألوهية وانقطعوا عن الرسالة المحمدية فلم يأخذوا أدلة اليقين العقدية ، وانقطعوا عن الرسالة المحمدية حينما كُتِبوا بها . وانقطعوا عن الأحكام حينما عَصَوْها . وبذلك اتخذوا هذا القرآن مهجوراً في كل هذه المسائل العقائد والعبادات والتصديق بالرسول .

مع أن العرب لو فهموا قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ لَدِكُّوْكَ وَلِقَؤُكُمْ ..﴾ (١٤) [الاحرف] لمجدوا القرآن وتمسكوا به ، فهو الذي عصمهم وعصم لعنتهم ، وأعلى ذكْرهم بين الأمم . ولو أن كل أمة من الأمم المعاصرة أخذتْ لهجتها الخاصة الوطنية ، وحملت منها لغة لتلاشت العربية كلغة .

وفي كثير من بلاد الوطن العربي لو حدثتْك بلهجتهم الخاصة لا تفهم منها شيئاً ، ولولا أن القُصْصِي لغة القرآن تربط بين هذه اللهجات لأصبحت كلُّ منها لغة خاصة ، كما حدث في اللغات اللاتينية

(١) تحصن الكل أى تعين المثلل ومه الإنفاق على للصغير واليتيم والعيال انظر شرح النورى على مسلم (١٦١/٢) . وفتح البارى للصغلاسى (٢٤/١)

(٢) حديث متفق عليه . لعمره البخارى في صحيحه (٢) وسنة مواضع أخرى من صحيحه . وكذا مسلم في صحيحه (١٦) من حديث عائشة رضى الله عنها

التي تولدت منها الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنجليزية ، ولكل منها أسسها وقواعدها الخاصة بها ، وكانت في الأصل لغة واحدة ، إلا أنها لا رابط لها من كتاب مقدس .

فالحق - تبارك وتعالى - يُنَبِّههم إلى أن القرآن فسيه ذكّرمهم وشرفهم وعزّتهم ، وفيه شهرتهم وصيتهم ، فالقرآن جمع العرب على كل سان ، ولولاه لذابرا بين الأمم كما ذابت قبيلهم أمم وحصارات لم يسمعن عنها أحد .

لذلك يقول لهم النبي ﷺ « إِن تَزْمِنُوا بِمَا جِئْتُ بِهِ بِكُمْ حُكْمٌ عَلَى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِن تَرُدُّوهُ عَلَى قَوْلِي صَبَرْتُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » (١)

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ
وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

وَذَا يَمْ يَكُرُّ لِلرَّسُولِ 'عَدَاءٌ فَلَمَّاذَا جَاءَ ؟ لَوْ اسْتَظَرْنَا مِنَ الْحَمِيعِ
سَاعَةً يَأْتِي الرِّسُولُ أَنْ يُصَدِّقُوهُ وَيُؤْمِنُوا بِهِ إِنَّهُ فَلَمَّاذَا جَاءَ
الرِّسُولُ ؟ لَا يَأْتِي الرِّسُولُ إِلَّا إِذَا ظَمَّ أَفْسَادٌ وَعَمَّ كَمَا أَنْتُمْ لَا تَأْتِي
بِالطَّبِيبِ إِلَّا إِذَا حَدَّثَ مَرَضٌ أَوْ وَبَاءٌ

وهؤلاء القوم كانت بهم سيادة ومكانة ، وقد جاء الإسلام ليُسوي بين الناس . ويستلب هؤلاء سيادتهم فلا بُدَّ أن يقهروا منه موقف العداء ، وهذا العداء هو حثية وجود الرسول فيهم ، وليس النسي ﷺ

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ٢٩٦/١) عن حديث وفد كلاب قريش إلى رسول الله ﷺ

بدعاً في ذلك ، فما من سى إلا وكان له أعداء ، مع أن الأنبياء السابقين كان النبي منهم في فترة زمنية محدودة وفي مكان محدود . أما رسالة محمد ﷺ فكانت رسالة عامة في لزمان وفي المكان ، ولا بدُّ أن يتناسب العداء - إذن - مع انتشار الرسالة وعمومها في الزمان والمكان إلى قيام الساعة ؛ على لنى ﷺ أن يُوطَّن نفسه على ذلك

وكلمة (عدو) من الكلمات التي تُطلق مفردة ، وتشمل المثنى والجمع . ومن ذلك قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم ؑ ﴿إِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٧) [الشعراء] وفي سورة الكهف ﴿أَفَتَحْذَرُونَ ذُرِّيَّتَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ..﴾ (٥٠) [الكهف] ولم يقل أعداء

وفي بعض الآيات تأتي بصيغة الجمع كما في قوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءُ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ..﴾ (٢٦) [آل عمران] فلو كانت قضية لغوية لجاءت بصيغة المفرد في كل الآيات

لكن لماذا عدل القرآن هنا عن صيغة المفرد إلى صيغة الجمع ؟ قالوا : إن كانت العداوة من المفرد والمثنى وانجم عداوة واحدة قل (عدو) بصيغة لمفرد لاتحاد سبب العداوة . وإن كانت العداوات مختلفة هذا يعاديك لشرفك ، وهذا يعاديك لعلك وهذا يعاديب لمالك ، فتعددت أسباب العداوة قان (أعداء) أما هي مسألة الإيمان واليافين بالنسبة للكافرين فالعداوة واحدة ، لكن في أمور الدنيا العداوات متعددة هـ يعاديك لكدا ، وهذا يعاديك لكدا ، لأنه مخالف لهواه

وحينما تحدثنا عن قوله تعالى : ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ..﴾ (٦١) [المرد] كلها بصيغة الجمع إلا في قوله تعالى : ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ (٦١) [المرد] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ لأن صداقة المؤمنين ينبغي ألا تكون إلا لمعنى واحد ، هو الحب لله ، ومعنى الله ، لا ينبغي أن يكون لك صديق لكذا وصديق لكذا

وفى ذلك يقول السيوطي رحمه الله : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار .^١

فإذا كان أصدقاؤك بحبوتك لله ، فهم جميعاً كصديق واحد

وقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ﴾ (٦١) [المرقا] يعنى كأعدائك الذين اتخذوا القرآن مهجوراً ، والذين وقعوا منك موقف لتعنت والإيذاء والسخرية .

﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ بَيْتٍ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٦١) [المرقا] أى الذين يُجْرِمُونَ يعنى يرتكبون الجرائم ، وهى المعاصى والذنوب حسب مدولاتها

الحق - تبارك وتعالى - حينما يكشف لرسوله ﷺ حقيقة أعدائه ، وأنهم كثيرور ، وأنهم مجرمون إنما ليوطن نفسه على ذلك ، فلا يُفاحأ به . ويتحمل أذاهم إن أصابوه بسوء . وهذه المسألة كامصل والتحصيل الذى يعطونه للناس لمواجهة المرض قبل حدوثه ، فالحق سبحانه يعطى رسوله المناعة اللازمة لمواجهة أعداء الدعوة

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (١٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٣)

كلاهما فى كتاب الإيمان من حديث أس بن مالك رضى الله عنه

لذلك نجد « تشوشل » القائد البريطاني الذي ساس الحرب العالمية الثانية كان يواجه جنوده بالحقائق افطن مما هي في الواقع ليوطن شعبه على ثوة التحمل ، وعلى التصدي للصعوبات الشديدة ، ومهما واحهم من مصاعب قال لهم ما زال هناك المزيد منها ، حتى إذا ما حدث ذلك كانوا على استعداد له

وقوله تعالى ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ٣٦ ﴾ [الفرقان] أي أن الله تعالى سيهديك إلى الطريق الذي بمقتضاه تنتصر على هؤلاء جميعاً . وسبق أن ذكرنا عن الباروق عمر - رضي الله عنه - أنه حينما نزل قوله تعالى ﴿ سَيُهِرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ٤٥ ﴾ [القمر] قال أي جمع هذا ؟ يعني تعجب كيف سنهزم هؤلاء ونحضر الآن عاحرون حتى عن حماية أنفسنا ؟ ولا نسيت إلا في السلاح ، ولا نصبح إلا في السلاح بخاف أن يتخطفنا الناس ، فلما وقعت بدر وهزم المشركون وحُصدت أرواح صناديدهم قال صدق الله ﴿ سَيُهِرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ٤٥ ﴾ [القمر]^(١)

كيف حدث هذا ؟ حدث من هداية الله لرسوله ﷺ إلى أسباب النصر ، والحق تبارك وتعالى - ينصر بالشئ وينصر بضده ، وقد اجتمع في بدر سادات قريش وأقويائها وأعياؤها وصناديد انكسارها ، حتى قال رسول الله ﷺ « هذه مكة ، قد ألفت إليكم أهلًا » كبدتها^(٢) ،

(١) أورد ابن كثير في تفسيره وعراه لابن أبي حاتم (٢٦٦/١) عن عكرمة قال : لما نزل ﴿ سَيُهِرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ٤٥ ﴾ [القمر] قال عمر : أي جمع جهوم ؟ أي أي جمع يُغلب ؟ قال عمر فلما كل يوم بدر رايت رسول الله ﷺ يلب في الفرج وهو يقول « سيهرم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ .

(٢) الفلدة القطعة من الكبد واللحم والمال والذهب والفضة والجمع أملار وفي حديث بدر « هذه مكة قد متككم بأهلاد كبدها » أراد صميم قريش وأبائها وأشرفها ، كعب يقال لفلان قلب عشرينه لأن الكبد من أشرف الأعضاء ، [لسان العرب - مادة فلذ]

(٣) أخرجه السهفي في دلائل النبوة (٤٣/٢) ، وأورده ابن هشام في السيرة النبوية (٦١٧/٢) عن عروة بن الربيع

وقد خرجوا جميعاً على حال الاستعداد للحرب ، أما المؤمنون فقد كانوا قلة مستضعفين على غير استعداد للحرب . ومع ذلك نصرهم الله .

والحق سبحانه يُطمئن رسوله ﷺ والمؤمنين معه ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴾ (٢٤٩) [البقرة]

وقال تعالى ﴿ وَإِنْ جُنَدُنَا بِهِمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١٧٣) [الصافات]

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. ﴾ [الرعد] أى نقص من أرض الكفر ، ونزيد من أرض الإيمان .
والحق سبحانه أخبرنا بقضايا ، يجب أن تُرحد أحداث في الحياة والواقع خدمة لتصديق هذه القضايا .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (٣٢)

هذا أيضاً أحد الأمور التي يتعلقون بها كي لا يؤمنوا ، وكيف يطلبون أن ينزل القرآن جملة واحدة ، وهم لا يطبقون منه آية واحدة ؟ لكنه الجدول والسفينة والإفلاس من الحجة ، فاعتراضهم على نزول القرآن مُتَجَمِّعاً^(١)

إس لا غضاضة عندهم في القرآن ، وعيبه في نظره أنه ينزل على محمد بالذات ، وأنه ينزل مُتَجَمِّعاً لا جملة واحدة ، وكان طاقة الإيمان عندهم تناسب نزول القرآن جملة واحدة !

(١) مُتَجَمِّعاً أى مُفْرَقاً مقطوعاً على حسب الأحداث وأسباب نزول آيات آية قال ابن كثير في تفسيره (٢١٨/٣) : « روى البخاري بإسناده عن ابن عباس قال أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة ،

ثم يقول سبحانه ﴿كَذَلِكَ﴾ [٣٦] [الفرقان] يعنى أنزلناه كذلك مُنْجَماً حسب الأحوال ، والعكمة من ذلك ﴿لَتُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ..﴾ [٣٧] [الفرقان] لأنك ستتعرض على مدى ثلاث وعشرين سعة لمواقف تزلزل فكلما تعرضت لموقف من هذه المواقف نزل القرآن تسلياً لك وتثبيتاً وصلته بالسما لا تنقص ولو نزل القرآن مرة واحدة لكان التثبيت مرة واحدة ، ثم تأتي بقية الاحداث بدور تثبيت ، ولا شك أن الصلة بالسما تقوى الصبح وتقوى الإيمان

كما أن اقرار لو نزل مرة واحدة ، كيف يتسنى لهم أن يسألوا عما سألوا عن مما حكاه القرآن يسألونك عن كذا ، يسألونك عن كذا إلخ إذن نروله مُنْجَماً اقتضاء لحكمة الحق سبحانه ليعدد مواقف تثبيتك لتعدد مواقف الإيداء لك

ومعنى ﴿وَرَتَّلَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [٣٨] [الفرقان] أى أنزلناه مُنْجَماً حسب الأحوال ، فكلما نزل نجم تمكنتم من حفظه وتكراره فى الصلاة .

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئَكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [٣٩]

المثل مثل قوبهم ﴿لَوْلَا يَرْى عَلَيْهِ الْقُرْآنُ حِمْلَةً وَاحِدَةً ..﴾ [٤٠] [الفرقان] أو قولهم ﴿لَوْلَا يَرْى هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٌ﴾ [٤١] [الرحم] وامثل الأشياء العجبية التى طلبوها

وواجبهم الله لما قالوا لانكروا قولهم وتنصلوا منه ، كما قال تعالى عن اليهود ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ..﴾ [٤٢] [البقرة] ومع ذلك قالوا ما حكاه القرآن عنهم أمّا كان فيهم رجل يسه لقول القرآن ، فيحذرهم من هذ القول ليوقع

رسول الله في حرج ، ويظهر القرن على أنه كذب ، ويقول كلاماً يخالف الحقيقة ، وعندها ، لهم أن يقولوا لقد قال القرآن كذا وكذا ولم يحدث منا هذا ؟

﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
أُولَٰئِكَ سُوءُ مَا كَانُوا أَصْلًا سَبِيلًا ﴾ (٢٤)

﴿ الذين .. ﴾ (٢٤) [الفرقان] إجمال لأشخاص معرومين بذواتهم ، وقفوا من رسول موقف العداء ، ومنهم من سبق أن قال ﴿ يَلِيَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (٢٧) يسويَنِي لِيَتَنِي ثم أَتَّخَذَ فَلَانًا حَلِيلًا ﴾ (٢٨) [الفرقان]

ولحشر الجمع للمساب ، لكن سيُحْشَرُونَ على وجوههم ، لذلك لما نزلت هذه الآية سألوا رسول الله كيف يمشون على وجوههم ، قال ﷺ « الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم » (١) .

فالذي يمشى على وجهه كالذي يمشى على بطنه ، ولعله يُجَرَّ جَرًّا ، سواء أكان على وجهه أو على أي شيء أحبر ، ثم إن الإنسان لا ينبغي له أن يسأل عن أمور هي مناط القدرة المطلقة

والحق - تبارك وتعالى - يوضح هذه المسألة في قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي

(١) عن أنس بن مالك أن رجلاً قال يا نبي الله يحشر الكافرين على وجه يوم القيمة ؟ قل « ليس الذي أمشاه على الرجلين على الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٦ ، ٦٤٢٣) وكذا مسلم في صحيحه (٢٨٦) كتاب صفات المنافقين

عَلَىٰ رَجُلَيْنِ رَسَاهُم مِّنْ يُعْشَىٰ عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

[النود]

إِنَّ الْمَعْشَى لَا يَنْحَصِرُ فِي الْحَالَاتِ الَّتِي نَعْرِفُهَا فَقَطْ ، إِنَّمَا هِيَ طَلَاةُ الْقُدْرَةِ الَّتِي تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ

لَكِنْ ، لَمَّاذَا لَمْ يَذْكَرِ الْقُرْآنُ أَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ الظَّالِمِينَ الْمَعَادِيينَ لِلْإِسْلَامِ ؟ قَالُوا هَذَا مِنْ بَابِ إِرْخَاءِ الْعَنَانِ لِلْخَصْمِ ، وَكَلِمَةُ (الْعَنَان) تَأْتِي بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَفَتْحِهَا ، وَاللَّغَوِيُّونَ يَقُولُونَ هِيَ عَلَى وَرْدٍ مَا هِيَ بِمَعْنَاهُ ، فَإِنْ قَصِدْتَ بِهَا عَنَانَ السَّمَاءِ مَسْهُىً عَلَى وَزْنِ سَحَابٍ ، وَإِنْ أَرَدْتَ بِهَا عَنَانَ الْقُرْسِ ، فَهِيَ عَلَى وَزْنِ لِحَامٍ

وَرَاكِبِ الدَّانَةِ إِنْ أَرَضَىٰ لَهَا الْعَنَانُ تَرْكُهَا تَسِيرَ كَمَا تَشَاءُ ، كَذَلِكَ الْحَقُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يُرْخِي لِلْخَصْمِ الْعَنَانَ لِيَقُورَ كُلُّ مَا عِنْدَهُ ، وَلِيَأْخُذَهُ إِلَىٰ جَانِبِهِ ، لَا بِمَا يَكْرَهُ ، بَلْ بِمَا يَصِبُ وَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ كَيْفَ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ وَيَجَادِلُهُم الْجَدَلَ الْهَادِيءَ ، أَلَيْسَ هِيَ أَحْسَنُ مَحِينٍ قَالُوا عَنْهُ مَقْتَرٌ ، وَعَنِ الْقُرْآنِ مُفْتَرِيٌّ وَمَكْذُوبٌ رَدٌّ عَلَيْهِمْ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ..﴾ (٣٨) [يوسر]

ثُمَّ يَتَرَقَّى فِي جِدَالِهِمْ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ (٣٩) [هود] وَفِي آيَةٍ أُخْرَىٰ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ ﴿وَرَبَّنَا أَوْ إِنَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٠) [سبا]

وَهَلِ الْعَسَى ﷻ لَا يَعْرِفُ مَنْ عَلَى الْهُدَى وَمَنْ عَلَى الضَّلَالِ ؟ لَا شَكَّ أَنَّهُ إِرْخَاءُ أَعْيَانِ لِلْخَصْمِ ، يَقُولُ لَهُمْ أَنَا وَأَنْتُمْ عَلَى طَرَفِي نَقِيضٍ أَنَا أَقُولُ بِإِلَهِ وَاحِدٍ وَأَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ قَوْلِي ، فَأَنَا مُتَنَاقِضٌ مَعَكُمْ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، وَالْقَضِيَّةُ لَا بَدَّ أَنْ تَأْتِيَ عَلَى شَكْلِ رَاحِدٍ ، فَإِمَّا أَنَا عَلَى الْهُدَى ، وَإِمَّا أَنْتُمْ ، وَأَنَا لَا أَدْعِي الْحَقَّ لِنَفْسِي

إِنَّ الْمَطْلُوبَ أَنْ تُعْمَلُوا عَقُولَكُمْ لِتُمَيِّزُوا مَنْ مَنَّا عَلَى الْهَدْيِ وَمَنْ مَنَّا عَلَى الضَّلَالِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَرْتَضِي حُكُومَتَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَمَا تَرَكَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ الْحُكْمَ إِلَّا وَهُوَ وَاثِقٌ بِهِمْ لَوْ تَجَرَّدُوا مِنَ الْهَوَى لَعَرَفُوا أَنَّ الْحَقَّ مَعَهُ ، وَأَنَّهُ عَلَى الْهَدْيِ ، وَأَنَّهُمْ عَلَى الضَّلَالِ

دَنْ عِنْدَمَا تَكَلَّمَ الْقُرْآنُ عَنْ كُفَّارِ فَرِيشِ الدِّينِ تَعَبَتُوا فِي اقْتِرَاحَاتِهِمْ ، وَعَانَدُوا وَأَذَوْا رَسُولَ اللَّهِ بِكُلِّ أَنْوَاعِ الْإِذَاءِ ، وَمَعَ ذَلِكَ حِينَمَا تَكَلَّمَ عَنْهُمْ جَاءَ بِأَسْلُوبٍ عَامٍ مَقَالٍ (الَّذِينَ) وَلَمْ يَقُلْ هَؤُلَاءِ ، بَلْ جَاءَ بِالْقَضِيَّةِ الْعَامَةِ وَلَمْ يُرَاجِهِهِمْ بِالْحِرَاءِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى التَّلَطُّفِ فِي أَمْرِ الدَّعْوَةِ ، وَهَذَا بَوَّعٌ مِنْ اسْتِمَالَةِ الْحَصْمِ لِقَطْعِ مَنْهُ شِرَاسَةِ الْعَدَاءِ وَالْعِمَادِ .

لِذَلِكَ يَخَاطِبُ الْحَقُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - رَسُولَهُ ﷺ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنِتَّ لَهُمْ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران] كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِطَبْعِكَ ، لِأَنَّ عِنْدَهُمْ وَإِذَا هُمْ كَانَ سَيُزْعِمُ طَبْعَكَ عَلَى أَنْ تَكُونَ قَاسِيًا مَعَهُمْ وَلَكِنْ رَحْمَةُ اللَّهِ شَمْسُكَ فَكُنْتُ لَهُمْ ﴿وَلَوْ كُنْتَ ظَنًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

هَذَا يَعْنِي أَنَّ الدَّاعِيَّةَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ رَحْبُ الصَّدْرِ ، رَحْبُ السَّاحَةِ ذَلِكَ لِأَنَّهُ يُخْرِجُ أَهْلَ الضَّلَالِ عَمَّا أَلْفَوْهُ إِلَى شَيْءٍ يَكْرَهُوهُ ، فَلَا تُخْرِجُهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِأَسْلُوبٍ يَكْرَهُونَهُ ، فَتَجْمَعُ عَلَيْهِمْ شِدَّتَيْنِ ، [فَمَا تَلَطَّفَ مَعَهُمْ ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَرُ لِمُوسَى وَهَارُونَ عِنْدَمَا أَمَرَهُمَا بِدَعْوَةِ فِرْعَوْنَ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَبًّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٤٤) [ص]

لِأَنَّ الَّذِي بَلَغَ مِنْ عِنَادِهِ أَنْ يَتَكَبَّرَ لَا عَلَى الْمَخْلُوقِينَ أَمْثَالَهُ ، [فَمَا يَتَكَبَّرُ عَلَى الْخَالِقِ هَيْدَعَى الْإِلَوهِيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ تَأْتِيَهُ بِأَسْلُوبٍ لِينٍ لَطِيفٍ

وَفِي آيَةٍ أُخْرَى يُعَلِّمُ الْحَقُّ سُبْحَانَ رَسُولِهِ ﷺ كَيْفَ يَجَادِلُ الْمُشْرِكِينَ ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَنِي عَنْ أَجْرِي مَا .. (٧٥)﴾ [سبا]

وهل يُتَصَوَّرُ الإِجْرَامُ مِنْ رِسُولِ اللَّهِ ؟ وَفِي الْمَقَابِلِ . ﴿ وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٥) [سبأ] مع أن منطق الجدل هنا أن يقول ولا تُسْأَلُ عَمَّا تُجْرِمُونَ ، لكنه سبب الإِجْرَامُ لِنَفْسِهِ ، ولم يذكره في حق الآخرين ، فهل هناك تَلَطُّفٌ وَتَرْقِيقٌ لِلْقُلُوبِ فَوْقَ هَذَا ؟

الحق تبارك وتعالى - يعرض بكل هذه المسائل ليثبت أن رسوله ﷺ كان حريصاً على إيمان قومه ، وأنه لم يُحَرِّضْ وَتُسْعاً فِي سَبِيلِ هِدَايَتِهِمْ وَجَذْبِهِمْ إِلَيْهِ ، لدرجة أنه حمل نفسه فوق ما يطلبه الله منه ، حتى قال له ربه ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهَذَا الْأَحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٦) [الكهف]

وقال ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) [الشعراء] يعنى مُهْلِكٌ نَفْسِكَ مِنْ أَجْرِ هِدَايَتِهِمْ ، وما عليك إلا السَّلاَحُ ، ولا يقول له ربه هذا الكلام إلا إذا كان قد علم منه حِرْصاً وَرَغْبَةً أَكِيدَةً فِي هِدَايَةِ قَوْمِهِ

ومعنى ﴿ أَوَلَيْسَ لَكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَحْسَنُ مَسِيلًا ﴾ (٣١) [الفرقان] قوله تعالى ﴿ شَرٌّ ﴾ (٣٤) [الفرقان] ولم يقلُ أَشْرٌ ، لأن معناه أن الجهة الثانية فيها شر ، وهذا أيضاً من إِرْخَاءِ أَعْيَانِ الْحَصَمِ . ثم يحدثنا الحق سبحانه عن أقوام الرسل السابقين

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ^(١) ﴾ (٣٥)

(١) الزبير المحيي والمساعد قال في [سائر العرب - مادة وور] « الزبير في اللغة اشتقاقه من الورد ، والورد النجيل الذي يعتصم به ليُنجى من الهلاك ، وكذلك وزير الخليفة معتاه الذي يعتمد على رأيه في أموره ويلتجئ إليه »

سبق قول الحق تبارك وتعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢١) [المزمل] فلا بُدَّ أن يكون لكل نبي أعداء ، لأنه حاء ليعدل ميراث المكارم الذي تحكم فيه ناس مُستبدون في شراسة ، وأهل فساد سيُحرمون من ثمرة هذا الفساد ، فطبيعي أن يقفوا في وجه الدعوة .

بذلك يضرب الحق سبحانه لرسوله ﷺ بعض الأمثال من موكب الرسائل . فيقول ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ (٣٥) [الفرقان]

كان الحق سبحانه يقول لرسوله لقد تعرضت لمشقة دعوة أناس لا يؤمنون بالإله . أما موسى فقد تعرض لدعوة من ادعى أنه إله ، إنس هناك من تحمل كثيراً من المشقات في سبيل الدعوة ، لدرجة أن موسى عليه السلام رأى نفسه لن يستطيع القيام بهذه المهمة وحده

فنزاه وهو لنبي الرسول الذي اختاره الله - يقول ﴿وَأُخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ (٢٤) [القصص] وهذا يعني أن موسى - عليه السلام - يعلم مدى المشقة ، وحجم المهمة التي سيقوم بها

فالرسالات اسابقة كان الرسول بُعِثَ إلى أمته المحدودة في الزمان وفي المكان ، ومع ذلك لاقرأ المشقات ، أما أنت يا محمد فقد أرسلت برسالة عامة في الزمان وفي المكان إلى أن تقوم الساعة ، فلا مدَّ أن تكون متاعبك مثل متاعب من سبقوك جميعاً

﴿فَقُلْنَا أَذْهَبْنَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا

بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ (٢٦)

استخطاب في ﴿ادْهَبَا﴾ (٢٦) [الفرقان] لرسول موسى ، وللورير هرون وقال ﴿إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا﴾ (٢٦) [الفرقان] مع أن فيهم من ادعى الألوهية استمراراً لإرخاء العنان لمُخَصِّم ، فقد كُتِبَ لفرعون بيان من آيات الله أن يؤمن بآله واحد .

ثم كانت النهاية ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ (٢٦) [الفرقان] لأنهم وقفوا من موسى وهارون موقفَ العدا ، وفامت بينهما معركة تدخل فيها الحق سبحانه ، ودمرهم تدميراً ، كأن الحق سبحانه يقول برسوله اطمئن فإن حادوا عن جادة الحق وأبوا أن يأتوك طائعين ، فسوف تكون نهايتهم كنهاية هؤلاء .

﴿وَقَوْمِ نُوحٍ إِذْ كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ

وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا

لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢٧)

ذكر الحق - تبارك وتعالى - نوحاً بعد موسى عليهما السلام ، لأن كلا منهما تَمَثَّلَ في دعونه شيء ، وتحمل كل منهما ألواناً من المشقة ، فموسى واجه من ادعى الألوهية ، ونوح أخذ سُلْطَةً زمنية واسعة انتظمت كل الموجودين على الأرض في وقته - ولا يعني هذا أنه عليه السلام - أرسل إلى الناس كلهم ، إنما كان قومه هم الموجودون على الأرض في هذا الوقت - فقد بُيِّنَ فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً

واقراً قصته - عليه السلام - في سورة نوح لتقف على مدى معاناته في دعوة قومه طوال هذه الفترة ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل ، وكانت الغلبة له في النهاية .

وايضاً لأنه - عليه السلام - تعرّص لأمر يتعلق بالبدوة ، بُتوة في المنهج ، وبتوة في النسب ، فقد كان ابنه - نسباً - كافراً ، ولم يمكن من هدايته ، ولما قال لربه عز وجل ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ۖ﴾ (٤٥) [هود] قال له ﴿يَنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (٤٦) [هود]

فجعل حيثية النفي ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (٤٦) [هود] فالسبب هنا عمل وطاعة ، فكأن الذنوة للأنبية ببوة عمل ، لا بقوة نسب ، فانك الحق من سر على منهجك ، وإن لم تكن من سمك .

مسألة أخرى نلاحظها في الجمع بين موسى ونوح عليهما السلام في مقام تسليمة رسول الله ﷺ ، فهما بـمـتـركـان في ظاهرة كونية تستحق التأمل والنظر ، فكل مظاهر الكون التي أمامنا لو حققنا في كل مظهر من مظاهرها بعقل وتؤدة ويقين لامكننا أن نستنبط منها ما نثرى حياتنا ونثرناها ويسعدها

لذلك الحق - تبارك وتعالى - يعنى على الدين يعرضون عن النظر في آياته ، فيقول ﴿وَكَايِنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٥) [يوسف]

وسبق أن قلنا : كل لمخترعات التي رفعت حياة الناس وأسعدتهم وقللت مجهوداتهم ، وقصرت الوقت عليهم ، كانت نتيجة الملاحظة والتأمل في مظهر الكون كالذي اخترع العجلة والبحار .

وهنا نلاحظ أن العلاقة بين موسى ونوح - عليهما السلام - أن الله تعالى يهلك ويُنَجّي بالشئ الواحد قال الماء الذي نجّى موسى هو الماء الذي غرق فرعون ، والماء الذي نجّى نوحاً هو الماء الذي أغرق

الكافرين من قومه فهذا تسمية برسول الله ﷺ ، فإله تعالى إن أراد الإنحاء يُنجي ، وإن أراد الإهلاك يُهلك ، ولو بالشئ الواحد

ألا ترى أن أصحاب موسى حينئذ رأوا البحر من أمامهم ، وفرعون من خلفهم قالو ﴿ إِنَّا لَمَدْرَكُونَ ﴾ (٦١) [الشعراء] فهذه حقيقة وقضية كونية من يملك ردها ، إنما ردها موسى فقال (كلاً) بن نورك ، قالها بملء فيه . لا بشريته . إنما بالربوبية التي يثق في أنها بن تسلمه . ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٦٢) [الشعراء]

وكذلك كانت مسألة نوح عليه السلام ، لكن بطريقة أخرى ، هي السفينة ، ومكرة السفينة لم تكن موجودة قبل نوح عليه السلام ، أم بصاحب واحد شجرة ملقاة في الماء تطفو على سطحه ففكر في ظاهرة الطفو هذه ، وكيف أن الشجرة لم تغطس في الماء ، لقد كان التجارون الماهرون يقيسون كثافة الخشب بأن يلقوه في الماء ، ثم ينظروا مقدار العاطس منه في الماء وعليه يعرفون كثافته

هذه الظاهرة التي تنبه لها أرشميدس وبنى عليها نظرية الأحكام الطافية والماء المُرَّاح ، وتوصل من خلالها إلى الفئاض ، فيها تطفو الأشياء أو تغوص في الماء ، إن زادت الكثافة يشغل الشئ ويغوص في الماء . وإن قلت الكثافة يطفو

وتلاحظ ذلك إذا رميت قطعة نقود مثلاً فإنها تغطس في الماء ، فإن طرقتها حتى جعلتها واسعة الرقعة رقيقة ، فإنها تطفو مع أن الكتلة واحدة ، نعم الكتلة واحدة ، لكن الماء المُرَّاح في الحالة الثانية أكثر ، فيساعد على طفوها

وقد أراد الحق - تبارك وتعالى - أن يُنبه الإنسان إلى هذه الطواهر ويهديه إلى صناعة السفن التي تحمل في الماء لأى ثلاثة

أرباع الكرة الأرضية مياه ، وقد جعل الله لك وسائل مواصلات في
الربيع ، ألا يجعل لك مواصلات في الثلاثة أرباع : فتأخذ خيرات
البحر ، كما أخذت خيرات البر ؟

وتأمل أسلوب القرآن ﴿وَقَرَأَ نوحٌ لِّمَا كَذَّبُوا الرُّسُلَ .. (٣٧)﴾
[الفرقان] ومعلوم أنهم كذبوا رسولهم نوحاً لا جميع الرسل ، قالوا
لا إله إلا الله لا تأتي بمتعارضات ، نعم تأتي بأمور متفق عليها ، لذلك
جعل تكذيب رسول واحد كتكذيب جميع الرسل

ثم ذكر عاقبة ذلك ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً .. (٣٧)﴾
[الفرقان] وكلمة ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ .. (٣٧)﴾ [الفرقان] تعني أن الذي أغرق
المكذبين نجى المؤمنين ، وإغراق المكذبين أول عملية ترد على
سحرتهم من روح ، حينما مروا عليه وهو يصنع السفينة ﴿وَكَلَّمَا
مُرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قُوَّةٍ سَحَرُوا مِنْهُ قُلْ إِنْ تَسْحَرُونَ مَنَا فَإِنَّا نَسْحَرُكُمْ كَمَا
تَسْحَرُونَ (٣٨)﴾ [مود]

ولم يكن العرق نهاية الجزء ، إنما هو بدايته ، فهناك العذاب الذي
يبتليهم في الآخرة ﴿وَأَعَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً (٣٧)﴾ [الفرقان]
وهكذا جمع الله عليهم العرق في الدنيا والحرق في الآخرة

ثم يضرب الحق - تبارك وتعالى - لرسوله مثلاً آخر

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّمِّ

﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨)﴾

إنها نماذج من المتاعب التي لاقامها الرسل من أمهم ، كما قال
في موضع آخر ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥)﴾ [الأعراف] . ﴿وَإِلَى
ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. (٧٢)﴾ [الأعراف]

وكانت النهاية أن نصر الله أوبياءه ورسله . ودحر خصومهم
والمكشبين بهم كل ذلك ليقول لرسوله ﷺ يا محمد لست بدعاً من
أرسل ، فإن وفك فومك موقف العناد والتكذيب ، فكُنْ على يقين
وعلى ثقة من نصر الله لك كما قال

﴿ وَبَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَصْرُورُونَ (١٧٢)
وَإِنْ جُنَدُوا لَهُمُ الْعَالُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إنها قضية يطلقها الحق - تبارك وتعالى - لا للتأريخ فقط ، ولكن
لنسبية العفس البشرية ، فإن أردت الغلبة فكُنْ في جند الله ونحت
حزبه ، ولن تهزم أبداً إلا إذا اغلقت فيك هذه الجندية ، ولا تنس أن
أول شيء في هذه الجندية الطاعة والانضباط ، فإذا هُرمّت في معركة
فعليك أن تنظر عن أي منهما تخطيت .

لذلك رأينا في غزوة أحد أن مخالفة الرماة لأمر رسول الله قائد
المعركة كانت هي سبب الهزيمة^(١) ، وماذا لو انتصروا مع مخالفتهم
لأمر الرسول ؟ لو انتصروا لفهموا أنه ليس من الضروري الطاعة
والانقياد لأمر رسول الله إذن هذا دليل على وجوب الطاعة ، وألاً
يخرجوا عن جندية الإيمان أبداً خضوعاً وطاعة ، ولا تقولوا إن
الرسول بيننا فهو يُريكم ، لأنه لن يخد فيكم .

(١) أمر رسول الله ﷺ على الرماة عبيد الله بن جبر ، والرماة خمسون رجلاً ، فقال له ﷺ
« أنضع عنا الحبل فالحبل بالنبل لا ياتوننا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فائتة . مكانك لا مؤتت
من قملك » [دلائل النبوة ٢/ ٢٢٧] وفي رواية أخرى (٢/ ٢٢٩) أن النبي ﷺ قل
لهم « إذا ريتنوا تحطفتنا الطير فلا ترحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم وإن رأيتنوا
هرما القوم وأوطانهم فلا ترحوا حتى أرسل إليكم » ثم لاحظ لهم العاشم فقال الرماة
الغيبه . ظهر أصحابكم مما تنظرون . قال عبد الله بن جبر « استجتم ما قال لكم رسول
الله ﷺ ؟ فقالوا « بلى » فأتاهم فصرعت وحرهم ، ماتوا
متهربين .

وقوله تعالى ﴿وَأَصْحَابُ الرُّسِّ ..﴾ [الفرقان] الرِّسُّ هو البثر أو الحفرة . وكاست فى اليمامة ، ويسمونها الأحود . وقد ورد ذكرها فى سورة البروج

وقد قال سبحانه هنا ﴿وَقَرُّوْنَا بِئْسَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان] لم يُرد الحق سبحانه أن يُعَدَّد كل الأمم السابقة ، واكتفى بِذِكْرِ نماذج منها ، وفى مواضع أخرى يجمعهم جملة . فيقول تعالى . ﴿فَكُلًّا أَحَدًا بِبَنِي قِمْتِهِمْ مِّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَحْذَنَهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَفْنَا ..﴾ [٣٨] [المنكبوث]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا

تَبَرَّنَا تَبِيرًا﴾ [٣٩]

﴿وَكُلًّا ..﴾ [الفرقان] أى كُلُّ من المتقدمين ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ..﴾ [الفرقان] يعنى لم ادع رسولاَ إلا وجئتُ له بالعبرة برسول قبله ، أقول له انظر فيمن سبقك كيف كُتِبَ قَوْمُهُ ؟ وكيف عاندوه ووقفوا منه هذا الموقف ، ومع ذلك كانت له الغيبة عليهم ، ذلك لياخذ كُلُّ بَنِي شَحْنَةَ مَنَاعَةٍ وَصَافَةَ يَصْمَدٍ بِهِ أَسْمَ شِدَائِدِ الدَّعْوَةِ ، فلا يلى ، ولا يئأس ، وليكن على يقين أن انتهاء له وهى صالحه

﴿وَكُلًّا تَبَرَّنَا تَبِيرًا﴾ [الفرقان] أى اهلكنا ودمرنا كل من كذب الرسل بأنواع مختلفة ومتعددة من ألوان العذاب ، فعوقب بعضهم بالصيحة أو الجسف أو الإغراق أو بالريح الصرصر ابعاتية

(١) حصية قدمه بالحصى والحاصب إعصار شديد يقدحكم بالحصى فهلككم والريح الحصفة تفعل أكثر من ذلك [القاموس المزيّن ١٠٦/١]

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا
السَّوَاءَ أَفْكَمَ يَكُونُوا أَيْسَرًا وَلَا يَكُونُوا
كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ (٤٠)

هذه المشاهد لم تكن مجرد تاريخ يحكيه القرآن ، إنما مشاهد
ومراء رآها كفار مكة في رحلة الصيف يمرون على هذه الديار ، كما
قال سبحانه في موضع آخر ﴿وَإِنكُمْ لَمَرُودٌ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧)
وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات] إذن فهذا التاريخ له واقع
يسانده ، وآثار تدل عليه

والقرية التي أمطرت مطر السوء هي سدوم قرية قوم لوط ﴿أَفَلَمْ
يَكُونُوا يَرُونَهَا (٤١)﴾ [المرسل] ألم يشاهدوها في أسفارهم
﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٢)﴾ [الفرار] كلمة (بَلْ) للإضراب .
هي تنفي ما قبلها وتثبت ما بعدها ، فالمعنى أنهم مروا عليها
وشاهدوها ، ويعرفونها بضم المعرفة لكنهم لا يرجون نُشُورًا يعنى
لا ينتظرون البعث ولا يؤمنون به . ولا يعترفون بالوقوف بين يدي
الله للحساب ، ألم يقولوا ﴿أَنَذَا مِنَّا رُكْنَا قُرَابًا وَعِطَامًا أَنَا
لَمَيِّهُونَ (٨٢)﴾

وعجباً ألا يؤمن هؤلاء بالبعث والحساب ، وهم أنفسهم كانوا إذا
رأوا ظالماً رقفوا على وجهه ومنعوه من الظلم ، كما كان في حلف

١) المقصود بهم مشركو قريش ، فقد كانوا في الصيف يمرون على قرية قوم لوط في
رحلتهم إلى الشام في الصيف

الفضول مثلاً ، فيأخذون الظالم ويعاقبونه حتى يرجع عن ظُلمه ، ثم يردُّون للمطلوم حقَّه ، لكن ألم يتظَّروا في حال الظالمين الذين مرُّوا في الدنيا دون عقاب ، ودون قصاص ؟ أليس من العدل أن تكون لهم دارٌ أخرى يُحاسبون فيها ؟

لذلك كنا تردُّ على الشيوعيين بهذه المسألة ، يقول لهم لقد عدنُّمُ أعداءكم من الإقطاعيين والرأسماليين ، وانتقمنَّ منهم فما بال الذين سبقوكم ولم تدركوهم ؟ أليس من العدل أن تعترفوا بيوم جامع يُحاسب فيه هؤلاء ؟

ولما قال الفاضل لن يموت ظلم حتى ينتقم الله منه قالوا له إن فلاناً الظالم قد مات ، ولم ترَ فيه شيئاً ، فقال إن وراء هذه الدار داراً يُجاري فيها المحسن بإحسانه ، والعسء بإساءته

وبعد أن عرَّض الحق - تبارك وتعالى - رمض التماذج من موكب النبوات تسلياً لرسوله ﷺ يُبين أن الأمر مع هؤلاء لكفار لن يتوقف عند العقائد والتعنُّت بمطالب سحيقة ، إنما يتعدَّى ذلك إلى محاولة الاسدهاء به والسخرية منه ، فقال سبحانه

﴿ وَإِذْ أَرْأَوْكَ إِنِ يَتَّخِذُونَكَ إِلهَ هُزُواً أَهْلاً

الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً ﴿١﴾ ۞

(إن) نامية بمعنى ما يتخذونك إلهاً هُزواً ، ثم ذكر صيغة الاستهزاء ﴿ أَهْلاً الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً ﴾ (٤١) [الفرار] وفي موضع آخر قالوا ﴿ أَهْلاً الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ (٣٦) [الأنبياء] كأنه ﷺ دون هذه المنزلة ، وما دام الرسول في نظرهم دون هذه المنزلة

فإنهم يريدون شخصاً على مستوى المنزلة ، كما قالوا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ
هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَوْمَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) [الرحمن]

ومعنى هذا أنهم مؤمنون بضرورة وجود إله ورسول ومنهج ،
وكل اعتراضهم أن تكون الرسالة في محمد بالذات .

ثم يتناقضون مع أنفسهم ، فيقولون

﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا
عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ مَنْ
أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (١٢)

كيف تستهزئون به وتروونه دون مستوى الرسالة . ثم تقولون
إبه كاد أن يضلكم عن إلهتكم يعني قُرْبَ أَنْ يُضِلَّكُمْ عَنْ إِلَهْتُمْ . مع
ما أنتم عليه من التعنت والعناد ؟ هذا دليل وشهادة لرسول الله أنه
قوى وأنه على مستوى الرسالة ، وأنه لم يدخر وسعاً في دعوتكم ،
حتى كاد أن يصرفكم عن إلهتكم .

والدليل على أنهم كانوا يخافون من تأثير رسول الله عليهم قولهم
لا تنزعهم إذا رأوهم يستمعون للقرآن ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا
فِيهِ لَعَنُوكُمْ تَلْعَبُونَ﴾ (٢٦) [مصلح] إذن يريدون أن يشوشوا على القرآن
لما يعلمون من تأثيره في النفوس . وهم أمة فصاحة وبلاغة ، فإن
سمعوا القرآن فلا بد أن يؤثر في قلوبهم ويجذبهم إليه

ألا ترى قصة إسلام عمر - رضي الله عنه - وكيف كان قبل
الإسلام شديداً حباراً ؟ فلما تهيأت له الفرصة فاستمع للقرآن
وصادف معه ملكة سليمة وفطرة نقية ، حيث أعاده حادث ضربته

لأخته وشجبه لها . أعاده إلى سلامة الفطرة والطوية ، فلما سمع منها القرآن وصادف منه قلباً نقياً وطره سليمة تأثر به ، فأسرع إلى رسول الله يعين إسلامه

إذن يقولكم ﴿إِنْ كَادَ لَيْهَتُنَا عَنْ آلِهَتِنَا ..﴾ (٤٢) ﴿[الفرقان] دليل على أنه كُفءٌ لمهمة التي بعث بها ، وهذا يناقض قولكم سخرية منه واستهزاء ﴿أهدأ الذي بعث الله رسولا﴾ (٤٦) ﴿[الفرقان]

وقولهم ﴿لَوْ لَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ..﴾ (٤٢) ﴿[الفرقان] يدل على أنه ﷺ معبر معهم أفعالا اقتضت منهم أن يصبروا^(١) على الصلال ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أصل سبيلا﴾ (٤٢) ﴿[الفرقان] سيعرفون ذلك ، لكن بعد قوات الأوان ، وبعد ألا تنفعهم هذه اسعرة

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (٤٣)

الحق - تبارك وتعالى - يضع لرسوله ﷺ قضية ، هي أن الدين إما جاء يبعصم الناس من أهواء الناس ، فلكل نفس بشرية هوى ، وكل إنسان يعجبه هواه ، وما دام الأمر كذلك فإن بنقاد لغيره ، لا غيره أيضا له هوى ، لذلك يقول تعالى ﴿ولو أئيع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض﴾ (٧١) ﴿[المؤمنون]

لكن ، لماذا تختلف الأهواء ؟ قالوا لأن طبيعة الحياة تتطلب أن تكون الأهواء مختلفة ، لأن مجالات الحياة متعددة فهذا هواه في كذا وهذا هواه في كذا فترى الصديقين يلارم أحدهما الآخر ، وبشاركه طعامه وشراؤه ، فلا يعرفهما شيء ، فإذا ما ذهبا لشراء

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٩١١/٧) « أي حينما أنسخت على عبادتها »

شيء ما تباينت أهواؤهما ، كما أن هوىً مختلفاً يخدم هوىً مختلفاً ،
فالذير اختلفوا مثلاً في تصميم الأشياء يخدمون اصلافاً الأدواق
والأهواء ، لذلك يقولون : خلاف هو عين الوراق ، ووافق هو عين
الخلاف .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بسيطاً : هَبْ أنك دخلتَ مطعماً ، وأنت
تفضل مثلاً ورك السحاجة وغيرك كذلك يفضلهُ ، وصادف أن في
المطعم (وركاً) واحداً ، فلا شك أنكما ستحسنان عليه إذن
اتفقتم في الأول لاختلافكما في الآخر ، لكن إن اختلفت رغباتكما ،
فسوف ينتج عن هذا الاختلاف تنقُّ في النهاية ، فانت ستأخذ
الورك ، وغيرك سيأخذ الصدر ، فهذا - إذن - خلاف يؤدي إلى
وافق ، ووافق يؤدي إلى خلاف

هنا يقول الحق سبحانه ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ .. ﴾ (٤٣)
[الفرقان] الهوى أن تكون هناك قضية ظاهراً فيها وجه الحق ، إلا أنك
تميلُ عنه وأنت تعرفه ، لا أنك تجهل

لذلك يقول العلماء أمةُ الرأي الهوى فالرأي قد يكون صائباً
لكن يميل به الهوى حيث يريد الإنسان ، وقتلنا لا أدل على ذلك من
أن الرجل منهم كان يسير فيجد حجراً أجمل من حَجَره الذي يعبدهُ ،
فيلقى الإله الذي يعبدهُ ليأخذ هذا الذي هو أجمل منه فينخذه إلهاً ،
إذن هراء في جمال الحجر غيب أنه إله

وقد وقف المستشرقون عند قوله تعالى في حق النبي ﷺ
﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ (٢) [النجم]

يقولون كيف يحكم الله بأن رسوله لم ينطق عن الهوى . وقد
عدَّ الله له بعض ما نطق به ، مثل قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ

تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. ﴿١﴾ [التحرير]

وقال تعالى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ .. ﴿٢﴾ [التوبة]

ولا بُدَّ أَنْ تُحَدِّدَ مفهوماً الهوى أولاً أنتَ مدرك أن لديه قصصيتين الحق واضح في أحدهما ، إلا أن هواه يميل إلى غير الحق إنه ﷺ نطق لأنه لم تكن هناك قضية واقعة ، وهو يعرف وجهه لحق فيها ، فهو - إنس - لم يَسِرْ على الهوى ، إنما على ما انتهى إليه اجتهداه .

الآن نرى قوله تعالى لرسوله ﷺ في مسألة نبئ لريد بن حارثة ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ . ﴿٥﴾ [الأحزاب] قمعى أن سببه لآبيه أقسط أن رسول الله لم يَكُنْ جائراً ، فما فعله قسط ، لكن فعل الله أقسط منه .

عالحق - تبارك وتعالى - لم يُخطيء رسوله ﷺ ، وسمي فعه عدلاً ، وهو عدل بشري يناسب ما كان من قسك ريد برسول الله ، وتقضيته له عى أمه ، فلم يجد رسول الله أفصل من أن يتبناه مكافأة له

ثم يقول سبحانه ﴿أَفَاتُ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿١٣﴾ [الفرقان] وكيلاً يتولّى توجيهه ، ليترك هواه ويتبع الحق ، كما قل سبحانه فى موضع آخر ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسيطر ﴿٢٦﴾ [الناشئة] وقال ﴿أَفَاتُ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ [يونس] وقال ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ .. ﴿٤٨﴾ [الشورى]

فالذى اتبع هواه حتى جعله إلهاً له لا يمكن أن تحمله على أن

يعنل عن هواء ، لأن الأهراء مختلفة ، فالبعض يريد أن يتمتع بجهد غيره ، فيضج يده فى جيوب الآخرين ليسرقهم ، لكن أيسره أن يفعل الناس معه مثل فعله معهم ؟ إذن هوى صانم هوى ، هأيهما يغلب ؟ يغلب من بحكم بلا هوى ، لا لك ولا عليك ، وقصبة الحق فى ذاتها لا توجد إلا من الله تعالى

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ
إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ٤٤

﴿ يَسْمَعُونَ .. ﴾ (٤٤) [الفرقان] أى . سماع تعقل وتدبر ، فلو سمعوا وعقلوا ما وصت بهم المسائل إلى هذا الحد ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ .. ﴾ (٤٤) [الفرقان] مع أن الأنعام مسخرة وتؤدى مهمتها ولم يمدح عن شىء خلقت له ، فقد شئهم الله بالأنعام ، لأن الأنعام لا يطلب منها أن تسمع إهداية لأنها مسخرة ، ولذى يطلب منه السماع والهداية هو المخير بين أن يفعل أو لا يفعل .

كان الحق سبحانه يقول اتظن أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ وكلمة ﴿ أَكْثَرَهُمْ .. ﴾ (٤٤) [الفرقان] تدل على أن بعضهم يسمع ويعقل ، وهذا من قابول الاحتمال فكثير من كفار قريش تصبوا رسول الله العداء ، وانتهى الأمر بهم إلى أن أسلموا وخس إسلامهم ، إذن كان فيهم من يسمع ، ومن يفكر ويعقل ، لذلك قال ﴿ أَكْثَرَهُمْ .. ﴾ (٤٤) [الفرقان] ليحمى هذا الحكم ، وليحفاظ لما سيقع من إيمان هؤلاء البعض ، هذا دقة فى تحرى الصدقة

وسبق أن ذكرنا ما كان من أسف المؤمنين حين يفوتهم قتل أحد صناديد الكفر في المعركة ، فكانوا يألون لذلك أشد الألم وهم لا يدرون أن حكمة الله كانت تدمرهم للإيمان فيما بعد ، ومنهم خالد ابن الوليد الذي أصبح بعد ذلك سيف الله المسلول

والأنعام قلنا . لا دخل لها في مسألة الهداية أو الضلال لأنها مُسْحَرَةٌ لا اختيار لها ، لذلك صرب الله بها المثل لليهود ﴿كَمَثَلِ الْحَمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا .. (٥٠)﴾ [الجمعة] فالحمار مهمته أن يحمل فحسب ، أما أنت أيها اليهودي فمهمتك أن تحمل وتطبق . الحمار لا يطبق ، لأنه لم يُطلب منه ذلك ، مع أن الحيوان يعرف صاحبه ويعرف طعامه ومكان شرابه ، ويعرف طريقه ومكان مبيته ، حتى أن أحدهم مات على ظهر جواده ، فصر به الجواد إلى بيته

إذن فالأنعام تفهم ونعقل في حدود المهمة التي خلقها الله لها ، ولا تُقَصِّرُ في مهمتها ، أما المهمة الدينية فتعلمها في باطن الأمر ، لكن لا يُطلب منها شيء الآن ، لأنها انتهت من هذه المسألة أولاً ، كما قال سبحانه وتعالى .

﴿إِنَّ عَرْشَنَا الْأَمَانَةُ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَابْتَئِ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)﴾ [الاحزاب]

فاختاروا أن يكونوا مُسَيِّرِينَ بالخريزة محكومين بها ، إذن قلهم احنار ، لكن بقَدُوا اختيارهم حملة واحدة من أول الأمر

خذُ مثلاً الهدد وهو من المملوكات التي سخرها الله لسليمان عليه السلام - يقول به ﴿أَحْطَيْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِأُيُتِيمٍ (٢٧)﴾ [النمل] أي ديمقراطية هذه التي تمتع بها لهدد مع سليمان ١٤ إذن فحتى الحيوانات تعرف هذه القضية ، وإن لم يُطلب

منها شيء ، والحيوانات لا يمكن أن تفعل شيئاً إلا إذا كان متروكاً بفرائرها وفي مقدورها .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالحصار ، إذا أردت منه أن يقفر فوق جدول ماء فإنه ينظر إليه ، فإن كان في مقدوره قفز ، وإن كان فوق مقدوره تراجع ، ولا يمكن أن يقدم مهما ضربته ، لأنه علم بفريزته أنه فوق إمكاناته ، أما الإنسان فقد يقدم على مثل هذا دون حساب للإمكانات ، فيوقع نفسه فيما لا محمد عقباه

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ رِبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا

ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥﴾

الحق - سبحانه وتعالى - وهو خالق الآيات في الكون ينه إليها الخلق ، وكان من المفروض ممن يرى الآيات أن يتنبه إليها بدون أن يُبْه ، فإذا رأى عجيبة من عجائب الكون تأملها ، وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً بمن انقطعت به السبل في صحراء شاسعة ليس بها أنيس ولا حياة ، وقد بلغ به الحسد حتى نام ، فلما استيقظ وجد مائدة عليها أطيب اطعم أو الشراب ، بالله قبل أن تمتد يده إلى الطعام ، ليس من المفروض أن يفكر في هذا الطعام من أتى به ؟ وأعدّه على هذه الصورة ؟

إذن في الكون آيات كان يجب أن تشد انتباهك لتبحث فيها وفي آثار وجودها وكلها آيات عالية عتاً وفوق إمكاناتنا الشمس والقمر ، الهواء والمطر إلخ ، ومع ذلك لم يتركك الله ، لأن تتنبه أنت ، بل نبهك وفتك رحب انتباهك لهذه ولهذه

وهنا ، الحق - تبارك وتعالى - يعرض الآيات والكرامات التي يراها لإنسان برتبة كس يوم ، يراها الفيلسوف كما يراها راعي الشاة ، يراها الكبير كم يراها لصغير كل يوم على نظام واحد ، لا يكاد يلتفت إليها .

يقول سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَ .. (٤٢) ﴾ [الفرقان] أى ألم تعلم ، أو ألم تنظر إلى عِثَّةِ رَمَكْ ﴿ كَيْفَ مَدُّ الظِّلِّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ﴾ [الفرقان] نعم مرى اظل ، فما هو ، الظل أن يخُجِبَ شيءٌ كثيف على الأرض - مثل جبل أو بناء أو شجرة أو بحره - ضوء الشمس ، متظهر منطقة الظل فى المكان المُشْمَسُ فانمساءة - إنى - متعلقة بالشمس ، وبالأرض التى نعيش عليها

وقد علمنا أن الأرض كرة تواجه الشمس ، فالجهة المواجهة منها للشمس تكون مُصَاءة ، والآخرى تكون ظلاماً لا نقول - ظلاً ، فما لفرق بين الظل وانظلام ؟ قالوا : إذا كان الصاحب لضوء الشمس من نفس الأرض فهي ظِلْمَةٌ ، وإن كان اصحاب شيئاً على الأرض فهو ظل .

والظل نراه فى كل وقت وقد ورد فى عدة مواضع من كتاب الله ، فقال سبحانه ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي ظِلَالٍ وَعِثُونَ (٤٦) ﴾ [المرسلات] وقال ﴿ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلَالٌ (٥٧) ﴾ [الاسراء] وقال ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتِمُّ ظِلَالُهُ .. (٤٨) ﴾ [الاحقاف]

يندبنا ربنا - تبارك وتعالى - إلى مهمة أخرى من مهام الظل . وهى أنه يحمينا من وَخَرِّهِ الشمس وحرارتها ، ويرتقى الإنسان فى استخدام الظل يجعله كما قال تعالى ﴿ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧) ﴾ [الاسراء] أى

(١) أى دائماً مستقراً لا تتسحبه الشمس قاله القرطبي فى تفسيره (٤٩١٤ / ٧)

أن الظل نفسه مُظَلَّل ، فيجعلون لخيمة مثلاً لها سقفان منفصلان حتى لا يتأثر داخل الخيمة بالحرارة خارجها

لذلك تجد ظل الشجرة أظف من ظل الحائط مثلاً أو المظلة ، لأن أوراق الشجرة يُظَلَّل بعضها بعضاً ، فالظل يأتي من مُظلل آخر فتشعر تحت ظل الشجرة وكأنك في (تكييف) ، لأن الأوراق تحجب عنك حرارة الشمس في حين تسمح بمرور الهواء كما قال الشاعر في وصف بوحه

يصدُّ الشمسُ أنى وأحسناً فيحجبها ويأذن للتسليم

وقال تعالى ﴿ وَإِذْ نَقَّأَ الْجَبَلِ عَنْهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ ﴾ [الاحرام]

وحين تتامل هذه الظاهرة ساعة طلوع الشمس ترى الشيء الكثيف الذي يحجب ضوء الشمس يطول ظله إلى نهاية الأفق ، ثم يأخذ في القصر كلما ارتفعت الشمس إلى أن يصير في روال ، ثم ينعكس الظل مع ميل الشمس ناحية الغرب فيطول إلى نهاية الأفق

والحق تبارك وتعالى - يريد منا أن نلاحظ هذه الظاهرة ، وأن نتأملها ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ .. ﴾ [الفرقان] أي ساعة طلوع الشمس ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ لَّحَظُهُ سَاكِنٌ ﴾ [الفرقان] لأن مشيئة الله تستطيع أن تخلق الشيء وتقيصه ، فإن شاء مد الظل ، وإن شاء أمسكه

(١) نقلاً نقلاً رفعه من مكانه وحركه وجعله [القاموس القديم ٢/ ٢٥٢] قال ابن عباس رفعته الملائكة فوق رؤوسهم وذكر سعيد بن داود في تفسيره أن الله أوحى إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى ألا ترون ما يقول ربى عز وجل ، لن سم تقبلوا القصيدة بما قبسها لأرميكم بهذا الحديث [تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦١]

ولكنه يتغير . ينقص في أول النهار ، ويزيد في آخره وكل ما يقل الزيادة يقل النقص ، والنقص وازياده حركة ، والحركة نوعان حركة قفزية كحركة عقرب الدقائق في الساعة ، فهو يتحرك بحركة قفزية ، وهي أن يمر على المنحرك وقت ساكن ثم يتحرك . إما أتدرك ذلك في حركة عقرب الساعات ؟ لا ، لأنه يسير بحركة استيعابية ، بحيث توزع أحرء الحركة على أجزاء الزمن

ومثلنا هذه الحركة بنمو الطول الصغير الذي لا تدرك حركة نموه حال مفرك له منذ ولادته إنما إن غُيِّبَ عنه فترة أمكنك أن تلاحظ أنه يكبر ويتغير شكله ، لأن نموه مُوزَّع على فترات الزمن ، لا يكبر هكذا مرة واحدة . فهي مجموعات كبر تجمعت في أوقات متعددة ، وليس لديك المقياس الدقيق الذي تلاحظ به كبر الطفل في فترة قصيرة

وإذا كنا نستطيع إجراء هذه الحركة في لساعات مثلاً ، فالحق - تبارك وتعالى - يحدثها في حركة الظل وينسبها لعظمها إلى نفسه تعالى ، لأن الظل لا يسير بحركة ميكانيكية كالتي تراها في الساعة إنما يسير بقدرة الله

والحق سبحانه يلفتنا إلى هذه الظاهرة ، لا لأنها مجرد ظاهرة كونية تراها ونتعجب منها ، إنما لأنها سنستغلها ونستفهم بها في أشياء كثيرة .

مقدماء المصريين أقاموا امسلات ليضبطوا بها الزمن عن طريق الظل ، وصنع العرب المسلمون المرولة لضبط الرقت مع حركة الشمس ، ويرى الفلاح البسيط الآن ينضر إلى ظل شيء ويقول لك اساعة الآن كذا ، لأنه تعود أن يقيس الوقت بالظل ، مع أن مثل هذا التقدير يكون غير دقيق ، لأن للشمس مطالع متعددة على مر أيام العام ، لذلك في أحد معابد الفراعنة معبد به ٣٦٥ طاقة ، تدخل الشمس كل يوم واحدة منها

إنّ أقدما الظل في المسلات والمزاو ، ومنها انتقل المسلمون إلى عمل الساعات وأولها الساعة الدقاقة التي كانت تعمل بالماء ، وقد أهدوا شارلمان ملك فرنسا واحدة منها فقال إن فيه شيطانا ، هكذا كان المسلمون الأوائل

وقوله تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥)﴾ [الفرقان] أي أن الضوء هو الذي يدل على الظل

﴿فَرَقَبَضْمَةً إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦)﴾

الحق - تبارك وتعالى - يبين الحركة البطيئة للظل فيقول ﴿قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦)﴾ [الفرقان] لا تدركه أنت أبداً ، لأن في كل لحظة من لحظات الزمن حركة فلا يخلو الوقت مهما قل من الحركة ، لكن ليس لديك المقياس الذي تدرك به نُطء هذه الحركة

وقوله ﴿قَبْضًا إِلَيْنَا .. (٤٦)﴾ [الفرقان] دليل على أن المسألة ليست مكانية ، إنما هي بقبومية الله تعالى ، لذلك فكان الحق سبحانه يقول يا عبادي ناموا ملء جفونكم ، فربكم قيوم على مصالحكم لا ينام .

وأهل المعرفة يستنتطون من ظاهرة الظل اسراراً فيرون أن ظل الأشياء الشاهقة المتعالية يخضع لله تعالى ، ويسجد على الأرض ، رغم أنه متعال شامخ ، كما جاء في قوله سبحانه ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْعُدْوِ الْأَيْمَنِ (١٥)﴾ [الرعد] وقال سبحانه ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤٦)﴾ [النور] فالظل حركة بطيئة لا يعلمها إلا الله ، لأنك لا تدرك مدى صغرها ، لذلك قلنا في الهباء إنه نهاية ما يمكن أن يكون من النفثات المتظورة

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ مُبَاقًا
وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (٤٧)

﴿اللَّيْلُ .. (٤٧)﴾ [المرقاة] يعنى الظلمة لا الظل والظلمة هي
التي مبعث النور ، وإياك أن تظن أن الظلمة ضد النور ، وتحاول أنت
أن تنسخ الظلمة بنور من عندك ، وهذه آفة الحصاراة الآن أن جعلت
الليل نهارة

وقد تنبه العلماء أخيراً إلى مدى ضرر الأشعة على صحة
الإنسان ، لذلك جاء في الحديث الشريف « اطفئوا المصابيح إذا
رقدتم »^(١) والشعاع له عمل وقت حركتك ، لكن ساعة نومك وراحتك
ليس له مهمة بل هو ضار في هذا الوقت

والحق تبارك وتعالى - يمتن علينا بالليل والنهار ، فيقول
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا^(٢) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ
اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَا تَسْمَعُونَ (٧٦) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ
سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ سَكُونٍ فِيهِ أَوْ لَا
تَبْصُرُونَ (٧٧)﴾ [القصص]

إذن فليل مهمة ، ولنهار مهمة يوضحها هنا الحق سبحانه
بقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا .. (٤٧)﴾ [المرقاة] أى ساتراً .

(١) أخرجه البخارى في صحيحه (٥٦٢٠) ، وأحمد في مسنده (٣٨٨/٢) من جابر بن

عبد الله واللفظ للبخارى

(٢) السرمد الدائم الذي لا يقطع والسرمد دوام الرمان من نيل أو نهار [لسان العرب

مادة سرمد]

كما أن اللباس يستر الجسم ، والنوم ردد ذاتي يقهر الكائن الحي ،
وليس رددًا اختياريًا

لذلك تلاحظ أنك إن أردت أن تنام في غير وقت النوم تتعب
وترهق ، أما إن أتاك النوم فتسكن وتهبط ، ومن هنا قالوا : النوم
ضيف ثقيل إن طلبته أعنتك ، وإن طلبك أراحك

بذلك ساعة يطلبك النوم تنام ملء جفونك ، ولو على الحصى
يغلبك النوم فتنام ، وكان النوم يقول لك اهدأ واسترح ، فلم تعد
صالحًا لحركة ، أم من غالب هذه الطبيعة فاحد مثلاً حيوياً تساعده
على السهر ، فإن سهر ليلة نام بعدها ليلتين ، كما أن الذي يغالب
النوم تأتي حركته مضطربة غير متوازنة

فعلبك - إذن - أن ترضخ لهذه الطبيعة التي خلقك الله عليها
وتستسلم للنوم إن ألح عليك ، ولا تكابر لتقوم في الصباح نشيطاً
وتستأنف حركة حياتك قوياً صالحاً للعمل والعطاء

والمصوفية في النوم مكحط دقيقو بيني على أن الكون كله غير
المختار مسخّر لربه ، كما قال تعالى ﴿ كُلُّ قَدْ عَمِ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ .. ﴾
[النور] وعيه ، فذرات الكافر في ذاتها مؤمنة ، يؤلمها ويقيظها
أن صاحبها عص أو كافر فتطيمه ، وهي كارهة لقطعه بدليل أنها
ستشهد عليه يوم القيامة ، فإن كانت مسخرة لمراداته في الدنيا فإنها
ستتحرر من هذه الإرادة في الآخرة

فاللسان مسخر لصاحبه ، إن شاء نطق به الشهادتين ، وإن شاء
نطق به كلمة الكفر ، لأنه مقهور لإرادته ، أما في القيامة فلا إرادة إلا
للحق تبارك وتعالى

وفي النوم ثرتاح هذه لجوارح وهذه الذرات من سيئات صاحبها
ومن ذنوبه ، تستريح من نكده وإكراهه لها على معصية الله والنوم

رَدَّع طَائِفٍ . فَلَمْ يَعُدَّ الْإِنْسَانُ مَالِحًا لِلْحَرَكَةِ ، وَلَا لِلتَّعَاشِيشِ لِسَلَامٍ
مَعَ جَوَارِحِهِ ، لَقَدْ كَثُرَتْ نَثُوبُهُ وَمَعَاصِيهِ حَتَّى ضَاقَتْ بِهَا الْجَوَارِحُ ،
بِمَا تَأْتِي النَّوْمَ لِبَرِيحِهَا .

وهذه الظاهرة نشاهدُها مثلاً في موسم الحج ، يقول لك الحاج
يكفيني أن أنام في اليوم ساعة أو ساعتين لعاداً ، لأن السيئات في
هذا المكان قليلة . فحارك في راحة وانسجام معك فلا تحملك على
النوم ، أما العاصي فلا يكفيه أن ينام عشر ساعات ، لأن جوارحه
وأعضائه مُتَعَبَةٌ متضايقَةٌ من أعماله

وهذه تُفسَّرُ بها أن رسول الله ﷺ كانت تنام عيابه ولا ينام
قلبه^(١) ذلك لأن جوارحه ﷺ تصحب خيراً صُحْبَةً ، فهي في طاعة
دائمة مستمرة ، فكيف تحمله على أن ينام ؟

والخالق - عز وجل - يعامل الناس على المعنى العام ، فالنفوس
دائماً مُتَالَةٌ للشر حاجة للسوء ، لذلك تتعب الطقة وتتعب الجوارح ،
وكان الله تعالى يريد إحداث هُدًى للتعايش بينك وبين جوارحك ، ثم
يتصبح نشيطاً

ومعنى ﴿وَالنَّوْمُ سَيَاتًا ۖ﴾ (٤٧) ﴿الفرقان﴾ السَّيَتْ أَيِ الْقَطْعِ
ومعنى ﴿سَيَاتًا ۖ﴾ (٤٧) ﴿الفرقان﴾ يعنى قاطعاً للحركة ، لا انقطاعاً
بهائياً إنما انقطاعاً مُسْتَأْنَفًا لحركة أفضل ، وبين أقوى وأصح ،
فالذى يقضى ليله ساهراً يقوم من بومه مُتَعَبًا مُضْطَرِبًا ، على خلاف
من جعل وقت النوم للنوم لأن الخالق عز وجل جعل نومك بالليل
على قدر ما تتحرك بالنهار ، فإن أردت حركة مُتَزَمَةً نشيطة وقوية
فقم على مقدار هذه الحركة

(١) حديث مشفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٢٥٦٩) ، وكذا مسلم في صحيحه
(٧٢٨) كتاب صلاة المسافرين أن رسول الله ﷺ قال : « يا عائشة إن عيني تنام
ولا نام قلبي »

وقوله تعالى ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (٤٧) [الفرقان] النشور مثل الشُّكُور . ﴿ثُمَّ نَفْطَمِكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (٤٨) [الإنسان] أى شكر . وكذلك النشور أى نشر ، والنشر يعنى الانطلاق فى الأرض بالحركة كما فى قوله تعالى ﴿فَانْشُرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ..﴾ (٤٩)

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ
وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٤٨)

قلنا إن الرياح إذا جاءت مكذا مصيفة الجمع دلت على الخير ، وإن جاءت مفردة فهي آتية بالشر ، وإذا مظرت إلى الحال لعالية وإلى نطحات لسحاب تقول ما الذى يقيم هذه المباني العالية ، فلا تميل ٥ الذى يمسكها هو الهواء الذى يحيط بها من كل ناحية ولو فرغت لواء من أحد نواحيها تنهار فوراً

إذن فالرياح من هنا ، ومن هنا ، ومن هنا فهي رياح متعددة تصلح ولا تُفسد وتُصِيبُ هذا التوارى الذى نراه فى الكور أما الرياح التى تاتى من ناحية واحدة فهي مدمرة مهلكة كما جاء فى قوله تعالى ﴿رَأْمًا عَادًا فَأُهْنَكُوا بَرِيعَ صَرْصَرٍ ۚ عَاتِيَةٍ﴾ (٤٩) [الحاقة]

وقال الحق سبحانه وتعالى ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٥٠) [الاحقاف]

ومعنى ﴿يُشْرُوا ..﴾ (٤٨) [الفرقان] يسكون الشيس ، مع أنها فى

(١) الريح استرصر شديدة البرد وقيل شديدة الصوت [المان لغرب - مدة حرر]

الأصل بُشْرًا مثل رُسُل ، فلما خُفِّفَتْ صارت بُشْرًا ، والبُشْرَى هي الإخبار بما يسرُّ قبل رَمَاهُ فلا تقول يَمْشِي إِلَّا فِي الْهَبْرِ ، وكان العربي ساعة تفسر عليه الريح يعرف كم بينه وبين المطر ، فيحكم على مجيء المطر بحركة الرياح الطرية التي تداعب حنَّه

وقوله سبحانه ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ..﴾ (٤٨) [الفرقان] يقال - بين يدك يعني أمامك والمراد هنا المطر الذي يسبق رحمة الله

ثم يقول تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٤٨) [الفرقان] السماء لها معنى لغوي ، ومعنى شرعي ، فهي لغة - كل ما علاك ، وشرعاً هي هذه السماء العالية والتي تتكون من سبع سموات ، لكن أينزل المطر من السماء أم من جهة السماء ؟

المطر ينزل من الغمام من جهة السماء ، والغمام أصله من لأرض نتيجة عملية البحر الذي يتجمع في طبقات الجو ، كما قال سبحانه

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي^(١) مَسْحَابًا ثُمَّ يُنْزِلُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ^(٢) يَخْرُجُ مِنْ حَلَالِهِ وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ حَبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ^(٣)﴾ [النور]

إذن فرحمة الله هي الماء الذي خلق الله منه كل شيء حتى

(١) أرجى الشيء يسوقه برفق ، ويرجي سحاب أي يسرقه إلى حيث يشاء [إقاموس القويم ١ ٢٨٤ ، تفسير القرطبي ٦ / ٨٢٥]

(٢) من الودق قولان

الأول أنه البرق قاله أبو الأشهب العقيلي

الثاني أنه المطر قال الجمهور [تفسير القرطبي ٦ / ٨٢٦] وقد ذكر السيوطي القولين أيضاً في [الدر المنثور ٦ / ٢١١] الأول عن أبي حمزة وعزاه لابن أبي حاتم والثاني عن الصحاح ومجاهد عند ابن أبي حاتم وابن أبي شبيب

وقوله تعالى ﴿مَاءٌ طَهُورٌ﴾ (٤٨) [الفرقان] الطُّهُورُ الماء الطاهر في ذاته ، المصهُرُ لغيره ، فالماء الذي تتوضأ به طاهر ومطهر ، أما بعد أن تتوضأ به فهو طاهر في ذاته غير مُطَهَّر بغيره ، وماء السماء طاهر ومطهر ، لأنه مُصْفًى مُقَطَّر . والماء المقطر أنقى ماءً .
بالإضافة إلى أن الماء قرآم الحياة ، منه شرب ونسقى الزرع والحيوان والطيور ، فالماء يعطيك الحياة ويعطيك الطهارة .
ثم يقول الحق سبحانه

﴿لِنُخْشِيَ بِهِ بَلَدَةَ مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا

وَأَنَاسِي كَثِيرًا﴾ (٤٩)

قوله تعالى ﴿بَلَدَةُ مَيْتًا ..﴾ (٤٩) [الفرقان] أى أرض بلدة ميتة ، وفرق بين ميت وميتة الميت هو الذى مات بالفعل والميتة هو الذى يؤول أمره إلى الموت ، وإن كان ما يزال عسي قيد الحياة ، ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر] .
والأرض الميتة هي الجرداء الخالية من النبات ، فإذا برل عليها الماء أحيانا بالنبات ، كما فى قوله سبحانه ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رُوحٍ بِهِجْرٍ﴾ [الحج] .
وقوله تعالى ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِي كَثِيرًا﴾ (٤٩) [الفرقان] يُقَالُ سَقَاهُ وَسَقَاهُ أَسْقَاهُ أَعَدُّ لَهُ مَا يَسْتَقِي مِنْهُ ، وإن لم يشرب الآن ، لكن سقاه بمعنى ناوله ما يشربه ومن ذلك قوله سبحانه ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (٦١) [الإنسان] .
أما فى المطر فيقول سبحانه ﴿فَأَسْقِينَاكُمْوه ..﴾ (٦٢) [الحجر] أى أعددناه لسقياكم إن أنزلنا السقيا

ومعنى ﴿وَأَناسِيَّ ۖ﴾ [الفرقان] جمع إسان ، وأصلها
أناسين ، وَخَفَّفْتُ إِلَى أَناسِيٍّ
ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ
إِلَّا كُفُورًا ۝﴾

التصريف التحويل والتعبير . والمعنى حَوَّضَهُ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَا
ومع كل هذه العبر والآيات ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝﴾ [الفرقان]
فالكاغرون بآيات الله كثير لا يلتفتون إلى آيات الله ، حتى بعد أن تقدم
العلم وتقدمت الحصار الإنسانية . ووقف الناس على كثير من
الآيات

فالحق - تبارك وتعالى - يُصَرِّفُ المطر إلى بلاد بعزارة ، فإن
شاء أصابها الجفاف والجذب حتى تموت مزرعاتهم وحيواناتهم
إذن ليست المسألة بيئية باردة أو كثيرة الأمطار ، إنما المسألة
مرادات خالق ، ومرادات حق .

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَإِعْنَنَّا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۝﴾

يريد الحق - تبارك وتعالى - أن يمتن على رسوله ﷺ منة .

(١) . قال عكرمة يعني الذين يقولون مطربا بموء كذا وكذا وهذا الذي قاله عكرمة كما
صح في الحديث المصريح في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً على
إثر سماء أصابهم من الليل أندرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا الله ورسوله نعم قال
أصبح من عباده مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مطربا بفضل الله ورحمته هناك مؤمن
بي كافر بالكوكب وأما من قال مطربا بموء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب .
[تفسير ابن كثير ٣/٢٢٦]

فيقول له المسألة ليست قلة رسل عندنا حتى نرسل رسولا للناس كافة وللرمن كله ، ونحن نستطيع أن نُخَفِّفَ عنك ونبعث في كل قرية رسولا يُخَفِّفُ عنك عبء الرسالة ، لكننا نريد لك أن تنال شرف الجهاد وشرف المكافحة ، فجمعناها كلها لك إلى أن تقوم الساعة .

ونستفيد من هذه المسألة أن الحق - سبحانه وتعالى - حين يَهَبُ الطاقات لا يعنى هذا أن الطاقة هي التي تحكم قدرته هي الأمر أن يبعث في كل قرية رسولا ، إنما يقدر أن يرسل رسولا ويعطيه طاقة تتحمل هذا كله .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾

جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

أى ما دُمنا قد جمعنا لك كل القوى ، وحملنا برسالة العامة في كل الزمان وفي كل المكان عليك أن تقف الموقف المناسب لهذه المهمة ﴿فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ .. ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان] إِنْ لَوْحُوا لك بالملك أو بالصل أو بالجاء والشرف واعلم أن ما أعد الله لك وما ادخره لك فوق هذا كله

وحين يقول سبحانه رسوله ﷺ ﴿فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ .. ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان] فإنه يعذره أمامهم ، فالرسول ينفذ أوامر الله

وَنَهَى الرُّسُلَ عَنْ طَاعَةِ الْكَافِرِينَ لا يعنى أنه ﷺ يطيعهم ، فهذه كقولته تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا .. ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء] فكيف يطلب لإيمان مَنْ ناداهم بالإيمان ؟ إنه تحصيل حاصل قالوا المعنى . نب آمننا قبل أن أقول لك هذه الكلمة ، وأقولها لك الآن لتواصل

إيماناً جديداً بالإيمان الأول ، وإياك أن يتحلَّ عنك الإيمان إنَّ إذا
طُلب لموجود فالمراد استدامه الوجود .

وقوله تعالى ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ..﴾ [الفرقان] أى بما جاءك
من القرآن ﴿جِهَاداً كَبِيراً﴾ [الفرقان] واعلم أنك عالى بأمر الله
عليهم ، ولا تقلَّ إن هناك تبارك إشراك وكفر وإيمان وسوف أعطيك
مثلاً كونياً فى أهم شيء فى حياتك ، وهو الماء

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ
أَجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مُّحْجُوراً﴾ [٥٣]

تأتى هذه الآية استمراراً بذكر بعض آيات الله فى الكون التى تلمت
نظر المكابرين المعاندين لرسول الله ، وسبق أن ذكر سبحانه الطل
والليل والرياح الخ إذن كلما ذكر عندهم يأتى بآية كونية ليلفتهم
إلى أنهم غفلوا عن آيات الله ، وجدالهم مع رسول الله يدل على أنهم
لم يلتفتوا إلى شيء من هذا ، بذلك ذكر آية كونية من آيات الله
المروية للجميع ومكررة ، وعليها الدليل القائم إلى يوم القيامة ، فقال
تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ..﴾ [٥٣] [الفرقان]

المرج المرعى المبيح ، أو الكلا العام الذى يسوم فيه الراعى
ماشيته تمرح كيف يشاء

فمعنى ﴿مرج البحرين﴾ [٥٣] [الفرقان] أى جعل العذب والمالح
يسير ، كل كما يشاء ، لذلك تجد البحار والمحيطات المالحة التى تمثل

(١) مرج أرسلهما رافض أحدهما من الأمر قاله سجامد وقال ابن مرة أى حلتهما
بهما يلتقيان وقال الأزهري مرج البحرين على بينهما [تفسير القرطبي ٧/ ٤٩٣٤]

(٢) الأجاج الملح الشديد الملوحة أج الماء اشتقت ملوخته [القاموس القويم ٧/ ١]

ثلاثة أرباع اليابسة ليس لها شكل هندسى منتظم . بل تجده تعاريج والتواءات . وانظر مثلاً إلى خليج المكسيك أو خليج العقبة ، وكأن الماء يسير على (هواء) ودون نظام ، فلا يشكل مستطيلاً أو مربعاً أو دائرة

وكذلك الأنهار التى تولدت من الأمطار على أعلى الجبال ، فتراها حين تتجمع وتسير تسير كما تشاء . ملتوية ومتعرجة ، لأن الماء يشق مجراه فى الأماكن السهلة ، فإن صادفته عقبة بسيطة يحرف بها أو هناك ، ليكمل مساره ، وانظر إلى التواء النيل مثلاً عند (قنا) .

إن الماء عذب أو مالح يسير على هواء ، وليست المسألة (ميكانيكا) ، وليست منتظمة كالتى يشقها الإنسان ، فتأتى مستقيمة

ونلاحظ هذه الظاهرة مثلاً حينما يقضى الإنسان حاجته فى الخلاء ، فينزل البول يشق له مجرى فى المكان الذى لا يعونه ، فإن صارفته حصاة مثلاً انحرف عنها كأنه يختار مساره على هواء

والبحر يقال عادة للمالح وللعذب على سبيل التغليب ، كما نقول الشمسان للشمس والقمر

ومرج السحريين آية كونية تدل على قدرة الله ، فالعلماء مع ما عرف عنه من حاصية الاستطراق - يعنى يسير إلى المناطق المنخفضة . يسير المالح والعذب معاً دون أن يختلط أحدهما بالآخر ولو احتلطا لفسدا جميعاً ، لأن العذب إن خالطه المالح أصبح عذباً صالحاً للشرب ، وإن خالط أمالح العذب فسد المالح ، وقد خلق الله على درحة معينة من الملوحة بحيث تصلحه فلا يفسد ، وتحفظه أن يكون آساً

فالعلماء العذب حين تحصره فى مكان يأس^(١) ويتغير ، أما البحر

(١) آسى الماء يأس تعيرت راحته فهو آسى [القاموس القويم ٢٠/١]

فقد أعدَّ الله ليكون مخزن الماء في الكون ومصدر البخر الذي تتكون منه الانهار ، لذلك حفظه ، وجعل بينه وبين الماء العذب تعاملاً سليماً ، لا يبغي أحدهما على الآخر رغم تجاورهما .

وقوله تعالى ﴿ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ۚ ۝٥٣ ﴾ [الفرقان] أى مفرط في العذوبة مستساغ ، ومن هذه الكلمة سُمِّوا نهر الفرات لعذوبة مائه ، فليس المراد بالفرات أن الماء كماء نهر الفرات ، لأن الكلمة وُصِّعت أولاً ، ثم سُمِّيَ بها النهر ، نك لأن القرآن هو كلام الله الأزل

﴿ وَهَذَا مَلْحٌ أجاجٌ ۚ ۝٥٤ ﴾ [الفرقان] أى شديد الملوحة ، ومع ذلك تعيش فيه الأسماك والحيوانات المائية ، وتتغذى عليه كما تتغذى على الماء العذب ، كما قال سبحانه ﴿ وَمِنْ كُلِّ ثَلَاثَةٍ أَكَلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْمُرُونَ حَلِيَّةً يَتَسَوَّوْنَهَا ۚ ۝١٢ ﴾ [فاطر]

ثم يقول سبحانه ﴿ وَجَعَلْ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۚ ۝٥٥ ﴾ [الفرقان] البرزخ شئ بين شيئين ، وأصل كلمة برزخ الياسة القى تفصل بين مائين ، فإن كان الماء بين ياستين فهو خليج .

﴿ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۚ ۝٥٦ ﴾ [الفرقان] الحِجْر هو المانع الذى يمنع العذب والمالح أن يختلطا ، والحِجْر نفسه محجور ، مبالغة في المنع من اختلاط المائين ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۚ ۝٤٥ ﴾ [الإسراء]

ومثل قوله تعالى ﴿ ظِلًّا ظَلِيلًا ۚ ۝٥٧ ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ٥٤﴾

وفي آية عامة عن الماء ، قال تعالى ﴿وَحَفَّظْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ٥٣﴾ [الأنبياء] يعنى كل شيء فيه حياة فهو من الماء ، لا أن الماء داخل في كل شيء ، فالمعنى ﴿كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ ٥٣﴾ [الأنبياء] أى كل شيء موصوف بأنه حي ، فالماء - إذن - دليل الحياة ، لذلك إذا أراد العلماء أن يقضوا على الميكروبات أو الفيروسات جعلوا لها دواءً يفصل عنها المائبة فتموت

والإنسان الذى كرمه الله تعالى وجعله أعلى الاحساس ، خلقه الله من الماء ، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ٥٤﴾ [الفرقان] وفى موضع آخر قال سبحانه ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ٥٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ٦ يخرج من بين الصلب والترائب ٧ [الطرق] وهو ماء له خصوصية ، وهو المنى الذى قال الله فيه ﴿أَلَمْ يَكْ نُطْفِئْهُ مِنْ مَّيِّ يُمْنٍ ٢٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ٢٨﴾ [القيامة]

والشتر أى الإنس ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ٥٤﴾ [الفرقان] فمن الماء خلق الله البشر ، وهم قسمان ذكور وإناث ، فكلمة (نَسَبًا) تعنى الذكورة (وَصِهْرًا) تعنى الأنوثة ، لأن النسب يعنى انتقال الأختى من الأعلى مذكورة ، فيظل الإنسان فلان من فلان بن فلان . إلخ

(١) الترائب عظام الصدر [القاموس القويم ٩٩/١] قال ابن عباس هذه الترائب ووضعت يده على صدره وعنه أيضا تربية المرأة موضع الغلالة [تفسير ابن كثير

فالنسب يأتي من ناحية الذكورة ، أما الأبوثة فلا يأتي نسب ، إما مصاهرة حَيْمًا يتزوج رجل ابنتي ، أو أتزوج ابنته ، يُسمونه صِهْرًا لذلك قال الشاعر

وَأُتِمُّ أُمَمَاتُ الْقَوْمِ أَوْعِيَّةُ مُسْتَحْدَثَاتٍ وَالْأَحْسَابُ أَبَاءُ

فمن عظمة الخالق عز وجل - أن خلق من الماء هذين الشيتين ، كما قال في موضع آخر ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ (٣٩) [القائمة] . وقد توصل العلماء مؤخرًا إلى أن بويضة الأنثى لا تدخل لها في نوع لحين ، وما هي إلا حاضنة للميكروب الذكري الآتي من منى الرجل .

وهذا معنى قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَكُنْ نَظْمَةٌ مِنْ مَنِيَّ يَمْنَى ﴾ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَرَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) [القائمة]

فالذكر والأنثى كلاهما من المنى ، والذي يُطلق عليه العلماء الآن (الإكس ، والإكس واي) فالحيوان امنوى بضرح من الرجل ، منه ما هو خاص بالذكر ، ومنه ما هو خاص بالأبوثة ، ثم تتم عملية انتخاب للأقوى الذي يستطيع تلقيح البويضة .

وهذه الظاهرة واضحة في النحل ، حيث تضع الملكة البيض ، ولا يُحصنها إلا الأقوى من الذكور ، لذلك تطير الملكة على ارتفاعات عالية ، لماذا ؟ لانتخب الأقوى من الذكور

كذلك الميكروب ينزل من الرجل ، ولأقوى منه هو الذي يستطيع أن يسبق إلى بويضة المرأة ، فإن سبق الحاص بالذكر وإن سبق الحاص بالأبوثة كان أنثى ، ولحق سبحانه قل ﴿ أَلَدِي خَلَقَ فَسَرَّى (٢) وَأَلَدِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) ﴾ [الأعلى]

وبهذه الآية الكونية في خُلق الإنسان نرد على الذين يحلو بهم أن يقولوا إن الإنسان خُلق صدفة ، فإذا كان الإنسان ذكراً وأنثى بينهما مواصفات مشتركة وأجهزة ومُقومات واحدة ، إلا أن لذكر يختلف في الجهاز التناسلي وكذلك الأنثى ، فهل يُردُّ هذا إلى الصدفة ؟

ومعلوم أن الصدفة من أعدادها الاتفاق ، فإذا جاء الذكر صدفة ، وجاءت الأنثى كذلك صدفة ، فهل من الصدفة أن يلتقي على طريقة خاصة ، فيثمر هذا اللقاء أيضاً ذكورة وأنوثة ؟ إذن المسألة ليست مصادفة ، إنما هي غاية مقصودة للخالق عز وجل .

ثم يقول سبحانه في ختام الآية ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٤٤﴾ [الفرقان] وذكر سبحانه القدرة هنا . لأن هذه مسألة دقيقة لا تحدث إلا بقدرة الله تعالى

وقد فطن العرب حتى قبل نزول القرآن لى هذه العملية بالقطرة ، فهذه زوجة أبي حمزة تعاتبه لأنه تركها وتزوج من أخرى ، لأنها لم تلد له ذكراً ، فتقول

مَا لِأَبِي حَمْزَةَ لَا يَأْتِينَا عَصْبَانُ إِلَّا تَلَدَ ابْنَيْنَا
قَالَ مَا ذَلِكَ فِي أَيْدِينَا فَتَحْنُ كَالْأَرْضِ لِغَارِسِينَا
نُعْمَى لَهُمْ مِثْلُ الَّذِي أُعْطِينَا

وهذه المسألة التي فطن إليها العربي القديم لم يعرفها العلم إلا في القرن العشرين .

وبعد هذه الآية الكونية يعود - سبحانه وتعالى - إلى خطابهم مرة أخرى لعل قلوبهم ترقق ، فالحق - تبارك وتعالى - يتعهدهم مرة بالنصح ومرة بإظهار آياته تعالى في الكون

﴿وَيَسْتَبِشُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ
وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ (٥٥)

يعنى أيليق بهم بعد أن أوضحنا لهم كل هذه الآيات أن يلتفتوا
إلى غير الله ، ويقصدوه بالعبادة ؟

وقوله تعالى ﴿مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ..﴾ (٥٥) [الفرقان] لبعض
يرى أن هذه الآلهة نعم لا تنفع لكنهم تضر ، يقول لهم هي
لا تنفع ، ولا تضر ، أما الذي يضر فهو الإله الحق الذي انصرفوا عنه
إلى عبادة غيره ، والمعنى هنا ﴿مَا لَا يَنْفَعُهُمْ..﴾ (٥٥) [الفرقان] إن
عبدوه ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ (٥٥) [الفرقان] إن كفروا به وتركوه

والقرآن يُسَمِّي فعلهم مع هذه الآلهة عبادة ، وهم أنفسهم
يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى..﴾ (٣) [المرم]

إذن أثبتوا لهم عبادة ، والعبادة طاعة العابد للمعبود سيما يأمر
به ، وفيما ينهى عنه ، فما الذى أمرتهم به الأصنام ؟ وما الذى نهتهم
عنه ؟ فكلمة عبادة هنا خطأ ، وهم ما عبدوا هذه الآلهة إلا لأنها
لا أوامر لها ولا التزام معها ، فتدينهم تدين (فتنظية)

وما أسهل أن تعدد إلهاً لا يأمرك ولا ينهاك ، والذى بكرهونه فى
التدين الحقيقى أنه التزام وتكليف افعل كذا ، ولا تفعل كذا

لذلك ترى المسرفين على أنفسهم من خلق الله ينمى كل منهم أن
يكون هذا الدين كذباً ، لماذا ؟ ليسيروا على هواهم ، ويعملوا
ما يحلو لهم كذلك رأينا الدجالين الذين ادَّعَوْا لنسوة بداية من

مسيلة وسحاح^(١) ، كيف كانوا يجذبون الناس إليهم ، كانوا يجذبونهم بتخفيف الأوامر وتبسيط الدين ، ولما شقت الزكاة على البعض أسقطوها من حسابهم ، وأعفوا الناس منها .

ولكل زمان دجالون يباسيون العصر الذي يعيشون فيه ، وفي عصرنا الحاضر دجالون يُخَفُّفون عذك الدين وَيُصَوِّعُونَ لاهواء الناس ورعياتهم ، فلا مانع عندهم من الاختلاط ، ولا بأس في أن ترتدى المرأة من اللباس ما تشاء .. إلى آخر هذه المسائل

ثم يقول سبحانه ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رِيَّةٍ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾ [الفرقان]

الظهير هو المعين ، كما ورد في قوله سبحانه وتعالى ﴿... وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ۝٦١﴾ [التحریم]

وكانوا في الماضي يحملون الأحمال على الظهر قبل اختراع آلات الحمل ، وحتى الآن ترى (الشيباليين) يحملون الأثقال على ظهورهم ، ويحيطون لهم (ظهيرية) يرتدونها على ظهورهم لتحميمهم ساعة حمل الأثقال ، وإذا أراد أحدهم معاونة الآخر يقول له أعطني ظهرك ، فكان الظهر إذن بهذا المعنى

(١) هي سحاح بنت الحارث بن سريد التميمية من بني برمouc أم مازر كانت شاعرة أدبية عازفة بالأحمار ادهت الذبوة بعد وفاة النبي ﷺ وكانت هي من تلعب بالجريرة وتممها حصح من حظيرتها ، فأقيمت تريد عرو أبي بكر ، فالتقت بمسيلة وتزوج بها ثم انصرفت راجعة إلى أحوالها بالجريرة ، ثم بلغها مقتل مسيلة ، فأسلمت وهاجرت إلى البصرة وبقيت فيها ، وصلى عليها سمرة بن جندب وإلى البصرة لمعاوية توفيت ٥٥هـ (الأعلام للزركلي ٧٨/٣)

والظهر أيضاً يقتضي العلو ، ومنه قوله تعالى عن السد الذي بناه
ذو القرنين ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (٩٧)
[الكهف] يعنى ما استطاعوا اعتلاءه .

لكن ، كيف يكون الكافر ظهيراً على الله ؟ قالوا لانه يفعل
المعصية ويتخذ أسوة فيها يُقلده الناس ، ولو كان طائعاً لكان أسوة
خير ونموذج صلاح ، فالكافر أسوة شر ، وأسوة فساد ، وهو
شيطان الإنس الذى يوارى شيطان الجن الذى عصى ربه ، ورقص
السجود لآدم .

وبعد دريسه حين قال ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزِينَ لَّهُمْ فِي
الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٩)
[الحجر]

وكل من شياطين الجن وشياطين الإنس يستعين بالنفس فيسلسلها
على صاحبها حتى تُوقعه ، فالإنسان حينما يستمع لنداء لشيطان ،
سواء شيطان لإنس أو شيطان الجن ويطيعه بعمل المخالفة ، فإنه
يُعينه على الله ، والمعنى الصحيح على معصية الله

كما أن الظهير يُطلق على من جعلته وراء ظهره ، لا تابه به ، ولا
تلتفت إليه ، ومنه قول العرب (لا تجعل حاجتى منك بظهر)
يعنى اجعلها أمام عينيك لا تطوها وراء ظهرك^(١) .

إنن فكلا المعنيين جائز ظهيراً أى مُعيناً ، كان الحق -
تبارك وتعالى - يقول لنبيه ﷺ اعلم يا محمد أن الكافر ظهير على
الله ، فقف له بالمرصاد ، وحاهده ما استطعت ، فكأنه تعالى يُحمس

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب - مادة ظهر - يقال للشئ الذى لا يُعنى به قد جعلت
هذا الأمر بظهره ورمىته بظهر وقولهم لا تجعل حاجتى بظهر أى لا تنسها ومن
قوله تعالى ﴿وَأَقْضَتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾ (٩٧) [هود] وهو استهنتك بوجه الرجل
وجعلنى بظهر أى طرحنى .

رسوله ليقف هذا الموقف ، ويشجعه ليكون من عدوه على حذر وعلى يقظة .

أو ظهيراً لا يؤبه له وهذا طمأنة لرسول الله ، فالكافر هين على الله ، فلا يهتك كيدهم ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٥١)

صحيح أن الله تعالى قال لرسوله ﷺ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٧٣) [البقرة] لكن لا يعنى هذا أن يهتك رسول الله نفسه في دعوتهم ، ويألم أشد الألم لعدم إيمانهم ، لأن مهمة الرسول البلاغ ، وقد أسف رسول الله لحال قومه حتى خاطبه ربه بقوله ﴿ فَلَعَنَكَ بِأَخٍ لَّفُكٍ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٦) [الكهف]

وما أمره الله بجهاد الكفار والمنافقين إلا ليحفزه ، فلا يترك هذا إلا بدله معهم ، وإلا مانت عندي مُبَشِّرٌ وَمُنْذِرٌ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ۖ ﴾ (٥١) [الفرقان] أى بالخير قبل أوانه ليختلفت الناس إلى وسائله ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ (٥١) [الفرقان] أى بالشر قبل أوانه ليحذره الناس ، ويجتنبوا أسبابه ووسائله

ثم يوجه رب العزة نبيه ورسوله ﷺ

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَٰهًا لَّهُ سَيِّئًا ﴾ (٥٧)

فِي آيَةٍ أُخْرَى يَقُولُ تَعَالَى ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْكُمْ مُثْقَلُونَ﴾ (١٠) [الطود]

يعنى غير قادرين على دفع الثمن ، لأنهم بحلاء وعندهم كرازة^(١) ؟ أو لا يريدون أن يخرجوا من جيوبهم شيئاً تنتفع أنت به ؟ مع أنك لم تسألهم أجراً فهل يعنى ذلك أن النسي كان من المفروض أن يسألهم أجراً ؟

قلوا نعم ، لأنه إذا قدم إنسان لإنسان شيئاً تامعاً ، فعليه أن يدفع له أجراً بمقتضى التبادل والمعاوضة ، وكأه ﷺ يقول لهم لقد قدمت إليكم جميلاً بفترض أن لى عليه أجراً ، لكنى لا أريد منكم أجراً ، والمسألة من عندى تفضل

وما هو الأجر ؟ الأجر جعل يقابل عملاً ، والثمن جعل يقابل تملكاً وقيمة هذا الجعل تختلف باختلاف مشقة العمل ، وطول زمنه ، ومهارة العامل فيما يقتضيه العمل ومحاطر ما يقتضيه العمل

فكل مسألة من هذه ترمح من قيمة الأجر ، فحين تسافر مثلاً تحتاج إلى (شئال) يحمل لك الحوائج ، فتعطيه الأجر الذى يتناسب ومجهوده ، فإن استأجرت سيارة وسرت بها مسافة فلا بد أن الأجر سيسرزد ، لأنه أخذ مجهوداً ووقتاً أكثر . فإن احتجت مثلاً سراكاً ليصلح لك شيئاً وسوف ترى ما فى هذا العمل من المشقة ، ولا تبخل عليه بأكثر من سابقه

وربما كان العمل فى نظرك بسيطاً لا يستغرق وقتاً ، لكنه يحتاج إلى مهارة ، هذه المهارة ليست وليدة اللحظة ، ولكنها مجهود ونتيجة

(١) الكز الذى لا يبسط ووجه كز قسيح رجل كز قليل الخير والكرارة اليئس والانتباه [لسار العرب - مادة كز]

عوامل من لتعلّم والخبرة حتى وصل صاحبها إلى هذه المهارة .
 فالمهندس مثلاً الذي يُصمّم لك مدرك في ساعة أو ساعتين .
 ومع ذلك يطلب مبلغاً كبيراً ، لماذا ؟ لأنه لا يتقاضى أجراً على هذا
 الوقت . إنما على سنوات طويلة من الدراسة والمجهود والتحصيل
 حتى وصل إلى هذه المهارة

إذن كل أجر يُقدّر بما يقابله من عمل ، ويتناسب مع ما يقتضيه
 العمل من وقت ومجهود ومشقة ومخاطرة ومهارة . إلخ .

وإذا كان الأمر كذلك فانظروا إلى عمل الرسول وإلى مدى إفادكم
 من رسالته ، انظروا إلى المنهج الذي جاءكم به ، وكيف أنه يريحكم
 مع أنفسكم ، ويريحكم مع المجتمع ، ويريحكم مع ربكم عز وجل
 ويريحكم من شرور أنفسكم ، ومن شرور الناس جميعاً

إذن للرسول عمل كبير ومجهود عظيم ، لو قدّرت له أجراً لكان
 كذلك عظيماً . إن الإنسان إذا أُجرَ مثلاً جارساً يحرسه بالليل ، كم
 يدفع له ؟ هالبي باتيك بمنهج محرسك ويحميك في نفسك وفي مالك
 وفي عرضك وفي كل ما تملك ، ولا يحميك من مئة معية إنما يحميك
 من الناس أجمعين

بل إن حماية منهج الله لك لا تقتصر على الدنيا ، إنما تتعدى إلى
 الآخرة . فتحملك فيها حماية ممتدة لا نهاية لها . فمن قدّرت لهذه
 الحماية أجراً ، فكم يكون ؟

إنما أنا أقول لك لا أريد أجراً ، لا كراهية في لأجر ، بل لأنك
 أنت أيها الإنسان لا تستطيع تقدير هذا العمل أو تقييم الأجر عليه .
 أمّ الذي يُقدّر ذلك فهو ربّي الذي بعثني ، وأنت أيها العبد مهما قدّمت
 لي من جر على ذلك فهو قليل

وحكيما قصة الرجل الطيب الذي قابلناه في الحراتر ، بقف على الطريق يُلَوِّحُ لسيارة تحمله موقفاً وفتحا له الباب ليركب معها ، وقبل أن يركب قال بكم ؟ يعني لأجرة . فقال له صاحبي الله ، فقال الرجل إذن فهي عالية جداً . هذا هو المعنى في قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ ﴾ [٢٩] [هود]

وفي موضع آخر يقول سبحانه ﴿ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [٧٢] [يونس] فما العلاقة بين الأجر وبين ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [٧٢] [يونس] ؟

كان المسلم ينبغي عليه أن يعمل العمل لا لمن يعمل له ولكن يعمل لله ليأخذ عليه الأجر الذي يناسب هذا العمل من يده تعالى ، إنما إن أخذه من صاحبه فهو كالذي « فعل ليقال وقد قيل ، وانتهت المسألة ، وربما حتى لا يُشكر على عمله .

لذلك وردت هذه العبارة على ألسنة كل الرسل ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ ﴾ [الشعراء] [١٠٩] وليس هناك أية طلب فيها الأجر الظاهر إلا هذه الآية التي نحن بصدد ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ [٥٧] [الفرقان]

وقوله تعالى ﴿ إِلَّا الْمَوْدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۖ ﴾ [٢٣] [الشورى]

ومعنى ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ [٥٧] [الفرقان] أي سبيلاً للمثوبة . وسبيلاً للأجر من جهاد في سبيل الله . أو صدقة على الفقراء .. إلخ

وقوله ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ ۖ ﴾ [٥٧] [الفرقان] تدل على التخيير في دفع الأجر . فالرسول لا يأخذ إلا طواعية ، والأجر ﴿ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ [٥٧] [الفرقان] من الجهاد ولعمل الصالح ، فكان أجر الرسول

العمل للغير ، لتأخذ أنت الأجر من الله ، فالرسول لا يأخذ شيئاً لنفسه .

ونلاحظ في آيات الأجر أنها جاءت مره **﴿أَحْرًا..﴾** (٩٠) **﴿[الانعام]** ومرة **﴿مِنْ أَجْرٍ..﴾** (٥٧) **﴿[المرقا]** والبعض يرى أن (من) هنا رائدة وهذا لا يقال في كلام الله ، عيب أن تنهم كلام الله بأن فيه ريادة ، فكل حرف فيه له معناه .

وسبق أن صرنا لمن هذه مثلاً بقوسنا ما عندي مال ، وما عندي من مال فالأولى نفت أن يكون عندك مالٌ يُعْتَدُّ به ، لكن قد يكون عندك القليل منه ، أما القول الثاني فيعني نفى المال مطلقاً بدايةً مما يقال له مال ، إذن مايهما أبلغ في النفي ؟ فمن هنا تعيد العموم .

لذلك يقول تعالى **﴿أَمْ نَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخِرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾** (٧٧) **﴿[المؤمنون]** لماذا ؟ لأنه سيعطيك ويكافئك على قدره هو ، وبما يدايب جوده تعالى وكرمه الذي لا يتفد ، أما الإنسان فسيعطيك على قدره وفي حدود إمكانياته المحدودة

ملحظ آخر في هذه المسألة في سورة الشعراء ، وهي لحفل السور بذكر مسألة الأجر ، حيث تعرضت لموكب الرسل ، فذكرت ثمانية هم موسى وهارون وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب

(١) وردت (أحراً) في ٦ آيات (الأنعام ٩) ، (هود ٥١) (يونس ٢٩) (الشورى ٢٣) (الطور ٤) ، (النمل ٢٦) وردت (من أجر) في ١٠ آيات (يونس ٧٢) (يوسف ١٠٤) (المرقا ٥٧) ، (الشعراء ١٠٩ ، ١٧٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠) ، (سج ٤٧) ، (ص ٨٦)

تلاحظ أن كل هؤلاء الرسل^(١) قالوا ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء ١٩] عدا إبراهيم وموسى عليهما السلام لم يقلوا
هذه الكلمة ، لماذا ؟

قالوا لأنك حين تطلب أجراً على عمل قممت به لا يكون هناك
ما يُوجب عليك أن تعمل له مجاً ، فانت لا تتقاضى أجراً إن عملت
مثلاً مجاملة لصديق ، وكذلك إبراهيم - عليه السلام - أول ما دعا إلى
الإيمان دعا عنه آزر ، ومثل هذا لا يطلب منه أجراً ، وموسى عليه
السلام أول ما دعا دعا مرعون الذي احتضنه ورباه في بيته ،
ولو طلب منه أجراً لقال له : أى أجر وقد ربّيتك^(٢) وو . إلح .

الآية الأخرى في الاستثناء هي قوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى ٢٤] فكان المودة هي القربى أجر
لرسول الله ﷺ على رسالته ، لكن أى قُرْبَى قُرْبَى النبی أم قُرْبَاكُمْ ؟
لا شك أن النبی الذي يجعل حب القريب للقريب ورعايته له هو
أجره ، يعنى بالقُرْبَى قُرْبَى المسلمين جميعاً ، كما قال عنه ربه عز
وجل ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (٦٦) [الاحزاب]

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾

﴿وَكَفَىٰ بِهِ مَذْنُوبٍ عَسِوَةً خَيْرًا﴾

(١) - قالها نوح في (يونس ٧٢) ، (هود ٢٩) ، (الشعراء ١٩)

وقالها هود في (هود ٤١) ، (الشعراء ١٢٢)

وقالها صالح في (الشعراء ١٤٥)

وقالها يونس في (الشعراء ١٦٤)

وقالها شعيب في (الشعراء ١٨)

(٢) ورغم أن موسى عليه السلام لم يطلب منه أجراً ، لا مالاً وملكاً ولا غيره إلا أن مدعوى امتن
عليه بأنه الذي رباه ، فقال ﴿أَلَمْ تَرْبِنِي فِيهَا وَلَبَدًا وَبَنِي فِيهَا مِنْ عَمَلِكِ سَبِينَ﴾ [الشعراء]

الحق - تبارك وتعالى - يُطمئن رسوله ﷺ يا محمد لا تهتم
بكثرة الكفار ومكرهم بك ونعاونهم مع شياطين الإنس والجن ، لأن
مؤلاء سيتساقطون ويموتون ، إما بأيديكم ، أو بعذاب من عند الله ،
وعلى فرص أنهم عاشوا فلن تغيب قوتهم وحياتهم قرة الله تعالى
ومكره ، وإن توكلوا على أنفسهم لا تضر ولا تنفع ، فتوكل أنت على
الله ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ..﴾ (٥٨) [الفرقان]

والعاقل لا يتوكل إلا على من يثق به ويضمن معاونته ، وأنه
سيوافيك في كل ما تريد ، لكن ما جدوى أن تتوكل على أحد ليقصى
لك مصلحة ، وفي الصباح تسمع خبر موته ؟

وكان الحق - تبارك وتعالى - يريد أن ينصَح خلقه إن أردت أن
تتوكل فتوكل على من ينفعك ولا يضرَكَ على من يضر على العبد
معك لا يتخلى عنك ، على من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في
السماء هذه هي الفطنة .

لكن ما جدوى أن تتوكل على من ليس فيه حياة ؟ وعلى فرض
أن فيه حياة بائسة فلا تضمن ألا يتغير قلبه عليك

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ..﴾ (٥٨) [الفرقان] سَبِّح يعني نزه ، والتزنية
تضعه في إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ..﴾ (١١) [الشورى] لئلا وجود ولك
وجود ، لكن وجوده تعالى ليس كوجودك ، ولك صفة ولك نفس
الصفة لكن صفته تعالى ليست كمصفتك ، ولك تعالى فعل ولك
فعل ، لكن فعله تعالى ليس كفعلك .

إن نزه الله في ذاته ، وفي صفاته ، وفي أفعاله عن مشابهة
الخلق وما دام الحق سبحانه مثزها في ذاته ، وفي صفاته ، وفي
أفعاله ، فأنت تتوكل على إله لا نظراً عليه عوامل التغيير أبداً .

وهذا التنزيه لله تعالى ، وهذه العظمة والكبرياء له سبحانه في صالحيك أنت أيها الإنسان ، من صالحيك ألا يوجد الله شبيهه ، لا في وجوده ، ولا في بقاءه ، ولا في تصرفه ، من صالحيك أن يعرف كل إنسان أن هناك مَنْ هو أعلى منه ، وإن الحكّو جميعاً محكومون بقانون الله ، فهذا يضمن لك أن تعيش معهم آمناً ، إذن من الخير لنا أن يكون الإله ليس كمثله شيء . وأن يكون سبحانه عالياً فوق كل شيء

ويجب عليك حين تُنزه الله تعالى ألا تُقرّبه تنزيهاً مُصرّفاً . إنما تنزيهاً مقروناً بالحمد ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ...﴾ (٥٨) [الفرقان] فنحمده على أنه واحد لا شريك له ، ولا مثيل له ، وليس كمثله شيء ، فهي ظل هذه العقيدة لا يستطيع اقوى أن يطعن على الضعيف ، ولا الغنى على الفقير إلح .

ثم يقول سبحانه ﴿وَكُفِّنِي بِهِ ذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ (٥٨) [الفرقان] يقول كفاك فلان يعنى لا تحتاج لغيره كقولنا حَسْبُكَ اللهُ يعنى كافيك عن الاحتياج لغيره ، لأنه يعطيك كُلَّ ما تحتاج إليه ، ويمنع عنك الشر ، وإن كنت تظنه خيراً لك

وكان الحق - تبارك وتعالى - يقيم لك (كُنترولاً) يصبغ حياتك ويضمن لك السلامة ، لذلك حين تدعو الله فلا يستحيب لك ، لا تظن أن الله تعالى موظفٌ عندك ، لا بُدَّ أن يُجيبك لما تريد ، إنما هو ربك ومتمولٌ أمرك ، فيختار لك ما يصلح لك ، ويُقدِّم لك الجميل وإن كنت تراه غير ذلك .

وقد خسرنا لهذه انحصالة مثلاً بالأم التي تكثُر الدعاء على ولدها ، فكيف بها إذا استجابَ الله لها ؟ إذن من رَحمة الله بها أن يردَّ

دعاءها ، ويمنع إجابتها ، فمنع الإجابة هذا إجابة

﴿ وَكَفَى بِهِ يَدْنُوبُ عِبَادَهُ خَبِيرًا ﴾ (٥٨) [مفرد] المعنى إذا توكلت على الحي الذي لا يموت ، فأثار هذا التوكل أن يحصي من ذنوب العباد ، فهو وحده الذي يعلم ذنوبهم ويعلم حتى ما يدور في أنفسهم .

ألم يقل الحق لرسوله ﷺ ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَهَوْا عَنِ التَّحْوَى ثُمَّ يُعْرِدُونَ لَهَا نَهْوًا عَنْهُ وَيَسْأَلُونَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرُّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حِيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبَهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٨) [المجادلة]

بما رال القول في أنفسهم لم يخرج ، ومع ذلك أحسبه الله به ، وكان الحق سبحانه يطمئن رسوله ، مهما تأمروا عبيك ، ومهما دبروا لك ، ومهما تكاتف ضدك جنود الإنس والجن ، فاطمئن لأن ربك عليم بالذنوب التي قد لا تدركها أنت ، ولا حيلة عندك لردّها ، فيكفيك أن يعلم الله ذنوب أعدائك .

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٩) [الأنفال]

والخير الذي يعلم خبايا الأمور ، حتى في مسائل ادبي الهامة نقول نستدعي لها الخبير ، لأن المختص العادي لا يقدر عليها وهي موضع آخر يقول تعالى ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٤) [الملك]

ثم ينقلنا الحق - تبارك وتعالى - إلى آية كريمة تنضاف إلى الأدوات السابقة وانهدف من ذكر المزيد من آيات الكونية أنه لعلمها تصادف رقة قلب واستمالة مواجيد ، فتعطف الخلق إلى الخالق ، وتكف لتأمل إلى سبحانه

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ ﴿٥٧﴾

البعض يظن أن خلق السموات والأرض شيء سهل ، وأعظم منه خلق الإنسان . لكن الحق - تبارك وتعالى - يقول ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ..﴾ ﴿٥٧﴾ [عافر]

فالإنسان يخلقه الله ، وقد يموت بعد يوم ، أو بعد مائة عام ، وقد تصيبه في حياته الأمراض ، أما السموات والأرض فقد خلقها الله تعالى بهندسة دقيقة ، وقويين لا تتحلف ولا تختل مع ما يعر عليها من أرملة ، وكان الحق سبحانه يقول للإنسان إن السموات والأرض هذه خلقتي وصنعتي ، لم تدبرت فيها وثأمتها لوجدتها أعظم من خلقك أنت

وقوله تعالى ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ..﴾ ﴿٥٧﴾ [الفرقان] سبق أن تكلمنا في هذه المسألة وقتاً إن جمهرة آيات القرآن تدل على أن الخلق تم في مدة ستة أيام إلا سورة واحدة تُشعر آياتها أن الخلق في ثمانية أيام ، وهي سورة فصلت

حيث يقول فيها الحق سبحانه وتعالى ﴿قُلْ أَنتَكُم كُفْرُونٌ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (١) وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسٍ مِّن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَفْوَاجَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيَوْمِ (٢) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (٣) فَصَوَّرَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ لِي

(١) الدخان يطلق على ما يرتفع فوق النار من عذرات لم يتم احتراقها وقد يطلق على البخار وما يشبهه من الغازات المصاعدة ، والمقصود أن مواد السجود كانت في حالة عارية كالدمار ثم خلق منها السموات [القموس القديم ١/ ٢٢٤]

كُلَّ سَمَاءٍ أَمْرًا وَزِينًا السَّمَاءِ الدُّنْيِ بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٦﴾ ﴿[مصلح]

وجملة هذه ثمانية أيام ، وكل مُجْمَلٍ يَمْضِي للتفصيل إلا تفصيل العدد فيرجع للمجمل ، كيف ؟

الحق سبحانه يتكلم هنا عن خَلْقِ السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم نكلم عن خَلْقِ الأرض في يومين ، وجعل فيها رواسي من فرقها ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام ، فالأربعة الأيام هذه تكملة لخلق الأرض فهي تكملة لليومين ، كأنه قال في تقمة أربعة أيام ، فالأرض في يومين والباقي أكمل الأربعة . كما تقول سررتُ إلى طنطا في ساعة ، وإلى الاسكندرية في ساعتين أي يدخل فيهما الساعة الأولى إلى طنطا ، فاليومان من الأربعة الأيام

لكن ، كيف نُقَدِّرُ هذا اليوم ؟ الله يخاطبنا باليوم الذي نعرفه ونعرف مدلوله ، فالمعنى في ستة أيام من أيامكم التي تعرفونها . والألو كان المراد يوماً لا يعرفه نحن ، فسيكون لا معنى له ، لأننا لا نفهمه

ولقائل أن يقول كيف يستغرق الخلق كل هذه المدة والحق - تبارك وتعالى - يحق مَكُنْ ، ولكن لا تحتاج وقتاً ؟ قالوا فَرَقَ بين عملية الخلق وما يحتاجه المخلوق في ذاته

بأنث مثلاً ، إن أردت أن تصنع كوباً من الزبادي تحضر اللبن مثلاً وتضع عليه خميرة الزبادي المعروفة المأخوذة من ربادي دسم سبق صنّعه ، وتضعه في درجة حرارة معينة ، بعد هذه العملية تكون قد صنعت الربادي فعلاً ، لكن هل يحسبك أن تأكل منه فور الانتهاء

من صناعته ؟ لا ، بل لا بدُّ أن تتركه عدة ساعات لتتفاعل عناصره ،

فهل تفور ، أنا صنعت الرابدى فى عدة ساعات مثلاً ؟

كذلك ، حين تذهب إلى (القرى) لتفصيل ثوب مثلاً يقول لك

موعدت بعد شهر ، فهل تستغرق حياطة الثوب شهراً ؟ لا ، إنما مدته

عنده شهر

فالحق - تبارك وتعالى - يفعل ومخلوق دون معالجة ، وباتالى

دون زمن ، لأنه سبحانه يقول للشيء كُنْ فيكون

وقوله سبحانه ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٥٩)﴾ [الفرقان] سبق

أن نكلمنا فى هذه المسألة فاستوى بمعنى صعد وارتفع وعلا

وحلوس ونص نُزّه الله تعالى عن استواء يشابه استواء خلقه

والاستواء هنا رمزية لتمام الامر بما نعرفه فى عادة الصوك فى

الجلوس على كرسي العرش ، حين يتم لهم الامر ويستتب

و ﴿الرَّحْمَنُ .. (٥٩)﴾ [الفرقان] دليل على أن مسألة الخلق كلها

تدور فى إطار لرحمانية ﴿فَسْئَلُ بِهِ حَبِيرًا (٥٩)﴾ [الفرقان] لأنه سبحانه

خلق السموات والارض وخلقها ، ومع ذلك لا نعرف كيف تم هذا

الخلق ؟ ولن نستطيع أن نقف على تفصيل هذا الخلق ، إلا إذا أطلعنا

الحائق عليه ، وإلا فهذا أمر لم نشاهده ، فكيف نحوض فيه ، كمن

يقول إن الأرض كانت قطعة من الشمس ، ثم انفصلت عنها مع

سورن الشمس إبح هذه الأقوال

لذلك الحق - تبارك وتعالى - يُحذّرنا من سماع مثل هذه

النظريات ، لأن مسألة الخلق لا نخضع للعلم التجريبي أبداً ، فيقول

سُبْحَانَ ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْ مُنْخَذَ الْمُصَلِّينَ عَصَدًا﴾ (٥١) [الكهف]

إذن سيوجد في الكون مُصلون يقولون للناس مثل هذه الأقوال في الخلق ، ويؤمنون بها أنهم علماء يعرفون ما لا يعرفه الناس ، فاحذروهم فما شاهدوا عملية الخلق ، وما كانوا مساعدين لله تعالى ، فيطلبوا على تفاصيل الخلق .

لذلك تقوم هذه الأقوال في خلق الإنسان وخلق اسماء ولأرض دليلاً على صدق هذه الآية ، فما موقف هذه الآية - إدس - إذ تم نقل هذه الأقوال ؟

ومثال ذلك الدين يحلو لهم التعصب للقرآن الكريم ضد الحديث النبوي يقول لك أحدهم حديثي عن القرآن ، سبحان الله ، أتعصب للقرآن ضد الرسول الذي يلُعن القرآن ، وما عرفت القرآن إلا من طريقه ؟ يعني (الواد ربّاني) لا يعترف إلا بالقرآن وتقول لمثل هذا الذي يهاجم الحديث النبوي أنت صليت المغرب ثلاث ركعات ، ماين هذا من القرآن ؟

لذلك يقول النبي ﷺ « يُوشك الرجل متكئاً على أريكته يُحدث حديثي فيقول بيني وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما كان حراماً حرّمناه ، وإن ما حرّم رسول الله كما حرّم الله » (١)

(١) أي أعواناً مساعدين وقال تعالى ﴿فَالسَّابِقُ السَّابِقُ يَأْخُذُ عَصْدًا بِأَخِيكَ﴾ (٥١) [الفصل] أي سفيريك به على سبيل المجاز المرسل ، فتقوية العصد تقوية للإنسان كله [القاموس التوحيدي ٢٤/١]

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٢/٤) ، والترمذي في سننه (٢٦٦٤) وابن ماجه في سننه (١٢) ، والدارقطني (٢٨٦/٤) في سننه ، واللفظ للدارقطني

لماذا ؟ لأنني أقول لكم من باطن قول الله تعالى ﴿وَمَآ أَتَاكُمْ
الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾ (٧) [المشر]

يا الله ، لو لم يُوجد الآن مَنْ يقول بهذا القول ، فماذا سيكون
موقف هذا الحديث ؟ وكيف لنا أن نفهمه ؟ لقد مضى هذا الحديث ،
وأبان ما عندهم من عياء . فقد كان بإمكانهم بعد أن عرفوا حديث
رسول الله أن يُمسكوا عن التعصب للقرآن ضد الحديث النبوي ،
فيكون الحديث ساعها غير ذي معنى لكن هيئات

نعود إلى موضوعنا ، ونحس بصدد الكلام عن خُلق اسموات
وخلق الأرض ، واستواء الحق - تبارك وتعالى - على العرش ،
وهاتين المسألتين لا تسأل فيهما إلا الله ﴿فَاسْأَلْ بِهِ حَبِيرًا﴾ (٥٩)
[العنقر] لأنه وحده الذي يعلم خبايا الأمور ، وهذه أمور لم يطلع عليها
أحد فيخبرك بها .

وكلمة (سأل) الإنسان لا يسأل عن شيء إلا إذا كان يجهله ،
والسؤال له مراحل فقد تجهل الشيء ولا تهتم به ، ولا تريد أن
تعرفه ، فانت واحد من ضمن الذين لا يعرفون ، وقد تجهل الشيء
لكن تهتم به فتسأل عنه لاهتمامك به ، فمرة نقول : اسأل به
ومرة نقول اسأل عنه

والمعنى اسأل اهتماماً به ، أي بسبب اهتمامك به اسأل عنه
حبيباً ليعطيك ويخبرك بما تريد ، فهو وحده الذي يعرف خبايا الأمور
ودقائقها ، وعنده حسر خلق اسموات وخلق الأرض ، ويعلم مسألة
الاستواء على العرش ، بذلك إن سألت عن هاتين المسألتين ، فلا
تسأل إلا حبيباً

والذين قالوا في قوله تعالى ﴿فَاسْأَلْ بِهِ حَبِيرًا﴾ (٥٩) [العنقر]

أى مَنْ يَعْلَمُ الْكَلَامَ عَنْ اللَّهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَقُولُ لَا بَأْسَ ، لَأنَّهُ سَيَقُولُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْبَهِايَةِ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالَوَا وَمَا الرَّحْمَنُ

أَسْجُدْ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦﴾﴾

نلاحظ أن الحق - تبارك وتعالى - حينما ذكر الصفة الملازمة لأن تخضع له سبحانه لم يقل مثلاً اسجدوا لله ، إنما ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ (٦) [المرقن] وأتى بالصفة اتى تعدى رحمانيته إليك . فكان من الواجب أن تطيع وأن تخضع له . كما قلنا سابقاً اجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه

﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ..﴾ (٦) [المرقن] كأنهم لا يعرفون هذه الكلمة ، إنهم لا يعرفون ، لا رحمن اليمامة .

وقولهم ﴿أَسْجُدْ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ . (٦) [المرقن] دليل على أن الامتناع عن السجود ليس للذات المسجود لها ، بل لمن أمر بالسجود ، كما سبق وأن قالوا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٢١) [الرحرف] فكانهم إن أمرهم الله بالسجود لسجدوا ، لكن كيف يأتى الأمر من الرَسُولِ خَاصَّةً ؟ وما مَيزَتُهُ عليهم حتى يأمرهم ، لذلك قال بعدها . ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ (٦) [المرقن] ولنفور الانفكاك عن الشيء بكَرِهٍ

ثم يقول الحق سبحانه

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا

سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿١١﴾﴾

يعود السياق مرة أخرى لذكر آية كونية ، لأن الحق - مبارك
وتعالى - يروح بين آية تطلب منهم شيئاً وأخرى تلفتهم إلى قدرة
الله وعظمته . وهذا يدل على مدى تعنتهم ولجاجتهم وعنادهم ،
وحرص الحق - سبحانه وتعالى - على لغتهم إليه ، ولأخذ بأيديهم
إلى ساحته تعالى

ولو شاء سبحانه لسرد الآيات الكونية مرة واحدة . وآيات
التكذيب مرة واحدة ، ولكن يزأج - سبحانه وتعالى - بين هذه وهذه
لتكون العبرة أنفذ إلى قلوب المؤمنين

قلنا ﴿ تَبَارَكَ .. ﴾ (٦٦) [المرحاض] يعنى قنوة ، وعلاً قدره ،
وعظم خيره وبركته . والبروج جمع بُرْج ، وهو الحصن الحصين
العالى الذى لا يفتح له أحد ، والآن يُطلقونها على امماني العالية
يقولون برج الحممدى ، برج النيل الخ ، ومنه قوله تعالى
﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (٦٦) ﴾ [البروج]

وقوله سبحانه ﴿ أَيُّهَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ
مُشِيدَةٍ .. ﴾ (٧٨) [السا]

والبروج منازل فى السماء يمسب للناس بها الأوقات
ويربطون بينها وبين الحظوظ ، فدرى الواحد منهم أول ما يفتح
جريدة اصباح ينظر فى باب « حظك اليوم » . وقد دلت الآيات على
أن هذه البروج جعلها الله لتسهل على الناس أمور الحساب .

كما قال سبحانه ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥٥) ﴾ [الرحمن]

وقال تعالى ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا .. ﴾ (٦٦) [الانعام]

يعنى بها تُحسب المواقيت ، فالشمس تعطيك المواقيت اليومية والليلية ، والقمر يدلك على أول كل شهر ، لأنه يظهر على جرم معين وكيفية مخصوصة توضح لك أول الشهر ومقتصفه وآخره ، ثم تعطيك الشمس بالظل حساب حزئيات الزمن

ومعلوم أن فى السماء اثني عشر بُرجاً جمعها الناضم فى قوه
حَمَلٌ الثَّورُ جُوزَةُ السُّرْطَانِ وَرَعَى اللَّيْثُ سَبِيلَ الْمِيرَانِ
عَقْرَبُ الْقَوْسِ جَدْيٌ دَلُو وَحُوتٌ مَا عَرَفْنَا مِنْ أَفْئَةِ السُّرِّيَانِ
فهى الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والعربطان ، والاسد ،
والسنبله ، والميران ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ،
والحوت ، فأولها الحمل ، وآخرها الحوت ، وكلُّ بُرْجٍ يبدأ من يوم ٢١
فى الشهر وينتهى يوم ٢٠

ثم يقول تعالى ﴿ وَجَعَلْ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ (٦١) [الفرقان]
السراج هو لمصباح الذى نشعله ليعطى حرارة وضوءاً ذاتياً ، والمراد
هنا الشمس ، لأن صوؤها ذاتىٌ منها ، وكذلك حرارتها ، على خلاف
القمر الذى يضيء بواسطة الأشعة المنعكسة على سطحه ، فإضاءته
غير ذاتية ، لذلك يقولون عن ضوء القمر الضوء الخليم ، لأنه ضوء
بلا حرارة

واعجيب أن سطح القمر - كم وجدوه - حجارة ، ولما خدوا
منه حجراً ليجروا عليه بحوثهم فهل قلَّ ضوء القمر ؟ لا لأن دائرته
الكامة هى التى تعكس إلينا ضوء الشمس وحسين تأخذ منه حجراً
يعكس لك ما تحته أشعة الشمس .

وفى موضع آخر ، بوضع الحق سبحانه هذه امسألة ، فيقول

تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ۖ ۝٥٠﴾ [يونس]
فالصياء هو الذي يأتي من الكوكب ذاتياً ، والنور هو انعكاس الضوء
على جسم آخر ، فهو غير ذاتي
ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ
أَنۡ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٥١﴾

عرفنا أن الليل عياب الشمس عن نصف الكرة الارضية ، والنهار
مواجهة الشمس للنصف الآخر والليل والنهار متعاقبان ﴿خِلْفَةً
۝٥١﴾ [الفرقان] يأتي الليل ثم يعقبه النهار ، كل منهما حلف الآخر ،
وهذه المسألة واضحة لـ الآن ، لكن كيف كانت لبداية عندما خلق الله
تعالى الخلق الاول ، فساعتها ، هل كانت الشمس مواجهة للأرض أم
عائبة عنها ؟

إن كان الحق سبحانه خلق الشمس مواجهة للأرض ، فالنهار هو
الاول ، ثم تغيب الشمس ، ويأتي الليل ليخلف النهار ، أما النهار فلم
يسبق بليل وكذلك ن كانت الشمس عند الخلق غير مواجهة
للأرض ، فالليل هو الاول ولا يسبقه نهار ، وفي كلتا الحالتين يكون
أحدهما ليس خليفة للآخر ، ونحن نريد أن تصدق الآية عى كليهما .

إنن لابد أنهما خليفة من الخلق الاول ، ذلك لأن الأرض - كما
عرفنا ولم يعد لدينا شك في هذه المسألة - كروية ، والحق - تبارك
وتعالى - حينما خلق الشمس والقمر الخلق الاول كان المواجهه منها
للشمس نهاراً ، والمواجهه منها للقمر ليلاً ، ثم تدور حركة الكون
فيخلف أحدهما الآخر منذ البداية .

وهذه النظرية لا تستقيم إلا إذا قلنا بكروية الأرض ، وهذه يؤيدها قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ (١٤٩) [يس]

والمعنى أيضاً ولا النهار سابق الليل ، لكن ذكر الليل ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الليل خلق أولاً ، لماذا ؟ لأن الزمن عندهم يثبت بليله ، كما يحدث مثلاً في الصوم ، فهل تصوم أولاً في اسهار ثم ترى الهلال بالليل ؟ إنما ترى الهلال بالليل أولاً ، فكان رمضان يبدأ يومه بليله

وب داء الامر كذلك فالليل سابق النهار عندهم وهذه قصية يعتقدونها ومُسلّمة عندهم ، وجاء القرآن وحاطبهم على أساس هذا الاعتقاد أتم يعتقدون أن الليل سابق النهار يعنى النهار لا يسبق الليل ، نعم لكن . اعلموا أيضاً أن الليل لا يسبق النهار إذن المحصلة لا الليل سابق النهار ، ولا النهار سابق الليل .

ولو قلنا بأن الأرض مسطوحة لما استقام لنا هذا القول .

لكن أى ميل ؟ وأى نهار ؟ نهارى أنا . أم نهار المقابل لى ، وكل واحد على مليون من الثامنة يولد بهار وبدأ ليل ، لأن الشمس حين تغيب عنى تشرق على آخرين . والظهر عندى يوايقه عصر أو مغرب أو عشاء عند آخرين

إذن كل الزمن فيه الزمن ، وهذا الاختلاف فى المواقيت يعنى أن نعمة الابدان (الله أكبر) شائعة فى كل الزمن ، فانه تعالى معبود بكل وقت وفى كل زمن ، فأنت تقول - الله أكبر وغيرك يقول - أشهد أن لا إله إلا الله . وهكذا

وإن كان الحق - تبارك وتعالى - خلق الليل للسبات والراحة ،

والنهار للسعى والعمل ، فهذه الجمهرة العامة لكنها قضية غير ثالثة ، حيث يوجد من مصالح الناس ما يتعارض وهذه المسألة فمن الناس مَنْ تقتضى طبيعة عمله أن يعمل بالليل كالخباريين والحراس والممرضين .. إلخ

فهؤلاء يُسمح لهم بالعمل بالليل والراحة بالنهار ، ولو لم يَكُرْ هؤلاء منفذ لقلنا إن هذا الكلام متناقض مع كونيات الحق ، لذلك يقول - سبحانه وتعالى - فى آية أخرى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ ﴾ [الروم] فنراعى هذه الآية ظروف هؤلاء الذين يضطرون للعمل ليلاً ، وللراحة بهاراً

وقوله تعالى ﴿ لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرْ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان] يعنى يا مَنْ شغله نهار عمله عن ذكر ربه انتهز فرصة الليل ، ويا مَنْ شغله نوم الليل عن ذكر ربه انتهز فرصة النهار ، وذلك كقول النبى ﷺ « إِنْ أَلَّهِ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءَ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مَسِيءَ اللَّيْلِ »^(١)

معنى فاتته شيء فى ليله فليتداركه فى نهاره ، ومَنْ فاتته شيء فى نهاره فليتداركه فى ليله ، وإذا كان الله تعالى يبسط يده بالليل ويبسط يده بالنهار ، وهما مستعرا ، فمعنى ذلك أن يده تعالى مبسوط دائماً

ومعنى ﴿ يَذْكُرْ ۚ ﴾ [الفرقان] يتعَمَّن ويتأمل فى آيات الله فى الليل وفى النهار ، كأنه يريد أن يصطاد الله نعماً يشكره عليها ، على خلاف الغافل الذى لا يلتفت إلى شيء من هذا ، فعن فضل الله علينا

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) عن حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، وكذا أحمد فى مسنده (٢٩٥/١) (٤١)

أَنْ يُنْبِئُنَا إِلَى هَذِهِ النِّعَمِ ، وَبَلِّغْتِ نَظَرُنَا إِلَيْهَا ، لَأَنَّا أَهْلُ غَفْلَةٍ
وَقَوْلُهُ ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [المراد] أى شُكْرًا ، فَهِيَ صِيغَةُ
مِبَالِغَةٍ فِي الشُّكْرِ

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا
خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾

يُعْطِينَا الْحَقَّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - صُورَةً لِلْعِبُودِيَّةِ الصَّحَّةِ . وَنُعْزِجُ
لِلَّذِينَ اتَّبَعُوا الْمُنْهَاجَ ، كَأَنَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَقُولُ لَنَا دَعُّكُمْ مِنْ
الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْ مَنَهِجِ اللَّهِ وَكَذَّبُوا رَسُولَهُ ، وَانْطَرَوْا إِلَى أَوْصَافِ
عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا بِي ، وَنَقُذُّوا أَحْكَامِي ، وَصَدَّقُوا رَسُولِي

نَقُولُ عِبَادٌ وَعَبِيدٌ . وَالنَّصْقِيقُ أَنْ (عَبِيدٌ) جَمْعُ لِعَبْدٍ . وَأَنْ
(عِبَادٌ) جَمْعُ لِعَابِدٍ مِثْلُ رَجَالٍ جَمْعُ رَاحِلٍ ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ
يَأْتُونَكَ رِجَالًا... ﴾ [الحج] . ذُنْ عَبِيدٌ غَيْرُ عِبَادٍ

وَسَبَقَ أَنْ تَصَدَّقْنَا عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْعَبِيدِ وَالْعِبَادِ ، فَكُنَّا عَبِيدَ اللَّهِ
تَعَالَى . الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ ، الرَّاغِبُ وَالْعَاصِي ، فَمَا دَامَ يَطْرَأُ عَلَيْهِ فِي
حَيَاتِهِ مَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَهُ مَعَ أَنَّهُ يَكْرَهُهُ فَهُوَ بِمَقْهُورٍ ، فَالْعَبْدُ
الْكَافِرُ الَّذِي تَمَرَّدَ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ ، وَتَمَرَّدَ عَلَى تَصَدِيقِ الرَّسُولِ ،
وَتَمَرَّدَ عَلَى أَحْكَامِ اللَّهِ فَلَمْ يَعْمَلْ بِهَا

فَهَلْ بَعْدَ أَنْ أَلْفَ التَّمَرُّدِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَمَرَّدَ عَلَى الْمَرَضِ إِنْ
أَصَابَهُ ؟ أَوْ يَسْتَطِيعُ التَّمَرُّدُ عَلَى الْمَوْتِ إِنْ حَلَّ بِسَاحَتِهِ ؟ إِذَنْ فَانْتَ

(١) الْجَهْلُ الطَّيِّشُ وَاسْتَفْهَى بِشَيْءٍ حَقٍّ وَالْجَهْلُ أَيْضًا لُغْدُ الْعَمَلِ وَهُوَ الطُّلُوعُ مِنَ
الْمَعْرِفَةِ وَيَتَّحَدُّ مَعْنَى الْجَهْلِ بِمَا يَنْسَبُ الْمَقَامُ وَالْمَقْصُودُ بِالْحَامِلِينَ هِيَ السُّفَهَاءُ
[التَّحْقِيقُ ١٢٤/١]

عبد رعباً عنك ، وكلّ عبيد فيما نحن مقهورون عليه ، ثم لنا بعد ذلك مساحة من الاختيار .

أما المؤمن فقد خرج عن اختياره الذي منحه الله هي أن يؤمن أو يكفر ، وتندزل عنه لمراد ربه ، فاستحق أن يكون من عباد الله ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ.. (٦٢)﴾ [الفرقان] فنحن وإن كنا عبيداً فمن سادة ، لأننا عبيد الرحمن ؛ لذلك كنت حبشية تكريم الله لرسوله ﷺ في الإسراء هي عبوديته لله تعالى ، حيث قال ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ.. (١)﴾ [الإسراء] ، فالعبودية هي علة الارتقاء

فلما أحلص رسول الله العبودية لله نال هذا القرب الذي لم يسبقه إليه بشر

بذلك وصف الملائكة بأنهم ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦)﴾ [الأنبياء] ويستقراء الآيات لم نجد سوى آية واحدة تحالف في ظاهر الأمر هذا المعنى الذي قلناه في معنى العباد ، وهي قوله تعالى في الكلام عن الآخرة ﴿أَنْتُمْ أَهْلَتْمْ عِبَادِي هُنَالَا.. (١٧)﴾ [الفرقان]

فقال للضالين (عبادي) وهي لا تُقال إلا للطائعين ، بماذا ء قالوا لأن في لقيامه لا اختياراً لاحد ، فالجميع في القيامة عباد ، حيث استقى الاختيار الذي يُميرهم .

والعلماء يقولون إن عباد تُؤخذ منها لعبادية ، وإن العبيد تُؤخذ منها للعبودية العبادية في العباد أن يطيع العابد أمر الله ، وينتهي عن بوهيه طمعاً في ثوابه في الآخرة ، وخرفاً من عقابه فيها ، إن شاءت العبادية لأخذ ثواب الآخرة وتحبب عقابها

أما العبودية فلا تنظر إلى الآخرة ، إنما إلى أن الله تعالى تقدّم

بحسانه على عبده إيجاباً من عدم ، ومداً من عدم ، وتربية
وتسخيراً للكون ، فإنه يستحق بما قدم من إحسان أن يطاع بصرف
النظر عن الجزاء في الآخرة ثواباً أو عقاباً

أما العبودية فهي ألا ينظر العبد إلى ما قدم من إحسان ، ولا
ما آخر من ثواب وعقاب ، وإنما ينظر إلى أن جلال الله يستحق أن
يطاع ، وإن لم يسبق له الإحسان ، وإن لم يأت بعد ذلك ثواب وعقاب .

وإن كانت العبودية مكروهة في الشر كما قال أحد الساسة^(١) متى
استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ذلك لأن العبودية
للشئ يأخذ أسيد خير عبده ، أما العبودية لله تعالى فعز وشرف ، حيث
يأخذ العبد خير سيده ، فهي عبودية سيادة لا عبودية قهر

فحين تؤمن بالله يعطيك الله الرمام يقول لك إن أردت أن
أذكرك فاذكرني ، وفي الحديث القدسي « من ذكرني في نفسه
ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منهم »^(٢)

وإن كان - سبحانه وتعالى - يستدعيك إلى خمس صلوات في
اليوم واللييلة ، فما ذلك إلا لتأنس بربك ، لكن أنت حر تأتيه في أي
وقت تشاء من غير موعد ، وأنت تستطيع أن تحدد بدء المقابلة

(١) هو أحمد عرابي بن محمد عرابي ، زعيم مصري ، ممن تركت لهم الحوادث ذكراً من
تاريخ مصر الحديث . ولد في قرية « هرية رنة » (عام ١٨٤١ م) من فرى انقلايين
مصر . جاور في الأزهر سنتين ثم انتظم في الجيش سنة (١٨٥٥ م) وكان عمره ١٤
عاماً حتى بلغ رتبة « أميرالاي » في أيام الخديوى توفيق . توفي ١٩١١ م عن ٧٠ عاماً
انظر (الاعلام للركلى ١/١٦٨)

(٢) جرحه حمد في مسنده (٢٥١/٢ ، ٢٥٤ ، ٤٥) والبيمارى في صحيحه (٧٤٠٥
٧٥٠٥ ، ٧٥٢٧) والترغدى في سننه (٢٦٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه
قال الترمذى حديث حسن صحيح وقد شرح الشيخ الشبراوى رحمه الله هذا الحديث
القدسى في سلسلة « الأحاديث القدسية » (١٧-٢٥) بتحقيقنا

ونهايتها وموضوعها إلخ ، فزمام الأمر في يدك

وقد نعلم سيدنا رسول الله ﷺ خلق الله ، فكان إذا وضع يده في يد أحد الصحابة يُسَلِّمُ عليه لا ينزع يده منه حتى يكون هو الذي ينزع يده من يد رسول الله ^(١) ، وهذا أدب من أدب الحق - تبارك وتعالى - إذن - فالعبودية لله تعالى عبودية لرحمن ، لا عبودية لجنار .

وأول ما نلاحظ في هذه الآية أنه تعالى أضاف العباد إلى الرحمن ، حسنى لا بطر أن المعبودية لله دلة ، وأن القرآن كلام رب وُصِعَ بميزان ، ثم يذكر - سبحانه وتعالى - صفات هؤلاء العباد ، صفاتهم في ذواتهم ، وصفاتهم مع مجتمعهم ، وصفاتهم مع ربهم ، وصفاتهم في الارتقاء بالمجتمع إلى الطهر والنقاء ،

أما في ذواتهم فالإنسان له حالتان هما محل الاهتمام إما قاعد ، وإما سائر ، ويُخرج حالة النوم لأنه وقت سكون ، أما حال القعود والحركة محدودة في ذاته ، والمهم حال الحركة والمشى ، وهذا هو الحال الذي ينبغي الالتفات إليه

بذلك يوضح لنا ربنا - عز وجل - كيف نمشى فيقول ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (٦٣) ﴿[الفرقان]

يعنى برفق وفي سكينة ، وبسبب دون اختيال ، أو تكبر ، أو عطاسة ، لماذا ؟ لأن المشى هو الذي سيُعرضك لمقاولة محتتمات متعددة وهذا الأدب الرباني في المشى يحدث في المجمع استعراقاً إنسانياً يُسَوِّى بين الجميع

(١) أخرج أبو الطيخ الأصبهاني في كتابه «أخلاق النبي ﷺ وأدابه» ص ٢٦ طبعة الدار المصرية الطبعة ١٩٩٢ ، عن أنس بن مالك قال كان ﷺ إذا صافح رجلاً لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده ، ولا يصرف وجهه عنه حتى يكون هو الذي يصرفه .

وفي موضع آخر يقول تعالى في هذه المسألة ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خُذُكَ
لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا.. (١٨)﴾ [نعام] ﴿إِنَّكَ بِنِخْرَقٍ الْأَرْضِ
وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧)﴾ [الإسراء]

وتصغير الخذ أن تُعَمِّله كِبَرًا وبَطَرًا وأصله (الصغر) مرض في
البعير يصيب عنقه فيسير مائلًا ، وَمَنْ أراد أن يسير مُتَكَبِّرًا مُخْتَلًا
فليتكبر بشيء ذاتي فيه ، وهل لديك شيء ذاتي تستطيع أن تصغره
لنفسك أو تحتفظ به ؟

إِنْ كُنْتَ غَنِيًّا فَقَدْ تَفْتَقِر ، وَإِنْ كُنْتَ قَوِيًّا صَحِيحًا قَدْ يَصِيبُكَ الْمَرَضُ
فَيُقْعِدُكَ . وَإِنْ كُنْتَ عَزِيزًا الْيَوْمَ فَقَدْ تَذَلُّ عَدَا . إِذَنْ - فكل دواعي التكبر
ليست ذاتية عندك إنما هي موهوبة من الله ، فعلام التكبر إذن ؟

لذلك يقولون في المثل (اللى يخزن يخزن على وركه) إنما يخزن
على ورك غيره ؟ وأصل هذا المثل أن صامع السروج كان يأمي
بالمصبي الذي يعمى تحت يده ، ويجعله يمد رجليه ، ويضع السروج
على وركه ، ثم يأخذ في خياطته . فرأه أحدهم فَرَّقَ قلبه للمصبي فقال
للرجل إنه ضعيف لا يتحمل هذا ، فإن أربت فاجعله على وركك
أنت كذلك الحال هنا ، مَنْ أراد أن يتكبر فليتكبر بشيء ذاتي فيه ،
لا بشيء موهوب له .

والمتكبر شخص ضُرب الحجاب على قلبه ، فلم يلتفت إلى ربه
الاعلى ، ويرى أنه أفضل من خلق الله جميعاً ، ولو استحصِر كبرياء ربه
لاستحي أن يتكبر على خلق الله ، فتكبره دليل على غفلته عن هذه المسألة
لذلك يقول الناظم .

فَدَعِ كُلَّ طَاعِيَةٍ لِلزَّمَانِ فَإِنَّ الزَّمَانَ يُقِيمُ الصَّغَرَ

يعنى سيرى من الزمان ما يُقَوِّمُ اعوجاجه ، وَيُرْغِمُ أَنفَهُ

ومعنى ﴿مرحاً..﴾ [نمار] المرح ، الفرح ببطر ، والبطر أن تأخذ النعمة وتنسى المنعم ، وتنتقم بها ، وتعصى من وهبك إياها ، إذن المنهى عنه الفرح المصاحب للبطر ، وإنكار فضل المنعم ، أما الفرح المصاحب للشكر فمحمود ، كما قال تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا..﴾ (٥٨)

[يونس]

وفي موضع آخر يُعلّمنا أدب المشى ، فيقول ﴿وافصد في مشيك واغصص من صوتك..﴾ (٦١)

[لقمان]

وقالوا إن المراد بالمشى الهوّر ، هو الذي يسير فيه الإنسان على سحيته دون افتعال للعظمة أو الكبر ، لكن دون انكسار ودّة ، وسيدنا عمر - رضى الله عنه - حينما رأى رجلاً يسير متعأرتاً صر به ، ونهاه عن الانكسار والتعأرت في المشية ، وهكذا بمشية المؤمن وسط ، لا متكبر ولا متعأرت متهاك

ثم تتحدث الآية بعد ذلك عن صفات عباد الرحمن وعلاقتهم بالناس ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا..﴾ [الفرقان] والجاهل هو السفّيه الذي لا يرن الكلام ، ولا يضع الكلمة في موضعها ، ولا يدرك مقاييس الأمور ، لا في لخلق ولا في الأدب .

وسبق أن عرّفنا بين الجاهل والامىّ الامىّ هو خالى الذهن ، ليس عنده معلومة يؤمن بها ، وهذا من السهل إقناعه بالصواب أما الجاهل فعنده معلومة مخالفة للواقع ، لذلك يأخذ منك مجهوداً في إقناعه ، لأن يحتاج أولاً لأن تُخرج من ذهنه الخطأ ، ثم تُدخل في قلبه الصواب

والمعنى إذا خاطبك الجاهل ، فحذار أن تكون مثله في الرد عليه متسّفه عليه كما سّفه عليك ، بل قرّعه بأدب وقل ﴿سَلَامًا﴾ (٦٢)

[الفرقان] لتُشعره بالفرق بينكما

والحق - تبارك وتعالى - يوضح في آية أخرى ثمرة هذا الأدب .
فيقول ﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ إِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ
حَمِيمٌ﴾ (٣٤)

[افصلت]

وما أجمل ما قاله الإمام الشافعي^(١) في هذا المعنى

إِذَا نَطَقَ السُّعْيَةُ فَلَا تُجِبُهُ فَحَيْرٌ مِنْ لِحَاسِهِ السُّكُوتُ^(٢)
فَإِنْ كَلَّمْتَهُ فَرَجَتْ عَنْهُ وَإِنْ خَلَّيْتَهُ كَمَدًا يَمُوتُ

فإن اشتد السفيه سفاهة ، وطفى عليك وتجبر ، فلا مد لك من رد
العدوان بمثله . لأنك حلّمت عليه ، فلم ينواصع لك ، وظنّ حلمك
ضعفاً ، وهنا عليك أن تريه الفرق بين الضعف وكرم الحلق ،
كالشاعر^(٣) الذي قال

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي نُهْسٍ وَقَلْنَا الْقَوْمَ إِخْوَانُ
عَسَى الْإِيمَانُ أَنْ يُرَى جَعَنَ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
فَلَمْ صَرَّحَ الشُّرْقَاءُ سَيِّ رَفَوُ عُرْيَانُ
وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدَا ن بَتَأْتُمُ كَمَا نَأْتُوا
مَشِينًا مَشِيَةَ اللَّيْثِ عَدَا وَاللَّيْثُ غَضُّبَانُ

(١) هو محمد بن إدريس الشافعي الملقب ، أبو عبد الله أحد الأئمة الأربعة حسب مذهب الشافعي ، وإليه نسبة الشافعية ، ولد في غرة بفسطاط (عام ١٥ هـ) (زاد بعدد مرتين وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ غفرى بها (عام ٢٤١ هـ) عن ٥٤ عاماً ، وقبره معروف بالقاهرة [الأعلام للزركلي ٢٦/٦]

(٢) هذا البيت ذكره أبو الحسن الماوردي في « أدب الدنيا والدين » (ص ٢٢٦) ولكن عراه لعمره ابن علي واسطر ديون الإمام الشافعي - طبعة مكتبة ابن سينا ١٩٨٨ ص ٢٨ ، فقد ورد فيه هذا البيت

(٣) هو سهل بن شبيب بن رمان الحنفي ، الشهير بالفقد الرُّمَّاسي من بني بكر بن وائل ، شاعر جاهلي ، كان يصيد بكر في زمانه وغربها وهو من أهل اليمامة شهد حرب بكر وتغلب وقد نأهر عمره المدة توفي وهو ٧٠ ق هـ وسُمي القدر لعظم خلقته (الأعلام ٣ ١٧٩)

بَصَرٍ فِيهِ تَوْبِينَ وَتَحْضِيْعٍ وَاَنْـرَانُ
وَطَعَسَ كَفَمَ الزُّقِ^(١) غُدَا وَالزُّقُ مَبْلَأُ
وَفِي الشَّرِّ نَجَاءٌ حَيْزٍ لَّا يَنْهِيكَ اِحْسَانُ
وَبَعْضُ الْحَطَمِ عِنْدَ الْجَهْلِ لِّلَّذِي اِدْعَانُ
وَالْاِمَامَ عَلَى كَرَمِ اللهِ وَجْهَهُ

اِذَا كُنْتُ مُحْتَاجًا اِلَى الْحَطَمِ اِنْنِي اِلَى الْجَهْلِ فِي بَعْضِ الْاَحَايِيْن اُخْوَجُ
وَلِي فَرَسٌ لِلْحَطَمِ بِالْحَطَمِ مُلْجَمٌ وَلِي فَرَسٌ لِلْجَهْلِ بِالْجَهْلِ مُسْرَجٌ
فَمَنْ رَأَى تَقْرِيْمِي فَهِيَ مَقْرُومٌ وَمَنْ رَأَى تَقْوِيْمِي فَهِيَ مَعْوَجٌ
وَمَعْنَى ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان] قالوا المراد هنا سلام
المتاركة ، لا سلام الامان الذي نقوله في التحية (السلام عليكم)
فحين تتعرض لمن يؤذيك باقول ، ويقعدى عليك باللسان تقول له
سلام يعنى سلام المتاركة .

وبعض العلماء يرى ان كلمة ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان] هنا تعنى
المعنيين سلام المتاركة ، وسلام التحية والامان ، فحين تحلم على
السفينة فلا تجاريه تقول له لو تماديت معك ساوذك ، واقبل بك
كنا وكذا ، فانت بذلك خرجت من سلام امناركة الى سلام التحية
والامان

ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللّٰهَ اٰعْرَضُوْا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا
اَعْمَالُنَا وَلَكُمْ اَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْعَثِ الْيَٰهِيَْلِيْنَ﴾ [القصص]
الم يقل إبراهيم - عليه السلام - لعمه آزر لما اصر على كفره

(١) الزق المسقاء وهو كل دواء لتمد لشراب ويحويه وهو من الجلد [لسان العرب -
مادة زق]

﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي..﴾ (٤٧) [مريم]

والمعنى لو وقفت أمامك لربما اعتديت عليك ، وتقاتمت بيننا المشكلة .

وبعد أن تناولت الآيات حال عباد الرحمن في ذواتهم ، وحالهم مع الناس ، نتحدث الآن عن حالهم مع ربهم

﴿وَالَّذِينَ يَدِينُونَ رَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ (٦٤)

والبيقوة تكون بالليل ، حين يأوى الإنسان إلى بيته بعد عناء اليوم وسعته ، وبعد أن تقلب في ألوان شتى من نعم الله عليه ، محين يأوى إلى مبيته يتذكر نعم الله التي تجلت عليه في ذلك اليوم ، وهي نعم ليست داتية فيه ، إنما موهوبة له من الله ، لذلك يتوجه إليه سبحانه بالشكر عليها ، فيبيت لله ساجدا وقائما

كما قال سبحانه ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَاتٍ آمَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ..﴾ (٦١) [الزمر]

وقال سبحانه ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (١٧) وبالأَسْحَارِ^(١) هم يستهفرون (١٨) [الذاريات]

لكن أطلب الله تعالى ممّا أُلْهِجَ بالليل ، وقد قال في آية أخرى ﴿وَحَفَلْنَا نَوْمَكُمْ سَابَاتًا﴾ (٦) [الباء]

قلوا ليس المراد قيام الليل كله ، إنما جزء منه حين تجد عندك النشاط للعبادة ، كما قال الحق سبحانه وتعالى في خطاب النبي ﷺ

(١) الأسحار جمع سحر وهو الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر [القاموس القويم ٣٠/١]

﴿قُمِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢) نَصَفُ أَوْ انْقُصُ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ رَدُّ عَلَيْهِ وَرِتْلُ الْقُرْآنِ تَرْتِيلًا (٤) ﴿

[المرتل]

حتى قال ابن عباس ، مَنْ صَلَّى بعدَ العشاءِ ركعتينِ فأكثرَ كانَ كَمَنْ بَاتَ لله ساجداً وقائماً ، فربُّكَ يريدُ منك أنْ تذكره قبل أنْ تنام ، وأنْ تتأملَ نِعَمَهُ عليك فتشكره عليها

وذكر سبحانه حالتي السجود والقيام ﴿سُجُودًا وَقِيَامًا﴾ (٦٤) ﴿[الفرقان] لأن بعض الناس يصعبُ عليهم أنْ يسجدوا ، وآخرين يسهلُ عليهم اسجود ، ويصعبُ عليهم القيام ، فذكر الله سبحانه الحالتين ليعدلَ فيهما

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ (٦٥) ﴿

هذا انقول بناسب عناد الرحمن الذين يفعلون الخيرات طمعاً في الثواب ، وخوفاً من العقاب ، فهم الذين يقولون ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ (٦٥) ﴿ [الفرقان] كلمة (غرام) نقولها بمعنى الحب والهيام والعشق ، ومعناها الدروم ، أى لازم لهم لا ينفك عنهم في العار أبداً ، لأن العاقبة إما جنة أبداً ، أو نار أبداً فمعنى ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ (٦٥) ﴿ [الفرقان] أى لازماً دائماً ، ليس مرة واحدة وتنتهى العسالة .

ومنه كلمة (الغريم) . وهو الذى يلزم المدين لياخذ منه دينه

(٦) عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : « مَنْ صَلَّى العشاءَ الأخيرة في جماعة ، وصلى أربع ركعات فين أن يخرج من المسجد كان كعدل ليلة نقدر » أورده المنذرى في « الترغيب والترهيب » (١ / ٢٥٠) وعراه للطبراني في « المعجم الكبير » .

وكلمة ﴿ اَسْرِفْ عَا عَذَابَ جَهَنَّمَ .. ﴾ (٦٥) [المرقان] كأنهم
مصورون أن جهنم ستسعى إليهم ، وأن مينب وبينهم بدا ، بدليل
أنها ستقول ﴿ هَلْ مِنْ مُزِيدٍ ﴾ (٢٠) [ق]

ثم تذكر الآيات سبب هذه المقالة

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (٦٦)

سَاءَ الشَّيْءُ أَى . قُبْحٌ ، وَضِدُهُ حُسْنٌ ؛ لِدَلَالَةِ قَالِ تَعَالَى عَنْ اجْنَةِ
فِي مُقَابِلِ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ حَسْبُ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (٧٦) [المرقان] وهكذا
اسوء يلزمه القُبْحُ ، والحُسْنُ يلزمه الحُسْنُ .

وَقَالَ ﴿ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (٦٦) [المرقان] حتى لا يظنوا أن النار فترة
ونفسى ، ثم يرحلون منها ، فهي مستقرهم الدائم ، ومقامهم الذى
لا يدرقونه .

أَوْ أَنَّ الْحَقَّ - سبحانه وتعالى - أراد بهذا نوعين من الناس
مؤمن أسرف فى بعض السيئات ولم يثبُ ، أو لم يتقرب الله منه
توبته ، فهو فى النار لحين ، والمستقر هنا بمعنى المكان المؤقت ، أما
المقام فهو الطويل

إِذْ النَّارُ سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا لِمَنْ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ وَلَمْ يَثْبُ ، أو لم
يتقبل الله توبته ، نما ليست إقامة دائمة ، والمقام يكون للخالدين فيها أبداً
ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (٦٧)

الإسراف تبديد ما تملك فيما عدا ، فلا نقول (مسرف)
مثلاً لذى يأكل ليحفظ حياته ، لذلك يقول سيدنا عمر - رضى الله

عنه - لولده عاصم^(١) كُلُّ نصف بطنك ، ولا تطرح ثوباً إلا إذا استخلفته^(٢) ، ولا تجعل كل رزقك في بطنك وعى جسدك^(٣)

والإسراف أن تنفق في غير حلٍّ ، فلا سرف في حلٍّ ، حتى نُسْرِف الإنسان في شيء من الترف المباح ، فإنه يؤدي لنفسه بعض الكماليات ، في حين يؤدي للمجتمع أشياء ضرورية ، فالذي لا يرتدى الثوب إلا (مكوياً) كان بإسكانه أن يرتديه دون كَيٍّ ، فكَيُّ الثوب في حقه نوع من الترف ، لكنه ضرورة بالنسبة (للمكوحى) حيث يسرُّ له أكل العيش

والذى يستقل سيارة أجرة وهو قادر على السير أو يجلس على (القهوة) كل يوم ليمسح حذاه وهو قادر على أن يمسحه بنفسه هذه كلها ألوان من الترف بالنسبة لك ، لكنها ضرورة لغيرك ، فلا يُسمَّى هذا إسرافاً

وقوله تعالى ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان ٦٧] أى بين الإسراف والتقتير ﴿قَوَامًا﴾ [الفرقان ٦٧] يعنى وسطاً أى أن الإنفاق وسط بين طرفين ، وقوام الشيء ما به يقوم وإسحاها كلها تقوم على عملية التوسط بين الإسراف والتقتير

(١) هو عاصم بن عمر بن الخطاط القرشي العدوي شاعر كان من أحسن الناس خلقاً وكان مولى جسيماً وهو جد عمر بن عبد العزيز لأمه ولد ٦ هـ ، ومولى بالريذة عام ٦ هـ من ٦٥ عاماً (الامام للبركلي ٢/٢٤٨)

٢ خلق الثوب صوفاً بكى وشيء خلق بال [لسان العرب - مادة خلق] ومقصود عمر رضي الله عنه أن لا يطرح ابنه ثوباً إلا إذا أصبح قديماً جلياً

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (٢/٢٩٥١) ومعه ، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله في بطونهم وعلى ظهورهم ، وقد كان عمر بن الخطاب قدوة لابنه في هذا ، فقد أخرج أبو نعيم في الحلية (١/٢٢) أن الحسن البصري قال خطب عمر بن الخطاب وهو خليفة وعليه بر ، فيه ثنتي عشرة رفعة

وأذكر ونحن تلاميذ كانوا يُعلّموننا نظرية الروافع وكيف نُوسّط
مركزاً على عصا من الخشب ، بحيث يتساوى الذراعان ، ويكونان
سواء ، لا تميز إحداهما بالأخرى ، وإذا أرادت إحداهما أن تعمل
قاومتها الأخرى ، كأنها تقول لها نحن هنا فإذا ما علفت ثِقَلًا
بأحد الذراعين لزمك أن تطيل الأخرى لتقاوم هذا الثقل

ويروى أن عبد الملك بن مروان^(١) لما أراد أن يُزوِّج ابنته فاطمة
من عمر بن عبد العزيز اختاره بهذا السؤال ليعرف ميزانه في الحياة
يا عمر ، ما بعفتك^٩ قال : يا أمير المؤمنين ، بعفتي حسنة بين
سيتين^(٢) . ثم تلا هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا
وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٦٢) ﴿الفرقان﴾

فعلم الخليفة أن زوج ابنته يسير سيّراً يضمن له ولزوجته
مُقومات الحياة ، ويضمن كذلك المقومات العليا للنفس والمجتمع
وسبق أن ذكرنا أن الإنسان الذي يتفقد كل دخله لا يستطيع أن
يرتقى بحياته وحياة أولاده ، لأنه أسرف في الإنفاق ، ولم يدخر شيئاً
لنفسه مثلاً بيتاً ، أو يشتري سيارة . الخ

ومصيبة المجتمع أعظم في حال التقدير ، فمصلحة المجتمع أن
تُنْفَقَ ، وأن تلخّر كما قال سبحانه ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى
عَيْنِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ..﴾ (٢٩) ﴿الإسراء﴾

(١) هو أبو الوليد الأعمى من أعظم الخفاء ودماتهم ، ولد في المدينة ٢٦ هـ وبشابه
فقهياً واسع العلم مثعباً استعصمه معاوية على المنية وهو ابن ٦٦ سنة ، عوّبت في أيامه
الدواوين ، وصبغت الحروف بالخط والحركات وهو أول من صك الدنانير في الإسلام
ونقش بالعربية عليها توفي ٨٦ هـ عن ٦٩ عاماً (الأعلام ١٦٥/٤)
(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٩٥٩/٧)

وهكذا جعل الله لنا ميزاناً بين الإسراف والتقتير ؛ ذلك لأن المال قوام الحياة ، والذي يُعْتَرُّ نُفُتَرٌ على نفسه وعلى الناس فليست له مطلوبات يشتريها ، ويشارك بها في حركة الحياة ، ويتفجع بها غيره . فهذه السلع وهذه الصناعات وهؤلاء العمال ، وأهل الحرف من أين يرتزقون إذن وليس هناك استهلاك ورواح لسعهم لا شك أن التقتير يُحدث كسداً ، ويُحدث بطالة ، وهما من أشد الأمراض فتكاً بالمجتمع ولو نظرت إلى رغييف العيش ، وهو أبسط ضروريات الحياة ، كم وراءه من عمال وصُنَّاع وزُرَّاع ومهندسين ومطاحن ومخازن ومصانع وأقران ، وهب أنك أحجمت مثلاً عنه ، ماذا يحدث ؟

إذن ربك يريدك أن تنفق شيئاً ، وتدحر شيئاً يتيح لك تحقيق ارتقاءات حياتك وطموحاتها ، لذلك حُتِمَتْ الآية السابقة بقوله تعالى ﴿ فَتَقَعْدُ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ (٢٩) [الإسراء]

ملوم النفس لما بددت من أموال لم ينتفع بها عيالك ومحسوراً حينما ترى غيرك ارتقى في حياته وأنت لم تفعل شيئاً . إذن فالإنسان ملومٌ إن أسرف ، محسوراً إن تَنَدَّرَ ، والقوام في المتوسط بين الأمرين ، وبالحسنة بين السيئتين . كما قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، ولذلك قالوا خير الأمور الوسط

ثم يقول الحق سبحانه (١)

(١) سبب نزول الآية : من عبد الله بن مسعود قال سئل رسول الله ﷺ أي الدنبر أكبر ؟ قال أن تصغر له نداءً وهو حقيق قال ثم أي ؟ قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم منك قال ثم أي ؟ قال أن تراهي حبيبة جارك قال عبد الله بن مسعود قال ذلك **﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾** [الفرقان] أورده ابن كثير في تفسيره (٣٢٦/٣) ، والطبري في تفسيره (٤٩٥٢/٧) والواحدي في أسباب النزول (من ١٩٢) والحديث في الصحيحين البخاري ومسلم وأصحاب السنن

إن كليهما تذهب به الحياة ، لكن في الموت تذهب الحياة أولاً . ثم تُنقض البنية بعد ذلك ، أما في حالة القتل فتُنقض البنية أولاً ، ثم يتبعها خروج الروح فالموت - إذن - بيد الله عز وجل ، أما القتل فقد يكون بيد البشر .

وهنا نهى صريح عن هذه الجريمة ، لأنه « ملعون من يهدم ببيان الله » ويقضى على الحياة التي وهبها الله تعالى لعباده .

وقوله تعالى ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (٦٨) [الفرقان] أى حق يبيح القتل كرجم الرانى حتى الموت وكالقصاص من القاتل ، وكقتل المرتد عن دينه ، فإن قتلنا هؤلاء فقتلهم بقاء على حق استوجب قتلهم

فإن قال قائل فإين حرية الدين إذن ؟ نقول أنت حر في أن تؤمن أو لا تؤمن ، لكن اعلم أولاً أنك إن ارتددت عن إيمانك قتلناك ، فإياك أن تدخل في ديننا إلا بعد لقتناع تام حتى لا تُعرض نفسك لهذه العاقبة .

وهذا الشرط يمثل عقبة وحاجزاً أمام من أراد الإيمان ويحعه يُفكر ملياً قبل أن ينطق بكلمة الإيمان ويحتاط لنفسه ، إذن فربك عز وجل بُنَّهك أولاً ، ويشترط عليك ، وليس لأحد بعد ذلك أن يقول أين حرية الدين ؟

وقوله تعالى ﴿وَلَا يَرْثُونَ﴾ (٦٨) [الفرقان] تحدثنا عن هذه المسألة في أول سورة النور وقلنا إن الإنسان الذى كرمه الله وحمله خليفة له في أرضه أراد له الطُّهر والكرامة ، وأن يسكن الدنيا على مقتضى قانون الله ، فلا يُدخل في عنصر الخلافة شيئاً يخالف هذا القانون ، لأن الله تعالى يريد أن يبتى المجتمع المؤمن على الطُّهر ويبنيه على معناية المربى بالمربى

لذلك تجد الرجل يعتنى بولده مطعماً ومشرباً وملبساً ويفديه
بنفسه ، لماذا ؟ لأنه ولده من صلبه ومحسوب عليه ، أما إنْ شكَّ في
نسب ولده إليه فإنه يُهمله ، وربما فُكِّر في الخلاص منه ، وإنْ رُئِيَ
مثل هذا رُئِيَ لقيطاً لا أصلَ له وهذا لا يصلح بحلابة الله في
أرضه ، ولا لأن يحمل هذا الشرف

وهذا يدل على أن الفطرة السليمة تأتي أن يوحد هي كون الله
شخص غير منسوب لأبيه الحق ، من هنا نهى الإسلام عن الزنا ،
وحسن من صفات عباء الرحمن أنهم لا يزعمون

﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ (٦٨) [الفرقان] أثاماً مثل نكالاً وزناً
ومعنى ، والآثام عقوبة الإثم والمزاء عليه

﴿ يُضَعَّفَ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾

وَيَحْدَفُ فِيهِ مُهَكَاتًا ﴿٦٩﴾

كيف يفهم مصاعفة العذاب في هذه الآية مع قوله تعالى هي آية
أخرى ﴿ وَجَرَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا .. ﴾ (٦٩) [الشورى]

ويقول سبحانه ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١٦) [الأنعام]

الحقيقة لا يوجد تناقض بين آيات القرآن الكريم ، فالذي يرتكب
هذه الفعلية يكون أسوة في المجتمع تُحَرِّىء الغير على ارتكاب هذه
الجريمة ، لذلك عليه وزره كفاعل أولاً وعليه وزر من اقتدى به

كما جاء في قوله تعالى حكيمة عن الكافرين ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا

على أمةٍ وأنا على آثارهم مُقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ [الرحوف] إذن موجود الآباء
كقدوة للشر يزيد من شر الأبناء ، فكانهم شركاء فيه

لذلك يقول تعالى في موضع آخر ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضْلُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ..﴾ ﴿٢٥﴾ [النحل]

وقال ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ..﴾ ﴿١٩﴾ [المنكبات]

فالوزر الأول بخلافهم في داته ، والوزر الآخر ، لأنهم أضلوا
غيرهم ، هذا هو المراك بمصعقة العذاب .

وقوله تعالى ﴿وَيَحْمِلُهُ فِيهِ مُهَانًا﴾ ﴿٦٩﴾ [الفرقان] معنى (مُهَانًا)
حينما وصف القرآن العذاب وصفه مرة بأنه أليم ، ومرة عظيم ، ومرة
مُهِنٌ فالذي ينظر إلى إسلام الجوارح يقول هذا عذاب أليم ، لأنه
يؤلم كل جارحة فيه ، فاعذاب أمر حسي ، أما الإهانة فأمر معنوي
ومن الناس من تؤلمه كلمة تنال من كرامته ومنهم من يضرب فلا
يؤثر فيه

والحالف عر رجل خلق لناس وعلم ألا أنهم أبناء أعيار ،
ليس معصوماً منهم إلا الرسر ، إذن فالسيئة مُحْتَمَلَةٌ منهم

ومن تمام رحمته تعالى بربوبيته أن فتح باب التوبة لعباده ، لمن
أسرف منهم على نفسه في شيء ، لأن صاحب السيئة إن يش من
المغفرة استغفرى خصره وزاد فسادة ، لكن إن فتحت له باب التوبة
والمغفرة عاد إلى الجادة ، واستقام على لطاعة ، وفي هذا رحمة
بالمجتمع كله .

يقول تعالى

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا
فَأُولَئِكَ يَدْلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٧﴾

فدُوبُكم كَرِيم وَرَحِيم ، إِنْ تَبْتُمْ تَابَ عَلَيْكُمْ وَقَبِلَكُمْ ، فَإِنْ قَدُمْتُمْ
الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَاشْتَدَّ نَدَمُكُمْ عَلَى مَا فَاتَ مِنْكُمْ مِنْ مَعْصِيَةٍ يُبَدَّلُ
سَيِّئَاتِكُمْ حَسَنَاتٍ.

وَالْتَوْبَةُ أَمْرَانِ مَشْرُوعِيَّتُهُمَا مِنَ اللَّهِ أَوَّلًا ، وَقَبُولُهَا مِنْ صَاحِبِهَا
ثَانِيًا ، فَتُشْرِعُهَا فَضْلٌ ، وَقَبُولُهَا فَضْلٌ آخَرٌ ، لِذَلِكَ يَقُولُ سُبْحَانَهُ
﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لُتُوبُهُمْ ۝١١٨﴾ [التوبة] والمعنى تَابَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ
شَرَعَ لَهُمُ التَّوْبَةَ حَتَّى لَا يَسْتَحْزَنُوا مِنَ الرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ۝٧﴾ [الفرقان]
[الفرقان] تَابَ وَآمَنَ لِمَنْ عَمِلَ مَعْصِيَةً تُخْرِجُهُ عَنِ الْإِيمَانِ ، فَالْعَاصِي لَمْ
يَقَارَفْ لِمَعْصِيَةٍ إِلَّا فِي عَفْله عَنِ إِيْمَانِهِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ
الشَّرِيفِ : لَا يَزِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ
حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ^(١).

وَلَوْ اسْتَحْزَنَ الْعَاصِي جَلَالَ رَبِّهِ مَا عَصَاهُ ، وَلِتُضَخِّمَتْ عِنْدَهُ
الْمَعْصِيَةُ فَيَنْصَرِفَ عَنْهَا ، وَمَا دَامَ قَدْ عَابَ عَنْهُ إِيْمَانُهُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ
تَحْدِيدِهِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُوْطَفُ هَذَا الْإِيْمَانُ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ۝٧﴾ [الفرقان] فَاِجْزَاء

(١) حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٢٤٧٥) وَكَتَبَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ
(٥٧) كِتَابُ الْإِيْمَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

﴿فَأُولَٰئِكَ يُدَبِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۖ﴾ [الفرقان] وليس المراد أن السيئة تُبدل فتصير حسنة مباشرة ، إنما يرمع العبد السيئة ويحل محلها التوبة ، وبعد التوبة يصع الله له الحسنة

وقد أطمعتُ رحمة الله ومغفرته بعض الناس ، حتى قال الشاعر
 مؤلّاي إني قد عصيتك عامداً لا رالك أجمن ما تكُون عفوياً
 ولقد جنيت من الذنوب كئارها ضناً بعفوك أن يكون صغيراً
 حتى وصل الحال ببعضهم أن يستنكث من السيئة طمعاً في أن تُبدل حسنات ، لكن من يضمن له أن يعيش إلى أن يتوب ، أو أنه إن تاب قبل الله منه ؟

والعلة النفسية التي تكلم عنها العلماء في هذه المسألة أن الذي ابتعد عن المعصية فلم يبع في شراكها لم يدرك لذة الشهوة ، فلا تأتي على باله ، أما من خاض فيها ، وذاق لذتها ، وأسرف فيها على نفسه فبعاني كثيراً حينما يحجز نفسه وينأى بها عن معصية الله ، فهذه المعاناة هي التي جعلت له هذه المنزلة ،

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [٧٦]

معنى ﴿يتوب إلى الله متاباً﴾ [٧٦] [الفرقان] يعني توبه نصوحاً ، لا عودة بعدها إلى المعصية ، لا يرجع في توبته كالمستهزئ بربه ، يقول أفعَل كذا ثم أتوب وكلمة ﴿متاباً﴾ [٧٦] [الفرقان] تخفى الحزم ساعة أن يتوب إلا يعود والخطر في أن يُقدم العبد على الذنب بوجود التوبة ، فقد يُقبض في حال المعصية ، وقبل أن يُمكنه التوبة^(١)

(١) قال الفصالح : يحتمل أن تكون الآية الأولى ليس تاب من المشرّكين وبهذا قال ﴿الأنبياء﴾ [٥١] وكن [٥٢] [الفرقان] ثم عطف عليه من تاب من المسلمين واتبع توبته عملاً صالحاً ، فله حكم الناصحين أيضاً [تفسير القرطبي ٢/٤٩٦] .

ثم تذكر الآيات خصلة أخرى من خصال عباد الرحمن .

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ
مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٧٢)

الزُّور الشيء الكذب ، وَيُزَوَّرُ في الشهادة ، أى يُثبِت الحق
لفير صاحبه لكن نلاحظ أن الآية لم تَقُلْ والذين لا يشهدون
بالزور ، مما يدل على أن للآية معنى أوسع من النطق بقول الزور في
محال التقاضى ، حيث تقول عند القاضى فلان فعل وهو لم يفعل

فللشهادة معنى آخر أى لا يحضرون الزور ، والزور كل
ما خالف الحق ، ومنه قوله تعالى في شهر رمضان ﴿فَمَنْ شَهِدَ
مَكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ..﴾ (١٨٥) [المفرد]

فمعنى ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ (٧٢) [امرقا] أى لا يحضرون
الباطل فى أى لون من ألوانه قولاً أو فعلاً أو إقراراً ، وكل ما خالف
الحق

لذلك يقول الحق سبحانه فى موضع آخر ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ
أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي
الْجَاهِلِينَ﴾ (٥٥) [القصر]

ومعنى سبحانه ﴿وَإِذَا يُنْسِيكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٦٨) [الانعام]

وقال تعالى ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ
يُكْفَرُ بِهِ وَيُسْتَهْزَأُ بِهِ فَلَا تُقْعِدُوا بِهِمْ حَتَّى يُخَوِّضُوا فِي حَدِيثٍ
غَيْرِهِ ..﴾ (١٤) [النساء]

ومعلوم أن قول الزور والشهادة مغير حق تغلب الحقائق وتصر
بالمجتمع ، لأنك حين تشهد بالزور تأخذ الحق من صاحبه وتعطيه
لغيره ، وهذا يؤدي إلى تعطل حركة الحياة ، وتحصل الإنسان لا يأمن
على ثمار تعبهِ وعرقهِ ، فيمجم الناس عن السعي والعمل ما دامت
المسألة زوراً في النهاية

ذلك قال النبي ﷺ : « أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأكْبَرِ الْكِبَايِرِ ؟ الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ،
وعتوق للوالدين ، وشهادة الزور ، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس ،
عما رآل يكررها حتى قلنا ليته سكت »^(١)

بمعنى : لأن شهادة الزور تهدم كل قضايا الحق في المجتمع
ثم يقول سبحانه ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٧٢) [الفرقان]
الغفو هو انذى يجب في عرف العقل أن يُعفى ويُترك ، وهو الهراء
اندى لا فائدة منه ، لذلك قال ميمى بتركه ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٧٢) [الفرقان]
والكرام يقابلها اللثام ، فكان المعنى لا تدخل مع اللثام مجال الغفو
والكلام لباطل انذى يُصَادِمُ احق ليصرف الناس عنه .

ومن ذلك ما حكاها القرآن عن الكفار ليصرفوا الناس عن الاستماع
لآيات الذكر ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. ﴾ (٢٦) [قصص]

يعنى شوشوا عليه حتى لا يتمكّن الناس من سماعه ، وهذه
شهاده منهم بأنهم لو تركوا أذان الناس على طبيعتها وسجيّتها
فسمعت القرآن ، فلا بدّ أن يتفعلوا به وأن يؤمنوا به ، ولو لم يكن
للقرآن أثر في النفوس ما قالوا هذه المقولة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨٧) كتاب الإيمان ، وأحمد في مسنده (٢٧/٥)
والترمذى في سننه (٣١٩) من حديث أبي بكر بن الصديق ، قال الترمذى : هذا
حديث حسن غريب صحيح

وقولهم ﴿وَالْفُؤَادُ فِيهِ ..﴾ (٢٦) [مصلحت] يعنى وإن سمعتموه
مُقَرَّاءً فَالْفُؤَادُ فِيهِ ، وشوْشُو عليه ، حتى لا يصل إلى لَأَذَانٍ ، لماذا ؟
ألم يؤمن سيدنا عمر لما سمع آيات منه فى بيت أخته فاطمة ؟ لكن
لماذا أُنْزِلَ القرآن فى عمر هذه المرة بالذات ، وقد سمعه كثيراً فلم
يتأثر به ؟

قالوا - لأن اللجج والعناد يجعل الإنسان يسمع غير سامع ، أما
سماع عمر هذه المرة ، فكان بعد أن ضرب أخته وشحها ، وسال
سها الدم ، فحرك فيه عاطفة الأخوة وحناؤها ، ونقص عنه الكبرياء
والعناد واللجاج فصادف القرآنُ منه نفساً صافية . وقلبا خالياً من
الندد للإسلام ماسم

ألا ترى الكفار يقول بعضهم لبعض عند سماع القرآن - كما حكاه
القرآن ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .﴾ (١٦) [مسند]

يعنى ما معنى ما يقور ، أو ما الجديد لذى جاء به وهذا
على وجه التعجب منهم فيرد القرآن ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى
وَرَحْمَةً وَلِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .﴾ (١٤) [مسند]

إذن فالقرآن واحد ، لكن المُسْتَقْبِلُ له مختلف - هذا استقبله
بنفس صافية راضية ، وهذا استقبله بـندد^(١) وقلب مغلق ، فكانه لم
يسمع ، فالمسألة مسألة فعل وقاين للفعل ، وسبق أن مثلنا لذلك بمن
ينفخ فى يده أيام البرد والشتاء يقصد التدفئة ، وينفخ فى كوب
اشئى مثلاً يقصد التبريد ، فالمعمل واحد . لكن المستقبل مختلف .

(١) الندد - الصومعة الشديدة والألد - الشديد المحصومة الجدول [لسان العرب - مادة - لندد]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (٧٢)

قوله تعالى ﴿ذُكِّرُوا .. (٧٢)﴾ [الفرقان] لا يقال إلا إذا كان المقابل لك الذي تذكره عنده إلف بالذکر ، وعنده علم به ، والآيات التي تُذَكَّر بها لها قدوم أول ، ولها قدوم ثانٍ القدوم الأول هو الإعلان الأول بها ، والقدوم الثاني حين تنسى تُذَكَّر بها

وسبق أن قلنا إن الآيات تُطلق على معانٍ ثلاثة إما آيات كونية تُلقت النظر إلى قدرة الله تعالى ، وأنه صانع حكيم ، الخ ، وإما آيات معجزات جاءت لتأييد الرسل وإثبات صدقهم في البلاغ عن الله ، وإما آيات الذُكْر الحكيم ، ولتى تُسمى حاملة الأحكام وهي تُنبئ من العفلة ، وتُذكر الناس

فالمعنى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (٧٢)﴾ [الفرقان] أي في القرآن الكريم ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (٧٢) [الفرقان] لم يخروا الخَرَّ هو السقوط بلا نظام وبلا ترتيب

كما جاء في قوله تعالى ﴿فَأَنذَرْتُ اللَّهَ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْفَوَاحِشِ حَرًّا عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِّنْ فَوْقِهِمْ .. (٣٩)﴾ [الحل] فالسقف إن خَرَّ يخرّ بلا نظام وبلا ترتيب .

ومنه قوله تعالى في صفات المؤمنين ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَادَ وَعَدُ رَبُّنَا لِمُفْعُولًا﴾ (١٠٨) وَيَحْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ .. (١٠٩)﴾ [الإسراء] لأنهم يخرّون بانفعال قسري ، ينشأ من سماع القرآن

إِذْ هُمْ يُذَكَّرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ لَمْ يَخْرُجُوا عَلَيْهَا صُعًا وَعَمِيانًا ، إِنَّمَا
يَخْرُجُونَ وَهُمْ مُصْعُونَ تَعَامُ الْإِصْفَاءُ ، وَمُصْرُونَ تَعَامُ الْإِبْصَارُ
ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا
قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْقِيَاتٍ﴾ (٧٤)

هذه صفة أخرى من صفات عباد الرحمن ، يطلبون فيها أمرين
﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ (٧٤) [الفرقان] والذرية
لا تأتي إلا بعد الزواج ، لذلك جاء الدعاء للأزواج ، ثم للذرية
وكلمة ﴿قُرَّةَ﴾ (٧٤) [الفرقان] تُستعمل بمعنىين ، وفي اللغة شيء
يسمونه (عامل اشتقاق) يعني يشتق اللفظ من معنى عام . وقد
يختلف معناه ، لكن في النهاية يلتقيان على معنى واحد .

وكلمة (قُرَّة) تأتي بمعنى اللزوم والثبات ، من قَرَّ في المكان
يعنى لزمه وثبت فيه ، وتأتي بمعنى السرور ، والقُرُّ يعنى أيضا
شدة البرودة ، كما جاء في قول الشاعر

أَوْقَدْ نَارَ اللَّيْلِ لَيْلُ قَرٍّ وَالرَّيْحَ يَا غُلَامُ رِيحُ صَرٍّ
عَنْ أَنْ يَرَى تَارِكَ مَنْ يَمُرُّ إِنْ جَلِبَتْ ضَيْفًا فَانْتَ حُرٍّ

فأقر البرد ، والقمرور السُّكُور ، والعين الباردة دليل
السرور ، والعين السَّاحنة دليل الحزن والألم ، على حد قول الشاعر
فَأَمَّا قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ فَأَسْخَنَتْ وَأَمَّا قُلُوبُ الْعَازِلِينَ فَهَقُرَتْ

(١) عن الشيء بوزنه فاعتزله نجاه جانبا فتعس [لسائر العرب - مادة عوز] أى أنهم
عزلوا قلوبهم عن العشق والحب والوصال فاستراحت واستقرت قلوبهم

لذلك يَكُونُ ببرودة العين عن السرور ، وبسحونتها عن الحر ،
يقولون رزقنى الله ولداً قَرَّتْ به عيني . ويقولون - أسحَنَ الله عيني
فلأن يعنى أصابه بحرٌّ تعلَى منه عييه .

ولأن العين حوْرة عالية فى جسم الإنسان فقد أحاطها الخالق
- عز وجل - بعناية خاصة ، وحفظ لها فى الجسم حرارةً مناسبة
بختلف عن حرارة الجسم التى تعتدل عند ٣٧° ، فلو أخذت العين هذه
الدرجة لانفجرت

ومن عجيب قدرة الله تعالى أن تكون حرارة العين تسع درجات ،
وحِارة الكبد أربعين . وهم فى جسم واحد

فالمعنى ﴿قُرَّةُ أَعْيُنٍ﴾ (٧٤) ﴿[الفرقان] يعنى اصحل لما من
أزواجنا ما نُسرُّ به ، كما جاء فى الحديث الشريف عن صفات الزوجة
الصالحة : ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة
صالحة إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها
أبرته ، وإن غاب عنها نصحت له نفسه وماله ١﴾

وهبُ لنا من ذرياتنا أولاداً ملتزمين بمنهج الله لا يحيدون عنه ،
ولا يكفوننا فوق ما نطبق فى قول أو فعل ، لأن الولد إن حاء على
خلاف هذه الصورة كان مصيبة كبرى لوالديه بدليل أن الرجل قد
يسرف على نفسه بأنواع المعاصى ، وقد يُقصرُ فى حق الله ، لكن
يحزن إن فعل ولده مثل فعله

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (١٨٤٧) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، قال
البرصيرى فى روائده : فى إسناده على بن يزيد قال البخارى منكر الحديث وعثمان
ابن أبى العاتكة مختلف فيه . والحديث رواه النسائى من حديث أبى هريرة وسكند طيه
وله شاهد من حديث أبى عمر .

فالأب قد لا يصلى ، لكن يحدثُ ولده على الصلاة ، ويفرح له إنْ
صلى واستقام ، لماذا ؟ لأنه يريد أن يرى وأنْ يُعَوِّضَ ما فاتَه من
الخير والجمال فى امته . ولا يجب الإنسان أن يرى غيره أحسن منه
إلا ولده ، لأنه امتدده وعوّضه فيما فات .

وإنْ اخذنا ﴿فُرَّةَ أَعْمَرَ﴾ (٢٤) [الفرس] على أنها بمعنى
الاستقرار والثبات ، فالمعنى أن تكون الروجة على حلق وأدب
وجمال ، بحيث تُرصى الروح ، فلا تمتد عينه إلى غيرها ، وتسكن
عندها لأنها استرقت كل الشروط ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لَا تَعْبُدُنَّ
عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ (٨٨) [الحجر]

وكذلك إنْ وجد صفات الخير والأدب والجمال فى أولاد محب
لا تمتد عينه إلى أكثر من ذلك : لأنه يرى فى أولاده كُلُّ بطلعائه ،
وكل ما ينمذه ، فلا يتطلع إلى غيرهم ، لذلك حين يمدحون .
يقولون فلان لم يَعدْ عنده تطلعات ، لماذا ؟ لأنه حقَّق كل ما يريد

ويقولون فى المدح أيضاً . فلان هذا قَيَّدَ النظر ، نحس حين
نراه تسكن عنده عينك ، ولا تتحول عنه بحمله وكمال صفاته .

والولد حين يكون على هذه الصورة ، يريح والديه فى الدنيا وفى
الأخرة ، لأنه ولد صالح لا ينقطع برّه بوالديه لموتهما ، إنما يظل باراً
بهم حتى بعد الموت فيدعو لهما . وفى الآخرة يجمعهم الله جميعاً فى
مستقر رحمة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ
ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (٢١) [التور]

وهكذا كله فى الأزواج وفى الأولاد هبة ومنحة من الله

ونحظ أن بعض الأزواج يعيشون مع أرواحهم على مَنصص ،
وربما على كُرّه تعملهم عليه ظروف الحياة والأولاد واستقرار
الأسرة ، فإن قلباً للزوج إن زوجتك ستكون معك في الجنة يقول
كيف ، حتى في الآخرة !^(١) وهو لا يعلم أن الله تعالى سيطهرها من
اصفات التي كرهها منها في الدنيا .

قال سبحانه ﴿لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
حَالِدِينَ فِيهَا وَأَرْوَجُ مُطَهَّرَةً^(١) . (١٥) ﴿

[آل عمران]

ويقول سبحانه ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ لَّا يَكُونُ (٥٥) هُمْ
وَأَرْوَجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأُرَائِكِ مُتَكُونِينَ (٥٦) ﴿

[يس]

وقوله تعالى ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴿ [الفرقان] فلاحظ أن
الدعوة هنا جماعية ، ومع ذلك لم يقل أئمة ، وذكر إماماً بصيغة
المفرد ، قلعلنا ؟

قللوا لانه تعالى يَنبئُنا إلى أن الإمام هو الذي يسير على وفق
مهيج الله ولا يحيد عنه ، لذلك إن تعددت الأئمة فهم جميعاً في حكم
إمام واحد ، لأنهم يصدرون عن رب واحد ، وعن مهيج واحد
لا تحكمهم لأهواء فتفرقهم كالأمراء مثلاً . فجمعهم في القول من كل
مذهب على حدة ووحدهم في الإمامة

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢٥٢/١) : « أي مطهرة من النيس والخيث والأذى والحبص
والنمات وغير ذلك مما يعتري جسم الدنيا » . ونقل ابن منظور في لسان العرب (مادة
طهر) قول أبي إسحاق في معنى هذه الكلمة في الآية : « معناه أمهين لا يهيج إلى
ما يحتاج إليه ساء أهل الدنيا بعد الأكل والشرب ولا يحضر ولا يستجيب إلى ما يُتطهر
به » . ومن مع ذلك طامرات طهارة الأخلاق والعبادة . مطهرة تجمع الطهارة كلها لال مطهرة
ألم في الكلام من طاهرة » .

ثم يقول الحق سبحانه عن جزاء عباد الرحمن

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا
وَيُلْقَوْنَ فِيهَا زَوْجَةً وَاسْتَمَاءً﴾ (٧٥)

﴿أُولَئِكَ .. (٧٥)﴾ [الفرقان] خبر عن عباد الرحمن الذين تقدمت أوصافهم ، مجزاؤهم ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ . (٧٥)﴾ [الفرقان] وجاءت الغرفة مفردة مع أنهم متعددون ، يحتاج كل منهم إلى غرفة خاصة به .

قالوا ، لأن الغرفة هنا معناها المكان العالي الذي يشتمل على غرفات . كما قال تعالى ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جُزَاءٌ الصَّغْفَرُ بِمَا عَمَلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمُونَ (٣٢)﴾ [سبا]

وهذا الجزاء نتيجة ﴿بِمَا صَبَرُوا (٧٥)﴾ [الفرقان] صبروا على مشاق الطاعات ، وقد أوضح النبی ﷺ هذه المسألة بقوله « حَقَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحَقَّتْ الْمَارُ بِالشَّهَوَاتِ » (٢)

فالحجة تستلزم أن أصبر على مشاق الطاعات ، وأن أقدر الجزاء على العمل ، واستحضره في الآخرة . فَإِنْ ضَقَّتْ بِالطَّاعَاتِ وَكَذَّبَتْ بِجَزَاءِ الْآخِرَةِ ، فَلَمْ الْعَمَلُ إِذَنْ ؟

ومثلنا لذلك بالتلميذ الذي يجتهد ويجهده في دروسه ، لأنه مستحضر يوم الامتحان ونتيجته ، وكيف سيكون موقفه من هذا اليوم ، إذن لو استحضر الإنسان الثواب على الطاعة لسهلت عليه وهانت عليه متاعبها . ولر استحضر عاقبة المعصية وما ينتظره من جزائها لاعتد منها

(١) لغرفة الدرجة الزميمة وهي أعلى منازل الجنة وأصلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا حكاه ابن شجرة وقال الضعاف الغرفة الجنة [ذكره القرطبي ٧/ ٤٩٦١]

(٢) يخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٣/٢ - ٢٥٤) - ومسلم في صحيحه (٢٨٢٢) . والترمذي في سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس رضي الله عنه

فالتكاليف الشرعية تستلزم الصبر ، كما قال تعالى ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْغَاسِقِينَ ﴾ (١٥) [البقرة]

فالحق - تبارك وتعالى - يريد منا ألا نحزل التكاليف عن حرائثها . بل ضَع الجراء نُصَب عَيْنِكَ قبل أن نُقَدِّم على العمل

لذلك النبي ﷺ يسأل أحد صحابته « كيف أصبحت يا حارثة^(١) » فيقول « أصبحت مؤمناً حقاً » فقال « إن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ »

قال « عزفتُ نفسي عن الدنيا ، حتى استوى عندي دهبها ومدرها^(٢) » ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُسَعَّمُونَ ، وإلى أهل النار في النار يُعَذِّبُونَ

فالمسألة - إذن - في نظرهم لم تكن غيباً ، إنما مشاهدة ، كأنهم يرونها من شدة يقينهم بها . لذلك قال له النبي ﷺ « عرفتَ قالزم^(٣) »

والإمام علي - كرم الله وجهه - يقول « لو كُشِفَ عني الحجاب ما أردتُ بقيناً ، لماذا ؟ لأنه بلغ من اليقين في الغيب إلى حد العلم والمشاهدة »

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيُقَوِّنْ فِيهَا نَجْوَةً وَسَلَامًا ﴾ (٧٥) [الفرقان]

التحية أن نقول له «إنا نُحْيِيكَ يعني . نريد حياتك بأُتْسَكَ بنا . والسلام الأمان والرحمة ، لكن ممن يكون السلام ؟ ورد السلام في

(١) هو الحارث بن مالك الأنصاري . انظر ترجمته في كتاب « الإمامة في تفسير الصحابة -

(١٤٧٥) لابن حجر العسقلاني . وقد ذكر روايات كثيرة بحديثه هذا

(٢) المدر - نطع المثنى اليابس [نساء العرب - مادة مدر]

(٣) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ، ٥٧/١ وعنه لطبراسي في الكبير وقال « فيه ابن لهيعة ومعه من يحتاج إلى الكشف عنه »

القرآن الكريم بمعان ثلاثة سلام من الله ، كما في قوله تعالى ،
﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (٥٨) [يس]

وسلام من الملائكة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٦٢)
سلام عليكم .. (٦٤) [الرعد]

وسلام من أهل الأعراف ، وهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ،
فلم يدخلوا الجنة ، ولم يدخلوا النار ، وهؤلاء يقوون ﴿وَعَلَى
الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَرُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامَ عَلَيْكُمْ
لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (٦٦) [الأعراف]

إنَّ فُضَادَ الرَّحْمَنِ يُلْقُونَ فِي الْجَنَّةِ سَلَامًا مِنْ اللَّهِ ، وسلاماً من
الملائكة ، وسلاماً من أهل الأعراف .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَحْسَنَتْ مُمْسَقَرًا وَمُقَامًا﴾ (٧٦)

وسبق أن قل تعالى عن النار ﴿سَاءَتْ مُمْسَقَرًا وَمُقَامًا﴾ (٦٦)
[الفرقان] لأنها قبيحة ، ومقابلها هنا ﴿حَسَنَتْ ..﴾ (٧٦) [الفرقان]
والمستقر مكان الإقامة العابرة غير الدائمة ، والمقام مكان الإقامة
الدائمة ، ومعلوم أن مَنْ يدخل الجنة يقيم فيها إقامة أبدية دائمة أما
مَنْ يدخل النار فقد يخرج منها ، إن كان مؤمناً فكيف قال عن كل
منهما مُمْسَقَرًا وَمُقَامًا ؟

قالوا لأنهم ساعة يأتيهم نعيم وحزاء نقول لهم ليس هذا هو
الذعيم لدائم ، فالمستقر هي نعمة واحدة ، إنما المقام في نعيم أخرى
كثيرة مُتَرَفِّعَةٌ مُسْتَعْلِيَةٌ ، لدرجة أن الكمالات هي عطاء الله لا تتناهى .

ثم ينهي الحق سبحانه سورة الفرقان بقوله تعالى

﴿ قُلْ مَا يَعْشُرُ أَمْ كُرِّبِي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ
فَسَوْفَ يَكُونُ لِرَإْمَا ۝۷۷ ﴾

بعد أن تحدث الحق - تبارك وتعالى - عن عبد الرحمن ، وذكر
أوصافهم وجزائهم توجّه إلى الآخرين الذين لم يتصفوا بهذه
الصفات ، ولن ينالهم شيء من هذا النعيم ، يقول لهم إياكم أن
تظنوا أن الله تعالى سييالي بكم ، أو يهتم ، أو يكون في معونتكم ،
لأن الله تعالى لا ييالي إلا بعباده الذين عبدوه حقّ لعبادة ، واطاعوه
حقّ الطاعة ، وأنتم حالتم الأهل الأصغر من إيجاد الخلق ، ولم
تحققوا معنى الاستخلاف في الأرض الذي خلقكم الله تعالى من أجله .
فكما أنكم انصرفتم عن منهج الله ولم تعبثوا به ولم تعبدوه ،
ولم يكن على بالكم ، فكذلك لا يعبا الله بكم ، ومن تكروا على ذكر
منه سبحانه ، وسوف يهلككم

وقوله تعالى ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ .. ۝۷۷﴾ [الفرقان] يعنى بولا
عبادتكم ، حيث إنها لم تقع ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ . ۝۷۷﴾ [الفرقان] أى
بالأهل الأصغر ، وهم أنكم مخلوقون للعبادة ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِرَإْمَا
۝۷۷﴾ [الفرقان] كما لازمتم أنتم الكفر بى ولم تعبثونى وأصررتم على
الكفر ، كذلك يكون الجراء من جنس العمل لزما لكم ، فلا يُعَارَقُكم
أبداً

سُورَةُ الشُّجَرَةِ

سورة الشعراء^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسّم (١)

﴿طسّم (١)﴾

[الشعراء]

سبق أن تكلمنا عن الحروف المقطعة في أوائل السور ، وقلنا
فرّق بين اسم الحرف ومُسمّى الحرف ، مُسمّى الداء مثلاً بـأ أو نُو
أو يى أو إب في حالة السكون ، إنما اسمها ماءً مفتوحة أو
مضمومة أو ساكنة ، لكن حين تنطق هذا الحرف فى كَتَب - مثلاً -
نقول كَتَبَ فتتطابق مُسمّى الحرف لا اسمه

ورقلنا فى هذه المسألة معان كثيرة ، أيسرها أن لقرآن ، وهو
كلام الله المعجز مُرل من حروف مثل حروفكم التى تتكلمون

(١) سورة الشعراء فى السورة رقم (٢٦) فى ترتيب المسحف الشريف - عدد آياتها ٢٢٧
آية ، وهى سورة مكّية فى قول الجمهور ، وهى السورة رقم ٤٦ فى ترتيب السور بزلت
بعد سورة الواقعة وقيل سورة البص [انظر الإتقان فى علوم القرآن للسيوطي ٢١/١]
وقد استثنى ابن عباس وقتاده أربع آيات منها ثلاث بالسببية من قوله ﴿والشعراء يشبههم
الغارود (٥٥)﴾ [الشعراء] إلى آخر السورة [ذكره القرطبي فى تفسيره ٤٩٦٥/٧]

بها ، وكلمات مثل التي في لغتكم ، لكن ما الذي جعله متميزاً
بالإعجاز عن كلامكم ؟ نقول : لأنه كلام الله ، هذا هو الفرق . أما
الحروف فواحدة

ولو تأملت لوحدت أن الحروف المقطعة في أوائل السور مجموعها
أربعة عشر حرفاً^(١) . هي نصف الحروف الهجائية ، مرة يأتي حرف
واحد ، ومرة حرفان ، ومرة ثلاثة أحرف ، ومرة أربعة أحرف ومرة
خمسة أحرف وهذا يدلنا على أن القرآن معجز ، مع أنه بنفس
حروفكم ، وبنفس كلماتكم

وسبق أن ضربنا لتوضيح هذه المسألة مثلاً هَبْ أُنْكَ أَرَدْتَ أَنْ
تُخْتَبِرَ جَمَاعَةً فِي إِجَادَةِ النَّسْجِ مَثَلًا ، فَأَعْطَيْتَ أَحَدَهُمْ صُوفًا ، وَالثَّانِي
حَرِيرًا ، وَالثَّلَاثَ قُطْنًا ، وَالرَّابِعَ كَتَانًا ، فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْكُمَ عَلَى
دَثْنِ نَسْجٍ كُلِّ مِنْهُمَا أَرْقٌ وَأَجْمَلُ ؟ بِالطَّعِ لَا تَسْتَطِيعُ ، لِأَنَّ
الْحَرِيرَ أُنْعَمُ وَأَرْقُ مِنَ الْقُطْنِ ، وَالْقُطْنَ أَرْقُ مِنَ الصُّوفِ ، وَالصُّوفَ
أَرْقُ مِنَ الْكَتَانِ ، فَإِنْ أَرَدْتَ تَمْيِيزَ الدَّقَّةِ وَالْمَهَارَةِ فِي هَذِهِ الصَّنْعَةِ
فَعَلَيْكَ أَنْ تُؤَحِّدَ التَّوَحُّدَ

إذن سر الإعجاز في القرآن أن تكون مادته ومادة غيره من
الكلام واحدة ، حروفاً وكلمات ، لذلك كثيراً ما يقول الحق - تبارك
وتعالى - بعد الحروف المقطعة

(١) هذه الحروف الأربعة عشرة يجتمعها قولنا نحن حكيم قاطع له سر قال الرمضاني
هذه الحروف الأربعة عشرة مشتملة على أصناف جناس الحروف يعني من المهموسة
والمصهورة ومن الرخوة والشديدة ، ومن المنسقة والمنسوجة ومن المعسولة
والمحفضة ومن حروف الظفلة ، فسمعت الذي دقت في كل شيء حكيمه [قاله ابن
كثير في تفسيره ٣٧/١]

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾

أى أن الكتاب المبين مكون من مثل هذه الحروف ، والله تعالى معارف أخرى ، فيها مرادات له سبحانه ، يعلى الزمن يكشف لنا عنها .
واقتران كلام الله ، وصفاته لا تقتضى فى الكمال ، فإن استطعت أن تصف الأشياء ، هذا كذا ، وهذا كذا فهذه طاقة البشر والعقل البشرى . أمّا آيات الله هى كذبه للمبين فهى الآيات الفاصلة التى لها بدء ولها نهاية وتتكون منها سور القرآن

ومعنى ﴿ الْمُبِينِ ﴾ (٢) [الشعراء] الواضح المحيط بكل شيء .
كما قال سبحانه فى آية أخرى ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (٣٨)
[الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ لَعَلَّكَ بَدِخُمْ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

هذه هى التسلية لرسول الله ﷺ ، لأنه حمل نفسه فى تبليغ الرسالة فوق ما يطيق ، وفوق ما يطلبه الله منه حرصاً منه على هداية الناس ، وإرجاعهم إلى منهج الله يستحقوا الخلافة فى الأرض ، ولأن من شروط الإيمان أن تحب لأهلك ما تحب لنفسك

والحق - تبارك وتعالى - يسلى رسوله ﷺ ، كما قال له فى سورة الكهف . ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهِمَا ﴾
الحديث أسفاً (٦)

[الكهف]

(١) عن أس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده » ٧ يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال لأخيه - ما يحب لنفسه ، حديث متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥) كتاب الإيمان

كَأَن تَرَى وَلَدَكَ يُرْهِقُ نَفْسَهُ فِي الْمَذَاكِرَةِ ، فَتَشْفِقُ عَلَيْهِ أَنْ يَهْلِكَ
نَفْسَهُ ، فَأَنْتَ بَعْتَبَ عَلَيْهِ بِصَالِحِهِ ، كَذَلِكَ الْحَقُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -
يَعْتَبُ عَلَى رَسُولِهِ شَفَقَةً وَخَوْفًا عَلَيْهِ أَنْ يَهْلِكَ نَفْسَهُ

وَمَعْنَى ﴿بَاخِعٌ .. (٢)﴾ [الشعراء] الْبَحْجُ الْمَذْبَحُ الَّذِي لَا يَقْتَصِرُ
عَلَى قَطْعِ الْمَرْيَةِ وَالْوُدْجِينَ^(١) ، إِنَّمَا يَبَالِغُ فِيهِ حَتَّى يَفْصِلَ الْفَقَرَاتِ ،
وَيُخْرِجُ الْخَضَاعَ مِنْ بَيْنِهَا ، وَالْمَعْنَى تَحْزَنُ حَرْنًا عَمِيقًا يَسْتَوْلِي عَلَى
نَفْسِكَ حَتَّى تَهْلِكَ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى الْمَشْفَقَةِ الَّتِي كَانَتْ بِعَابِيهَا
الرَّسُولُ ﷺ مِنْ تَكْذِيبِ قَوْمِهِ لَهُ

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ ﴿فَلَا تَذْهَبْ
نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ .. (٦)﴾ [مطر] فَهَذَا أَمْرٌ نَهَائِي وَاصِحٌ ، وَنَهْيٌ
صَرِيحٌ ، مَعْدٌ أَنْ لَمْ تَنْظُرْ مَا لِلْإِنْكَارِ ، مَقَالٌ ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ
نَفْسُكَ .. (٣)﴾ [الشعراء]

وَقَدْ نَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ فِي عِدَّةٍ مَوَاضِعٍ حَتَّى لَا تُصْمَرَ نَفْسُهُ
مَوْقٍ طَافَتْهَا ، فَقَالَ لِحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا
الْحِسَابُ (٤)﴾ [الرعد]

وَقَالَ ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُضِرٍّ (٧٧)﴾ [الغاشية]
وَقَالَ ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ .. (٤٥)﴾ [ق]

فَالْحَقُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يَقُولُ لِرَسُولِهِ يَسْرُ عَلَى نَفْسِكَ ، وَلَا
تُكَلِّفْهَا تَكْلِفًا شَاقًّا مُضْنِيًا ، وَالْحَقَّابُ هَذَا لِمُصَالِحِ الرِّسُولِ ، لَا عَلَيْهِ

(١) الْوُدْجِينَ - عِزْقَانِ مُتَّصِلَتَانِ مِنَ الْوَأَسِ إِلَى السُّحُرِ وَالْجَمْعُ أَوْدَاجٌ وَهِيَ مَرْرٌ تَكْتَفِى
الطُّغُومَ فَإِنَّ قُصْدَ وَدَجٍ [لِسَانُ الْعَرَبِ - حَادَّةٌ - وَدَج]

ثم يقول للحق سبحانه .

﴿إِنْ كُنَّا نُنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ
أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾

والآية هنا ليست آية إقناع بل عقول ، إنما آية تُرغمهم وتُخضع رقابهم ، وتُخضع ابنيّة والقبالب ، وهذا ليس كلاماً نظرياً يُقال للمكذّبين ، إنما حقائق وقعت بالفعل في بني إسرائيل واقراً إن شئت قوله تعالى ﴿وَإِذْ تَتَقْنَا الْجِبالَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ . (١٧١)﴾ [الأمراء]

فاخذوا ما آتيناكم بقوة ، لماذا ؟ بلآية التي أرغمتهم وأخضعت قوايلهم ، لكن الحق - تبارك وتعالى - كما قلنا - لا يريد بالإيمان أن يُخضع القوايل ، إنما يريد أن يُخضع القلوب باليقين والاتباع

فلو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ، لا يتخلف منهم أحد ، بدليل أنه سبحانه خلق الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وبدليل أنه سبحانه بعث رسلاً وعصمهم ، ولم يجعل للشيطان سبيلاً عليهم ، وبدليل أن الشيطان بعد أن تعهد أن يعصى بني آدم ليكونوا معه سواء في المعصية قال له ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. (٤٢)﴾ [الحجر]

والشيطان نفسه يقول ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٧)﴾ إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣)﴾ [مر]

إذن لو أراد سبحانه لجعل الناس جميعاً مؤمنين وما عرّ عليه ذلك ، لكنه أراد سبحانه أن يكون الإيمان باختيار المؤمن ، هيأتى ربه طوعة مختاراً .

حتى في أمور الدنيا وأهلها ، قد ترى جباراً يصرّب الناس ،
ويُحصِعهم لأمره ونهيه ، فيطيعون طاعةً قوالب ، إنما يستطيع أن
يُخضع مجبروته قلوبهم ١٥

وقال ﴿فَطَلْتُ أَعْنَقُهُمْ لَهَا حَاصِعِينَ ۝﴾ [الشعراء] خصّ الأعناق ،
لأنها مظهر الخضوع ، فأول الخضوع أن تلوى الأعناق ، أو الأعناق
تُطلق عند العرب على وحره القوم وأعيانهم ، لذلك يقولون في
التهديد هذه مسألة تصيع فيها رقاب

والمراد الرقاب الكبيرة ذات الشان ، لا رقاب لعامة القوم ،
والضعفاء ، أو العاجزين ومثلها كلمة صدور القوم يعني أعيانهم
والمقدمين منهم الذين يملأون العيون

والمعنى فأتت لا تُخضع الناس ؛ لأنى لو أردتُ أن أخضعهم
لأحصعتهم لذلك يقول تعالى في آية أخرى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ
فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝﴾ [يونس]
فسأدا كما أن ربك لا يُكره الناس على الإيمان ، أفكُرههم أنت ؟
ولماذا الإكراه في دين الله ؟ إن الحق تبارك وتعالى - يولى تدويل
القرآن عليهم - آية بعد آية - فلعل نجماً من نجومه يصادف فراغاً ،
وقلداً صافياً من الموجدة على رسول الله فيؤمن

لكن هيهات لمثل هؤلاء الدين طُبعوا على اللدد والعباد والجحود
أن يؤمنوا ، لذلك يقول الله عنهم ﴿جَعَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَتَتْهَا أَنْفُسُهُمْ
ظُلْمًا وَعُورًا .. ۝﴾ [النمل]

وقال عنهم

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ
إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾

قوله ﴿مُحَدَّثٍ .. (٥)﴾ [الشعراء] يعنى جديد على أذنانهم ،
لأننا لا نلقتهم بآية واحدة ، بل بآيات الواحدة تلو الأخرى ﴿إِلَّا
كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥)﴾ [الشعراء]

فكلما جاءتهم آية كذبوها ، وهذا دليل على اللد والعداوة التي
لا تفارق قلوبهم لرسول الله ﷺ ، بحيث لا يصادف نجم من القرآن
قلوباً خالية ، فكان عداوتهم لك يا محمد منعتهم من الإيمان بالقرآن ،
فهم مستعدون للإيمان بالقرآن إن جاء من غيرك .

اليسوا هم القاطنين ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ
عَظِيمٍ (٦)﴾ [الزحرف]

إذن فاللد والحصرة ليست في منهج الله ، إنما هي شخص
رسول الله ، لذلك ربك يعزبك ويحرم عليك ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ
الَّذِي يَقُولُونَ .. (٣٣)﴾ [الأنعام] مرة ساحر ، ومرة مجنون .. إلخ
انظر إلى التسلية ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْدِبُونَكَ (٣٣)﴾ [الأنعام] قامت عندهم
صادق وأمين ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٤)﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥)﴾ [الشعراء] أى فى
عباء ولدد ، وهى هناك أشد لددًا من قولهم ﴿النَّهْمُ إِنْ كَانَ هَذَا
هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنِ بِعَذَابِ
الْجَمِّ (٣٧)﴾ [الأنفال]

بدل أن يقولوا اهدنا إليه ١

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا
يَسْتَهْزِءُونَ﴾

أى كلما جاءهم ذكر من الرحمن ، وآية من آياته اصرُّوا على
تكذيبها ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٦)
كما جاء في آيات أخرى ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ
يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٧) [الشعراء]

وقال ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ نِبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (٨٨) [حبس]
يعنى عدا يعلمون عاقبة تكذيبكم فأيات الله تسير أمامكم ، فكل
يوم يزداد المؤمنون بمحمد ، ويتناقص عدد الكافرين ، كل يوم تزداد
أرض الإيمان ، وتراجع أرض الكفر

ألم يقل الحق سبحانه وتعالى لهم ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ نَارَ الْأَرْضِ
تَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ..﴾ (٤٤) [الأنبياء]

فهذه - إذن - مقدمات ترونها بأعينكم ، وكان ينبغي عليكم أن
تأخذوا منها عبرة وعظة ، فتواذروا نجاح الدعوة وظهور الدين و صحته .
هذا معنى ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٦) [الشعراء]

فلينهم اقتصروا على التكذيب والإصرار عليه ، إنما تعدى الأمر
منهم إلى الاستهزاء بالرسول وبكلام الله ، ألم يقولوا على سبيل
الاستهزاء ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (١١) [الفرقان]

(١) المنقلب مصدر بمعنى الانقلاب والانقلاب إلى الله المصير إليه والتحول
والمنقلب مصير الصائد إلى الأحرار [لسان العرب - مادة قلب]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿أَوَلَمْ يَرْوِا إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَنْشَأَ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾

لَمْ لَمْ يفلح الذكر المُحَدَّث والآيات المتحددة مع هؤلاء المعاصدين لَمْ يَرْعَوْا رَدُّهُمْ الله تعالى إلى الآيات الكونية الظاهرة لهم والتي سمعتهم في الوجود ، آيات في السماء الشمس والقمر والنجوم ، وآيات في الأرض البحار والقهار والبهائم والنبات والحيوان

وكلها آيات كونية لم يدعها أحد منهم ، بل جاء الإنسان إلى الوجود وحراً عليها ، وقد سمعته هذه الآيات التي يراها الكبير والصغير ، والرجل والمرأة والعقل وغير العاقل . ألا ينظرون فيها نظرة اعتبار ، فيسألون عن مبدعها ؟

ضربنا لذلك مثلاً بالإنسان الذي تقطعت به السبل في صحراء حرداء حتى أشرف على إهلاك فأحدثه سعة فنام ، ولما استيقظ وجد في هذا المكان المنقطع مسددة ، عليها أطيب الطعام والشرب ألا ينبقى عليه قبل أن تمتد يده إلى هذ الضعام أن يسأل نفسه من الذي أعد له ؟

كذلك الإنسان طرأ على كَوْنٍ مُعَدٍّ لاستقباله ، وعلى وحرد لا تتناوله قدرته ولا سلطان له عليه ، فهو لا يتناول الشمس مثلاً ليوقدها ولم يدع هذه الآيات الكونية أحد . ألا يدل ذلك على الحاق عز وجل - ويوجب علينا الإيمان به ؟

لذلك يقول سبحانه ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٢٥) [القلل]

وقال ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ..﴾ (٨٧) [الزحرف]

ولو تأمل الإنسان في (اللمبة) الصغيرة التي تضيء غرفة ،
ولها عمر افتراضي لا يتعدى عدة أشهر وهي عرضة للكسر
وللأعطال ، ومع ذلك تكاتف في صناعتها فريق من المهندسين
والعمال والفنيين وكثير من الآلات والعدد ، ومع ذلك تُورخ لمخترع
المصباح ، ويعرف تاريخه ، وكيفية صيغه ، إلخ يعرف مخترع
(التليفون والراديو) و

أليس من الأولى أن ننظر ونتأمل في خلق الشمس ، هذا الكوكب
العظيم الذي يضيء الدنيا كلها ، دون وقود ، أو قطعة غيار ، أو عطل
طوال هذه المدد المتعاقبة ؟

فإذا ما جاء رسول ، وقطع على الناس هذه الغفلة ، وقال لهم
أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَنْ خَلَقَ كُلَّ هَذَا ؟ إنه الله . كان يجب عليهم أن يُعيروه
آذانهم ويؤمنوا

هنا يقول تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ ..﴾ (٧) [الشعرا] وهي
آية ظاهرة أمام أعينهم ، يرونها هامة جرداء مُقْفرة ، فإذا نزل عليها
الماء أحياها الله بالنبات ، ألم يفتظروا إلى الجبال والصحراء بعد نزول
المطر وكيف تكتسى ثوباً بديعاً من النبات بعد فصل الشتاء

ألم يسألوا أنفسهم مَنْ نزل هذه البذور وبدره في الجبال ،
لذلك يقول سبحانه في موضع آخر ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا
عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رُوحٍ بِهِيجُ﴾ (٥) [الحج]

وقوله تعالى هنا ﴿كَمْ أَنْبَتَا فِيهِ مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ﴾ (٧)
[الشعراء] كم حذبة تفقد الكثرة ، جاءت بصيغة الاستفهام للنفوس ،
كما تقول لصاحبك كم أحسنت إليك ، يدل أن تعدد مظاهر إحسانك
إليه ، فتسأله لأنك واثق أن الإجابة في صالحك ، فالكلام بالإخبار
دعوى منك ، لكن الإجابة على سؤال إقرار منه . فالمعنى أن نبات
الأرض كثير يفوق الحصر

والزوج الصنف ، والزوج أيضاً الذكر أو الأنثى ، والبعض من
العامة يظن أن الزوج يعني الاثنين وهذا خطأ ، فالزوج واحد معه
مثله ، كما في قوله سبحانه ﴿ثَمَانِيَةَ أزواجٍ مِنْ أَنْصَانٍ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْمَعْرِ
النِّينِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَمٌ أَمْ الْأُنثَيْنِ أَمْ شَتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ يُسْئَلُ
بِعَلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٤٣) ومن الإبل اثنتان ومن البقر اثنتان . [الأنعام]

هذه أربعة أصناف ، فيها ثمانية أزواج ، فالزوج فرد واحد معه
مثله . فلا تقول زوج أحذية . بل زوجاً أحذية . والحق سبحانه
وتعالى يقول ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الرُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (٤٥) [النجم]

وكذلك النبات لا بُدَّ فيه من ذكورة وأنوثة ، وإن كانت غير
واضحة فيه كله كما هي واضحة مثلاً في البخل ففيه ذكر تُلقح منه
الأنثى لتثمر وكذلك شجرة الجميز منها ذكر وأنثى لكن لم ير
ذكورة وأنوثة في الجوافة مثلاً أو في الليمون ، لماذا ؟

قالوا مرة توجد الذكورة والأنوثة في الشيء الواحد كعود الذرة
مثلاً ، قبل أن يُخرج ثمرته تخرج سبيلة في أعلاه تحصل لقاح
الذكورة وحسباً مهرها اربح يقع اللقاح على شُرابة (كور) الدرر ،
وتتم عملية التلقيح وقد تكون الذكورة والأنوثة في شيء لا تعرفه
أنت كالمأنجو والتفاح مثلاً . فلم نعلم لها ذكراً وأنثى

لكن الحق تعالى قال ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِحَ ۖ﴾ (٢٢) [الحجر]

وقال ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ۖ﴾ (٤٩) [البريات]

ثم وصف الزوج بأنه ﴿كَرِيمٌ﴾ (٧) [الشعراء] فماذا يعنى الكرم هنا ؟ قالوا : لأنك إذا أخذت الثمرة الواحدة ونظرت وتأملت فيها لوجدت لها صفات متعددة ونعمًا كثيرة ، كما قال سبحانه ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۖ﴾ (٣٤) [إبراهيم] وهى نعمة واحدة بصيغته المفرد ولم يقل نعم الله

قالوا : لأن الحق - عز وجل - يريد أن يلفتنا إلى أن كل نعمة واحدة لو استقصيت عناصرها وتكوينها لوجدت فى طياتها نعمًا لا تُعدُّ ولا تُحصى

فمعنى ﴿كَرِيمٌ﴾ (٧) [الشعراء] يعنى كثير العطاء وكثير الخيرات

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨)

قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ ۖ﴾ (٨) [الشعراء] أى فى آية الإنبات ، وكل زوج كريم يخرج من الارض ﴿لَآيَةً ۖ﴾ (٨) [الشعراء] شيء عجيب ودلالة واصحة على مَكُونِ حكيم يعص الشيء بقصد ونظام ، ينبغى أن نلفتنا إلى قدرة الخالق - عز وجل - .

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) [الشعراء] يعنى مع كل هذه الآيات لم يؤمنوا ، إلا القليل منهم كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَرَاتِ وَالْأَرْضِ بِمُرُونِ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥) [يوسف] مع أنك لو تأملت آية واحدة لكانت كافية لأن تلتفتك إلى الله

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

جاء الحق تبارك وتعالى هنا بصفة ﴿الْعَزِيزُ ..﴾ (٩) [الشعراء] بعد أن قال ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) [الشعراء] لنظم أن الذين كفروا لم يكفروا رَغْبًا عن الله ، إنما كفروا بما أودع الله فيهم من الاختصار

فهو سبحانه الذي أعانهم عليه لما أحبوه وأصروا عليه ، لأنه تعالى رُبُّهُمْ ، بدليل أنه تعالى لو تركهم مجبرين مرغمين ما فعلوا شيئاً يخالف منهج الله أبداً ، وبدليل أنهم مجبرون الآن على أشياء ومقهورون في حياتهم في مسائل كثيرة ، ومع ذلك لا يستطيع أحد منهم أن يخرج على شيء من ذلك .

فمع إلفهم العباد والقمرد على منهج الله ، يستطيع احدهم أن يتأبى على العرض ، أو على الموت ، أو على الأقدار التي تنزل به ؟ يختار أحد منهم يوم مولده مثلاً ، أو يوم وفاته ؟ يختار طوله أو قوته أو ذكاه ؟

لكن لما أعطاهم الله الصلاحية والاختيار اختاروا الكفر ، فاعسهم الله على ما أحبوا ، وختم على قلوبهم حتى لا يخرج منها كفر ، ولا يدخلها إيمان

وكلمة ﴿الْعَزِيزُ ..﴾ (٩) [الشعراء] تعنى الذى لا يُغلب ولا يُقهر ، لكن هذه الصفة لا تكفى في حقه تعالى ، لأنها تفيد المساواة للمقابل ، فلا بد أن تريد عليها أنه سبحانه هو الغالب أيضاً

لذلك يقول سبحانه وتعالى ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .. (٢)﴾
[يوسف] فانه تعالى عزيز يَغْلِبُ ولا يُغْلَبُ

ومثال ذلك قوله تعالى ﴿يُطْعَمُ وَلَا يَظْعَمُ .. (١٤)﴾ [الانعام]
وقوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨)﴾ [المؤمنون]

ثم يذكر سبحانه بعدها صفة الرحمة ، فهو سبحانه مع عزته رحيم ، إنه تعالى رحيم حين يَغْلِبُ ، ألم يتابع لهم الآيات ويدعهم إلى النظر والتأمل ، لعلمهم يثوبون إلى رُشدِهم فيؤمنوا ؟ فلما أصرُّوا على انكسر أمهلهم ، ولم يأخذهم معذب الاستئصال ، كما أجد الامم الأخرى حين كذبت رسلها

كان الرس قبل محمد ﷺ يُبْلَعُونَ الدعوة ، ويظهرون المعجزة ، فمرَّ لم يؤمر بعد ذلك يعاقبه الله ، كما قال سبحانه ﴿فَكُرْأُ أَخَذْنَاهُ بِنَبِيٍّ فَصَبَّحُوا مِنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَبْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠)﴾ [العنكبوت]

أما أمة محمد ﷺ فقد قال تعالى في شأنها ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ لِيَهُمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٢)﴾ [الأنفال]

وقال هنا ﴿وَإِنَّ رَيْثَ لَهْرٍ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦)﴾ [الشعراء] فالحق - تبارك وتعالى - في كل هذه الآيات يُسَلِّي رسوله ﷺ ، ويعطيه عذرة من الرسل الذين سبقوه ، فليس محمد يدعاً في ذلك ، ألم يقل

(١) بدع بديع أو عجيب يُقال فلان بدع في الامر أى أول من فعله قال تعالى ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ (٢٥)﴾ [الاحقاف] أى ما كنت قريباً ولا صبيحاً ولا كنت على حيد

مثال سابق ، ههنا مثل الرسل السابقين [القاموس القويم ٥٧/١]

له ربه . ﴿يَنْحَسِرُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يسر] فالمسألة - إذن - قديمة - تقدم الرسالات

لذلك . يأخذنا السياق بعد ذلك إلى موكب النبوات ، فيذكر الحق سبحانه لرسوله ﷺ طرفاً من قصة نبي الله موسى

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَتِ الْقَوْمَ الطَّالِمِينَ﴾

الحق تبارك وتعالى - يقصُّ علي رسوئه قصص الانبياء ، وهو أحسن القصص لحكمة ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ [هود] فزادك .. ﴿١٢٠﴾

لأن رسول الله ﷺ مرُّ بمعارك كثيرة مع الكفر ، فكان يحتاج إلى تثبيت مستمر كلم تعرض بشدة ، لذلك تكرر القصص القرآني لرسول الله على مدى عمر الدعوة ، والقصص القرآني لا يراد به انتأريخ لحياة الرسل السابقين ، إنما إعطاء النبي محمد ﷺ عبرة وعظة من سبفه من إخوانه الرسل ، لذلك كانت القصة تأتي في عدة مواضع ، وهي كل موضع لقطة معينة تناسب الحدث الذي نزلت فيه

وهنا يقول سبحانه ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى ..﴾ [الشعراء] يعني اذكر يا محمد . إذ نادى ربك موسى أي دعاه لكن لماذا بدأ بقصة موسى عليه السلام بالنات ؟

قالوا لأن كفار مكة كفرو بك أنت . فلا تحزن ، لأن غيرهم كان أفظع منهم ، حيث ادعى الألوهية . وقال ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ..﴾ [القصص]

والسياق هنا لم يذكر آيس ناداه ربه ، ولا متى ناداه ، وبدأ الحوار معه مباشرة ، لكن في مواضع أخرى جاء تفصيل هذا كله

ثم يأتى الأمر امباشر من الله تعالى لنبيه موسى ﴿أَنْ أَتَى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)﴾ [الشعراء] أى ائذين ظلموا أنفسهم . بأن جعلوا لله تعالى شريكا ، والشرك قسمة الطم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٢)﴾ [لقمان]

ولم يُبين لقرآن مَنْ هم هؤلاء الظالمون لأنهم معروفون مشهورون ، فهم فى مجل الشرك أغنياء عن التعريف بحيث إذا قلنا ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)﴾ [الشعراء] انصرف الذهن إليهم ، إلى فرعون وقومه . لأنه الوحيد الذى تحرراً على ادعاء الألوهية ، وبعد أن ذكرهم بالوصف يعينهم

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١)﴾

أى قل لهم يا موسى ألا تتقون ربكم ؟ واعرض عليهم هذا العرض ، لأن الطلب يأتى مرة بالامر لصريح افعل كذا ، ومرة يتحقق إليك بأسلوب العرض ، ألا تفعل كذا ؟ على سبيل الاستفهام والعرض والحض

وامعنى ألا يتقون الله فى ظلمهم لانفسهم باتخاذهم مع الله شريكا ولا إله غيره . وظلموا بنى إسرائيل فى انهم يُذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم

لكن ، لماذا تكلم عن قوم فرعون أولاً ، ولم يعرض عليه هو أولاً وهو رأس الفساد فى القوم ؟

ويجيب على هذا السؤال المثل القائل (يا فرعون ماذا فرعونك ؟ قال لأننى لم أجد أحداً يردنى) فلو وقف له قومه وردعوه لارتدع ، لكنهم تركوه ، بل ساروا فى ركبه إلى أن صار طاعية ، وأعابره حتى أصبح طاعوناً .

فَقَالَ مُوسَى

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ٢ ﴾

لما دعا الحق - تبارك وتعالى - نبيه موسى - عليه السلام - لأن يذهب إلى قوم فرعون لم يبادر بالذهاب ، إنما أدى لربه هواخس نفسه وحلجاتها ، لأنه يعلم مقدماً مشقة هذه المهمة ، فقد عاش مع فرعون ويعلم طبيعته ، فقال ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ١٢ ﴾ [الشعراء] وكيف لمن يدعى الألوهية أن يسمع لرسول ؟

ويروى أنه في عهد لحليفة المأمون^(١) ادعى أحدهم النبوة ، محبسوه ، ثم ادعاهما آخر فقال : اجمعوا بينهما حتى يواجه أحدهما الآخر ، فلما حصرا قالوا يا هذا إن هذا الرجل يدعى النبوة ، فقال كذب ، أنا لم أرسل أحداً وهكذا جعل من نفسه إلهاً بعد أن كان نبياً

ويواصل موسى الحديث عن مخاوفه

﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ

إِلَى هَارُونَ ٣ ﴾

يضيق صدري ساعة يكذبونني ، وضيق الصدر ينتج عنه أن أتجلج وأنعصب ، فلا أستطيع أن أتكلم الكلام المُنقنع ، ذلك لأنني

(١) هو عبد الله بن هارون الرشيد ، أبو العباس ، صاحب الحفاه من بني العباس في العراق ، وأحد أعظم الملوك ولد عام ١٧ هـ أمته بترجمة كتب الفلاسفة إلى العربية وأطلق حرية الكلام للمباحثين وأهل الجدل والفلسفة ، لولا المعنة بخلق القرآن في السنة الأخيرة من حياته ، توفي عام ٢١٨ هـ عن ٤٨ عاماً (الأعلام ٤/ ١٤٢)

سائهاً باطلاً واضحاً يُحابه حقاً واضحاً ، ولا بُدَّ أنْ يصيق صدرى
بذلك ، خاصة وأن لموسى عليه السلام سابقة فى مسألة الكلام

لذلك قال ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴾ [الشعراء] وفى آية أخرى
﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ
أَن يُكَذِّبُون ﴾ [٣٤] [النص]

يعنى مساعداً لى يتكلم بدلاً عني . إنْ عجز لسانى عن الكلام ،
وهذا يدل على حرصه - عليه السلام - على تبليغ دعوة ربه إلى
فرعون وقومه

وعليه . فقد كان موسى وهارون كلاهما رسول ، إلا أن القرآن قال
مرة عنهما ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء] بصيغة المفرد ،
وقال مرة أخرى ﴿ إِنَّا رُسُلًا رَبِّكَ .. ﴾ [طه] بصيغة المثنى

، الرسول هو المرسل من شخص لآخر ، سواء كان واحداً أو
مثنى أو جمعا

ومعوم أن الإنسان يحتاج لاستبقاء حياته طعاماً وشراباً ، وقبل
ذلك وأهمّ منه يحتاج لاستبقاء نفسه ، ألا تراه يصبر على الطعام ،
ويصبر على الشراب ، لكنه لا يصبر بحال على الهواء ، فإنْ حُبِسَ
عنه شهيق أو زمير فرق الحياة ؟

وسبق أن قلنا إن من رحمة الله تعالى بنا أن يُعَلِّك الطعام
كثيراً ، وقليلاً ما يُعَلِّك الماء ، لكن لهواء لا يُملِّكه الله لأحد ، لماذا ؟
لأنه لو ملَّك عدوك الهواء فمَنَعَهُ عَنْكَ ، فسوف تموت قبل أن يرضى
عَنكَ ، بالإضافة إلى أن الهواء هو العنصر الأساسى فى الحياة ،
وعليه تقوم حركتها

(١) رداً قوَاهُ ولَمَعَانِهِ وَالزُّنْدُ المعبر والناسخ [العنبر القويم ١/ ٢٦٠]

ونلاحظ أن الإنسان إذا صعد مكاناً عالياً (ينهج) ، وتزداد ضربات قلبه وحركة تنفسه ، لماذا ؟ لأن الحركة تحتاج لكثير من الهواء ، فإن قلَّ الهواء يضيق الصدر ، لأنه يكفي فقط لاستبقاء الحياة . لكنه لا يكفي الحركة الخارجية للإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ١٤ ﴾

وليت المسألة تقف بين نبي الله موسى وبين قومه عند مسألة الكلام ، إنما لهم عنده ثأرٌ قديم ، لأنه قتل منهم واحداً ، وإن كان عن غير قصد ، كما قال تعالى في آية أخرى ﴿ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ .. (١٥) ﴾ [النصص] فأخاف أن يقتلوني به

فيقول الحق سبحانه لموسى وهرون

﴿ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيِّئِنَّا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ١٥ ﴾

(كلاً) تعيد نفى ما قبلها ، وقبلها مسبل ثلاث ﴿ أخاف أن يقتلوني ﴾ [الشعراء] ، ﴿ ويضيق صدري ولا يطلق لساني .. (١٣) ﴾ [الشعراء] ، ﴿ فأخاف أن يقتلوني ﴾ [١٤] [الشعراء] فعلى أي منها ينصب هذا النفي ؟

النفي هنا يتوجه إلى ما يتعلق بموسى - عليه السلام - لا بما يتعلق بالقوم من تكذيبهم إياه ، يقول له ربه اطمئن ، فلن يحدث شيء من هذا كله ولا ينصب النفي على تكذيبهم له ، لأنه سيكذب ،

(١) الدبب فما قتل القبطي واسمه ماثور قال قتادة أراد القبطي أن يسحر لإسرائيل ليحمل حطباً لمطبخ فرعون فابى عليه ، فاستغاث بموسى ﴿ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ

(٢) [القصص] أي دفعه بكفه فعل موسى عليه السلام بك وهو لا يريد قتله ، إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه [تفسير القرطبي ١٤٦/٧ - ١٤٧]

لذلك نرى دقة الاداء القرآنى حيث جاءت ﴿أَحَافُ أَنْ يَكْذِبُونَ﴾ (١٢) ﴿[الشعراء] فى نهاية الآية . وبعدها كلام جديد ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ (١٣) ﴿[الشعراء] وهو المقصود بالنفى

وقد بيّنت سورة الفجر معنى (كلاً) بوضوح فى قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ (١٦) [العجذ]

فيقول تعالى بعدها رداً عليها ﴿كَلَّا ..﴾ (١٧) ﴿[العجذ] يعنى ليس الإعطاء دليل إكرام ولا لمتنع دليل إهانة ، إنما المراد الابتلاء بالنعمة وبالنقمة

وكيف يكون الأمر كما تظنون ، وقد أعطاكم الله فبخلتم ، وأحببتم المال حباً جماً ، فلم تنفقوا منه على اليتيم أو المسكين ، بل تناقضتم فى حمّعه حتى أكلتم الميراث ، وأخذتم أموال الناس .

إذن فالمال الذى أكرمكم الله به لم يكن نعمة لكم ، لأنكم جعلتموه نقمة وربالاً ، حين أعطيتكم فمضغتم

وكلمة (كلاً) هذه أصبح لها تاريخ مع موسى - عليه السلام - فقد تعلّمها من ربه ، ووعى درسها جيداً ، فلما حوُصِر هو وأتباعه بين البحر من أمامهم وفرعون وجنوده من خلفهم ، حتى أيقن أتباعه أنهم مدركون هالكون ، قالها موسى عليه السلام بملء فيه ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٩١) [الشعراء]

وقوله تعالى ﴿فَأَذْهَبَ بآيَاتِنَا﴾ (٩٥) [الشعراء] الآيات هنا يقصد بها المعجزات الدالة على صدقهما فى البلاغ عن الله ، وهى هنا العصا

(١) قدر الله الرزق جعله ضيقاً على قدر الحاجة لا يريد عن ضروره الحياة [لقاموس

﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء] كما قال لهما في موضع آخر
﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه]

فمرة يأتي بالسمع فقط ومرة بالسمع والرؤية ، لماذا ؟ لأن موقفه مع فرعون في المقام الأول سيكون حداثاً ونقاشاً ، وهذا يباين السمع ، وبعد ذلك ستحدث مقامات في (فعل) و (عمل) في مسأله السحر وإلقاء العصا ، وهذا يحتاج إلى سمع وإلى بصر ، لأن الإيذاء قد يكون من السمع فقط في أول اللقاء ، وقد يكون من السمع والعيّن فيما بعد

﴿ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وسبق أن قال سبحانه ﴿ أَنْ أَتَى الْقَوْمَ الْطَّالِمِينَ ﴾ [١٠] قوم فرعون .. ﴿ [الشعراء] فذكر قوم فرعون أولاً ، لأنهم سبب فرعنته ، حين سمعوا كلامه وأعانوه عليه ، وهنا يُذكره ﴿ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ ﴾ [١٦] [الشعراء] لأنه حين يُهزم فرعون يُهزم قومه الذين أيّدوه ، فالكلام هنا مع قمة الكفر مع فرعون

﴿ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء] إِنَّا جمع يُقال للمثنى ، ومع ذلك جاءت رسول بصيغة الإفراد ، ولم يقل رسولاً ، لأن الرسول واسطة بين المرسل والمرسل إليه ، سواء أكان مفرداً أو مثنى أو جمعاً

وكلمة ﴿ إِنَّا ﴾ [١٦] [الشعراء] سيقولها موسى وهارون في نفس واحد ، لا ، إنما سيتكلم المقدّم منهما ، وينصت الآخر ، فيكون كمن يؤمن على كلام صاحبه ألا ترى القرآن الكريم حينما عرض قضية موسى وقومه يوضح أن فرعون علا في الأرض واستكبر ، إلخ .

حتى دعا عليهم ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٨٨) [يوس]

هذا كلام موسى - عليه السلام - فرد الله عليه ﴿ قَدْ أَجَبْتُ دُعَوْنَكُمَا ﴾ (٨٩) [يوس] بالمتنى مع أن المتكلم واحد . قالوا : لأن موسى كان يدعو وهارون يؤمن على دعائه . والمؤمن أحد الداعيين ، وشريك في الدعوة

فما مطلوبك يا رسول رب العالمين ؟

﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَ ابْنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ (٩٧)

فالاصل في لقاء موسى بفرعون أن ينقذ بنى إسرائيل من العذاب ، ثم يبلغهم منهج الله ويأخذ بأيديهم إليه ، وجاءت دعوة فرعون للإيمان ونقاشه في ادعائه الألوهية تامة لهذا الاصل

وفي موضع آخر ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَحْذَرِهِمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ .. ﴾ (٩٧) [طه]

إذن فتلوين الأساليب في القصص القرآني يشرح لقطات مختلفة من القصة ، ويوضح بعض جوانبها ، وإن بدا هذا تكراراً في المعنى الإجمالي ، وهذا واضح في قوله تعالى في أول قصة موسى عليه السلام ﴿ فَالْتَعْظُمُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا رَّحِمًا .. ﴾ (٩٨) [القصص] وفي آية أخرى يقول تعالى على لسان امرأة فرعون ﴿ قُرْتُ عَيْنَ

(١) أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة قال : كان موسى إذا دعا أم هارون على دعائه يقول آمين . وأخرج أيضاً عن ابن عباس : دعا موسى وأم هارون . وقوله عكرمة أيضاً فيما أخرجه عنه عبد الرزاق وابن جرير وكذا الشيخ [نقل السيوطي هذه الآثار في الدر المنثور ٢/٢٨٥]

لِي وَلَئِكَ .. ﴿٩﴾ [القصص] وكان الله تعالى يقول ستأخذونه ليكون قرة عين لكم ، إنما هو سيكون عدواً .

والله تعالى يقول ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِحُؤُلُوتِهِمْ بَيْنَ الْمَرءِ وَقَلْبِهِ ..﴾ ﴿٢٤﴾ [الأنفال] ففرعون في حين كس يقتل الأطفال من بني إسرائيل ، ويستحيي البنات ، جاءه هذا الطفل بهذه الطريقة اللافتة للنظر ، فكان عليهم أن يفهموا أن مَنْ أُلْقِيَ فِي التَّابُوتِ وَفِي الْيَمِّ بِالْفَتْحِ ، هو بهدف نجاته من القتل ، فلو كان فرعون إلهاً ، فكيف مرت عليه هذه الحيلة وجازت عليه ؟

وهذا يدل على أن الله تعالى إذا أراد إبطال أمر سلب من دوى العقول عقولهم ، وحال بين المرء وقلبه ، ويدل على غباء قوم ، لأنهم لو تأملوا هذه المسألة لظهر لهم كذب فرعون في ادعائه للوهمية .

فكان رد فرعون على موسى عليه اسلام

﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّنَاكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ﴿١٨﴾

يريد فرعون أن يذكر موسى بما كان من أمر تربيته في بيت لعدة سنوات ، حتى شبَّ وكبر ، وكأنه يُوبِّخه كيف يقف منه هذا الموقف العدائي بعدما كان معه

﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ﴿١٨﴾ [الشعراء] ويقال إن موسى لبث في بيت فرعون حتى سن الثامنة عشرة ، أو سن الثلاثين ، بالمعنى أنه رباه ولبث معه أيضاً عدة سنوات

(١) أي أن الله يملك أن يصرف قلب الإنسان ويغير نيت كما يريد ، فالمرء لا يملك قلبه وإنما الله هو الذي يملك

والمتمأمل في هذه الحجة التي يظنها فرعون لصالحه يحد أنها صده ، وأنها تكشف عن عبائه ، فلو كان إلهاً كم يدعى لعرف أن هلاكه سيكون على يدي هذا الطفل الذي ضمه إليه ورعاه

﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١)

والمراد بالفعل قتل موسى عليه السلام لرجل الذي وكّزه فمات ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٩) [الشعراء] يصح من الكافرين بالوهمية فرعون ، أو من الجاحدين لعهدك عليك وتربيتنا لك^(١) .

لذلك العقلاء يرون أن الإنسان حين يرمى الأولاد ويراهم كم يجب ، فليعلم أنه نوفيقي وعناية من الله تعالى ، بدليل أن الأبناء يُربون في بيئة واحدة ، وربما كانوا توأمين ، ومع ذلك ترى أحدهم صاحباً والآخر طالباً ، فالمسألة عناية إلهية عليا ، وقد التقط أحد الشعراء هذا المعنى فقال

إِذَا لَمْ تُصَابِفْ فِي نَتِكَ عَنَايَهُ فَقَدْ كَذَّبَ الرَّاجِي وَخَابَ الْمُؤْمَلُ
فَمُوسَى الَّذِي رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كَافِرٌ وَمُوسَى الَّذِي رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلٌ
والمراد موسى السامري صاحب العجل ، وقد وضعت أمه في صحراء ومات ، فأرسل الله إليه جبريل عليه السلام يرعاه ويُربيه ولا تأتي هذه المقارفات إلا بعناية الله سبحانه .

(١) ورد في تفسير هذه الكلمة ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٩) [الشعراء] عدة أقوال

- أي في قتلك الفضي ، إذ هو نفس لا يحل قتله قاله الضحاك

- أي بعمتي التي كاذب لنا عليك من التربية والإحسان إليك قاله ابن زيد في أني إلهك قاله الحسن

- من الكافرين بالله ، لأنك كذبت معنا على ديننا هذا الذي نصيحه قاله السدي

أورد القرطبي هذه الأقوال في تفسيره (٤٩٧٢/٧)

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾

يقول موسى عليه السلام أنا لا أنكر أنني قتلتُ . لكنني قتلتُ وأنا من الضالين . يعني . الجاهلين بما يترتب على عملية القتل ، وما كنت أعتقد أبداً أن هذه الوكزة ستقضى على الرجل

كلمة ﴿الضَّالِّينَ﴾ (٢١) [الشعراء] هنا لا تعني عدم الهدى ، فمن هذا المعنى للضلال قتلهم ضلُّ الطريق ، وهو لم يعتمد أن يضل ، إنما تاه رَغْماً عنه

ومنه قوله تعالى في الشهادة ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ (٢٨٢) [البقرة]

وقوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (٧) [الصحرى] أى متحيراً بين البطل الذى يمارسه قومه ، وبين الحق الذى لا يجد له بيئة .

﴿فَفَرَزْتُ مِمَّنْ لَمَّا كَفَمْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا

وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

﴿حُكْمًا﴾ .. (٢١) [الشعراء] أى فى أن أضع الأشياء فى مواضعها . وجاءت هذه الكلمة بعد ﴿فَعَلْتُهَا إِذَا أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٢١) [الشعراء] كأنه يقول أنا وكرتُ الرجل ، هذا صحيح ، فمات ، وهذا خطأ غير مقصود وإننى مظلوم فيه ، لأن الله قد أعطانى حكماً وقدرة لأضع الأشياء فى محلها

(١) قال القرطبي فى تفسيره (١٩٧٢/٧) : كان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطى وبين رجوعه نبياً أحد عشر عاماً غير أشهر .

ليس هذا فحسب ، إنما أيضاً

﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢١)

[الشعراء]

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ (٢٢)

يعنى ما من به فرعون على موسى من قوله

﴿ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِيهَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِيهَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ (١٨) وفعلت فعلتك

[الشعراء]

التي فعلت .. ﴿ ٦ ﴾

كانه يقول له أتمن على بهذه الأشياء ، وتذكر هذه الحسنة ،
وهي لا تساوى شيئاً لو قاربها بما حدث منك من استعباد بنى
إسرائيل وتذبيح أبنائهم^(١) واستحياء نسائهم ، وتسخيرهم فى خدمتك .

وقتل الذكور واستحياء الإناث ، لا يعنى الرافة بهن ، إنما يعنى
لهن الذلة والهوان ، حيث لا تجد المرأة من مصادرها من يحميها أو
يدافع عنها ، فتبقى بعد ارجال فى هوان وذلة فى خدمة فرعون .

ثم يقول الحق سبحانه (٢)

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٣)

يعنى مسألة حديدية هذه التى جئت بها يا موسى ، فمن ربُّ

العالمين الذى تتحدث عنه ؟

(١) قال الضحاك إن الكلام خرج مخرج البكيك والتكيب يكون باستفهام وبقية استفهام ،
والمعنى لو لم تقتل بنى إسرائيل لرباني أبواى ماى تمنة لله علىى فاست تمنى علىى بما
لا يحب أن تمنى به نقله القرطبي فى تفسيره (٤٩٧٤ / ٧)

(٢) استفهامه بـ « ما » استفهاماً عن مجهول من الأشياء قال منكر وغيره كما يستفهم عن
الأجسام فلذلك استفهام بـ « ما » وقد ورد استفهام بـ « من » فى موضع آخر ويشبهه
إنها موسى [قاله القرطبي فى تفسيره ٤٩٧٦ / ٧]

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (٢٤)

لأن السماوات بما فيها من كواكب ونجوم وشمس وقمر وأفلاك وأبراج ، والأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال وتغفار ونبات وحيوان وإنسان قد وجدت قبل أن توجد أنت أيها الإله الفرعون "

إذن ردّ عليه بشيء ثبت في الكون قبل مجيئه ، وقبل مولده وكأن المعنى المراد لموسى عليه السلام أخبرني يا فرعون ، يا من تدعى الألوهية ، ما الذي راد في الكون بالوحيظك له ؟ وإن كان هذا الكون كله بسمائه وأرضه لله رب العالمين ، فماذا فعلت أنت ؟

ولم يقتصر على السماوات والأرض ، وإنما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا ..﴾ (٢٤) [الشعراء] أي من هواء وطير يسبح في الفضاء ، وكانوا لا يعرفون ما نعرمه الآن من أسرار الهواء وانتقال الصوت والصورة من خلاله ، ففي جو السماء فيما بين السماء والأرض من الأسرار ما يستحق التأمل .

ثم يتلطف معهم فيقول ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (٢٤) [الشعراء] يعنى إن كنتم موقنين بأن هذه الأشياء لم يخلقها إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه ذاكراً جدال فرعون ، فقال

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُمْ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٢٥)

يقول فرعون لمن حوله من أتباعه الذين أئروا له بالالوهية ألا تستمعون لما يقول ؟ يعنى موسى عليه السلام . وهذه الكلمة لا نقولها فرعون إلا إذا أحس من قومه ارتياحاً لما قاله موسى من

نَفَى الرُّبُوبِيَّةَ وَالْإِلَهِيَّةَ عَنْ فِرْعَوْنَ وَسَبَّحَهَا اللَّهُ مُعَالَى ، خَالِقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ .

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَنْتَقِرُ مِنْ قَوْمِهِ أَنْ يَتَصَدَّقُوا لِمَا يَقُولُهُ مُوسَى ،
فَيَنْهَرُوهُ وَيُسَكِّتُوهُ ، لَكِنْ لَمْ يَحْدِثْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ
كَانُوا يَتَمَنَّوْنَ أَنْ يَنْتَصِرَ مُوسَى ، وَأَنْ يَنْدَحِرَ فِرْعَوْنُ ، لِأَنَّهُ كَبِتَ
حُرْبَانَهُمْ وَأَرَاءَهُمْ ، كَمَا كَانُوا يَعْرِفُونَ كَذِبَهُ وَيَنْتَقِرُونَ الْحَلَاصَ مِنْهُ
بِدَلِيلٍ مَا حَكَاهُ الْقُرْآنُ عَنِ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ^(١) الَّذِي كَانَ يَكْتُمُ بِإِيمَانِهِ
مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَبِدَلِيلٍ أَذِينَ أَتَوْا فِيمَا بَعْدَ وَحْشَتِهِ لَهُ مَسْأَلَةُ
السَّحَرَةِ وَهُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يُهْزَمَ

وَقَبْلَ أَنْ يَرُدَّ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ بِأَدْرَاهِمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامَ

﴿ قَالَ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾

هَذَا يَنْقُلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِرْعَوْنَ مِنَ الْجَوِّ الْكَوْنِيِّ الْمَحْصِيطِ بِهِ
فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَى ذَاتِ نَفْسِهِ ، يَقُولُ لَهُ إِنَّ لَكَ آتَاءَ
قَبْلَ أَنْ تُوَلَّدَ ، وَقَبْلَ أَنْ تَدْعَى الْإِلَهِيَّةَ فَمَنْ كَانَ رَبَّهُمْ ؟
فَلَمَّا ضَيَّقَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْخَنَاقَ عَلَى فِرْعَوْنَ أَرَادَ أَنْ
يُخْرِجَ مِنْ هَذَا الْجَدَلِ وَهَذِهِ الْمُنَاطَرَةِ الْحَاسِرَةِ مَقَالَ مُحَاوَلًا إِنْقَادَ
مَوْفَقِهِ

﴿ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾

(١) قَالَ تَعَالَى ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا بِهِدْمُكُمْ يَهْدِيكُمْ أَلَدَى بَعْدِكُمْ ﴾ (٢٠) [عَاهِدْ] وَمَا مَعَهَا مِنْ آيَاتٍ

وهذه العبارة من فرعون تمضح المتكلم بها ، فقد شهد لموسى بأنه رسول ، وخافه لفظه من حيث لا يدري

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا يَسْتَهْمَانِ أَنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢٨)

يرد موسى عليه السلام بحجة أخرى ، لكن يختمها هذه المرة بقوله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢٨) [الشعراء] وقد قال في سابقتها ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ (٢٤) [الشعراء] كأنه يقول لفرعون ما دام قد وصل بك الأمر لأن تقهمني بالجنون فلن أقول إن كنتم موقنين ، إنما إن كنتم تعقلون ، فجاء بمقابل الجنون

فإنهى فرعون هذا النقاش ، ويأتي بملاصة الأمر كما يرى فيقول

﴿ قَالَ لَيْنِ أُتِّخِذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (٢٩)

وهذا من فرعون إفلاس في الحجة ، ولر كان عنده رد لما يقوله موسى لرد عليه ، ولقد رجح الحجة بالحجة ، لكنه تقوى على خصمه بأن هذبه بالسجن والإبعاد ، وكان المسجون عندهم يظل في السجن حتى الموت

ولم يذاع فرعون في هذه المسألة لناس من حوله ، أن يكتشفوا هذا الإفلاس ، وهذا لحقق في رده

١ قال ﴿ لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (٢٩) [الشعراء] ولم يقل لاسجينك مع نه أحصر منه لم ؟ قال أمر بمعى ركزيا الانصارى في كتابه « فتح الرحمن يكشف ما يتبس في القرآن » ص ٢٩٩ « لإرادة تعريف العهد ، أى لِأَجْعَلَكَ مِنْ عَوَلَتْ حَالَهُمْ فِي سَجْنٍ ، وكان إنا سجين إنساناً طرحه في هوة عميقة مظلمة ، لا يُبصر فيها ولا يسمع »

ويُخَرِّمُ موسى عليه السلام ما معه من الآيات . ويستمر في
الجدل وإظهار الحجة

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾

يعنى ، يا لم تقتنع بكل حجج السابقة ، فهل لو جئتكم بآية
واضحة دالة على صدق رسالى ، أنجعلنى أيضاً من المسجودين ؟

﴿ قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾

انظر إلى تعارض فرعون مع نفسه ، فكان عليه ساعة أن يسمع
من موسى هذا الكلام أن يُصر على سجنه لكن لحق - فمارك
وتعالى - يريد أن يظهر حجته ، فيجعل فرعون هو الذى يطلبها
بمنه ﴿ قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾ [الشعراء] وما كان
لموسى أن يأتى بآية إلا أن يطلبها منه فرعون .

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾

إلقاء العصا له فى القرآن ثلاث مراحل الأولى هى التى واكبت
اختيار الله لموسى ليكون رسولا ، حين قال له ﴿ وَمَا تَلَّكَ بِمِمْسِكَ
يَمُوسَى ﴾ [طه] وقلنا إن موسى عليه السلام أطال فى جابة
هذا السؤال لحرصه على إطالة مدة الأثر بالله - عز وجل - فقال
﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَيُفِيهَا مَأْوًى
أُخْرَى ﴾ [طه]

(١) هش الشجر يهشه - صرجه بعضا ليسقط ورقه لتأكله العاشية والمعنى أى اسقط
بعضاى لوراق الاشجار على غنمى لتأكلها [القاموس القويم ٢/٣١٢]

فالعصا في نظر موسى - عليه السلام - عود من الخشب قريب عهد بأصله ، كتصن في شجرة . لكنها عند الله بها قصة أخرى ﴿ قَالَ أَتَقْنَأُ يُنْمُو سَى (١٩) فَأَلْقَاهَا إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) ﴾ [طه]

وما صارت العصا عصاً لا بعد أن قُطعت من شجرتها ، وفقدت الحياة النباتية ، وتحولت إلى جماد ، فلو عادت إلى أصلها وصارت شجرة من جديد لكان الأمر معقولاً ، لكنها تجاوزت مرتبة النباتية ، وتحولت إلى الحيوانية ، وهي المرنقة الأعلى ، لذلك فزع منها موسى وخاف فطمأنه ربه

﴿ قَالَ خُذْهُ وَلَا نَحْفُ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا لِأُولَى (٢١) ﴾ [طه]

وكانت هذه المرة بمثابة تدريب لموسى عليه السلام ، ليألف العصا على هذه الحالة ، وكأن الله تعالى أراد بموسى أن يُجسري هذه المجربة أمامه ، ليكون على ثقة من صدق هذه الآية ، فإذا ما جاء بقاء فرعون ألقاه دون خوف ، وهو واثق من نجاحه في هذه الحولة

إذن كان الإلقاء الثاني لعصا أمام فرعون وحاصته ، ثم كان الإلقاء للمرة الثالثة أمام السحرة

ومعنى ﴿ تُعْبَانُ مُبِينٌ (٣٦) ﴾ [الشعراء] يعنى بين الثعبانية ، فيه حياة وحركة ، وقال ﴿ تُعْبَانُ مُبِينٌ (٣٧) ﴾ [الشعراء] يعنى واضح للجميع لأنهم كانوا يُجيدون هذه المسألة وَيُحِيلُونَ للناس مثل هذه الأشياء ، ومصلحونها تسعى وتتحرك ، ولم تكن عصا موسى كذلك ، إنما كانت ثعباناً مبيناً واضحاً وحقيقياً لا يشك في حقيقته أحد

والمتتبع للقطات المختلفة لهذه الحادثة في القرآن الكريم يجد

السياق يُسمِّيها مرة ثعباناً ، ومرة حية ومرة جاناً^(١) لماذا ، قالوا لأنها جمعت كل هذه الصفات فهي في حفة حركتها كأنها جان ، وفي شكلها المربع كأنها حية ، وفي القلوي كأنها ثعبان ، والجان فرخ الحية .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَكَادَ هِيَ بَيْضَاءُ لِلَّسَطِرِينَ ﴾ (٢٢)

هنا يتكلم عن نزع اليد ، لأنه قال في آية أخرى ﴿ اسْتَكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ^(٢) تَخْرِجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ . ﴾ (٢٢) [القصص] وهكذا تتكرر لقطات القصة الواحدة ، والتي يظنها البعض تكراراً ، وببست هي كذلك .

﴿ وَنَزَعَ .. ﴾ (٢٣) [الشعراء] يعني : أخرج يده ﴿ فَكَادَ هِيَ بَيْضَاءُ لِلَّسَطِرِينَ ﴾ (٢٣) [الشعراء] مع أن موسى عليه السلام كان آدم اللون يعني فيه سُمْرة ، ومع ذلك خرجت يده بَيْضَاءَ ، له شعاع وبريق يأخذ بالابصار

وبمقارنة هذه الآية بآية سورة القصص نجد أنه حذف من آية سورة الشعراء الجيب ، وهو فتحة الثوب من أعلى ، لا الجيب المتعارف عليه ، والذي يصنع فيه البقود مثلاً ، وكأولاً في العاصي

(١) وصفها بأنها - ثعبان في آيتين (الأعراف ١٠٧) ، (الشعراء ٢٢)

حية في آية واحدة (هـ ٢)

- جان في آيتين (النحل ١) (القصص ٢١)

(٢) جيب القصيص ما يفتح ما على الصدر أي من أعلى الثوب وجمع جيب

[القاموس القويم ١/ ١٢٨] فكانت يده تخرج تلالاً كأنها قطعة قمر في لسان البرق

من غير برق - غير مرص جلدي

يجعلون الجيب بداخل ملابس الإنسان ، ليكون في مأس فإذا أراد الإنسان شيئاً فيه مدّ يده من خلال الفتحة العليا للثوب ، فسُميت جيباً .

﴿ قَالَ لِلْعَلَاءِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣٦)

العلاء هم عليّة القوم ، الذين يملأون العيون ، ويتصدّرون المجالس ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣٦) [الشعراء] فاتهمه بالسحر ليخرج من ورطته وقال ساحر لأن موسى لم يمارس هذه العمالة إلا مرة واحدة هي التي أحراها أمام فرعون ، لكن العلاء على علم بالسحر وإلف له ، وعندهم سحارون كثيرون

وفرق بين ساحر وسحار ساحر لمن مارس هذه العملية مرة واحدة ، إنما سحار مبالغة تدل على أنها أصبحت حرفة ، مثل باحر ونجار ، وخائط وخياط

و ﴿ عَلِيمٌ ﴾ (٣٦) [الشعراء] أي بسحره

﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾

﴿ يَسْخِرُهُ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (٣٥)

هنا يستعدى فرعون قومه على موسى ، ويحذرهم أنه سيفسد العامة والاهماء ، وتكون له الأعطية ، وتكون به شيعة يناصرونه عليكم حتى يُخرجكم من أرضكم ، وهذا أقل ما يُنتظر منه ، يريد أن يهيج عليه الملأ من قومه ، ليكونوا أعداء به يقفون في صف فرعون .

وعصيب أن يقول الفرعون الإله ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (٣٥) [الشعراء] فهذه هي الألوهية الكاذبة التي انحدرت إلى مرببة العبيد ، ومنى يأخذ

الإله رأى عبيده ، ويطلب منهم المعونة والمشورة ، ولو كان إلهاً بحق كان عنده الحل ولديه الردّ

فما نزل فرعون من منزلة الألوهية ، وطلب لاستعانة بالملا من قومه التفتوا إلى كذبه ، ووجدوا الفرصة مواتية للخلاص منه ، مما يدل على أن أكثرهم وجمهرتهم كانوا يجارونه على مضمحل وينتظرون لحظة الخلاص من قهره وكذبه ، لذلك قالوا

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ (٢٦)

﴿ أَرْجِهْ .. ﴾ [الشعراء] من الإرجاء وهو التأخير أى أخره وأخاه لمدة ﴿ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ [شعراء] ابعث رسلهم يجمعون السحاريين من أنحاء البلاد ليقتبلوا بسحرهم موسى وهارون والمدائن جمع مدينة

﴿ يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سَحَارٍ عَلِيمٍ ﴾ (٣٧)

وقال ﴿ سَحَارٍ ﴾ [الشعراء] بصيغة المبالغة ﴿ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء] أى يفنون السحر والأعجب السحرة

﴿ فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴾ (٣٨)

المِيقَاتِ أى ابوعت المعلوم ، وفى آية أخرى ﴿ قَالُوا مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الرِّينَةِ .. ﴾ (٥٩) [طه] وكان يوماً مشهوراً عندهم ، ترتدى فيه الميتات أبهى حُلّها ، وكان يوم عيد يختارون فيه عروس النيل لتى سبّلنّ قلوبها فيه ، فحدد اليوم ، ثم لم يتبرك اليوم على إطلاقه ، إنما حدد من اليوم وقت الصبح ﴿ وَأَنْ يَحْشُرَ النَّاسُ صَحَى ﴾ (٥٩) [طه]

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١٥٦، ٢) : أى سحرة من النهار لتكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح .

وفى لقطة أخرى حدد المكان ، فقال ﴿مَكَانًا سُرًى﴾ [طه]
يعنى فيه سريّة ، إما باستواء المكان حتى يتعكّن الجميع من رؤية
هذه المباراة السحرية ، بحيث تكون فى ساحة مستوية الأرض أو
يكون مكاناً سواسية متوسطاً بين لعدائى التى سيجمع منها السحرة ،
بحيث لا يكون متطرفاً يشقّ على بعضهم حضوره

وهكذا تتكاثف اللقطات المختلفة ترسم الصورة الكاملة للقصة
ونرى فى هذه المشورة حرص الملاء على إتمام هذا اللقاء وأن
يكون على رؤوس الأشهاد ، لأنهم يعلمون أنهم ستكون لصالح
موسى ، وسوف يفضح هذا اللقاء كذب فرعون فى ادعائه الألوهية

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾
﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾

أى أخذوا يدعون انفس ، وكانهم فى حملة دعاية وتأيد ، إما
لموسى من أنصاره الكارهين لفرعون فى الحفاء ، وإما لفرعون ،
فكان هؤلاء وهؤلاء حريصين على حضور هذه المباراة

إننا نشاهد الجمع الغفير من الجماهير يتجمع لمشاهدة مباراة فى
كرة القدم مثلاً ، فما بالك بمباراة بين سحرة من يدعى الألوهية
وموسى الذى جاء برسالة جديدة يقول : إن له إلهاً غير هذا الإله ،
إنه حدث هز الدنيا كلها ، وحذب الجميع لمشاهدته .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿فَمَاجَأَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَخْرَ
إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾

فانضر إلى مسيرة إله فرعون في رعيته ، فالإله الحق يُطعم
ولا يُطعم ، ويجير ولا يُجار عليه ، الإله الحق يعطي ولا يأخذ ، ولما
اجتمع السحرة وهم أبطال هذه المباراة ، ويعلمون مدى حاجة فرعون
إليهم في هذا الموقف ، لذلك بادروا بالاتفاق معه والاشترط عليه
إن كنت تُسخر الناس في خدمتك دون أجر ، فهذه امسألة تختلف ،
ولن يمر هكذا دون أجر

ومذا نلن على معرفتهم بفرعون ، وأنه رجل (أكلتي) ، لذلك
اشترطوا عليه أجراً إن كنوا هم الغالبين ، ولا تدري غربما جاء
آخر يهدد هذه الألوهية ، فمن نذرهم لمثل هذا الموقف

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ١٤ ﴾

ها يتنازل فرعون عن تعاليه وكبريائه ويذعن لشروط سحرته ،
بل ويزيدهم فوق ما طلبوا ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ١٤ ﴾ [الشعراء]
فسوف تكونون من خاصتنا ، نستعين بكم في مثل هذه الأمور ،
ولا نستغنى عنكم ، لأنكم الذين حافظتم على باطل الرهيتنا

﴿ قَالَ لَهُمُ مُوسَى الْقَوْمَ مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ١٥ ﴾

ها كلام محذوف ، نعرفه من سياق القصة ، لأن الآية اسابقة
كان الكلام ما يزار بين فرعون والسحرة ، والقرآن يحذف بعض
الأحداث اعتماداً على فطنة السامع أو القارئ ، كما قلنا في قصة
الهدد مع سيدنا سليمان ، حيث قال له ﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِ
إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَرَوْا غَنَمَهُمْ لَا نَفَرٌ مِّنْهَا إِذْ يَرْجَعُونَ ٢٨ ﴾ [النمل]

ثم قال بعدها ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَإِنَّي أُنْزِلَ إِلَيْي كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾^(٢٩) [المر] وحذف ما بين هذين الحديثين مما نعلمه نحن من السياق

وقوله ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾^(٣٠) [الشعراء] هذه هي العاية التي انتهى إليها بعد المحاورة مع السحرة

﴿فَالْقَوَاعِبُ آلِهَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾^(٣١)

فكانت العصي والحبال هي آلات سحرهم ﴿وقالوا بعزة فرعون إِنَّا
لَحَنِ الْعَالِينَ﴾^(٣٢) [الشعراء] بعزة فرعون هذا قسمهم ، وما أحبه
من قسم ؛ لأن فرعون لا يُغْلَب ولا يُقهر في نظرهم ، وسبق أن
أوضحنا أن العزة تعني عدم الفهر وعدم الغلبة ، لكن عزة فرعون عزة
كاذبة رانفة وكبرياء بلا رصيد من حق ، وعزة بالإثم كاتى قال الله
عنها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾^(٣٣) [البقرة]
وقال تعالى ﴿صَ وَالْقُرْآنِ دى الذِّكْرِ﴾^(٣٤) بل الذين كفروا في عزة
وشقاق^(٣٥) [مر] أى عزة بإثم ، وعزة بباطل

ومنه أيضاً قوله تعالى عن المنافقين ﴿لئن رجعنا إلى المدينة
ليُخرجنُ الأعْرُ مِنْهَا الْأَدْلُ﴾^(٣٦) [المنافقون] فصديق القرآن على قولهم

(١) نفس بكرمه : من رآته من عجيب كبر طائر جاء به ليل الله إليها ثم تولى عنها آتياً
وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك [تفسير ابن كثير ٣/٣٦١] ، وقال القرطبي في
تفسيره (٧٤/٧) : وصفه بذلك لما تضمن من لبس القول والموحظة في الدعاء إلى
عبادة الله عز وجل وحسن الاستعطاف من غير أن يتضمن سباً ولا لعناً ولا ما يقدر النفس
، ومن غير كلام نابت ولا مستغلق على عادة الرسل في الدعاء إلى الله .

بأن الأمر سيُخرج الأذلّ ، لكن ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .
(٨)﴾ [السامقور]

وما دام الأمر كذلك فأنتم الأذلة ، وأنتم الخارجون ، وقد كان .
ويقال إن أدوات سحرهم وهي العصي والحبال كانت مُجسّنة
وقد ملئوها بالرنيق ، فلما ألقيوها في ضوء الشمس وحرارتها أخذت
تتلاعب ، كأنها تتحرك ، وهذا من حيل لسُحرة والأعبيهم التي تُخيل
للأعين وهي غير حقيقية ، فحقيقة الشيء ثابتة ، أما المسحور فيُخيل
إليه أنها تتحرك
ثم يقول الحق سبحانه

﴿فَالْتَمَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٤)

ولم يأت إلقاء موسى عليه لسلام لعصاه مباشرة بعد أن ألقى
السحرة ، إنما هنا أحداث ذكرت في آيات أخرى ، وفي لقطات أخرى
للقصة ، يقول تعالى ﴿فَإِذَا حَبَالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يَخِيلُ إِلَيْهِمْ سِحْرُهُمْ أَنَّهَا
تَسْفَىٰ﴾ (٦٦) [طه]

﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَىٰ﴾ (٦٧) ﴿فَلَمَّا لَا تَخِفْ بِكَ أَلَيْتَ الْأَعْلَىٰ
(٦٨) وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَعُرُوا إِنَّمَا صَعُرُوا ..﴾ (٦٩) [طه]

هكذا كانت الصورة ، فلما حاف موسى ثُقتة ربه ، وأيده بالحق
وبالحجة ، وتابعه فيما يفعل لحظة بلحظة ، ليوجهه ويعدّ سلوكه ،
ويشدّ على قلبه ، وما كان الحق - تبارك وتعالى - ليرسله ثم يتخطى
عنه ، وقد قال له ربه قبل ذلك ﴿وَلَصَصِعَ عَلَىٰ عِيسَىٰ﴾ (٣٩) [طه]
وقال ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمِعْ وَأَرْئِي﴾ (٤٦) [طه] فالحق سبحانه يعطي نبيه
موسى الأوامر ، ويعطيه الحجة لتنفيذها ، ثم يتابعه بعنايته ورعايته

ومن ذلك قوله تعالى لنبيه نوح ﴿واصنع الفُكَّ باعِينَا وَوَحِينَا ..

﴿٣٧﴾ [هود]

فحينما تجمع هذه اللفظات تجدها تستوعب الحدث ، ويكمل بعضها بعضاً ، وهذا يظنه البعض تكراراً ، وليس هو كذلك .

إذن جاء إلقاء موسى لعصاه بعد توحيه جديد من الله أثناء المعركة ﴿وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ ..﴾ [١٦] ﴿طه﴾ وهذا ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء] ومعنى ﴿تَلْقَفُ﴾ [٤٥] ﴿الشعراء﴾ تبتلع وتلتهم في سرعة وقوة ، ما السرعة واختصار الزمن والقوة ، فتدل على الأحذ بشدة وعنف ، وفي هذا دليل على أنه خاض المعركة بقوة ، فلم تضعف قوته لما رأى من 'لا عيب السحرة

ومعنى ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ [٤٥] ﴿الشعراء﴾ من الإفك يعني قلب الحقائق ، لذلك سموا الكذب إفكاً ، لأنه يقلب الحقيقة ويغير الواقع ومنها ﴿وَأَلْمُؤْتِفِكَةُ أَهْوَى﴾ [٥٣] ﴿النجم﴾ وهي القرى ' الظالمة التي أهلكها الله ، فجعل عاليها سافلها

وسبق أن أوضحنا أن الكذب وقلب الحقائق يأتي من أنك حين تتكلم ، فللكلام سبب ثلاث نسبة في الدُّهر ونسبة على اللسان ، ونسبة في الواقع فإن طابقت النسبة الكلامية الواقع ، فأنت صادق ، وإن خالفته فأنت كاذب

(١) يعني مدائن قوم لوط قلبها عليهم فحصر عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود قال قتادة كس في مدائن قوم لوط أربعة آلاف إنسان (يعني ٤ ملايين) قاسمهم عليهم الرأس شيئاً من نار ولفظ وقطران كقم الآتون [تفسير ابن كثير

وَسَيِّ ما يَفْعَلُهُ السَّحَرَةُ [مكا] ، لَانَهُمْ يُفَيِّرُونَ الْحَقِيقَةَ ، وَيُخَيِّلُونَ
لِلنَّاسِ غَيْرَهَا

﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴾ (٤٦)

لَمْ يَقُلِ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ فَسَجَدَ السَّحَرَةُ ، إِنَّمَا ﴿ فَأَلْقَى لِسُحْرَةٍ
سَاجِدِينَ ﴾ (٤٦) [الشمر] وَالْإِلْقَاءُ يَدُلُّ عَلَى سُرْعَةٍ لاسْتِجَابَةٍ ، وَأَنَّ
السَّحَرَةَ تَمُّ مِنْهُمْ دُونَ تَفَكُّيرٍ ، لِأَنَّهُ أَمْرٌ فَوْقَ إِرَادَتِهِمْ ، وَكَأَنَّ جَلَالَ
الْمَوْقِفِ وَهَيْبَتَهُ وَرَوْعَهُ مَا رَأَوْا أَلْقَاهُمْ عَلَى الْأَرْضِ سَاجِدِينَ لِلَّهِ ،
صَاحِبِ هَذِهِ الْآيَةِ الْبَاهِرَةِ ، لِذَلِكَ لَمْ يَقُولُوا عِنْدَهَا أَمَّا رَبُّ مُوسَى
وَهَارُونَ ، إِسْمًا قَالُوا ،

﴿ قَالُوا أَمَّا نَبُزُ رَبِّ الْمَلَكِينَ ﴾ (٤٧)

﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (٤٨)

وَحِينَئِذٍ تَنَاقَلَ رَدُّ فَعَلِ السَّحَرَةِ هَذَا فَجَدَّ أَنَّهُمْ حَرَّوْا لِلَّهِ سَاجِدِينَ
أَوَّلًا ، ثُمَّ أَعْلَنُوا إِيمَانَهُمْ ثَانِيًا وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِيمَانَ يَسْبِقُ الْعَمَلَ ، وَأَنَّ
السَّجُودَ لَا يَتَأْتِي إِلَّا بَعْدَ إِيمَانٍ ، فَكَيْفَ ذَلِكَ ؟

قَالُوا هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ وَقُوعِ الْإِيمَانِ ، وَبَيْنَ أَنْ تُحْصِرَ أَنْتَ عَنْ
الْإِيمَانِ فَالْمُتَأَخِّرُ مِنْهُمْ لَيْسَ الْإِيمَانُ بَلْ الْإِخْبَارُ بِهِ ، لِأَنَّهُمْ مَا سَجَدُوا
إِلَّا عَنْ إِيمَانٍ وَاثِقٍ يَنْجِسِي مَعَهُ كُلَّ شَكٍّ ، إِيمَانٍ خَطَفَ أَلْبَابَهُمْ وَأَلْقَاهُمْ
عَلَى الْأَرْضِ سَاجِدِينَ لِلَّهِ ، حَتَّى لَمْ يَمْهَلَهُمْ إِلَى أَنْ يَعْلَنُوا عَنْهُ ، لَقَدْ
أَعَادَهُمْ إِلَى الْفُطْرَةِ الْإِيمَانِيَّةِ فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَالْمَسَائِلِ الْفُطْرِيَّةِ
لَا عِلَاجَ لِلْفِكْرِ فِيهَا .

وكان سائلاً سألهم لم تسجدون ؟ قالوا ﴿أَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
(٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ [الشعراء]

وقالوا رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ بعد رب العالمين ، يقطعوا الطريق
على فرعون وأتباعه أن يقول مثلاً : أنا رب العالمين ، فازلوا هذا
البئس بقولهم ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (٤٨) [الشعراء]

ومثال ذلك فون بلقيس عندما رأت عرشها عند سليمان - عليه
السلام - بم ثقل أسلمت لسليمان ، إنما قالت ﴿أَسْلَمْتُ مَعَ مَلِكِنَا
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٩) [النمل] فأما رأيت مسلمان لإله واحد هو الله رب
العالمين وهكذا يكون إسلام الملوك ، وحتى لا نضن أحد أنها إنما
خسعت لسليمان ، لذلك احتاطت في لفظها لتزيل هذا الشك

﴿قَالَ ءَأَمِنْتُ لِمَنْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ
لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْمَلُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَ بَنَاتِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٠)

إنن فهو لا يشك في أن ما رآه السحرة موجب للإيمان ، ولا
يشك في ذلك ، لكن المسألة كلها ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ..﴾ (٤٩)
[الشعراء] فما يزال حربصاً على الوهميه وجبروته ، حتى بعد أن كشف
أمره وظهر كذب ، وأمس العلاء بالإله الحق

ثم أراد أن يبرر موقفه بين دهمياء العامة حتى لا يقوب أحد إنه
هزم وضاعت هيئته ، فقال ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ..﴾
(٥٠) [الشعراء] في حين أن القوم يعلمون أن موسى عليه السلام
م يجلس طيلة عمره إلى ساحر ، لكن فرعون يأخذها ذريعة ، لينقد
ما يمكن إنقاذه من مركزه الذي نهزم ، والوهميت لتي صاعت

ثم يهددهم بأسلوب يسم عن اضطرابه ، وأنه فقد توارثه واختل
 حتى في تعبيره ، حيث يقول ﴿لَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ..﴾ [الشعراء]
 وسوف تدل على المستقبل مع أنه لم يؤخر تهديده لهم بدليل أنه قال
 بعدها ﴿لَأَقْطَعُ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ لِأَصْلَابِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٤٩]
 [الشعراء] ﴿مَنْ خِلَافٍ ..﴾ [٤٩] [الشعراء] يعنى اليد اليمنى مع الرجل
 اليسرى ، أو اليد اليسرى مع الرجل اليمنى .

وقوله ﴿وَأَصْلَابَكُمْ ..﴾ [٤٩] [الشعراء] أوضحه فى آية أخرى
 ﴿وَأَصْلَابَكُمْ فِي جَذُوعِ النَّخْلِ ..﴾ [٧١] [طه]

فماذا كان جواب المؤمنين برب العالمين ؟

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُتَقَبِّلُونَ﴾ [٥]

أى لا ضرر علينا إن قُتِلنا ، لأن مصير الجميع إلى الموت ،
 لكن إن كانت نهايتنا على يدك فسوف نسعد نص بقاء ربنا ،
 وتشقى أنت مجزاء ربك كالطاعية الذى قال لعدوه لاقتلتك
 فصحك ، فقال له أتسحر منى وتصحك ؟ قال وكيف لا أضحك
 من أمر تفعله من يسعدنى الله به ، وتشقى به أنت ؟

إذن لا ضرر علينا إن قُتِلنا ، لأننا سنرجع إلى الله ربنا ،
 وسنخرج من الوهية باطلة إلى لقاء الالهية الحققة . فكأنك فعلت فينا
 جميلاً ، وأسديت لنا معروفاً إذ أسرعت بنا إلى هذا اللقاء ، وما تظنه
 من حقد شر هو عين الخير ، لذلك فهم الشاعر هذا المعنى ، فقال
 عن

وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَىٰ أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِي

يعنى ما دُمْتُ قَدْ مِتُّ فِى سَبِيلِ الْإِسْلَامِ ، فَلَا يُهِمُّ بَعْدَ ذَلِكَ
وَلَا أَيْلَى أَيْ مَوْتَهُ هِىَ .

وَالْمُؤْمِنُونَ هِىَ حَرِيصُونَ عَلَى أَمْرَيْنِ الْأَوَّلِ مَقَى الضَّرَرِ ، لِأَنَّ
دَرءَ الْمَفْسَدَةِ مُقَدَّمٌ عَلَى جَلْبِ الْمَصْلَحَةِ ، وَالثَّانِى التَّأَكُّيدُ عَلَى النِّزَعِ
الَّذِى سَيُنَالُونَهُ مِنْ هَذَا الْقَتْلِ
ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا

أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾

لَأنَّكَ أَكْرَهْتُمْ عَلَى السَّحَرِ ، وَحَمَلْتُمْ عَلَى الْكُذْبِ ، وَمَكُنَّا عَمْرًا
نَعْتَقِدُ أَنَّكَ إِلَهٌ . فَلَعَلَّ مَبْدَرَتَنَا إِلَى الْإِيمَانِ وَكُونُنَا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ يَشْعُرُ
لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا ، فَيَغْفِرُ لَنَا خَطَايَانَا ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ ﴿ إِنَّا مَا بَرَيْنَا
لِنُغْفِرَ لَنَا خَطَايَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ .. ۝٧٣﴾ [طه]
فَذَكَرَ هُنَاكَ مَسْأَلَةَ الْإِكْرَاهِ وَذَكَرَ هُنَا الْعِلَّةَ ﴿ أَنْ كُنَّا أَوَّلَ
الْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾ [الشعراء]

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ۝٥٦﴾

قُلْنَا الْوَحْيَ لِقَةِ إِعْلَامٍ بِخَفَاءٍ وَشَرْعًا إِعْلَامٍ مِنْ اللَّهِ لِرَسُولٍ
مِنْ رُسُلِهِ يَمْهِّجُ حَبْرَ لِحَافِهِ

(١) سَرَى يَسْرِى سَارَ لَيْلًا وَأَسْرَى بِهِ جَعَلَهُ يَسْرِى أَوْ حَمَلَهُ عَلَى السَّيْرِ لَيْلًا [لِقَامُوسِ
الْقَوِيمِ ٣١٢/١] قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ هِىَ تَصْبِيرُهُ (٢٢٥/٢) ، كَانَ خُرُوجُهُ بِهِمْ فِيمَا ذَكَرَهُ
عَبْرَ رَاحِدٍ مِنَ الْمُفْسِرِينَ وَتَبَّ طُلُوعُ الْقَمَرِ ، وَذَكَرَ مُعَاوِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ كُتِبَ الْعَمْرُ ثَلَاثَ
الْأَلْفَةِ فَهَلْكَ أَعْلَمُ .

ومن الوحي المطلق قوله تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ..﴾ (٦٨) [النحل]

وقوله سبحانه ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ..﴾ (٦٩) [الأنعام]

وقوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (٧) [التقصير]

فالرحى العام إنس لا نسل عن الموحى ، أو الموحى إليه ، أو موضوع الرحي ، فقد يكون الوحي من الشيطان ، ولموحى إليه قد يكون الأرض أو الملائكة و الحيوان على خلاف الوحي الشرعى ، فهو محدد ومعلوم

لقد قام فرعون بحملة دعاية لهذه المعركة مع موسى - عليه السلام - وحشد الناس لمشاهدة هذه العبارة ، وهذا دليل على أنه قدر أنه سيغلب ، لكن خيب الله ظنه ، وكانت الجولة لمصلحة موسى عليه السلام ، فأمن لسحرة بالله تعالى رب موسى وهارون ، فنخذ يهددهم ويتوعددهم ، وهو يعلم أن ما رأوه من الآيات الباهرات يستوجب الإيمان

ومع ذلك لما غلب فرعون وضاعت هيئته وجباريته وقاهرته سكنت جمهور الناس ، فلم ينادوا بسقوطه ، واكتفوا بسماع أخبار موسى ، وطل هذا الوضع لمدة طويلة من الزمن حدث فيها الآيات التسع التي أنزلها الله ببني إسرائيل

ومن عباء فرعون أن يصرف عن موسى بعد أن أصبح له أتباع وأبصار ، ولم يحاول التخلص منه حتى لا يرداد أعباءه وتقوى

شوكته ، فكان مسألة الآيات التسع التي أرسلها الله عليهم قد هدّت كيانه وشغلته عن التفكير في أمر موسى عليه السلام

وهكذا استشرى أمر موسى وأصبحت له أغلبية وشعبية ، حتى إن الأقباط^(١) أتباع فرعون كانوا يعطفون على أمر موسى وقومه ، لذلك استعاروا من القبط حليّ النساء قبل الخروج مع موسى ، ومن هذه الحلي صمغ السامري العحل الذي عدوه فيما بعد

وهنا يقول تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴾ [الشعراء] وقبرك بئيه ربه للخروج بعد أن قتل الرجل ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْتَفِي قَالَ يَمْحُوسِي إِنَّ أَمَلًا يَأْتِمُرُونَ بِكَ لَيَقْتُلَنَّكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكُ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [التقصير]

أما الآن ، فالمؤامرة عليه وعلى من معه من المؤمنين . ومعنى ﴿ أَسْرِ... ﴾ [الشعراء] الإسراء المشى ليلاً ﴿ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴾ [الشعراء] يعنى سيتبعكم جنود فرعون ويسيدون خلفكم ثم يقول للحق سبحانه

﴿ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾

﴿ وَلَهُمْ لَنَا الْعَاطُوتُونَ ﴾

(١) القبط جيل بمصر وقيل هم أهل مصر ويُنكها (أصلها) ورجل قبطي والقبطيّ تيات كمن بيض رفاق تُعمل بمصر وهي منسوبة إلى القبط [لسان العرب - مادة قبط] والقبط هم أهل مصر من قبل موسى طبعه سلام ومن قبل أن تدخل مصر من المسيحية ، والقبط جنس ليس مرتبطاً بالديانة
(٢) الشِرْذِمَةُ الجماعة القليلة من الناس [لسان العرب - مادة شربم] قل القرطبي من تفسيره (٤٩٧١/٧) « روى أن بني إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً والله أعلم بصحته »

القاء هذا للتعقيب ، فَوَحَى اللهُ لِمُوسَى أَنْ يُسْرِىْ مِنْهُ إِسْرَائِيلَ ثُمَّ
قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، وَكَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْتَاطُ
لِنَبِيِّهِ مُوسَى لِيُخْرِجَ قَبْلَ أَنْ يَهْبِيجَ فِرْعَوْنَ النَّاسَ ، وَيَجْمَعَهُمْ ضِدَّ
مُوسَى وَيُجْرِيْ لَهُمْ مَا يَسْمِيهِ بَحْنُ الْآنَ (عَسَلٌ مَح) ، أَوْ يَعْلَنَ عَلَى
مُوسَى وَقَوْمِهِ حَرْبَ الْأَعْصَابِ الَّتِي تَوَثِّرُ عَلَى خُرُوجِهِمْ

و ﴿ حَاشِرِينَ (٥٧) ﴾ [الشعراء] مِنْ الْحَشْرِ أَيْ الْجَمْعِ ، لَكِنْ جَمَعَ
هَذِهِ الْمَرَّةَ لِلْجُنُودِ لَا لِلْحَشَرَةِ ، لِأَنَّهُمْ هُزِمُوا فِي مُبَارَاةِ السِّحْرِ ،
فَارَادُوا أَنْ يَسْتَخْدِمُوا سِلَاحًا آخَرَ هُوَ سِلَاحُ الْجَبَرُوتِ وَالتَّسْلُطِ وَالحَرْبِ
العَسْكَرِيَّةِ ، فَإِنْ هَشَلَتِ الْأَوَّلَى فَلَعَلَّ الْآخِرَى تَفْلُحُ ، لَكِنْ الْحَقُّ - تَبَارَكَ
وَتَعَالَى - أَحْبَبَ نَبِيَّهُ مُوسَى بِمَا بُدِّرَ لَهُ وَأَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ بِمَنْ إِسْرَائِيلَ

وَقَوْلُ فِرْعَوْنَ عَنْ أَتْبَاعِ مُوسَى ﴿ إِنْ هَؤُلَاءِ شِرْكَائِي فَلْيُلَاحِظُوا
(٥٨) ﴾ [الشعراء] يَرِيدُ أَنْ يَهْوَنَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَيُفَرِّقَ قَوْمَهُ بِهِمْ ،
وَيُشْجِعَهُمْ عَلَى مُوَاجَهَتِهِمْ ، لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ يُحَذِّرُهُمْ مِنْ خَطَرِهِمْ فَيَقُولُ
﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَاظِمُونَ (٥٩) ﴾ [الشعراء] مَأْعَدُوا لَهُمُ الْعِدَّةُ ، وَلَا تَسْتَهَيِّنُوا
بِأَمْرِهِمْ

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) ﴾

بَعْنَى لَا بُدَّ أَنْ مَأْخُذَ حَاذِرُنَا وَنَمْتَنَاهُ لِلْأَمْرِ .

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) ﴾

وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) ﴿

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ كَانَتِ الْجِبَاتُ بِحَافِي السَّيْلِ فِي الشَّقْنَيْنِ جَمِيعًا مِنْ أَسْوَأِ إِلَى

رَشِيدٍ ، وَبَيْنَ الْجِبَتِ دَرُوعٌ [تَفْسِيرُ الْفَرَطِيِّ ٤٩٨/٧]

أى لم يَنْفَعِهِ احتياطه ، ولم يُجِدْ حدره ، فلا يمنع حَذَرٌ من قَدَرٍ ﴿فَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ .. (٥٧)﴾ [الشعراء] أى يسابين وحدائق ﴿وَعُيُونٍ (٥٧)﴾ [الشعراء] أى عيون تجري بالماء ﴿وَكُنُوزٍ (٥٨)﴾ [الشعراء] كنز عندهم ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨)﴾ [الشعراء] يعنى عيشة مُتَرَفَةٍ فى سَعَةٍ ورَعْدٍ من الحياة ، وحدم وحشَمٍ
ثم يقول الحق سبحانه

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٥٩)

﴿كَذَلِكَ .. (٥٩)﴾ [الشعراء] أى الأمر كما أقول لكم ركب وصفتُ ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ (٥٩)﴾ [الشعراء] أى أورثنا هذا النعيم من بعدهم لبني إسرائيل ، وهذا قد بسأل سائل كيف وقد برك بنو إسرائيل مصر وخرجوا منها ، ولم يأخذوا شيئاً من هذا النعيم ؟
قالوا المعنى أورثهم الله أرضاً مثلها ، فد وعدهم بها فى الشام^١

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ (٦٠)

أى عند الشروق ، وعادة ما تكون الغارة على الحيش عند الصباح ، ومن ذلك قوله تعالى
﴿فَإِذَا فُزِلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُسْلِمِينَ (٦٧)﴾ [الصفافات]
وعادة ما يقوم الإنسان من النوم كسولاً غير نشيط فكيف بمن
هذه حاله إن النقى معدوه ؟

١ قال القرطبي فى تفسير هذه الآية (٤٩٨٤ / ٧) « يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أورثه الله بني إسرائيل قال الحسن وغيره رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه وقيل أراد بالورثة هنا ما استعاروه من خلق آل فرعون بأمر الله تعالى »

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ ﴿٦١﴾ ﴾

معنى ﴿ تَرَأَى الْجَمْعَانِ .. ﴾ [الشعراء] ٦١ أى صدر كل منهما يرى الآخر ، وحدثت بينهما المواجهة ، وعدّها ﴿ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ ﴾ [الشعراء] ٦١ فالحال أن البحر من أمامهم وجبود مرعون من خلفهم ، فلا مناص ولا مهرب ، لكن موسى - عليه السلام - وقد سبق أن تعلم كلمة (كلا) من ربه تعالى ، حينما قال ﴿ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذُنُوبٍ فَأَحَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء] ٦٤ فرأى عليه ربه ﴿ كَلَّا ﴾ [الشعراء] ٦٢ عندها تعلّمها موسى ، وعرف كيف ومتى يقولها قوله الواصل به

﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء] ٦٣

نكن كيف يقول موسى عليه السلام هذه الكلمة (كلا) بملء فيه ، والأمر بقانون الماديات أنه عرضة لأن يُدرك قبل أن يكملها ؟ والإجابة في بقية الآية ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء] ٦٣ فلم يقل موسى كلا اعتماداً على قوته واحتياطه للأمر ، إنما قالها اعتماداً على ربه الذي يكلّزه بعينه ويحرسه بعنايته

فالواقع أني لا أعرف ماذا أفعل ، ولا كيف أتصرف ، لكن الشيء الذي أثق منه ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء] ٦٣ لذلك يأتى المرح والخلص من هذا المأزق مباشرة

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَصْرِبْ يَعْصَاكَ الْبَحْرُ فَانْفَلَقَ

فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء] ٦٤

ذلك لأن البحر هو عائقهم من أمامهم ، والبحر مياها لها قانونها الخاص من لاستطراق والسيولة . فلما ضرب موسى بعصاه البحر انفلق وانحصر الماء على الجانبين ، كل فريق - أى كل جانب - كالطود يعنى الجبل العظيم

لكن بعد أن صار الماء إلى صُدّه ونحَمَد كالجبل ، وصنع بين الجبلين طريقاً ، أليس فى قاع البحر بعد انحصر الماء طين ورواسب وأوحال وطمى يغمس فيها الإنسان ؟

ننّا نشاهد الإنسان لا يكاد يستطيع أن يقلّ قدماً إذا سار فى وحل إلى ركبتيه مثلاً ، فما بالك بوحل البحر ؟

لذلك قال له ربه ﴿لَا تَخَافُ دُرُكًا وَلَا يَخْشَى (٧٧)﴾ [طه]

فالذى جعل لك الماء جبلاً ، سيجعل لك الطريق يابساً

والحق - تبارك وتعالى - لم يُبين لنا فى انفلاق البحر ، إلى كمّ فلفة انفلق ، لكن العلماء يقولون إنه انفلق إلى اثنتى عشرة فلفة بعدد الأسباط^(١) ، بحيث يمر كل سبط من طريق

وفى لقطة أخرى من القصة راد موسى - عليه السلام - أن يضرب البحر مرة أخرى بعود إلى طبعته ، مسدّد الطريق فى وجه فرعون وجنوده على حدّ تفكيره كبشر ، لكن الحق - تبارك وتعالى - بهام عن ذلك ﴿فَأَسْرَ بِعُودِ لَيْلٍ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ (٢٣) وَتَرَكْنَا الْبَحْرَ رَهْوًا^(٢) إِنَّهُمْ جُندٌ مُّزْفُوتُونَ (٢٤)﴾ [الدخان]

(١) قاله ابن عباس فيما نقله عنه ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٣٦) ، وأوردته السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٠٣ - ٣٠٤) - من أثر طويل عزاه لابن عبد الحكم فى « فتوح مصر » من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس

(٢) أى أتروك البحر ساكنة أمواجه ليعثروا ليهزلوا فيه ، أو كن ساكن النفس هادئاً مطمئناً إلى الدجاة [العاموس القويم ١/٢٧٩ ينصرف]

أتركه على حاله ليُغري الطريق اليابس فرعون وجنوده ، لذلك قال
سبحانه

﴿وَأَرْفَعْنَاهُمُ الْآخِرِينَ﴾ (٦٤)

أى قَرَّبْنَاهُم من منتصف البحر ، ثم أطلقه الله عليهم حين أمر
الماء أن يعود إلى سيوله وقانون استنراقه ، وهكذا بُنِجى الله ونُهِلك
بالشيء الوحيد و ﴿الآخِرِينَ﴾ [الشعراء] يعنى قوم فرعون ، و
﴿ثُمَّ ..﴾ [الشعراء] أى هناك وسط البحر

والعصا مع موسى - عليه السلام تاريخ طويل منذ أن سأل
ربه ﴿وما نلّك بيمينك بموسى﴾ [طه] فأخبر بما يعرفه عنها
﴿قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غمى ..﴾ (٦٨) [طه]
وقوله ﴿أهش بها على غمى ..﴾ (٦٨) [طه] لا تعنى كما يظن
البعض أنها مجرد الإشارة بها إلى الغم أو ضربها ، فأهش تعنى
أصرب بها أوراق الشجر لتتساقط ، فتأكلها الأغنام الصغار التى لا
تصل أوراق الشجر ، أو الكبار التى أكلت ما طالته أعناقها ونحتاج
المزيد

ولما وجد موسى نفسه قد أطل في هذا المصام قال ﴿ولى فيها
مأرب أخرى﴾ (٦٨) [طه] كأن أدافع بها عن نفسى ليلاً ، ن تحرم من
كلب أو دئب مثلاً أو أعرضها فى لارض وألقى عليها بثوبى لاستظل
به وقت انقيلولة ، أو أحطها على كتفى وأعلق عليها متاعى حين
أسير ، إلخ .

هذه مهمة العصا كما يراه موسى - عليه السلام - لكن للعصا
مهمة أخرى لا يعلمها ، هى حُجَّتْه وآية من الايات التى أعطاها الله

فيها انتصر في معركة الحجة مع السحرة ، وبها انتصر في معركة السلاح حين ضرب بها البحر فانقلب

ومن العجيب في أمر العصا أن يضرب بها البحر ، فيصير حبلاً ، ويضرب بها الحجر فيفسجج باسماء ، وهذه آيات باهرات لا يقدر عليها إلا الله عز وجل

لذلك جعلوا عصا موسى حجة ودليلاً وعلماً على الانتصار في كل شيء ، فلما كان الحصيب^(١) وائياً على مصر ، وتمرد عليه بعض قُطَّاع الطرق وكانت لديه القوة التي قهرهم بها ، لذلك قال

قَبْرُ بَكِّ بَاقٍ إِفْكُ فِرْعَوْنَ فَيْكُمُ فَإِنَّ عَصَا مُوسَى بَكْفُ خَصِيبٍ

وفي هذا المعنى يقول شاعر آخر

إِنَّا جَاءَ مُوسَى وَأَلْقَى الْعَصَا فَقَدْ بَطُلَ السُّحْرُ وَلَسَّاحِرُ

إبر صارت عصا موسى عليه السلام مثلاً وعلماً للفكرة في أي مجال من مجالات الحياة

﴿وَأَبْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ٦٥﴾

فقد حُسمت هذه المعركة لصالح موسى ومن معه دون إراقة دماء ، ودون خسارة حندي واحد ، في حين أن المعمارك على مرضى الانتصار مهما لا بُدَّ أن تكون لها نسبة حسب أثر هي الأرواح وهي العتاد ، أما هذه فلا

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ٦٦﴾

(١) جاء في لسان العرب - مادة حصب - الحصيب لقب رجل من العرب

أى بنفس السبب الذى أنجى الله به موسى وقومه أهلك فرعون وقومه ، لانه وحده سبحانه القادر على أن يُنجى ، وأن يُهلك بالشئ الواحد

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٧)

قوله سبحانه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ .. (٦٧)﴾ [الشعراء] أى فيما حدث ﴿لَآيَةً .. (٦٧)﴾ [الشعراء] وهى الأمر العجيب الذى يخرج عن امالوف وعن العادة ، ميثير إعجاب الناس ، ويستوجب الالتفات إليه والنظر فيه ، والآية تُقنع العقل بأن الله هو مُجربها على بَدَى موسى ، وتدل على صدق رسالته وبلاغه عن الله ، وإلا فهى مسألة فوق طاقة البشر

ومع ذلك ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٧) [الشعراء] أى أن المصلحة النهائية للذين آمنوا كانوا هم القلة^(١) مع هذه الايات ، حتى الذين آمنوا مع موسى عليه السلام واتبعوه وأنحاهم الله من آل فرعون ومن العرق ، سرعان ما تراجعوا وانكسروا كما يحكى القرآن عنهم ﴿وَحَاوِزًا بِهِي إِسْرَائِيلَ الْيَحْرُفَاتُوا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا بِمُوسَى جَحَلَ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. (٦٨)﴾ [الأعراف]

سبحان الله ، لقد كفروا بالله ، وما تزال أقدامهم مُسْتَلَّة من عبور البحر ، وما زالوا فى نشوة النصر وفرحة الغلبة ٢

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٦٨)

أى بعد ما مر من حثثات فإن الله تعالى هو العزيز ، أى الذى

(١) قال القرطبي فى تفسيره (١٩٨٦/٧) : لانه لم يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن كل فرعون واسمه خرقيل ، وابنته آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت دا موسى العجوز التى دُلَّتْ على قبر يوسف الصديق عليه السلام ،

لا يُغْلَب ولا يُفْهَر ، إنما هو الغالب وهو القاهر ، فهو سبحانه يغلب ولا يُغْلَب ، ويُطْعَم ولا يُطْعَم ، وَيُجِير ولا يُجَار عليه . ومع عرته سبحانه وقونه بحيث يغلب ولا يُغْلَب هو أيضاً ﴿الرَّحِيمَ (٦٨)﴾ [الشعراء] لأنه رب الخلق أجمعين ، برحمهم إن تابوا ، ويقبلهم إن رجعوا إلى صاحبه ، كما جاء في الحديث الشريف :

« لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاصطلم فى ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطمها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح »^(١) .

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾

جاءت هذه الآية بعد الانتهاء فى إيجاز مُبسَّط لقصة موسى عليه السلام مع فرعون وختعت بقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)﴾ [الشعراء] ثم تكلم الحق سبحانه عن نبيه إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الشعراء] مما يدل على أن المسألة فى القرآن ليست سرّاً للتاريخ ، فإبراهيم كان قبل موسى ، ولو أردنا التاريخ ل جاءت قصة إبراهيم أولاً ، إنما الهدف من القصص فى القرآن التقاط مواضع اعبرة والعظة واتخاذ الأسوة من تاريخ الرسل ، ليثبت الله بها فؤاد رسوله ﷺ حينما يواجه لأحداث الشاقة والعصية

والمعامل فى رسالة موسى ورسالة إبراهيم عليهما السلام

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أس بن مالك روى الله عنه

يحد أن موسى جاء ليعالج مسألة هي قمة العقيدة ، ويواجه من دعى الألوهية وقال إني إله من دون الله ، أما إبراهيم فقد عالج مسألة الشرك مع الله وعبادة الأصنام ، فعندهم طَرَف من إيمان بدليل أنهم إذا ضيقت عليهم الخناق قالوا ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (٣) [الذمر]

لذلك كانت قصة موسى أولى بالتقديم هنا

ومعنى ﴿ وَاْتَلُ عَلَيْهِمْ ﴾ [الشعراء] أى اقرأ ، أو وضّح ، أو عبّر ، ونقول للقراءة (تلاوة) لأنه لا يُقَالُ إلا المكتوب المعلوم المفهوم ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ [الشعراء] على أمة الدعوة كلها ، أم على المكذبين خاصة ؟

قالوا على المكذبين خاصة ، لأن المصدقين مرسل الله لا يحتاجون هذه التلاوة ، وإن تُلِيتُ عليهم فإنما التلاوة للتذكرة أو لعلم التاريخ إذن المراد هنا المكذّبون المنكرون ليعلموا أن نهاية كل رسر الله فى دعوتهم البصر والغلبة ، وأن نهاية المكذّبين المخالفين الهزيمة والاندحار

فكان القرآن يقول لهم لا تغتروا بقوتكم ولا بجاهكم ولا تتخذعوا بسيادتكم على العرب ، ومعلوم أن مكانة قريش بين العرب إنما أخذوها من خدمة بيت الله الحرام وما أُمنُوا فى طرق تجارتهم إلا بقداسه بيت الله وحرمت

ولولا البست ما كان لقريش كل هذه المكانة ، بدليل قوله تعالى ﴿ لَا يَلْفَافُ قُرَيْشٌ (١) رِجَالُهُمْ رَحَلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ (٢) [قريش]

ولو انهدم البيت فى قصة الفيل ما كان لقريش سيادة ولا سيطرة

على الجزيرة العربية . وما دام أن الله تعالى فعل معهم هذا ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْسَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴿ [قريش]
ومعنى ﴿ بَأْ .. ﴾ (٥) [الشعراء] أى الخبر الهام الذى يجب أن يُقال . ويجب أن يُنصت له ، وإنْ تَوَحَّدَ منه عبْرَة وعظة ، فلا يُقال (بَأْ) للخبر العادى الذى لا يُؤبَهُ له

ولو تتبعت كلمة (بَأْ) فى القرآن لوجدتها لا تُقال إلا للأمر الهام كما فى قوله تعالى ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٦) عَنْ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٧) ﴿ [النبأ]
وقوله تعالى فى قصة سليمان عليه السلام والهدد ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ (٨) ﴿ [النمل]

إس ﴿ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٩) [الشعراء] يعنى الخبر الهام عنه وإبراهيم هو أبو الأنبياء الذى مسحه ربه مدحاً عظيماً فى مواضع عدة من القرآن . يقال الحق سبحانه عنه ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ (١٠) ﴿ [الحجر]

والأمة لا تُطلق إلا على جمعة تنسب إلى شئ خاص ويجمعهم مكان وزمان وحال . كذلك رسول الله ﷺ ، فقد أوصى الله عليه كمالات من صفات كماله لا يستطيع بشر أن يتحملها

لذلك جاء فى الحديث الشريف « الحيرُ فى وفى أمتى إلى يوم القيامة » (١١)

١ ، القنوت : مطاعة . وقال تعالى ﴿ كُلُّ مَنْ قَانَتُوا ﴾ (١٢) [الروم] أى خاصعون محبرون بغيريته مطيعون [التامرس القويم ١٣ / ٢]
٢ ، قال العجلوني فى كشف المصاب (١٧٦ / ١) . قس فى المقاصد قال شيخنا لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . يعنى فى حديث لا يزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة . وقال ابن حجر المكي فى الفتاوى الحديثية لم يرد بهذا اللفظ ،

الحير في حصره ، الخير على عمره ، وفي كل جوانب شخصيته داعية وأباً وروحاً .. الح وحصال الحير من شجاعة ، وحلم ، وعلم ، وكرم .. إلخ وكذلك الخير في أمته مشهور بين أفرادها ، يأخذ كل منهم من الحير نظرف ، وله منه نصيب ، لكن لا أحد يستطيع أن يجمع الكمال المحمدي أبداً ، ولا أن يتصف به

كذلك كان سيدنا إبراهيم عليه السلام (أمة) ، لأن خصال الخير تُوزع على أفراد الأمة هذا ذكي وهذا حليم ، وهذا عالم ، وهذا حكيم الخ أما إبراهيم - عليه السلام - فقد جمع من الحير ما في أمة بأكملها ، وهذا ليس كلاماً يقال في مدح نبي الله إبراهيم ، إنما من واقع حياته العملية .

واقراً إن شئت قوله تعالى عن إبراهيم . ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ ۞ ﴾ [البقرة] وحسب إبراهيم - عليه السلام - من لخير هذه الدعوة ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ۚ ۞ ﴾ [البقرة]

فكان محمد ﷺ دعوة أبيه إبراهيم

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ ﴾

فأول دعوته كانت لأبيه ، وأقرب الناس إليه لا للعريب ، والدعوة التي توجه أولاً للعريب لا مد أنها دعوة حق ودعوه حير ، لأن الإنسان يحب الخير أولاً لنفسه ، ثم لأقرب الناس إليه ، ولو كانت في خيريتها شك مقصد بها الغرباء والأبعد عنه

والمراد بأبيه هو (آزر) الذي ورد ذكره في موضع آخر .

وسؤاله لأبيه وقومه ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٧٠) [الشعراء] سؤال استهجان واستنكار ، وسؤال استدلال ليظهر لهم بطلان هذه العبادة ، لأن العبادة أن يطيع العابد المعبود فيما أمر وفيما نهى ، فالدين يعبدون الأصنام بماذا أمرتهم وعم نهتهم ؟

إذن فهي آلهة دون مبهج وما أسهل أن يعبد الإنسان مثل هذا الإله الذي لا يأمره بشيء ، ولا ينهاه عن شيء ، وكذلك هي آلهة دون جزاء ودون حساب ، لأنها لا تثيب من أطاعها ، ولا تعاقب من عصاها

إذن ، فكلمة عبادة هنا خطأ ، ومع ذلك يُسميها الناس آلهة ، لماذا ؟ لأن الإله الحق له أوامر لا بد أن تُنفذ ، وإن كانت شاقة على النفس ، وله نواه لا بد أن تترك وإن كانت النفس تشتهيها ، فهي عبادة شاقة ، أما عبادة الأصنام فما أسهلها ، فليس عندها أمر ولا نهى ، وليس عندها منهج يُنظم لهم حركة الحياة ، لذلك تمسك هؤلاء بعبادة الأصنام ، وسموها آلهة ، وهذا خيل واضح

كما أن الإنسان في مجال العبادة إذا عزت عليه أسباب الحياة وأعيتته الحيل ، أو خرجت عن طاقته ، عندها يجد له ربا يلجأ إليه ، ويستعين به فيقول يا رب فمادا عن عابد الأصنام إذا تعرض لمثل هذه المسائل ؟ هل يتوجه إليها بالدعاء ؟ وهب أنه يدعو إسانا مثله يمكن أن يسمعه ويستجيب له ؟

لذلك يقول سبحانه ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُنُّهَا عَاقِبِينَ﴾ (٧١) قال هل يسمعوكم إذ تدعون (٧٢) أو يفعوكم أو يصرون (٧٣) [الشعراء]

إذن فعبادة غير الله حُقق وغباء

لكن ماذا البحث من إبراهيم ، وهذا الجذر مع أبيه وقومه ، أكان بعد الرسالة أم قبلها ؟ قالوا إن إبراهيم عليه السلام كان باصبجا متفتحا منذ صغره ، وكان منكرا لهذه العبادة قبيح أن يُرسر ، لذلك قال الله عنه ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (٥١) ﴿

وكذلك كان نبينا محمد ﷺ قبل بعثته كارها للأصنام ، معترضاً على عبادتها ، يتعجب حين يرى قومه يعبدونها ، وقد رأى ﷺ أحد الآلهة وقد كُسر ذراعاه فاسعاهوا بمن يصلح ذراع الإله ، فضحك رسول الله ﷺ وتعجب لما يرى العابد يصلح المعبود ؟ بعدها اعتزلهم رسول الله ، وحاً إلى لعار يفكر في الإله الحق والمعبود الحق

فكان أي دين يأمر الله به لو تفكر فيه الإنسان برشد لانتهى إلى الحق بدون رسول ، لأن دين الله هو دين الفطرة السليمة ، فلما توقفت لدى الإنسان هذه الفطرة اهتدى بها إلى الحق

بدليل ما كان يحدث من عمر - رضى الله عنه - وكان يحدث رسول الله بالأمر عتزل به الآيات من عند الله ، وقد وافقت الآيات رايه في أكثر من موقف^(١) ، وقد أقر رسول الله ﷺ ذلك ليبين لنا أن العقل السليم والعصمة المستقيمة يمكن أن يبنيا إلى قصايا الدين دون رسول

(١) من هذه المواقف أنه لم كان يوم بدر قال ﷺ ما تقولون من مؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر يا رسول الله قولي وأهلك استغفهم واستنتهم لعل الله أن يتوب عليهم وقال عمر يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاصوب اعتانهم فوجد رسول الله ﷺ برأي أبي بكر بالعداء ، ولكن قول الله ﴿ م كاذب كبير ﴾ أن يكون له أسرى حتى يشحن في الأرض نريهون عرض الدنيا والله نزيه الآخرة والله عزيز حكيم ﴾ [الأنفال] انظر تفسير ابن كثير (٢ / ٢٢٥)

وتستطيع أنت أن تعرض أي قضية من قصايا الدين على العقل السليم وسوف تجد أنها صيبة وجميلة توافق الذوق السليم والتفكير السري ، فالكذب مثلاً خُلق يأباه العقل ويأباه الدين ، وكذلك الرشوة ، لأنك بها تأخذ ما ليس لك ، وقد يُسلط عليك رأس ، فيأخذ منك حَقك ، كما أخذت أنت حقوق الناس

ولو تأمل العقل مثلاً تحريم النظر إلى المحرمات ، لوحد أن الدين قيّد نظرك وأنت فرد وقيد من أجلك نظر الناس جميعاً ، فكما طلب منك طلب لك ، وكذلك الأمر في تحريم السرقة والقتل . إلخ

وقد سألنا في إحدى الرحلات عن قومه تعالى . ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينٍ لِحَقٍّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ ﴾ [التوبة] ومرة يقول : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة] ومرة يقول : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة]

يقولون وبعد أربعة عشر قرناً ، والمسلمون في الكون أقلية ، ولم يظهر الدين على الدين كله ، فكيف إذن - نفهم هذه الآية ؟

فعلتُ للسائل لو فهمت الآية السابقة لعرفت الجواب ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة]

فالمعنى أن الدين سيظهر في وجود الأديان الأخرى ، وليس المراد أن هذه الأديان ستزول ، ولن يكون لها وجود ، بل هي موجودة ، لكن يظهر عليها الإسلام ظهور حجة ، بتدليس ما يراه من هجمات على الإسلام وأحكامه وتشريعاته ، كما في مسألة الطلاق مثلاً ، أو مسألة تعدد الزوجات وغيرها وبعد ذلك تُكجّتهم الحياة الاجتماعية إلى هذه التشريعات ، ولا يجدون غيرها لحل مشاكلهم

وبما قامت الثورة الشيوعية في روسيا سنة ١٩١٧ أول ما شرعوا بمعوا الرب لدى كان جثراً عندهم ، لقد معوا الرب مع أنهم غير مسلمين ، لكن مصالحهم في ذلك ، فهذه وأمثالها غيبة لدين الله وظهور له على كل الأديان

وبير معنى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (٣٣) ﴿[التوبة] أن يصير الناس جميعاً مؤمنين ، لا ، إنما يظل كل على دينه وعلى شركه أو كفره ، لكن لا يجد حلاً لقضاياه إلا في الإسلام ، وهذا أوقع في ظهور الدين .

ثم يقول الحق سبحانه عن قوم إبراهيم في ردهم على إبراهيم عليه السلام

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُنُّهَا عَاقِبَتُنَا﴾ (٧١)

إذن شهد شاهد من أهلها ، وقالوا بأنفسهم ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا ..﴾ (الشعراء) والعبادة طاعة فماذا قالت لهم الأصنام ؟ وبماذا امرتهم ؟ طبعاً ، ليس عندهم جواب .

وليت الأمر يقف عند العبادة ، إنما ﴿نَظُنُّهَا عَاقِبَتُنَا﴾ (٧١) ﴿[الشعراء] أي قائمين على عبادته ليل نهار ، نعم ولكم حق ؛ لأنها آلهة دون تكليف ، وعبادة بلا مشقة وبلا التزام ، إنها ملطجة تأخذون فيها حظاً أنفُسكم ، وتفعون معها ما تريدون

لكن ، كيف جادلهم إبراهيم عليه السلام ؟ وبم رد عليهم ؟

﴿قَالَ هَلْ يُسْمِعُوكُمُ إِذْ تَدْعُونَ﴾ (٧٢)

﴿أَوْ يَنْفَعُوكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ (٧٣)

فَالْأَصَامُ لَا تَسْمَعُ مَنْ تَوَجَّهَ إِلَيْهَا بِالدَّعَاءِ ، وَلَا تَنْفَعُ مَنْ عَيْدَهَا ،
وَلَا تَضُرُّ مَنْ كَفَرَ بِهَا ، لِذَلِكَ لَمْ يَجْسُوا رَبَّكَ ، وَحَارُوا جِوَانًا ،
وَلَمْ يَهْدُوا حُجَّةً إِلَّا أَنْ قَالُوا

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٧٤)

إِذْ أَنْتُمْ لَمْ تُحْكَمُوا عُقُولُكُمْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، كَمَا قَالُوا فِي مَوْضِعٍ
آخَرَ ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ (٧٣) [الزحرف]
وَنَقُولُ لَهُمْ . وَمَتَى ظَلَلْتُمْ عَلَى تَقْلِيدِ آبَائِكُمْ فِيمَا يَفْعَلُونَ ؟ إِيكُمْ
لَوْ أَقْبَضْتُمْ عَلَى تَقْلِيدِ الْأَبَاءِ مَا ارْتَقَيْتُمْ فِي حَيَاتِكُمْ أَبَدًا ، فَلَمَّاذَا إِذْ
تَحَرَّصُونَ عَلَى التَّقْلِيدِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِالذَّاتِ دُونَ غَيْرِهَا .

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ (٧٥)

أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴾ (٧٦)

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِيَ الرَّبِّ الْعَلِيمِ ﴾ (٧٧)

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا تَلْقُوا بِالْمَسْأَلَةِ عَلَى الْأَبَاءِ ،
وَلَا تُعَلِّقُوا عَلَيْهِمْ أَخْطَاءَكُمْ ، ثُمَّ يَعْلَنُهَا صَرِيحَةً مُحْصِيَةً كَأَنَّهُ يَقُولُ
لَهُمُ الْحَجَرَةُ فِي خَيْلِكُمْ لِرُكْبِهَا

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي .. ﴾ (٧٧) [الشعراء] وَكَلِمَةُ عَدُوٍّ جَاءَتْ مُفْرَدَةً مَعَ
أَنَّهُ مُسَبَّوْقَةٌ بِضَمِيرٍ جَمْعٍ وَتَعُودُ عَلَى جَمْعٍ ﴿ فَإِنَّهُمْ .. ﴾ (٧٧) [الشعراء]
وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَقُلْ : أَعْدَاءُ لِي . قَالُوا لِأَنَّ الْعَدَاوَةَ فِي أَمْرِ الدِّينِ وَاحِدَةٌ
عَلَى خِلَافِ الْعَدَاوَةِ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا ، لِأَنَّهَا مُتَعَدِّدَةٌ الْأَسْبَابُ ، كَمَا جَاءَ
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِكُمْ ﴾ (١٠٣)

فَجَاءَتْ ﴿ أَعْدَاءُ ﴾ (١٠٣) [آل عمران] هُنَا جَمْعٌ ، لِأَنَّهَا تَعُودُ عَلَى

عداوة الدنيب ، وهي متعددة الأسباب ، أما العداوة في الدين فواحدة
على قلب رجل واحد

ومن ذلك ما قلناه في سورة النور عند قوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى
الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ
أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ .﴾ (٦٦) [النور]
كلها بصيغة الجمع إلا في ﴿صَدِيقِكُمْ .﴾ (٦٧) [المود] جاءت
بصيغة المفرد ، لأن الصداقة الحققة هي ما كانت لله غير متعددة
الأعراض ، فهي إذن لا تتعدد

وفي إعلان إبراهيم لعبادته لهدم الأصنام تعدد لهم فيها إذا
أعلن عداوتي لهم . فإن كانوا يقدرُونَ على مضرَّتِي فليفعلوا . وبعد
أن أعلن إبراهيم - عليه السلام - عداوته للأصنام نجحت دعوته ،
وظل إبراهيم هو إبراهيم لم يُصب شيء .

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨)

﴿الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ (٧٩)

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٨٠)

كان الحق - تبارك وتعالى - يقول لهم يا أغبياء ، اعلموا أن
للعبادة أسباباً وحيثيات ويوضح إبراهيم عليه السلام حيثيات عبادة
ربه - عز وجل - فيقول - ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨) [الشعراء] أي
خلقني من عدم ، وأمدني من عدم ، وجعل لي قانون صيانة يحفظ
حياي ويصمن سلامتي حين كلفتني بشرعه افعل كذا ولا تفعل كذا .
وهو سبحانه لا ينتفع بشيء من هذا ، بل النفع يعود علينا نحن . وهل
فعلت الأصنام بكم شيئاً من هذا ؟ إذن فهو وحده المستحق للعبادة

وقوه سبحانه ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨) [الشعراء] أى بقانون احيائه الذى يشبهه (الكتالوج) اذى يجعله البشر لمصاعاتهم ، ليضمنوا سلامها وأداءها لمهمتها على أكمل وجه ، ولا بُدَّ أن يحدّد لها المهمة قبل أن يشرع فى صنعائها ، وهى رأينا آلة صنعها صاحبها ، ثم قال لنا انظروا فى أى شىء تستخدم هذه (بوتاجار) أو ثلاجة مثلاً ؟

بإذا ما حدث خلل فى هذه الآلة ، فعليك بالنظر فى هذا (الكتالوج) أو أن تذهب بها إلى المهندس المختص بها ، لذلك إذا أردت أن تأخذ قانون صيانتك ، فلا تأخذه إلا من صانعك وحالفك - عز وحس - ولا يجوز أن يخلق الله تعالى وتضع أنت لخلقة الله قانون صيانتها ، فهذا مثل أن تقول للجزار مثلاً اعمل لى قانون صيانة (التليفزيون)

ثم يذكر بعد ذلك مقومات استبقاء الحياة ، فيقول ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِى﴾ (٧٩) وإذا مرضت فهو يشفين ﴿﴾ [الشعراء]

ونقف هنا عند الضمير المنفص (هو) الذى جاء للتوكيد ، والتوكيد لا يأتى ابتداءً ، إنما يكون على درجات الإمكان ، وقد أكد الحق - تبارك وتعالى - سبب الهداية والإطعام والسقي والشفاء إليه تعالى ، لأن هذه المسائل الأربع قد يدعيها غيره تعالى ، وقد يطرأ البعض أن الطبيب هو الشافى أو أن الأب مثلاً هو الرارق لأنه الجالب له والمندول .

والهداية قد يدعيها واصعو القوايين من البشر ، وقد رأينا الشيوعية والرأسمالية والوجودية والبعثية وغيرها ، وكلها تدعى أنها لصالح البشر ، وأنها طريق هدايتهم ، بذلك أكد الله تعالى لنفسه هذه المسألة ﴿الَّذِى خَلَقَنِى هُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨) [الشعراء] فالهداية لا تكون إلا من الله وفى شرعته تعالى

وقد تسأل في قوله تعالى . ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٨٠) ﴿ [الشعراء] ولما نذا نذهب إلى الطبيب إذن ؟ نقول الطبيب يعالج ، وهو سبب للشفاء ، أما الشفاء فمن الله ، بدليل أن الطبيب ربما يمرض ، ويعجز هو عن شفاء نفسه ، وقد يعطى المريض حقنة ويكون فيها جفنه .

وحين تُعرب ﴿ مَرِضْتُ ﴾ . (٨٠) [الشعراء] نقول مرض فعل ماضٍ والتاء ماعل ، فهل أنا الذي فعلتُ لمرض ؟ وهذا مثل أن تقول مات فلان . ففلان ماعل مع أنه لم يحدث الموت ، لذلك يجب أن ننته إلى أن الفاعل يعني مَنْ فعل الفعل ، أو اتصف به ، والفاعل هنا لم يفعل الفعل وإنما اتصف به . وقال ﴿ مَرِضْتُ .. ﴾ (٨٠) [الشعراء] تأدياً مع الله تعالى فلم يقل أمرضني وسبب المرض الظاهر إلى نفسه

أما في المسائل التي لا يدعيها أحد . فتأتى بالفعل دون تأكيد ، كما في الآية بعدها

﴿ وَالَّذِي يُمَيِّنُ تُرَّ يُحْيِي ۖ ﴾ (٨١)

فلم يقل هنا هو يميتني أو هو يُحييني ، لأن الحياة والموت بيده تعالى لا يدعيها أحد ، فإن قلت وماذا عن قتل الإنسان لغيره ألا يعدُّ موتاً ؟ وقد سبق أن أوضحنا الفرق بين الموت والقتل ، بدليل قوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ فَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَبَضَ عَنْ أَغْصَانِكُمْ .. ﴾ (١٤٤) [آل عمران]

فالموت أن تخرج الروح . والجسم سليم الأجزاء كامل الأعضاء ، وبعد خروج الروح تنقص البنية ، أما القتل فيكون بنقص السية نقصاً يترتب عليه خروج الروح

إبن الموت لم يدَّعه أحد لنفسه . ولما ادعاه انمرود جأله إبراهيم - عليه السلام - فى ذلك ، وكشف ذيف هذا الادعاء ، كما قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَمَا أُحْيِى وَأُمِيتُ .. ﴾ (٢٥٨) [البقرة]

ولم يفعل ، لا أن جاء برجل فامر بقتله ، ثم عفا عنه ، لذلك رأى إبراهيم عليه السلام أن يقطع عليه هذا الطريق ، فقال ﴿ هَإِنِ اللَّهُ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. ﴾ (٢٥٨) [البقرة]

وهكذا أنهى هذه السفسطة ، وكشف حقيقة هذا المكابر المعاند وتامل حرف العطف ﴿ يَحْيِى ثُمَّ يُمِيتُ ﴾ (٨١) [الشعراء] و(ثم) تفيد العطف مع التراخى ولم يقل ويحيين ، لأن الواو تفيد مُطلق العطف ، وبين الموت والإحياء الآخر مسافة طويلة ، ألا ترى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أُنشِرَهُ ﴾ (٢٢) [عيس]

﴿ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٨٤)

عجيب أن يصدر هذا الدعاء من إبراهيم ، وما أدراك ما إبراهيم ، إنه أبو الأنبياء الذى وصفه ربه بأنه أمة قائماً لله . ولم يكن من المشركين ، إبراهيم الذى انتلاه ربه بكلمات فآتمهن ، ومع هذا كله

(١) قرأ الحسن وابن أبي إسحاق - خطابى - وقال ليست خطيئة واحدة قال مجاهد يعنى بخطيئته قوله ﴿ لِيُفْعَلَ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ (١٦٦) [الأنبياء] ، وقوله ﴿ إِنْ مَعَكُمْ شَايئٌ مِنْهُ ﴾ [الصافات] وقوله إن سارة أخته راد الحسن وقوله للركب ﴿ هَذَا رَبِّى ﴾ (١٧٧) [الأنعام] وقال الزجاج الأنبياء بشر فيجوز أن تقع منهم الخطيئة ، نعم لا يجوز عليهم الكبائر لأنهم معصومون عنها [تفسير القرطبي ٧/٤٩٩]

يقول ﴿أُطْمِعْ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٢) [الشعر]

إنه أدب عال مع الله وهضم عمله ، لأن الإنسان مهما قدم من الحير فهو دون ما يستحق الله تعالى من العبادة ، لذلك كان طلب المغفرة من الطمع

ويجب أن ينظر هذا متى دعا إبراهيم ربه ومتى نصرع إليه ، بعد أن ذكر حيثيات الألوهية واعترف لله بالنعم السابقة وأقر بها ، فقد خلقه من عدم ، وأمدّه من عدم ، ووَفَّرَ له كل مقومات الحياة

وإقرار العبد بنعم الله عليه يقضي على كبرياء نفسه ، ويُصْنِى روحه وأجهزته ، فيصير أهلاً لمناجاة الله ، وأهلاً للدعاء فإن اعترفت لله بالنعم السابقة أجاك فيم تطلب من النعم اللاحقة ، على خلاف مَنْ لا يذكر الله نعمة ، ولا يقرّ له سبحانه سابقة خير ، فكيف يقبل منه دعاء ، وبأيّ وجه يطلب من الله المزيد ؟

إلى لا قدّع ربك إلا بعد صفاء نفس وحلاص عبودية ، لذلك ورد في حديث رسول الله ﷺ « مَنْ عَمِلَ بِمَا عِلْمُ أَوْرَثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »^(١)

ويقول سبحانه ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (٢٩) [النمل]
يقول لك ربك أنت مأمور على ما علمت ، عامل به ، فخذ المرید من هدايتي وبوري وتوفيتي ، خذ المزيد لما عندك من رصيد إيماني وصفاء روحي ، جعلك أهلاً للمناجاة والدعاء

فإبراهيم - عليه السلام - وهو أبو الأنبياء لم يجترئ على الدعاء

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٥/١) من حديث ابن أبي عمير ، رضي الله عنه ، صنف الشوكلي في « الفوائد المبررة » (ص ٢٨٦)

بشيء أت إلا بعد أن ذكر الله النعم السابقة ، وشكره عليها موافق
قوله تعالى ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم .. (٧)﴾ [إبراهيم]

لذلك فإن أهل المعرفة يقولون إن العبد مهما اجتهد في الدعاء ،
فإنه يدعو بالخير على حسب فهمه ومنطقه وبمقدار علمه ولو أنه ذكر
النعم لأور الله تعالى وأقر له بالفضل ثم ترك المسألة له تعالى
يعطيه ويختار له فكان خيراً له ، لأن ربه عز وجل يعطيه على حسب
قدره تعالى وحكمته

وهذا المعنى واضح في الحديث القدسي « من شغلته ذكرى عن
مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »^(١)

فعطاء الله لا شك أوسع ، واختياره لعنده أفضل من احتسار العبد
لنفسه ، كما لو ذهب في رحلة مثلاً وقلت لولدك : ماذا تريد أن أحضر
لك من البلد القلاني ؟ فإن قال أريد كذا وكذا فقد ضيق على نفسه ،
وإن ترك لك الاختيار جاء اختيارك له خيراً من اختياره لنفسه

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٢)

نلاحظ أنه لم يدعُ بشيء من الدنيا ، ومعنى ﴿حُكْماً﴾ [الشعراء]
فرق بين الحكم والحكمة الحكمة أن تضع الشيء في
موضعه ، أما الحكم فإن تعلم الخير أولاً ، ثم تعمل بما علمت ثانياً

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٩٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري وقال هذا حديث حسن عريب . وكذا أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠٦/٥) وكذا الدرر في مثنه (٤٤١/٢) باللفظ ، من شغلته قراءة القرآن عن مسألتي وذكرى أعطيته انفس ثواب السائلين ، وفصل كلام الله على سائر الكلام كفصل الله على خلقه ، قال ابن حجر في فتح الباري (٦٦/٩) : رجاله ثقات إلا عمدة العمري فيه ضعف ، وقد شرح فضيلة الشيخ الضمراوي رحمه الله هذا الحديث مفصلاً في كتاب : الاحاديث القدسية ، [٤٩١/١] - ٥٩١ -

وقال في دعائه ﴿هَبْ لِي ..﴾ (٨٣) [الشعراء] لأن الهبة عطاء دون مقابل فكانه قال يا رب أنا لا أستحق ، فأجعلها لي هبة من عندك ﴿وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٣) [الشعراء] أى الحقني بهم في العمل والأسوة لأنال بعدها الجراء وليس المراد الحقني بهم في الجراء ، إنما هي العمل

وقد أجابه الله تعالى في هذه الدعوة ، فقال سبحانه ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ ..﴾ (٧٥) [الانعام]

والملكوت المخلوقات غير المحسنة ، أطلعه الله عليها ، لأنه عمل بما علم من الملك المحسن ، وكذلك قال ﴿وَاللَّهُ فِي الآخِرَةِ لَعَنِ الصَّالِحِينَ﴾ (٦٣٠) [البقرة] فأجابه في الدعوة الأخرى

﴿وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤)

نعرف أن اللسان وسيلة التعبير ، ومعنى ﴿لِسَانَ صِدْقٍ ..﴾ (٨٤) [الشعراء] يعنى ذكرًا حسنًا يذكر بحق ، ويذكر بصدق ، لا كما تفعل الآن حين نقيم نكري لأحد الأشخاص ، منظر نكيل له المدايح ونثنى عليه بالصدق والكذب ، وبما فعل وبما لم يفعل ، فهذا ذكر ، لكنه ذكر غير صادق ومخالف للحقيقة وللواقع

وسبق أن أوضحنا أن الصدق هو الكلام المطابق للواقع وقد ورد هذا المعنى في الأمهات الخمس في القرآن الكريم ، في قول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ ..﴾ (٨٠) [الإسراء]

يعنى ادخلي بصدق - لا بغش - مدخلا أستطيع منه الخروج ، وكذلك أخرجني مخرج صدق

وفي قوله تعالى ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ٥٥﴾ [القمر]

وفي قوله تعالى ﴿وَعَذَابُ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١٦) ﴿

[الاحقاف] هذه المواضع الخمس لكلمة الصدق^(١)

ومعنى ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ [الشعراء] يعنى يتعدى الذكر

الحسن مدة حياتي إلى مَنْ بعدى ، فاجعل لى لسان صدق فى المعاصرين ، وقمّن ياتى بعدى أترك أثراً طيباً يُذكر من بعدى ، لأن لى نصيباً من الخير والثواب فى كل مَنْ اقتدى بى ، وجعلنى أسوة

وَقَدْ أَجَابَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ ، فَقَالَ سُبْحَانَ ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي

الآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) ﴿

[الصافى]

﴿وَجَعَلَنِي مِنْ أَوْلِيَّاءِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

بعد أن دعا لأمر في الدنيا ، ثم لأمر بعد موته دعا لنفسه الجنة

النعيم لدائم في الآخرة ، ولا شك أن ربه - عز وجل - قد أجابه إلى هذه ، فهو من ورثة جنة النعيم ، مدليل قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ

لَمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴿١٣٠﴾

[البقرة]

(١) تحقيق الأمر أن كلمة الصدق وردت في القرآن عشر مرات

١ - لسان صدقي حركات (مريم) ، (الشعراء ٨٤)

٢ - مدخل صدق مرة واحدة (الإسراء ٨٠)

٢ - مخرج صدى مرة واحدة (الإسراء ٨٠)

٤ - وجد المصدق مرة واحدة الإحتاف ١٦ {

• مقعد سبق مرة واحدة (القمر ٥٥)

وبالإضافة إلى هذا

قدم صندوق مرة واحدة (يؤسس ٢)

- مبراً ضيق مرة واحدة (يونس ٩٢)

الصديق مروتان (الزمير ٢٢) { الزمير ٢٣ } والله تعالى اعلم وأحمد

وكلمة ميراث الجنة وردت في القرآن أيضاً في قوله تعالى .

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١)

[المؤمنون]

والميراث أن تأخذ ملكاً من آخر بعد موته . فكيف تكون الجنة ميراثاً ؟
قال العلماء : إن الخالق - عز وجل - لم يخلق الجنة على قدر
أهلها وكذلك النار ، إنما خلق الجنة تتسع للناس جميعاً إن آمنوا .
وخلق النار تتسع للناس جميعاً إن كفروا . ذلك لأنه سبحانه خلق
الخلق مستاربين . من شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . وعليه .
فميراث الجنة يعني أن يرث المؤمنون أماكن الدين كفروا في الجنة
بتقاسمونها فيما بينهم

والوارث يرث مال غيره وثمرة شجره . لكن لا يسأل عنها ، إنما
ياخذها طيبة حتى إن جمعها صاحبها من احرام ، إلا إن أراد الوارث
أن يبرئ ذمة المورث ، فبرئ المظالم إلى أهلها

إن إوارث يأخذ الميراث دون مقابل فكأنه هبة ، وعلى هذا
المعنى يكون المراد بميراث الجنة أن الله تعالى أعطى عباده الطائعين
الجنة هبةً منه سبحانه ، وتفصيلاً عليهم ، وليس بمملهم . فالجنة
جاءتهم كما يأتي الميراث لأهله دون تعب منهم ودون سعي

وهذا تصديق لقول رسول الله ﷺ في الحديث النبوي : « لن
يدخل أحد منكم الجنة بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال
« لا أدري ، لا أرى ينعمدي » الله برحمته » (٢)

(١) تعفده الله برحمته أدخله فيها وغمره بها قال أبو عبيد قوبه « يتغمسي » يتبسمي .
ويتغشسي ويستري [لسان العرب - مادة عمد]

(٢) حديث منفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٢) وكنا نسلم في صحيحه
(٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

قالوا فالجنة ميراث ، لأن الأرض أنك لا تُحازي على الخير الذي قدمته ، لأنه تكليف من الله تعالى يعود خيره عليك في الدنيا ، حيث تستقيم به حياتك وتسعد بها ، وما دام التكليف في صالحك ، فكيف تأخذ أحراً عليه ؟ كالوالد حين يحنّ ولده على المذاكرة والجد في دروسه ، فهذا يعود نفعه على الولد ، لا على الوالد

وكان ربك - عز وجل - يقول لك ما دُمْتُ قد احترمتَ تكليفي لك ، وأطعنتني فيف ينفكك أنت ، ولا يعود عليّ منه شيء ، فحين أعطيك لجنة أعطيك بفضلِي وهبةً مني ، أو أنا نأخذ الجنة بالعمل ، والمنازل بالفضل

إذن لا غنى لأحد مما عن فضل الله
لذلك يقول سبحانه ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٥٨) [يوسف]

هذا هو المعنى المراد بميراث الحنة ، وينبغي ألا تعول على عملك وطاعتك واحتشادك في العبادات ، واعلم أن انجاة لا تكون لا برحمة الله ومصل منه سبحانه

ثم ترك الدعاء لذاته وانتقل لمن ربه فقال

﴿ وَأَعِظْ لَآئِي أَنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّاَلِينَ ﴾ (٨٦)

لم يَسْ إبراهيم عليه السلام - في دعائه أن يدعوا من ربه ، لأن الحق - تبارك وتعالى - هو العالق ، إنما جعل الوالدين هما السبب المباشر في الخلق والإيجاد ، لذلك جعلهما أصصاب الفضل والحق بالطاعة بعده تعالى ، لكن قد ينجب الوالدان ويهملان ولدهما فيربيه غيرهما ، لذلك يأخذ المبرة الثالثة فعندنا ربوبية خلقت من عدم ، وأبوة جاءت بأسباب الإيجاد ، وأبوة أخرى ربّت واعتنت

وهذا المعنى واضح في قوله سبحانه ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء] تحيثية الدعاء بالرحمة هنا ، لا لأنهما أباوان وهما سبب الإيجاد ، إنما لأنهما ربَّانِي صغيراً ، إذن لو ربَّانِي غير والدي لأخذوا هذه المثولة واستحقوا متى هذا الدعاء .

لكن لم يُستجَبْ لإبراهيم عليه السلام في هذه ، لأنه سأل الله لآبيه قبل أن يعرف أنه عدو لله ، يقول تعالى ﴿وَمَا كَانَ اسْمُكَ إِلَّا لِيهِ إِلَّا عَنِ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ٨٧

بأي شيء يكون الخزي في الآخرة ؟ الخزي يكون حين يعاتبك ربك يوم القيامة على رؤوس الأشهاد على ما قرط منك من تقصير ، لذلك لحساب اليسير ما كان بين العبد وربه ، وقد أُجيب إبراهيم عليه السلام في هذه الدعوة بقوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة]

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ٨٨

﴿إِلَّا مَنَ اتَى اللَّهَ يَمْلِكُ صَالِحٌ﴾ ٨٩

(١) أخرج البخاري في صحيحه والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال - يلقى إبراهيم أباه يوم القيامة وعلى وجهه أثر فترة وفسرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصيني ، فيقول أبوه فالיום لا أعصيك فيقول إبراهيم رب إنك وعدتني أن لا تعزيني يوم يبعثون - بأي خزي أخزي من أبي الأبد ؟ فيقول الله - إلى حرمت الجنة على الكافرين - ثم يقال يا إبراهيم ما تمت رجلك ؟ فإذا هو مديخ مستطخ مبرأ من نقائصه فيلقى في النار - أورده السيوطي في الدر المنثور (٢٠٧/٦)

﴿١٠٦﴾

قوله ﴿يَوْمَ لَا يَنْمَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) [الشعراء] فأتى بالعمالة التي تشغل الناس جميعاً . فكل إنسان يريد أن يكون غنياً صاحب مال وأولاد وعروة ، ومن حرم واحدة منهما حزن والم أشد الألم .
والحق تبارك وتعالى يقول ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..﴾ (٨٦) [الكهف]

ويقول سبحانه ﴿رَيْنَ لِلنَّاسِ هُبُ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَطَّرَةِ مِنْ ذَّهَبٍ وَالنَّصَةِ ..﴾ (٩٠) [آل عمران]

نعم ، هي زينة الحياة الدنيا . ومعنى الزينة الحُسن غير الداني ، فالحُسن قد يكون ذاتياً في الجوهر كالمرأة التي تكون جميلة بطبيعتها التي خلقها الله عليها ، دون أن تتكلف الحُمال . أو الرينة الظاهرة من مساحيق أو ذهب أو خلافة ، لذلك سموها في اللغة (الغاية) وهي التي استغنت بجمالها الطبيعي اذاتى عن أن تتزين بأى شيء آخر

وقوله ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩) [الشعراء] يعنى مع أن المال واجب رينة الحياة الدنيا ، فهذا لا يمنع نفعا لصاحبها إن أحسن التصرف في ماله مأنفقه في الخير . وأحسن ترمية أولاده التربية الصالحة ، لكن هذه أيضاً لا تصفو له ولا يسقيم إلا إذا ﴿أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩) [الشعراء]

يعنى توفّر له لإخلاص في هذا كله . وإلا فالرياء يُحبط العمل ويجعله هباءً منثوراً ، إن كنتَ تفعل الخير في الدنيا ولا تؤمن بالله ولا تُكزّه سبحانه عن الشريك ، على ينفعك عملك ولن يكون لك منه نصيب في ثواب الآخرة

كما قال تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ (٢٣) [الفرقان]

وفي الحديث القدسي : « فعلت ليقال وقد قيل »^(١)

فعلت ليقام لك حفل تكريم وقد أقيم لك ، فعلت لتأخذ نيشاناً وقد أخذته ، فعلت ليكتب سميت على باب المسجد وقد كتب ، إذن انتهت المسألة

فقله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨)﴾ [اشعراء] لا ينفي نفع المال والبنين ، فهي نافعة شريطة أن تأتي الله بقلب سليم ، والسلامة هنا تعني أن يظن الشيء على حاله وعلى صلاحه الذي خلقه الله عليه لا يصيبه عطب في ذاته ، فيؤدي مهمته كما ينبغي فكان السلامة توحيداً أولاً ، ونحن الذين نُفسد هذه السلامة

ومن ذلك قوله تعالى

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١)﴾
إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٤)﴾ [اسقرة]

ذلك لو تأمل الناس فيما يتعميهم في الحياة لوجدوا أنه ثمرة إفسادهم في الكون المنظم الذي خلقه الله على مقتضى حكيمته تعالى ، مدليل أن كل حركة في الكون لا يتدخل فيها الإنسان تراها مستقيمة منتظمة لا تتحلف ، فإن تدخل الإنسان وجد الفساد ووجد الظم للغير ، حتى للنبات وللجماد ولحيوان ، وقد نهانا الشارع الحكيم عن هذا كله

هذا إن تدخل الإنسان في الكون على غير مقتضى منهج ربه ، فإن تدخل على هدى من منهج الله استقامت الأمور وتحققت السلامة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩١٥) وأحمد في مسنده (٢٢٢، ٢) والترمذي في سننه (٢٢٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال الترمذي حديث حسن غريب وهو حديث طويل شرحه الشيخ رحمه الله في « الأحاديث القدسية » (١٢٥ - ١٥٦)

ألا ترى قوله تعالى في سورة الرحمن

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)﴾ [الرحمن]

لذلك تجد كل شيء في الكون موزوناً بقدر وبحكمة الشمس والقمر والنجوم والهواء والماء . الخ وكل عناصر الكون هذه تسير مستقيمة في منظومة الكون المتكاملة ، بماذا ؟ لأنه لا تدخل للإنسان فيها

فمعنى القلب السليم القلب الذي لا يعمر إلا بما أراد الله أن يعمره ، وقد ورد في الحديث القدسي « ما وسعتني أرضي ولا سمائي ، ولكن وسعتني قلب عبدي المؤمن »^(١)

إذن لا تزحم قلبك بما يشغلك من أمور الدنيا ، واجعله خالياً لله مشغلاً به . فهذه هي سلامة القلب ، لأن القلب مفطور على هذا ، مطبوع عليه . ساعة خلقه الله خلقه صافياً سليماً من المشاعل . بذلك يقول سبحانه ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ ظُلُومٍ أَظْهَارَكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ (٧٨)﴾ [البص] ﴿لَمَّا دَا﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٩)﴾ [النحل]

إذن لا تأخذ المال والبين بمفصلين عن سلامة القلب ، لأن ربك يقول ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً (٤٦)﴾ [الكهف]

(١) قال الملا علي القاري في « الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموصوعة » (ص ٢٠٦) دار الكتب العلمية بيروت . « ذكره في الإحياء وقال العراقي لم أره صلاً وقال ابن تيمية هو مذكور في الإسرائيليات وليس له إسناد معروف عن النبي ﷺ وهي « الدليل » وهو كما قال رحمه الله رشح قلبه الإيمان من وبمحبتى وإلا لا يقول بالحقول كفر وقال الركني وضعه الملاحدة ، وانظر كشف الحقائق ٢ ٢٧٢ والدرر المنتثرة للسيوطي ص ٢٦٦

وفى آية ﴿رَبِّىَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ..﴾ (١٤٤) [آل عمران] حتمها الحق سبحانه بقوله ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حَسَنُ الْعَاقِبَةِ﴾ (١٤٤) [آل عمران]

ومن سلامة القلب أن يخلو من اشرك ، وأن يخلو من المنافق ، لأن المنافق يؤمن بلسانه ولا يؤمن بقلبه ، فقلبه لا يوافق سانه ، لذلك هو غير سيم القلب ، فكان أشد إثمًا من الكافر ، وجعله الله فى الدرك لأسفل من النار .

المنافق أشد تعذيبًا من الكافر ، لأن الكافر مع كُفْرِهِ هو منطقيّ مع نفسه ، حيث كفر بقلبه وبلسانه ، ونطق بما يعتقد ، أما المنافق فقد غشَّد وحُصِبَ علينا طاهرًا ، ومهم من كان يصلى حلف رسول الله ﷺ فى الصف الأول ، وهو فى حقيقته الأمر من الطيور الحامس داخل صفوف المسلمين

وكذلك الرياء ينافي سلامة القلب ، فالمرائي يعمل للناس ولا يعمل لله ، ونعجب حين نرى مَنْ يُقَدِّمُ الجميل رِياءً وسُئْمَةً ، ثم يتهم من أسدى إليه الجميل بأنه ناكِر للجميل بقول له لماذا تتهمه وقد سبقته فأنكرت جميل الله ، حيث لم تجعله على بالك حين فعلت الخير

إذن فهذا جراؤك جِراءً وهماقًا ، لأنك ما فعلت الخير لله ، إنما فعلته للعبد فانتظر منه الجزاء وصَفَقَةَ المرائي حاسرة وتحدرته باثرة ، لأنه حين يعطى رِياءً يستفيد منه الأخذ ويحرج هو صُفْرُ العيدين ، كما قال سبحانه ﴿فَمِثْلَهُ كَمِثْلٍ مُضْتَرٍّ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَهَرَّكَ صَلْدًا ..﴾ (١٤٤) [البقرة]

وبعد ذلك ترى الناس تكره المرائي ، ويُنكرون جميله فى ماء مسحد أو مستشفى أو مدرسة مثلاً ، ولو علم ذلك الله لابقى الله

دُكِّرْهُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَحَقِّطُوا جَمِيلَهُ ، وَأَثْنُوا عَلَيْهِ بِالْخَيْرِ

وَيُرَوَّى أَنَّ السَّيِّدَةَ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءَ دَخَلَ عَلَيْهَا سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَهَا تَجْلُو بَرْهَمًا فِي يَدِهَا ، فَلَمَّا سَأَلَهَا عَنْهُ قَالَتْ : لِأَنِّي قَدْ نَوَيْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِهِ ، فَقَالَ لَهَا : تَصَدَّقِي بِهِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ ، فَقَالَتْ : أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ يَقَعُ فِي يَدِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يَقَعُ فِي يَدِ الْفَقِيرِ ، وَاللَّهُ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا .

ثم يذكر الحق - تبارك وتعالى - نتيجة سلامة القلب وثمرته الإخلاص في العمل ، فيقول

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٩)

﴿أُزْلِفَتْ.. (٩)﴾ [الشراء] يعنى قُرِبَتْ ، لكن كيف تقرب منهم وهم بداحلها ؟ قالوا ، تُقَرَّبُ مِنْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوهَا ، وَهُمْ مَا زَالُوا فِي شِدَّةِ الْمَوْقِفِ وَهَوْلِ الْقِيَامَةِ وَالْحِسَابِ ، فَتُقَرَّبُ مِنْهُمْ الْجَنَّةُ لِيُطْمَئِنُّوا بِهَا ، وَيَهْوُوا عَلَيْهِمْ هَذَا الْمَوْقِفَ الصَّعْبَ

وَفِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٣١) [ق] يعنى يَرَوْنَهَا عَيْنًا ، وَيَعْرِفُونَ أَنَّهَا النَّعِيمُ الَّذِي يَنْتَظِرُهُمْ ، وَسَوْفَ يَبْأَشُرُونَهُ عَنْ قَرِيبٍ ، كَمَا لَوْ دُعِيتَ إِلَى مَائِدَةِ أَحَدِ الْعُظَمَاءِ ، وَقَدْ أُعِدَّتْ عَلَى أَمْتٍ وَجْهٍ ، فَإِنَّ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ تَمُرَ بِهَا وَتَشْهَدَ مَا عَلَيْهَا مِنْ أَصَابِيبِ الطَّعَامِ قَبْلَ أَنْ يَحِينَ وَقْتُ الْاجْتِمَاعِ عَمِيهِ

﴿وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (١١)

وهذه لمن أتى الله بقلب غير سليم ، قلب خالطه شرك أو نفاق أو رياء ، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى يَقُولُ تَعَالَى ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا.. (٧١)﴾ [مريم]

والورود لا يعنى دخول النار إنما رؤيتها والمرور بها ، لأن
انصراف مصروب على متن جهنم ، فالورود شئ ، والدخول شئ آخر ،
ومن ذلك قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ
مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [العنكبوت ٢٤] مع أن موسى - عليه
السلام - ورد الماء يعنى مكان الماء ، ولم يشرب منه

واحكمة من ورود النار بهذا المعنى أن يعرف المؤمن سبب
الإيمان عليه ، وأنه سبب نجاته من هذه النار التى يراها ، وهذه أعظم
نعمة عليه لذلك يقول سبحانه ﴿ فَمَنْ رَّحِمْنَا وَأَدْخَلْنَا الْجَنَّةَ
فَقَدْ قَرَّبَ .. ﴾ [١٨٥]

ومعنى ﴿ للعاوين ﴾ [٩٦] جمع عاوى ، وهو إما أن يكون
عاوياً فى نفسه أو عاوى غيره ، فتطلق على العاوى ، وعلى الذى
يُغْوِي غيره

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَئِنَّ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ [٩٦]

مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْرِفُهُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ [٩٧]

قوله تعالى ﴿ أَئِنَّ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء ٩٦] أروا من
أشركتموهم مع الله ، أين هم الآن ؟

وفى موضع آخر ﴿ اخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا
يَعْبُدُونَ ﴾ [٩٧] من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم [٩٨] وقفوهم إنهم
مُسْتَوْنُونَ [٩٩] ما لكم لا تنصرون [١٠٠] [الصافات]

لقد صلوا عنكم وتركوكم - بل وتصرأوا منكم ﴿ إِنْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ
اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ [١٠١] [البقرة]
ثم يأتى الذين تنصرون فيقولون ﴿ رَبَّنَا أَرْمَا الَّذِينَ أَصْلَلْنَا مِنَ الْجَنَّةِ

وَلَا يَسْجُدُ لَهُمْ جُنُودُهُمْ خَتَرْتُكُمْ إِذَا مَا لَكُمْ مِنَ الْأُنْثَىٰ ﴿٦٦﴾ [فصل]

نعم ، إنها معركة لأن الله تعالى قال ﴿الْأَحْلَاءُ يَوْمَئِذٍ يَعْصُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ [لرحوف]

وقوله تعالى ﴿هَلْ يَنْصَرُّوكُمْ أَمْ لَنْ يُنَصِّرُوَكُمْ﴾ ﴿٦٧﴾ [الشعراء] يعنى لا يستطيعون نصركم ، أو الدفاع عنكم ، ولا حتى نصروا أنفسهم ، فإن كل نصرهم لأنفسهم ممنوعاً فلغيرهم من باب أولى ، ففى الآية تقريع لهم ولأن عدوهم من دور الله ، وتحقير لشأنهم

ثم يقول الحق سبحانه

﴿فَكُبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُنُ﴾ ﴿٦٨﴾

الفاعل كُتِبَ ، يعنى كُتِبُوا مرة بعد أخرى على وجوههم ، هـى تعنى تكرار الكُتِبَ ، فكلمة كُتِبَ على وجهه مرة أخرى ، وهى على وزن فعلة الدال على التكرار كما تقول زقزقة العصاير ، ونقنقة الضفادع والمراد هنا الاصدام بكُتِبَ على وجوهها ، وتسبق من عبدها إلى النار كما قال تعالى ﴿يَكُفُّ عَنْكُمْ وَمَا يُعَدُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حِصْبًا﴾ ﴿٦٨﴾ [الأنبياء]

وقال ﴿هُمْ وَالْعَاوُنُ﴾ ﴿٦٨﴾ [الشعراء] فالعاونون يسبقون مَنْ اغْوَوْهُمْ وأضلّوهم ، ليقطع أمل التابعين لهم فى النجاة ، فلو دخل اتبعون أولاً لقالوا سبأتى من عبدناهم ، فيقتلوننا ، لكن يجدونهم أمامهم قد سبقوهم كما قال تعالى عن فرعون ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ ﴿٦٨﴾ [هود]

(٦) الحصب كل ما يلقى فى الدار تسقى به [القاموس القويم ١/ ١٠٥]

(٧) أى يقودهم ويسير أمامهم إلى جهنم [القاموس القويم ٢/ ١٠٥]

﴿وَجُنُودِ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ ٩٥

ولإبليس جنود من الجن ، وجنود من الإيس ، سيحتمعون جميعاً
فى النار

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ٩٦ ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ٩٧ ﴿إِذْ سُوِّيَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٩٨

هذه لفظة من ساحة القيامة ، حيث يختصم أهل لصال مع من
اصلوهم ، ويلقى كل منهم بالقبعة على الآخر

وهذه انحصومة وردت فى قوله تعالى على لسان الشيطان
﴿وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى
ولوموا أنفسكم﴾ (٢٦) [إبراهيم] والمعنى لم يكن لى عليكم سلطان
قهر أحملك به على طاعتى ، ولا سلطان حجة أضعكم به

ثم يعترف أهل الضلال بصلالهم ويقسمون ﴿تالله﴾ (٩٧) .
[الشعراء] يعنى والله ﴿إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٩٧) [الشعراء] يعنى
ظاهر ومحيط بذ من كل ناحية ، فإين كانت عقولنا ﴿إِذْ سُوِّيَكُمْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ (٩٨) [الشعراء] أى فى الحب ، وفى الطاعة ، وفى العبادة
كسما قال سبحانه ﴿ومن الناس من يتخذ من دُونِ اللَّهِ أَدَاداً
يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ (٢٥) [البقرة]

﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ ٩٩

يعنى يا رب أربا هؤلاء المجرمين ، ومكننا منهم لنستقم لأنفسنا .

ونجعلهم تحت أقدامنا ، وهكذا أخرجوا كل سُلُومهم في هؤلاء
المحرمين ، وألقوا عليهم بثقة ما هم فيه .

﴿فَمَا أَنَا مِنَ شَافِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقِي حَمِيمٌ﴾

لشافع من الشُّفَعِ أى الاثنين ، والشافع هو الذى يضمُّ صوته
إلى صوتك فى أمر لا تستطيع أن تقاله بذاتك ، فيتوسط لك عند مَنْ
لديه هذا الأمر ، والشفاعة فى الأجرة لا تكون إلا لمن أبى الله له ،
يقول تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ (٢٨) [الأنبياء]

ويقول سبحانه

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٢٥٥) [البقرة]

إنى ليس كل أحد صالحاً للشفاعة مُعداً لها ، وكذلك فى
الشفاعة فى الدنيا فلا يشفع لك إلا صاحب منزلة ومكانة ، وله عند
الناس أياد تحملهم على احترامه وقبول وسطته ، فهى شفاعة مدفوعة
التمس ، فللشاهع رصيد من الحميل وسوايق الخير تريد عما يطلب
للعشفرع له

لذلك ترى فى الريف مثلاً رجلاً له جاه ومنزلة بين الناس ،
فيحكم فى النزاعات ويفصل فى الدم ، فحين يتدخل بين خصمين
ترى الجميع يصاح له ويذعن لحكمته

ومن ذلك ما عرفناه فى اشترع من شركة الوجوه^١ ، ومعلوم أن

١) قال موفق الدين ابن قدامة (ت ٦٢ هـ) فى كتابه « المعنى » (١٢٢/٥) : « اما
شركة الوجوه فهو أن يشترك اثنان مبيعاً يشتريان بهما وثلة التجار بهما من غير أن
يكون لهما رأس مل ، على أن ما اشترى بينهما نصيبين أو اثلاثاً أو أرباعاً أو حصة ذلك
ويبيعن ذلك ، فما قسم الله تعالى بهو بينهما هى جارة »

الشركة تحتاج إلى مال أو عمل لكن قد يوجد شخص ليس لديه مال ولا يستطيع العمل ، لكن يتمتع بوحدة ومزلة بين الناس ، فأحذه شريكاً معه بما لديه من هذه الميزة

والحقيقة أن وجاهته ومزلاته بين الناس قومت بالمال لأنه ما نابها من فراع ، إنما جاءت نتيجة جهد وعمل ومحاملات للناس احترموا لأجلها ، فلم زال عنه المال ونفقته في الخير بقي به رصيد من الحب والمكانة بين الناس ومن ذلك أيضاً شراء العلامة التجارية .

ومعنى ﴿ولا صديق حميم﴾ [الشعراء] فرق بين الشافع والصديق فالشافع لا بد أن تطلب منه أن يشفع لك ، أما الصديق وخاصة الحميم لا ينتظر أن تطلب منه ، إنما يبادر بالمساعدة ، ووصف الصديق بأنه حميم ، لأن الصداقة وحدها في هذا الموقف لا تنفع حيث كل إنسان مشغول بنفسه

فإذا لم تكن الصداقة داخلية في الحميمية قلن يسأل صديق عن صديقه كما قال تعالى ﴿يوم يهرء المرء من أخيه﴾ (٣٥) وأمه وأبيه (٣٥) وصاحبه وبه (٣٦) لكن أمرى منهم يومئذ شأن يغيه (٣٧) [عسر]

وقد أثارت مسألة الشفاعة لعطاً كثيراً من المستشرقين الذين يريدون تصييد المآخذ على القرآن الكريم فجاء أحدهم يقول تقولون أن القرآن معجزة في الملاحة ، ونحن نرى فيه معنى الواحد يأتي في أسلوبين فإن كان الأول بليغاً فالآخر غير بليغ وإن كان الثاني بليغاً فالأول غير بليغ ثم يقول عن مثل هذه الآيات بها تكرار لا فائدة منه

ويقول له أنت تنظر إلى المعنى في إجماله ، وليس لديك لمملكة العربية التي تستقبل بها كلام الله . ولو كانت عندك هذه المملكة لما اتهمت القرآن ، فكل آية مما نظمه تكراراً إنما هي تأسيس في مكانها لا تصحح إلا له

والآيتان محل الكلام عن الشفاعة في سورة البقرة وهما متلفتان في الصدر مختلفتان في المعجز . أحدهما

﴿وَأَنفُورٌ يَوْمَئِذٍ لَّا تَحْزَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَّفْسٍ شَيْءٍ ..﴾ (٤٨) [البقرة]

والأخرى

﴿وَأَنفُورٌ يَوْمَئِذٍ لَّا تَحْزَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَّفْسٍ شَيْءٍ ..﴾ (١٧٣) [البقرة]

إنّ فِصْدِرَ الْآيَتَيْنِ متفق ، أما عَجْرُ الْأُولَى ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ..﴾ (٤٨) [البقرة]

وعَجْرُ الْآخِرَى ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ..﴾ (١٧٣)

[البقرة] فهما مختلفتان

وحين ندأمل صَدْرِي الْآيَتَيْنِ الَّذِي نَظَّمَهُ وَاحِدًا فِي الْآيَتَيْنِ تجد أنه مختلف أيضاً ، نعم هو مُتَّحِدٌ فِي ظَاهِرِهِ لكن حين تقامله تجد أن الضمير فيهما إما يعود على الشافع ، وإما يعود على المشفوع له . فإن عاد الضمير على المشفوع له بقول له لا نأخذ منك عدلاً ، ولا تنفعك شفاعته ، وإن عاد الضمير على الشافع بقول له لا يقبل منك شفاعته - رُبَّمَا الشفاعة أولاً - ولا نأخذ منك عدلاً

إنّ بَيِّنَ تَكْرَارِ كَمَا تَقْنُنُونَ ، فكلُّ مَظْهَرٍ يَحْمِلُ مَعْنَى لَا تَوْبِيحَ الْآيَةِ الْآخِرَى

وقد أوضحنا هذه المسألة أيضاً في قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْنُلُوا

أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ .. ﴿٣٩﴾ [الإسراء]

والأخرى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ . ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام]

فصدرا الآيتين مختلف ، وكذلك العجز مختلف ، فعجز الأولى ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ . ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء]

وعجز الأخرى ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ . ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام]

وحين نتأمل الآيتين نجد أن لكل منهما معناها الخاص بها ، وليس فيهما تكرار كما يظن البعض .

عنى الآية الأولى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ . ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء] إذن : فالفقر غير موجود ، والاب يخاف أن يأتى الفقر بسبب الأولاد ، فهو مشغول برزق الولد ، لا برزقه هو ، لأنه عنى غير محتاج ، لذلك قدم الأولاد فى عجز الآية ، كأنه يقول للاب اطمئن فسوف تروق هؤلاء الأولاد أولاً ، وسوف تروق أنت أيضاً معهم .

أما فى الآية الأخرى . ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ .. ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام] فالفقر فى هذه الحالة موجود فعلاً ، وشغل الأب برزق نفسه أولاً من شغله برزق ولده ؛ لذلك قال فى عجز الآية ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام] فقدمهم على الأولاد

إذن لكل آية معناها الذى لا تؤديه عنها الآية الأخرى

ثم يفوق الحق سبحانه عنهم أنهم قالوا

﴿قُلْ أِنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾﴾

معنى ﴿كَرَّةٌ .. ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء] أى عودة إلى الدنيا ورجعة ﴿فَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء] أى . نستأنف حياة جديدة ،

فَنُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَنُطِيعُهُ ، وَنُسْتَقِيمُ عَلَى مَنَاجِهِ ، وَلَا نَقِفُ هَذَا الْمَوْقِفَ

وفي آيات أخرى شرحت هذه المسألة ، يقول تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُعْثَبُونَ ۚ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنين]

يعنى ﴿كَلَّا ..﴾ (١٠) ﴿[المؤمنون] لن يعودوا مرة أخرى ، وما هي إلا كلمة يقولونها بالعنتهم يريدون النجاة بها ، لكن هيهات هبينهم وبين الدنيا مرزخٌ يعزبهم عنها ، ويمتنعهم العرة إليها ، وسوف يظن هذا البرزخ إني يوم يُبعثون .

وفى آية أخرى حول هذا المعنى يَرْقَى الْحَقُّ - تبارك وتعالى -
 المسألة من موقف الموت إلى موقف القيامة ، فيقول سبحانه ﴿وَلَوْ
 تَرَى إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ قَالُوا يٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٧) [الأنعام]

وهذا كذب منهم وقول باللسان لا يوافقه لعمل ، لذلك رد الحق -
تبارك وتعالى - عليهم بقوله ﴿بَلْ بَدَأَ بِهِمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ
رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٢٨) [الانعام]

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦﴾

الآية هي لأمر العجيب الملقى للتلقي ، وما كان ينبغي أن يمر
على العقول بدون تأمل واعتبار ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٦)
[النساء] رغم أن هذه الآيات ظاهرة واضحة ، ومع ذلك كان أكثرهم
غير مؤمنين .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٤)

أى مع كونهم لم يؤمن أكثرهم ، فالله تعالى هو العزيز الذى لا يُغلب ، إنما يغلب ، ومع عزته تعالى فهو رحيم بحساده يفتح باب التوبة لمن تاب

ثم ينتقل السياق القرآنى من قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - إلى قصة أخرى من ركيب الأنبياء ومواكب الرسل هي قصة نوح عليه السلام

﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٠٥)

القوم هم الرجال خاصة ، وسُمُّوا قوماً ، لأنهم هم الذين يقومون بأهم الأشياء ، ويقابن القوم النساء ، كما جاء شرح هذا المعنى فى قوله سبحانه ﴿يُنَاقِهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَخِرُّ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عِسىٰ أَنْ يَكُونُوا حِجْرًا مِنْهُمْ وَلَا يَسَاءُ مِنْ نِّسَاءٍ عِسىٰ أَنْ يَكُنَّ حِجْرًا مِنْهُنَّ﴾ (١١) [الحجرات]

فالرجال هم القوم ، لأنهم يقومون بأهم الأمور ، وعليهم مدار حركة الحياة ، والنساء يستقبلن ثمار هذه الحركة ، فينفقونها بأمانة ويوجهنها للتوجيه السليم

والشاعر العربى أوضح هذا المعنى بقوله

وَمَا أَدْرِى وَلَسْتُ إِخَالُ أَدْرِى أَقَوْمُ آلِ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ^(١)

ونعم ، أيضاً هذه العرامة للرجل من قول الله تعالى حبيما وعظ

(١) هو قول رهبر من لى سلمى شاعر جاهلى قال ابن الأثير : القوم من الأصل مصدر قام ثم غلب على الرجال دون النساء ، ولذلك قبلهن به ، وسموا بذلك لأنهم قومون على النساء بالأمور التى ليس للنساء أن يقمن بها . وقال الجرمي ربما دهن النساء فيه على سبيل البع لا قوم كل نبي رجال وساء [لسان العرب - مادة قوم]

آدم وحذره من الشيطان . ﴿١١٧﴾ [وله] وحسب القاعدة تقوى - فتشقى
من الجنة .

لكن الحق تبارك وتعالى - يقول ﴿تَشْفِي﴾ [طه] أنت يا آدم وحدك في حركة الحياة ، فالرجل يتحصن، هذه المشقة ويكرم المرأة أن تُهاى أو تشفى ، لكن ماذا نفعل وهي تريد أن تشفى نفسها ١٩

ولاحظ أن الآية تقول ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسِلِينَ﴾ ﴿١٥﴾ [الشعراء] كيف وهم ما كذبوا إلا رسولهم نوحاً عليه السلام ؟ وكذبوا مؤمنين بملكه نادم وإبراهيم مثلاً

قَالُوا : لَأَن الرِّسْلَ عَن اِلهٍ إِنَّمَا جَاءُوا فِي أَصُولٍ ثَابِتَةٍ فِي الْحَقِيقَةِ
وَفِي الْأَخْلَاقِ لَا تَتَفَسَّرُ هِيَ أَى دِينٍ ، لِذَلِكَ قَمَرَن كَذَّبَ رَسُوْلَهُ فَكَأَنَّهُ
كَذَّبَ كُلَّ الرِّسْلِ ، أَلَا تَرَى أَن مَن أَقْوَالِ الْمُؤْمِنِيْنَ أَن يَقُولُوا

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران)

وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الرُّسُلُ بَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَعَمَلْئِكَتِهِ وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ..﴾ (٢٨٥) ﴿[البقرة]

فَإِنْ قُلْتُ عَمَّا دَا عَنْ اِخْتِلَافِ الْمَآهِجِ وَالشَّرَائِعِ مِنْ نَبِيِّ لِأُخَرِ ؟
نَقُولُ هَذِهِ اِخْتِلَافَاتٌ فِي مَسَائِلٍ تَقْتَضِيهَا تَطَوُّرَاتُ الْمَجْتَمَعَاتِ ، وَهِيَ
فُرْعِيَّاتٌ لَا تَتَّصِلُ بِأَصْلِ الْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ

لذلك نجد هذه لازمة في كُلِّ مواكب الرسالات ، يقول
المرسلين ، المرسلين ، لأن الذي يُكذِّب رسوله فيما اتفق فيه الأجيال

من عقائد وأخلاق ، فكأنه كذب جميع المرسلين

﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٠٦)

وقوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء] يريد أن يحس قلوبهم عليه بكلمة ﴿أخوهم ..﴾ (١٠٦) [الشعراء] التي تعنى أنه منهم وقريب الصلة بهم ، ليس اجنبياً عنهم ، فهم يعرفون أصله ونشأته ، ويعلمون صفاته وأخلاقه .

لذلك لما بعث النبي ﷺ وأبلغ الناس برسالاته بادر إلى الإيمان به أقرب الناس إليه ، وهى السيدة خديجة دون أن تسمع منه آية واحدة ، وكذلك الصديق أبو بكر وغيرهم من المؤمنين الأوائل ، لماذا ؟

لأنهم بنوا على تاريخه السابق ، واعتمدوا على سيرته فيهم قبل الرسالة ، فعلموا أن الذى لا يكذب على الناس مستحيل أن يكذب على رب الناس .

والسيدة خديجة رضوان الله عليها تعتبر أول ففعية ، وأول عالمة أصول فى الإسلام ، حينما جاءها رسول الله ﷺ يشكو ما يعانى ، ويخشى أن يكون ما يأتيه من الروح رثياً من الحن أو توهجات تفسد عليه عقله وتفكيره ، قالت له : انظر إلى العظمة - « والله إنك لتصل الرحم ، وتقري الضيف ، وتحمل الكل » ، وتعين على نوائب الدهر ، والله لا يخذريك الله أبداً »^(١)

١- أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦) من حديث عائشة رضى الله عنها بمعنى : تحمل الكل « أى تعين المشغل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال و « تكسب المصنوع » أى تستفيد المال المصنوع وقد كثر اللفظ محظوظاً فى تجارتها « تقري الضيف » أى تطعمه طعام الأضياف و « نوائب الحق » حادثات الأيام ، انظر شرح الطبري على مسلم (٥٦١/٢) وفتح الباري للعسقلاني (١٢٤/١)

ولما علم الصَّدِيقُ بحادثة الإسراء والمعراج يادر بالتصديق ، ولم يتردد ، ولما سُئِلَ عن ذلك قال : إِنَّا نَصَدِّقُهُ فِي الْأَمْرِ يَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ فَكَيْفَ لَا نَصَدِّقُهُ فِي هَذِهِ ، نَإِنْ كَانَ قَالَ فَقَدْ صَدَّقَ

إِسْ . فمقاس الصدق لديه أن يقول رسول الله ، لذلك استحق الصَّدِيقُ هذا اللقب عن جدارة . حتى إن رسول الله ﷺ ليقول في حقه : « كُنْتُ أَبَا وَامِرٍ بِكَرٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَفَرَسِي رَهْنٍ - يَعْنِي فِي حِصَالِ الْخَيْرِ مَسْبِقَتُهُ إِلَى النَّبُوَّةِ فَانْتَبَعْنِي ، وَلَوْ سَبَقَنِي لَاتَّبَعْتَهُ »

هذه كلها معانٍ تفهمها من قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَحُوهُمْ نُوحٌ .. (١٠٦) ﴾ [الشعراء]

وهذا معنى قوله تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ .. (٢٨) ﴾ [التوبة] فهذه من حكمة الله في الرسس . وعجيب أن يقول أهل العناد من القوم نريد ملكاً رسولاً ، وأن يلقوا من رسول الله موقف العداء . وكان يجب عليهم على الأقل أن يُمَكِّنُوهُ مِنْ دَعْوَتِهِ . وَيُمَكِّنُوا عَقُولَهُمْ مِنْ أَنْ تَفْهَمَ لَا أَنْ تَدْخُلَ فِي الْأَمْرِ عَلَى هَوَى سَبَقِ

فالذي يتعجب الناس في استقبال الحق أن تكون قلوبهم مشغولة بباطل ، والحق لا يجتمع مع الباطل ولا يضمهما محل واحد ، لذلك إذا أردت أن تبحث في مسألة عليك أن تُخْرِجَ مِنْ قَلَمِكَ الْبَاطِلَ أَوَّلًا ، ثُمَّ حَكِّمْ عَقْلَكَ فِي الْأَمْرِ ، وَاسْتَعِظْ قَلْبَكَ فَمَا سَمِعَ بِهِ فَأَدْخِلْهُ

وهذه تراها حتى في الماديات ، فالحيز الواحد لا يسع شيئين أبداً ، يقولون عدم تداخل ، كما لو ملأت قنارورة بالماء مثلاً ، فقبل أن يدخل الماء لا بد أن يخرج الهواء ، هنراه على شكل فقاعات

لذلك يقول تعالى ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْخَلْقُ أَهْرَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ...﴾ (٧٦)

ولك أن تلاحظ مثلاً زجاجة (الكولونيا) ذات الثقب الضيق ، إذا
وصفعتها في الماء ، لا يمكن أن يدخلها الماء ، لماذا ؟ لأن ثقبها
ضيق ، لا يسمح بخروج الهواء أو لدخول الماء .

ولأمر ما سُمي الهوى من الهواء ، فكما أن الهواء انذى نُحْسَهُ لو أتى
من ناحية واحدة لمبنى أو جبل مثلاً لانهدم إلى الناحية الأخرى ، لماذا ؟
لأن الهواء هو الذى يتولى حفظ توازن هذه المباني العاليه وناطحات
السحاب التى برها ، يحفظ توازنها حين يحيط بها من كل جهاتها . فإن
مرغت الهواء من إحدى الجهات انهدم المبنى فى نفس هذه الجهة

والهواء من القوى العظيمة التى يستخدمها الإنسان ويحولها إلى
طاقة ، واطر مثلاً إلى قوة تفريغ الهواء وما تحدثه من هزة عنيفة ،
أو إلى الحاويات والشاحنات العملاقة التى تسير على الهواء فى
عجلاتها ، وكذلك الهوى إن كان فى الباطل كان قوياً ومدمراً . ومن
هذا المعنى سُمي السقوط هويًا ، تقول هوى الشيء يعنى سقط .

وقوله ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٠٦) [الشعراء] هذه الكلمة جاءت على لسان
كل الرسل أو يقولها الرسول أول ما يبعث ، ومعناها اتقوا الله و (ألا)
أداة للحض والحث على الفحص . كما تقول للولد المهمل ألا تذكر أو
هلاً تذكر .

وحين نحلل أسلوب الحض أو الحث نجد أنه يأتي على صورة
التعجب من نفس الفعل ، كما تقول للولد الذى لا يصلى ويريد أن يحثه
على الصلاة ألا تصلى ؟ استفهام بالنفى وعندها يستحي الولد أن
يقولها ، لكن حين تستفهم بالإثبات أتصلى ؟ يقوبها بفخر معم

إذن معنى الحدث تعجب من ترك العمل وإنكار يحمل معنى الأمر

فمعنى ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٠٦) [الشعراء] أنكر عليكم ألا تكونوا متقين ، والمراد أطلب منكم أن تكونوا متقين ، وما دُمْتُ قد أنكرت النفي فلا بد أنك تريد الإثبات .

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٠٧)

وقوله تعالى ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٠٧) [الشعراء] فإن كانت عندكم غفلة فقد رَحِمَ الله عقلكم ، ونبَّهكم برسول أمين يعظكم ويعلمكم ويبلغكم منهج الله ، وهو أمين لن يفشكم في شيء حتى لا تقولوا إِنَّا كُنَّا غافلين

وما دُمْتُ أنا مرسلًا من الله إليكم ، واميئًا عليكم وعلى دعوتي ، فاسمعوا مني ، لذلك كرر الأمر بالتقوى

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٠٨)

وكأنه يتصالح معهم ، فيخفف من أسلوب النصيحة ، ويأني بالأمر صريحاً بعد أن أتى به في صوره إنكاراً ألا يكونوا متقين وثمره التقوى طاعة الأوامر واجتناب النواهي ، وهذه لا تعرفها إلا من الرسول حامل المنهج ومبلغ الدعوة والأمين عليها .

وقد ترددت هذه الآية على السنة كثير من رسل الله ﴿إِنِّي

(١) وردت هذه الآية ٦ مرات حسن منها في سورة الشعراء (آية ١٧ في حق موسى) (آية ١٢٥ في حق هود) ، (آية ١٤٢ في حق صالح) ، (آية ١٦٢ في حق لوط) ، (آية ١٧٨ في حق شعيب) ، والآية السادسة في سورة لوط (آية ١٨ في حق موسى)

لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٠٨) ﴿الشعراء﴾

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ
إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠٩﴾

هذه العبارة ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ..﴾ (١٠٩) ﴿الشعراء﴾ لم نسمعها على لسان إبراهيم عليه السلام ، ولا على لسان موسى عليه السلام ، فأول من قالها نوح عليه السلام ، وكوثك تقوى لآخر . أنا لا أسألك أجراً على هذا العمل ، فهذا يعنى أنك تستحق أجراً على هذا العمل ، وأنت غير راهد في الآخر ، إنما إن أخذته من المنتفع بعملك ، فسوف يُقَوِّمه لك بمقاييسه البشرية ، لذلك من الأفضل أن تأخذ أجرك من الله

فكان نوحاً عليه السلام يقول : أنتم أيها البشر لا تستطيعون أن تُقَوِّمُوا ما أقوم به من أجلكم ، لاسي جنتكم بمهجع هداية يُسَعِّدُكُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَيُنْجِيكُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وأنتم لن تُقَوِّمُوا هذا العمل ، وأجرى فيه على الله ، لأنكم تُعْلَمُونَ على قَدَرِ إمكانياتكم وعلمكم

وسبق أن حكينا لكم قصة الرجل الذي قابلناه في الجزائر ، وكان رجلاً تبدو عليه علامات الصلاح ، وقد أشر لنا لنقف بسيارتنا ونحمله معه ، فلما توقفنا ليركب معنا ماراً إلى السائق ، وقال (على كم) يعنى الأجرة فقال له الرجل ، وكان المحافظ : نُوصِلُكَ اللَّهُ ، فقال (غلّتها يا شيخ) نعم . إن كان الأجر على الله فهو غَالٍ

وهي آية أخرى يقول تعالى ﴿أَمْ نَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مُّسْخَرِينَ مُّثْقَلُونَ﴾ ﴿٤﴾ [الطور]

ثم يقول ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء] إِنَّ هَذَا
بمعنى ما النافية ، لأنه تعالى القادر على أن يكافئنى على دعوتى ،
فهو الذى أرسى بها ، وهو سبحانه رب العالمين الذى تبرج بالخلق
من عدم ، وبالإمداد من عدم ، وخلق لى ولكم الأرزاق ، وهذا كله
لصالحكم ، لأنه سبحانه لا ينتفع من هذا بشيء

والربوبية تقتضى عناية ، وتقتضى نفقة وخلقاً وإعداداً ، فصاحب
كل هذه الأفضال والنعم هو الذى يعطينى أجرى

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾

بعد أن بيّن لهم كرم الربوبية فى مسألة الأجر على لدعوه
وأعطاهم ما يشجعهم على التقوى وعلى الطاعة ، لأنهم سيستفدون
برسالة الرسول دون أجر منهم ومعنى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [١١]
[الشعراء] أى ليست لى طاعة ذاتية ، إنما أطيعونى ؛ لأنى رسول من
قبل الله تعالى

ثم يقول الحق سبحانه حاكياً ردّهم على نوح عليه السلام

﴿قَالُوا أَتُزَكِّيٰنَا نَحْنُ الْكَافِرُونَ﴾

الأردلون جمع أرذل ، وهو اردى من الشيء ، ورذال الفكرة
المعطوب منها وما نسميه (بقاصة) والاستفهام هنا للتعجب كيف
تؤمن لك ونحن السادة ، والمؤمنون بك هم الأرذلون ؟

يقصدون لفقراء وأصحاب الحرف والذين لا يؤبه بهم ، وهؤلاء
عادة هم جنود الرسالة ، لأنهم هم المطحونون من المجتمع الفاسد
وطبيعى أن يتلقفوا من يعدل ميزان المجتمع .

[عنوان]

لِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لَهُمْ : آمِنُوا بِي ، إِنَّمَا آمِنُوا بِاللَّهِ .

الإيمان^(٩)

﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ^(٧٤)

[المشعر]

(١) قَالَ تَعَالَى ﴿وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٢٢)﴾ [الزمر] وَقَالَ ﴿فَأَمَّا مَنْ

(٢) اى لم اكلّف العلم بافعالهم ، إنما كُلفت ان ادعومهم إلى الإيمان والاعتقاد بالإيمان لا

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٧ / ٥٠) : « قراءه العام : تشعرون ، بالتاء على المصطفية

خير عن الكفار ومرك الحساب لهم »

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٤)

وقد طلبوا منه أن يطرد هؤلاء المؤمنين من مجلسه ليجلسهم هم ، وفي آية أخرى قال سبحانه لنبيه محمد ﷺ ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعُدَاةِ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٧) [الاسم]

﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (١١٥)

فمن يسمع إنذارى ، ويسمع بشارتى ، ويأتى مجلسى ، فعلى عيى أرافقه ، فالله ما أرسلنى لأخص نوى لغنى دور الفقراء بمجلسى إنما أرسلنى لأبلغكم ما أرسلت به ، فمن أطاعنى فذلك السعيد عند الله ، وإن كان فقيراً

﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتَوْحَ لَتَكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (١١٦)

وهكذا أعلنوا الحرب على نبي الله نوح ، يقولون لا فائدة من تحذيرك . وما زلت مُصيراً على دعوتك ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ (١١٦) [الشعراء] عما تدعيه من الرسالة ، وما تقول به من تقوى لله وطاعته ، وما تفعله من تقريب الأزدلين إلى مجلسك . لتكونَ جمهوراً من صغار الناس

(١) الرجم القتل واسله الرمي بالمجارة ودرجم اللعن والشتم والسب [لسان العرب - مادة رجم] قال تعالى كل مرجومين من القرآن فهو القتل إلا فى سورة مريم ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجِمَنَّكَ﴾ (٤٦) [مريم] أى لاسبئك وقيل (من المرجومين) من المشتمين قاله السدى [تفسير القرطبي ١/٧ ٥]

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء] أى إذا لم تفتحه فسوف
ترجمك ، إنه تهديد صريح برسول الذى جاءهم من عبد الله يدعوهم
إلى الخير فى الدنيا والآخرة

كما قال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا
دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ..﴾ (٦٤) [الأنفال]

وهذا التهديد منهم لرسول الله يدعى أنهم كانوا أقوياء ،
وأصحاب حاه وبطش

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذِبُونَ﴾ (١١٧) ﴿فَأَفْتَحَ بَيْتِي وَبَيْنَهُمْ
فَتْحًا وَنَجَّيْتُ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٨)

تأمل هنا أدب نوح - عليه السلام - حين يشكو قومه إلى الله
ويرفع إليه ما حدث منهم ، كل ما قاله ﴿إِنَّ قَوْمِي كَذِبُونَ﴾ (١١٧)
[الشعراء] ولم يذكر شيئاً عن التهديد له بالرحم ، وإعلان الحرب على
دعوته ، لماذا ؟ لأن ما يهمه فى المقام الأول أن يصدق قومه ، فهذا
هو الأصل فى دعوته .

وقوله ﴿فَأَفْتَحَ بَيْتِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ..﴾ (١١٨) [الشعراء] الفتح هو
الشيء إما حسياً وإما معنوياً فمثلاً الباب المغلق يقفل بقول
يفتح الباب أى نزيل أغلقه

فإن كان الشيء مربوطاً فنزيل الأشكال ونفك الأربعة .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ
وَجَدُوا بِضَاعَهُمْ ذَرَّتْ إِلَيْهِمْ ..﴾ (٦٥) [يوسف] أى أزالوا الرباط عن
متاعهم ، هذا هو الفتح الحسى .

أما الفتح المعنوي فنزيل الألقاق والأشكال المعنوية ليأتي الخير وتأتي البركة ، كما في قوله سبحانه ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ ﴾ (٩٦) [الأعراف]

وفي آية أخرى ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۗ ﴾ (٩٧) [فاطر]

والخير الذي يفتح الله به على الناس قد يكون حبراً مادياً ، وقد يكون علماً ، كما في قوله تعالى ﴿ أَتُحَدِّثُهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ لِيُخَاجِبُواكَ بِهِ عِنْدَ رَبِّكَ ۖ ﴾ (٩٨) [المقرة]

أي من العلم في انشوراه ، يحاققون أن يأخذوه المؤمنين ، ويحطلوه حجة على أهل التوراة إذا ما كان لهم لفتح والغلبة ، بمعنى ﴿ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ (٩٩) [البقرة] أي بما علمكم من علم لم يعلموه هم

وقد يكون الفتح بمعنى الحكم ، مثل قوله سبحانه ﴿ رَبَّنَا فَتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (١٠٠) [الأعراف]

ويكون الفتح بمعنى البصر ، كما في قوله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ ﴾ [الأنصاف]

ثم يقول نوح عليه السلام ﴿ وَنَجِّنِي ۖ ﴾ (١٠١) [الشعراء] من كيدهم وما يهدونني به من الرُّجْمِ ﴿ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٢) [الشعراء] لأن الإيداء قد يتعداه إلى المؤمنين معه ، وتأتي لإحسان سريعة

﴿ فَالْيَحْيَىٰ ۖ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْعَالَمِ الْمَشْهُورِ ﴾ (١٠٣)

وقد وردت قصة السفينة في الأعراف وفي هود . ونوح عليه السلام سورة خاصة هي سورة نوح مثل سورة محمد ، ذلك لأن له في تاريخ الرسالات ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ويستحق أن يخصه الله تعالى بسورة باسمه

لذلك عندما يكرر أحد الناس بك الكلام ، ويُعيد عليك تقول له (هيه سورة) . فكلام العامة والأميين له أصل من استعمال اللغة

وفي موضع آخر ذكر الحق - تبارك وتعالى - قصة صنع السفينة في قوله تعالى ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ وَكَلَّمَا مَرْءٌ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۖ ﴾ (هود) وهذا دليل على أنها كانت أول سفينة يصنعها الإنسان وقد صنع نوح سفينته بأمر الله ووحيه وتحت عينه تعالى ، وفي رعايته ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا ۖ ﴾ (هود)

وما كان الله تعالى ليُكلفه بصنع السفينة ثم يتركه ، إنما تابعه ، حتى إذا ما حدث خطأ نُفِىَ إليه من البداية كما قال تعالى لسيدنا موسى ﴿ وَلُصِّصَ عَلَيْنَا عَيْنِي ﴾ (طه)

وسئل هذه الآيات نردُّ على الذين يقولون إن الله تعالى زاول سلطانه في ملكه مرة واحدة فخلق الحلق ، ثم ترك القوانين تسييره ، ولو كان الأمر كذلك لوجدنا العالم كله يسير بحركة (ميكانيكية) . لكن ظواهر الكون وما فيه من معجزات تدلُّ على قيوميته تعالى على خلقه .

لذلك يقول بهم ناموا من جعونكم ، فإن لكم رباً لا ينام ، كيف لا وأنت إذا استأجرت حارساً لمنزلك مثلاً تنام مطمئناً اعتماداً على أنه يَظُفُّ ؟ وكيف إذا حرسك ربك عز وجل الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ؟ وألا يدل ذلك على قيوميته تعالى ؟

هذه القيومية التي تنقُضُ العزائم ، ونفسُخُ القوانين ، قيومية تقول
للنار كونى برداً وسلاماً فتكون ، وتقول لعماء تجمدُ حتى تكون جبلاً
فيتجمد ، تقول للحجر انطلق فينطلق . ولو كان الأمر (ميكانيكياً) كما
يقولون لما حدث هذا ، ولما تخلف قانون واحد من قوانين الكون

والمشحون الذي امثلاً ، ولم يبقَ به مكان خال ، فكانت السفينة
مشحوة بما حمل فيها ، لأنها صُنعت بحساب دقيق ، لا يتسع إلا
لمن كُلف نوح بحملهم في سفينته ، وكانوا ثمانين رجلاً وثمانين
امراًة^(١) ومن كل حيوان زوجين اثنين

والفلك المشحون يُطلق ويراد به الواحدة ، ويُطلق ويراد به
الجماعة كما في قوله سبحانه ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْمْ فِي الْمَلِكِ وَجَرِينَ
بِهِمْ . . (٢٢) ﴾ [يونس]

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ (٢٣)

وهم الكافرون الذين لم يركبوا معه ر ﴿ بَعْدُ . (٢٢) ﴾ [الشعراء]
أي بعد ما ركب من ركب ، وبعد ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر
(١) وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر (٢٣) ﴾ [القمص]

﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كُنَّا

أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٢٤)

والآية الامر العجيب الذي يجب الالتفات إليه والاعتبار به ، لكن
من سيعتبر بعد أن غرق الباقون ؟ سيعتبر بهذه الآية المؤمنون الذين
ركبوا السفينة حين يرون نتيجة التكنيب ، ومصير المكذبين
الكافرين

(١) عن ابن عباس كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم وعن كعب الأحمير كانوا اثنين
وسبعين نفساً وقيل كانوا عشرة [قاله ابن كثير في تفسيره ٤٤٥/٢]

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٧٤)

أى ورعهم كُفَرهم وتكذيبهم ، ورعهم أنه ما كان أكثرهم مؤمنين ،
فأله تعالى هو العزيز الذى يغُيب ولا يُغَلِّب ، وهو سبحانه الرحيم
بعباده الذى يتوب على مَنْ تاب منهم .

ثم ينتقل السياق إلى قصة أخرى فى مركب الأمم العكَّة

﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٥)

ومما هنا أيضاً ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٣) [الشعراء] لأن تكذيب رسول
واحد تكذيب لكل الرسل ، لأنهم جميعاً جاءوا بقواعد وأصول واحدة
فى العقائد وفى الأخلاق

وعاد اسم للقبيلة ، وكانت القبائل تُنسب إلى الأب الأكبر فيها
ولصاحب الشهرة والنباهة بين قومه ، فعاد هو أب هذه القبيلة ، وقد
يُطلق عليهم بنو فلان أو آل فلان ، ثم يذكر لنا قصتهم ومتى كان
منهم هذا التكذيب

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٧٦)

قلنا إن (أَلَا) للحث والحض ، وحسين بُنكر النفس ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾
(١٧٤) [الشعراء] فإنه يريد الإثبات فكانه قال اتقوا . وقال ﴿أَخُوهُمْ﴾
(١٧٤) [الشعراء] ليرقق قلوبهم ويُحننهم إليه ، وليعرفوا أنه واحد
منهم ليس غريباً عنهم ، فهو أخوهم والأخ من نأبه العُصْح والشفقة
وارحمة ، وهذا إيتناس للخلق

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٧٥) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٧٦)

وهذه المقولة لازمة من لوازم الرسل في دعوتهم ، سبق أن قالها
نوح عليه السلام

﴿وَمَا أَمْسَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٧)

قلت إن هذه العبارة أول من قالها نوح - عليه السلام - ثم
سيقولها الأنبياء من بعده . لكن لماذا لم يقل هذه العبارة إبراهيم ؟
ولم يقلها موسى ؟

قالوا . لأن إبراهيم - عليه السلام - أول ما دعا دعا عمه أزر ،
فكيف يطلب منه أجراً ؟ وكذلك موسى - عليه السلام - أول دعوته
دعا فرعون الذي رباه في بيته ، وله عليه فضل وجميل ، فكيف يطلب
منه أجراً ، وقد قال له ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ
سِنِينَ﴾ (١٨) [الشعراء]

لذلك لم تأت هذه المقولة على لسان أحد منهما
وقال ﴿إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٧) [الشعراء] لأن الرب
هو الذي يقول للخلق بالبذل والعطاي والإمداد . قلنا إن عدم أحد
الاجر ليس زهداً فيه ، إنما طمعاً في أن يأخذ أجره من الله ، لا من
الناس

ثم يتوجه إليهم ليُصَحَّح بعض المسائل الخاصة بهم

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ (١٢٨)

وهذه خصوصية من خصوصيات قوم هود ، والرَّيْع هو المكان
المرتفع ، لذلك بعض الناس يقولون كم ريع بئناك ؟ يعنى ارتفاعه

كم متراً ، فكان الارتفاع يُثَمِّن البقعة ، ويُطْلَق الريح على الارتفاع في كل شيء^(١) .

وكلمة ﴿ آيَةٌ ﴾ (١٦٨) [الشعراء] بعد ﴿ أَتَّبِثُونَ ﴾ (١٦٨) [الشعراء] تعني القصور العالية التي تعتبر آية في الإبداع وجمال العمارة والزخرفة والمخامة والانتساع والرفعة في العلو

وقال ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ (١٦٨) [الشعراء] لأنهم لم يخلدوا في هذه القصور ، ومع ذلك يُشِيدُونها لتبقى أجيداً من بعدهم ، فعند هذا عينا منهم ، لأن الإنسان يكفيهِ أقلّ بناء بياويه فترة حياته

أو ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ (١٦٨) [الشعراء] لأنهم كانوا يجلسون في شرفات هذه القصور يصدّون الناس ، ويصرخونهم عن هود وسماع كلامه ودعوتهم التي تُلقّتهم إلى منهج الحق

ونحن لم نر حضارة عاد ، ولم نر آثارهم ، كما رأينا مثلاً آثار الفراعنة في مصر ، لأن حضارة عاد طمرتها الرمال ، وكانوا بالجزيرة العربية في منطقة تُسمّى الآن بالربع الخاسي ، لأنها منطقة من الرمال الناعمة التي يصعب السير أو المعيشة بها ، لكن لكي نعرف هذه الحضارة نقرأ قوله تعالى في سورة الفجر

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي أَيْلَافٍ (٨) ﴾ [الفجر]

(١) من كلمة الريح أقال

- ما ارتفع من الأرض في قول ابن عباس وغيره

الريح بطريق ، قاله قتادة والضحك والكسبي ومقاتل والسدي ، وابن عباس أيضاً

الريح نهج بين الجبين ، قاله حماد

الريح بين الحمم دليله « تعبثون » أي تلعبون أي تبور بكل مكان مرتفع أنه علما

تلعبون بها على معنى أشبه الحمام وبروجها [تفسير القرطبي ٢/٢٠٦ - ٢٠٣]

وما دامت لم يُخْلَق مثلها في البلاد ، فهي أعظم من حضارة
الفراعنة اتى بشاهده الآن ، ويفد إليها الناس من كل أنحاء العالم
ليشاهدوا الأهرام مثلاً ، وقد بنيت لتكون مجرد مقابر ، ومع تقدم
العلم في عصر الحضارة والتكنولوجيا ، ما زال هذا البناء مُحيرًا
للعلماء ، لم يستطيعوا حتى الآن معرفة الكثير من سراره .

ومن هذه الأسرار التي امتدوا إليها حديثاً كيفية بناء أحجار
الأهرام دون ملاط^(١) مع ضخامتها ، وقد توصلوا إلى أنها بُنيت
بطريقة تفريغ الهواء مم بين الأحجار ، وهذه النظرية تستطيع
ملاحظتها حين تضع كوباً مبللاً بالماء على المنضدة مثلاً ، ثم تتركه
فترة حتى يتبخر الماء من تحته ، فإذا أردت أن ترفعه من مكانه
تحده قد لصق بالمنضدة

وليس عجيباً أن تختفي حضارة ، كانت أعظم حضارات الدنيا
تحت طبقات الرمال ، فالرمال حين تثور تبتلع كل ما أمامها ، حتى
إنها طمرت قبيلة كاملة بجمالها ورجالها ، وهذه حبة واحدة ، فما
بالك بثورة الرمال ، وما تسفوه الريح طوال آلاف السنين ؟

وإن رائق من أنهم إذا ما نبشوا هذه الرمال وأزاحوها لوجدوا
تحتها أرضاً خصبة وآثاراً عظيمة كما نرى الاكتشافات الأثرية الآن
كلها تحت الأرض ، وفي مينا أثناء حفر أحد خطوط لمجاري هناك
وجدوا آثاراً لقصور ملوك سابقين

وطالما أن الله تعالى قال عن عاد ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً
تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء] فلا بد أن هناك قصوراً ومباني مطمورة تحت
هذه الرمال

(١) ملاط الحائط طلاء والملاط الطين الذي يُجمع بين سائى البناء ويُسَط به الحائط
[لسان العرب - مادة ملاط]

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (١٢٩)

المصانع تُطلق على موارد الماء ، وتطلق على الحصون ، لماذا ؟
قالوا لأن الحصون لا تُبنى للإيواء فقط ، لأن الإيواء يمنع
الإنسان من هوام الحياة العادية . أما الحصون وتمنعه أيضاً من
الأعداء الشرسين الذين يقربصون به ، فكانهم جعلوها صنعة مثمرة ،
لماذا ؟

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (٢٩) [الشعراء] يعنى أتبنون هذه الحصون هذا
النساء القوى المسلح تريدون الحلود ؟ وهل أنتم مُخلّدون فى الحياة ؟
إن فترة مُكث الإنسان فى الدنيا يسيرة لا تحتاج كل هذا التحصين .
فهى كظل شجرة ، سرعان ما يزول

﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (١٣٠)

والبطش الأخذ بشدة وبِعِف ، يقول تعالى ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ
لَشَدِيدٌ﴾ (١٧) [البروج] ويقول ﴿أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ﴾ (٤٢) [القمر]
لأن الأخذ يأخذ صَوْرًا متعددة تأخذه بلين وبِعطف وشفقة ، أو
تأخذه بعِف .

ثم يزيدهم صفة أخرى تؤكد بَطْشَهُمْ ﴿بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (١٣٠) [الشعراء]
لأنك قد تأخذ عدوك بعِف ، لكن بعد ذلك يرقُ له قلبك ، فترحم
دُلَّتْ لك ، فَتُهَوِّنُ عليه وترحمه ، لكن هؤلاء جبارون لا ترقُ قلوبهم
وهذه الصفات الثلاثة السابقة لِقَوْمٍ هود ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً
تَعْبَثُونَ﴾ (٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ
جَبَّارِينَ (١٣٠) [الشعراء]

هذه الصفات تخدم صفة التعالي ، وتسعى إلى الوصول إليه
وكانهم يريدون صفة العلو التي تُقربهم من الألوهية ، لأنه لا أحد
أعلى من الحق سبحانه ، ثم يريدون أيضاً استدامة هذه الصفة
واستقاء الألوهية . ﴿لَعَلَّكُمْ تَحْلَدُونَ﴾ (١٢٩) [الشعراء]

وفي صفة البطش الشديد والجبارية يريدون التفرّد على الغير ،
والقرآن يقول ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي
الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ..﴾ (٨٣) [القصر]

فإن كنت تريد أداء الخدمة المنوطة بك في الحياة ، فعليك أن
تؤديها ، لا لتعالي ، لأنك حينئذ ستأخذ حظك من العلو والفكبة في
دار الدني وتنتهي بمسألة ، أمّا إن جعلت وهي بالك ربك ، وفي بالك
أن تُيسر للناس مصالح الحياة ، فإنك تُرقى عملك وتُثمره ، ويظل لك
أجره ، طالما وجد العمل ينتفع الناس به إلى أن تقوم الساعة . وهذا
أعظم تصعيد لعمل الإنسان

ولم يفعل قوم عاد شيئاً من هذا ، إنما طلبوا العلو في الارض ،
وبطشوا فيها حمارين . لكن أبتركهم ربهم عز وجل يستمروا على
هذه الحال ،

إن من رحمة الله تعالى بعباده أن يذكرهم كلما نسوا ، ويوقظهم
كلما غفلوا ، فيرسل لهم الرسل المتوالين ، لأن الناس كثيراً ما تغفل
عن العهد القديم الذي أخذوه على أنفسهم ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ
مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن
تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٢) أو تقولوا إنما أشرك آبائنا
من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴿١٧٣﴾ [الأعراف]
وقلنا ن الحق - تبارك وتعالى - بضع الساعة في حليصه في

الأرض ، ويعطيه المنهج الذي يصلحه ، لكنه قد يفعل عن هذا المنهج أو تقلبه نفسه ، فيتحرف عنه ، والإنسان بطبيعته يحمل مناعة من الحق ضد الباطل وضد الشر ، فإن فُسدت فيه هذه المناعة فعلى الآخر أن يذكّره ويوقظ فيه دواعي الخير . ومن هنا كان قوله تعالى ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالْمَعْرِفَةِ ﴾ [المصدر]

فإن وجدت أخاك على باطل فخذ بيده إلى الحق

ومعنى ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ .. ﴿ [المصدر] أى تبادلوا التوصية ، فكل منكم عرضة للغفلة وعرضة للانحراف عن المنهج ، فإن غفلت أنا نوصيني ، وإن غفلت أنت أوصيك ، وهذه امساعة ليست فى الذات الآن ، إنما فى المجتمع المؤمن ، فمن رأى فيه اعوجاجاً قوماً

لكن ما الحال إن فسدت المناعة فى الفرد وفسدت فى المجتمع ، عصار الناس لا يعرفون معروفاً ، ولا يكفون منكراً ، كما قال تعالى عن بنى إسرائيل

﴿ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ مِنْكُمْ قَدْرًا .. ﴾ (٧٩) [المائدة]

وعندها لا بد أن يرسل رب العزة سبحانه برسول جديد ، ومعجزة جديدة تُوقظ الناس ، وتعيدهم إلى جادة ربهم .

ومن شرف أمة محمد ﷺ أن الله تعالى جعل المناعة فى ذات نفوسها . فجعلهم الله توابين ، إن فعل أحدهم الذنب تاب ورجع ، وإن لم يرجع وتمادى رده المجتمع الإيماني وذكّره

وهذه الصفة ملازمة لهذه الأمة إلى قيام الساعة ، كما ورد فى الحديث « الخير فى وفى أمتى إلى يوم القيامة »^(١)

(١) قال العجلوني فى كشف المعاني (٤٧٦/١) ، قال (البخاري) فى المقاصد (الصفة) قال شيخنا (ابن حجر العسقلاني) لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح يعنى فى حديث لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة وقال ابن حجر المكي فى التلوي الحديثية لم يرد بهذا اللفظ .

لذلك لن يأتى فيها رسول بعد رسول الله ﷺ ، لأن المنفعة ملازمة لها فى الذات ، ومضى لنفس اللوامة . وفى المجتمع الإيماني الذي لا يُعَدُّ فيه الخير أبداً

لذلك يقول سبحانه ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴾ (١١٠) [آل عمران] وهذه صفة مفردة بها هذه الأمة عن باقى الأمم ، لذلك يقول هود .. عليه السلام - مُدْكِرًا لقومه ومُوقِظًا لهم

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (١١٣)

أى أن ربكم - عز وجل - لم يترككم على ما أنتم عليه من الضلال تعيقون بالآيات ، وتتحدون مصابيح تطلعون ابطلود ، وأنكم بطشتم جبارين ، وما هو يدعوكم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (١١٣) [الشعراء] فتقوى الله تعالى وطاعته كفضيلة أن تذهب ما يصيكم وتمحو دنوبكم ، بل وتُبدله حسناً وصلاً ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ .. ﴾ (١١٤) [مؤ]

وأنا حين أوصيكم بتقوى الله وطاعته لا أوصيكم بهذا لصالحى أذ ، فلا أقول لكم اتقوا أو أطيعوا ولأن أنفع من طاعتكم بشيء كذلك الحق - تبارك وتعالى - غنى عنكم وعن طاعتكم لأن له سبحانه صفات الكمال المطلق قبل أن يحق الخلق ، فهو سبحانه يتصف بالخلق قبل أن يخلق ، وبالقدرة قبل أن يوجد المقدور عليه . إلخ .

إذن فوجودكم لم يَزِدْ شيئاً فى صفاته تعالى ، وما كانت الرسائل إلا لمصلحتكم أنتم ، فإذا لم تطيعوا أوامر الله . وتأحدوا منهجه ، لأنه يفيدكم فإطيعوه جزاء ما أنعم عليكم من نعم لا تُعدُّ ولا تُحصى ، فالإنسان طراً على كور أعد لا يستقبله وهىء لمعيشته ،

وخلق له الكون كله سماء ، فيها الشمس والقمر والنجوم واسحاب
والنطر . وأرضاً فيها الحصب والماء والهواء هذا كله قبل أن توجد
أنت ، فطاعتك لله - إنى - ليست تفضلاً منك ، إنما جِراء ما قدم لك
من نعم

وعجيب أن ترى هذه المخلوقات التي جعلت لخدمتك أطول عمراً
منك ، فالإنسان قد يموت يوم مولده ، وقد يعيش عدة أيام أو عدة
سنوات ، أما الشمس مثلاً فعمرها ملايين السنين ، وهي تخدمك دون
سلطان لك عليها ، ودون أن تتدخل أنت في حركتها .

ثم يقول تعالى

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٣٢)

لم تعدد الآية ما أمدا الله به ، وتركنا لنا أن نُعده نحن ، لأننا
نعرفه جيداً ونعيشه ، ونذكره بكل حواسنا ومداركنا ، فما من آلة
عندك إلا وتحت إدراكها نعمة الله ، بل عدة نعم ، فالعين ترى
المناظر ، والأذن تسمع الأصوات ، والأنف يشم الروائح ، والسيد
تبطش .. إلخ .

﴿أَمْذُكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٣٢) [الشعراء] يقولوا أنتم واشهدوا على
أنفسكم وعددوا نعم ربكم عليكم

﴿أَمْذُكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ﴾ (١٣٣)

المراد بالأنعام الضأن والماعز والإبل والبقر ، ثمانية أزواج

﴿وَحَنَنْتَ وَعُيُونٍ﴾ (١٣٤)

فَإِنْ قُلْتَ مَتَحْنُ نَعْرُ بِدِيَارِهِمْ ، فَلَا نَرَى إِلَّا حِصْلَاءَ تَسْفُرُ فِيهِ
الرياح ، نعم لقد كانت لهم جنات وعيون هي الآن تحت أطباق الثرب
﴿ هَلْ نَحْسِبُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْوًا ﴾ (١٢٨) [مريم]

﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٢٥)

أى أن تقوى الله وطاعته لا تعدّ شكراً على نعمه فحسب ، إما
يصاً تكون لكم رقاية من عذاب الآخرة فلا تظنوا أنكم أخذتم نعم
الله ثم بإمكانكم الإفلات منه أو لهرب من لقاءه ، فلقاؤه حق لا
مفرّ منه ، ولا مهرب ، فإن لم تَخَفْ السَّابِقَ من النعم ، فَخَفِ الْلاحِقَ
من النقم .

فماذا كان ردّهم على مقالة نبيهم وموعظته لهم ؟

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ (١٣١)

وقولهم ﴿ أَوَعَضْتَ .. ﴾ (١٣١) [الشعراء] دليل على أن الحق لا يُدّ أن
يظهر ، وهو على السنة المكابرين ، ولا يكون الوعظ إلا لمن علم
حكماً ، ثم تركه ، فيأتى الواعظ ليذكّره به ، فهو - إذن - مرحلة ثانية
بعد التعليم ، فهذا القول منهم اعتراف ودليل أنهم علموا لمطلوب
منهم ، ثم غفلوا عنه

وهؤلاء يقولون لنبيهم ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ
(١٣١) ﴾ [الشعراء] يعنى أرح نفسك ، فسواء علينا وعظك وعدم
وعظك ، ونلاحظ أنهم قالوا : ﴿ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ (١٣١) [الشعراء]

(١) الرّكز الصوت الحظي [القاموس القويم ٢٧٥/١] والركز صوت الإنسان تسمعه
من بعيد نحو ركز الصوت إذا ناجى كلابه [لسان العرب - مادة ركز]

ولم يقولوا مثلاً سواء عليا أو عذت أم لم تعظ ، لأن نفى الوعظ
يُثبت له القدرة عليه

إنما ﴿لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (٣٩) [الشعراء] يعنى امتنع منك
الوعظ بهائياً ، وكانهم لا يريدون مسألة الوعظ هذه أبداً ، حتى فى
المستقبل لن يسمعوا له

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٧)

إِنْ بمعنى ما النافية ، يعنى ما هذا الذى جئت به إلا
﴿خُلُقٌ...﴾ (٣٧) [الشعراء] الاولين يعنى عادة من سبقوك واختلاقهم ،
يقصدون الرسل السابقين كما قالوا ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا
مَنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨) [البلد]

وقالوا ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ (٣٥) [س]

يوصفوا ببيهم ، ومن سبقوه من الرسل بالكذب والاختلاق وإيجاد
شئ لم يكن موجوداً .

والخُلُقُ صفة ترسخ فى النفس تصدر عنها الافعال يُيسر
وسهولة والصفات التى يكتسبها الإنسان لا تعطى مهارة من اول
الامر ، بل تعطى مهارة بعد الدربة عليها ، فتصير عند صاحبها
كالحركة الآلية لا تحتاج منه إلى مجهود أو معاينة

وسبق أن ضربنا مثلاً بالصبى الذى يتعلم مثلاً الحياكة وكما
معانى وبصره معلمه فى سبيل تعلم لصم المحيط فى الإبره ، حتى
إذا ما تعلمها الصبى وأجادها تراه يفعل ذلك تلقائياً ، ودون مجهود
وربما وهو مغمض العينين

رأت حينما تتعلم قيادة السيارة مثلاً لأول مرة كم تعاني وتقع في أخطاء وأخطار ، لكن بعد التدريب والدربة تستطيع قيادتها بعهارة ، وكأنها مسألة آلية ، وكذلك الخلق المعنوي ، مثل هذه الدربة والآلية في اماديات .

إذن ﴿ خَلَقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (١٣٧) [الشعر] يعنى دعوى ادعواها جميعاً - أى - الرسل

وفى قراءة أخرى " فوجه للمرسل إليهم بفتح لحاء وسكون اللام (خَلَق) أى احتلاق والمعنى نحن كمن سبقونا من الأمم لا نختلف عنهم ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (٢٣) [الرurf] ومؤلاء السابقون قالوا ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ .. ﴾ (٢٤) [الجاثية]

فهذه الصفة أصبحت عندما ثابتة متصلة فى النفس ، فلا نحاول زحزحتنا عنها ، فالمراد نحن مثل السابقين لا يؤمن بمسألة البعث ، فأرح نفسك ، فنز يجدى معنا وعظك

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ (١٣٨)

يقولونها صريحة رداً على قوله ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٣٥) [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَ كَنَّهُمْ إِنِّى ذَلِكِ

لَآيَةٍ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٦)

(١) هى قراءة ابن كثير وابن جرير والكشافى . قال الهروى : أى احتلاقهم وكذبهم والعرب تقول حدثنا فلان بأحاديث الخلق أى بالخرافات والأحاديث المبتدعة [تفسير القرطبي

وكانت السماء قبل محمد ﷺ تجعل الرسول يُدلى بمعجزته ، أو يقول بمهجه ، لكن لا تصلب منه أن يُؤدب المعاندين والمعارضين له إما تتولى السماء عنه هذه المهمة فتوقع بالمكذابين عذاب الاستئصال

وقد أمنت أمة محمد ﷺ من عذاب الاستئصال ، فمن كفر برسالة محمد ﷺ لا يأخذه الله كما أخذ المكذابين من الأمم السابقة ، إما يقول سبحانه : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١٤)

وكلمة ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ .. ﴾ (١٣٩) [الشراء] كلمة صادقة ، لها دليل في الوجود نراه شاخصاً ، كما يقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) ﴾ [الفجر]

نعم ، كانت لهم حضارة بلغت القمة ، ولم يكن لها مثل ، ومع هذا كله ما استطاعت أن تصون نفسها ، واحدها الله أخذ عزيز مقتدر . قال تعالى ﴿ وَإِسْكُمُ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَاللَّيْلُ أَقْلًا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٣٨)

وقال ﴿ فَتِلْكَ بَيْرُهُمْ حَارِبَةٌ مَا ظَلَمُوا . ﴾ (١٤٢) [البل]

أي أنها شاحصة أمامكم ترونها وتمرون عليها ، وأنتم لم تدلعوا مبلغ هذه الحضارة ، فإذا كانت حصارتهم لم تمنعهم من أخذ الله العزيز المقتدر ، فينبغي عليكم أن تتنبهوا إلى أنكم أضعف منهم ، وأن ما حاق بالكافرين وما نزل بالمكذابين ليس بسعد عن أمثالهم من الأمم الأخرى

لذلك تجد الحضارات اتى تتوارث هي انكون كلها الت إلى زوال .

ولم نجد منها حضارة بقيت من البداية إلى النهاية ، ولو بُنيت هذه الحضارات على قيم ثابتة لكان فيها المنفعة ضد الزوال

وقوله تعالى . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ ﴾ (١٣٩) [الشعراء] أي في إهلاك هذه الحضارة لأمر عظيم يلفت الانتظار ، ويدعو للتأمل ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٩) [الشعراء]

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٤٠)

قال ﴿ رَبُّكَ ۖ ﴾ (١٤٠) [الشعراء] ولم يقل ربهم ، لأن مدركة المربي تعظم في التربية بمقدار كمال المربي ، فكأنه تعالى يقول : أنا ربك الذي أكملت تربيتك على أحسن حال ، فمن أراد أن يرى قدرة الربوبية فليرها في تربيتك أنت ، والمربي يبلغ القمة في التربية إن كان من رباه عظيماً

لذلك يقول ﷺ : أدبني ربي فأحسن تأديبي ^(١) .

إن من عظمة الحق تبارك وتعالى أن يعطي نموذجاً لدقة تربيته تعالى ولعظمة تكوينه ، ولما يصنعه على عينه تعالى بمحمد ﷺ فكانه ﷺ أكرم مخلوق مربى في الأرض ، لذلك قال ﴿ رَبُّكَ ۖ ﴾ (١٤٠) [الشعراء] ولم يقل ربهم مع أن الكلام ما يرال مُعلقاً بهم

وقوله تعالى ﴿ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٤٠) [الشعراء] العزيز قلنا هو الذي يغلب ولا يُغلب ، لكر لا تظن أن في هذه الصفة جيروتاً ، لأنه تعالى أيضاً رحيم ، ومن عظمة الأسلوب القرآني أن يجمع بين هاتين الصفتين عزيز ورحيم وكأنه يشير لنا إلى مبدأ إسلامي يُرى

(١) قال المجلوس في كشف الغطاء (٧٢/١) : قال ابن تيمية لا يعرف له إسناد ثابت . لكر قال (السيوطي) في الدرر صححه أبو الفص بن ناصر وقال (السيوطي) في الألفية : معناه صحيح لكن لم يأت من طريق صحيح .

الإسلام عليه أتباعه ، ألا وهو الاعتدال فلا تطغى عليك خصلة أو طبع أو خلق والرم الوسط ، لأن كل طبع فى الإنسان له مهمة .

وبأمل قول الله تعالى فى صفات المؤمنين

﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ .. ﴾ (٥٤) [المائدة]

فالمسلم ليس مجبوراً على الذلة ولا على العزة ، إنما الموقف هو الذى يجعله ذليلاً ، أو يجعله عزيزاً ، فالمؤمن يتصف بالذلة والخضوع للمؤمنين ، ويتصف بالعزة على الكافرين

ومن ذلك أيضاً ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. ﴾ (٢٩) [الفتح]

رمعلوم أن الرحمة فى غير موضعها ضعف وخور ، ومثلاً الوالد الذى يرفض أن يجرى بولده جراحة خطيرة فيها نجاته وسلامته خوفاً عليه ، نقول له : نها رحمة حمقاء وعطف فى غير محله

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) ﴾

بعد أن ذكر طرفاً من قصة إبراهيم وموسى ونوح وهود عليهم السلام ذكر قصة ثمود قوم صالح عليه السلام ، وقد تكررت هذه اللقطات فى عدة مواضع من كتب الله ، ذلك لأن القرآن فى علاجه لا يعالج أمة واحدة فى بيئة واحدة بخلق واحد إنما يعالج عالماً مختلف البيئات ومختلف الداءات ومختلف المواهب والميول .

ملا بُد أن يجمع الله له الرسل كلهم ، ليأخذ من كل واحد منهم لفظة ، لأنه سيكون منهاجاً للناس جميعاً فى كل زمان وفى كل مكان .

أَمَّا هَؤُلَاءِ الرُّسُلُ الَّذِينَ جَمَعَهُمُ اللَّهُ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ فَلَمْ يَكُونُوا لِلنَّاسِ كَافَةً ، إِنَّمَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَأَمَةٍ بَعِيْنُهَا ، وَلِقَابِلٍ وَاحِدٍ فِي زَمَنِ مَخْصُوصٍ ، وَمَكَانٍ مَخْصُوصٍ .

لَقَدْ بَعَثَ مُحَمَّدٌ ﷺ لِيَكُونَ رَسُولًا يَجْمَعُ الدِّينَ كُلَّهُ عَلَى نِظَامٍ وَاحِدٍ ، وَخَلَقَ وَاحِدًا وَمِنْهُجٍ وَاحِدًا ، مَعَ تَبَايُنٍ بَيِّنَاتِهِمْ ، وَتَبَايُنٍ دَعَائِهِمْ وَمَوَاقِعِهِمْ . إِنَّ لَئِنَّ أَنْ يَذْكَرَ أَحَقُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لِرَسُولِهِ ﷺ طَرَفًا مِنْ سِيرَةِ كُلِّ نَبِيٍّ سَبَقَهُ

لِذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِيْنَ ﴾ (١٦٠) ﴿ هُودٍ ﴾

وَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ فِي حَاجَةٍ لِأَنْ يُثَبِّتَ اللَّهُ فَوَائِدَهُ مَرَّةً وَاحِدَةً ، إِنَّمَا كُلُّهَا بَعَرَضٌ لِمَوْقِفِ احْتِجَاجٍ إِلَى تَثْبِيْتٍ ، فَيُثَبِّتُهُ اللَّهُ ، يَقُولُ لَهُ تَذَكَّرْ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ نُوحٍ وَهُودٍ . إِنْ كَانَ تَكَرُّارُ الْقِصَصِ لِتَكَرُّارِ التَّثْبِيْتِ . فَالْقِصَّةُ فِي الْقُرْآنِ وَإِنْ كَانَتْ فِي مَجْمُوعَةٍ مَكْرُورَةً ، إِنَّمَا لِقَطَاتُهَا مُحْتَلِفَةٌ تُوْدِي كُلُّ مَبْهَغٍ مِنْهَا مَعْنَى لَا تُؤْدِيهِ الْآخَرَى

وَمَا يَقُولُ سُبْحَانَهُ كَمَا قَالَ عَنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطُرُفِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٦١) ﴿ الشُّعْرَاءُ ﴾ لِأَنَّ الرُّسُلَ جَمِيعًا إِنَّمَا جَاءُوا بِعَقِيدَةٍ وَاحِدَةٍ ، لَا يَخْتَلِفُ عَلَيْهَا رَسُولٌ عَنِ الْآخَرِ ، وَصَدَرُوا مِنْ مَصْدَرٍ وَاحِدٍ ، هُوَ الْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَلَا يَخْتَلِفُ الرُّسُلُ إِلَّا فِي الْمَسَائِلِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْبَيِّنِيَّةِ الَّتِي تَنْسَبُ كُلًّا مِنْهُمْ

لِذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْفَاطِ وَعِيسَى ﴾ (١٦٣) ﴿ الْبَنَاءِ ﴾

وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَشَرَعْنَا لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّيْنَا بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا

إِلَيْنَا وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. ﴿١٤٣﴾ [الشورى]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٤٢﴾ إِنَّ لَكُمْ رَسُولًا أَمِينًا ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ ﴿١٤٤﴾

قال هذا أصلاً ﴿أَخُوهُمْ..﴾ [الشعراء] ليرفّق قلوبهم ويحدثهم على نبيهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء] قلنا إنها استفهام إنكارى تعنى اتقوا الله ، ففيها حثٌّ وحضٌّ على التقوى ، فحين تُنكر البغى ، فإنك تريد الإثبات

ولما كانت التقوى تقتضى وجود منهج نتقى الله به ، قال ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء] وما دُمْتُ أنا رسول مبین لى أعشكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء] وكرر الأمر بالتقوى مرة أخرى ، وقرنها بالطاعة

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٤٥﴾

فكان العمل الذى أقدمه من أجلكم - فى عُرف العقلاء - يستحق أجراً ، فالعامل الذى يعمل لكم شيئاً جزئياً من مسائل الدنيا يزول ويفتهى يأخذ أجراً عليه ، أما أنا فاقدم لكم عملاً يتعدى الدنيا إلى الآخرة ، ويمدّ حياتك بالسعادة فى الدنيا والآخرة ، فأجرى - إذن - كبير ، لذلك لا أطلبه منكم إنما من الله

﴿أَتُزَكُّونَ فِي مَا هُمْ بِمُتَنَبِّئِينَ﴾ (١٤٣)

يريد أن يُربِّخهم . أتظنون أنكم ستخلَّدون في هذا النعيم ، وأنتم آمنون ، أو أنكم تأخذون نِعَمَ الله ، ثم تقرُّون من حسابه ، كما قل سبحانه .

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٤) [المؤمنون]

لعمري طي ذلك فهو مخطيء قاصر الفهم . لأن الأشياء التي تخدمك في الحياة لا تخدمك بقدرة منك عليها ، فانت لا تقدر على الشمس فتأمرها أن تشرق كل يوم . ولا تقدر على السحاب أن ينزل المطر ، ولا تقدر على الأرض أن تعطيها الخصوبة لقتيب ، ولا تقدر على الهواء الذي تتنفسه . إلخ وهذه من مقومات حياتك التي لا تستطيع البقاء بدونها

وكان من الواجب عليك أن تتأمل وتفكر من الذي سخرها لك . وأقدرك عليها ؟ كالرجل الذي تقطع في الصحراء وفقد دابته وعليها طعامه وشرابه حتى أشرف على الهلاك ، ثم أخذته سعة أفاق منها على مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، بالله ، اليس عليه قبل أن تمتد يده إليها أن يسأل نفسه من أعد لي هذه المائدة في هذا المكان ؟

كذلك أنت طرأت على هذا الكون وقد أعد لك فيه كل هذا الخير ، فكان عليك أن تنظر فيه . وفيمن أعد لك ؟ فإذا جاءك رسول من عند الله ليحل لك هذا اللغز ، ويحبرك بأن الذي فعل كل هذا هو الله ، وأن من صفات كماله كذا وكذا ، فعليك أن تُصدِّقه .

لأنه إما أن يكون صادقاً يهديك إلى حل لغز حار فيه عقالك ، وإما هو كاذب - والعياذ بالله وحاشا لله أن يكذب رسول الله على الله

- فإن صاحب هذا الخلق عليه أن يقوم ويدافع عن خلقه
ويقول هذا الرسول مُدَّعٍ وكاذب ، وهذا الخلق لم يَقمُ
للخلق مُدَّعٍ فقد ثبتت القصية لله تعالى إلى أن يظهر من يدعيها لنفسه .

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (١٤٧)

وقوله تعالى ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (١٤٧) [الشعراء] امتداد للآية
السابقة ، بمعنى لا تظنوا أن هذا يدوم لكم و (جنات) جمع جنة .
وهي المكان الملىء بالحيرات ، وكل ما يحتاجه الإنسان ، أو هي المكان
الذي إن سار فيه الإنسان سترته الأشجار ، لأن جنَّ يعني ستر كما في
قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ . . (٧٦) ﴾ [الأنعام] أي ستره
ومنه الجنون ويعنى ستر العقل وكذلك الجنة ، فهي تستر
عن الوجود كله . وتُعَنك عن الخروج منها إلى غيرها ، ففيها كل ما
تطلبه نفسك ، وكل ما تحتاجه في حياتك .

ومن ذلك ما نسميه الآن (قصراً) لأن فيه كل ما تحتاجه بحيث
يقصرك عن المجتمع البعيد

وقال بعدها ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ (١٤٧) [الشعراء] لأن الجنة تحتاج دائماً
إلى الماء ، فقال ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ (١٤٧) [الشعراء] ليضمن بقاءها
ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَزُرُوعٍ وَخَلِّ طَلْمَهَا هَاضِمٌ ﴾ (١٤٨)

السل من الزروع ، لكن حصَّ النخل بالذَّكْر ، لأن رسول الله ﷺ
اهتم به ، وشجَّبه بالمؤمن في الحديث « إن من الشجر شجرة
لا يسقط ورقها »^(١) قال الراوى فوقع الناس في شجر البوادي .

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخارى في صحيحه (١١ . ٩ مواضع أخرى) وكذا مسلم
في صحيحه (٢٨١١) كتاب صفات المنافقين ، وأحمد في مسنده (٦١/٢ ، ١٢٢) من
حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما

ولم يهتدوا إليها ، فلما خرج عمر وابنه عبد الله قال يا أبى ، لقد وقع فى ظنى أنها النخلة ، لأنها مثل المؤمن- كل ما فيه خير

نعم لو تأملت النخلة لوجدت أن كل شيء فيها نافع ، وله مهمة ، وينتفع الزارع به ، ولا يُلْقَى منها شيء مهما كان بسيطاً . فالجذوع تُصنع منها السوارى والأعمدة ، وتُسقف بها النيرت قبل ظهور الجرساة ، ومن الجريد يصنعون الأقفاص ، والجرء المعلق من الجريدة ويسمى (القحف) والذي لا يصلح للأقفاص كانوا يجعلونه على شكل معين ، فيصير (مقشّة) يكتسبون بها المنازل

ومن اللب يصنعون الحبال ، ويجعلونه فى تنجيد الكراسى وغيرها ، حتى الأشواك التى تراها فى جريد النخل خلقه الله بحكمة وبقدّر ، لأنها تحمى النخلة من الفئران أثناء إثمارها ، والللب الذى ينمو بين أصول الجريد جعله الله حماية للنخلة ، وهى فى طور النمو ، وما تزال غصّة طرية ، فلا يحمى بعضها على بعض

إذن هى شجرة حيّرة كالمؤمن ، وقد نم أحيراً فى أحد البحوث أن أخذوا الجزء الذى يسمى بالقحف ، وجعلوه فى تربة مناسبة ، فأنبتوا منه نخلة جديدة

لذلك ما قال ابن عمر إنها النخلة ذهب عمر إلى رسول الله ، وحكى له مقالة ولده ، فقال ﷺ « صدق ولدك » فقال عمر (نواله ما يسرى أن فطن ولدى إليها أن لى حمر النعم)^(١)

(١) قال ابن عمر لأبيه عمر ذكرت ذلك لعمر ، قال « لأن تكون قلت هى النخلة ، أحب إلى من كذا وكذا » وهو لغة مسلم ، وفى رواية عبد الحميد (١٢٣/٢) أن عمر قال لاسه يا بى ، ما سمعتك أن تتكلم ، فوالله لأن تكون قلت ذلك أحب إلى من أن يكون لى كذا وكذا .

والذين يزرعون النخل يرون فيه آيات ومعجائب دالة على قدرة الله تعالى .

ومعنى ﴿عَلَّمَهَا هَضِيمٌ﴾ (١٤٨) [الشمر] الطَّلْع هو الكوز الذى تخرج منه الشماريخ فى الأنثى ويخرج منه المادة المحبسة فى الذكر ، والتى قال الله عنها ﴿قِنَوانٌ دَانِيَةٌ﴾ (٩٩) [الاسقام] وفى الذكر يخرج من الكوز المادة المخصبة للنخلة ، وللقنّون أو الشماريخ أطوار فى النمو يُسمونه (الحلا) ، فيظل ينمو ويكبر إلى أن يصل إلى نهايته حدّاً حيث يجمد على هذه الحالة ، ويكتمل نموه الحجمى ، ثم تبدأ مرحلة اللون

يقولون (عَفْر) لنخر يعنى شاب حضرته حمرة أو صمرة^١ . فإذا اكتمل احمرار الأحمر واصفرار الأصفر ، يسمى (بُسْر) ثم يتحول البُسْر إلى (الرطب) حيث تلين ثمرته وتفصل قشّرتّه ، فإن كان الجو جافاً فإنَّ الرطب يَبْيَس ، ويتحول إلى (التمر) حيث تتخثر مائته وتتماسك قشّرتّه ، وتلتصق به

ومعنى ﴿هَضِيمٌ﴾ (١٤٨) [الشمر] يعنى غصنٌ ورطبٌ طرى^٢ ، وهذا يدل على خصوبة الأرض ، ومنه هضم الطعام حتى يصير ليّناً مُستساغاً ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَتَنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوتَا فَرِهِينَ﴾ (١٤٩)

(١) لَعْفَار تلفيح الدحل وإصلاحه ، وعَفْر النخس فرغ من تلقيحه [نسخ العرب - مادة عفر]

(٢) هذه الكلمة فيها قرأتان

- فَرِهِينَ بفتح الف ، قراءة ابن كثير وأبى عمرو ونافع

- فَرِهِينَ بفتح الف وهى قراءة الليثيين قاله الفرطيسى فى تفسيره (٩٧ - ٩٨) قال

أبو عبيد وغيره وقد يعنى واحد وقال الفرّاء يعنى فَرِهِينَ حائقيين والفرد

الشبيط الأشتر والفراة الدماط [نظر نسخ العرب - مادة فَرِه]

وحيث تذهب إلى مدائن صالح تجد البيوت منحوتة في الحبال كما
يحتون الآن الأنفاق مثلاً ، لا يسويها كما نبي بيوتنا ، ومعنى
﴿فَارِهِينَ﴾ (الشعراء) الفاره النشاط القوى ظاهر الموهبة
يقولون فلان فاره في كذا يعنى ' ماهر فيه ، نشط فى ممارسته

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝١٥﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٥١﴾

المسرف هو الذي يتجاوز الحد ، ويتجاوز لحد له مراحل لأن الله تعالى أجل الأشياء ، وحرّم أشياء ، وجعل لكل منهما حدوداً مرسومة ، فالسرف فيما شرع الله أن تتجاوز الحلال ، فتدخل فيه لحرام

أو يأتي الإسراف في الكسب في كسبه الحرام وقد يلزم الإنسان نفسه بالحلال في الكسب ، لكن يأتي الإسراف في الإنفاق فينفق فيما حرّمه الله إن يأتي الإسراف في صور ثلاثة إما في الأصل ، وإما في الكسب ، وإما في الإنفاق

وملاحظ أن الحق - تبارك وتعالى - حينما يكلمنا عن الحلال يقول سبحانه ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَجْدُوهَا﴾ (٢٢٩) [البقرة]

أما في المحرمات فيقول سبحانه ﴿بَلَّغْ حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ..
 (البقرة) ١٨٧﴾ أي ابتعد عنها ، لأنك لا تأمن الوقوع فيها ومن
 حام حور الحمى يوشك أن يقع فيه . فلم يقل الحق سبحانه مثلاً لا
 تَصَلُّوا وأنتم سكارى . إنما قال ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ..
 [النساء]

والمعنى خُذِ الْحَلَالَ كُلَّهُ . لَكِنْ لَا تَتَعَدَّاهُ إِلَى الْمَحْرَمِ . أَمَّا الْمَحْرَمُ فَاحْذَرْ مَحَرِّ الْإِقْتِرَابِ مِنْهُ ، لِأَنَّهُ لَهُ دَوَاعِي سَتَحْذِيكَ إِلَيْهِ .

ونقف عند قوله تعالى ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٥٠) ﴿الشمراء﴾ حيث لم يقل ولا تسرموا ، وكأن ربنا - عز وجل - يريد

أَنْ يُوقِطَ غَفْلَتَنَا وَيُنَبِّهَنَا وَيُحَذِّرَنَا مِنْ دَعَاةِ الْبَاطِلِ لَدِينِ يُرْتُونَ لَنَا
الْإِسْرَافَ فِي أُمُورِ حَيَاتِنَا ، وَيَهْوَتُونَ عَلَيْنَا الْحَرَمَ يَقُولُونَ لَا بَأْسَ
فِي هَذَا ، وَلَا مَانِعَ مِنْ هَذَا ، وَهَذَا لَيْسَ بِحَرَامٍ ، رَبَّنَا يَعْطِيكَ الْمَنَاعَةَ
الْلازِمَةَ صَدِّ هَؤُلَاءِ حَتَّى لَا نَفْسَاقَ لَضَلَالَاتِهِمْ

لذلك جاء في الحديث الشريف « استغث قلبك ، واستغث
نفسك ، وَإِنْ أَفْتُوكَ ، وَإِنْ أَفْتُوكَ ، وَإِنْ أَفْتُوكَ »^(١) .

وفي هذا دليل على أنه سيأتي أناس يُفْتُونَ بِعَمِيرِ عِلْمٍ ، وَيُرِينُونَ
لِلنَّاسِ الْبَاطِلَ ، وَيَقْبَعُونَ بِهِمُ الْفِتْرَةَ مِنَ الْقُوَّةِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ
تَعَالَى ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء]
وقوله تَعَالَى ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف]

كذلك افترى تعنى : القوة في أمر الدين والتمكّن من مسأله
وقضاياه ، وَإِنْ كَانَتِ الْقُوَّةُ الْعَامِيَّةُ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا لَهَا حَدٌّ تَنْتَهِي عَنْدهُ
فَلَنْ الْقُوَّةُ فِي أَمْرِ الدِّينِ لَا تَنْتَهِي إِلَى حَدٍّ ، لِأَنَّ الدِّينَ أَمَدُهُ وَلَسَعِ ،
وَبَحْرُهُ لَا سَاحِلَ لَهُ . وَالْقُوَّةُ مَعْرِفَتُهَا فِي أَى نَاحِيَةٍ مِنَ النِّوَاحِي ، لَكِنْ
قُوَّةُ الْقَوَى هِيَ لِقُوَّةِ فِي أَمْرِ الدِّينِ

نقول فلان فتى يعنى قوى بداته ، وأفتاه فلان أى أعطاه
القوة ، كأنه كان ضعيفاً في حكم من أحكام الشرع ، فنذهب إلى
المفتى فأفتاه يعنى أعطاه فتوة في أمر الدين مثل قولنا غنى
فلان أى . بذاته ، وأغناه أى غيره ، كما يقول سبحانه ﴿ وَمَا تَقْصُوا
إِلَّا أَنْ أَعْتَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾ [٧٤]

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٢٧/٤ ، ٢٢٨) والبارمي في سننه (٢٤٦/٢) من
حديث رابصة بن معبد الأسدي ، وبما أنه أن رسول الله ﷺ قال : يا رابصة ، استغث
نفسك البر ما طمان إليه القلب واطمأنت إليه النفس والإثم ما حاكه في النفس وتورد
في الصدر ، وإن أفتاك الناس قال سفيان وأفتوك .

إذن فمهمة المفتي أن يُقَوِّى عقيدتي ، لا أن يسرف لى فى أمر من أمور الدين ، أو يَهْوِنَ على ما حَرَّمَ الله فَيُجَرِّئُنِي عليه وعلى المفتي أن يتحرَّى الدقة فى فتواه خاصة فى المسائل الخلافية التى يقول البعض بطلها ، والبعض بحرماتها ، يقف عند هذه المسائل وينظر فيها رأى الإسلام المتمثل فى الحديث الشريف

« الحلال بَيْنٌ ، والحرام بَيْنٌ ، وبينهما أمورٌ مُشْتَبِهَاتٌ ، فمن ترك ما شُبِّهَ له لا من فعل ما شُبِّهَ له يحظى على الأقل بترك ما فيه شبهة - فقد استجبراً لدينه - إن كان متديناً - وعرضه - إن لم يكن متديناً »^(١) .

إذن مَنْ لم يقف هذا الموقف وسرك ما فيه شبهة لم يستترى
لدينه ولا لعرضه ومن لم يفت على هذا الأساس من العلماء فإنما
يُضعف أمر الدين لا يُقوّيه ، وبدل أن نقول أنتاه نقول أضعفه .

﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ﴿١٥٥﴾

فوصف المفسرفين بأنهم مفسدون في الأرض غير مصلحين ،
 كأن الأرض خلقها الخالق - عز وجل - على هيئة الصلاح في كل
 شيء ، لكن يفسدها الإنسان بتدخله في أمورها ، لذلك سبق أن قلنا
 إنك لو نظرت إلى الكون من حولك لوجدته على أحسن حال ، وفي
 منتهى الاستقامة ، طالما لا تتناوله يد الإنسان ، فإن تدخل الإنسان
 في شيء ظهرت فيه علامات الفساد .

ولا يعنى هذا ألا يتدخل الإنسان في الكون لا إنما يتدخل على

(۱) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (۵۱ ۷) ، وكذا مسلم في صحيحه

(۱۵۹۹) من حیث النعمان بن بشیر

منهج مَنْ خَلَقَ فَيَزِيدُ الصَّالِحَ صِلَاحًا ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَ يَتْرُكُهُ عَلَى صِلَاحِهِ لَا يَفْسِدُهُ ، وَإِنْ تَدَخَّلَ عَلَى غَيْرِ هَذَا اِمْتَنَعَ فَلَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَفْسُدَ .

فحين تمر مثلاً ببئر ماء بشرب منه الناس ، فإذا أن تُصلح من حاله وتزيد مِيزة وتيسر استخدامه على الناس ، كان تبني له حافّة ، أو تحل عليه آلة رُمح تساعد الناس ، أو على الأقل تتركه على حاله لا تفسده ، لذلك يقول تعالى ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَئًى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ (٢٥) [البقرة]

أما هؤلاء القوم فلم يكتف القرآن بوصفهم بالفساد وحسب ، إنما أيضاً هم ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (٥٢) [الشعراء] ذلك لأن الإنسان قد يفسد في شيء ويصلح في شيء ، إنما هؤلاء ذابهم الفساد ، ولا يأتي منهم الصلاح أبداً

ونكبة لوجود من الذين يصنعون أشياء يرونها في ظاهرها صلاحاً ، وهي عين الفساد ، لأنهم لم يأخذوها بكل تقيناتها اقيمية ، وانظر مثلاً إلى المبيدات الحشرية التي ابتكروها وقالوا ، إنها فتح علمي ، وسيكون لها دور كبير في القضاء على دودة القطن وآفات الزرع ، وبمرور الزمن أصبحت هذه المبيدات وبالأعلى البشرية كلها ، حيث تسمم الزرع وتسمم الحيوان ، وبالتالي الإنسان ، حتى الماء والتربة والطيور ، لدرجة أنك تستطيع القول أنها أفسدت الطبيعة التي خلقها الله

وفي هؤلاء قال تعالى

﴿ قُلْ هَلْ يَنْتَعِمُ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (١٤) [الكهف]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٢)

﴿الْمُسَحَّرِينَ (١٥٢)﴾ [الشعراء] جمع مُسَحَّرٌ ، وهي صيغة مبالغة تدلُّ على وقوع السحر عليه أكثر من مرة ، بقول مسحور يعنى ، مرة واحدة ومُسَحَّرٌ يعنى عدة مرات ، ومن ذلك قوله تعالى عن ملا فرعون أنهم قالوا له : ﴿وَأَنْبِئْ فِي الْمَذَابِ حَاشِرِينَ﴾ (٢٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ مِحْأَرٍ عَلِيمٍ (٢٧) ﴿ [الشعراء]

ولم يقل بكل ساحر ، إنما سحَّار يعنى هذه مهنته ، وكما تقول ساحر وساحر ، وحائط وحياط .

وإن كان بعضهم قال عن نبيهم ﴿إِنْ تُبْعَثُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسْحُورًا﴾ (٤٧) ﴿[الأنبياء] هؤلاء يقولون لنبيهم ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٢)﴾ [الشعراء] وعجيب أمر أهل الباطل ، لأنهم يتخبطون في مجرمهم على الأنبياء ، فمرة يقولون ساحر ، ومرة يقولون مسحور ، كيف والساحر لا يكون مسحوراً ، لأنه على الأقل يستطيع أن يحمي نفسه من السحر قالوا بل لمراد بالمسحور اختلاط عقله ، حتى إنه لا يدري ما يقول

ثم إن نبيكم صالحاً - عليه السلام - إن كان مسحوراً فمن سحره ؟ أستم أم أتباعه ؟ إن كان سحره منكم فأنتم تقدرور على كف سحركم عنه ، حتى يعود إلى طبيعته وترونه على حقيقته ، وإن كان من أتباعه ، لا بد أنهم سيحاولون أن يعينوه على مهمته ، لا أن يُفقدوه عنها .

إذن فقولهم لنبيهم : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٢) [الشعراء]

يريدون أن يخلصوا إلى عدم اتباعه هو بالذات ، فهم يريدون تديناً على حسب أهوائهم ، يريدون عبادة إله لا تكلف له ولا منهج كالذين يعبدون الأصنام وهم سعداء بهذه العبادة ، لماذا ؟

لأن آلهتهم لا تأمرهم بشيء ولا تنهاهم عن شيء . لذلك ، هكل الدجالين ومدعو النبوة رايباهم يخففون التكليف عن اتباعهم ، ففديماً أسقطوا عن الناس الزكاة ، وحديثاً أباحوا لهم الاختلاط ، فلا مانع لديهم من الالتقاء بالمرأة والجلوس معها ومخاطبتها والحلوة بها والرقص معها ، وماذا في ذلك ونحن في القرن احدى والعشرين ؟

فإن قالوا ساحر ، مرد عليهم نعم هو ساحر ، قد سحر من آمنوا به ، فلماذا لم يسحركم أنتم وتنتهي هذه المسألة ؟ اذن هذه تُهم لا تستقيم ، لا هو ساحر ، ولا هو مسحور ، إنه مجرد كذب وافتراء على أنبياء الله ، وعلى دعاة الخير في كل زمان ومكان .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ ﴾

﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾

وقولهم ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾ [الشعراء] إذن فوجه اعتراضهم أن يكون للنبي بشراً ، كما قال سبحانه في آية أخرى ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الأنعام]

وبو بعث الله لهم ملكاً لجاهم على صورة بشر ، ويستظل الشبهة قائمة . فمن يدريكم أن هذا البشر أصله ملك ؟ ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا ﴾

لَجَمَلَنَاهُ رَجُلًا وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿١٦﴾ [الاعمال]

فالمعنى ما دام أن الرسول بشر ، لا يعتار علينا في شيء فنريد منه أن يأتينا بآية بمعنى معجزة تثبت لنا صدقه في البلاغ عن ربه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٥٤) [الشعراء]

ونلاحظ أن الحق - تبارك وتعالى - ينتهز فرصة طلبهم لآية ومعجزة ، فأسرع إليهم بما طلبوا ، ليقيم عليهم الحجة فقال بعدها

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ أَشْرَبُ وَلَكُمْ شَرِبَ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ (١٥٥)

هذا إجابة لهم ، لأنهم طلبوا من نبيهم أن يخرج لهم من الصخرة^(١) ناقة تد سقيا لا يكون صغيرا كولد الناقة ، إنما تد سقيا في نفس حجمها ، فأجابهم ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ أَشْرَبُ ..﴾ (١٥٥) [الشعراء] يعنى يوم تشرب فيه ، لا يشاركها في شربها شيء من مواشيكم

﴿وَلَكُمْ شَرِبَ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ (١٥٥) [الشعراء] أى تشربون فيه أنتم . وكانت الناقة تشرب من الماء في يومها ما تشربه كل مواشيهم في يومهم . وهذه معجزة في حد ذاتها

(١) كانوا هم الذين سألوا صالما أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن يخرج لهم من صخرة صماء عيونا بأنفسهم وهي صخرة منحدرة في قاحية الحجر يقال لها الكاتبة ، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة مشراء تمسح فافند عليهم صالح المهور والمواشي لأن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبهم ليؤمنن به وليتبعنه ، فلبس أظفاره على ذلك عهدهم ومواشيهم قام صالح إلى صلاته ودعا الله فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت من ناقة جوفاء وبراء بحرك جنبها بين جنبها [تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٨]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَلَا تَعْسَوْهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥٦)

يحذر الحق سبحانه رسوله بما سيكون ، وأن النوم لن يتركوا هذه الآية ، إنما سيتعرضون بها بالإيذاء ، فقال ﴿وَلَا تَعْسَوْهَا بِسُوءٍ ..﴾ (الشعراء) [لكنهم تعدوا مجرد الإيذاء والإساءة فعقروها

ثم يتوعدهم ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥٦) [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا سَادِمِينَ﴾ (١٥٧)

قال (عقروها) بصيغة الجمع ، فهل اشتركت كل القبيلة في عقرها ؟ لا بل عقرها واحد منهم . هو قدار بن سالف^(١) ، لكن وافقه الجميع على ذلك ، وسعدوه^(٢) ، وارتصوا هذا القمل ، فكانهم معوا جميعاً ، لأنه استشارهم عوافقوا .

﴿فَاصْبَحُوا سَادِمِينَ﴾ (١٥٧) [الشعراء] وقال العلماء الدم مقدمة التوبة

ثم يقول الحق سبحانه

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٥٨)

(١) كان رجلاً أحمر رقيق قصيراً ، يدعى أنه كان ولد ربيعة ، وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه وهو سالف ، وإنما هو من رجل يقال له صبيص ، ولكن ولد عن فواش سالف [بن كثير في تفسيره ٢/ ٢٢٨]

(٢) أطلق قدار بن سالف ومصدق بن مهور فاستفروا عوافق من ثمود فتابعهما سبعة نفر ، فصاروا تسعة رهط ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وَكَانَ فِي السَّبِيلَةِ سَعَةً رَهْطٌ يُنَادُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ (٤٨) [النمل]

فَإِنْ قُلْتَ كَيْفَ يَأْخُذُهُمُ الْعَذَابُ وَقَدْ تَدْمَرُوا ، وَالِدَمُّ مِنْ مَقْدَمَاتِ التَّوْبَةِ ،

نعم ، الدَّمُّ مِنْ مَقْدَمَاتِ التَّوْبَةِ ، لَكِنْ تَوْبَةُ هَؤُلَاءِ مِنَ التَّوْبَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ .. (١٨)﴾ [النساء]

إِذَا تَدَمَّرُوا وَتَابُوا فِي غَيْرِ أَوَانِ التَّوْبَةِ ، أَوْ أَنَّهُمْ أَصْبَحُوا نَادِمِينَ لَا يَدُمُّ تَوْبَةُ مِنَ الذَّنْبِ ، إِنَّمَا يَدْمُرُونَ ، لِأَنَّهُمْ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الَّذِي هَدَدَهُمُ اللَّهُ بِهِ إِنَّ فَعَلُوا

ثُمَّ نَحْتَمُ هَذِهِ الْقِصَّةَ بِهَذِهِ التَّجْدِيلِ لَدَى عَرَفَاءِهِ مِنْ قَبْلِ مَعَ أَمِّ أُخْرَى مُكَّدَّةً

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٥١)

عَزِيزٌ يُغْلِبُ وَلَا يُغْلَبُ ، وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ رَحِيمٌ فِي عَنَّا ثُمَّ يَتَقَلَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ إِلَى قِصَّةٍ أُخْرَى مِنْ مَوَاقِبِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ

﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦)

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٧)

فَقَالَ هَذَا أَيْضاً ﴿أَخَوْتُمْ .. (١٧١)﴾ [الشعراء] لِأَنَّهُ مِنْهُمْ لَيْسَ غَرِيباً

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٢٤٤) : هُوَ لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ أَرْزَ ، وَهُوَ ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ الْحَبِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ بَعَثَهُ إِلَى كَلْبَةَ عَظِيمَةٍ مِنْ حَيَاةِ يَهُدِيمٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَانُوا يَسْكُنُونَ بَدُونًا وَأَعْمَالًا ، الَّتِي أَهْلَكَهَا اللَّهُ بِهَا وَجَعَلَ مَكَانَهَا بِحِيرَةَ مَسْتَنَةً حَبِيبَةً وَهِيَ مَشْهُورَةٌ بِبِلَادِ الْعُرَ سَاعِدَةِ حِيَالٍ بَيْنَ الْمُقَدَّسِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ بِلَادِ الْكُرَّ وَالشُّوَيْكُ .

عِثْمُ ، وَلِيُحْشِرْ قُلُوبَهُمْ عَلَيْهِ ﴿١٦١﴾ [الشعراء] إنكار لعدم التقوى ، وإنكار النفي يطلب لإثبات فكأنه قال اتقوا الله

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

وَمَا أَمْتَلِكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ

إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾

وهكذا كانت مقالة بوط عليه السلام كما قال إخوانه السابقون من الرسل ، لأنهم يصدرون جميعاً عن مصدر واحد ثم يخص الحق سبحانه قوم لوط لما اشتهروا به وكان سبباً في إهلاكهم

﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦٤﴾

فكانها مسألة وحصلة بفردوا بها دون العالم كله

بدل قال في موضع آخر ﴿أَتَأْتُونَ النِّسَاءَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦٥﴾ [الأعراف]

في هذه المسألة لم تحدث من قبل لأنها عملية مستترة ، لأن الرجل إنما يأتي الرجل في محل القذارة ، ولكنهم فعلوها ، فوصفه لها بأنها لم يأتها أحد من العالمين جعلها مسألة فضيحة للعامة

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ زُيُوجَكُمْ

مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ ﴿١٦٦﴾

يعنى كان عندكم مندوحة عن هذه الفعلة النكراء بما خلق الله
لكم من أزواجكم من النساء فتصرفون هذه العريضة هي محلها ، ولا
ننقبونها إلى الغير

أو ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ (١٦٦) [الشعراء]
أى انهم كانوا يباشرون هذه المسألة ايضاً مع النساء من غير محل
الاستقبليات . مقوله تعالى ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ
شَتْمٌ ﴾ (٧٢٢) [البقرة]

البعض يظنها على عمومها وان ﴿ أَنْتُمْ شَتْمٌ ﴾ (٢٢٣) [السفوة]
تعطيهم الحرية في هذه المسألة ، [بما الآية محددة بمكان الحرث
واستباحات الولد ، وهذا محل الامام لا الحلف

لذلك قال بعدما ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (١٦٦) [الشعراء] والعاوى
هو الذى شرع له شيء يقضى فيه إربته ، فتجاوزه إلى شيء آخر
حرمة الشرع

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ يَنْلُوطْ

لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ (١٦٧)

أى إن لم تنته عن ملاما ومعارضتنا فيما نفعه من هذه العملية
﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ (١٦٧) [الشعراء] كما قالوا في آية أخرى
﴿ أَخْرِجُوا آلَ نُوَاطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ﴾ (٥٦) [النمل] أى لا مكان لهم بيننا ،
بكى لماذا ؟ ﴿ إِنَّهُمْ أَنْفُسُ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (٥٦) [النمل] سبحانه الله جريمتهم
أنهم يتطهرون ولا مكان للطهر بين هؤلاء القوم الأراذل

ثم يقول الحق سبحانه عن لوط

﴿قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ (١٦٨)

ومرَّق بين كوني لا أعمل العمل ، وكوني أكره من عمله ،
فالمعنى إذا لا أعمل هذا العمل ، إنما أيضاً أكره من عمله وهذا
مبالغة في إنكاره عليهم .

ثم يقول لوط

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٩) ﴿فَجِئْتَهُ وَآهْلَهُ

أَجْمَعِينَ﴾ (١٧٠) ﴿إِلَّا عَجُوزًا مِّنَ الْعَابِرِينَ﴾ (١٧١)

لم يملك لوط عليه السلام أمام عناد قومه وإصرارهم على هذه
الفاحشة إلا أن يدعو ربه بالنجاة له ولأهله ، فأجابه الله تعالى ﴿إِلَّا عَجُوزًا
مِّنَ الْعَابِرِينَ﴾ (١٧١) [الشعراء]

والمراد امرأته التي قال الله في حقها ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ
كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ﴾ (١٦٥) [التحريم]
فجعلها الله - عز وجل - مثالا للكفر والعياذ بالله - ذلك لم تكفر
من الناجسين ، ولم تشملها دعوة لوط عليه السلام ، وكانت من
العابرين^(١) يعني الهالكين .

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ (١٧٢) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ

مَطَرُ الْمُتَذَرِّينَ﴾ (١٧٣)

﴿الْآخَرِينَ﴾ (١٧٢) [الشعراء] أى الذين لم يؤمنوا بدعوته . ولم

(١) عن قتادة قال خربت من عذاب الله أى هُتكت [تفسير القرطبي ٥٠١٢/٧]

يَبْتَهِوا عَنْ هَذِهِ الْفَاجِئَةِ ، ثُمَّ بَيَّنَّ نَوْعِيَةَ هَذَا التَّدْمِيرِ ، فَقَالَ ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا نَسَاءً مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ (١٧٣) [الشعراء] وَلَمَّا كَانَ الْمَطَرُ مِنْ أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَعَلَامَاتِ الرَّحْمَةِ ، حَيْثُ يَنْزِلُ الْمَاءُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَيُجِيبُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَصَفَ اللَّهُ هَذَا الْمَطَرَ بِأَنَّهُ ﴿ نَسَاءً مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ (١٧٣) [الشعراء] فَهُوَ لَيْسَ مَطَرًا خَيْرٌ وَرَحْمَةً ، إِنَّمَا مَطَرُ عَذَابٍ وَنَقْمَةٍ .

كَمَا جَاءَ فِي آيَةِ أُخْرَى ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَُوا هَذَا عَارِضٌ مِمَّنْ مَطَرْنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٧٤) قَدَّمَ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. ﴿ (١٧٥) [الاحقاف]

وَهَذَا يُسَمُّوهُ (يَأْسٌ بَعْدَ إِطْمَاعٍ) ، وَهُوَ أَلْبَحُّ فِي الْعَذَابِ وَالْإِيلَامِ ، حِينَ تَسْتَشْرِفُ لِلْخَيْرِ فَيُفَاجِئُكَ الشَّرُّ ، وَسَبَقَ أَنْ أَوْضَحْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِالسَّحَابِ الَّذِي يَطْلُبُ مِنَ الْحَارِسِ شَرِبَةَ مَاءٍ ، لِيَرْوِيَ بِهَا عَطَشَهُ ، فَلَوْ حَرَمَهُ الْحَارِسُ مِنَ الْبِدَايَةِ لَكَانَ الْأَمْرُ مَيْفًا لَكِنَّهُ يَحْضُرُ لَهُ كُوبُ الْمَاءِ ، حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ عَلَى فِيهِ أَرَادَهُ عَلَى الْأَرْضِ ، فَهَذَا أَشَدُّ وَأَنْكَرٌ ، لِأَنَّهُ حَرَمَهُ بَعْدَ أَنْ أَطْمَعَهُ ، وَهَذَا عَذَابٌ آخَرُ فَوْقَ عَذَابِ الْعَطَشِ .

وَفِي لَقِطَةٍ أُخْرَى بَيَّنَّ مَاهِيَةَ هَذَا الْمَطَرِ ، فَقَالَ ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مُنْصَوْدٍ ﴾ (٨٢) مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الْعَالَمِينَ بَعِيدٍ ﴿ (٨٣) [هود]

فَالْحِجَابَةُ مِنْ ﴿ سِجِّيلٍ .. ﴾ (٨٢) [هود] أَيْ طِينٌ حُرِّقَ حَتَّى تَحْجُرَ وَهِيَ ﴿ مُسَوِّمَةٌ .. ﴾ (٨٢) [هود] يَعْنِي مُعَلَّمَةٌ بِأَسْمَاءِ أَصْحَابِهَا ، تَعْدُلُ عَنْهُمْ بِانْتِظَامٍ ، كُلُّ حَجَرٍ مِنْهَا عَلَى صَاحِبِهِ .

وَبِجْمَعِ اللَّقَطَاتِ الْمُتَفَرِّقَةِ تَتَبَيَّنُ مَعَالِمُ الْقِصَّةِ كَامِلَةٌ .

﴿ وَإِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧٤)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَطَوُّ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿ (١٧٥)

وَتُخَذَمُ الْقِصَّةُ بِفَسِّ الْآيَاتِ الَّتِي حُتِّمَتْ بِهَا الْقِصَصُ السَّابِقَةُ مِنْ
قِصَصِ الْمَكْذِبِينَ الْمَعَانِدِينَ

ثُمَّ يَنْقُلُنَا الْحَقُّ سَبْحَانَهُ إِلَى قَوْمٍ آخَرِينَ كَذَبُوا رَسُولَهُمْ شَعْبِيًّا

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ^(١) ﴾ (١٧٦)

الآيكة - هي المكان الخصيب الذي بلغ من خصوبته أن تلتف أشجاره ،
وتتشابك أغصانها ، وقال هنا أيضا ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٧٦) [الشعراء] مع أنهم
ما كذبوا إلا رسولهم لأن تكذيب رسول واحد كتكذيب كل الرسل لأنهم
جميعاً جاءوا بمذاهب واحدة في العقيدة والأخلاق

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (١٧٧) ﴿ إِنِّي لَكُمْ

رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ (١٧٨) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ^(٢) ﴾ (١٧٩)

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ

إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٨٠)

(١) ذهب ابن كثير في تفسيره (٢٤٥/٢) أن أصحاب الآيكة وأصحاب الرس ، وأهل مدين
أمة واحدة نعت بها رسول واحد هو شعيب عليه السلام ، قال « من الناس من لم يوطن
لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الآيكة غير أهل مدين برغم أن شعيباً بعثه الله إلى أمته
ومعهم من قال ثلاث أمم ، ثم قال « والصحيح أنهم أمة واحدة وصنفوا في كل مقام
بشيء ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء الكيالي والميزان كما في قصة مدين سواء سموا ،
فدل ذلك على أنها أمة واحدة .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢٤٥/٢) : إنما لم يقل ههنا أخوهم شعيب لأنهم سجدوا
إلى عبادة الآيكة وهي شجرة ففعل سبب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه وإن كان
أمامهم سبياً ، أما رأي القرطبي فهو مبنى على أن أصحاب الآيكة غير أهل مدين ، فليسوا
أمة واحدة ، فقال « لم يقل أخوهم شعيب ، لأنه لم يكن أحداً لأصحاب الآيكة في النسب »
[تفسير القرطبي ٥٠١٥/٧]

نلاحظ اختلاف الأسلوب هنا ، مما يدل على دقة الأداء القرآني ، فلم يقل أخوهم شعيب ، كما قال في نوح وهود وصالح ولوط ، ذلك لأن شعيباً عليه السلام لم يكن من أصحاب الأيكة ، إنما كان غرباً عنهم .

وباقى الآيات متفقة تماماً مع مَنْ سبقه من إخوانه الرسل ، لأن الوحدة في المنهج العقدي أنتجت الوحدة في علاج المنهج ، لذلك قرأنا هذه الآيات عند كل الرسل الذين سبق ذكرهم

ثم يأخذ في تفصيل الأمر الخاص بهم ، لأن كل أمة من الأمم التي جاءها رسول من عند الله إنما جاء ليعالج داءً خاصاً نَفَسَتْ بها ، وكانت لأمم من قبل معزلة ، بعضها عن بعض ولا يوجد بينها وسائل اتصال تنقل هذه الداءات من أمة لأخرى .

فهؤلاء قوم عاد ، وكان داءهم التفاخرُ بالبناء والتمسالي على الناس ، فجاء هود - عليه السلام - ليقول لهم

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَخْدَعُونَ مَصْنِيعَ لَعُنْكُمْ تَخْلَدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) ﴾ [الشعراء]

وشمود كان داءهم الغفلة والانصراف بالنعمة عن الامتنع ، فجاء صالح - عليه السلام - يقول لهم : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِينَ (١٤٦) فِي حَنَاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَسُلُوكٍ طَلَعَهَا هُضَيْمٌ (١٤٨) وَتَنَحِّيْتُمْ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَئِذٍ فَارِهِينَ (١٤٩) ﴾ [الشعراء]

أما قوم لوط - عليه السلام - فقد تفرّدوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، وهي إتيان الذكرا ، فجاء لوط - عليه السلام - ليمنعهم ويدعوهم إلى التوبة والإقلاع

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)﴾ [الشعراء]

أما أصحاب الأيكة ، فكان داءهم أن يُطْفِقُوا المكيال والميزان ، فجاء شعيب - عليه السلام - ليقول لهم

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١)
وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢)﴾

الكيل آلة تُقَدَّرُ بها الأشياء التي تُكَال ، وروحت كَيْلُهُ أو قَدَح أو أَرْدَب . والميزان كذلك آلة يُقَدَّرُ بها ما يُوزَن .

ومعنى ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١)﴾ [الشعراء] المخسر : هو الذى يتسبب فى خسارة الطرف الآخر فى مسألة الكيل ، بأن يأخذ بالزيادة ، وإن أعطى يُعْطَى بالنقصان ، وفى الوزن قال ﴿بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ .. (١٨٢)﴾ [الشعراء]

والقسطاس يعنى العدل المطلق فى قدرة البشر ومكاناتهم فى تحرّى الدقّة فى الوزن ، مع مراعاة اختلاف الموزونات ، فوزن الذهب غير وزن التفاح مثلاً ، غير وزن العسل أو السمسم ، فعليك أن تتحرّى الدقة قدر إمكانك ، لتحقيق هذا القسطاس المستقيم

لكن ، لماذا خصّ الكيل والوزن من وسائل التقدير والتقييم ، ولم يذكر مثلاً القياس فى المساحات والمسافات بالمتر أو بالذراع ؟

قالوا لأنّ لناس قديماً - وكانت أمماً بدائية - لا تتعامل فيما يُقاس ، فلا يشترون القماش مثلاً ، لأنه كان يُغزل ، تفرّقه النساء

ويغزله لرجال ، ولم يَكُنْ أحد يغزل لأحد أو يبيع له ، فهذه صورة حضارية رأيناها فيما بعد

وقديماً ، كان الناس يتعاملون بالتبادل والمقايضة ، وفي هذه الحالة لا يوجد بائع على حدة ولا مُشترٍ على حدة فلا يتقرب البائع بالبيع ، والمشتري بالشراء ، إلا في حالة مبادلة السلعة بثمن ، كما قال تعالى ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ۖ ۝٢٠ ﴾ [يوسف] أي بأموه

أما في حالة المقايضة ، فانت تأخذ القمح تأكله ، وأنا أحد القمح أكله ، فالانتفاع هنا انتفاع مباشر بالسلعة ، فإن قُدِّرَتْ لَنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّفَقَةِ بَائِعٌ وَمُشْتَرٍ ، تقول : شَرَيْ وَبَاعَ . وَإِنْ قُدِّرَتْ الْأَثْمَانُ الَّتِي لَا يَنْتَفِعُ بِهَا اِئْتِفَاعاً مُبَاشِراً كَالذَّهَبِ وَالْقَضَةِ ، أَوْ أَى مَعْدِنٍ آخَرَ ، وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ لَا تَوْكَلُ فَهِيَ ثَمَنٌ ، أَمَّا الْأَشْيَاءُ الْآخَرَى فَصَالِحُهُ أَنْ تَكُونَ سَلْعَةً ، وَصَالِحُهُ أَنْ تَكُونَ ثَمَنًا

وقد أفرد القرآن الكريم سورة مخصصة لمسألة الكيل والميزان هي « سورة المطففين » . يقول سبحانه : ﴿ رَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يَخْسِرُونَ ۝٣ ﴾ [المطففين]

نقول كال له يعنى أعطاه واكتال عليه يعنى أخذ منه فإن أخذ أخذ وافياً ، وإن أعطى أعطى بالنقص والخسارة والقرآن لا ينهى عليه أن يستوفى حقه ، لكن ينهى عليه أن يتقص من حق الآخرين ، ولو شيئاً يسيراً .

فمعنى (المطففين) من الشيء الطفيف اليسير ، فإذا كان الويل لمن يظلم فى الشيء الطفيف ، فما بال من يظلم فى الكل ؟

فاللوم هنا لمن يجمع بين هذين الأمرين يأخذ بالزيادة ويعطى بالنقص ، أم من يعطى بالزيادة فلا بأس ، وجزاؤه على الله ، وهو من المحسنين الذين قال الله فيهم ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ مَسْئَلٍ .. ﴾ (٩١)

ومع تطور المجتمعات بدأ الناس يهتمون بقياس دقة الآلات الكيل والوزن والقياس ، فوجدت هيئات متخصصة في معاييرها والتفتيش عليها ومتابعة دقتها ، لأنها مع مرور الزمن عرضة للنقص أو الزيادة ، فمثلاً سنجة الحديد - التي وزن بها قد تزيد إن كانت في مكان بحيث تتراكم عليها لزيوت والتراب ، وقد تنقص بالحركة مع مرور الوقت ، كما تنقص مثلاً أكيرة الباب من كثرة الاستعمال ، فتراها لامعة ، ولعانها دليل النقص ، وإن كان يسيراً

وفي فرنسا ، نموذج للياردة والمتر من معدن لا يتآكل ، جعلت كمرجع يقاس عليه ، وتضبط عليه آلات القياس

ورأينا الآن آلات دقيقة جداً للوزن والقياس ، تضمن لك منتهى الدقة ، خاصة في وزن الأشياء الثمينة ، لذلك نراهم يصعدون الميزان الدقيق في صندوق من الزجاج ، حتى لا تؤثر فيه حركة الهواء من حوله

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾
﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١٨٢)

المفسد البقص ، ومعنى ﴿ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ (١٨٢) [الشعراء] حقوقهم

إذن ، فالنقص من حق الغير ذنب ، وقد يكون البخس بأخذ الشيء كله غصباً ، أو بالتصرف فيه دون أمر صاحبه ، أو على وجه لا يرضاه .

وهذا كله داخل في ﴿وَلَا تَبْخَسُوا أَنْفُسَ أَشْيَاءِهِمْ...﴾ (١٨٣) [الشعراء] كل ما ينقص الحق بأخذه بإيقاص أو غصب أو تصرف على غير إرادة صاحبه فهو بخس للشيء .

فكل ما ثبت أنه حق لغيرك إياك أن تعتدي عليه ، فالزكاة مثلاً حينما يقول ربك - عز وجل - ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)﴾ [المعارج]

فما دام قد قيده الشرع ، فلا تبخس أنت حق الفقير ، لأنك حين تتأمل هذا الحق المعلوم الذي جعله الله من مالك للفقير ، تجد أنه رُضع بحكمة تُراعى مدى حركة الممول ، وما بذل من جهد ونفقة في سبيل تنمية ماله ، حتى وجبت فيه الزكاة .

فكلما زادت حركتك قل مقدار الزكاة في مالك ، فمثلاً الأرض التي تُسقى بماء المطر فيها العُشُر ، والتي تُسقى بآلة ونفقات فيها نصف العُشر ، وفي عروض التجارة وتحتج إلى حركة أكثر قال ربع العُشر ، ذلك لأن الشارع الحكيم يريد لناس الحركة والسعي وتثمين الأموال حتى لا يأتي من يقول كيف أسعي ويأخذ عيري ثمرة سعيي ؟

ولشارع حين كف هذا الحق للفقراء ، فإنما يحمي به الفقراء والأغنياء على حد سواء وقد حدد الشارع هذا الحق ، حتى لا تزهد في العطاء ، خاصة في الزكاة

إن منهج الله يريد أن يُصوب حركة الحياة من الأحياء ، يريد ألا يجري دم في جسد إلا بخروج عرق من هذا الجسد ، وألا يدخل دم

فى جسد من عرق سواه ، وإلا فسد المجتمع ، وصنَّ كل قادر على الحركة بحركته ، لأنه لا يطمئن إلى ثمار حركته أبداً لا تعود عليه ، أو أن غيره سيفتصبها منه بأي لون من ألوان الاغتصاب

عندها يفسد المجتمع ، لأن القوى القادر سيزهد فى الحركة فيقعد ، والأخذ سيتعود البطالة والكسل والخمول ، وبماذا يعمل وما يجرى فى عروقه من دماء من عمل غيره ، وبمرور الوقت يصعب عليه العمل ، وتثقل عليه الحركة ، فيركن إلى ما نُسميه (بطجى) فى الحياة ، يعيش عالة على غيره .

إذن الحق - تبارك وتعالى يريد أن يطمئن كل إنسان على حركته هى الحياة وثمره سعي ، فلا يتلصص أحد على ثمرة حياة الآخر ، لأنه إن كان عاجزاً عن الحركة فقد صم له ربُّ حقاً فى حركة الآخرين تأتيه إلى باب بيته ، سواء أكانت زكاة أم كانت صدقة ، وبذلك تسلم حركة الحياة للجميع

لذلك أراد - سبحانه وتعالى - أن يعطينا الموازين الدقيقة التى تحفظ سلامة التعامل بين الناس فإن كُنتَ لغيرك فوق الكيل ، وإن وُزنتَ فوق لميزان ، واجعله بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخس الناس حقوقهم بأى صورة من الصور .

ولا يقتصر الأمر على هذه المسائل فحسب ، إنما هى نعاذج للتعامل ، تستطيع القياس عليها فى كل أمور الحياة فيما يُقاس وفيما يُعد ، فى الأعمال وفى الصناعات . إلخ

إذن فاحذر أن تتلصص على حقوق الآخرين ، أو أن تنحسها ، بأي نوع من أنواع التسلُّط غصباً أو اختطافاً أو سرقة أو اختلاساً أو رشوة إلخ

وقلنا إن السرقة أن تأخذ شيئاً من حرزهِ في غير وجود صاحبه ، والخطف يكون صاحب الشيء موجوداً ، لكنك تأخذه خطفاً وتقر به قبل أن يمسك بك ، فإن أمسك بك فعالبته وأخذنها رغماً عنه فهي غصب ، أما الاختلاس فإن تأخذ من مال أنت مؤتمن عليه ، ما لا يحق لك أخذه .

فإذا علم كل متحرك في الحياة أن ثمره حركته تعود عليه . وعلم كل غير متحرك أنه يموت جوعاً إن لم يعمل وهو قادر دبّت الحركة في كل الأحياء ، وهذا ما يريد الله تعالى لحليفته في الأرض خاصة ، وقد خلق لذ سبحانه العقل الذي نفكر به ، والطاقة التي نعمل بها ، والمادة التي نستعين بها ، فكل ما علينا أن نوظف هذه الإمكانيات التي خلقها الله توظيفاً مثمراً .

ثم إن كانت الزكاة كحق معلومة محددة ، فهناك حق آخر غير محدد ، في قوله سبحانه ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الدريات] ولم يقل (معلوم) ، لأن المراد هنا الصدقة المطلقة ، وقد تركها الحق - تبارك وتعالى - ولم يقيد بها بترك الباب مفتوحاً أمام أريحية المعطى ، ومدى كرم وإحسانه ، لذلك جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن صفات المحسنين

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (١٥) أَخْذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الدريات]

ولأن الحق هنا تفضل وزيادة تركه الشلوع الحكيم دور تحديد وعجيب أن نرى أصحاب الأموال حين يخرج أحدهم رُبْع العشر

(١) البجرع النوم ليلاً والتهجاع النومة المقيمة [لسان العرب - مادة جعج]

مثلاً من ماله ، لا ينظر إلى ما تبقى له من رأس المال ، وهي نسبة ٩٧.٥ / وينظر إلى حق الفقير وهو يسير ٢.٥ /

فإنه يحتال عليه فيؤثر به أقاربه أو معارفه ، أو يضعه بحيث يعفيه من حق آخر ، كالذي يعطي زكاته للخادمة مثلاً ، ليرضي أمها حتى لا تأخذ من يده ، ومنهم من يضع أموال الركة في بناء مسجد أو مدرسة أو مستشفى ، وهذا كله لا يجوز ، لأن مال الركة حق للمستحقين المعروفين نصاً في كتاب الله ولا يصح أن يورثه مال الركة لشيء ينتفع به النفس أبداً .

ثم يقول سبحانه ﴿وَلَا تَعْلَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (١٨٣) [الشعراء] عذا : أي أفسد فالمعنى لا تُفسدوا في الأرض ، فلماذا كرر الإفساد مرة أخرى فقال ﴿مُفْسِدِينَ﴾ (١٨٣) [الشعراء] ؟ قالوا المراد لا تعلموا في الأرض حالة كونكم مفسدين . أو في بيتكم الإفساد .

وليس في الآية تكرار ، لأنه فرق بين إفساد شيء وأنت لا تقصد إفساده ، إنما حركتك في الحياة أفسدته ، وبين أن تُفسد عن قصد وعمد للإفساد ، حتى لا ندمع القول أن تفكر وتُجرب لتصل إلى الأفضل ، وتُدرى حركة الحياة ، فما نمت قد قصدت الصلاح ، فلا عليك إن أخطأت ، لأن ربك - عز وجل - يتولى تصحيح هذا الخطأ . بل ويُعوضك عنه ، فمن اجتهد فأخطأ فله أجر ، ومن اجتهد فأصاب فله أجران^(١)

(١) عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر ، أخرجه البخاري في صحيحه (٧٣٥٢) ومسلم في صحيحه (١٧١١) كتاب الأقضية

إنّ . المعنى . لا تُفسدوا في الأرض وأنتم تقصدون الإفساد ،
لكن فكيف تُفسد الأرض ؟ إن إفساد الأرض يعني إفساد المتحرك
عليها ، لأن الأرض خُلقت للإنسان ﴿وَالْأَرْضُ وَصْفَهَا لِلْإِنْسَانِ﴾ [الرحمن]

وقد خلقها الله تعالى على هيئة الصلاح ، والإنسان هو الذي
يُفسدها ، بدليل أنك لا تجد الفساد إلا فيما للإنسان دخل فيه ، أما
ما لا تطوله يده ، فيظل على صلاحه ، وعلى استقامته وسلامته .

والإنسان الذي خلقه الله وحمله ظمقة له في أرضه طُلب منه
عمارة هذه الأرض وزيادة صلاحها ، تحقيقاً لقول ربه عزّ وجلّ
﴿هُوَ أَشْأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾ فيها .. ﴿٦٦﴾ [هود]

ولا يصلح أن يستعمر الأرض وهي خراب ، فإذا ما كثر النفس
لا يقابل زيادة في استثمار الأرض متحدث الأزمات ، وبأن
استثمار الأرض وإصلاحها سار مع زيادة النفس في حصين متوازيين
لما شعر الناس بالحاجة والضيّق ، ولما أحاطت بهم الأزمات .

والآن حين تسير في الطريق الصحراوي مثلاً تجد المزارع في
الصحراء ، وتجد القرى الجديدة تحوت نبيها الأرض الجرداء إلى
خضرة ونماء ، فإين كانت هذه الثورة ؟ لقد كنا كُسالى وفي عقله
حتى عضباً الجوع ، وضائق بنا الأرض الحضراء في الوادي والذلتا .

وإذا لم يُصلح الإنسان في الأرض فلا أقلّ من أن يتركه على
حالتها الذي خلقها الله عليه . لكن رأينا الإنسان يفسد الماء ويكوّنه

(١) أي أس لكم في عمارتها واستخراج ثورتكم منها وجعلكم عمارها وأعمده المكان
واستعمره فيه جعله يعمره [لسان العرب - مادة عمّر]

حين يصرف فيه مُحَلَّفاته ويُفسد الهواء بعدام السيارات والمصانع ،
ويُفسد التربة بالكيمياويات والمبيدات ، وكل هذا الإنساد خروج عن
الطبيعة الصافية التي خلقها الله لنا . تلك لأننا نظرنا إلى النفع
العاجل وأغفلنا الضرر الآجل

لقد خلق الله لنا وسائل الركوب والانتقال ، وجعلها آمنة لا ضررَ
منها : ﴿ وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً .. ﴾ (٨) [الحمل]
وقال . ﴿ وَتَحْمِلُ أُنْقَابَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْبِ إِلَّا بِشَقِ
الْأَنْفُسِ ﴾ (٧) [النمل] نعم . وسائل النقل الحديث أسرع . وراحت
هذه المواشى ، لكنها أُنْعِبَتْ الإنسان الذي خلق الله الكون كله لراحته
فتوى الرجل يركب سيارته وكل همه أن يُسرِع بها دون أن يهتم
بضبطها وصيانتها ، فيطلق بها مُحَلِّفاً سحابة من الدخان السام
الذي يؤذي الناس . أما هو فغير مكترث بشيء ، لأن الدخان خلفه
لا يشعر به

لكن ، احذر جيداً ، إن ريك - عز وجس - قبيوم لا يغل ولا ينام ،
وكما تدين ثُدان في نفسك ، أو في أولادك

كذلك قبل أن نركب السيارات ونُسرع بها يجب أن نُعْهَد لها
الطرق حتى لا تتثير الغبار في وجوه الناس ، وتؤذي تنفسهم ، بل
وتؤذي الزرع أيضاً . كل هذه وجوه للإنساد في الأرض ، لأننا
ندرس عاجلَ النفع ولا ندرس آجلَ الضرر .

وعليك حين تجتهد أن تجتهد بمقدمات سليمة ، لتصل إلى
النتائج السليمة ، ولا تكن من المفسدين في الأرض .

ومن الإفساد في الأرض قَطْع الطريق وهو أن المتلصص يقيم في مكانه يرصد صحيفته إلى أن تمر به ، والإغارة وهي أن يذهب المغير إلى امفكار عليه في مأمته ، فيسله ماله .

ومن الإفساد في الأرض الرُشوة ، وهي من أنكى العُكبات التي بلى بها المجتمع ، وهي تولد التسيب وعدم الانضباط ، فحين ترى عيوك تستغلك ، ويستحل مالك دون حق ، تعامله وتعامل غيره نفس المعاملة ، فتصير الأمور في الأجهزة والمصالح إلى فوضى لا يعلم مداه إلا الله

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى ﴾ (١٨٤)

فإياك أن تظن أن الله تعالى خلقنا عبثاً ، أو يتركنا هملاً ، إنما خلقنا مهمة في الكون ، وجعلنا جميعاً عبيداً بالنسبة له سواء ، فلم يُحاب منا أحداً على أحد ، وليس عنده سبحانه مراكز قوى ، لذلك لم يتخذ صاحبة ولا ولداً

ولأننا جميعاً أمامه سبحانه سواء وهو خالقنا ، فقد تكفل بنا بالرزق ورعايه المصالح ، فمن ابتلاه الله بالعجز عن الحركة فتحركت أنت لقضاء مصالحه ، لا بُدَّ أن ينظر الله إليك بعين البركة والمضاعفة

فالمعوق والغفير بحق - لا الذي يتخذها مهنة وحرفة يرتزق بها - هذا الفقير وهذا المعوق هم خلق الله وأهل بلائه ، فحين تعطيه من

(١) قال مجاهد الجيلة هي الطيبة وجبيل فلان على كذا أي خلق قال الهروي هو الجمع ذو العبد الكثير من الناس [تفسير القرطبي ٥٠١٦/٧]

ثمرة حركتك أنت ، وتذهب إليه وهو مطمئن في بيته ، أنت بهذا العمل
إنما تستبر على الله بلاءه ، وتكون يد الله التي يرزق بها هؤلاء
وعندها لا بد أن يحبك الفقير وأن يدعو بك بالخير والبركة والزيادة
والأجر والعافية والثواب ، ويعلم أن الله خلقه ولم يسلمه

أما إن ضن الغنى الواحد على المقيير المعدم ، وتخلي عن أهل
البلاء ، فلا بد أن يسخط الفقير على الغنى ، بل يسخط على الله -
وابعياد بالله - لأنه ما ذنبه أن يكون فقيراً ، وغيره غنى في مجتمع
لا يرحم

وعجيب أن نرى مُبتلى يُظهر بلواه للناس ، بل ويستغلها في
ابتزازهم فيظهر لهم إعاقته ، كأنه يشكو الخالق لخلق ، ولو أنه
سخر على الله بلاءه وعلم أنه نعمة أنعم الله بها عليه لسخر الله له
عافية غير المبتلى ، ولجاءه رزقه على باب بيته ، فلو رضى أهل
البلاء لأعطاهم الله على قدر ما ابتلاهم

فمعنى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ .. (١٨٤)﴾ [الشعراء] أي احذروا
جبروته ، لأنه خلقكم وضمن لكم الأرزاق ، وضمن لكم قضاء الحاجات ،
حتى العاجز عن الحركة سخر له القادر ، وجعل للغنى شرطاً في إيمانه أن
يعطى جزءاً من منفعته للفقير ، ويوصله إليه وهو مطمئن

ومعنى ﴿وَالْجِبِلَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٨٤)﴾ [الشعراء] الحبة من الجبل ،
وكان له دور في حياة العرمي ، وعليه تدور الكثير من تعبيراتهم ،
ففيه صفات الفخامة والعظمة والرسوخ والثبات ، فاشتقوا من الجبل
(الجبلية) وتعني الملازمة والثبات على الشيء

ومن ذلك تقول فلان مجبول على الخير يعني ملازم له
لا يفارقه ، ومان كالجبل لا تتزعزعه الأحداث ، والعامية تقول فلان

جِبْلَةٌ يعنى ثقيين على لنفس ، وقد يزيد فيقول (مال جبلتك وأرمة) مبالغة فى الوصف

حتى أن بعض الشعراء يمدح ممدوحه بأنه ثابت كالجبل ، حتى بعد موته ، فيقول عن ممدوحه وقد حملوه فى نعشه

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ قَبْلَ نَعْشِكَ أَنْ أَرَى رَضْوَى^(١) عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ يَسِيرُ
وَرَضْوَى جَبَلٍ اشْتَهَرَ بَيْنَ الْعَرَبِ بِضِحَامَتِهِ

ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَهَلَّ بِكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا ۖ﴾ (٦٢) [يس]

ومعنى ﴿وَالْجِبْلَةُ الْأَوَّلَى﴾ (٨٤) [الشعراء] أى الناس السابقين الذين جُبلوا على العناد وتكذيب الرسل ، والله خلقكم وحلقهم ، وقد رأيتم ما فعل الله بهم لما كذبوا رسله ، لقد كتب الله النصر لرسله والهزيمة لمن كذبهم ، فهؤلاء الذين سبقوكم من الأمم جُبلوا على التكذيب ، وكانوا ثابتين عليه لم يُزحزحهم عن التكذيب شيء ، فاحذروا أن تكونوا مثلهم فينزل بكم ما نزل بهم فمادام كان ردهم ٠

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٨٥)

قلنا إن مُسَحَّر أى سحره غيره ، وهى صيغة مبالغة للدلالة على حدوث السحر ووقوعه عليه أكثر من مرة ، فلو سحر مرة واحدة لقلنا مسحور والمعنى أنك محتل العقل والتفكير ، مجنون ، لن نسمع لك

﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطْنُكَ

لَمِنَ الْكَذِبِيِّ﴾ (١٨٦)

(١) رضى جبل بالمدح [لسان العرب - مادة رضى]

وما دُمْتُ أنتَ بشراً مثلياً ، ولم نَحْمِزْ عِناً بشيء ، فكيف تكون رسولا ؟ ثم ﴿ وَإِنْ نَطَّقُكَ لَئِنْ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٨٦) [الشعراء] أى وما نطقك إلا كذاباً ، كالذين سبقوك

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١٨٧)

أى إِنْ كُنْتَ صادقاً ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. ﴾ (١٨٧) [الشعراء] يطلبون العذاب ويستعجلونه ، كما قال سبحانه فى آية أخرى ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْكِلَنَّآ^(١) عَنَآلِهِتَا فَآتِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢٢) [الاحقاف]

ومن العجيب حين ينزل بهم العذاب يقولون اسطربا ، كف وانتم الذين استعجلتم العذاب ؟

ومعنى ﴿ كِسْفًا .. ﴾ (١٨٧) [الشعراء] مفردها كِسْفَةٌ ، مثل قطع وقطعة ، وقد وردت هذه الكلمة على السنة كثير من المكذبين ، وقالها الكفار للنبي محمد ﷺ . ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَسُوعًا ۚ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِيبٌ فَتُفْجِرُ الْأَنْهَارَ خِلَافَهَا تَفْجِيرًا ۚ ﴾ (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زُغَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتَىٰ بَالِلَةٌ وَالْمَلَائِكَةُ قِيلًا ﴿ (٩٢) [الإسراء]

(١) أى جانباً من السماء وقطعة منها ، فنظر إليه قال الجرمي الكسفة القطعة من الشيء [تفسير القرطبي ٥٠١٦/٧]

(٢) أى لمجئنا لتصرفنا وتعمدنا والأفك الذى يافك الناس أى يصددهم عن الحق بهاطله [لسان العرب - مادة أفك]

وقالوا ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ
السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأنفال]

وكان عليهم أن يقولوا - اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك
فأمطنا إليه ، وهذا يدلُّك على حُمتهم وعبادهم

﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٧٨)

فهو سبحانه العليم بكم إن كنتم أهلاً بالقوة والندم والأمل ، أن
تقوبوا فلن يصيبكم العذاب ، أو كنتم مُصرِّين على العصيان
والتكذيب ، فسوف يصيبكم عذاب الهلاك ولاستئصال ، فإنا لن أحكم
عليكم بشيء ، لأنني بشر مثلكم لا أعرف ما في نياتكم ؛ لذلك سأكلُ
أمركم إلى ربكم - عز وجل - الذي يعلم أمرى وأمركم ، وسررى
وسركم

ثم يقول الحق سبحانه

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٨١)

فكيف يكذبونه ، وهو لم ينسب الأمر لنفسه ، ووكلهم إلى ربهم
إذى فهم لا يكذبون إنما يكذبون الله ، لذلك يأتى الجزاء ﴿فَأَخَذَهُمْ
عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ..﴾ (١٨١) [الشعراء]

وهو عذاب يوم مشهود حيث سلط الله عليهم الحرارة الشديدة
سبعة أيام ، عاشروها فى قيظ شديد ، وقد حجز الله عنهم لريح إلا
بمقدار ما يُبقى رَمَقَ الحياة فيهم ، حتى اشتد عليهم الأمر وحميت من
محتهم الرمال ، فراحوا يلتمسون شيئاً يُروِّح عنهم ، فراوا غصاة

قادمة في جر السماء فاستشرفوا لها وظنوا تخلف عنهم حرارة الشمس ، وتروّج عن نفوسهم ، فما استغلّوا بها ينتظرون الراحة والطمأنينة عاجلتهم بالنار تسقط عليهم كالمطر

على حدّ قول الشاعر :

كَمَا امْطَرَتْ يَوْمًا ظَمَاءٌ غَمَامَةٌ فَلَمَّا رَأَوْهَا اقْشَعَتْ وَتَجَلَّتْ^(١)

ويا ليت هذه السحابة اقشعت وتركتهم على حالهم ، إنما قذفتهم بالنار والحُجْم من فوقهم ، فرادتهم عذاباً على عذابهم .

كما قال سبحانه في آية أخرى

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُرْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْظَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٤) تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ .. (٧٥) ﴾ [الاحقاف]

ذلك وصف الله عذاب هذا اليوم بأنه ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٧٤) ﴾ [الشعراء] مما رجّحه عظمته وهو عذاب ، قالوا : لأنه جاء بعد استشارة واسترواح وامن في الراحة ، ففاجأهم ما رادهم عذاباً ، وهذا ما نسميه « ياس بعد إطماع » وهو أنكى في التعذيب وأشق على النفوس .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) ﴾

قوله سبحانه . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ .. (١٩٠) ﴾ [الشعراء] أي فما حسبتكم به ﴿ لَآيَةً . (١٩٠) ﴾ [الشعراء] يعني : عبرة ، وسمّيت كذلك لأنها تعبر

(١) انفتح السحاب ونفث دهب عن وجه السماء وانفتح القيم ، تفشع ونفثته الريح . أي كشمته مانثشع . [لسان العرب - مادة قشع]

(٢) العارض السحابة إذا كانت في ناحية من السماء والعارض يكون أيمن اللول [لسان العرب - مادة عرس]

بصاحبها من حال إلى حال ، فإن كان مُكذِّباً آمن وصدق ، وإن كان معانداً لأنَّ للحق راطاع .

وما قصصته عليكم من مواكب الرس وأقوامهم ، وهذا الموكب يصم سبعة من رسل الله مع أسمهم موسى ، وإبراهيم ، ونوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب عليهم جميعاً وعلى نبينا السلام ، وقد مضى هذا الموكب على سنة الله ثابتة لا تتخلف ، هي أن ينصر الله - عز وجل - رسله والمؤمنين معهم ، ويحذل الكافرين المكذِّبين .

فلتأخذوا يا آل محمد من هذا الموكب عبرة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً..﴾ (الشعراء) [١٦٩] يعنى عبرة لكم ، وسُميت عبرة : لأنها تعبر بصاحبها من حال إلى حال ، فإن كان مُكذِّباً آمن وصدق ، وإن كان معانداً لأنَّ للحق راطاع ، وقد رأيتم أننا لم نُسلم رسولا من رسلنا للمكذِّبين به ، وكانت سنتنا في الرسل أن ننصرهم .

﴿وَلَقَدْ مَبَيْتُ كَلِمَاتًا لِّعِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ [الصافات]

وقال ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١٧٣) [الصافات]

ومن العبرة نقول عبر الطريق يعنى انتقل من جانب إلى جانب ، والعبرة هنا أن ننتقل من استكذيب والد الذر والجحود والكبرياء إلى الإيمان والتصديق والطاعة ، حتى العبرة (الدُّعَاة) مأخوذة من هذا المعنى

وفى قوله تعالى . ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٦٩) [الشعراء] حماية واحتراس حتى لا نهضم حق القلة التي آمنت^(١)

(١) قبل أمر بشعيب من الغنم (أهل مدين ، أصحاب الايكة) شعامة نقر [نقله القرطبي في تفسيره ٥٠١٨/٧]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٩١﴾

ربك الرب هو المتولى الرعاية والتربية . وبهذه الخاتمة خُتِمَتْ جميع القصص السابقة ، ومع ما حدث منهم من تكذيب تُخْتَم بهذه الخاتمة الدالة على العزة والرحمة

ثم ينتقل السياق إلى خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ بعد أن قُدِّمَ لنا العبرة والعظة في موكب الرسل السابقين ، فيقول الحق سبحانه

﴿وَإِنَّمَا نُنْزِلُ رَّبِّ الْعَالَمِينَ ١٩٢﴾

﴿رَأَيْتَهُ .. (١٩٢)﴾ [الشعراء] على أى شىء يعود هذا الضمير ؟ المفروض أن يسبقه مرجع يرجع إليه هذا الضمير وهو لم يُسبق بشىء نقول . جاءنى رجل فاكرمته فيعود ضمير الغائب فى اكرمته على (رجل)

وكما فى قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإحلام] فالضمير هنا يعود على لفظ الجلالة ، مع أنه مستأخر عنه ، ذلك لاستحضار عظمته تعالى فى النفس فلا تغيب .

كذلك ﴿إِنَّهُ . (١٩٢)﴾ [الشعراء] أى القرآن الكريم وعرفناه من قوله سبحانه ﴿نُنْزِلُ رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢)﴾ [الشعراء] وقُدِّمَ الضمير على مرجعه لشهرته وعدم انصراف الذهن إلا إليه . محين نقول ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإحلام] لا ينصرف إلا إلى الله ، ﴿رَأَيْتَهُ نُنْزِلُ رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢)﴾ [الشعراء] لا ينصرف إلا إلى القرآن الكريم^(١)

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣٤٧/٢) : (رَأَيْتَهُ) أى القرآن الذى تقسم شكره فى أول السورة فى قوله ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ نُحَدِّثُ (٥)﴾ [الشعراء] .

وقال ﴿لَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٦) [الشعراء]

أي أنه كلام الله لم أقله من عندي ، خاصة وأن رسول الله ﷺ لم يسبق له أن وقف خطيباً في قومه ، ولم يُعرف عنه قبل الرسالة أنه خطيب أو صاحب قول .

إذن - فهو بمقدس الدنيا دونكم في هذه المسألة ، فإذا كان ما جاء به من عنده فلماذا لم تأثروا بمثله ؟ وأنتم أصحاب تجربة في القول والخطابة في عكاظ وذي المجاز وذي المجبة ، فإن كان محمد قد افترى القرآن فسأنتم أقدر على الافتراء ، لأنكم أهل دربة في هذه المسألة

و ﴿الْعَالَمِينَ﴾ (٩٦) [الشعراء] - كل ما سوى الله عز وجل ، لذلك كان ﷺ رحمة للعالمين للإنس والجن والملائكة وغيرها من العوالم .

لذلك لما نزلت ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢١٧) [الأنبياء] سأل سيدنا رسول الله جبريل عليه السلام : «أما لك من هذه الرحمة شيء يا أخى يا جبريل ؟» فقال : نعم ، كنت أخشى سوء العاقبة كإبليس ، فلما أنزل الله عليك قوله ﴿بِذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (٢) [التكوير] أمنت العاقبة ، فتلك هي الرحمة التي نالتني

ويس القرآن وحده تنزيل رب العالمين ، إنما كل الكتب السابقة السماوية كانت تنزيل رب العالمين ، لكن الفرق بين القرآن والكتب السابقة أنها كانت تأتي بمنهج الرسول فقط ، ثم تكون له معجزة في أمر آخر تثبت صدقه في إبلاغ عن الله .

فموسى عليه السلام كان كتابه التوراة ، ومعجزته العصا ،
وعيسى عليه السلام كان كتابه الإنجيل ، ومعجزته إبراء الأكمه
والأبرص بإذن الله ، أما محمد ﷺ فكان كتابه ومنهجه القرآن
ومعجزته أيضاً ، فالمعجزة هي عين المنهج فلماذا ؟

قابوا لأن القرآن جاء منهجاً لندس كافة في الزمان وفي المكان
فلا بد - إذن - أن يكون المنهج هو عين المعجزة ، والمعجزة هي
عين المنهج ، وما دام الأمر كذلك فلا يصنع هذه المعجزة إلا الله ،
فهو تنزيل رب العالمين

أما الكتب السابقة فقد كانت لأمة بعينها في فترة محددة من
الزمن ، وقد نزلت هذه الكتب بمعناها لا بنصّها ، لذلك عيسى - عليه
السلام - يقول : « سأجعل كلامي في فمه » أي أن كلام الله
سيكون في فم الرسول بنصّه ومعناه من عند الله ، وما دام نصّه من
عند الله فهو تنزيل رب العالمين .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾

كان من الممكن أن يكون الرّوح من عند الله إلهاماً أو نطقاً في
الرّوع ، لذلك قال تعالى بعدها ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ (١٩٣)
[الشراء] إذن الأمر ليس نطقاً في روع رسول الله بحكم ما - إنما
يأتيه روح القدس وأمين الوحي يقول له قال الله كذا وكذا .

(١) أصل هذه البشارة برسول الله ﷺ في التوراة (العهد القديم) المنزل على موسى ، أتيم
بهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيته به ، ويكون أن
لإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطيعه ، [سفر التثنية - الأصحاح
١٨ - عبد ١٨ ، ١٩] قال رحمت الله الهندي في « إظهار الحق » ص ٦٠ « هو إشارة إلى
أن ذلك النبي سيدزل عليه الكتاب ، وإلى أنه سيكون أميناً حافظاً للكلام »

لذلك لم يثبت القرآن إلا بطريق الوحي ، بواسطة جبريل عليه السلام ، فيأتيه الملك ، ولذلك علامات يعرفها ويحسها ، ويقصد جبينه منه عرقاً ، ثم يسري عنه ، وهذه كلها علامات حضور الملك ومشارفته لرسول الله ، هذا هو الوحي ، أما محرد الإلهام أو النُّفْث في الرُّوع فلا يثبت به وحي

لذلك كان جلساء رسول الله يعرفونه ساعة يأتيه الوحي ، وكانوا يسمعون فوق رأسه ﷺ كدوى النحل^(١) أثناء نزول القرآن عليه ، وكان الأمر ينقل على رسول الله ، حتى إنه إن أسند فخذته على أحد الصعابة أثناء الوحي يشعر الصعابي بثقلها كأنها جبل^(٢) ، وإذا نزل الوحي ورسول الله عني دأبته يثقل عليها حتى تنفخ به^(٣) ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾ [المرمل]

ولم تهدأ مشقة الوحي على رسول الله إلا بعد أن ستر عنه الوحي ، وانقطع فترة حتى تشوق له رسول الله ﷺ وانتظره ، وبعدها نزل عليه قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ۝٢ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَرِثَ ۝٣ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٤ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٥ ﴾ [الشرح]

(١) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول : « كان إذا نزل علي رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل » أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/١)
(٢) ذكر البخاري في صحيحه - كتاب الصلاة - باب ما يذكر في الفخذ (١٦) قول زيد بن ثابت كنانة الوحي رضي الله عنه موقوماً عليه : « نزل الله علي رسوله ﷺ وفخذه عني فخذتي ، فثقلت علي حتى خفت أن تُرجم فخذتي » (فتح الباري ٤/١) وقال ابن حجر هو ملوف من حديث موصول عند البخاري في تفسير سورة النمل في نزول قوله تعالى ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢٥ ﴾ [النساء] (أخرجه البخاري في صحيحه ٤٥٩٢)

(٣) عن أسماء بنت يزيد قالت : « إني لأخذه برمام المضباء ساعة رسول الله إذا أنزلت عليه (سورة) العائدة كلها ، فكانت من ثقلها تدق بعضد الناقة ، أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٥/٦)

ونزلت عليه ﴿وَالصُّحُفِ ١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ
وَمَا قَلَى ٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ٤﴾ [الشعر]

يعنى سيعاودك الوحي فى سهولة ودون مشقة ، ولن تتعب فى
تلقيه ، كما كنت تعاني من قبل

وقوله تعالى ﴿نزل .. ١٩٣﴾ [الشعر] تفيد العلو ، وإن القرآن
نزل من أعلى من عند الله ، ليس من وضع بشر يخطئ ويصيب
ويجهل المصلحة ، كما نرى فى القوانين الوضعية التى تُعدل كل
يوم ، ولا تتناسب ومقتضيات التطور ، والتى يظهر عوارها يوماً بعد
يوم

ولأن القرآن نزل من أعلى فيجب علينا أن نستقبله استقبال الوائق
فيه المظمئن به ، لا معانده ، ولا تتكبر عليه ، لأنك تتكبر على مساو
لك . أما ما جاءت من أعلى فيلزمك الانقياد له ، عن اقتناع .

وفى الريف نسمعهم يقولون (إلى اشرح يقصص صباعه ميخرش
دم) لماذا ؟ لأنه قُطِعَ بأمر الأعلى منك ، بأمر الله ، لا بأمر واحد
مثلك .

وحين نتأمل قوله تعالى فى التشريع لحكم من الأحكام . ﴿قُلْ
تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ .. ١٥١﴾ [الأنعام]

كلمة (تعالوا) تعنى اتركوا حضيض تشريع الارض ، وأقبلوا
على رُتبه تشريع السماء متعالوا أى تعلوا وارتفعوا ، لا تهبطوا
إلى مستوى الارض ، ولا تعبتكم وعشتكم لأحداث ؛ لأن الذى يُشرع
لكم بشر أمثالكم وإن كانوا حتى حسنى البية ، فهم لا يعلمون حقائق
الأمور ، فإن أصابوا فى شيء أحصاوا فى أشياء ، وسوف تُضطرون

لتغيير هذه التشريعات وتعديلها إذن فالإسلام لكم أن تأخذوا من الأعلى ، لأنه سبحانه العليم بما يصلحكم .

إذن ﴿ نَزَّلَ .. (١٩٣) ﴾ [الشعراء] تفيد أنه من الأعلى من مصدر الخير ، حتى الحديد وهو من نعم الله ، لما تكلم عنه قال سبحانه ﴿ وَأَمَرْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ لَهُ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] ولم يقل مثلاً أنزلنا الألماس أو الألماس ، أو غيره من المعادن النفيسة لماذا ؟ لأن الحديد أداة من أدوات نُصْرَةِ الدعوة وإعلاء كلمة الله

وسمى حديد - عليه السلام - الروح ، لأن الروح بها الحياة . والملائكة أحياء لكن ليس لهم مادة ، فكانهم أرواح مطلقة . أما البشر فمادة فيها روح .

كما أن كلمة الروح استعملت عدة استعمالات منها ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي .. (٨٥) ﴾ [الإسراء] والمراد لروح التي نحيا بها

وسمى القرآن روحاً ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا .. (٥٢) ﴾ [الشورى] إذن فالقرآن روح ، والملك الذي نزل به روح ، فإن قلت فما حاجتى إلى الروح وفي روح ؟

نقول لك . هذه الروح التي تحيا به مادتك ، والتي تفارقك حين تموت وتنتهى المسألة ، أما الروح لى نأتيك في القرآن فهي روح باقية خالدة ، إنها منهج الله الذي يعطيك الحياة الأبدية التي لا تنتهى لذلك ، فالروح التي تحيا بها العادة للمؤمن وبلكافر على حد

سواء ، أما الروح التي تأتيك من كتاب الله وفي منهجه ، فهي للمؤمن خاصة ، وهي باقية ، وبها تستأنف حياة جديدة خالدة بعد حياة المادة الفانية .

وقرأ إن شئت قوله تعالى ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولٍ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (١٤)﴾ [الأنفال]

كيف وها نحن أحياء ؟ نعم نحن أحياء بالروح الاولى روح المادة الفانية ، أما رسول الله فهو يدعونا للحياة الناقية ، وكأنه - عز وجل - يشير إلى أن هذه الحياة التي نحياها ليست هي الحياة الحقيقية ، لأنها ستنتهي ، وهناك حياة أخرى باقية دائمة

حتى مجرد قولنا نحن أحياء فيه تجاوز ، لأن الأحياء هم الذين لا يموتون ، وهذه الحياة لا تأتي إلا بمنهج الله ، وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهيَّ الْحَيَوانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [الأنعام] فالحيوان مبالغة في الحياة ، أي حياة الحقيقية ، أما حياة المادة فهي حياة هذه التي يموت فيها المرء يوم مولده ، أو حتى بعد مائة عام ١٥

ثم يصف الحق - سبحانه وتعالى - الروح بأنه ﴿الْأَمِينُ (١٦٢)﴾ [الشعراء] أي على الوحي ، القرآن - إذن - مَصُونٌ عند الله ، مصون عند الروح الأمين الذي نزل به ، مَصُونٌ عند النبي الأمين الذي نزل عليه

لذلك يقول سبحانه ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِرِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة]

(١) الوتين : حُرْق في القلب إذا قُطِع مات صاحبه . وهو الشريان الرئيسي إلهام الذي يعطى للجسم بالنفث الخارج من القلب ، قال تعالى ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾ [الحاقة] أي لقطعناه حاجلاً وأهكناه سرياً (إذا حالف امرأاً أي مخالفة [القاموس القويم ٢/ ٢١٩]

وقال تعالى . ﴿رَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِبَصِيرٍ^(١)﴾ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ
شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾

[التكوير]

ثم يقول لحق سبحانه .

﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٦﴾﴾

نزل القرآن على أذن رسول الله ، أم على قلبه ؟ الأذن هي أداة
السمع ، لكن قال تعالى ﴿عَلَى قَلْبِكَ .. ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء] لأن الأذن
وسيلة عبور للقلب ، لأنه محل التلقى ، وهو (دينامو) الحركة في
حسم الإنسان ، فالدم الذي يصحّه في أعضاء الجسم واجهزته تتولد
الطاقات والقدرة على الحركة وأداء الوظائف

بذلك يرى امريض مثلاً يأخذ الدواء عن طريق الفم ، فيدور
الدواء دورة الطعام ، ويُمْتَصُّ سَطَاءً ، فإن أردتَ سرعه وصول الدواء
للجسم تعطيه حقنة في العضل ، لكن الأسرع من هذا أن تعطيه حقنة
في اوريد . فتحتلظ بالدم مباشرة ، وتحدث أثرها في الحسم
بسرعة ، فالدم هو رسالة الحياة في النفس البشرية

إذن فالقلب هو محل الاعتبار والتأمل ، وليس لسماع الانس قيمة
إذا لم يَعْ لقلب ما سَمِعَ الأذن لذلك يقول سبحانه في موضع
آخر ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ تَهْلِي قَلْبِكَ . ﴿١٧﴾﴾ [البقرة]
فالمعنى نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ مباشرة ، كأنه لم يمرّ بالأذن ، لأن الله
الله تعالى اصطفى لذلك رسولا صنعته على عينه ، وأزال عنه العقبات
البشرية التي تعوق هذه المباشرة ، فكان قلبه ﷺ أصبح منتبها لتلقى

(١) الضمير المبين هو سبحانه لا يكتم غيباً عن رسول الله ، بل يبلغه كل ما أوحاه الله
إليه من خبر السموات [القاموس القويم ٣٩٦/١]

كلام الله ، لأنه مصنوع على عَيْنِ الله ، أب لذين سمعوا كلام الله
مآذانهم فلم يتحاربوا معه ، فكانت قلوبهم مغلقة قاسية فلم تفهم
والقلب محل انتكاليه ، ومُسْتَقَرَّ العفائد ، وإليه تنتهي مُحَصِّلَةُ
وسائل الإدراك كلها مَالَعَيْنُ ترى ، والأذن تسمع ، والأنف يشم ،
والأيدى تلمس ثم يُعرضُ هذا كله على العقل لاختيار بين الدلائل ،
فإذا اختار العقل واطمان إلى قصية ينقلها إلى القلب لتستقر به ، لذلك
نسميها عقيدة يعنى أمر عقد القلب عليه ، فلم يَعُدْ يظنوا إلى العقل
ليبحث من جديد ، لقد مرَّسَحَ في القلب ، وأصبح عقيدة ثابتة .

وفي آيات كثيرة نجد المعول والنظر إلى القلب ، يقول تعالى
﴿لَنْ يَدَّ اللَّهُ نُحُومَهَا وَلَا دَعَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَدَّهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ (٢٧) [الحج]
وفي آية أخرى يُبَيِّنُ أَنَّ التقوى محلها القلب ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ
شَعَاتِرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (٢٢) [الحج]
وهي شهادة يقول تعالى ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ
أَتَمُّ قَلْبُهُ﴾ (٢٨٣) [البقرة] مع أن الشهادة باللسان ، لا بالقلب

لذلك يقول النبي ﷺ هي الحديث الذي رواه النعمان بن بشير
« ألا إن في الجسد مُضَغَةً ، إذا صَلُحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وإذا
فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، ألا وهي القلب » (١) .

ويُحَدِّثُنَا صحابة النبي ﷺ أنه كان ينزل عليه الوحي بآيات كثيرة
بما يوارى رُبْعِينَ أو ثلاثة أرباع مرة واحدة ، فإذا ما سَرَى عنه ﷺ
قال اكتبوا ، ثم يقرؤها عليهم مع وَصْعِ كل آية في مكانها من

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٢٥١) وكذا مسلم في صحيحه
(١٥٩٩) . وأحمد في مسنده (٤ / ٢٧ ، ٢٧٤) من حديث النعمان بن بشير وأوله
« إلى الحلال بين ، وإلى الحرام بين »

صورنها ، ثم يقرؤها ﷺ في الصلاة ، فتكون هي هي كما أملاها عليهم ، ذلك لأن القرآن باشر قلبه لا أذنه

وكان ﷺ لحرصه على حفظ القرآن يُرَدُّه خلف جبريل ويكرره حتى لا ينساه ، فأنزل الله عليه^(١) ﴿سُقِرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى]
وقال في موضع آخر ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١١٤) [طه]

وقال تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَيْنًا جَمْعَةٌ وَقُرْآنُهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ (١٩) [القيامة]

ومن عجيب أمر القرآن أنك لا تجد شخصاً يلقى كلمة لمدة خمس دقائق مثلاً ، ثم يعيدها عليك كما قالها نصّاً ، أما النبي ﷺ فكانت تلقى عليه السورة ، فيسعيدها كما هي ، ذلك من قوله تعالى ﴿سُقِرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى]

وقوله سبحانه ﴿لَتَكُونَنَّ مِنْ النَّاتِرِينَ﴾ (١٩٤) [الشعراء] العنذر الذي يُحْدَرُ من الشر قبل وقوعه ليحْصِط السامع فلا يقع في نوع الشر ، ولا يكون الإنذار سبابة وقوع الشر ، لأنه في هذه الحالة لا يُجْدَى ، وكذلك البشارة بالخير تكون قبل حدوثه لتحث السامع على الخير ، وتحفزه إليه

ويقول سبحانه في آية أخرى ﴿لَتُسْأَلُنَّ عَنْهُمَا مَا أَنْتُمْ بآبَائِهِمْ ..﴾ (٦) [يس]

(١) عن ابن عباس قال كان النبي ﷺ إذا أتاه جبريل يلوحى له بفرع حتى يدخل من الوحي يتكلم النبي ﷺ بأوله مخافة أن يُغشى عليه ، فقال له جبريل : لم تفعل ذلك ؟ قال : مخافة أن أنسى . فأنزل الله عز وجل ﴿سُقِرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى] أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٢٦٤٩) راووده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٦/٧) وقال : فيه جويد وهو ضعيف ، وكذا نسخة السيوطي في أسباب النزول (ص ٢٩٦)

فكما أنذر الرسل السابقون أقوامهم ، أنذر أنت قومك ، واضم
إلى مركب الرسالات
ثم يقول الحق سبحانه

﴿لِسَانَ عَرَبٍ مُّبِينٍ﴾ (١٩٥)

وقوله تعالى ﴿لِسَانَ عَرَبٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء] فإن كان القرآن
قد نزل على قلبك ، فكيف يسمعون ، وكيف يكتبونه ، ويحفظونه ،
يأتي هنا دور اللسان العربي الذي يُخرج القرآن إلى الناس ، إذن
فمنطق رسول الله بعد نزوله على القلب ، ويؤخر اللسان ، لأنه وسيلة
الحفظ والصيانة والقراءة

ومعنى ﴿مُبِينٍ﴾ [١٩٥] واضح ظاهر ، محيط بكل
أهصية الحياة ، لكن يأتي من يقول إن كان القرآن نزل بلسان
عربي ، فما بل الكلمات غير العربية التي نطق بها ، فكلمة قسطنس
رومية^(١) ، وآمين حبشية ، وسجيل فارسية^(٢)

ونقول ، معنى لسان العربي ما نطق به العرب ، ودار على
السببهم ، لأنه أصبح من لغتهم وصار عربياً ، وإن كان من لغات
أخرى والمراد أنه لم يأت بكلام جديد لم تعرفه العرب ، فقبل أن
ينزل القرآن كانت هذه الكلمة شائعة في اللسان العربي

ونزل القرآن باللسان العربي خاصة ، لأن العرب هم أمة استقبال

(١) أخرج الفريابي عن مجاهد ، قال القسطنس العلل بالرومية وأخرج ابن أبي حاتم عن
سعيد بن جبير قال القسطنس بلغة الروم الميراث [الإتيان في علوم القرآن للسيوطي
١١٥/٢]

(٢) أخرج الفريابي عن مجاهد ، قال سجليل بالفرنسية أولها حجارة وآخرها طين [الإتيان
في علوم القرآن للسيوطي ١١٢/٢]

الدعوة وحاصوها إلى باقى الأمم ، فلا بُدَّ أن يفهموا عن القرآن فإن
قُلْتُ فالأمم الأخرى غير العربية مخاطبةً أيضاً بهذا القرآن العربى ،
فكيف يستقبلونه ويفهمون عنه ؟ يقول من سمعه من العرب عليه أن
يُلقه بلسان القوم الذين يدعونه ، وهذه مهمتنا نحن العرب تجاه
كتاب الله

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾

الضمير فى ﴿إِنَّهُ﴾ (١٩٦) [الشعراء] يصح أن يعود على القرآن
كسابقه ، ويصح أن يعود على رسول الله ، ومعنى ﴿زُبُر ..﴾ (١٩٦) [الشعراء]
جمع زبور يعنى مكتوب مسطور ، ولو أن القول الذى
عارضت رسول الله ، وأنكرت عليه رسالته ، وأنكرت عليه معجراته
عطلوا إلى الدساتل السابقة عليه مباشرة ، وهى اليهودية
والنصرانية فى النحلة والإنجيل لوجب عليهم أن يصدقوه ، لأنه
مذكور فى كتب الأولين

كما قال سبحانه فى موضع آخر ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾
(١٩٨) صحف إبراهيم وموسى (١٩٩) [الأعلى]

فالمبادئ العامة من العقائد والأخلاق والعدل الإلهى وقصص
الأنبياء كلها أمور ثابتة فى كل الكتب وعند جميع الأنبياء ، ولا يتغير
الأحكام من كتاب لآخر ، لتناسب العصر والأوان الذى جاء فيه
وحين نفرا نوله تعالى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا
وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ..﴾ (١٢٣) [الشورى]

تقول ولماذا - إذن - نزل القرآن ؟ ولماذا لم يقل وصييا به محمداً ؟
قالوا لأن الأحكام ستعبر ، لتناسب كل العصور التى مر

القرآن لهدايتها ، وكل الأماكن ، ولتناسب عمومية الإسلام .

لذلك روى عن عبد الله بن سلام^(١) وآخر اسمه ابن يامين ، وكانوا من أهل الكتاب وشهد كلاهما أنه رأى ذكر محمد ﷺ في التوراة وفي الإنجيل والقرآن يقول عنهم ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ (١٤٦) [النقرة]

ولما سمعها ابن سلام قال ربنا تساهل معنا في هذه المسألة .
هواشه إني لأعربه كمعرفتي لولدي ، ومعرفتي لمحمد أشد^(٢)

ويقول تعالى في هذا المعنى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ لِرُسُلِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُجَادِبُهُمْ فِي الْوَرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ..﴾ (١٤٧) [الاعراب]

ويقول سبحانه علي لسار عيسى عليه السلام حين يقف حطياً في قومه ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ..﴾ (١٤٨) [الصف]

إذن ﴿وَأَنَّهُ لَقِيَ رَبَّ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٤٩) [الشعراء] أي محمد ﷺ أو هو القرآن الكريم . فكلاهما صحيح ، لأن صفة رسول الله ﷺ موحودة في هذه الكتب ، أو القرآن في عموم مبادئه في العقائد والأخلاق والعبث وسير الأسماء

فكان الواجب على الذين جاءهم القرآن أن يؤمنوا به ، خاصة وأن رسول الله كان أمياً لم يجنس إلى معلم ، وباريحه في ذلك معروف لهم حيث لم يسبق له أن قرأ أو كتب شيئاً

(١) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي . أبو يوسف ، صاحب أسلم عند قدماء النبي ﷺ المدينة . وكان اسمه المسيي . قسمه رسول الله ﷺ عبد الله . وشهد مع عمر بن الخطاب بمكة . أقام بالمدينة إلى أن توفي عام ٤٢ هـ (الأعلام للزركلي ٢ ، ٩)
(٢) قال ابن كثير في تفسيره (١٦٠ / ١) . قال القرطبي يروي عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام اتعرف محمداً كما تعرف ولكل ٩ قال نعم وأكثر . بل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بعنه فعرفته . وبي لا أنرى ما كان من أمه .

والقرآن يؤكد هذه المسألة . فيقول تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ
﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَعْطَلُهُ يَمِينُكَ إِذَا لَارْتَابَ
الْمُبْطِلُونَ﴾ (٤٨)

[العنكبوت]
﴿وَمَا كُنْتَ نَاوِيًا﴾ في أهل مدين تلتو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين
(٤٥)

[القصص]
﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ . . .﴾ (٤٤) [القصص]
﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَعَهُمْ آيَاتُهُمْ يَكْفُلْ مَرْيَمَ﴾ (٤١) [آل عمران]

فكل هذه الآيات وغيرها دليل على انه ﷺ لا علم له بها إلا
بواسطة الوحي المباشر في القرآن الكريم . وكان على القوم أن
يؤمنوا به أول ما سمعوه

ثم يقول الحق سبحانه

﴿أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١١٧)

آية أى دليلاً وعلامة على أن القرآن من عند الله لأن علماء
بنى إسرائيل كانوا يستفتحون به على الدين كفروا ، فلما جاءهم
ما عرفوا كفروا به ، أو لم يقولوا للأرسل والخروج في المدينة لقد
أطل زمان نبى يأتي سنتبعه ومقتلكم به أيها المشركون قتل عد
وإرم^(٢) ، ومع ذلك لما نعت النبي ﷺ أنكروه وكفروا به . وهم
يعرفون أنه حق ، لماذا ؟

(٢) ثوى بالمكن حله وأقام فيه وسفر به والمعنى ما كتب عليهم عددهم [القاموس العويم
١١٢٠]

(٢) حرج ابن سعد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية العوفي كانوا خمسة أسد وأسيد
وبن يامين وثعلبة ، وعد الله من سلام [أورده السيوطي في الدر المنثور ٦ / ٢٢٣]
(٣) عن شيوخ من الانصاف قالوا كذا قد علمناهم قهراً دهرهم من الجاهلية ومن أهل شرك ومن أهل
كتاب وهم يقولون إن نبياً سيبعث الآن نبيه قد أطل زمانه فقتلكم معه قتل عاد وإرم علماء
بعث الله رسوله من قريش وبعثناه كفروا به ذكره ابن كثير في تفسيره (١٢٤ / ١) نقلاً عن ابن
إسحاق

قالوا لانهم تنبَّهوا إلى أنه سيسلبهم القيادة ، وكانوا في المدينة أهل علم ، وأهل كتاب ، وأهل نصر ، وأهل حروب إلخ وليلة هاجر النبي ﷺ إلى المدينة كانوا يستعدون لتتويج عبد الله بن أبي ملكا عليها ، فما جاءها انبى ﷺ فسد عليهم هذه المسألة ، لذلك حسدوه على هذه المكاة ، فقد أخذ منهم السُّنطة الرمنية والتي كانت لهم وقال ﴿عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١٩٧) [الشعراء] لانهم كانوا يعرفون صدق رسول الله ، ولأنه ﷺ جاء بأشياء لا يعرفها إلا هم ، وقد اشتهر منهم خمسة ، هم عبد الله بن سلام ، وأمس ، وأسيد وثعلبة ، وابن يامين ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِآيَاتِهِ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

لقد أنزلنا القرآن بلسان عربي على أمة عربية ولو أنزلناه على الأعاجم ما فهموه^(١)

وقال الحق سبحانه وتعالى في موضع آخر ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ الْأَعْجَمِيَّ وَعَرَبِيًّا قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٢٠٤﴾﴾ [قصص]

(١) قال قتادة يقول لو أنزلنا هذا القرآن على بعض الأعجميين لكانت العرب أشد الناس به لا يفهمونه ولا يدرون ما هو ، أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم . وقال قتادة أيضا لو أنزل الله سبحانه لكانوا أخسر الناس به لأنهم لا يعرفون العجمية أخرجه عبد البراق بن عبد بن حميد وابن جرير [نكوهما السيوطي في الدر المنثور

لماذا ، لأن المستقبل مقفول فإن أردت استقبال أى قضية عليك أن تخرج من قلبك أى قضية أخرى معارضة لها ، ثم بعد ذلك لك أن تدرس التقضيتين ، مما وافق الحق فأدخله

لذلك يقول تعالى ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .

(١) ﴾ [الأحزاب] فهو قلب واحد ، لذلك أخرج منه كل قضية سابقة وما هو القرآن واحد ، وقائمه واحد ، ومُبلّغه واحد . ولسانه عربى

يقول تعالى فى وصفهم حال سماع القرآن ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ حَدٍّ ثُمَّ ابْصَرُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) ﴾ [التوبة] أى يريدون التسلسل والخروج .

ويقول تعالى فى آية أخرى ﴿ وَذَٰلِكَ مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أُنْكُم زَادَتْهُ هِذِهِ إِيمَانًا .. (١٢٨) ﴾ [النور] أى ماذا أضافتكم ؟ وماذا رادت من إيمانكم ؟

ويقول سبحانه ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَعِ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَابْغَرَا هَوَاءَهُمْ (٦٦) ﴾ [محمد] يعنى ما الجديد الذى جاء به ؟

ويقول عن الدين آمنوا ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا رَادَّهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ نِقْمَاهُمْ (٦٧) ﴾ [محمد]

(١) قال بن عباس مبدا أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم هم المضافون لورثه السيوطى فى الدر المنثور ١ : ٢٢٦)

(٢) عن بن جرير قال : كان المؤمنون والمضافون يجتمعون إلى النبي ﷺ يستمع المؤمنون منه ما يقول ويعبره ويسمعه المضافون ملا يعونه ، فإنما خرجوا سالوا الموحين ماذا قال آنفًا ؟ منكر ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ (٦٦) ﴾ [محمد] ذكره السيوطى فى الدر المنثور (١ : ٤٦٦) ومرة لابن المنذر

و ﴿الْأَعْجَمِينَ﴾ (١٩٨) [الشعراء] جمع أعجمى ، والأعجم هو الذى لا يُحسن الكلام العربى ، وإن كان ينطق به ، والعجمى ضد العربى والعجم غير العرب . فالمعنى ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ ..﴾ (١٩٨) [الشعراء] أى القرآن العربى على بعض الأعجمين ما فهمه ، وقال ﴿بَعْضُ﴾ (١٩٨) [الشعراء] لمراعاة الاحتمال ، فمن العجم مَنْ تعلّم العربية وأجادها ويستطيع فهم القرآن

وقوله تعالى ﴿فَفَرَأَاهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٩٩) [الشعراء] لأنهم لم يفهموا منه شيئاً ، فكذلك أنتم مثل هؤلاء العجم فى تلقى واستقبال كلام الله ، لم تفهموا منه شيئاً

ذلك لأنهم أحبوا الكفر وأبغضوا طيبه ، واستراحوا إليه قلوبهم حتى عَشَقُوهُ ، فأعانهم الله عليه ، وختم على قلوبهم . فلا يدخلها إيمانٌ ، ولا يخرج منها كفر .

﴿كَذَلِكَ سَلَكَنَا

فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ

الْأَلِيمَ﴾ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَعْتَةٌ وَهَمُّ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٠٢)

معنى ﴿سَلَكَنَا ..﴾ (٢٠٠) [الشعراء] أنزلناه فى قلوب المجرمين ، كأنهم عجم لا يفهمون منه شيئاً . ذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٢٠١) [الشعراء] وما داموا لن يؤمنوا به حتى يروا العذاب الاليم فلن يُقبل منهم إيمان

ومعنى ﴿بَعْتَةٌ ..﴾ (٢٠٢) [الشعراء] أى فجأة ، ومن حيث لا يشعرون

لذلك لما نزل القرآن وآمن برسول الله بعض الصحابة اضطهد رسول الله وصحابته ، وأوذوا حتى صاروا لا يأمنون على أنفسهم من بطش الكفار ، حتى كانوا يبيتون في السلاح ، ويستيقظون في السلاح ، لا يجدون من يحميه .

وفي هذه الحالة نزل قوله تعالى ﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤْثِرُونَ الدِّبْرُ (١٥) ﴾ [الفر] فتعجب عمر رضي الله عنه أي جمع هذا الذي سيَهْزِمُ ، والمسلمون على هذه الحال ؟ فلما شهد بدرًا وما كان فيها من قتل المشركين ونُصْرَةِ دين الله ، قال نعم صدق الله ، سيَهْزِمُ الجمع ويؤثرون الدبر^(١)

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٢) ﴾

﴿ أَفِيحْذَابِنَا يُسْتَعْجَلُونَ (٢٤) ﴾

أي انظرونا وتمهلوا علينا ، وأخروا عنا العذاب ، سبحانه الله ألم يستعجلوه^(٢) ؟ وهذه طبيعة أهل العناد والكفر إن تركناهم طلبوا أن ينزل عليهم ، وإن نزل بهم انحداب قالوا انظرونا وتمهلوا علينا

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (٢٦٦/٤) وعراه لابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما برأت

﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤْثِرُونَ الدِّبْرُ (١٥) ﴾ [الفر] قال عمر أي جمع يَهْزِمُ ؟ أي أي جمع يُهْزِبُ ؟

قال عمر فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول : سيَهْزِمُ

الجمع ويؤثرون الدبر ، معرفت تاريخها يومئذ

(٢) يقول تعالى عنهم ﴿ وَقَالُوا يَا عَجَلًا لِمَا أَفْعَدْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْعَذَابِ (٢٦) ﴾ [ص] أي عجل لنا

العذاب وقال تعالى ﴿ وَيُسْتَعْجَلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ أَنَّ أَجَلَ أَسْمَى لَبَاءَهُمُ الْعَذَابُ بِوَكَائِهِمْ بَقِيَّةٌ وَهُمْ

لَا يَشْعُرُونَ (٢٧) ﴾ يستعجلونك بالعذاب وإن أَسْمَى لمعجلة بالكافرين (٢٦) ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول رب العزة سبحانه

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿ أفرايت .. (٢٥) ﴾ [الشعراء] يعنى أحبرسى ﴿ إِنْ مُتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ (٢٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ [الشعراء] ومع طوون المدة، إلا أن الغاية واحدة ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ ﴾ (٢٧) [الشعراء]

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿٢٩﴾

كما قال سبحانه في آية أخرى ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُن رُبُّكَ مِهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (١٣٦) [الأنعام] ، فقد جاءهم رسول يُعَلِّمُهُمْ ويُنذِرُهُمْ ، ليقيم عليهم الحجة ، كما قال تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (١٥)

هذا كله ﴿ ذِكْرَىٰ ﴾ (٢٠٩) [الشعراء] تعنى مذكروه لِنُوقِظَ عَفْلَكُمْ ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (٢٠٩) [الشعراء] فاستم الذين فعنتم هذا بأنفسكم ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١١٨) [الحجر]

(١) قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٢١٠) : « المراد أهل مكة في قول الصحاح وغيره »
(٢) أى لو أحبرناهم وانتظروناهم وأملينا لهم برهة من النعم وحيثاً من الرمان وإن طال ثم جاءهم أمر الله ، أى شره بجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم [تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٨]

ثم يقول الحق سبحانه عن القرآن

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (١) **﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ**
﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (١١)﴾

لأنهم قالوا إنما نزلت الشياطين على محمد بالقرآن ، وكانوا يقولون ذلك لكل شاعر ماهر بشعره عندهم ، فكل شاعر شيطان يُملِيه الشعر ، وعندهم وادٍ يُسمى وادى « عبقر » هو وادى الجن ، فيقولون فلان عبقرى أى موصول بالجن فى هذا الوادى .

لكن ، كيف والكتاب الذى نزل على محمد عدو للشياطين ، يلعبهم فى كل مناسبة ، ويحذر أتباعه منهم ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ (٢٦٨) [البقرة] ويقول الحق سبحانه ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّمِيرِ﴾ (٤) [فاطر]

فكيف إذن - يمدد الشيطان ويُمليه عليه ، وهو عدوه ؟ ولماذا لم ياتكم وأنتم أحباؤه ؟ هذه راحدة .

الآخرى . ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٢٦١) [الشعراء] إن الله جعل القرآن مُعْجَزاً ومُهْجاً ، والمعجزة لا يتسلط عليها إله ولا جن فيفسدها ، لذلك قال سبحانه ﴿إِنْ نَحْنُ بُرِّئْنَا الذِّكْرِ وَإِنَّا لَهُ نَحَافَتُونَ﴾ (٩) [الحجر]

أما الكتب السابقة فقد طلبت من المؤمنين بها أن يحفظوها ، وفرق بين الحفظ منى ، وطلب الصفح منكم ، لأن الطلب تكليف وهو عُرْضَةٌ لأن يُطَاع ولأن يُعَصَى ، وقد جربنا حفظ البشر فلم يحافظوا على كتبهم السابقة ، لذلك تولى الحق - سبحانه وتعالى - حفظ قرآنه

بنفسه ، ولم يكلِّه إلى أحد من خلقه

لذلك تجد في هذا المجال كثيراً من العجائب والمفارقات ، مع تقدم الزمن وطغيان المضاربات المعادية للإسلام ، رأتى ثُغُورنا كل يوم نوابل من الانحرافات والخروج عن تعاليم الدين ، ومنا من ينساق خلفهم ، وهذا كله ينقص من الأحكام المطبقة من الإسلام

لكن مع هذا كله تجد القرآن يزداد توثيقاً ، ويزداد حفظاً ، ويتبارى حتى غير المسلمين في حفظ كتاب الله وتوثيقه ، والتجديد في طبعته ، حتى رأينا مصحفاً في ورقة وحدة ، ومصحفاً في حجم عقلة الإصبع ، ويفخر بعضهم الآن بأنه يملك أصغر مصحف في العالم ، إلخ بصرف النظر عن دواعيهم من وراء هذا .

المهم أن الله تعالى يُسَخِّرُ حتى أعداء القرآن لحفظ القرآن ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ﴾ (٣٦) [المدر]]

ليس من وسائل نشر القرآن والمحافظة عليه آلات التسجيل وآلات تكبير الصوت التي تنشر كلام الله في كل مكان " ولم يلق شيء من الكتب السابقة مثل هذه العناية

إذن فبالعناية بالقرآن كنص لا تتناسب مع المقص في أحكامه وانصراف أهله عنها ، وكان الله - عز وجل - يقول لنا : سأحفظ هذا النص بغير المؤمنين به ، وسأجعلهم يؤثفونه ويهتمون به ، ليكون ذلك حجة عليكم .

لذلك كان عند الألمان قبل الحرب العالمية خزانة بها أدراج ، في كل درج منها آية من القرآن ، يُحفظ به كل ما كُتِبَ عن هذه الآية بداية من تفسير ابن عباس إلى وقتها ، وهذا دليل على أنهم مُسَخَّرُونَ بقوة خفية لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُرَلِّكُونَ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لِعَافِطُونَ﴾ (٩) [الحجر]

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمَعْذِينَ ﴾ (٢١٢)

خاطب الحق - تبارك وتعالى - نبيه محمداً ﷺ بقوله ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ .. ﴾ (٢١٢) [الشعراء] فهل كان ﷺ مظنة أن يدعو مع الله إلهاً آخر ؟ قالوا : لا ، إنما المراد ابتداء توجيه ، واستداء تكليف ، كأنه يقول له : اجعل عندك مبدءاً ، أنك لا تتخذ مع الله إلهاً آخر ، لا أن الرسول أحد إلهاً ، فجاء الوحي ليسهاه ، إنما هو بداية تشريع وتكليف ، وإذا كان العظيم المرسل ﷺ يتوعد الله إن أراد أن يتخذ إلهاً آخر . فما بالك بمن هو دونه ؟

فساعة يسمع الناس هذا الخطاب موجهاً إلى النبي المرسل إليهم ، فلا بُدَّ أن يصعوا إليه ، ويحذروا ما فيه من تحذير ، كما هو وجه رئيس الدولة أمراً إلى رئيس الوزراء مثلاً - والله المثل الأعلى - وحذره من عاقبة مخالفته ، فلا شك أن مَنْ دونه من الموظفين سيكون أطوع منه لهذا الأمر .

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢١٣)

وهكذا نقل الأمر من رسول الله إلى أهله وعشيرته الأقربين ، ذلك ليطمئن الآخرين من قومه ، فهو يأمرهم بأمر ليس بنجوة عنه ، فأول ما ألزم به ألزم نفسه ثم عشيرته وهذا أدعى للطاعة والقبول ، فأنت ترد أمراً إذا كنت أمرك به ولا أفعله ، لكني أمرك وأسبقك إلى الفعل

لذلك سيدنا عمر - رضى الله عنه - وكان على المنبر يخطب في الدس ، ويقول أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا ، فقام أعراسي وقتل لا سمع لك ولا طاعة ، انظر إلى هذه الجراة على مَنْ ؟ على عمر وهو على المنبر - فقال له عمر ولم ؟

قال لا ثيابك أطول من ثيابك - وكان القماش يُوزع بين المسلمين بالتساوي لا فرق بين طويل وقصير - فقال عمر لابنه عبد الله قم يا عبد الله لتُرى الناس ، فقام عبد الله فقال إن أبى رجل طوال - مبالغة في أطول - وثوبه في المسلمين لم يكف ، فأعطيته ثوبي فوصله بثوبه ، وها أنذا بمُرُفعتي بينكم ، عندها قال لأعرابي إذن تسمع ونطيع^(١)

لكن أين القدوة في دوائره ومصالحنا الحكومية لأن ؟ وأين هو رئيس المصلحة الذي يحضر ، ويجلس على مكتبه في الثامنة صباحاً ليكون قدوة لمرؤوسيه ؟ وإن من أشد ما ابتلينا به أن نفقد القدوة في الرؤساء والمستولين لذلك أول ما وجّه التشريع والتكليف وجّه إلى رسول الله ، وإلى أقرب الناس إليه وهم عشيرته الأقربون ، لأن الفساد يأتي أول ما يأتي من دوائر القرى والحاشية التي تحيط بالإنسان ، وقد يكون الرئيس أو الحاكم بحير ، لكن حاشيته هي سبب الفساد ، حيث تستقر اسمه في فسادها أو تُضلّه وتُعَمّي عليه الحقائق - إلخ .

لذلك كان سيدنا عمر - رضي الله عنه - ساعة يريد أن يُقرّر شيئاً للامة ويعلم أنه قاس عليهم يجمع أهلهم أولاً ويقول لهم لقد شاء الله أن أقرر كذا وكذا ، فمن خالفني منكم في شيء من هذا جعلته نكالا لعامة المسلمين ، وهكذا يضمن أهلهم وأقاربه أولاً ، ويبدأ بهم تنفيذ ما أُراده للمسلمين

(١) من السير ، قال حطب بن العباس وهو خيفة وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة وعن أس قال كان بين كتف عمر ثلاث رقاع [أورد ابن الجوزي في صفة الصفوة

وتأمل ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٤) [الشعراء] والإنذار كما ذكرنا التحذير من الشر فليس أوانه ، فلم يقل شر عشيرتك ، كانه يقول له إياك أن يأخذك به لين ورأفة ، أو عطف لقرابتهم لك ، بل بهم فابداً .

وقد امتثل رسول الله ﷺ لهذا التوجيه ، فكان يقول بقرائه « يا عباس يا عم رسول الله ، يا صفية عمة رسول الله ، يا فاطمة بنت محمد ، اعملوا فرس لا أغنى عنكم من الله شيئاً ولا يأتيني الناس بأعمالهم ، وتأتوني بأنسابكم »^١

وفى الوقت الذى يدعو إلى إندار عشيرته الأقربين يقول فى مقابلها

﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ أَنْبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١٥)

بعد أن أمره بالشدة على أهله وقرابته يأمره باللين ، وخفض الجناح لبقاى المؤمنين به ، وخفض الجناح كناية عن اللطف واللين فى المعاملة ، وقد أخذ هذا المعنى من الطائر حين يحنو على قراخه ، ويضمهم بجناحه

وخفض الجناح دليل الحنان ، لا الدالة والانكسار ، وفى المقابل نقول (فلاى فارد أجبت) إذا تكبر وتجرأ ، وتقر (فلاى سهج لى) إذا عص أوامر

وفى موضع آخر ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨) [الحجر]

(١) عن أبى مبرزة قال قام رسول الله ﷺ حين أرسل الله من رجل ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٤) [الشعراء] قال يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً يا بنى عبد مطلق لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سلبى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئاً ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٥٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٦)

وقال في حق الوالدين ﴿وَخُفِّضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ۖ﴾ ..
 ﴿٢٤﴾ [الشعراء] فلا نقول كُنْ ذليلاً لهم ، إنما كُنْ رحيماً بهم ،
 حثوناً عليهم ، ففى هذا عزك وبجانتك

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٥﴾

فإن عصاك الأقارب فلا تتردد في أن تعلنها ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾
 ﴿٢٥﴾ [الشعراء] وعندها لا تراعى فيهم حق الرحم ، ولا حق
 القربى ، لأنه لا حق لهم ، لذلك قال ﴿فَقُلْ﴾ ﴿٢٥﴾ [الشعراء] ولم
 يقل تبرأ منهم ، لأنه قد يتبرأ منهم فيما بينه وبينهم

لكن الحق - تبارك وتعالى - يريد أن يعلنها رسول الله على الملا
 ليعلمها الجميع ، وربنا يعلمنا هنا درساً حتى لا نحاسب أحداً ، أو
 نجامله لقربائه ، أو مكانته حتى تستقيم أمور الحياة

والذى يفسد حياتنا وينشر فيها القوضى واللامبالاة أن نناقق
 ونجاس الرؤساء والمسؤولين ، ونغطي على تجاوزاتهم ، ونأخذهم
 بالهوانة والرحمة ، وهذا كله يهدم معنويات المجتمع ويدعو
 للفوضى ولتهاون

لذلك يعلمنا الإسلام أن نعلنها صراحة ﴿فَقُلْ إِنَّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾
 ﴿٢٥﴾ [الشعراء] وليأخذ للقانون مجراه ، وليتساوى أمامه الجميع ،
 ولو عرف لمخالف أنه سيكون عرة لغيره لارتدع

لذلك يقال عن عمر رضى الله عنه أنه حكم الدنيا كلها ، والحقيقة
 أنه حكم نفسه أولاً ، فحكمت له الدنيا ، وكذلك من أراد أن يحكم
 الدنيا في كل زمان ومكان عليه أن يحكم نفسه ، فلا يجروا أحد من
 أتباعه أن يخالفه ، وساعة أن يراه أناس قدوة ينصاعون له بالسمع
 والطاعة

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧)

فقد تقول : إن فعلت هذا قل أنصاري وتفرق الأتباع والحاشية من حولي ، نقول لك إياك أن تظن أنهم يجلبون لك نقصاً ، أو يدفعون عنك ضرراً ، فالأمر كله بيده تعالى وبأمره ، فحيرك أن تراعى الله ، وأن تتوكل عليه

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء] العزيز الذي يغلب ولا يُغلب ، ويقهر ولا يُقهر ومع ذلك فهو سبحانه رحيم بك وبهم . وصمة الرحمة هنا تنفي ما يضنه البعض أن العزة هنا تقتضي للجبوت أو انقهر أو الظلم ، فهو سبحانه في عزته رحيم ، لأن عزة العزيز على المتكبر رحمة بالمتكبر عليه

وكان الحق - سبحانه وتعالى - يُعلم طبيعته في أرضه خاصة أولى الأمر منهم ، يُعلمه أن يكون أديباً ناصحاً ، يقول له إياك أن تتوكل على عبد مثلك إذا عجزت عن العمل ، لأنه عاجز مثلك . وما دام الأمر كذلك فتوكل على العزيز الرحيم ، فعرته ورحمته لك أنت .

﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٢١٨) ﴿وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِ﴾ (٢١٩)

أي توكل على الذي يحبك ، ويُقدّر عملك وعبادتك حين تقوم . والمعنى تقوم له سبحانه بالليل والناس نيام ﴿وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِ﴾ [الشعراء] ونفهم من ذلك أنه يصح أن تقوم وحدك بالليل

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣٥٢/٣) : أي هو معتكبك ، وأورد أقوالاً منها

- أي حين تقوم إلى الصلاة
- يرى قيامه وركوعه وسجوده
- يراك إذا صليت وحدك
- يراك حين تقوم من فراشك أو مجلسك
- يراك قائماً وجالساً وعلى حالاتك
- قال ابن عباس
- قال عكرمة
- قال الحسن البصري
- قال الضحاك
- قال قتادة ،



وقوله ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٢٦٨) [الشعراء] يرى حالك في هذا القيام ، وما أنت عليه من الفرح ، وسرعة الاستجابة بنداء الله في قوله الله أكبر ، يراك حين تقوم على حالة انشراح القلب والإقبال على الله والنشاط للعبادة ، لا على حال الكسل والتراخي

وإن أقبلت على الله أعطاك من الفيوصلات ما يُعوّضك مكاسب الدنيا وتجارتها ، إن تركتها لإجابة لنداء ، لذلك كان شعار الأذان الذي ارتصاه رسول الله ﷺ (الله أكبر) أي أكبر من أي شيء غيره ، فإن كنت في نوم فالله أكبر من النوم ، وإن كنت في تجارة ، فالله أكبر من التجارة ، وإن كنت في عمل فالله أكبر من العمل إلخ

وعجيب أن نرى مَنْ يُقدّم العمل على الصلاة بحجة امتداد الوقت ، وإمكانية الصلاة بعد انتهاء العمل ، وهذه حجة واهية ، لأن ربّ حين يناديك (الله أكبر) يريدك أن تستجيب على الفور لا على التراخي ، وإلا كيف تسمى الاستجابة للنداء إذا تأخرت عن وقتها ، فطول الوقت خاصة بين الصبح والظهر وبين العشاء والصبح لا يعني أن تصلي في طول هذا الوقت ، لأن النداء يقتضي الإسراع والاستجابة

ولنا ملحظ هي (الله أكبر) فكبر أفعل تفضيل تدّر على المبالغة ودون أكبر بقول كبير ، وكأنها إشارة إلى أن العمل والسعي ليس شيئاً هيناً أو تامهاً ، إنما هو كبير ينبغي الاهتمام به ، لأنه غصب الحياة ، ولا تستقيم الأمور في عمرة الأرض إلا به

لكن ، إن كان العمل كبيراً فالله أكبر ربك - عز وجل - لا يُزهّد في العمل ، ولا يُرهِدك في الدنيا ، لأنه حالقها على هذه الصورة وجاعل للعمل فيها دوداً ، ون شئت فاقرا ﴿وَإِذَا قُضِيَتِ

الصَّلَاةُ فَاعْشُرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ .. ﴿١٠﴾ [الجمعة]

وقال في موضع آخر ﴿وَلَا تَسْأَلْ بِصِيْبِكَ مِنَ الدُّنْيَا..﴾ ﴿٧٧﴾ [الفصل]
لأن حركة الحياة هي التي تُعِينك على أداء الصلاة وعلى عبادة الله ، فبها تقنات ، وبها تتقوى ، وبها تستر عورتك وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ومع هذا فدعوة الله لك أولى بالتقديم ، وأولى بالإجابة ، لأن الذي خلقك وخلقها ناداك (الله أكبر) .

و ﴿تَقْلُبُكَ ..﴾ ﴿٧١٩﴾ [الشعراء] تعني^(١) القعود والقيام والركوع والسجود ، فربك يراك في كل هذه الأحوال ، ويرى سرورك بمقامك بين يديه ، فإذا ما توكلت عليه فانت تستحق أن يكون ربك عزيزاً رحيماً من أجلك

أو أن المعنى ﴿وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ ﴿٢٨٩﴾ [الشعراء] أنه ﷺ كان يرى صحبته وهم يُصلُّون خلفه ، فيرى مَنْ خلفه كما يرى مَنْ أمامه ، وكانت هذه من خصائصه ﷺ^(٢) .

لذلك كان يُحذِّرهم أن يسبقوه في الصلاة في ركوع أو سجود ، أو قيام أو قعود ويحذِّرهم أن يفعلوا في الصلاة خلفه ما لا يصح من المصلي اعتماداً على أنه ﷺ لا يراهم

(١) قال مجاهد وقناة ونظرك في المصلين وقال ابن عباس أي في أصلاب الأبناء آدم و نوح وإبراهيم حتى أخرجهم بيئاً ذكرهما القرطبي في تفسيره (٢٤ / ٧)

(٢) عن أبي هريرة قال صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً ، ثم انصرف فقال : يا فلان ألا تحسن صلاتك ؟ ألا ينظر انصني إذا صلى كيف يصلي ؟ فإنما يصلي لنفسه ، (أي والله لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يدي) . أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٢) وفتاوى في سنة (١١٩ ٢)

السميع لما يقال ، العليم بما يجول في الخواطر

تَنْزِيلُ عَلَى كُلِّ أَقْلٍ أَشِيرُ

قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ . ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ . ﴾ (١٢٦)

وكلمة ﴿أَلَا تَكْفُرُ﴾ (٢٢٢) [الشعراء] مبدلة في الإفك أى قلب الحقائق وكان هؤلاء يخطفون الأخبار فيقولون شيئاً قد يصادف الصديق ، ثم يجعلون معه كثيراً من الكذب

السمع مصدر وآلته الأذن . فالمراد يلقون الأذن للسمع . كما في

(١) قَالَ تَعَالَى عَنِ الْجِنِّ أَنَّهُمْ قَالُوا ﴿وَأَنَّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وَمَا ذَكَرْنَا طَرِيقَ فِدَا (١) ﴿

قوله تعالى ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٧) [ق]

يعنى ألقى سمعه كى يستمع كمن يحرص على السماع من خفيض الصوت ، فيميل نحوه ليسمع منه وقال ﴿وَكَثُرَهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (٢٢٣) [الشعراء] لار بعضهم والقله منهم قد يصدق ليفلف كذبه ، ويغضى عنه ، فانت تأخذ من صدقه هذه المرة دليلاً على انه صادق ، وهو يخلط الخبر الصادق بأخبار كثيرة كاذبة .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٣٤)

الشعراء جمع شاعر وهو من يقول الشعر ، وهو الكلام الموزون المقفى ، وقد اتهم الكفار رسول الله ﷺ بأنه شاعر ، ورد عليهم القرآن الكريم فى عدة مواضع ، منها قوله تعالى ﴿وما هو بقول شاعر قليلًا ما يؤمنون﴾ (٤١) [الحاقة]

وعجيب من كفار مكة ، وهم العرب اهل اللسان والعلاعة والبيان ، واهل الخبرة فى الكلام الموزون المقفى ، بحيث كانوا يجعلون للشعر أسواقاً فى ذى المجز وذى المجنة وعكاظ ، ويعلقون أجود أشعارهم على أستار لكعبة ، ومع ذلك لا يستطيعون التمييز بين الشعر وأسلوب القرآن الكريم .

إنهم يعرفون الفرق ، لكن يقصدون بقولهم كما حكاها القرآن ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُونِ﴾ (٣) [الطور] يقصدون بالشعر الكلام العذب الذى يستمى النفس ، ويؤثر فى الوجدان ، ولو كان نثرًا وهذه بناهى لها الآن أصحاب الشعر الحر لأنهم

يقولون شعراً ، لكنه غير موزون ، وغير مُقَفَّى

ومعنى ﴿الْفُورُونُ (٢٢٤)﴾ [الشعراء] جمع غاور وهو الضال وهؤلاء يسعون أشعراء لأنهم يؤيدون مذهبهم في الحياة بما يقولون من أشعار ، ولأنهم لا يحكم منصفهم مبدأ ولا خلق ، بل هواهم هو الذي يحكم المبدأ والخلق ، فإن أحيوا مدحوا ، وإن كرهوا ذموا .

والدليل على ذلك

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥)﴾

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)﴾

الصمير في ﴿أَنَّهُمْ .. (٢٢٥)﴾ [الشعراء] يعود على الشعراء ، والراى هو المنخفض بين جبلين ، وكان محل السير ومحل نمو الأشجار والبساتين واستقرار المياه

﴿يَهِيمُونَ (٢٢٥)﴾ [الشعراء] يقول . فلان هَامَ على وجهه أى سار على غير هدى ، وبدون هدف أو مقصد ، فالمعنى ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥)﴾ [الشعراء] أن هذه حال الشعراء ، لأنهم أهل كلام وخيال يمدح أحدهم إن طمع في خيرك ، فإن لم تُعصه كال لك الذم وتفتن في النثر منك ، فليس له واد معين يسير فيه ، أو مبدأ يلتزم به ، كالهائم على وجهه في كل وادٍ

فالمعتبى^(١) وهو من أعظم شعراء لعصر العباسي ويضرب به المثل في الحكمة والبلاغة ، من أشهر شعره قوله

(١) هو أحمد بن الحسين الكندي ، أبو الطيب المنبجى ، ولد بالكوفة في محلة تسمى « كندة » عام ٢٢٠ هـ ، ونشأ بالشام ، ثم تنقل من البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس ادعى النبوة من يادية للمساواة (بين الكوفة والشام) ، ثم شاب ورجع من دعواه مدح سيف الدولة بن جندب وكافوراً ثم هجاه لأنه لم يؤله . [انظر الاعلام للزركلى ١/ ١١٥]

فَالْحَيْلُ وَاللَّيْلُ وَابْيَدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
فلما كان في إحدى رحلاته خرج عليه قُطَاعُ الطَّرِيقِ ، فلما أراد أن
يقرُّ قال له خادمه . ألسنت القاتل .

فَالْحَيْلُ وَاللَّيْلُ وَابْيَدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
فاستحي أن يقرُّ ، وثبت أمامهم حتى قتلوه^(١) ، فقال قبل أن
يموت . ما قتلتني إلا هذا العبد ، واشتهر هذا البيت في الأدب العربي
بأنه البيت الذي قتل صاحبه .

ولما جاء المتنبي إلى مصر مدح حاكمها كافور الإخشيدي^(٢) طمعاً
فيه . وكان كافور رجلاً أسود ؛ لذلك كَوَّهَ بابي المسك ، ولما مدحه
المتنبي حال الرضا قال فيه .

* أَبَا كُلِّ طَلِيبٍ لَا أَبَا الْمِسْكِ وَحَتَّةَ *

وفي قصيدة أخرى يقول :

قَضَى اللَّهُ يَا كَافُورُ أَنَّكَ أَوَّلُ وَيُسَ بَقَاضٍ أَنْ يُرَى لَكَ ثَانُ

فلما لم يُعْطَ كافور طلبه ، وساءت العلاقة بينهما ، قال بهجوه

أريك الرضا لو أَخَفَّتْ النَّفْسُ خَافِيَا وَمَا أَنَا عَنْ نَفْسِي وَلَا عَنْكَ رَاضِيَا
أَمِينًا^(٣) وَإِخْلَافًا وَعَدْرًا وَخَسَةً وَجُبْنًا اشْخَصًا لِحَتٍّ سَيِّئٍ أَمْ مَخَارِيَا
وَتَعْجِزَتِي رِجْلَاكَ فِي النَّعْلِ إِنِّي رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلٍ وَإِنْ كُنْتُ حَاسِيَا

(١) قُتِلَ المتنبي هو وأمه وعلامه بالقتل عام ٣٥٤ هـ حيث عرض له غاتك بن أبي جهن
الأسدي من الطريق بجماعة من أصحابه . ومع المتنبي جماعة أيضاً فاقُتِلَ القريقان
مقتل المتنبي بالقرب من دير العاقول (في الجانب الغربي من سواد بغداد) وفاتك هذا هو
خال صبة بن يزيد الأسدي العيني ، الذي هجاه المتنبي بقصيدته البائية المعروفة [الأعلام
للزركلي ١١٥/٦]

(٢) كافور بن عبد الله الإخشيدي ، أمير المسك ، أمير مشهور كان مسلماً حبشياً اشتراه
الإخشيدي ملك مصر (سنة ٣١٢ هـ) فَنُسِبَ إليه ، واعتقه فترقى عنده . وما زالت همة
تصعد به حتى ملك مصر (سنة ٣٥٥ هـ) وقد ولد (عام ٢٩٢ هـ) . وتوفي بالقاهرة
٢٥٧ هـ عن ٦٥ عاماً [الأعلام للزركلي ٣١٦/٥]

(٣) العَيْنُ الكَذِبُ

ومثلك بُؤْسَى مِنْ سِلَاحٍ مُعَيَّدةٍ لِيُصْحِكَ رَبُّبَاتِ الْحَدَادِ النَّوَاكِيَا
ولَوْلَا قُضُولُ النَّاسِ جِثَّتْكَ مَادِحًا بِمَا كُنْتَ مِنْ نَفْسِي بِهِ لَكَ هَاجِبًا
وقد يكون الشاعر بحيلًا . ولكنه يمدح الكرم والكريم ، ويرفعه
إلى عيان السماء

مَتَى تَأْتَهُ تَعَشُوا^(١) إِلَى ضَوْءِ قَارِهِ تَجِدُ حَيْرَ قَارٍ عِنْدَهَا حَيْرٌ مَوْقِدٌ^(٢)
والحطيئة^(٣) مع ما عُرف عنه من النحل يمدح أحدهم ، ويصفه
بالكرم النادر . لدرجة أن جعله بهم نذبح ولده لضيافته ، لأنه لم يجد
ما يذبحه ، وينظم الحطيئة على الكرم هذه القصيدة أو القصيدة الشعرية
التي تُعدُّ من عيود الشعر العربي ، ومع ذلك لم يأخذ مما يقول
عبره ، وظلَّ على إمساكه وبُخله

يقول الحطيئة في وصف الكرم

وَمَاوٍ ثَلَاثًا عَاصِبِ الْبَطْنِ مَرْمَلٍ بَيْدَاءَ لَمْ يَعْرِفْ بِهَا سَاكِنٌ رَسْمًا^(٤)
أَخَى جَفْوَةٍ فِيهِ مِنَ الْأَنْثَى وَخَشْنَةً يَرَى النُّؤْسَ فِيهَا مِنْ شِرَاسَتِهِ نَعْمًا
وَأَقْرَدٌ فِي شَفِّ عَجُوزًا إِزَاءَهَا ثَلَاثَةَ أَشْبَاحِ ثَخَالِهَا بَهْمًا

(١) اعشوا أنظر يمدح عشوت إلى النار إما أصدوت متفرك إليها قتاله أبو علي القالي في
الأمالي (١٤٩/١) وقال أبو منظور في الناس من نفس البيت : أي متى تأتته لا تتبين
ناره من ضعف بصرك .

(٢) أورده أبو علي القالي في « الأمالي » (١٤٩/١) وكذا أبو منظور في [ناس العرب .
مادة عشا] وعراه بالحطيئة وكذا أورده أبو الفرج الأصبهاني في « الأغاني »
(٢٣٧/١)

(٣) هو جدول بين أوس بن مالك وهو محصور . أدرك الجاهلية والإسلام أسلم ثم ارتد
لُكِبَ بالحطيئة تقصره وقربه من لارض كان ما شر وسفه . كان ينتمي إلى كل واحدة
من قبائل العرب إذ تنصب على الأخرى [الأعالي لأبي الفرج الأصبهاني ٢٧٢/١]

(٤) فطوى الجاثم مرمَل قد اختلط طعامه بالرمل الرسم الأثر

حَقَاءُ عُرَاءٍ مَا اغْتَدَوْا خَبِزَ مَلَّةٍ^(١) وَلَا عَرَفُوا لِبُرٍّ مَذَّ خُلِقُوا طَعْمًا
رَأَى شَيْعًا وَسَطَ الظَّلَامِ قَرَاعَةٍ^(٢) فَلَمَّا رَأَى صَيْفًا تَشْمُرُ وَاهْتُمَّا
فَقَالَ ابْنُهُ لَمَّا رَأَاهُ بِحِيرَةٍ أَيَا أَيْتٍ أَذْبَحُنِي وَيَسِّرْ لِي طَعْمًا
وَلَا تَعْتَذِرْ بِالْعَدَمِ عَلَى الْإِذْيِ طَرَا يَظُنُّ لَنَا مَالًا قَبِيوسَعُنَا ذَمًّا
فَبَيْنَمَا هُمَا عَنَتٌ عَلَى الْبُعْدِ عَانَةٌ قَدْ انْتَضَمَتْ مِنْ خَلْفِ مِسْطَلِهَا نَظْمًا^(٣)
عَطَاشًا تَرِيدُ الْمَاءَ قَاسِيَابَ دَحْوَهَا عَلَى أَنَّهُ مِيْنَهَا إِلَى ذِمِّهَا أَطْعَا
فَأَمْلَهَا حَتَّى بَرَوَتْ عِطَاشُهَا وَارْسَلُ فِيهَا مِنْ كِبَاسِهِ سَهْمًا
فَخَرَّتْ نَحْوَصٌ ذَاتُ جَحْشٍ سَمِيئَةٍ قَدْ اكْتَنَزَتْ لَحْمًا وَقَدْ طَبَقَتْ شَحْمًا^(٤)
فِيَا بَشْرَهُ إِذْ حَرَّهَا نَحْوُ قَوْمِهِ وَيَا بَشْرَهُمْ لَمَّا رَأَوْا كَلَمَهَا يَدَمًا^(٥)
وَيَا أَكْثَرَهَا كَرَامًا قَدْ تَضَرَّوْا حَقُّ ضَيْفِهِمْ وَمَا غَرَمُوا غَرَمًا وَقَدْ غَنَمُوا غَنَمًا
وَبَاتَ أُلُوهَمُ مِنْ نَشَاشَتِهِ أَلَا لَصَيْفُهُمْ وَالْأَمُّ مِنْ بَشْرَهَا أُمًّا
وَصَدَّى اللَّهُ الْعَظِيمُ ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ﴾ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ
مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿﴾ [الشعراء] يَصْنِفُونَ الْكُرَمَ وَهَمُ بَخْلَاءَ ، وَالشَّجَاعَةَ
وَهُمُ جَبِيَاءَ . إلخ

وفي مرة . اجتمع عند النبي ﷺ ثنان من الشعراء الزبيرقان بن
بدر ، وقيس بن عاصم ، وعمرو بن الأَهم فقام أحدهم عبارتين في
مدح أحد الحاضرين بأنه سيد القبيلة . فعضب الممدوح ورأى أن هذا

(١) خبز ملة هو الحبر يوضع في الرماد الحار الذي يُحمى يُقلى فيه الحبر فيصبح

(٢) رعة أخاه وأقرمه

(٣) عنت ظهرت عانة الفئوس من الدراب من حفر الوحش المسطل قائد القطيع

(٤) نحوص سمينة ممثلة طبقت شحما امتلات شحما ولحما

(٥) الكلم الجرح يدم يزدق دما [راجع لسر العرب]

قلبي في حقه ، فقال يا رسول الله ، إنه ليعلم مني موق الذي قال - يعني لم يُوفني حقي - فقال الشاعر أما والله وقد قال ما قال ، فإنه لضيق العطية ، أحرق الأب ، لنسيم العم والخال سبحانه الله في أول المجلس كان سيد قبيلته ، والآن هو ضيق العطية ، أحرق الأب ، لنسيم العم والخال "

ثم قال والله يا رسول الله ما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الثانية - يعني أنا مصيب في القولين - لكنني رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أسوأ ما علمت عندهما قال سيدنا رسول الله « إن من أبيان لسحراً »^(١) .

ثم يستثنى الحق سبحانه من هؤلاء الغاوين

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا
وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ
مَنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾

كن بعض شعراء المشركين أمثال عبد الله بن الزبيري ، ومسافع

(١) أخرج هذا الحديث بهذه القصة البيهقي في دلائل النبوة (٢١٦/٥) بإسنادين الأول منقطع عن محمد بن الربيع الحنظلي ، والثاني موصولاً من حديث ابن عباس قال جلس إلى رسول الله ﷺ قيس بن عاصم والزبير بن يدر وعمرو بن الأهم التميميون ، فلفظ الزبير قال يا رسول الله أما سيد تميم والمطاع فيهم والمجاوب أسمعهم من الظلم وأخذ لهم بحقوقهم وهذا يعلم ذلك يعني عمرو بن الأهم ، فقال عمرو بن الأهم إنه يشهد العارضة ناسع لجانيه ، مطاع من أمنيته ، فقال الزبير بن يدر والله يا رسول الله لقد سمع مني غير ما قال وما سمع مني يتكلم إلا الصد ، فقال عمرو بن الأهم أنا لكسدت فواهد بك لنسيم الحال حديث المال ، أحرق الولد مصيب في العشيعة ، والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولاً وما كذبت فيما قلت آخرًا ولكني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت ، وإذا عصمت قلت أفصح ما رجحت ، ولقد صدقت في الأولى والأخرى جميعًا ، فقال النبي ﷺ إن من أبيان سحراً ، إن من أبيان سحراً

الجمعى يهجون رسول الله ﷺ ويذمونه ، فيلتف الصالون العاؤون من حولهم ، يشجعونهم ويستزيدونهم من هجاء رسول الله ، وفى هؤلاء نزل قوله تعالى ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء] فأسرع إلى سيدنا رسول الله شعراء الإسلام - عبد الله بن رواحة وكعب بن زهير ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ، فقالوا أنحن من هؤلاء يا رسول الله ؟ فقرأ عليهم رسول الله هذه الآية

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ..﴾ (٢٢٧) [الشعراء]

فاستثنى الحق - تبارك وتعالى - من الشعراء من توفرت فيه هذه الخصال الأربع ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ..﴾ (٢٢٧) [الشعراء] أى ذكروا الله فى أشعارهم ، لينبها الناس إلى مواجيد الدين ومواعظ الإيمان ، فيلتفتون إليها ، ثم ينتصرون لرسول الله من الذين هجوه

وكان هؤلاء الثلاثة ينتصرون للإسلام ولرسول الله ، فكما هجاه الكفار ردوا عليهم ، وأنطوا حججهم ، ودافعوا عن رسول الله ، حتى أنه ﷺ نصب منيراً^(١) لحسان بن ثابت ، وكان يقول له « قل وروح القدس معك ، اهجهم وجبريل معك »^(٢)

وقال لكعب بن مالك^(٣) « اهجهم ، فإن كلامك أشد عليهم من

(١) أخرج الحاكم فى مستدركه (٤٨٧/٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يصنع لحسان منبر فى المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ ، ويقول ﷺ « إن الله يؤيد حسان بن ثابت - بروح القدس ما باق أن يامر عن رسول الله ﷺ ، ركبا اخرجوه ابو داود فى سننه (٥٠٥)

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢١٢ ، ٦١٥٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٨٦) كتاب فضائل الصحابة من حيث الجراء بن عازب

(٣) هو كعب بن مالك بن عمرو الأنصارى الصنعى الحررجى ، صحابى من اكابر الشعراء من أمم المدينة - اشتهر فى الجاهلية ، وكان فى الإسلام من شعراء النبي ﷺ - صلى فى اخر عمره - وعاش ٧٧ سنة ، توفي ٥٠ هـ (كتاب الاعلام للزركلى)

رَشَقَ الْفُدَالُ ^(١) كَمَا سَمَحَ لَهُم بِإِلْقَاءِ الشَّجَرِ فِي الْمَسْجِدِ ، لِأَنَّهُمْ
دَخَلُوا فِي هَذَا الْإِسْتِثْنَاءِ ، فَهَمُ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ،
وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ، وَهُمْ الَّذِينَ يَنْتَصِرُونَ لِلْإِسْلَامِ وَيُجَادُونَ رَسُولَ
اللَّهِ ، وَيُدَافِعُونَ عَنْهُ ، وَيَرْدُّونَ عَنْهُ أَلْسِنَةَ الْكُفَرِ

وَمَعْنَى ﴿ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا .. ﴾ (٢٢٧) ﴿ [الشُّعَرَاءُ] أَنَّهُمْ
لَمْ يَكُونُوا سَفَهَاءَ ، وَلَمْ يَبْدَأُوا الْكُفَارَ بِالْهَجَاءِ ، إِنَّمَا يَنْتَصِرُونَ
لِأَنفُسِهِمْ ، وَيُدْفَعُونَ مَا وَقَعَ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ ظُلْمِ الْكَافِرِينَ ، لَدُنْكَ لَمَّا
هَجَا أَبُو سَفِيَّانٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ أَحَدُهُمْ ^(٢) رَدًّا عَلَيْهِمْ

أَتَهْجُوهُ وَكُنْتَ لَهُ بِسُكُونِهِ فَشَرَكْنَا لَخَيْرِكَمَا الْفُسَادُ
فَلَيْنَ أَبِي وَوَالِدِهِ وَعَرَضِيْ بَعْرَضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا .. ﴾ (٢٢٧) ﴿ [الشُّعَرَاءُ] ظَلَمُوا
مِمَّنْ ؟ مِنَ الَّذِينَ وَقَفُوا مِنَ الدِّينِ وَمِنَ الرَّسُولِ مَوْقِفَ الْعَدَاءِ ،
وَتَعَرَّضُوا لِرَسُولِ اللَّهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ بِالْإِذْيَاءِ وَالْكِيدِ ، ظَلَمُوا مِنَ الَّذِينَ
عَرَّلُوا رَسُولَ اللَّهِ ، وَآلَهُ فِي الشُّعْبِ حَتَّى أَكَلُوا أَوْرَاقَ الشَّجَرِ ، مِنْ
الَّذِينَ تَأْمُرُوا عَلَى قَتْلِهِ ﷺ إِلَى أَنْ هَاجَرَ .

وَمِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَى وَحُكْمَتِهِ أَنْ يُبَاحَ لِلْمَظْلُومِ أَنْ يَنْتَصِرَ لِنَفْسِهِ ،
وَأَنْ يُنْفَسَ عَنْهَا مَا يَحَابِيهِ مِنْ وَطْأَةِ الظُّلْمِ ، حَتَّى لَا تُكَبِّتَ بِدَاخِلِهِ هَذِهِ
الْمَشَاعِرَ ، وَلَا بُدَّ لَهَا أَنْ تَنْفَجِرَ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا
بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (٢٢٦) ﴿ [الْعَمَلُ]

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٢٤٩) كِتَابُ فَصَائِلِ الصَّحَابَةِ

(٢) هُوَ حَسَابِي بْنُ ثَابِتٍ ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٢٤٩) كِتَابُ فَصَائِلِ الصَّحَابَةِ ، وَفِيهِ
أَنْ أَبَاكَ كَالنَّالِي

مَجَرَّتْ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَمُنَّدَ اللَّهُ فِي بَاكِهِ الْمِرَّةَ
هَجَوْتُ مُحَمَّدًا بِرَأٍ حَسِيفًا رَسُوهُنَ اللَّهُ شَيْعَتُهُ الْوَفَاءُ
فَلَيْنَ أَبِي وَوَالِدِهِ وَعَرَضِيْ لَمَرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

وَانْظُرْ أَيْضًا دَلَالَةَ الْبَيِّنَةِ لِلْبَيِّنَةِ (٤٨/٥) ، (٤٩)

وقال تعالى ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ..﴾
[النساء] ﴿١٤٨﴾

فأباح للمظلوم أن يُعَرِّضَ عن نفسه ، وأن يرفض لظلم ، ولا عيب
إن جهر بكلمة تُحَقِّقُ عنه ما يشعر به من ظلم .

ثم تَختَمُ السورة بقوله تعالى ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ
يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء] ﴿٢٢٧﴾ يعني غداً سيُعلمون مرجعهم ونهايتهم كيف
تكون ، والمنقلب هو المرجع والمآب ، والمصير الذى ينتظرهم

فالحق - تبارك وتعالى - يتوعدهم بما يؤذيهم ، وبما يسوؤهم ،
فلن تنتهى المسألة بانتصار المسلمين عليهم ، إنما ينتظرهم جزاء آخر
فى الآخرة

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ
ذَلِكَ ..﴾ [٤٧]

لذلك أبهم الله تعالى هذا المنقلب ، وإبهامه للتعظيم والتحويل ،
وقد بلغ من العظم أنه لا يُوصَفُ ولا تُؤدَّى العبارة مؤداه ، كما أبهم
العذاب فى قوله تعالى : ﴿لَمْشِيهِمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [٧٨] [طه]

يعنى شىء عظيم لا يُقال ، والإيهام هنا أبلغ ، لأن العقل يذهب
فى تصوّره كل مذهب ، وعلى كل كيفية

والمنقلب أو المرجع لا يُعدح فى ذاته ، ولا يُدْمُ فى ذاته ، فإن
انتهى إلى السوء فهو مُنْقَلَبٌ سيئ ، وإن انتهى إلى خير فهو مُنْقَلَبٌ
حسن ، فالذى حصر بصدده من مُنْقَلَبِ الكافرين اسمائدين لرسول الله
منقلب سيئ يُدْمُ

أما مُنْقَلَبٌ سحره فرعون مثلاً حين قال لهم ﴿آمِصْ لَهُ قَبْلَ أَنْ

آدَن لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلْأَطِيعُوا أَمْرَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ حِلَافٍ .. (٧١) ﴿

فماذا قالوا ؟ ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ (٧٠) ﴿ [الشعراء] فهذا مُنْقَلَبٌ حَسَنٌ يُمدِّح وَيُحْمَدُ

وقد يظن المرء أن مُنْقَلَبَهُ مُنْقَلَبٌ حَيْرٌ ، وأنه سيبتلي به إلى ما يُفْرَجُ . وهو واهم مخدوع في عمله ينتظر الخير ، والله تعالى يُعِدُّ له مُنْقَلَبًا آخَرَ ، كالأذى أعطاه الله الجنتين من أعناب وحفهما بنخل ، وجعل بينهما زرعاً ، فلما عرَّته نعمة الدنيا طُنَّ أن له مثلها ، أو خيراً منها في الآخرة . فقال ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ (٧١) ﴿ [الكهف]

والانقلاب والمرجع إلى الله - عز وجل - إنما يفرج به مَنْ آمَنَ بالله وعمل صالحاً لأنه يعلم أنه سيبصير إلى جزاء من الحق - سبحانه وتعالى - مؤكداً ، لذلك الحق - تبارك وتعالى - يُعَلِّمُنَا حين نركب الدواب التي تحملنا ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْعِيقِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ .. ﴾ (٧٢) ﴿ [الرحل]

علماً أن نذكره سبحانه ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ (٧٢) ﴿ لتستروا على ظهوره ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ ﴾ (٧٣) ﴿ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ (٧٤) ﴿ [الرحرف]

إذن فالدواب وما يحل محلها الآن من وسائل المواصلات من أعظم نعم الله علينا ، ولولا أن الله سخرها لنا ما كان لنا قدرة عليها ، ولا طاقة بتسخيرها لذلك نقول ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ ﴾ (٧٣) ﴿ [الرحرف]

أى . لا يستطيع ترويضه ، فاصبى الصغير نراه يقود الجمل الضخم . ويُنِيعه ويَحْمِلُه الأثقال وهو طائع متقاد ، لكنه يفزع إن رأى ثعباناً صغيراً ، لماذا ؟ لأن الله - سبحانه وتعالى - سَخَّرَ لنا الجمل وكذلك . ولم يُسَخَّرْ لنا الثعبان

وصدق الله العظيم إذ يقول سبحانه ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ (٧١) وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ (٧٢) [يس]

ولكن ما علاقة مرانا . ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقَرَّنِينَ ﴾ [الزحرف] يقولنا . ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ ﴾ [الرحمة] قالوا لاننا سننقلب إلى الله فى الآخرة وسنسال عن هذه النعيم ، فإن شكرنا ربنا على هذه النعمة فقد أدبنا حقها ، ومن شكر الله على نعمة فى الدنيا لا يسال عنها فى الآخرة ، لأنه أدبى حقها .

وقال سبحانه ﴿ وَسَيَعْلَمُ .. ﴾ (٢٧٧) [الشعراء] بالسين الدالة على الاستقبال ، لكنها لا تعنى طول الزمن كما يظن البعض ، لأن الله تعالى أخفى الموت ميعاداً وأخفاء سبباً ومكاناً ، وهذا الإبهام للموت هو عين البيان لأنك فى هذه الحالة تنتظره وتتوقعه فى كل وقت ، ولو علم الإنسان موعد موته لقال - أفعل ما أريد ثم أتوب قبل أن أموت

إذن الوقت الذى تقتضيه السين هنا لا يطول ، فقد يفاحشك الموت ، وليس بعد الموت عمل أو ثوبة ، وقرأ قوله تعالى ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ (٤٦) [التلوات]

وقلنا إن فى الآية ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (٢٧٧)

[الشعراء] تهديداً ووعيداً ، الحق - تبارك وتعالى - حين يُضخّم الوعيد إنما يريد الرحمة بخلقه ، وهو مُحِبُّ لهم ، فيهددهم الآن لِيَسْلَمُوا غداً ، وَيُنَبِّهَهُم لِيُحْذَرُوا إِلَيْهِ ، فَيُنَالُوا جِزَاءَهُ وَرَحْمَتَهُ

وكأنه - تبارك وتعالى - يريد من وراء هذا التهديد أن يُوزّع رحمته لا جبروته ، كما تفسر على ولدك ليذاكر وتهديه ليجتهد إذن فالوعد بالخير خير ، والوعيد بالشر أيضاً خير ، فكل ما يأتيك من ربك ، فاعلم أنه خير لك حتى وإن كان تهديداً ووعيداً

وهكذا قدمتُ لنا سورة الشعراء نموذجاً من تسليّة الحق تبارك وتعالى - لنبيه محمد ﷺ والتخفيف عنه ما يلاقي من حزن وألم على حال قومه وعدم إيمانهم ، وعرضتُ عليه ﷺ موكب الرسل ، وكيف أن الله يُدْهِمُ ونصرهم وهرم أعداءهم ودمرهم

ثم سلّاهُ ربه بأن ردّ على الكفار في افتراءاتهم ، وأبطل حججهم ، وأمان رُفُف قصابهم ، ثم تحتم هذه التسليّة ببيان أن للظالمين عاقبة سيئة تنتظرهم وأبهم هذه العاقبة ﴿أَيُّ مَنْقَبٍ يَنْفُلُونَ﴾ [الشعراء] ليضحّمها

والشيء إذا حُدِّدَ إنما يأتى على لَوْنٍ واحد وإنْ أبهم كان أبلغ ، لأن النفس تذهب في تصوُّره كل مذهب ، كما لو تأخّر مسافر عن موعد عودته فجلس ينتظره في قلق يسرح بنا الطيور في سبب تأخره ، وهي احتمالات ما يمكن أن يحدث ، وتتوارد على خواطرنا الأوهام ، وكل وهم يرد في نفسك بألم ولذعة ، في حين أن الواقع شيء واحد ،

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

سورة النمل^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طس تلك آيات القرآن وكتب مبين ﴿١﴾

تكلما كثيراً على هذه الحروف المقطعة في أوائل السور ، وهذا (طس) وهما حرفان من حروف المعجم ، وهي تنطق هكذا (طاء) و (سين) لأنها أسماء حروف ، وفرق بين اسم الحرف ومُسمَّاه ، فكل من الأمي والمتعلم يتكلم بحروف يقول مثلاً كتب محمد الدرس فإن طلبت من الأمي أن يتهجى هذه الحروف لا يستطيع لأنه لا يعرف اسم الحرف ، وإن كن ينطق بمُسمَّاه ، أما المتعلم فيقول - كاف تاء باء

ورسول الله ﷺ كان أمياً لا يعرف أسماء الحروف ، فهي إذن من

(١) سورة النمل هي السورة رقم (٢٧) في ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٩٢ آية وهي سورة مكية . قاله ابن عباس فيما أورده السجستاني في (الدر المنثور ٦ / ٣٤٠) وعراء لابن الفريسي والسلس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وقد ذكر الفرطبي في تفسيره (٧ / ٢٥٥) الإجماع على أنها نكية كلها ، وقد نزلت بعد سورة الشعراء كما هي في ترتيب المصحف وقيل سورة القصص كذلك انظر الإقناع في علوم القرآن (١ / ٢٧)

الله ، لذلك كانت مسأله توقيفيه ، فالحروف (النم) نطقنا بها فى أول البقرة بأسماء الحروف (ألف) (لام) (ميم) اما فى أول الانشراح فبقينا ﴿ أَلَمْ يَشْرَحْ لَكَ صَدْرُكَ ۖ ﴾ [الشرح] بمسميات الحروف نفسها ، فنقول أَلَمْ

و ﴿ تَلْكَ ۖ ﴾ [الزل] اسم إشارة للآيات الآتية خلال هذه السورة ، وقلنا إن الآيات لها مَعَانٍ متعددة ، فقد تعنى الآيات الكونية كالشمس والقمر ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ ﴾ [الزل] وهذه الآيات الكونية هى التى تلفتت إلى عطمة الخالق - عز وجل - وقدرته .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا . ﴾ [الزل] وهذه الآيات الكونية هى التى تلفتت إلى عطمة الخالق - عز وجل - وقدرته .

والآيات بمعنى المعجزات المصاحبة لرسول ، والتى تثبت صدق بلاغهم عن الله والآيات بمعنى آيات القرآن الحاملة للأحكام ، وهى المرادة هنا ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الزل]

وسبق أن قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ [الحجر] فمرة ينول ﴿ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ [الحجر] ومرة ﴿ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الزل] وباتى بالكتاب ويعطف عليه القرآن ، أو يأتى بالقرآن ويعطف عليه الكتاب ، مع أنهم شيء واحد ، فكيف إذن يعطف لشيء على نفسه ؟

قالوا إذا عطف الشيء على نفسه ، فاعلم أنه لزيادة وَصَفِ الشيء ، تقول جاءنى زيد الشاعر والخطيب والتاجر ، فكلُّ صفة منها إصافه فى ناحية من نوحى الموصوف ، فهو القرآن لأنه يُقْرَأ فى الصدور ، وهو نفسه الكتاب لأنه مكتوب فى السطور ، وهما معاً

تُسَمِّيهِمْ مَرَّةَ الْقُرْآنِ وَمَرَّةَ الْكِتَابِ ، أَمَّا الرَّصْفُ فَيَجْعَلُ الْمَقَابِرَ
مَوْجُودَةً .

وَمَعْنَى ﴿ مُبِينٌ ١ ﴾ [الْبَلَدُ] بَيِّنٌ وَاضِحٌ وَمَحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ
أَقْضَى الْحَيَاةِ وَحَرَكَتِهَا مِنْ أَوَامِرٍ وَنَوَاهٍ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿ مَا
فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (٣٨) [الْأَسْمَاءُ]

وَسَبَقَ أَنْ حَكَيْنَا مَا حَدَّثَ مَعَ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ عَيْدِهِ ^(١) - رَحِمَهُ اللَّهُ -
حِينَمَا كَانَ فِي فَرَنْسَا ، وَسَأَلَهُ أَحَدُ الْمُسْتَشْرِقِينَ تَقُولُونَ إِنَّ الْقُرْآنَ
أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَكَمْ رَغِيفًا فِي إِرْدَبِ الْقَمَحِ ؟ فَدَعَا الْإِمَامَ لِحَبَازٍ
وَسَأَلَهُ فَقَالَ كَذَا وَكَذَا ، فَقَالَ الْمُسْتَشْرِقُ أُرِيدَهَا مِنَ الْقُرْآنِ ، قَالَ
الْإِمَامُ الْقُرْآنَ قَالَ لَنَا ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
﴾ (٧) [الْأَنْبِيَاءُ]

مَهْوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (٣٨) [الْأَسْمَاءُ]

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ

﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ٢ ﴾

الْهُدَى يَأْتِي بِمَعْنَى الدَّلَالَةِ عَلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ ، وَبِمَعْنَى
الْمَعُونَةِ ، فَهِيَ نَاحِيَةُ الدَّلَالَةِ هُوَ هُدًى لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ ،
لِأَنَّهُ دَلُّ الصِّمِيعِ وَارْشَادُهُمْ ، ثُمَّ تَأْتِي هِدَايَةُ الْمَعُونَةِ عَلَى حَسَبِ اتِّبَاعِكَ
لِهِدَايَةِ الدَّلَالَةِ

(١) هُوَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ بْنُ حَسَنِ حَيْرِ اللَّهِ مِنْ آلِ الْتُرْكَمَانِي ، مَفْتًى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَمِنْ
كِبَرَاءِ رِجَالِ الْإِصْلَاحِ وَالتَّجَدُّدِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَلَدَ فِي قَرْيَةِ شَمْرَا مِنْ قُرَى الْعَرَبِيَّةِ بِمِصْرَ
(١٨١٩ م) نَشَأَ فِي مِطْعَةِ نَصْرِ بِالْبَحِيرَةِ ، تَرَلَّى مَنَسِبَ الْقَضَاءِ وَتَوَلَّى بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ
(١٩٠٥) عَنِ ٥٦ عَامًا ، وَبَعَثَ بِالْقَاهِرَةِ ثَلَاثَ مَوْاعِدَاتٍ كَثِيرَةٍ [الْأَعْلَامُ لِلزُّرْكَلِيِّ ١/٢٥٢]

فَمَنْ أَصَاعَ اللَّهُ وَأَمَّنْ بِهِ وَأَخَذَ بِدَلَالَتِهِ ، فَكَانَ الْحَقُّ سَبِيحَتَهُ يَقُولُ
لَهُ أَنْتَ اسْتَأْمَنْتَنِي عَلَى حَرَكَةِ حَيَاتِكَ وَأَصْعَتَنِي فِي أَمْرِي وَنَهَيْتَنِي ،
فَسَوْفَ أَخْلِفُ عَنْكَ وَأَهْوَنُ عَلَيْكَ أَمْرَ الْعِمَادَةِ وَأَعْيُنِكَ عَلَيْهَا ، وَهَذِهِ هِيَ
هُدَايَةُ الْمَعُونَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ
تَقْوَاهُمْ﴾ (١٧)

[مصدق]

وكذلك الكافر الذي لم يأخذ بهداية الدلالة والإرشاد ، واختار
لنفسه طريقاً آخر يُعِينُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَيُسِّرُّ لَهُ مَا سَعَى إِلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ،
لِذَلِكَ بَحَثَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ حَتَّى لَا يَدْخُلَهَا إِيْمَانٌ وَلَا يَخْرُجَ
مِنْهَا كُفْرٌ .

لكن الهداية هنا أهي هداية دلالة ، أم هداية معونة ؟

نقول هي هداية معونة ، مدبر قولهُ تَعَالَى بِعِدْهَا ﴿وَبَشِّرِ
لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) [النمل] فما كانوا مؤمنين إلا لأنهم مهديون . والبشرى
لا تكون إلا للمؤمنين ، إذن هي معونة للمؤمنين بأن يريدهم هداية إلى
الطريق السوي ، وإلى جنات النعيم ﴿نُورُهُمْ يَسْمَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَأَنْفُسُنَا فِي كَلِمَتِكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٨) [التحريم]

ولو أن الهداية هنا بمعنى الدلالة التي تأتي للمؤمن والكافر لكأن
بشرى وإنذاراً ، لكن الآية ﴿وَبَشِّرِ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) [النمل] فتعين أن
يكون المعنى هداية المعونة وهداية ابشرى

﴿الَّذِينَ يَمْسِكُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ

بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٢)

المؤمنون هم أصحاب عقيدة الإيمان ، وهو أن تؤمن بقضية الحق
الواحد الإله المختار الفاعل الذي له صفات الكمال ، تؤمن بها حتى

تصير عقيدة في نفسك ثابتة لا تتزعزع ، والإيمان اعتقاد بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح ، فلا يكفى النطق باللسان ، إنما لابد من أداء تكاليف الإيمان ومطلوباته ، وقمتها إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان ، والحج

فالصلاة دعوة من الله لخلقك ، دعوة من الصانع لمصنوع ، فربك يستدعيك إلى حصرنه ، وكيف بالصنعة إذا عُرِضَتْ على صانعها كل يوم خمس مرات . ومع ذلك نرى مَنْ يَقْدُمُ الْعَمَلُ عَلَى الصَّلَاةِ ، وإذا سمع النداء قال عندي أعمار ومشغل ، إياك أُرُ تظن أن الصلاة تعطيل للمصالح ، أو إصاعة للوقت ، لأنك في حركة حياتك مع بَعْم الله وفي الصلاة مع الله

ونقيس هذه المسألة - والله امثل الأعلى - لو أن أباك ناداك فلم تُجِبْه ، ماذا يفعل بك ؟ فلا يَكُنْ رَبُّكَ أهون عليك من أنيك ، ربك يناديك الله أكبر يعنى أكثر من العمل . وأكبر من كل شيء يشغلك عن تلبية نداءه

وفي الصلاة نأخذ شحنة إيمانية تُقَوِّمُنَا على حركة حياتنا ، كما لو ذهبت ببطارية السيارة مثلاً لجهاز الشحن أتقول : إنك عطلت البطارية ؟

ولو حسبنا الوقت الذي يسفرقه اصلوات الجسم لوجدناه لا يتعدى ساعة من الأربع والعشرين ساعة ، فلا تضر على نفسك بها لتلتقى بربك ، وتقف بين يديه ، وتعرض نفسك عليه ، فيصبح نيك ما أفسدته حركة الحياة ويعطيك المدد والعون والشحنة الإيمانية التى تدفعك إلى حركة منسجمة مع الحياة والكون من حولك

وإن كان مهندس الآلة يُصلحها بشيء مادي ، فربك - عز وجل -

عَيْبٌ ، فيصالحك بالغيب ، ومن حيث لا تدري أنت ، لذلك كانت الصلاة في قمة مطلوبات لإيمان

فإن كانت الصلاة لإصلاح النفس ، فالزكاة لإصلاح المال ، لذلك تجد دائماً أن الصلاة مقرونة بالزكاة في معظم الآيات . وإن كان المال نتيجة العمل ، والعمل فرع الوقت ، فإن الصلاة تأخذ الوقت ، والركاة تأخذ نتيجة الوقت ، الركاة تأخذ ٢٥ / أما الصلاة فتأخذ الوقت نفسه يعنى بنسبة ١٠٠ /

ومع ذلك لا نقول إن الصلاة أخسعت الوقت لأن الشحنة التي تأخذها في الصلاة تجعلك تنحز العمل الذي يستغرق عدة ساعات في نصف ساعة ، فتعطيك بركة في الوقت

وسبق أن قلنا إن فداء الله أكبر يعنى أن لقاء الله أكبر من أى شيء يشغلك مهما رأيته كبيراً ، لأنه سبحانه واهب البركة ، وراهب الطاقة ، وإن كان العمل والسعى في صاكن الأرض مطلوباً لكن الصلاة في وقتها أولى

وحين نتأمل أطول الأوقات بين كل صلاتين نجد أنها من الصباح حتى الظهر ، وهو الوقت المناسب للعمل ، ومن العشاء حتى الصباح ، وهو الوقت المناسب للنوم ، وهكذا تُعظّم لنا الصلاة حياتنا ، فمن صلاة الصباح إلى صلاة الظهر سبع ساعات هي ساعات العمل

لو أن الأمة الإسلامية تمسكت بشريع ومنهج ربها ، وبعد هذه الساعات السبع التي تقضيها في عملك أنت حر بعد صلاة الظهر ، أما التخصيص الذي طرأ على حركة الحياة فقد اقتضى أن يأتي صلاة الظهر بل والعصر والناس ما يزالون في أعمالهم .

أما الدين يُؤخرون لصلاة عن رقتها حجة امتداد الوقت بين الصلاتين نعم الوقت ممتد ، لكن لا يجوز لك تأخير الصلاة ، ولبيان هذه المسألة نقول هَبْ أَنْ غَنِيَاً مُسْتَطِيعٌ لِلْحَجِّ ، ولم يحج متى يَأْتِم ؟

يَأْتِم إِذَا مَا غَرَّ طَوَّلَ الْأَمَلُ ، ثم عاجله الموت قبل أَنْ يَحْجَ ، فَإِنْ أَمَلَهُ الْعَمْرُ حَتَّى يَحْجَ ، فَقَدْ سَقَطَ عَنْهُ هَذَا الْعَرَضُ ، لَكِنْ مَنْ يَضْمَنُ بِهِ الْبَقَاءَ إِلَى أَنْ يُوَدَّى هَذِهِ الْفَرِيضَةُ

لِذَلِكَ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : « حُجُّوا قَبْلَ أَنْ تَحْجُوا »^(١) .

كَذَلِكَ الْعَمَلُ فِي وَقْتِ الصَّلَاةِ ، هُوَ مَعْتَدٌ ، لَكِنْ مَنْ يَضْمَنُ لَهُ امْتِدَادَهُ : لِذَلِكَ تَارَكَ الصَّلَاةَ يَأْتِمُ فِي أَحْرَ لَحْظَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ ، فَإِنْ ظَلَّ إِلَى أَنْ يَصِلَى فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ

إِنْ لَا تَتَعَلَّلُ بِطَوَّلِ الْوَقْتِ ، لِأَنَّ طَوَّلَ الْوَقْتِ جَعَلَهُ اللَّهُ لِحِكْمَةٍ ، لَا لِنَآخِذِهِ ذَرِيعَةً لِتَأْخِيرِ الصَّلَاةِ عَنْ وَقْتِهَا ، طَوَّلَ الْوَقْتِ بَيْنَ الصَّلَوَاتِ جَمَلٌ لِلنَّاسِ كَيْ يَسْتَيْقِظَ ، أَوْ لِلنَّاسِ كَيْ يَتَذَكَّرَ .

ثُمَّ يَقُولُ سُبْحَانَهُ ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾^(٢) [المل]

فَالْآيَةُ جَمَعَتْ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلِّهِ بِدِيَةِ مِنَ الْعَقِيدَةِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، ثُمَّ الصَّلَاةِ ، فَالزَّكَاةِ وَهُمَا الْمَطْلَبَانِ الْعَصِيئَتَيْنِ بَيْنَ إِيْمَانَيْنِ الْإِيمَانِ الْأَوَّلِ بِاللَّهِ ، وَالْآخَرِ أَنْ يُؤْمِنَ بِالْآخِرَةِ وَبِالْجَزَاءِ وَلِمَرْجِعِ وَالْمَعْصِرِ

وَقَوْلُهُ ﴿ يُوقِنُونَ ﴾^(٣) [المل] الْإِيْقَانُ الْحُكْمُ بِثَبَاتِ الشَّيْءِ بِدُونِ تَوْهْمٍ شَكٍّ ، لِذَلِكَ قُلْنَا إِنَّ الْعَمَلَ أَنْ نَعْرِفَ قَضِيَّةَ وَاقِعَةٍ وَتَقُولَ ، إِنَّهَا صَدَقَ وَتُنَلَّلَ عَلَيْهَا .

(١) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي « مُسْتَدْرَكِهِ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ » (٤٤٨/١) مِنْ حَدِيثِ الْحَارِثِ بْنِ سُرَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وقلنا إن اليقين درجات علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، فمثلاً حين أقول لك : إننى رأيتُ فى أحد البلاد أصبح الموز مصف متر ، وإن تثق فى ولا تكذبني ، فهذا علم يقين ، فإن رأيت ، فهذا عين اليقين ، فإن أخذته وذهبت تقطعه مثلاً ، وتوزعه على الحاضرين فهذا حق اليقين ، وهذه الدرجة لا يمكن أن يتسرب إليها شك

لذلك لما سأل النبي ﷺ الصحابي الحارث بن مالك الانصاري « كيف أصبحت » ؟ قال أصبحتُ بالله مؤمناً حقاً ، قال « فإن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك » ؟ قال عرفتُ نفسي عن الدنيا ، فاستوى عندي ذهبها ومدرها^(١) ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذبون ، فقال له النبي ﷺ « عرفت فالزم »^(٢)

والإمام على - رضى الله عنه - يعطينا صفة اليقين فى قوله لو كُشِفَ عني الحجاب ما ازددتُ يقيناً ، لأننى صدقت بما قال الله ، وليست عيني أصدق عندي من الله .

ومن هذا اليقين ما ذكرنا فى قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ [الفيل] مع أن النبي ﷺ ولد فى هذا العام ، فلم يرَ هذه الحادثة ، فالمعنى أَلَمْ تعلم ، وعبد عن (تعلم) إلى (ترى) ليقول للنبي ﷺ أن إخبار الله لك أقوى صدقاً من رؤية عينيك .

(١) المدر قطع الطين اليابس وهو الطين المتماصك [لسان العرب - مادة مدر]
(٢) أورده الهيثمي فى مجمع الزوائد (١/٥٧) وعراه للطبراني فى المعجم الكبير وقال « فيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه »

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾

هؤلاء في مقابل الذين آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، لأن الحق - تبارك وتعالى - يعرض الشيء ومقايله لُجْرى بحث مقارنة بين المتقابلات ، وفي هؤلاء يقول تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ (١) ﴿[الزل]

ولم يَنْف عنهم إقامة لصلاة أو إيتاء الزكاة ، لماذا ؟ لأنهم أصلاً لا يؤمنون بالله ، ولا بالبعث والحساب ، ولو علموا أنهم سيرجعون إلى الله لآمنوا به ، ولقدّموا العمل الصالح .

ومعنى ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٢) ﴿[الزل] أن الذين لا يؤمنون بالله ، ولا يؤمنون بالآخرة ولا يؤدّون مطلوبات الإيمان لا عُنُر بهم ، لأننا حينما عرضنا الإيمان ومطلوباته عرضناه عَرْضاً جيداً مُستميلاً مُشوقاً وريئاه لكم

فالصلاة لقاء بينك وبين ربك يعبر عن دوام الولاء ، ويعطيك شحنة إيمانية ، والزكاة تُؤمّنك حين ضعفك وعدم قدرتك ، متأخذ منك وأنت غنى لتعطيك إنْ حَلُّ بك الفقر ، ولما نهضناك عن الكذب نهضنا الناس جميعاً أن يكذبوا عليك ، ولما جسّدناك من الرشوة قلنا للآخرين لا تاكلوا ماله دون وجه حقّ إلخ

وهكذا شرحنا التكاليف وسبب الحكمه منها ، وحببناها إليكم

أو يكون المعنى زَيَّنَّا لهم أعمالهم التي يعملونها ، فلما علم الله عشقهم للضلال واللامحرف ختم على قلوبهم ، يقول تعالى ﴿أَفَمَنْ زَيَّنَّ لَهُ سَوَاءَ عَمَلِهِ فَرَّاهُ حَسَبًا﴾ (٣) ﴿[قطر]

لكن من الذي زين لهم ﴿فَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ۖ﴾ (٦٢) ﴿[الصل] فالتزيين يأتي مرة من الشيطان ، ومرة مجهول الفاعل ، ومرة زين الله لهم .

ومن تزيين الله قوله تعالى في شأن فرعون ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ رَيْنَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ۖ﴾ [يونس] فلما أعطاهم الله للنعمة قُتِلُوا بها .

وإبليس خلقه الله . وجعل له ذرية تسَلَّطَ على الناس . وتُغْوِيهِمْ ، وما ذلك إلا للاحتقار ليرى من سيقف على هذه الأبواب إذن الحق - تبارك وتعالى - لم يجعل حواجر عن المعصية ، وحسن لكم دوافع على الطاعة ، فالمسألة منك أنت ، فإن رأيتك ملأت إلى شيء واحببته أعنتك عليه .

والذي يموت له عزيز ، أو المرأة التي يموت ولدها ، فتظل حزينة عليه تُكَدِّرُ حياتها وحياته من حزلها - ويا ليت هذا يفيد أو يُعيد الميت - ويقول لمن يستقبل قصصه الله بهذا السُحْطِ إن ربك حين يعلم أنك ألفت الحزن وعشقت وهو رب ، فلا بد أن يعطيك مطلوك ، ويفتح عليك كل يوم باباً من أبوابه

إذن ينبغي على من يتعرض لمثل هذا الملاء أن يستعمله بالرضا ، وأن يغلّق باب الحزن ، ولا يتركه موارباً .

ومن المربين قوله سبحانه ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ۖ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٠) [الشورى]

ومعنى ﴿يَغْمَهُونَ﴾ (١) [الصل] يتحذرون ويضطربون ، لا يعرفون أين يذهبون ؟

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾

﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسِرُونَ ﴾

أي العذاب اسىء ، وهنا فى الآخرة ، فبالإضافة إلى ما حدث لهم من تقطيل فى بدر ، وهزيمة كسرت شوكتهم فلم ينته الأمر عند هذا الحد ، إنما هناك خسارة أخرى فى الآخرة ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسِرُونَ ﴾ [المل]

والأخسر مبالغة فى الخسار ، فلم يقل خاسر إنما أخسر ، لأنه خسر البعيم ، لأنه لم يقدم صالحاً فى الدنيا ، ولبيته ظل بلا نعيم وثرك فى حاله ، إنما يأتيه العذاب الذى يسوؤه ، لذلك قال تعالى ﴿ هُمُ الْآخَسِرُونَ ﴾ [التل] لأنهم لم يدخلوا الجنة ، وهذه خسارة ، ثم هم فى النار ، وهذه خسارة أخرى

﴿ وَإِلَيْكَ لَنُلْقِي الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾

يعنى هذه المسائل والقضايا إما نهايتك من الله الحكيم الذى يضع الشيء فى نصائه وفى محله ، فإن آثاب المحسن أو عقاب المسىء ، فكل فى محله ، وهو سبحانه العليم بما يضع من الحرائر على الحسنة وعلى السيئة .

ويقص علينا الحق سبحانه قصة موسى عليه السلام

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا شَاطِئَكُمْ مِنْهَا يُخْرِجُ

أَوْعَاتِكُمْ بِشَبَابٍ قَبَسَ لَكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾

ما زلنا قريبي عهد بذكر طرف من قصة موسى - عليه السلام -

فى سورة الشعراء ، وهنا يعود السياق إليه مرة أخرى ، لماذا ؟ لأن دعوة موسى - عليه السلام - أخذت حيزاً كبيراً من القرآن الكريم ، ذلك لأنهم اتعبوا أنبياءهم وعامدوهم حتى كثر الكلام عنهم .

وعجيب أنهم يفخرون بكثرة أنبيائهم ، وهم لا يعلمون أنها تُحسب عليهم لا لهم ، فالنبي لا يأتى إلا عند شقوة أصحابه . ونو إسرائيل كانوا من الضلال والعناد بحيث لا يكفيهم رسول واحد ، بل يلزمهم (كونسلتو) من الأنبياء ، فهم يعبدونها مقفرة وهى منقصة ومذمة

أما تكرار قصة بنى إسرائيل وموسى - عليه السلام - كثيراً فى القرآن ، فلأن القرآن لا يروى (حدوده) ، لا يذكر أحداثاً للتاريخ لها . إنما يأتى من القصة بما يناسب موطن العبرة والتثبيد لفؤاد رسول الله ﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِفُؤَادِكَ .. ﴾ (١٢)

[هرد]

لأن رسول الله ﷺ تعرّض فى رحلة الدعوه لكثير من المضاعف والمشاق ، ويحتاج لنسيه^(١) وتثبيد ، فيأتى له ربّه بلفظة معجبة ، ولكن لا يُورد القصه كامله ، وهذا ليس عجزاً - وحاشا لله - عن إيراد القصه كامله مرة واحدة

وقد أورد سبحانه قصة يوسف - عليه السلام - كامله من الألف إلى الياء فى صورة قصة محبوبه على أتم ما يكون الفن القصصى ، ومع ذلك لم يأت لسيدنا يوسف عليه السلام ذكر - فى غير هذه القصه - إلا فى موضعين

(١) سلاسى من معنى تسلية وسلاسى ، أى كشفه صلى الله عليه وسلم عن الهم وتسلّى بمعنى دى انكشف وقد دوى ريد معنى مألوت إذا سى ذكره ودغل فيه [لسلى العرب - حاده سلى]

أحدهما هي سورة الأنعام ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودُ وَسُلَيْمَانُ وَإِسْرَافُ﴾
ويوسف .. (٨٤) ﴿

والآخر في سورة غافر ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ (٧٢)

إن من ورود القصة في لقطات مختلفة متفرقة ليس عَجْزاً عن إيرادها مُستوعاة كاملة في سياق واحد ، ولو فعل ذلك لكان التثبيت مرة واحدة

وهنا يقول اسحق سبغامة ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نَارًا﴾ (٧) [النمل] ، وفي موضع آخر يقول ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنستُ نَارًا﴾ (٦٩) [النمل] وفي هذه الآية إضافة جديدة ليست في الأولى

أما قوله تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ وسار بأهله آس من جاسب الطُّورِ ناراً .. (٦٩) ﴿[القصص] أي آس في دانه ، أم في الآيتين السابقتين فيحبر بأنه آس ناراً ، إذن كل آية في موقف ، وليس في الأمر تكرار ، كما يتوهم لبعض

فموسى - عليه السلام - يسير بأهله في هذا الطريق لوعز ويحل عليه الظلام ، ولا يكاد يرى الطريق فيقول لزوجته ﴿إني أمتُّ

(١) هي الأجل الذي صرحه له شعيب لقاء إسماعه أبيت ، عندما قال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي أُتِيَ بِكَ الْوَحْيُ﴾ [القصص: ٢٥] قال ابن كثير في تفسيره (٢/٢٨٧) : فضى موسى أتم الأجلين وأوقاهما وأبرهما وأكملهما وأبقاهما .

نَارًا.. (٧) [العمل] يعنى سأذهب لاقتسّم منها ، ليهتدوا بها ، أو ليستدفئوا بها

وطبيعى أن تعارضه زوجته كيف نفركبى في هذا المكان الموحش وحدى ، فيقول لها ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. ﴾ (٢٩) [القصر] يعنى ابقى هنا مستريحة ، وأنا الذى سأذهب ، فربما تعرضت لمخاطر فكوى انت بعيداً عنها إذن هي مرافق حديدية استدعاهما الحال ليست تكرر

كذلك نجد اختلافاً طبيعياً في قوته ﴿ لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. ﴾ (٢٩) [القصر] وقوته ﴿ سَأَتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. ﴾ (٧) [العمل]

فالاولى ﴿ لَعَلِّي .. ﴾ (٢٩) [القصر] فيها رجاء ، لانه مُقبل على شيء يشك فيه ، وغير متأكد منه وهو في هذه الحالة صادق مع حواطر نفسه أمم شيء عائب عنه ، فلم تأكد قال ﴿ سَأَتِيكُم .. ﴾ (٧) [العمل] على وجه البقير^(١) .

وفي هذه المسألة قال مرة ﴿ لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ .. ﴾ (٢٩) [القصر] وهنا قال ﴿ سَأَتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَسِرَ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ^(٢) ﴾ (٧) [العمل]

ذلك لأنه لا يدري حينما يصل إلى النار ، أيجدها مشتعلة لها

(١) ذكر أبو يحيى ركبوا الأنصاري في كتابه « فتح الرحمن » كشف ما يلتبس في القرآن . من (٣٥) « في قلت كيف قال هنا ﴿ سَأَتِيكُم ﴾ (٧) [العمل] وفي ﴿ لَعَلِّي آتِيكُم ﴾ (٢٩) [القصر] وأحدهما طلع والآخر ترج ، والقضية واحدة ، قلت قد يقول الراجي إذا قوى رجاءه سافعل كذا ، وسيكون كذا ، مع تجريده عدم الجرم »
(٢) أي لعلكم تستدفئون من البرد ، يقال اصطلى يصطلى إذا استدفأ [تفسير القرطبي ٢٨/٧] قبل الرجاء جاء في التفسير أنهم كانوا في شتاء فلذلك احتاج إلى الاصطلاء وحلّى يده بالنار سخّنها [لسان العرب - مادة صلى]

سان يقتبس منه شعله ، أم يجدها قد هذات ولم يبق منها إلا جذوة
وهي القطعة المتوهجة مثل اللحم مثلاً ، فكل تكرار هنا له موضع ،
وله معنى ، ويضيف شيئاً جديداً إلى سياق الفصية ، فهو تكامل في
اللفظات تأتي متفرقة حسب المراد من العرة والتثبيت

ومعنى ﴿لَأَهْلَهُ﴾ (٧) [أنس] قالوا إنها تعني جماعة بدليل
قوله لهم ﴿امْكُثُوا﴾ (٧١) [القصر] فكانت زوجته ، ومعها أيضاً
عص الرُعْدن أو الحدم والإنسان ما يحتاج لأشياء كثيرة تقتضي
التعدد فهذا يطبخ الطعام ، وهذا للتنظافة ، وهذا لكي الملابس
إلح

لكن هناك شيء واحد لا يستطيع أحد أن يقصيه لك إلا زوجته ،
هي السُّلُ والمعاشرة الزوجية ، كما يمكن للزوجة وحدها أن تقوم بك
بكل هذه الأعمال ، إذن هي تُقْنِي عن الأهل كلهم ، وسنطيع أن
نقول إنه لم يكن معه إلا زوجته

وهذه شائعة في لغتنا يقول الرجل الجماعة أو جماعتي أو
أهلي ويقصد زوجته ، وفي هذا تقدير من الزوج لمكانة زوجته

ومعنى ﴿أَسَيْتَ﴾ (٧) [البل] أنس يعني شعر وأحسن شيء
يؤنسه ويُطمنئنه ، وضده التوجس أي شعر وأحسن شيء يخيفه ،
ومنه قوله تعالى في شأن موسى أيضاً ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً
مُوسَى﴾ (٦٧) فَلَمَّا لَا تَخَفْ بَلَّغْتَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) [طه]

﴿لَمَّا جَاءَهَا نُورٌ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا﴾

﴿وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨)

أي جاء النار ف ﴿نُودِيَ .. (٨)﴾ [المر] النداء طلب إقبال ،
كما تقول يا فلان ، فيأتيك فتقول به ما تريد فالنداء مثلاً في قوله
تعالى ﴿يَمُوسَىٰ (١١)﴾ [طه] نداء ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ .. (١٤)﴾ [طه]
خطاب وإخبار .

لكن ما معنى ﴿نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَن حَوَّهَا .. (٨)﴾
[النمل] ولم يقل يا موسى فليس هنا نداء ، قالوا مجرد الخطاب هنا
يراد به النداء ، لأنه ما دام يخاطبه فكأنه يناديه ومثال ذلك قوله
سبحانه ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا
حَقًّا .. (٤١)﴾ [الأعراف]

مذكر الخطاب مباشرة دون نداء لأن النداء هنا مقدّر معلوم من
سياق الكلام ، ومنه أيضاً . ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ
بِسِمَاهُمْ قَانُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمُ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨)﴾ [الأعراف]
ومنه أيضاً ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي .. (٧٤)﴾ [مريم] فجعل
الخطاب نفسه هو النداء .

وقوله - ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَن حَوَّهَا .. (٨)﴾ [النمل] كلمة
بُورِكَ لا تناسب النار ، لأن النار تحرق ، وما دام قال ﴿بُورِكَ مَن فِي
النَّارِ .. (٨)﴾ [النمل] فلا بد أن مَن في النار خلق لا يحرق ، ولا تؤثر
فيه النار ، فمن هم الذين لا تؤثر فيهم النار ، هم الملائكة^(١)

وقد رأى موسى - عليه السلام - مشهداً عجيباً ، رأى النار
تشتعل في فرع من الشجرة ، فالنار تزداد ، والفرع يزداد خضرة ،

(١) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿فَنَادَاهَا﴾
نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ ﴿٨﴾ [النمل] يعني تبارك وتعالى نفسه ، كان دور رب العالمين
في الشجرة ﴿وَمَن حَوَّهَا﴾ (٨) [المر] يعني الملائكة أوردته السيوطي في (الدر
المشور ٦ ٢٤١)

فلا النار تحرق الخضرة ولا رطوبة الخضرة وماثيتها تطفىء النار^(١) ،
فَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ؟ لَذَلِكَ قَالَ بَعْدَهَا ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴾ (A)

ففى مثل هذا الموقف إياك أن تقول كيف ، بل نزه الله عن تصرفاتك
أنت ، فهذا عجيب لا يُتصور بالنسبة لك ، أما عند الله فأمر يسير .

وقد رأينا مثل هذه المعجزة فى قصة إبراهيم - عليه السلام
حين نجاه ربه من النار . ولم يكن المقصود من هذه الحادثة نجاه
إبراهيم فقط ، بل أن الله أراد نجاته لحسب لما أمكنهم منه ، أو
لأطاع العار التى أوقدوها سحابة ممطرة ، أسباب كثيرة كانت مُمكنة
لنجاه سيدنا إبراهيم

لكن الله تعالى أرادهم أن يُعسكوا به ، وأن يُلقوه فى النار ، وهى
على حال اشتعالها وتوهجها ، ثم يلقونه فى النار بأنفسهم . وهم
يرون هذا كله عياناً ، ثم لا تؤذيه النار ، كأنه يقول لهم أنا أريد أن
أنجيه من النار ، رغم قوة أسسائكم فى إحراقه ، فأنا خالق النار
ومعطىها خصية الإحراق وهى مؤتمرة بأمرى أقول لها كُونِي بَرْدًا
وسلاماً تكون . فالمسألة ليست ناموساً وقاعدة تحكم الكون ، إنما
هى قيوميتى على خلقى .

إنن ما رآه موسى - عليه السلام - من النار التى تشتعل فى
خضرة الشجرة أمر عجيب عندكم ، وليس عجيباً عند مَنْ له طلاقة
القدرة التى تخرق النواميس .

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣٥٦/٢) : « فلما أبانها ورأى منظراً هائلاً عظيماً حيث انتهى
إليها والنار تصطبغ فى شجرة حمراء لا ترداد النار إلا توقد ولا ترداد الشجرة إلا
خضرة وبضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بهتان السماء قال ابن عباس وغيره
لم تكن يوماً وإسا كانت يوماً يتوهج »

وبناء الفعل ﴿بُورِكَ﴾ .. (٨) ﴿[النمل] للمجهول تعنى : أن الله تعالى هو الذى يبارك ، فهذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله ﴿من فى النار ومن حولها﴾ .. (٨) ﴿[النمل] يجوز أن يكون اعلانكة ، أو : بُورِكَ الشجرة ذاتها لأنها لا تحرق ، أو النار لأنها لا تنطفئ فهى مُباركة . وفي موضع آخر يُوسّع دائرة البركة ، فيقول سبحانه ﴿فى البقعة المباركة من^(١) الشجرة﴾ .. (٧) ﴿[النمل]

ثم يخاطب الحق سبحانه موسى :

﴿يُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

حاء هذا النداء على حقيقته بأداة ومنادى ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾ .. (٩) ﴿[النمل] هذا هو الأصل ، وما دُمْتُ أنا الله فلا تتعجب مما ترى ، وساعة تسمع من يكلمك دون أن ترى منكلماً من جسدك فلا تتعجب ولا تتدهش

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْرِكًا وَلَّى يَعْقِبُ^٢ يُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٠) ﴿

وسمحظ أن هذا تفصيل واحد لم تذكرها الآية هنا ، وذكرت فى موضع آخر فى قوله تعالى ﴿وما تلك بيمينك يوسى﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَنِ غِمِّي وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ (١٨) ﴿[طه] والأدب يقتضى أن يأتى الجواب على قدر السؤال ، لكن مرسى -

(١) أى من ناحية الشجرة وقيل كانت شجرة الطيق وقيل سمرة ، وقيل عوسج ، وعصا كانت عصا موسى ، ذكره الرمحطرى والعوسج إذا ظم يقال له المرشد [القرطبي فى تفسيره ٥١٦٨/٧]

عليه السلام - أراد أن يطيل أمد الأتس بالله والبقاء في حصرتة تعالى ، ولما أحسن موسى أنه أطل في هذا المقام أجمل ، فقال ﴿وَلِيْ فِيْهَا مَا رَبُّ أُحْرَوِىۡ﴾ [ط] فلمصا مهام أخرى كثيرة في حيات

وهنا يقول سبحانه ﴿وَأَتَىٰ عَصَاكَ ۖ ۝١٠﴾ [النمل] يعنى إن كانت اعصا بالنسبة لب بهذه البساطة ، وهذه مهمتها عندك فلها عندى مهمة أخرى ، فانظر إلى مهمتها عندى ، وإلى ما لا تعرفه عنها .

﴿وَأَتَىٰ عَصَاكَ ۖ ۝١٠﴾ [النمل] فلما ألقى موسى عصاه وجدها ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ۖ ۝١١﴾ [النمل] يعنى حية تسعى وتتحرك ، والمجيب أنها لم تتحول إلى شيء من جنسها فالعصا حود من خشب ، كان فرعاً في شجرة ، فجنسه النبات ولما قُطعت وجفت صارت حماداً ، فلو عادت إلى النباتية يعنى إلى الجنس القريب منها واخضرت لكانت عجيبة

أما الحق - تبارك وتعالى - فقد نقلها إلى جنس آخر إلى الحيوانات ، وهذه قفزة كبيرة تدعو إلى الدهشة بن والخوف ، خاصة وهى ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ۖ ۝١١﴾ [النمل] أى تتحرك حركة سريعة هنا وهناك .

وطبيعى فى نفسية موسى حين يرى العصا اتقى فى يده على هذه الصورة أن يخاف ويضطرب ﴿فَأَوْجَسَ فِيْ نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ۖ ۝٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ۖ ۝٦٨﴾ [طه]

ومعنى ﴿الْأَعْلَى ۖ ۝٦٨﴾ [طه] إشارة إلى أنه تعالى يُعده لمهمة كبرى ، وأن لهذه العصا دوراً مع الحصى ، وسوف ينتصر عليهم ، ويكون هو الأعلى .

وحين تنتسج اللقطات المختلفة لهذه القصة تجدها مرة (جان)
ومرة (حية) ومرة (ثعبان) ، وهي كلها حالات للشئ الواحد ،
فالجان قَرَحَ الثَّعْبَانَ ، وله من خفة الحركة ما ليس للثعبان ، والحية
هي الثعبان الضخم .

وقوله تعالى ﴿وَلَّىٰ مُدَبِّرًا ۖ﴾ [١٥] [انصر] يعني انصرف عنها
واعطاه ظهره ﴿وَمِنْ بَعْقٍ﴾ [١٦] [السد] نقول فلان يُعَقِّبُ يعني
يدور على عقبه ويرجع ، والمعنى أنه انصرف عنها ولم يرجع إليها ،
لذلك باداه ربه سبحانه وتعالى ﴿يَحْمُسِي لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى
الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٧] [السد]

ونلاحظ هنا نداءين اثنين يذكر فيهما ، المزددي موسى - عليه
السلام - وكانهما تعويض لنداء السابق الذي نُودِيَ فيه باحمر ﴿أَنْ
بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا ۖ﴾ [١٨] [السد]

وعله عدم الخوف ﴿لَا يَخَفُ ۖ﴾ [١٩] [السد] ليعلمه أنه سيضطرب
إلى معركة ، فليكن ثابت الجأش لا يخاف لأنه لا يحارب شخصاً
بمفرده ، إنما جميعاً من السحرة جُمِعُوا من كل أنحاء البلاد ، وسبق
أن قال له ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [٢٠] [طه] حتى لا يُرهبه هذه الكثرة

وهنا قال ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىٰ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٢١] [السد] والمعنى
لا تخف ، لأنى أنا الذى أرسلتك ، وأنا الذى أتولى حمايتك وتأييدك ،
كما قال الحق سبحانه فى موضع آخر

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [٢٢] ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْشُورُونَ﴾ [٢٣]
[الصافات]

فأنت معذور فى الخوف ، ، إِنَّ كُنْتَ بَعِيداً عَنى ، فكيف وأنت فى
جوارى وأنا معك ، وما أنذا أحاطبك ؟

وكان إلقاء العصا من موسى هذه المرة مجرد تجربة (بروفة) ليألف هذه المعساة ويأنس إليها ، وتحدث له دُرْبَةٌ ورباصة ، فإذا ما أجرى هذه العملية أمام فرعون والسحرة أحرأها بثقة وثبات ويقين من إمكانية انقلاب العصا إلى حية

وبعد ذلك يأتي بآية تثبت منطق التكليف في البشر حتى الرسل .
والرسل أيضاً مكلفون ، وكل مكلف يصح أن يطيع أو أن يعصى ،
لكن الرسل معصومون من المعصية ، أما موسى عليه السلام فله
حادثة مخصوصة حين وكَّز الرجل فسقط ميتاً ، فقال ﴿ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون ﴾ (١٤) [الشعراء]

وفي موضع آخر يُحدِّد هذا الذنب ﴿ قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون ﴾ (٢٢) [القصاص]

ونضع هذه القصة أمامنا لنفهم .

﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ

سُوءٍ فَإِنَّا عَافُوهُ ﴾ (١١)

إذن فالاستثناء هنا من قوله تعالى ﴿ إِنِّي لَا يَنفَعُ لِدِئِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٠) [النمل] استثنى من ذلك ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ .. ﴾ (١١) [النمل]

وكأنه - عز وجل - يُعرِّض بهذه الحادثة الخاصة بموسى عليه السلام ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ .. ﴾ (١١) [النمل] أى . حين قتل القبطي^(١) ، لكن

(١) القبطي من المصريين من أهل البلاد التابع لفرعون وليس المقصود به النصراني المسيحي ،
موسى قبل عيسى بأجيال كثيرة ، وبينهما أسباط ورسول كثيرون

موسى - عليه السلام - اعترف بذنبه واستغفر ربه ، فقال ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي تُغْفِرَ لَهُ ۖ ﴾ (١٦) [القصاص]

ولا كلام لأحد بعد مغفرة الله عز وجل للمذنب^(١) ، لأنه بعد أن ظلم ﴿ ثُمَّ بَدَّلْ حَسًّا بَعْدَ سَوْءٍ .. ﴾ (١١) [النمل] يعنى عمل عملاً حسناً بعد الذنب الذى ارتكبه ﴿ فَأَنى غُفِرَ رَحِيمٌ ﴾ (١١) [السل]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ يَمِينًا مِنْ عَيْرٍ سَوْءٍ فِي تَشَعُّعٍ ۚ أَيْنَبَ إِلَىٰ مِرْعَوْنٍ وَقَوْمِهِ إِتْمًا كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (١٣)

هذه آية أخرى ومعجزة جديدة ، قال عنها فى موضع آخر ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ۖ ﴾ (٣٢) [القصاص]

فما الفرق بين أدخل يدك ، واسلك يدك ؟ فالوا . لأنه ساعة يدخل يده فى جيبه يعنى فى فتحة القميص ، إن كانت فتحة القميص مفتوحة أدخل يده بسهولة فيُسَمَّى (إدخال)

هـن كان مغلقة (فيها أزرار مثلاً) احتاج أن يسلك يده يعنى يدخلها برفق ويوسع لها مكاناً ، نقول سلك الشيء يعنى : أدخله بلطف ورفق ، ومنه السلك الرفيع حين تدخله فى شيء

وساعة نسمع كلمة الجيب نجد أن لها معنى عريضاً بين الناس ، ومعنى لُخوياً بمعناها فى اللغة فتحة القميص العليا ، ولتى تكون للرقبة ، وهى فى المعنى لُغرفى فتحة بداخل الثوب يضع فيها

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤٣٧ هـ) : إذا أحدث المغرب حدثاً سهواً وإن عفر له ذلك الحدث قاتر ذلك الحدث باق . وما دام الأثر والتهمة قائمة فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العقلة ، والمتكلم عند السلطان يجد التهمة حرارة تؤديه إلى أن يكسر عليه صفاء الثقة ، وموسى عليه السلام قد كان منة الحدث فى ذلك الفرحونى ، ثم استغفر راقى بالنظم على نفسه ، ثم غفر له .

الإنسان نفوسه ، يقولون (جيب) والعوام بهم عذر في ذلك ، لأنهم اضطروا إلى حفظ نفوسهم داخل الثياب ، حتى لا تكون ظاهرة ، وربما سرقها منهم النشالون والأشقياء

ولا يزال الفلاحون في الريف يجعلون الجيب في (السديري) الداخلى ، لذلك سمعت الحاوى مثلاً يقول - لِيُحْتَنَ الناس عليه - بارك الله فيمن يضع يده في جيبه يعنى بارك الله في الذى يعطينى جنيهاً

وقوله تعالى ﴿بَخْرُجْ بِيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ..﴾ [النمل] أى وأخرجها تخرج بيضاء ناصعة متورة ، ومعلوم أن موسى - عليه السلام - كان آدم النون يعنى أسمر ، فحين يروى لونه تغير إلى البياض ، فربما قالوا إن ذلك مرض كالبرص مثلاً .

لذلك أزال الله هذا الضم بقوله ﴿مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ..﴾ [النمل] من غير مرض ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ..﴾ [النمل] ليعلم موسى - عليه السلام - أن هذه الآية واحدة من تسع آيات أخرى يثبتها الله بها أمام عدوه فرعون وقومه .

وهذه التسع هي العصب ولها مهمتان أن تتحول إلى حية أصم السمرة ، وأن يضرب بها البحر أمام حيشه ، حينما يهاجمه فرعون وجنوده .

ثم لليد ، واثنان هما الجذب ، ونقص الثمرات في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسَّيِّئِ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ ..﴾ [الأعراف] ثم الصوفان والجراد ، والقمل^(١) ، والصنادع ، والدُم هذه

(١) القمل حشرات صغيرة تؤذي الذرع وتصلب الناس [القاموس القويم ٢، ١٣٤] قال ابن منظور - في اللسان - مادة قمل - القمل حشرات النمل والنمل وقيل هو الذبي الذي لا يجحده له وقال ابن السكيت القمل شيء يقع في الذرع ليس مجراد فيأكل السملة وهي عضة قبل أن تخرج مي طول الذرع ولا سبب له قال الأزهري وهذا هو الصحيح .

تسع آيات . تُثَبِّتُ موسى أمام فرعون وقومه . فهل أُرسل موسى عليه السلام . إلى فرعون خاصة ؟ لا ، إنما أُرسل إلى بنى إسرائيل ، لكنه أراد أن يُقنع فرعون بأنه مُرْسَلٌ من عند الله حتى لا يحول بينه وبينهم ، وجاءت مسألة دعوة فرعون إلى الإيمان بالله عرضاً في أحداث القصة ، فليست هي أساس دعوة موسى عليه السلام

ومعنى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١٢) [المد] إشارة إلى أن الإنسان وإن كان كافراً خارجاً عن طاعة الله إلا أن أصله من أصلاب مؤمنة ، والمراد بالإيمان الأول في آدم عليه السلام ، وفي ذريته من بعده ، لكنهم فسقوا أى خرجوا من غشاء التكليف الذى يُغْلَفُ حركه حياتهم كما يقول فسقت الرطبة يعنى خرجت من علافها ، كذلك فسق الإنسان أى خرج عن حيز التكليف الصائغ له

ثم يقول الحق سبحانه

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةٌ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّثَبِّتٌ﴾ (١٣)

الآيات المعجزات التى تُثَبِّتُ صدق الرسول ، والآيات تكون مُبْصِرَةٌ بصيغة اسم المفعول ، لكن كيف تكون هى لمبصرة بصيغة اسم الفاعل ، وهذه المسألة عرفناها أخيراً ، فكانوا منذ القدم عند اليونان والحضارات القديمة يظنون أن رؤية العين للأشياء تحدث من شعاع يخرج من العين إلى الشيء المرئى ، إلى أن جاء العالم المسلم الحسن بن الهيثم ليثبت خطأ هذه النظرية ويقول بعكسها

(١) مبصرة أى واسعة بينة شامخة [تفسير ابن كثير ٣/٢٥٧] وقال الجوهري مبصرة أى مضيئة وقال أبو إسحاق معنى مبصرة تُبَصِّرُهُمْ أى تبين لهم وقال الاخفش إنها تُبَصِّرُهُمْ أى تجعلهم يُبْصِرُونَ [سنن العرب - مادة بصر]

والرؤية تتم بخروج شعاع من الشيء المرئي إلى العين . بدليل
أننا لا نرى الشيء إن كان في الظلام ، وأنت في النور فإن كان
الشيء في النور وأنت في الظلام تراه

إس فكان الآيات نفسها هي المبصرة ، لأنها هي التي ترسل
الأشعة التي تسبب الرؤية أو أن الآيات من الوضوح كأنها تُلجَّ
على الناس أن يروا وأن يسموا ، فكأنها أبصر منهم للحقائق
ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَجَحِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظْمًا فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ١٤

﴿ وَجَحِّدُوا ١٤ ﴾ [النمل] أي . باللسان ﴿ بِهَا ١٤ ﴾ [النمل]
بالآيات ﴿ وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ١٤ ﴾ [النمل] أي إيماناً بها ، إذن
المسألة عناد ولَّد في الخصومة ، لذلك قال تعالى بعدها ﴿ ظُلُمًا وَعُظْمًا
١٤ ﴾ [النمل] أي . استكباراً عن الحق ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُفْسِدِينَ ١٤ ﴾ [النمل] وترك عاقبتهم مهمة لتعظيم شأنها وتبويلها .

ثم يترك قصة موسى مع فرعون وما كان من أمرهم لمناسبة
أخرى تحتاج إلى تثبيت آخر ، وينتقل إلى قصة أخرى في موكب
الأنبياء ، فيها هي الأخرى مواطن للعبارة والتثبيت

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٥

وسأل لقد أعطى الله داود وسليمان - عليهما السلام - نعماً كثيرة غير العلم ، لأن داود الحديد ، وأعطى سليمان مئكاً لا يبغي لأحد من بعده ، وسخر له الريح والجن ، وعلمه منطلق الطير . ومع ذلك لم يمتز عليهما إلا بالعلم وهو منهج الدين .

قالوا لأن العلم هو النعمة الحقيقية التي يجب أن يفرح بها المؤمن ، لا الملك ولا المال ، ولا الدنيا كلها ، فلم يعتد بشيء من هذا كله ، لذلك حمد الله على أن آتاه الله العلم ، لأنه النعمة التي يحتاج إليها كل الخلق ، أما الملك أو الجاه أو تسخير الكون لخدمته ، فيمكن للإنسان الاستغناء عنها

ولإمام علي - كرم الله وجهه - حينما نفى أبو ذر ، لأنه كان يتكلم عن المال وخطره والأبوية ومسائل الدنيا ، فنقوه إلى الرينة حتى لا يثير فتنة ، لكنه قبل أن يذهب مرّاً بالإمام علي كي يوسط له ليعفوا عنه ، لكن الإمام عيأ - رضى الله عنه - أراد ألا يتدخل في هذه المسألة حتى لا يقال إن علياً سلط أباً ذر على معارضة أهل الدنيا ومهجمتهم ، فقال له يا أما ذر إنك قد غضبت الله عارجاً من غضبت له وإن القوم خافوك على دنبيهم وملكهم ، وخفتهم أنت على دينك فاهرب بما خفتهم عليه يعني اهرب بدينك واترك ما خافوك عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم ، وما أعذك عما منعوك

(١) أورد ابن الجوزي في صفة الصفوة (١ / ٢٧) : روى البخاري في إمرائه عن حديث يزيد بن وهب قال سرت بالريضة فقلت لأبي ذر ما أبرك هنا قال كنت بالضم فدخلت أنا ومعاوية في هذه الآية «والذين يكثرون الذهب والفضة» [التوبة] ، مقال مرث في أهل الكتاب فقلت فيهم فكذب يشكومي إلى عثمان فكتب عثمان أقسم المدينة فقدمت فكثر الناس على كلهم لم يروى قبل ذلك ، فذكر ذلك لعثمان فقال إن شئت لتخيت فكنيت قريباً ، فذكر الذي أرسلني هذه المبرل ، فهذه الواقعة كانت في زمن خلافة عثمان بن عفان ، وقد توفي أبو ذر في زمن عثمان وهذا لا يمنع أن يكون أبو ذر قد استشار علي بن أبي طالب إذ لم يكن خليفة

هكذا أزال الإمام هذا الإشكال ، وأظهر أهمية العلم ومنهج الله بحيث لا يستغنى عنه المسلم بحال من الأحوال ، ولا يعيش بدونه ، وبه ينال حياة أخرى رفيعة دافئة ، ففى حين يستطيع الإنسان أن يعيش بدون المال وبدون الملك

ولذلك يبعث خليفه المسلمين إلى سيدنا جعفر الصادق يا ابن بنت محمد ﷺ ما لك لا تفتشانا كم يفتشانا الناس ؟ أى تأتينا وتجالسنا وتسمر معنا فقال ليس عندى من الدنيا ما أخافك عليه - يعنى ليس عندى مال تصادره - وليس عندك من الآخرة ما أرجوك له وهذا نفس المنطق الذى تكلم به الإمام على

وقوله تعالى ﴿ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقره] فالحمد هنا على نعمة العلم وحفظ منهج الله ، وفى الآية مظهر من مظاهر أدب النبوة حيث قال ﴿ فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقره] فكان هناك من هم أفضل منا ، وليس التفصيل حجراً علينا ، وهذا من توضعهما عليهما السلام

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ إِنَّا نَبَأُهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْمَضِلُّ الْمَيْسُ ﴾ ١٦

قوله سبحانه ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [البقره] ١٦ أى بقيت فيه النبوة وحمل المنهج ، لا الملك لأن الأنبياء لا تورث كما جاء فى الحديث الشريف « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »^(١)

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣ ٤) ، ركذا مسلم فى صحيحه (١٧٥٧) من

حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ، لا تورث ما تركناه صدقة .

وهذا يدل على أن سليمان جاء بعد داود ، وقد ورث عنه النبوة مع
أبيه متعاصراً ، بدليل قوله تعالى في موضع آخر ﴿ وداود
وسليمان إذ يحكمان في الحوت إذ نشت فيه عجم الفوم وكنا لحكمهم
شاهدين ﴾ (٧٨) [الأنبياء]

إذن كان سليمان مع داود في هذه الحكومة وفي العلم ، لكن
الحق سبحانه جعل العلم متازلاً ، بدليل أنه قال ﴿ ففهمهما
سليمان .. ﴾ (٧٩) [الأنبياء] مع أن أباه موجود ، وحكم في القضية بأن
يأخذ صاحب الزرع الغنم التي أكلت

فلما خرجوا من عند داود سألهم سليمان عن حكم أبيه ، فأخبروه
بما قال . فقال سليمان يل يأخذ صاحب الزرع الغنم يتمتع بها
ويأخذ صاحب الغنم الزرع يصلحه حتى يعود كما كان وعندها يأخذ
صاحب الغنم غنمه ، وصاحب الزرع زرعه^(١)

والحق - تبارك وتعالى - يعصيا هذا المثل مع بني وانه ، لا مع
تبيين محققين بعيدين وفي هذا إشارة إلى أن حق الأبوة على
سليمان لم يسه من مخالفة أبيه في الحكم ، لأن الله تعالى قال
عليهما ﴿ وكلاً أتينا حكماً وعلماً .. ﴾ (٧٩) [الأنبياء] فكل منهما يحكم على
مقتضى علمه الذي منحه الله

ومن هذه الحادثة أخذنا مشروعية الاستثناء والنقص في أحكام
المحاكم ، لقاضي الاستثناء حينما يُعَدَّل في حكم انقاضي الابتدائي
لا يُعَدُّ هذا طعنًا فيه ، إنما كل منهما حكم بناءً على علمه ، وعلى

(١) نشت الغنم - انشريت في المدعي بعد ربيع ولا صابط . العاموس القوم ٢/٢٧٩ [قال
ابن منظور في [النسا - مادة نشت] ، نشت الإبل والغنم ، انشريت ليلاً مرعت ،
ولا يكون ذلك بالنهار ، وخص بعضهم به دخول الغنم في نرج .
(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (١٨٦/٣) عن ابن عباس

ما توفر له من أدلة ووقائع ، وربما فطن القاضى الثانى لما لم يفطن له لقاصى الاول .

إذن ﴿وورث سليمان داود ..﴾ [النمل] لا تعنى أنه جاء بعده ، إنما هما متعاصران ، وورثه من العلم والنبوة والحكمة ، لا فى الملك والمال ، لأن الله تعالى يريد أن يكون الرسول بعيداً من رسالته وتبليغه عن الله عن أى دفع يجيء له ، أو لذريته

لذلك كان الفقراء من أمر النبي ﷺ لا يأخذون من زكاة المؤمنين لكن أين هذا التشريع الحكيم مما يحدث الآن من الحكام والرؤساء والمستولين ممن يوالون أفاربهم ، وينهبون البلاد من أهلهم ؟

﴿وقال بنائها الناس علماً مطوق الطير ..﴾ [النمل] فالطير له مطوق ولغة ، لأنه كما قال تعالى ﴿وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ [الانعام] والآن ومع تقدم العلم يتحدث العلماء عن لغة للعمل ولغة للخصر ، ولغة للسماك . إلخ

وهذه المخلوقات تتفاهم بلغاتها بدقة تفاهم غريزي ، فكيف لا نفهم هذا المنطق ، والحق - تبارك وتعالى - يُعَلِّمُا ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ [الإسراء] من قلت كمن قالوا هو تسبيح دلالة لا منطق ومقال ، بقول طالما أن الله تعالى قال ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم ..﴾ [الإسراء] فلا مد أنه مقال وكلام ، ولكن أنت لا تفهمه

وعلماء اللغة يقولون إن النطق خاص بالإنسان ، أما ما تحدثه الحيوانات والطيور بأصوات تحدثها فى كل وقت ، مثل مواء القطة ، ونباح الكلب ، وحوار البقر ونقيق الضفادع ، لكن هذه الأصوات لها معنى (منونوة) القطة حين تجوع غير (مونوتها) حين تخاف

إِنَّ هِيَ تُعَرِّ ، لكننا لا نعرف هذه التعبيرات ، كيف ونحن البشر لا يعرف بعضنا لغات بعض ، لأننا لم نتعلمها ، واللغة ضرورية اجتماعية يتواضع عليها أي متفق أن هذا اللفظ يعني كذا ، فإذا بطلت به أفهمك ، وإن نحلقت به تفهمني

واللغة بنت الاستماع ، فاللفظ الذي تسمعه تستطيع نطقه ، والذي لم تسمعه لا تستطيع نطقه ، حتى لو كان لفظاً مريباً من لعتك ولا تعرف أيضاً معناه ، طرقت لك (إسماء الحيريون والدرديس والطحا والنحاح والعصليص) فلا شك أنك لا تعرف لهذا معنى لأننا لم نتواضع على معناه

والطفل الذي نشأ في بيئة عربية يتكلم العربية ، لأنه سمعها ولا يتكلم الإنجليزية مثلاً لأنه لم يسمعها ، ولو وضع نفس الطفل في بيئة إنجليزية يتكلم الإنجليزية ، لأن اللغة لا ترتبط بجنس ولا دم ، اللغة سماع

ومعنى ﴿ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۖ ۞ (١٦) ﴾ [الملك] أي من النعم على الإطلاق ، وبعد قليل سنسمع نفس هذه العبارة يقولها الهمداني عن مكة سبأ ﴿ وَأَوْتَيْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۖ ۞ (٢٣) ﴾ [الملك] إذن فهي مثله عينا يناسب أمثالها من الملوك لا في النبوة وحمل المدهج ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَصْلُ الْمُبِينُ ۝ (١٦) ﴾ [الملك] انفصل المحيط بكل الفضائل

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَخُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ آلِيهِ ۖ وَالْإِنْسِ

وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ (١٧) ﴾

خُشِرُوا جُمِعُوا مِنْ كُلِّ مَكَارٍ ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَابْعَثْ فِي

الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) ﴿ [الشعراء] وَالْحَشْرُ جَمْعُ الدَّاسِ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وَسُمِّيَ الْجَمْعُ حَشْرًا ، لِأَنَّهُ تَجْمَعُ الدَّاسُ مِنْ أَمَاكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ ، حَتَّى يَضِيقَ بِهِمْ وَيَزْدَحُمُ ، وَهَذَا مَعْنَى الْحَشْرِ الْمُتَعَارِفِ عَلَيْهِ عِنْدَنَا ، نَقُولُ نَحْشُرُهُمْ عَلَى بَعْضِ

وَمَعْنَى ﴿فَهُمْ يُورَعُونَ (١٧)﴾ [البلع] نَعْنَى يُمْنَعُونَ وَمِنْهُ قَوْلُهُ ، إِنْ أَنَّهُ لِيَزْعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزْعُ بِالْقِرَآنِ ، يَعْنِي أَنَّ السُّلْطَانَ وَالْقُوَّةَ وَالْبَطْشَ تَمْنَعُ مَا لَا يَسْتَطِيعُ اقْتِرَآنُ مَنَعِهِ ، ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَسْتَمْنَعُونَ الْقِيَامَةَ وَالْعَذَابَ ، أَمَّا السُّلْطَانُ فَرَادَعٌ حَاصِرُ الْآنِ

لَكِنْ ، مِمَّنْ يَمْنَعُونَ وَهُمْ فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ أَمَامَ سُلَيْمَانَ ، قَالُوا ' يُمْنَعُونَ أَنْ يَسْبِقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَى سُلَيْمَانَ ، إِنَّمَا نَمْنَعُهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ الْمُتَأَخَّرُ مِنْهُمْ ، وَيَدْخُلُونَ جَمِيعًا عَلَيْهِ مَرَّةً وَاحِدَةً ، وَفِي ذَلِكَ إِحْدَاثُ تَوَازُنٍ بَيْنَ لِرْعِيَةِ كُلِّهَا

وَقَدْ حَدَّثُونَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ مِنْ صِفَاتِهِ إِذَا جَسَسَ فِي مَجْلَسٍ تَوَزَعَتْ نَظَرَاتُهُ وَعَيْنُهُ عَلَى كُلِّ الْجَالِسِينَ حَتَّى يُسَوِّيَ بَيْنَهُمْ ، وَلَا يَنْظُرُ لِأَحَدٍ أَكْثَرَ مِنَ الْآخَرِ (١) ، وَلَا يُمَيِّزُ أَحَدًا مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ ، حَتَّى لَا يَظُنَّ أَحَدُهُمْ أَنَّ أُخْرَى فَضَّلَهُ عَلَى غَيْرِهِ

وَكَانَ ﷺ لَا يُقْرَبُ إِلَّا أَهْلُ الْعِضْلِ وَالتَّقْوَى الَّذِي يُعْرِفُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَغْلُونَ هَذِهِ الْمَكَانَةَ لِثِقَلِ سِنِّهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ ﷺ

(١) رَوَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ بِحَدِيثِهِ جَعَلَ عَلَى كُلِّ حَتَفٍ مِنْهُمْ وَزَعَةً تَرُدُّ أَوَّلَهَا عَلَى آخِرِهَا لِئَلَّا يَتَقَدَّمُوا فِي الْمَسِيرِ كَمَا يَصْنَعُ الْمُلُوكُ ، تَوَرَّدَ السَّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَعْنُورِ (٢٤٧/٦) وَهَذَا لَدَى جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ

(٢) مِنْ أَلْبِ السُّوَاهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَحَى أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ يَأْخُذُ بِيَدِهِ فَيُزْجِرُ بِهِ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هَرَّ الَّذِي يُرْسِلُهُ وَلَمْ يَكُنْ يَرَى رُكْبَتَيْهِ أَوْ رُكْبَتَهُ خَارِجًا عَنْ رُكْبَةٍ جَنِبَتِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَصَافِحُهُ إِلَّا أَقْبَلَ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ ثُمَّ لَمْ يَصْرِفْهُ عَنْهُ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ كَلَامِهِ ، رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ وَالطَّبْرِيُّ فِي الْأَرْسَطِ وَأَسْمَاءُ الطَّبْرَانِيُّ حَسَنٌ ، مَجْمَعُ الزَّوَاكِدِ لِلْهَيْثَمِيِّ (١٥/٩)

لا يُوطئ الأماكن وينهى عن ذلك ' على خلاف ما نراه الآن من بعض المصلين الذين يضعون سجادة مثلاً في الصف الأول يشقون بها المكان ، ثم يذهب ويقصى حاجاته ، ويعود وقد امتلأ للمسجد فيتخطى رقاب الناس ليصل إلى مكان في المقدمة ، وهو ليس مكانه عند الله

فإنه تعالى قد وزع الأماكن على حسب الورد ، وإتيائك إلى بيت الله أولاً يعطيك ثوب الصف الأول ، وإن صليت في الصف الأخير . وعدم توطئ الأماكن يشر الألفة بين الناس ، ويرين الفوارق ويساعد على التعارف ، فكل صلاة أنت بجانب شخص جديد تتعرف عليه وتعرف أحواله

وهذا معنى ﴿فَهُمْ يَوْرَعُونَ﴾ (١٧) [المد] يمنع السابق أن يسبق حتى يأتى اللاحق ، لتكونوا سواسية في الدخول على نبي الله سليمان عليه السلام

لكن في صوء هذا المعنى لمادة (وزع) كيف تفهم قوله تعالى ﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ..﴾ (١٩) [المد] اورعني هنا يعني أقدرني وامعني من الغفلة عن نعمتك ، لأضل شاكراً لك

﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَاسَوْا عَلَىٰ وَالنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْكُلُهَا النَّمْلُ
أَذْخُوا مِنْكُمْ لَأَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُودُهُ
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨)

(١) أخرج أحمد في مسنده (٤٤٧ ٥) ، وابن ماجه في مسنده (١١٢٩) وأبو داود في مسنده (٨٦٣) من حديث عبد الرحمن بن شبيب قال : « سهر رسول الله ﷺ من نقره العرب ، وافترش السبع ، وأن يوطن الرجل المكان في المسجد كما يوطن النعير » أما الإمام أحمد فقد أخرجه من حديث أبي سلمة الأنصاري

الصمير في ﴿أَتَوْا ..﴾ [النمل] يعود على جنود سليمان من
الإنس والجن والطير ، أى جاءوا جميعاً صفّاً واحداً ومروا ﴿على
رأس النمل ..﴾ [النمل] يعنى فرية انمل^(١) ، وقوله ﴿على وأد
لنمل﴾ [النمل] يدلُّ على أنهم جاءوا من أعلى الجبل ، أو أنهم
قطعوا الوادى كله كما نقول فلان أتى على الطعام كله

عندها ﴿قالت سلة بأيتها النمل ادخلوا مساكنكم ..﴾ [النمل]
لماذا هذا التحدير ، ﴿لا يخطبكم سليمان وجنوده ..﴾ [النمل] ثم
احتاطت النملة للأمر ، فقالت ﴿وهم لا يشعرون﴾ [النمل] فما كان
سليمان وجنوده ليخطمو سيرت النمل عن قصد منهم

والمعنى حالة كونهم لا يشعرون بكم ، وهذا من عدالة حكمها
ومعربتها سليمان ، وأنه ليس جباراً ولا عاتياً . إذن فالنملة رأت عن
بعد ، ونطقت من حق ، وحكمت بعدل ، لهذا كله تبسم سليمان صاحكاً

وواضح فى هذا القول ما تتميز به معبكة النمل من نظام يعرف
فيه كلُّ مهمته ، ويؤديها على أكمل وجه . فهذه السلة لا بدُّ أنها كانت
تقوم بمهمة الحراسة وتقف فى الدرك ، ترقب الجو من حولها .
وكانها جندى الدورية اليقظ

وسبق أن قلنا لو أنت جلست فى مكان ، وتركت فيه بعض
فصلات الطعام مثلاً أو انحوى لرايت بعض النمل يدور حولها دور
أن يقربها ، ثم انصرفوا عنها ، وبعد مدة ترى جماعة منهم جاءت
وحملت هذه القطعة ، وكان الجماعة الأولى أفراد الاستطلاع الذين

(١) قال قتادة : ذكرنا أن رابى يرمى الشام وقال كعب هو الطائف (قاله القرطبي فى

تفسيره ٥١/٧ ٥) وقال فى موضع آخر : قال كعب مر سليمان عليه السلام بوادى

السدير من أودية الطائف .

يكتشفون أماكن الطعام ويُقدِّرون كم نملة تستطيع حمل هذا الشيء
بدليل أنك لو ضاعفت القطعة الملقاة لرأيت عدد النمل الذي جاء
لحمها قد تضاعف هو أيضاً ولو قتلت النمل الأول الذي جاء
للاستطلاع تلاحظ أن النمل امتنع عن هذا المكان ، لماذا ؟ لأن النملة
التي نحت من القتل ذهبت إلى مملكتها ، وحذرتهم من هذا المكان
وهي مملكة النمل عجائب وآيات ، سبحان خالقها ، وسبحان من
هداها إلى هذه الهندسة المعكومة بالعريضة

ومن عجائب النمل أنك ترى في عُش النمل أحبوب مفلوكة إلى
نصفين حتى لا تنبت ، وتهدم عليهم عُشهم لكن حبة الكُسْبَرَة مثلاً
تنبت حتى لا انفلت نصفين ، حيث يسب كل نصف على حدة ، لذلك
لاحظوا أن النمل يفلق هذه الحبة بالذات إلى أربعة أقسام

كما لاحظ المهتمون بدراسة النمل وجود حبات بنساء صغيرة
مثل رأس الدوس أمام أعشاش النمل ، ويمصها تنين أنها ربيعة
العات التي تحمل خلايا الإنسبات أخرجوها كي لا تنبت

ومصدق الله العظيم ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَاحِهِ
إِلَّا أَمَّمْ أَثَالُكُمْ ..﴾ (٢٨)

وقد سمى الله تعالى ما قالب العملة قولاً ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ ..﴾ (٢٨)
[النمل] ولا بد أن هذا التحذير ﴿ادْخُلُوا مساكنكم ..﴾ (٢٨) [النمل] جاء
قبل أن يأتي سليمان وجنوده ، وهم على مشارف الوادي

وكلمة ﴿مساكنكم ..﴾ (٢٨) [النمل] تدل على أن لهم بُيوتاً
ومساكن ، ومحال معيشة وكسب أرزاق ، كما يقول (يلقطوا
ردمهم) من هنا ومن هناك ، لذلك تحده يتتبع مواضع الطعام

والفصالات ، ويدخُل إليها من أُصْبِقِ الأماكن . لكن يرى مثلاً محلات
الحلوى مليئة بالسُّكر الذي يعشقه النمل ، ومع ذلك لا نحدِ قى هذه
المحلات نملة واحدة ، لماذا ؟ لما تتَّعوا هذه الظاهرة بالدراسة وجدوا
أن النمل لا يدخل المكان إذ كان به سُمٌّ ، وهذه من عجائب النمل
أيضاً

وقوله تعالى ﴿لَا يَحْطُمُكُمْ﴾ (١٨) ﴿[سبل] الخَطْمُ هو
التكسير ، ومنه قوله سبحانه عن الذر ﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْعُطْمُ﴾ (٥)
[الهرة] لأنها تحطم ما يُبْقَى فيها

﴿فَتَبَسَّ رِضًا حَكِيمًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
بِعَمَلِكَ الْفَاقِ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى رَحْمَتِكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا
تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي رَحْمَتَكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٩)

تَبَسَّمَ سليمان - عليه السلام - بالبسمة التي ينص بالصحك
لماذا ؟ لأنه سمعها قبل أن يعبر إليها ، ولأنها رأت قبل أن يأتي
امرئى ، وقد تكلم البعض فى هذه المسألة فقالوا إن الريح نقلت إليه
مقالة النملة ، وهو ما يزال بعيداً عنها ، وهذا الكلام يُقِلُّ بو أن المسألة
(ميكانيكا) إنما هى عمل رب وقدرته خالق مُنعم يععم بما يشاء

ويطوق قائلًا ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي ..﴾ (٩) ﴿[سبل] أى منعنى أنْ أَعْمَلَ
أو أنْ أَسَى هذه النُّعم ، فأظل شاكرًا حامدًا لك على الدوام لأن هذه
النُّعم فاقَتْ ما أنعمت به على عامة الخلق ، وفوق ما أنعمت به على
إخوانى من الأنبياء السابقين ، وعلى كل ملوك الدنيا ، لأنه عليه
السلام جمع بين الملك والنُّبوة ، وإن كان سيدنا رسول الله ﷺ

عرض عليه الملك فرغضه ، وآثر أن يكون عبداً رسولاً .

ذلك وجب على كل صاحب نعمة أن يستقبلها بحمد الله وشكره ،
وسبق أن قلنا في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ نَسَّأَلُ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (٨)
[النكاثر] أن حق النعمة أن تحمد لمنعم عليها . فلا تسأل عنها يوم
القيامة

وما أشبه الحمد عى النعمة بما يسْمُرُنه عندنا في الريف
(الرقوبة) ، وهى بيضة تضعها ربة الميزن في مكان أمين يصبح
عُشاً يبيض فيه الدجاج ، فإذا رأت الدجاجة هذه البيضة جاءت
مناصت عليها ، وهكذا شكر الله وحمده على النعم هو الذرة التي
يتجمع عليها المرید من نعم الله

وقد شُرح هذا المعنى في قوله سبحانه ﴿ لئن شكرتم
لأزيدنكم .. ﴾ (٧) [إبراهيم] ألا ترى أن من علم علماً فعمل به أورثه الله
علم ما لم يعلم ، لِمَا دَامَ عمل بعلمه ، فهو مُؤْتَمِنٌ على
العلم ، لذلك يزيده الله منه ويفتح له مغاليقه ، على خلاف من علم
علماً ولم يعمل به . فإن الله يسلبه نور العلم فيعيق عليه . وتصدأ
ذاكرته ، ويسى ما تعلَّمه

والحق - تبارك وتعالى - يقول ﴿ ومن يشكر فإنما يشكر
لنفسه .. ﴾ (٢) [النمل] أى تعود عليه ثمرة شكره . لأنه إن شكر الله
بالحمد شكره الله بالزيادة ، لذلك من أسمائه تعالى (الشكور)

وقوله ﴿ على .. ﴾ (١٦) [النمل] هذه خصوصية ﴿ وعلى والذى .. ﴾
(١٦) [النمل] لأنه ورث عنهما الملك والنبوة ﴿ وَأَن أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾
(١٦) [النمل] وهذا ثمن النعمة أن تؤدي خدمات الصلاح في
المجتمع لاكون مُؤْتَمِنًا على النعمة أهلاً للمزيد منها

والحق - ثبارك وتعالى - يريد منا أن نوسع دائرة الصلاح
ودائرة المعروف في المجتمع ، ألا ترى إلى قوله سبحانه . ﴿ من ذا
الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه به أضعافاً كثيرة . . (٦٤٥) ﴾ [البقرة]
فسمي الخير الذي تقدمه قرضاً ، مع أنه سبحانه واهب كل
النعم ، وذلك ليحزن قلوب العباد بعضهم على بعض ، لأنه تعالى
حالهم ، وهر سبحانه امتكّل برزقهم .

ثم يقول ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الْمَالِحِينَ (٦٩) ﴾ [الزل]
ونذكر الرحمة والفضل لأنهما وسيلة النجاة ، وبهما سهل الحنة ،
ويدوبهما لن ينجو أحد ، وأقرأ هو رسول الله ﷺ « لن يدخل أحد
مبكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله ﷺ » قال ولا أنا
إلا أن يتغمّني الله برحمته ،^(١)

ويقول سبحانه في هذا المعنى ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ
فَلْيَفْرَحُوا . . (٥٦) ﴾ [يونس] فالمؤمن الحق لا يفرح بعمله ، إنما يفرح
إن نال فضل الله ورحمته ، كأنه يقول لربه لن أتكلم يا رب على
عملي ، بل فضلك ورحمتك هما المتكلم ، لأنني لو قاربت العباد التي
كلفتني بها بما أسديت إلي من نعم وإلاء لقصرت عبادتي عن أداء
حقك عني فإن أكرمتني بالجنة فبفضلك .

والبعض يقولون كيف يعملنا ربنا بالفضل والريادة ، ويحرم
عليها التعامل بربنا ؟ ليست الحسنة عنده بعشرة أمثالها أو يزيد ؟
نقول نعم لكن الزيادة هنا منه سبحانه وتعالى وليست من مساو ،
إنها ريادة ربٍّ لمبيد

(١) حديث حسن عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٢) وكذا مسلم في صحيحه

(٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

وقوله ﴿فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل] دليل على تواضع سيدنا سليمان - عليه السلام - فمع مكانته ومزنته يطلب أن يُدخله الله في الصالحين ، وأن يجعله في زمرة منهم ، فلم يجعل نفسه مُمَيَّزَةً ولا صدارة ولا ادعى خيرية على غيره من عباد الله . مع ما أعطاه الله من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده

وأعطاه السوة وحمله المنهج ، فلم يُورثه شيء من هذا غروراً ولا تعالياً ، وما هو يطلب من ربه أن يكون ضمن عباده الصالحين ، كما تقور (زقنى مع الجماعة دول) ، حين تكون السيارة مثلاً كاملة العدد ، وليس لى مقعد أجلس عليه

من يقول هذا الكلام ؟ إنه سليمان بن داود - عليهما السلام - الذي آتاه الله ملكاً ، لا ينبغي لأحد من بعده ، ومع ذلك كان يؤثر عبيده وجنوده على نفسه ، وكان يأكل (الردة) من الدقيق ، ويترك البقي منه لرعيته

إذن لم ينتفع من هذا الملك بشيء ولم يصنع لنفسه شيئاً من مظاهر هذا الملك ، إنما صنع له ربه لأنه كان فى عون عباد الله فكان فى عون ربه رأيت حين تُعين أخاك تُعينه بقدرتك وإمكاناتك المحدودة ، أما معونة الله تعالى فتأتى على قدر قوته تعالى ، وقدرت وإمكاناته التى لا حدود لها . إنسان فانت الراح فى هذه الصفة

﴿وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَذَا هَذَا

أَمْ كَانُ مِنَ الْكَاسِبِينَ﴾

ماده فقد انقاء والفاف والدال ، وكل ما يُشتق منها تأتى بمعنى ضاع منه الشيء ، ومنه قوله تعالى فى قصة إحدوة يوسف ﴿قَالُوا

وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧٦﴾ [يوسف] ، فَإِنْ حَاضَتْ بِصِيفَةٍ (تَفْقَدُ)
بِالنَّصِيفِ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الشَّيْءَ مُوجُودٌ وَأَنَا أَبْحَثُ عَنْهُ فِي مِظَانِهِ .

فَمَعْنَى ﴿ تَفْقَدَ الطَّيْرُ . ﴾ (٢) [السر] أَنَّ الرَّئِيسَ أَوْ الْمُهَيْمِنَ عَلَى شَيْءٍ لَا يُدْرِكُهُ مِنْ مَتَابِعَتِهِ ، وَسَلِيمَانُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سَاعَةً حَلَسَ فِي مَجْلِسِ الْعِلْمِ أَوْ مَجْلِسِ الْقَضَاءِ نَظَرَ لِلْحَاضِرِينَ مِنْ مَمْلَكَتِهِ ، كَأَنَّهُ الْقَائِدُ يَسْتَعْرِضُ حُنُودَهُ ، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعَ ذَلِكَ هَذَا مُلْكُهُ وَمُسَخَّرٌ لَهُ وَمُنْقَادٌ لِأَمْرِهِ - إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَتْرَكْهُ هَمَلًا دُونَ مَتَابَعَةٍ .

لَكِنْ إِذَا تَفَقَّدَ الطَّيْرُ بِالذَّاتِ ٩ قَالُوا : لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَقُومَ بِرَحْلِهِ فِي الصَّحَرَاءِ ، وَالْهَدِيدُ هُوَ الْخَبِيرُ بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَجَاهِلَهَا . وَيَرَى حَتَّى الْمَاءَ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ ^(١) ، يَقُولُونَ : كَمَا يَرَى أَحَدُكُمْ الزَّيْتَ فِي وَعَائِهِ

لِذَاكَ نَرَى أَنَّ مِنْ مُمَيِّزَاتِ الْهَدِيدِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لَهُ مَنَقَرًا طَوِيلًا ، لِأَنَّهُ لَا يَأْكُلُ مِمَّا عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ ، إِنَّمَا يَنْقُشُ بِمَنَقَرِهِ لِيُخْرِجَ طَعَامَهُ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ

أَلَا تَرَاهُ حِينَ كُلَّمَا سَلِمَانُ فِي دِفَاقِ لِعَقِيدَةِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ يَقُولُ عَنْ أَهْلِ سَبَا ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ ^(٢) فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ . ﴾ (٣٥) [السر] فَاخْتَارَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِالذَّاتِ ، لِأَنَّهُ الْخَبِيرُ بِهَا وَدَرَقَهُ مِنْهَا

وَلَمَّا لَمْ يَجِدِ الْهَدِيدَ فِي الْحَاضِرِينَ قَالُوا ﴿ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى

(١) هَرَجَ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ رَأْسُ أَبِي حَادِمٍ عَنْ قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْآيَةِ قَالَ : ذَكَرَ إِذَا أَنَّ سَلِيمَانَ أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ مَقَادِرَ إِذَا مَا بِالْهَدِيدِ وَكَانَ سَيِّدُ الْهَدِيدِ لِيَعْلَمَ مَسَامَةَ الْمَاءِ وَكَانَ قَدْ أَعْلَى مِنَ الْبَصَرِ بِذَلِكَ شَيْئًا لَمْ يُعْطِهِ شَيْءٌ مِنَ الطَّيْرِ ، فَقَدْ ذَكَرَ لَنَا أَنَّهُ كَارٍ يَبْصُرُ الْمَاءَ فِي الْأَرْضِ كَمَا يَبْصُرُ أَحَدُكُمْ الْحَيَالَ مِنْ وَرَاءِ الرِّجَالِ ، أَوْ رَدَّ السَّيْطُ فِي الدَّرِّ الْمَشْهُورِ (٢٤٩/٦)

(٢) الْخَبَاءُ الشَّيْءُ الْمَحْبُوهُ وَالْخَبَاءُ كُلُّ مَا عَابَ ، وَكُلُّ شَيْءٍ غَائِبٍ مُسْتَوْرٍ [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ حَبَا]

الْهَدَّهْدُ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ [النمل] فساعة يستفهم الإنسان عن شيء يعلم حقيقته ، فإنه لا يقصد لاستفهام ، إنما هو يستبعد أن يخلف الهدهد عن مجلسه

لذلك قال ﴿ مَا لِي لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ .. ﴾ ﴿٢٠﴾ [النمل] يعنى ربما هو موجود ، لكنى لا أراه لعلّه عندى أنا ، فلما دقق النظر وتأكد من خلو مكانه بين الطيور ، قال ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ ﴿٢٠﴾ [النمل] إذن لا بد من معاقبته

﴿لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُنَاقِبُونَ﴾

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُنَاقِبُونَ ﴿٢١﴾

ومعاقبة المخالف أمر ضرورى ، لأن أى مخالفة لا تقابل بالجزاء المناسب لا بد أن تثمر مخالفات أخرى متعددة أعظم منها ، فحين نرى موظفاً مقصراً فى عمله لا يحاسبه أحد ، فسوف تكون مثله ، وتنتشر بيننا الفوضى والتكاسل واللامبالاة ، وتحدث الطامة حينما يُذاب المقصر ويرقى من لا يستحق

لذلك بوعد سليمان الهدهد ﴿لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُنَاقِبُونَ﴾ ﴿٢١﴾ [النمل]

وقد سلكم العلماء فى كيفية عذاب الهدهد ، فقالوا يعذب ريشه الجميل الذى يزهر به بين الطيور ، حتى يصير لحماً ثم يُسلط عليه النمل فيلدعه ، أو يجعله مع غير بنى جنسه ، فلا يجد بها إلهاً

(١) قال ابن عباس قوله ﴿لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ﴿٢١﴾ [النمل] يعنى تنف ريشه وعالاه الله بر شداد تنف ريشه وشميمه قال ابن كثير فى تفسيره (٣ ، ٢٦) « وكذا قال غير واحد من السلف ، إنه تنف ريشه وتركه ملقى يأكله الدار واسن »

ولا مشابهاً له في حركته ونظامه أو أن يكلفه بخدمة أقرانه من الهذاهد التي لم تخالف ، أو لجمعه مع أضداده ، وبعض الطيور إذا اجتمعت تنافرت وتشاجرت ، وتنف بعضها ريش بعض ، لأنهم أضداد ، لذلك قالوا أضيق من السجن عشرة الأضداد

والشاعر يقول

وَمَنْ نَكَرَ الدُّنْيَا عَلَى الْمَرْءِ أَدْرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ يُدُّ
ثم رقى الأمر من العذاب الشديد إلى الدبح وهذه المسألة آثار حولها المتمردون على منهج الله والذين يريدون أن يعدلوا على الله أحكامه ، آثارو إشكالات حول قوله تعالى في حد الزنا ﴿الرَّأْيُ وَالرَّأْيُ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مَهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (٢٤) [البقره] أم الرجم فلم يرد فيه شيء ، فمن أين أتيتم به ؟

نقول أتينا به أيضاً من كتاب الله ، حيث قال سبحانه في جلد الأمة إن زنت وهي غير محصنة ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ (٢٥) [النساء] فقالوا وكيف تنصف حد الرجم ؟ وهذا القول مبهم دليل على عدم فهمهم لأحكام الله

فالمعنى ﴿فَعَلَيْهِنَّ﴾ (٢٥) [النساء] أي على إماء الحوارى ﴿نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ (٢٥) [النساء] الحرئر ، ولم يسكت إمعاً خصص التنصيف هنا بالجلد ، فقال ﴿مِنْ الْعَذَابِ﴾ (٢٥) [النساء] متجلد الأمة خمسين جلدة ، وهذا التخصيص يدل على أن هناك عقوبة أخرى لا تنصف هي الرجم

(١) الشاعر هو أبو الطيب المسيب أحد بني العسب شاعر حكيم ، وأحد مفاخر الأنبياء العربي ، ولد بالكوفة (٢٢ هـ) ونشأ بالشام وتبع في مابية السامرة ، ثم تآب ورجع عن دعواه قتل ٣٥٤ هـ ، بان عرض له من قبل الأسدى [الأعلام للزركلى

وينتهى تهديد سيمان للهدد بقوله ﴿أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل] أى حجة واضحة تدبر غيابه ، فسفهم من الآية أن المرووس يجوز له أن يتصرف برأيه ، دون أن يأخذ الإذن من رئيسه إن رأى مصلحة للجماعة لا يستدعى التأخير .

وعلى الرئيس عندها أن يُقدّر لمرووسيه اجتهاده ، وبلتمس له عذراً ، فلعله عنده حجة أحمد عليها بل وأكافئه ، لأن وقت مراغه منى كان فى مصلحة عامة ، كما نقول فى العاسية (الغايب حجة معاه)

إذن المرووس إن رأى خيراً يخدم الفكر العام ، ووجد أن فرصته صيقة يسمح له بالتصرف دون إذن وفى الحرب العالمية الأولى تصرف أحد القادة الألمان تصرفاً يحالف القواعد الحربية ، لكنه كان سبباً فى النصر ، لذلك أعطوه وسام انصر ولم يسؤوا أن يُعاقبوه على مخالفة القواعد والقانون

ثم يقول الحق سبحانه

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِء

وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل]

معنى ﴿فمكث ..﴾ [النمل] أقام واستقر ﴿غير بعيد ..﴾ [النمل] مدة سيرة ، فلم يتأخر كثيراً ، لأنه يعلم أنه تحلف عن مجلس سليمان ، وذهب بدون إذنه ، لذلك تعجز العودة ، وما إن وصل إليه إلا ومادره ﴿فقال ..﴾ [النمل] بالفاء الدالة على التعقيب ، لأنه رأى سليمان عاضباً متحفظاً لمعاقبته

٥١٠٧٦٩

لذلك بادره قبل أن ينطق . وقبل أن ينهره ﴿أخطب بما لم تحط به..﴾ (٢٧) [المد] أى عرمت ما لم تعرف . هذا الكلام موجه إلى سليمان لذى ملك الدنيا كلها ، وسخر الله له كل شيء ، لذلك نزل سليمان من مقالة الهدد وتشوق إلى ما عنده من أخبار لا يعرفها هو

ثم يستمر الهدد ﴿وجئتك من سبأ نبأ بهن﴾ (٢٦) [المد] أولاً نقف عند جمال التعبير في سبأ ونسأ ، فبينهما جناس ناقص ، وهو من المحسنات البديعية في لغت ، ويعطى لمعبدة نفخة جمية تتوافق مع المعنى المراد ، والجناس أن تتفق الكلمتان في الحروف ، وتختلفا في المعنى ، كما في قول الشاعر

رَحَلْتُ عَنِ الدِّيَارِ لَكُمْ أَسِيرُ وَقَلْنِي فِي مُحِبَّتِكُمْ أَسِيرُ

وقول الآخر

لَمْ يَقْضَ مِنْ حَقِّكُمْ عَلَيَّ بَعْضُ الدِّيِ يَجِبُ
قَلْبٌ مَتَى مَا جِئْتِ دُكْرَاكُمْ يَجِبُ

ومن الجناس التام في القرآن الكريم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ (٥٥) [الروم]

فالتعبير القرآني ﴿وجئتك من سبأ نبأ بهن﴾ (٢٦) [المد] تعبير جميل لفظاً ، دقيق معنى ، ألا تراه لو قال (وجئتك من سبأ بحبر) لاحتل اللفظ والمعنى معاً ، لأن لحبر يُراد به مطلق الخبر ، أما النسا فلا تُقال إلا للخبر العجيب الهام الملفت للنظر ، كما في قوله تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٦) عن النبا العظيم (٢) [النبا]

والجناس لا يكون حملاً مؤثراً إلا إذا جاء طبيعياً غير مُتكلف

ومثال ذلك هذا الجناس الناقص في قوله تعالى ﴿وَمِنْ لَّكُلِّ فُتْمَةٍ﴾^(١) [الهمزة] فقد ورد اللفظ المناسب مُعْبَرًا عن المعنى المراد دون تَكَلُّف ، فالهُمَزَة هو الذي يعيب بالقول ، واللمزة الذي يعيب بالفعل ، والقرآن لا ينصِّد لفظًا ليُحدث جناسًا ، إنما يأتي الجناس فيه طبيعيًا يقتضيه المعنى

ومن ذلك في الحديث الشريف : الخيل معقود بنواصيها الخير^(٢) مبيِّن الحيل والخير جناس ناقص ، مُحَسَّنًا للفظ ، مؤدِّيًا للمعنى وقد يأتي المحسن البديعي مُضطربًا مُتَكَلِّفًا ، يتصيد صاحبه ، كقول أحدهم ينحت الكلام نحتًا فيأتي سجع ركنك في أثناء ما كما سِير برل امطر كافواه القرب ، فوق رجل كان يحمر العنب ومعنى ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ...﴾ [النمل] الإحاطة إدراك المعلوم من كل جوانبه ، ومنه البحر المحيط لاتساعه ، ويقول سبحانه ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء] ومنه الحائط يجعلونه حور البستار ليحميه ويُحدِّده ، ومنه احتاط للامر . ومحيط الدائرة الذي يحيط بالمركز من كل ناحية إحاطة مستوية بأنصاف الأقطار .

لكن يُعَدُّ قول الهدد لسليمان ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ...﴾ [النمل] مقصداً في سلمين عليه السلام ، لا ، إنما يُعَدُّ تكريراً له ، لأن

(١) الهمزة كثير الهمز والهمز والتعمر واعتياب الناس وعينهم [القاموس القويم ٢/ ٧٢]
وقيل الهمز والهمز معانها واحد وقيل الهمز في القفا والسر والهمز عيب في الوجه في العلاصة

(٢) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٤٩ ، ٢٨٥٠ ، ٢٨٥٢) من حديث ابن عمر وعروة بن الزهد وعروة البرفي . وكذا سلم في صحيحه (١٨٧٣) من حديث عروة البارقي ، ومحوه عن عروة بن الزهد

ربه - عز وجل - سحر له من يخدمه ، وفرق بين أن تفعل أنت الشيء وبين أن يفعل لك ، فحين يفعل لك ، فهذه زيادة سيادة ، وعلو مكانة

كما أن الله تعالى يُعَلِّمُ الْأَنْكَمَ مَوَاقِبَ التَّائِبِينَ ، وَأَنْ يُعْطَى لَهُمُ
الْفُرْصَةُ وَيُفْسَحَ لَهُمُ الْمَجَالُ لِيُخْرِجُوا مَوَاقِبَهُمْ ، وَأَنْ يَقُولَ كُلُّ مَنَّهُمْ
مَا عِنْدَهُ حَتَّى لَوْ لَمْ نَكُنْ نَعْرِفُهَا ، لِأَنَّهَا خِدْمَةٌ لِي

(١٠) ﴿لَيْسَ مِنَ الْكِرَامِ أَنْ يُحْضَرَ سَلِيمَانُ عَرْشَ مَلْقِيسَ وَهُوَ فِي مَكَانِهِ﴾
﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ...﴾
[النمل]

ونلاحظ أن الهدد لم يعرف سبأ ما هي ، وهذا دليل على أن
سليمان - عليه السلام - يعرف سبأ ، وما فيها من ملك ، إنما
لا يعرف أنه بهذه الفخامة وهذه العظمة

ثم يقول الحق سبحانه

﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمِيدُ عَنْهُمْ وَأَوْيْتُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
وَلَمَّا عَزَّشْتُ عَظِيمًا﴾ ﴿٣٣﴾

وقوله ﴿تَمْنِكُهُمْ﴾ .. (٢٣) [السل] يعنى تحكمهم امرأة ورايا
نساء كثيرات ناهيات حكمهن الدول فى وجود ارجال

ثم يذكر من صفاتها ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزلزال: ٢٣] ﴿ [الزلزال] إشارة إلى ما سبق أن قاله سليمان عليه السلام ﴿ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [١٦] ﴿ [الزلزال] معني كذلك أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بالنسبة لأقرانها . وإلا فسليمان أُوتِيَ مِنَ الْمَلِكِ وَمِنَ النَّبِيِّ مَا لَمْ تُؤْتَهُ مَلِكَةٌ سَبَا

﴿وَالِهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل] العرش مكان جلوس الملك . وكان العرش عادةً يتوافق مع عظمة الملك ، فمثلاً (شيخ الغفر) أو العمدة

أو المحافظ إلخ لكل منهم كرسىٌ يجلس عليه يناسب مكانته ، إنَّ العرش هو جُلُعة المتعكَّن الذى يتولى تدبير الأمور

ووصف العرش بأنه عظيم مع أن هذا اوصف لعرش الله تعالى ، فكيف ؟ قالوا عظيم بالنسبة لامثالها من العوالم ، أمَّا عرش الله فعظيم بالنسبة لكل الخلق عظمة مُطلقة

هكذا حدث الهدهد سليمانَ فيما يحصُّ ملكة سبأ من حيث الملك الذى تشبه فيه سليمان كملك ، ثم يُحدثه بعد ذلك عن مسألة تتعلق بالنبوة والإيمان بالله ، وهذه المسألة التى عار عليها سليمان ، وثار من أجلها

وَجَدْتُهُا وَفُؤَمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَرَبِّينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ
فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾

ذلك لانه لما طاف حول قصر بلقيس وجد فيه كُوة تدخل منها الشمس ، كما ترى فى معابد الفراعنة ، ففى أحد هذه المعابد طاقات بعدد أيام السنة ، بحيث تدخل الشمس فى كل يوم من واحدة بعينها لا تدخل من الأخرى وكذلك كان عند بلقيس مثل هذه الكُوة تدخل منها الشمس فتتنبه لها وتستقيسها

لذلك لما ذهب إليها بكتاب سليمان وقف على هذه الكُوة وسدّها بحاجه فلم تدخل اشمس فى موعدها كما اعتادت الملكة ، فقامت حتى وصلت إلى هذه الكُوة فرمى عندها الكتاب^(١)

(١) ذكر حمزه السيوطى فى ، الدر المنثور فى تفسير المأثور ، (٢٥٢/٦) عن قتادة وعراء لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن ابى حاتم

فلهدهد - إنن - مؤمن عارف بقضية العقيدة والإيمان بالله يعار عليها ويستنكر مخالفتها ﴿وَجَدُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ.. (٢٤)﴾ [النمر] فهو يعرف أن الله هو المعبود بحق ، بل ويعلم أيضاً قضية لشيطان بأنه سبب الانصراف عن عبادة الله ﴿وَرِئِىْ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤)﴾ [النمر] فالقضية عنده كاملة بكل تفاصيلها ، ولا تتعجب من مقالة الهدد واقرأ ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَنْسِجْ بِحِمْدِهِ وَلَكِنْ لَّا تَفْقَهُونَ تَسْجِعَهُمْ .. (٢٤)﴾ [الإسراء]

إنها موعظة بليغة من واعظ متمكن يهيم عن الله ، ويعلم منهجه ويدعو إليه ، بل ويعز عليه ويحذر في نفسه أن ينصرف العباد عن الله المنعم

﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٢٥)

﴿ألا .. (٢٥)﴾ [النمر] مكوّنة من أن ، لا ، وعند إدغامهما ثقلب النون لآما فتصير الأ ، فامعنى وزين بهم الشيطان أعمالهم ، لماذا ؟ لأ يسجدوا ، فيها حرف جر محذوف كما تقول مجعت من أن مقدم عليها فلا ، أو عجبت أن يقدم علينا فلا
وفي قراءة أخرى^(١) (ألا) للحث والحض^(٢)

(١) من مرءاء الرهرى والكسائى وعيرهما بمعنى الا ي هؤلاء اسجدوا [سكه القرطبي في تفسيره ٦٨/٧ هـ] قال الكسائى ما كنت اسمع الاشياح يقرءونها إلا بالمعطف على يه الامر
(٢) قال الرمضشرى سبأ قلت اسجدة اتلاوة واجبة فى القراءتين جميعاً أم من إحداهما ؟ قلت من واجبة مبهما جميعاً لأن مواضع المسجدة إما أمر بها أو مدح لمن أتى بها ، أو دم من تركها ، وإحدى القراءتين أمر بالمسجود ، والأخرى دم للتارك [مكره القرطبي في تفسيره ٥٠٦٩/٧ هـ]

وقلنا إنه اختار هذه الصفة بالذات ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (١٥) [النمل] لأنه حبير في هذه المسألة ، حيث يرى الماء في باطن الأرض ، كما يرى أحدكم الزيت في إنائه

ولم يراد بالخُبء في السموات المطر ، والخُبء في الأرض النبات ، ومنهما تأتي مقومات الحياة ، فمن ماء المطر وخصوبة الأرض يأتى النبات ، وعلى النبات يتغذى الحيوان ، ويتغذى الإنسان

بل إن الحق سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٢٥) [النمل] ، كما قال في آية أخرى ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم] ، وفي آية أخرى يقول سبحانه ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبَدُّوهُ بِعُتْمَةِ اللَّهِ﴾ (٢٩) [آل عمران]

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٦)

لما تكلم عن عرش بلقيس قال ﴿وَبِهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢) [النمل] يعنى بالنسبة لامثالها من الملوك ولأهل زمانها فإذا عُرِفَ ﴿الْعَرْشُ الْعَظِيمُ﴾ (٢٦) [النمل] فإنه لا يصصرف إلا لى عرشه تعالى ، فله العظمة المطلقة عند كل الخلق

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٧)

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ﴾ (٢٧) [النمل] والنظر محله العين ، لكن هل يُعرف الصدق والكذب بالعين ؟ لا ، فالكلمة انتقلت من النظر بالعين إلى العلم بالحجة ، فهي بمعنى تعلم ، ونقول هذا الأمر فيه نظر يعنى يحتاج إلى دراسة وتمحيص

وفى الآية مظهر من مظهر أب سيمان - عليه السلام - وتلطفه مع رعيته^(١)، فهو السيد المطاع، ومع ذلك يقول للهدد ﴿أَصْدَقْتُ أَمْ كُنْتُ مِنَ الْكَادِبِينَ﴾ [النمل] والصدق يقاله الكذب، لكن سليمان - عليه السلام - يأبى عليه أدب النبوة أن يتهم أحد جنوده بالكذب فقال ﴿أَمْ كُنْتُ مِنَ الْكَادِبِينَ﴾ [النمل]

يعنى حتى لو وقع منك الكذب لمست قدًا فيه، فكثير من الحلق يكذبون، أو من الكادبين مَيلاً لهم وقرباً منهم، مما يدل على أنه بالهاماته كنى يعرف أنه صادق، إما ما دام الأمر محل نظر فلا بد أن نتأكد، وإن أجامل حندياً من جنودى

﴿أَذْهَبَ يَكْتَبِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ
فَأَنْظَرَ مَا دَايِرَجَعُونَ﴾^(٢)

هذا هو النظر الذى ارتأه سليمان يتأكد من صدق الهدد أن يرسله بكتاب منه إلى هؤلاء القوم وهذا مظهر من مظاهر الإيجار الطبع فى القرآن الكريم، فبعد أن قال سليمان ﴿سَنْظُرُ ..﴾ [النمل] قال ﴿أَذْهَبَ يَكْتَبِي هَذَا ..﴾ [النمل]

فهل كان الكتاب معداً وجاهزاً؟ لا، إنما التقدير قال ستنظر

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٥٠٧٦، ٧) : فى قوله ﴿أَصْدَقْتُ أَمْ كُنْتُ مِنَ الْكَادِبِينَ﴾ [النمل] دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدبر الحقوبه عنهم من ظاهر أحوالهم بغير اعتبارهم، لأن سليمان لم يعاقب الهدد حين احتذر إليه، وإنما صار صدق الهدد عذراً لأنه أحير بما يقتضى الجهاد.

(٢) قال وهب (بن مذب) وابن زيد : كانت لها كرة مستقبلة مطلع الشمس فربما طلعت سجدت تسبها الهدد بجناحه، فارتفعت الشمس ولم نعلم فلما استطلعت الشمس قامت نظر فرمى الصحيفة إليها، فلما رأت الغمام ارتعدت وحضمت لأن ملك سليمان عليه السلام كان فى حاتم، فقرأت فجمعت الملأ من قومها فحاطبتهم بما يأتى بعد ذكره القرطبي فى تفسيره (٧٢/٧)

أصدمت أم كنت من الكاذبين ، فكتب إليها كتاباً فيه كذ ، وكذ ثم قال للهدمد ﴿ اذهب بكتابي هذا ﴾ [٢٨] [السل] وقد حُذِفَ هذا للعلم به من سياق القصة .

وقوله ﴿ ثم تولى عنهم .. ﴾ [٢٨] [السل] يعنى ابتعد قليلاً ، وحاول أن تعرف ﴿ ماداً يرجعوك ﴾ [٢٩] [السل] يعنى يراجع بعضهم بعضاً ، و تناقشون فيما فى الكتاب ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعا ﴾ [٨٩] [طه]

والسياق يقتضى أن نقول فذهب الهدمد بالكتاب ، وألقاه عند ملقيس مقرأته واستشارت فيه أتباعها وخاصتها ، ثم قالت

﴿ قَالَتِ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴾ [٢٩]

ملحظ هنا سرعة جواب الامر ﴿ اذهب ﴾ [٢٨] [السل] فبعده مباشرة قالت ملكة سبا ﴿ قَالَتِ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴾ [٢٩] [السل] وهذا يدل على أن أوامر سليمان كانت محوطة بالتنفيذ العاجل ، لذلك حذف السياق كل التفاصيل بين الامر ﴿ اذهب .. ﴾ [٢٨] [السل] والجواب ﴿ قالت .. ﴾ [٢٩] [السل] هكذا على وجه السرعة

ومعنى ﴿ الْمَلَأُ ﴾ [٢٩] [السل] هم أعيان القوم وأشرافهم والمستشارون والخاصة ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴾ [٢٩] [السل] فوصفت الكتاب بأنه كريم ، إما لأنها سمعت عن سليمان - عب

(٢) رة ورد فى معنى كريم هنا اقوال واثار ، سها

حصى ما فيه قال قتادة فيما أخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم

محموم قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن مردويه [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦ ، ٢٥٣]

السلام - وعظمة ملكه ، أو لأن الكتاب سُطر على ورق راق وبخط جميل ، وبعد ذلك هو ممهور بخاتمه الرسمي ، مما يدل على أنه كذاب هام ينبغي دراسته وأخذ الرأي فيه

﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾

إذن فهي تعرف سليمان ، وتعرف نُبوته وصفاته وأنه يكاتبهم باسم الله ويصدر في دعوتهم عن أوامر الله ، وكان مجمل الكتاب بعد بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَأَنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿٦﴾

إنها برفقه موجرة في أسف ما يكون الإيجاز ﴿ أَلَا تَعْلَمُوا عَلَىٰ .. ﴾ ﴿٦﴾ [المد] العلو هنا بمعنى العطرسة والزهو الذي عبده الملوك خاصة ، وهي مثله ، ملكة لها عرش عظيم ، وأوتيت من كل شيء وكونه يخاطبها بهذه اللهجة المختصرة البعيدة عن النقش والجدال ، هذا أمر يحتاج منها إلى نظر وإلى أنفة لذلك بعد أن أخبرت مستشاريها بأمر الكتاب ، وما ورد فيه طلبت منهم الرأي والمشورة

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِ فِي أَمْرِ مَّا كُنْتُ ﴾

قَاطِعَةً أَمْرًا حَقًّا تَشْهَدُونَ ﴿٣٢﴾

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥٠٧٤/٧) ، وحفته بأنه كريم ، لما تضمن من ليل القلوب بالدعوة إلى الدعاء إلى عبادة الله عز وجل وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن ينضم سباً ولا لعناً ولا ما يغير القنوس ، ومن غير كلام بازل ولا مستفحق على هذه الرس من الدعاء إلى الله عز وجل ،

سبق أن تكلمنا في معنى الفتوى ، وأنها من الفتوة أى القوة ،
وهى مثل عنى فلان أى صار عنياً بداته ، وأعذه غيره أمده
بالغنى ، كذلك أفتاه يعنى ، أعطاه قوة فى الحكم والحجة .

وقلت ﴿ فى أمرى .. ﴾ [النمل] مع أن الأمر خاص بالدولة
كلها ، لا بها وحدها ؛ لأنها رمز لدولة وللملك ، وإن تعرض لها
سليمان فسوف يحدث مئكتها أولاً ، ويُنال من هيبتها عبر رعيبتها .

﴿ ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون ﴾ [النمل] يعنى لا أثبت فى
أمر إلا فى حضوركم ، وبعد استشارتكم وهذا يدل على أنها كانت
تأخذ بمبدأ الشورى رغم ما كان لها من الملك والسيطرة والهيمنة

فرد عليها الملأ من قومها

﴿ قَالُوا لِمَنْ أُولُو الْقُوَّةِ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل]

يعنى نحن أصحاب قوة فى أجسامنا ، وأصحاب شجاعة وبأس
أى جيوش فيها عدد وعدة ﴿ والأمر إليك .. ﴾ [النمل] أى إن
رأيت الحرب ، فنحن على أهبة الاستعداد ، فهم يعرضون عليها رأيهم
دون أن يلزموها به ، فهو رأى سياسى لا رأى حربى ، فهى صاحبة
قرار الحرب إن أرادت ﴿ فانظري ماذا تأمرين ﴾ [النمل] يعنى نحن
على استعداد للسلم والحرب ، وننتظر أمرك

(١) قال قتادة ذكر بنا أنه كان أبو مشورتها ثلاثمائة وأثنى عشر رجلاً ، كل رجل منهم
على عشرة آلاف من الرجال خرج به عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأورد
السيوطى فى الدر المنثور (٢٥٧/٦) والقرطبي فى تفسيره (٥٠٧٧/٧)

قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا
أَعْمَارَ أَهْلِهَا آذَةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾

فالرأى للصواب أن هذه العبارة من الحق^(٦) - سبحانه وتعالى -
ليُصدق على كلامها ، وإنما أصابت في رأيها كذلك يفعل أهلوت إذا

(٢) قاله ابن عباس ، قال هو من قول الله عز وجل معروفاً بمحمد ﷺ وأمه بذلك ومحبها
 به نقله القرطبي من تفسيره (٧/٧٨-٥٠) وذكره سعد السيوطي في « الدر المنثور » .
 (٣٥٦/٦) وعروة لابن أبي حاتم

دخلوا قرية ، مما يدل على أن الحق سبحانه رب الخلق أجمعين ، إذا
سمع من عبد من عبده كلمة حق يؤيده فيها ، لا يتعصب ضده ،
ولا يهضمه حقه

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ
يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

بعد أن ترك لها المستشارون الأمر ولتدبير أخذتُ تعمل عقلها ،
وتستخدم فطنتها وخبرتها بحياة الملوك ، فقالت ، نَ كَانَ سَيِّمَانُ
مَلِكًا فَسَوْفَ يَطْمَعُ فِي خَيْرِنَا ، وَإِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَنْ يَهْتَمَ بِشَيْءٍ مِنْهُ ،
هَقَرْتُ أَنْ تُرْسَلَ لَهُ هَدِيَّةٌ تَنَاسَبُ مَكَانَتَهُ كَمَلِكٍ وَمَكَانَتُهَا هِيَ أَيْضًا ،
لَتَثْبُتَ لَهُ أَنَّهَا عَلَى جَانِبٍ كَبِيرٍ مِنَ الثَّرَاءِ وَالْغِنَى

ولا بد أنها كانت تمينة لتستعين الملك ، أو كما نقول (تلوحه أو
تلويه)

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الملأ]
فَإِنْ كَانَ مَلِكًا قَبْلُهَا ، وَعَرَفْنَا أَنَّ عِلَاجَهُ فِي بَعْضِ الْحَرَاحِ وَالْأَمْوَالِ
تُسَاقُ إِلَيْهِ كُلَّ عَامٍ ، وَإِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَنْ يَقْبَلَ مِنْهَا شَيْئًا . وَهَذَا رَأْيُ
جَمِيلٍ مِنْ بَلْقِيسَ يَدُلُّ عَلَى فِطْنَتِهَا وَذِكَايَتِهَا وَحَصَافَتِهَا ، حَيْثُ جَنَّبَتْ
قَوْمَهَا وَبِلَاتَ الْحَرْبِ وَالْمَوَاجَهَةَ

(١) قال القرطبي في تفسيره (٨٦ / ٥) : كَانَ الْمَلِكُ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَيُثَبِّتُ عَلَيْهَا
وَلَا يَقْبَلُ الْمَصْنُوعَةَ ، وَكَذَلِكَ كَانَ سَيِّمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسَائِرُ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ
أَجْمَعِينَ . وَإِنَّمَا جَعَلَتْ بَلْقِيسَ قَبُولَ الْهَدِيَّةِ أَوْ رَدَّهَا عَلَامَةً عَلَى مَا فِي نَفْسِهَا ، عَلَى
مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَوْنِ سَيِّمَانٍ مَلِكًا أَوْ نَبِيًّا ، لِأَنَّهُ قَالَ لَهَا فِي كِتَابِهِ ﴿الْأَتَقُولُ عَلَيْ رَأْيِي
مُسَمَّنٌ ﴿٣٥﴾﴾ [الملأ] وَهَذَا لَا يَقْبَلُ لَهُ هَدِيَّةٌ ، وَلَا يَرْجِعُ عَنْ هَدِيَّةٍ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أَسْمِدُونَنِي بِمَالِ فِصَاءٍ أَتَيْنِي اللَّهُ
خَيْرٌ مِمَّا آتَيْتُكُمْ بَلْ أَسْرَجْتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (٣٦)

أى فلما جاء رسول بلقيس إلى سليمان بالهدية ﴿ قَالَ أَسْمِدُونَنِي بِمَالِ فِصَاءٍ أَتَيْنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَيْتُكُمْ .. ﴾ (٣٦) [النمل] فأى هدية هذه ، وأنا أملك ملكاً لا يتبغى لأحد من بعدى ^(١) ؟ ﴿ بَلْ .. ﴾ (٣٦) [النمل] يعنى اصرب عن الكلام السابق ﴿ أَنتُمْ بِهِدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (٣٦) [النمل] أصاف الهدية إليهم ، لا إليه هو ، والإضافة تاتى إما بمعنى اللام مثل قلم زيد يعنى يزيد ، أو بمعنى من مثل إردب قمح يعنى من قمح ، أو بمعنى فى مثل مكر الليل يعنى فى الليل مقوله ﴿ بِهِدْيَتِكُمْ .. ﴾ (٣٦) [النمل] إما أن يكون المراد هدية لكم أى صافتكم تفرحون إن جاءتكم هدية من أحد ، أو لأننى سردها إليكم تفرحوا بردها كمن يقول (بركة يا جامع) أو هدية منكم أى أنكم تفرحون إن أهديت لى هدية فقلتها منكم . فهذه معان ثلاثة لقوله ﴿ بَلْ أَنتُمْ بِهِدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (٣٦) [النمل]

﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّبَنَّهُمْ بِمِثْلِ الَّذِي كَانُوا لَكُمْ بِأَوَّلِ الْحَرْجِ لَكُمُ فِيهِمْ
مِّنْهَا أُدْلَةٌ وَهُمْ يَخِشُّونَ ﴾ (٣٧)

تذكر أن الملكة قالت ﴿ فَنَظَرْتُ بِمِثْلِ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٣٥) [النمل] وكأنه يستشعر نص ما قلت ، وينطو عن إشراقات النبوة فيه ،

(١) أى بعد أمضى من الإسلام والملك والنبوة خير مما أعطاكم صلا أفرح بالمال (قاله القرطبي فى تفسيره ٥٠٨٤/٧)

فيقول ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَهُمْ بِخُودٍ لِأَقْبَلْ لَهُمْ بِهَا﴾ (٣٧) [النمل]

وهكذا دخلت المسالة في طور العراجة ، لأن كلاما كلام النبوة
أتى لا تقبل المساومة لا كلام الملك الذي يسعى لحطام الدنيا .

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٣٧) [النمل] وكأنه يكشف
لهم عن قول ملكتهم ﴿إِنَّ الْمَلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ
أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ (٣١) [النمل] وهذه أيضاً من إشارات النبوة

ومعنى ﴿لَأَقْبَلْ لَهُمْ بِهَا﴾ .. (٣٧) [النمل] تقول لا قبل لي بكذا
يعنى لا أستطيع مقابله ، وأنا أضعف من أن أقابله ، أو لا طاقة لي
به ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً﴾ .. (٣٧) [النمل] لأنه سيسلب ملكهم ، فيبعد
أن كانوا ملوكاً صاروا عبيداً ثم يزيد في حدته عليهم ﴿وَهُمْ
صَاغِرُونَ﴾ (٣٧) [النمل] لأنهم قد يقبلون حالة العبودية وعيشة الرعية ،
فزاد ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٣٧) [النمل] لأن الصغار لا يكون إلا بالقتل
والأسر

ثم يقول الحق سبحانه

﴿قَالَ يَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا

قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٣٨)

الملا أشراف القوم وسادتهم وأصحاب الراى فيهم ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي
بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٣٨) [النمل] هنا أيضاً مظهر من
إشارات النبوة عند سليمان ، فهو يعلم ما سيحدث عندهم حينما
تعود إليهم هديسهم ، وأبهم سيسارعون إلى الإسلام ، فرد الهدية
يعنى أننا أصحاب كلمة ورسالة ومبدأ ندفع عنه لا أصحاب مصلحة

ولما علم أنهم سيأتون مسلمين طلب من جنوده أن يأتوه
بعرشها ، وحدد زمن الإتيان بهذا العرش ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتَوْسِ
مُسْلِمِينَ﴾ (٣٨) ﴿[المل]

إذن لا بُدَّ من الذهاب إلى مملكة سبأ وفق العرش ، ورحلته إلى
مملكة سيمان ، ثم إعادة تركيبه عنده ، وهذه مهمة بالطبع فوق قدرة
النشر ، بذلك لم يتكلم منهم أحد حتى الحى لعادى سم يعرض على
سليمان استعداد له للقيام بهذه المهمة

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ^(١)
وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ^(٢)﴾

والجن في القدرة والمهارة مثل الإنس ، منهم القوى لمهر ،
ومتهم العيى الذى لا يجيد شيئاً . يقول (لسخة) وكسمة عفریت من
تعفير التراب ، وكانوا حينما يتسابقون فى العدو بالخيل أو غيرها ،
فمن يسبق منهم يُثير الغبار فى وجه الآخر فيمطّله عن السبق .
فقالوا عفریت يعنى عفر من وراءه أو المعنى أنه يُعقر وجه من
عارضه بالتراب مسعى عفریتاً

إذن فالعفریت هو الخبيث الماكر من الجن ، وصاحب القوة
الخارقة فيهم . وهو الذى تعرّض لهذه المهمة وقال ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ
أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ..﴾ (٣٩) ﴿[المل]

وهذا كلام مُجمل ؛ لأن مقام سليمان بين رعيته للحكم أو

(١) العفریت هو الدافع فى الأمر المتعلق فيه مع خيّن ودعاه [تفسير العرب - مادة عفر]

(٢) قال السدى وغيره كان سليمان يجلس للقصة والحكمة والطعام من أول النهار إلى أن

مروى الشمس [تفسير ابن كثير ٢/٢٦٢]

للمدارسة سوف يستغرق وقتاً . ساعة أو ساعتين مثلاً ، وقد تعهد العفريت أن يأتي بالعرش في هذا الوقت معني أن يؤخره إلى جلسة أخرى

وقوله ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَرِيٌّ أَمِينٌ﴾ (٢٩) [المد] يدل على أن هذا العفريت يعلم فخمة هذا العرش وضخامته وأنه شيء نفيس يستحق الاعتناء به ، خاصة في عملية نقله لذلك قال من ناحية كبره وضخامته « فاد عليه قوى » قادر على حمله ، ومن ناحية نفاسته ومخامته ، فإنا عليه أمين لن أبدد منه شيئاً
ثم تكلم آخر لم يحثده القرآن إلا بالوصف^(١) .

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٤)

الطوبى الجفن الأعلى للمعين .

تكلم العلماء في هذه الآية أولاً قالوا ﴿الكتاب ..﴾ (٤) [المد] يراد به اللوح المسفوظ ، يعلم الله تعالى بعض خلقه أسراراً من اللوح

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥٠٨٧/٧) « أكثر المفسرين على أن الذي عنده علم من الكتاب أصف بن برخيا وهو من بني إسرائيل ، وكان صديقاً لبطش اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي به أجاب » وانظر (تفسير ابن كثير ٣ / ٣٦٤) . (والدر المستور لتفسير طي ٦ / ٣٦)

المحفوظ ، أما الذي عنده علم من الكتاب فقالوا^(١) هو آصف بن برخيا . وكان رجلاً صالحاً أطلعه الله على أسرار الكون

وقال آخرون^(٢) بل هو سليمان عليه السلام . لما قال له العفريت ﴿أنا أتيتك به قبل أن تقوم من مقامك ..﴾ [النمل] قال هو ﴿أنا أتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك ..﴾ [النمل] لأنه لو كان شخصاً آخر لكان له تفوق على سليمان في معرفة الكتاب

لكن ردوا عليهم بأن من عظمة سليمان أن يعلم أحد رهيته هذا العلم . فمن عنده علم من الكتاب بحيث يأتي بالعرش قبل طرفة عين هو حادم في مملكة سليمان ومُسحر له ، كما أن المزايا لا تقتضي الأفضلية ، وليس شرطاً في الملك أن يعرف كل شيء ، وإلا لقلّت ملوك . تحال أصلح لنا دورة المياه

أما نحن فنميل إلى أنه سليمان عليه السلام

وفرق كبير في القدرات بين من يأتي بالعرش قبل أن يقوم السمك من مجلسه ، وبين من يأتي به في طرفة عين ونقل العرش من مملكة بلقيس إلى مملكة سليمان يحتاج إلى وقت وإلى قوة

والزمن متناسب مع القوة تناسباً عكسياً فكلما زادت القوة قلّ الزمن ، فمثلاً حين تكأف الطفل الصغير بنقل شيء من مكانه إلى مكان ما ، فإنه يذهب إليه بنطء ويحمله ببُعد حتى يضعه في مكانه ، أما الرجل فيبديه وفي سرعة ينقله ، وهذه الممالة ملاحظتها في وسائل

(١) قاله ابن عباس ، ويريد بن رومان وثلاثة . انظر تفسير ابن كثير (٢١٤/٢) وقاله الحسن أيضاً (البر المنثور ١/ ٣٦)

(٢) قال ابن عطية : ثلاثة فرقة هو سليمان عليه السلام شقته القرطبي في تفسيره (٨٧/٧) ولكنه قال قبله : لا يصح في سياق الكلام مثل هذا التأويل .

المواصلات ، ففرق بين السفر بالسيارة ، والسفر بالطائرة ، والسفر بالصاروخ مثلاً

وهذه تكلمنا عنها في قصة « الإسراء والمعراج » فقد أسرى برسول الله ﷺ بهذه السرعة ، لأن الله تعالى أسرى به ، ونقله من مكان إلى مكان ، لذلك جاءت الرحلة في سرعة فوق تصور البشر

وما دام الرمن يتناسب مع القوة ، فلا تناسب الحدث إلى رسول الله ، إنما إلى الله ، إلى قوة القوى التي لا تحتاج إلى زمن أصلاً ، فبن قلنا فلماذا استغرقت الرحلة ليلة وأخذت وقتاً ؟ نقول لأنه ﷺ مر بأشياء . ورأى أشياء ، وقال ، وسأل ، وسمع ، فهو الذي شغل هذا الوقت ، أما الإسراء نفسه فلا رمن له .

لذلك قبل أن يهربا الحق - ببارك وتعالى - بهذه الحادثة العجيبة قال - ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَمْرٌ بِعَبْدِهِ . (١) ﴾ [الإسراء] أي برَّهه عن مشابهة غيره ، كذلك مسألة نقل العرش في طرفة عين لا بد أن من فعلها فعلها بعون من الله وبعم أطلعه الله عليه ، فنقله بكن التي لا تحتاج وقتاً ولا قوة ، وما دام الأمر بإرادة الله وقوته وإلهامه فلا نقول إلا آمين .

وهي قوله للجن ﴿ أَنَا أَنِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤) ﴾ [النمل] تحذراً لعفريت الجن ، حتى لا يظن أنه أقوى من الإنسان ، فإن أراد الله محنتي من القوة ما أتفوق عليك به . بل وأسخر بها لخدمتي

ومن ذلك قوله سبحانه عن تسخير الجن ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجَفَائِلٍ كَأَنجَرٍ ۚ وَفُودٍ وَأَسْبَاتٍ .. (١٣) ﴾ [سبا]

(١) الجهار جمع جنة ، وهي القصعة الكثيرة جداً والجواب جمع جابية وهي العرش الذي يجي فيه الماء وقال ابن عباس أي كالجوبة من الأرض وقال العوفي عنه كالحياض وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والصمك وغيرهم [تفسير ابن كثير ٥٢٨/٢]

وَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ جُهَلَاءٌ ظَلُّوا يَعْمَلُونَ لِسُلَيْمَانَ وَهُوَ مَيْتٌ وَمُتَكِبٌ عَلَى عِصْيَاءِ أَمَامِهِمْ ، وَهُمْ مَرْعُوبُونَ خَائِفُونَ مِنْهُ .

والتَّحْدِي قد يَكُور بالْعُلُو ، وقد يَكُون بِالْدُّنُو ، كَمَا الَّذِي قَالَ لِصَاحِبِهِ أَنَا دَارِسٌ دَارِسٌ دَرِاسَةٌ دَقِيقَةٌ ، وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أَرْكَبَ مَعَكَ السَّيَّارَةَ وَأَقُولَ لَكَ أَيْنَ نَحْنُ مِنْهَا ، وَأَمَامَ أَيِّ مَحَلٍّ ، وَأَنَا مُقْمَضُ الْحَبِيبِينَ . فَسَقَالَ الْآخَرُ وَأَنَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخْبِرَكَ بِذَلِكَ بِدُونِ أَنْ أُغْمِضَ عَيْنِي .

وَقَوْلُهُ ﴿ ظَلَمًا رَأَى .. ﴾ [النمل] أَيْ الْعَرْشُ ﴿ مُسْتَقَرًّا عُدَّةً قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي .. ﴾ [النمل] إِمَّا لِأَنَّهُ أَقْدَرَهُ عَلَى الْإِتْيَانِ بِهِ بِنَفْسِهِ ، أَوْ سَخَّرَ لَهُ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمَ مِنَ الْكِتَابِ ، فَأَتَاهُ بِهِ ، فَهَذِهِ أَوْ ذَاكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ .

﴿ لِيَهْلُوكُنِي .. ﴾ [النمل] يَخْتَرُونِي ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ .. ﴾ [النمل] يَعْنِي أَشْكُرُ اللَّهَ فَأَوْفَّقُ فِي هَذَا الْاِخْتِبَارِ ، أَمْ أَكْفُرُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ فَأَخْفِقُ فِيهِ ، لِأَنَّ الْاِخْتِبَارَ إِنَّمَا يَكُونُ بِنَتِيجَتِهِ

وَالشُّكْرُ بَأَنٍ يَنْسَبُ النِّعْمَةُ إِلَى الْمُنْعَمِ وَالْأُ يَبْهِيهِ جَمَالَ النِّعْمَةِ مِنْ جَلَالِ وَاهِبِهَا وَمُسْدِيهَا ، فَيَقُولُ مِثْلًا إِنَّمَا أَوْتَيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي

وَقَوْلُهُ ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ .. ﴾ [النمل] أَيْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَرِيدُهُ شُكْرًا شَيْئًا ، فَلَهُ - سَجْدَانَهُ وَتَعَالَى - صِفَاتُ الْكَمَالِ الْمَطْلُوقِ قَبْلَ أَنْ يَشْكُرَهُ أَحَدٌ ، فَعَنْ يَشْكُرُ فَلِإِنَّمَا يَعُودُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ شَرُّهُ شُكْرُهُ

﴿ وَمَنْ كَفَرَ .. ﴾ [النمل] يَعْنِي جَعَدَ لِنِعْمَةٍ وَلَمْ يَشْكُرِ الْمُنْعَمَ ﴿ فَإِنَّا نَرَى غِيًّا .. ﴾ [النمل] أَيْ عَنْ شُكْرِهِ ﴿ كَرِيمٌ ﴾ [النمل]

أى يعطى عبده رعم ما كان منه من جحود وكفر بالنعمة ، لأن نعمه تعالى كثيرة لا تُعد ، وهذا من حكمة تعالى ورأفته بحقه .

لذلك لما تناول قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۚ ﴾ [إبراهيم] وقد تكررت هذه العبارة ينصها في آيتين من كتاب الله ، مما جعل البعض يرى فيها تكراراً لا فائدة منه ، لكن لو نظرنا إلى عجز كل منهما لوجدناه مختلفاً

فالأولى تُختتم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم] والآخرى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحل]

إذن فهما متكاملتان لكل منهما معناها الخاص ، فالأولى تبين ظلم الإنسان حين يكفر بنعمة الله عليه ويجحدها ، ونضيف الأخرى أن الله تعالى مع ذلك غفور لعبده رحيم به

كما نلاحظ في الآية : ﴿ وَإِنْ تَعْدُوا ۖ ۖ ﴾ [إبراهيم] استخدم (إن) الدالة على الشك ، لأن أحداً لا يجروء على عد نعم الله فيكون ، فهي فوق الحصر ، لذلك لم يُقدم على هذه المسألة أحد ، مع أنهم بوسائلهم الحديثه أحصوا كل شيء إلا نعم الله لم يصد لإحصائها أحد من معهد أو جامعة ممن تخصصت في الإحصاء .

وهذا دليل على أنها مقطوع بالعجز عنها ، كما لم يجد مثلاً من تصدى لإحصاء عدد لرمس في الصحراء . كما نقف عند قوله سبحانه : ﴿ نِعْمَتُ اللَّهِ ۖ ۖ ﴾ [إبراهيم] ولم يقل نعم الله فالعجز عن الإحصاء أمام نعمة واحدة ، لأن تحتها نعم كثيرة لو تتبعناها لوجدتها فوق الحصر

ثم لما جاءه بلقيس أراد أن يُجرى لها اختبار عقل واختبار إيمان

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ
مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٤١)

قوله ﴿ نَكِّرُوا ﴾ (٤١) [النمل] ضده عَرَّفُوا ، لأنه جاء بالعرش على هيئته كما كان عندها في سبأ ، ولو رآته على حاله لأولي لقات هو هو ، ولم يظهر له ذكاؤها ، لذلك قال ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا .. ﴾ (٤١) [النمل] يعني غَيَّرُوا بعض معالمه ، ومنه شخص متنكر حين يُغَيِّر ملامحه وزِيَّه حتى لا يعرفه مَنْ حوله .
﴿ نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٤١) [النمل] تهتدي إيماناً إلى الإسلام ، أو تهتدي عقلياً إلى الحواب في مسألة العرش

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ
وَأُوتِنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ (٤٢)

جاء السؤال بهذه الصيغة ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكَ .. ﴾ (٤٢) [النمل] لِيُعْمَى عليها أمر العرش ، وليختبر دقة ملاحظتها ، فلو قال لها أهذا عرشك ؟ لكان إيماءً لها بالجواب إنما ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكَ .. ﴾ (٤٢) [النمل] كأنه يقول - ليس هذا عرشك ، فلما نظرت إليه إحمالاً عرفت أنه عرشها ، فلما رأت ما فيه من تغيير وتفنير ظننت أنه غيره ، لذلك اختارت جواباً دبلوماسياً يحتمل هذه وهذه ، فقالت ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ .. ﴾ (٤٢)

(١) قال ابن عباس : دُرْعٌ منه قصوصه ومرافقه . وقال مجاهد : أمر به فقير ما كس منه أحمر جعل أصفر ، وما كان أصفر جعل أحمر ، وما كان أحمر جعل أحمر غير كل شيء في حاله . وقال عكرمة : زادوا فيه ونقصوا . وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا . [تفسير ابن كثير ٣/ ٢٦٤]

[انظر] وعندها فهم سليمان أنها على قدر كبير من الذكاء والعظمت
وحصافة الرأي .

وكذلك كلام السَّاسِ والدبلوماسيين تجده كلاماً يصلح لكل
الاحتمالات ولأى واقع بعده . فإذا جاء الأمر على خلاف ما قال لك
يسبقك بالقول ألم أقل لك كذا وكذا .

ومن ذلك ما قاله معاوية من أبى سفيان للأحنف بن قيس^(١)
يا أحنف لماذا لا تسب علياً على المنبر كما يسب الناس ؟ فقال
الأحنف . اعفنى يا أمير المؤمنين . فقال معاوية عزمت عليك إلا
فعلت . فقال أما وقد عزمت عليّ مسأصعد المنبر . ولكنى سأقول
للناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعن علياً . فقولوا معى
لعن الله عندها قال معاوية لا يا أحنف . لا تقل شيئاً
لماذا ؟ لأن اللعن فى هذه لحالة سيعود على من ؟ على معاوية
أو على علي ؟

وتحكى قصة الحياط الأعور الذى حاط لأحد الشعراء جبة ،
فجاءت وأحد الكمين أطول من الآخر . فلم يستطع لبسها . فلما
سأله عن عدم لبس الجبة الجديدة أخبرهم بما حدث من الحياط
فقالوا أصح . فقال

قُلْتُ شِعْرًا لَيْسَ نُذْرِي أَمْدِيحَ أَمْ حَافٍ
حَاطَ لِي عَمْرُو قَبَاءَ لَيْتَ عَيْنِيهِ سَسَوَاءُ

فالكلام يحتمل المعنيين الدعاء له . والدعاء عليه . هذا هو الرد
الدبلوماسى الذى يهرب به صاحبه من المواجهة

(١) هو ابن بحر . سيد تميم . وأحد المظاه الدعاة الذمماء يُصْرَبُ به المثل فى الحرم .
وُلِدَ فى البصرة (٢ ق هـ) . وأدرك النبى ﷺ ولم يره . شهد الفجوح فى حراسان .
واعسرل الفتنة يوم الجمل . ثم شهد صفين مع على . توفى بالكوفة عام (٧٢ هـ) من
٦٩ عاماً [الأعلام للزركلى ٢٧٦/١]

وكذلك قالت بلقيس جواباً دبلوماسياً ﴿كَأَنَّهُ هُوَ ..﴾ (٤٢) [النمل]
 أما ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ (٤٣) [النمل] فيحتمل أن يكون
 امتداداً لقول بلقيس ، يعنى أوتينا العلم من قبل هذه الحادثة .
 وعرفنا أنك نبي لما رددت إلينا الهدية ، وقلت ما قلت ، فلم نكن في
 حاجة إلى مثل هذه الحادثة لنعلم نبوتك

ويحتمل أنها من كلام سليمان عليه السلام

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ^(١)
 إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٤٣)

المعنى صدّها ما فعل سليمان من أحداث ، وما أظهر لها من
 آيات ، صدّها عن الكفر الذى ألغته ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٤٣)
 [النمل] فصدّها سليمان بما فعل بما كانت تعبد من دُونِ اللَّهِ

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ^(٢)
 سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي^(٣)
 ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٤)

١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢٦٥/٢) ، هذا من كلام سليمان عليه السلام فى قول
 مجاهد وسعيد بن جبير أى قال سليمان ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل]
 وهى كانت تد صدّها أى منعها من عبادة الله وحده ﴿مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ
 قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل] ،

(٢) أى حسبته ماء ولُجَّةُ الماء معطلة وخصر بعضهم به معظم البحر [يتصرف من
 تفسير القرطبي ٥٠٦٢/٧ ، اللسان - مادة لوج]

(٣) الصرح قال الزجاج الصرح فى اللغة التصريح والتصرُّح يقال هذه صريحة للدار
 وفارعتها أى ساحتها وعرضها وقال بعض المفسرين الصرح بلاط الدار لها من
 قوارير والصرح الأرض المملوءة [لسان العرب مادة صرح] ولقوارير جمع
 قارورة ، وهى لا تكون إلا من الزجاج

الصَّرْحُ إما أن يكون اقصر المشيد الفُحْمُ ، وإما أن يكون البهو الكبير الذي يجلس فيه الملوك مثل إيوان كسرى مثلاً ، فلما دُخِثَ ﴿حَسْبُهُ لُجَّةٌ .. (٤٤)﴾ [النمل] ظَنَنَهُ ماءً ، والإنسان إذا رأى أمامه ماءً أو بئلاً يرفع ثيابه بعملية آلية قَسْرِيَّة حتى لا يصيبه البُكُلُ ، لذلك كشفت بلقيس عن ساقها يعني . ردت ذيل ثوبها .

وهنا نَبَّهَهَا سليمان ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ .. (٤٤)﴾ [النمل] يعني ادخلي لا تخافى بئلاً ، فهذا ليس لُجَّةً ماءً ، إنما صَرْحٌ مُعَرَّد من قوادرير يعني مبنى من الزجاج والبللور أو الكريستال ، بحيث يتموج الماء من تحته بما فيه من أسماك

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي . (٤٤)﴾ [النمل] بالكفر أولاً ، وبظنِّ السوء في سليمان ، وأنه يريد أن يفرقني من لجة الماء ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل] ويبدو أنها لم تنطق بكلمة الإسلام صريحة . لا هذه المرة ، وأن القول السابق ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)﴾ [النمل] كان من كلام سليمان عليه السلام .

وقولها ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ .. (٤٤)﴾ [النمل] مثل قول سحرة فرعون لما رأوا المعجزة . ﴿إِنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٤٧)﴾ [ص] لأن الإيمان إنما يكون بالله والرسول دال على الله ، لذلك قالت ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ . (٤٤)﴾ [النمل] ولم تقل أسلمت لسليمان ، نعم لقد دانت له ، واقتنعت بقوته ، لكن كجرباء امك صيها جعلها لا تخضع له ، وتعلن إسلامها لله مع سليمان ، لأنه السبب في ذلك ، وكأنها تقول له لا تظن أنني أسلمت لك إنما أسلمت معك ، إذن أنا وانت سواء ، لا يتعالى أحد منا على الآخر ، فكلما عبد الله .

وقد دخل هذه القصة بعض الإسرائيليات ، منها أن سليمان - عليه السلام - جعل الصرح على هذه الصورة لتكشف بلقيس عن ساقها ، لأنه بلغه أنها مُشعرة الساقين ، إلى غير هذا من الافتراءات التي لا تليق بمقام النبوة^(١) .

ثم يأتي بنا الحق سبحانه إلى نبي آخر في موكب الأنبياء

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ
فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾^(٤٥)

مرَّبُّنا قصة نبي الله صالح - عليه السلام - مع قومه ثمود في سورة الشعراء ، وأعيد ذكرها هنا ، لأن القرآن يقصُّ على رسول الله من موكب الأنبياء ما يُثبِت به فؤاده ، كلما تعرض لأحداث تُزلزل الفؤاد يعطيه الله النُجْم من القرآن بما يناسب الظروف التي يمرُّ بها ، وهذا ليس تكراراً للأحداث ، إنما توزيع للقطات ، بحيث إذا تجمعتُ تكاملتُ في بناء لقصة .

وقوله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. ﴾^(٤٥) [الأنس] لا بُدَّ أنه رُسر بشيء ما هو ؟ ﴿ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾^(٤٥) [الأنس] لذلك سُمِّيت (أن) التفسيرية ، كما في قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِمَامٍ مُرْسَى .. ﴾^(٧) [القصر] ماذا ؟ ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ﴾^(٧) [القصر] وقد يأتي التفسير بجمعه ، كما هي ﴿ فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ .

(١) يورد ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٦٥) هذه القصة ، وعنه محمد بن كعب القرظي وابن عيسى ومعهده وعكرمة والسدي وابن جرير . وقد ذكرها الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه ، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير * (ص ٣٤٨)

﴿١٦﴾ [طه] بآى شىء ؟ ﴿قَالَ يٰٓأَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْغُلَّةِ وَمَا لَكَ لَا تَأْمُرُ﴾ [طه]

فشرح ابوسوسة وهى شىء عام بقوله ﴿قَالَ يٰٓأَدَمُ ..﴾ (١٦) ﴿[طه] فرسالتنا إلى ثمود ملخصها ومؤداها ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ..﴾ (٤٥)﴾ [البلد]

والعبادة كما ذكرنا أن تطيع الله بفعل ما أمر ، وبترك ما نهى عنه وزجر ، أما ما لم يرد فيه أمر ولا نهى فهو من المباحات إن شئت فعلتها ، وإن شئت تركتها ، وإذا ما استعرضنا حركة الأحياء والخلفاء فى الأرض وجدنا أن ٥ / من حركتهم تدخل فيها الشارع ما فعل ولا تفعل ، أما الباقي فهو مباح

إذن فالتكليف منوط بأشياء يجب أن تفعلها ، لأن فيها صلاح مجتمع ، أو أشياء يجب أن تتركها ، لأن فيها فساد مجتمع

فماذا كانت النتيجة ؟

﴿فَإِذَا هُمُ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٥)﴾ [البلد]

والاختصام أن يقف فريق منهم ضد الآخر ، والمراد أن فريقاً منهم عبدوا الله وأطاعوا ، والفريق الآخر عارض وكفر بالله

وقد وقف عند هذه الآية بعض الدين يحسون أن يتحتموا على الإسلام وعلى أسلوب القرآن ، وهم يفتقدون الملكة العربية التى تساعد على فهم كلام الله ، وإن تعلموها فنفوسهم غير صامية لاستقبال كلام الله ، وفيهم خبث وسوء نية

واعترضهم أن ﴿فَرِيقَانِ ..﴾ (٤٥)﴾ [البلد] مثنى و ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٥)﴾ [البلد] دالة على الجمع ، فلماذا لم نقل يختصمان ؟ وهذه لغة القرآن فى مواضع عدة

ومنها قوله تعالى ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بِهِمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا .. (٤١)﴾ [الحجرات]

والقياس يقتضى أن يقول اقتتلوا لكن حين نقدير المعنى نجد أن الطائفة جماعة مقابل جماعة أخرى ، فإن حدث قتال حمل كلٌ منهم السلاح ، لا أن تتقدم الطائفة بسيف واحد ، فهم فى حال القتال جماعة

لذلك قال (اقْتَتَلُوا) بصيغة اجمع ، أما فى البداية وعند تقرير القتال فكل طائفة منهما رأى واحد يعر عنه قائدها ، إذن فهما فى هذه الحالة مثنى .

كما أن الطائفة وإن كانت مفردة لفظاً إلا أنها لا تُصَلَّقُ إلا على جماعة ، فيقف كل واحد من الجماعة بسيفه فى مواجهة آخر من الطائفة الأخرى

وهنا أيضاً ﴿فَإِذَا هُمُ فَرِيقَانِ .. (٤٥)﴾ [النس] أى مؤمنون وكافرون ﴿يَخْتَصِمُونَ (٤٥)﴾ [النس] لأن كل فرد فى هذه الجماعة يقف فى مواجهة فرد من الجماعة الأخرى

وفى موضع آخر ، شرح لنا الحق تبارك وتعالى هذه المسألة فقال سبحانه ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ^(١) مِنْ

(١) المقامع جمع مئمة ، وهى خشبة أو حديدة تُخَمُّ بها السيوف ليُثَبَّلَ ويصيح . وقوله ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢٦)﴾ [الحج] أى يُصَدِّقُونَ بها كلما كادوا الخروج من النار أُعِيدُوا فيها بالضرب بالمقامع إدلاء لهم [القاموس القويم ١٣٤/٢]

حديده (٢٠) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ
الْحَرِيقِ (٢٢) ﴿

أما القريب الآخر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
حَتَّى تَجْزِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجَلِّدُونَ فِيهَا مِنْ أَسَارٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْثًا
وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطِ
الْحَمِيدِ (٢٤)﴾

فبين لنا الحق - سبحانه - كل مريق منهما . وبين مصيره
وجراءه

ونلاحظ هنا ﴿هَذَا .. (٤٥)﴾ [المد] يسمونها الفجائية ، ويمثلون
لها بقولهم حرحت فإذا أسد بالباب ، والمعنى أنك قوججت بشيء
لم تكن تتوقعه ، كذلك حدث من الكافرين من قوم تمود حين قال لهم
نبيهم ﴿إِنْ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٤٥)﴾ [المد] لكن يفاجئونا بأنهم فريقان
مؤمنون وكافرون

ومطلق العقل والحق رافضة السليمة يفتضى أن يستقبلوا هذا
الامر بالطاعة والتسليم ، ولا يختلفوا فيه هذا الاختلاف مريق في
اجبة ومريق في السعير ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي
حَرِيمٍ (٢٤)﴾

وقبوا . إن الله تعالى لا يرسل الرسل إلا على فساد في المجتمع ،
الخالق عز وجل خلق في الإنسان النفس اللوامة التي تردده . ليس رشده
وتنهده . والنفس المعصنة لئى اطمأنت بالإيمان ، وأمنت الله على الحكم
في نعم ولا تفعل . والنفس الأمارة بالسوء ، وهي التي لا تعرف
معروفاً ولا تنكر منكراً ، ولا تدعو صاحبها إلا إلى السوء

والله - عز وجل - رب ، ومن عادة الرب أن يتعهد المرئى ليؤدي

غايته على الوجه الأكمل ، أرايتم أبا يُربِّي أبنائه إلا لعاية ، وما دام هو سبحانه ربي فلا يأمرني إلا لصالح ، وصالح مجتمعي ، فلا شيء من طاعتنا يعود عليه بالرفع ولا شيء من معاصينا يعود عليه بالضرر ، لأنه سبحانه خلق الكون كله بصفات اكمل المطلق إنَّ كانت العطرة السليمة تقتضى استقبال أوامر الله بالقبول والتسليم

وهذه الخصومة تجمع المؤمنين فى جهة ، لأنهم اتفقوا على الإيمان . والكافرين فى جهة ، لأنهم اتفقوا على الكفر . لكن يعساؤ المؤمنون بأن يظل وفاقهم إلى نهاية العمر ، بل وعند لقاء الله تعالى فى الجنة ، لأنهم اتفقوا فى الدنيا فى خطة العمر وفى الآخرة فى غاية الخزاء ، كما يقول تعالى ﴿لَأَخْلَأَنَّ يَوْمَئِذٍ بِغَضِبٍ لِّبَعْضِ عَدُوِّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) [الحرث]

أما الكفار فسوف تقوم بينهم الخصومات يوم القيامة ، ويلعن بعضهم بعضاً . ويتبرأ بعضهم من بعض ، والقرآن حين يُصوِّر تحاصم أهل النار يقول بعد أن ذكر نعيم أهل الجنة

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ شَرَّ مَآبٍ ۖ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَنُشِئَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيُدْوَ قُوهُ حَمِيمٌ^(١) وَعَسَاقٌ (٥٧) وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا قَرْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارَ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّصَرُّوْهُ لِمَا فُتِنَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا

١ الحميم من الفاظ الاصباح ، يكون الماء البارد ، ويكون الماء الحار والحميم الحرق [نصار العرب - مادة حمم] والعساق ما يفسق ويميل من جلود أهل النار وحديدهم من قبيح وبخوره [اللسان مادة عسق]

ضعفًا في النار (١٦) وقأنوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار (١٧)
أخذناهم سخرىً أم رغب عنهم الأبصار (١٨) إن ذلك لحقّ خصم أهل
النار (١٩) ﴿

إذن فاختصومة في الدنيا بين مؤمن وكافر ، أما في الآخرة
فبين الكافرين بعضهم البعض ، بين الذين أصلوا والذين أضلوا ، بين
الذين اتبعوا والذين اتبعوا (١)

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۚ
لَوْ تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤٦) ﴿

لما ذكرت قصة نمرود في الشعراء ، لم تذكر شيئاً عن استعجال
السيئة ، فما هي السيئة التي استعجلوها وربهم عز وجل يلومهم
عليها ؟ هي قولهم ﴿ فَأَتَيْنَا بِمَا تَعَدَّيْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٧) ﴿ [الأعراف]
وعجيب أمر هؤلاء القوم ماذا يفعلون لو نزل بهم ؟ قالوا معاً
حينما تأتينا السيئة نستغفر ونقتوب يظنون أن الاستغفار والتوبة تقبل
منهم في هذا الوقت

والحق - تبارك وتعالى - يقول ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٧) وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر
أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الدين يسوتون وهم كفار أولئك
أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ (١٨) ﴿ [النساء]

(١) قال مجاهد والعقاب قبل الرحمة ، وقال القرطبي المعنى لم توجبوا الإيمان الذي
يجلب إليكم الثواب ، وتقدموا الكفر الذي يوجب العقاب ؟ [تفسير القرطبي ٩٧/٧]

فَلَمَّا دَا تَسْتَغْفِرُونَ السَّيِّئَةَ وَالْعَذَابَ ، وَكَانَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَغْفِرُوا
الْحَسَنَةَ . وَاسْتَغْفِرْ لَكُمْ السَّيِّئَةَ يَحُولُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْحَسَنَةِ : لِأَنَّهَا لَنْ
تُغْفَرَ مِنْكُمْ ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٦) [المل]

﴿قَالُوا أَطِيرَ نَابِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ
عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُفْتَنُونَ﴾ (٤٧)

اطِيرُ استعمل الطير ، وهذه عملية كانوا يلجئون إليها عند قضاء
مصالحهم أو عند سفرهم مثلاً ، فكان لواحد منهم يمسك بالطائر ثم
يرسله ، فإن طار ناحية اليمين فقاءل وأقبل على العرس ، وإن طار
ناحية الشمال فشاءم ، وامتنع عما هو قادم عليه ، يُسَوِّبُهَا لِسَانَاتِ
وَالْبَارِحَاتِ . فالمعنى : تشاءمنا منك ، وممن أتبعك .

﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ..﴾ (٤٧) [السن] يعنى قضاء مقصبي
عليكم ، وليس للصير دخل في أقداركم ، وما يجرى عليكم من أحكام ،
فكيف تأخذون من حركته مُنْطَلَقاً لحركتكم ؟ بما طائركم وما يُقَدِّرُ
لكم من عند الله قضاء بقصته

وفى آية يس ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ (٤٨) [يس] يعنى
تشاؤمكم هو كفركم الذى تمسكتكم به

لكن ، لماذا جاء التشاؤم هنا ، ونسيهم يدعوهم إلى الله ؟ قالوا
لأنه بمجرد أن جاءهم عارضوه ، فأصابهم قحط شديد ، وضئت
عليهم السماء بالمطر فقالوا هو انذى حرأ علينا القحط والخراب

(١) الساجح - ما أتاك من غيبى أو طائر أو غير ذلك - والبارح - ما أتاك من داك من
يسارك [لسان العرب - مادة ساجح]

وقوله ﴿يَلْ أُنْتُمْ قَوْمٌ فَتُونَ﴾ [المنزل] الفتنة إما بمعنى الاختيار والامتلاء ، وإما بمعنى فتنة الذهب في النار

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ
فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾

وهذه المسألة أيضاً لقطة جديدة من القصة لم تُذكر في شعراء ،
وهكذا كل القصص القرآني لو تدبره الإنسان لوجده لقطات متفرقة ،
كل منها يضيف جديداً ، ويعالج أمراً يباين النجم القرآني الذي نزل
فيه لتقديت رسول الله ﷺ .

والرَّهْطُ . اسم جمع ، لا واحد له من لفظه . ويدل على العدد من الثلاثة إلى العشرة ، فمعنى ﴿تَسْعَةُ رَهْطٍ﴾ (٤٨) [السل] كأنهم كانوا قبائل أو أسراً أو فصائل ، قبيلة فلان وقبيلة فلان . إلخ .

﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ..﴾ (٤٨) ﴿[العدل] فلما دنا قال بعدها ﴿وَلَا يَصْلَحُونَ﴾ (٤٩)﴾ [العدل] ؟ قالوا لأن الإنسان قد يفسد في شيء ، ويصلح في آخر كالذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وهؤلاء عسى الله أن يتوب عليهم .

أما هؤلاء القوم ، فكانوا أهل فساد متحضر لا يعرفون الإصلاح ،
 فإن رأوه عمدوا إليه فافسده ، فكانهم مصرون على الإفساد ،
 وللإنسان قوم ينتفعون به ، لذلك يدافعون عنه ويفارضون في سبيله
 أهل الإصلاح والخير ؛ لأنهم يُعطّلون عليهم هذه المنفعة

(١) ذكر ابن عباس أسماء هؤلاء التسعة ، فقال كان أسماءهم وعسى ورعيم وهرمي وهريم وداب وهواب ورياب وصميطح ، وقدار بن سلائك علفن الماشة (نقله السبوطي في الدر المنثور ٢٧ / ٦)

وقلنا إن صاحب الدين والخلق والمادى فى أى مصلحة تراه
مكروها من هذه الفئة التى يستفح من الفساد ، يهاجمونه ويتتبعونه
بالهمز واللمز ، يقولون ، حنبلى ، وربما يهزأون به الخ ؛ لذلك
لم يقف فى وجه الرسل إلا هذه الطائفة المنتفعة بالفساد

﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ
مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٤٩)

﴿ قَالُوا ﴾ (٤٩) [النمل] أى الرهط ﴿ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ نُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ .. ﴾
(٤٩) [النمل] انظر إلى هذه البجاجة وقلة العقول وتقافة التفكير إنهم
يتعاهدون ويقسمون بالله أن يقتلوا رسول الله ، وهذا دليل غباثتهم ، وكان
الحق تبارك وتعالى - يجعل لهم منافذ يظهر منها حُجُومهم وقلة عقولهم
ومعنى ﴿ نُبَيِّتَنَّهُ .. ﴾ (٤٩) [النمل] نُبَيِّتُهُ بجعله ينام بالليل ،
والبيتوتة أن يقطع الإنسان عن الحركة حال نومه ، ثم يعاود الحركة
بالاستيقظ فى الصباح ، لكر هؤلاء يريدون أن يُسَيِّتُوهُ بيتوته لا قيام
منها والمعنى بقتله .

فإذا ما جاء أولياء الدم يطالبوننا بدمه ﴿ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ .. ﴾ (٤٩)
[النمل] أى ولئى الدم من عَصْبَتِهِ ورحمه ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا
لَصَادِقُونَ ﴾ (٤٩) [النمل] أى ما شهدنا مقتل أهله - نفس باب أولى
ما شهدنا مقتلَه ، ولا نعرف عنه شيئا .

هذا ما دبره القوم لنبى الله صالح - عليه السلام - يظنون أن الله
يُسَلِّمُ رسوله ، أو يُمَكِّنهم من قتله ، فحاكوا هذه المؤامرة ولم يفتهم
تجهير اندفاع عن أنفسهم حين المسألة ، هذا مكرهم وتدبيرهم

﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرُؤٌ وَمَكْرُؤٌ مَكْرُؤٌ﴾ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

معنى ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرُؤٌ ..﴾ [٥٠] [النمل] أى ما دبّروه لقتل نبي الله ورسوله إليهم ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرُؤٌ ..﴾ [٥١] [النمل] وقرّ بين مكر الله عز وجل ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [٥٤] [آل عمران] وبين مكر الكافرين ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ..﴾ [٤٣] ﴿[فاطر]

نن . حين فمكر بصير ، فلا يُعَدُّ مَكْرُؤً ، إنما إبطال لمكر العدو ، فلا يجوز لك أن تتركه يُدَبِّرَ لك ويمكر بك . وأنت لا تتحرك ، لذلك قال تعالى ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [٥٤] [آل عمران] لأنهم يمكرون بشراً . ونحن نمكر لدفع هذا الشر لنصرة رسولنا ، ونصاته من تدبيركم

والمكر مأخوذ من قولهم شجرة ممكورة ، وهذا هي اشجر ربيع اسباق المتسلف حين تلتف سسيقانه وأغصانه ، بعضها على بعض ، فلا تستطيع أن تميّزها من بعضها . فكل منها ممكور في الآخر مستتر فيه . وكذلك المكر أن تصنع شيئاً تساريه عن الحصم

وقوله تعالى ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٥٠] [النمل] أى أنه مكر مصوك ومحكم ، بحيث لا يدري به الممكور به ، وإلا لا يكون مَكْرُؤً

وحين ننأمل ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ..﴾ [٤٣] ﴿[فاطر] و ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [٥٤] [آل عمران] نعلم أن المكر لا يُمدح ولا يَنُتَمُّ لذاته ، إنما بالغاية من وراءه ، كم في قوله تعالى عن الظن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ..﴾ [١٢] [الحجرات] فالظن منه الخير ومنه اسبيء

ونسمع الآن تعبيراً جديداً يعبر عما يدور في المجتمع من انتشار المكر وسوء الظن ، يقولون الصراحة مكر القرن العشرين فالذي يمكر بالناس يظن أنهم جميعاً ماكرون فلا يصدق كلامهم ، ويحتاط له حتى إن كان صدقاً ، فأصبح العكر وسوء الظن هو القاعدة ، فإن صارحت الماكر لا يُصدقك ويقور في نفسه إنه يُعمى عى أو يُضللنى .

﴿ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مُكَرِّهِمْ ﴾

﴿ أَنَادِمُ رَنْتَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٥١)

أى تأمل ما حاق بهم لما مكروا بنبي الله ، واتفقوا على التبييت له وقتله ، يَرَوَى أنهم لما دخلوا عليه أُلْقِيَ على كل واحد منهم حجر لا يدري من أين أتاه ، فهلكوا جميعاً ، فقد سحر الله به ملائكة تولت حمايته والدفاع عنه^(١)

أو أن الله تعالى صنع له حية خرج بها وذهب إلى حضرموت ، وهناك مات عليه السلام ، فَسُمِّيت حضرموت^(٢) وآخرون قالوا بل ذهبوا ينتظروه فى سفح جبل ، واستتروا خلف صخرة ليوقعوا به فسقطت صيهم الصخرة فماتوا جميعاً

المهم ، أن الله دمرهم بأى وسيلة من هذه ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ .﴾ (٢٦) [البشر] لقد أرادوا أن يقتلوه وأهلكه ، فاهلكهم الله

(١) قال ابن عباس أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة ، فامتلأت بهم دار صالح ، فلقى

التسعة دار صالح شامرين سيوفهم ، فطعنهم الملائكة رسماً بالمحاربة ، فيرون المجرة

ولا يدرون من يرميها [تفسير القرطبي ٥١ ٠/٧]

(٢) قال القرطبي فى تفسيره (٥١ ٢/٧) « خرج صالح بمن آمن معه إلى حضرموت

فلما دخلها مات صالح ، فسميت حضرموت ،

﴿ فَتِلْكَ يَبُوتُهَا خَاوِيَةٌ يُعَاظِمُونَهَا فِي ذَلِكَ
لَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٢)

قوله تعالى . ﴿ فَتِلْكَ يَبُوتُهَا خَاوِيَةٌ .. ﴾ [النمل] دليل على أن الله
أهلكهم فلم يبق منهم أحد ، وترك بيوتهم خاوية بسبب ظلمهم ﴿ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً .. ﴾ [النمل] عرة وعظة ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل]

وفي مقابله إهلاك الكافرين (١)

﴿ وَأَجْبَحْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَكَاوَأَيُّ قَوْمٍ عَصَابُونَ ﴾ (٥٣)

فمن آمن واتقى من قوم صالح نجاه الله عر وجل من العذاب
الذي نزل بقومهم قوم ثمود

انتهى الكلام هنا عن قصة ثمود ، وحير نقارن الأحداث هنا بما
ورد في سورة الشعراء بحد أحداثاً جديدة لم تذكر هناك ، كما لم
يذكر هنا شيئاً عن قصة الناقة التي وردت هناك . مما يدل على
تكامل لقطات القصة في السور المختلفة

ثم بعضنا علماً طرفاً من قصة نبي آخر ، وهو لوط عليه السلام

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ
وَأَنْتُمْ تَبْغِضُونَ ﴾ (٥٤)

(١) قيل آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل ، أما الباقون فقد خرج بأهاليهم في قون مقاتل
وعيره - حجاج مثل الحصص - وكان في اليوم الأول لجر ، ثم صار من الغد أصغر ، ثم
صار في الثالث أسود

(لوطاً) جاءت منصوبة على أنها مفعول به ، والتقدير أرسلنا لوطاً ، كما قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ۖ﴾ (١٤) [النمل]

وقوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (١٥) [النمل] فذكر الداء الذي انتشر فيهم وفي سورة الشعراء قال سبحانه ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨) [الأعراف] وهنا قال - ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (١٤) [النمل] أي تتعالمون بها وتتجاهلون بها ، فدل على أنهم أجمعوا عليها وارتنصوها ، وأنه لم يعد عندهم حياء من ممارستها

أو يكون المعنى وأنتم تبصرون ما حل بأصحاب الفساد قبلكم من أقضية الله عليهم

﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾
 ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ يَّجْهَلُونَ﴾ (١٥)

هذا بيان وتفصيل للداء وللعا حشة التي انتشرت بينهم ، ومعنى ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ يَّجْهَلُونَ﴾ (١٥) [النمل] الآية في ظاهرها أنها تتعارض مع ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (١٤) [النمل] لكن المعنى ﴿يَّجْهَلُونَ﴾ (١٥) [النمل] الجهل هنا ليس هو ضد العلم ، إنما الجهل بمعنى السُّفَه

والبحس يظن أن الجهل ألا تعلم ، لا إنما الأمية هي ألا تعلم ، أما الجهل فإن تعلم قضية مخالفة للواقع ، لذلك الأمي أسهل في الإقناع ، لأنه خالي الذهن ، أما الجاهل فلهذه قضية حاطنة ، فيستدعي الأمر أن تبرح منه قضية الباطل ، ثم تدخل قضية الحق ، فالجهل - إذن - أشق على الدعاة من الأمية

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا
آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفَاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴾ ٥٦

عجيب أمر هؤلاء ، فعلة الإخراج عندهم وحيثيته ﴿ إِنَّهُمْ أَنْفَاسٌ
يَنْطَهُرُونَ ﴾ [النمل] سبحانه الله ، ومتى كان الطُّهُرُ ذنباً وجريمة
تستوجب أن يخرج صاحبها من بلده ؟ إنها نعمة نسمعها دائماً من
أهل الباطل في كل زمان ومكان حينما يهاجمون أهل الحق ، ويسفون
لإبعادهم من الساحة لتحلوا لباطلهم

ومن عَدُلُ الله تعالى أن يظهر في منطقهم دليل إدانتهم وخُبْرُ
طباعهم ، فكلمة ﴿ يَنْطَهُرُونَ ﴾ [النمل] التي نطقوا بها تعني أنهم
أنفسهم أحاسٌ تزعمهم الطهارة ، وما أحلُّ الله من الطيبات ، وكان
الله تعالى يجعل في كلامهم منامز لإدانتهم ، وليحكموا بها على
أنفسهم

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ فَقَدَرْنَهَا
مِنْ الْغَايِبِ ﴾ ٥٧

أي من المهكّين مع قومها ، فقد كانت تدل قومها على ضيقان
لوط ، لياتوا إليهم ليفعلوا معهم الفاحشة ، لذلك أساسها من العذاب
مثلما أصاب قومها

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءً مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٥٨)

أى قُبْح هذا المطر . وإن أبهم المطر هنا فقد وَضَحَهُ الحق .
تبارك وتعالى . فى آيات أخرى فقال من طين ، ومن سجيل ، وهو
الطين إذا حُرِقَ فصار فُخَّاراً ، وهذه الحجارة منظمة مُسَوِّمة^(١)
صنعها الله لهم بحساب دقيق ، فكلُّ واحد منهم حَجَرُهُ المسمَّى
باسمه ، والذي لا يُخطئهُ إى غيره

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَمَا يَشْرِكُ بِهِ أَشْهُبُ الْقُلُوبِ﴾ (٥٩)

نعرف أن الله تعالى يُحمد على النعمة ؛ لكن هناك ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ..
(٥٩)﴾ [النمل] جاءت بعد نعمة وعذاب وأُحْدُ للمكذِّبين قاسوا^(٢)
لحطاب هنا مُوجَّه لرسول الله ﷺ ، وفيه إشارة إلى أن جُنْدُ الله هم
الغالبون ، وأن العاقبة لهم ليطمئن رسول الله ، كما أن تطهير الكون
من المفسدين فيه ، وحين تستريح منهم البلاد والعباد ، هذه نعمة
تستوجب ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ . (٥٩)﴾ [النمل]

وفى إهلاك الكافرين والمكذِّبين عبرة ودرسٌ لغيرهم ، حتى
لا يتورطوا فى أسباب الهلاك ، وهذه نعمة أخرى تستحق الحمد

لذلك أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن نحمده إن رأينا خيراً نزل

(١) سَوْمُ الشَّرِّ - عَلَمُهُ بِلَامَةٍ وَسَوْمَةُ الْعِلَامَةُ وَالسَّيِّئَةُ وَالسَّيِّئَةُ بِكسر السين اعلامة
[القاموس القويم ٣٣٧/١]

(٢) قال ابن عباس ، وسقيان الثورى فيما نقله عنهما السيوطى فى الدر المنثور (٢٧ / ١٦)
وقال النعمان من أركى ، لاي القرآن سُزِّرَ على النبي ﷺ . وكل ما فيه فهو مخاطب به
عليه السلام [لا ما لا يصح معناه] لا تعيره [نقله القرطبي فى تفسيره ٢/٧٧]

بالأخيار ، أو شراً حلّ بالاشرار . فالمعنى ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ﴾ (٥٩)

[اسم] أن الرسل انتصروا وغلبوا ، وأن المفسدين انهزموا وانسحروا

الآن ترى قول أهل الجنة ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَّبَعُوا خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ (٧٢) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَظُنَّ أَنَّ هَٰذَا لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ مِّنَ الْأُولَىٰ ﴾ (٧٤)

كذلك حين يرى الشرير الذي شاع شره وكثر فسادُه حين يبرل به ما يستحق من عذاب الله نقول جميعاً ساعة نسمع خبره الحمد لله . هكذا بعملية لا شعورية عند الجميع أن تلهج السنتهم بالحمد عند نزول النعمة على أصحابها ، والنعمة على من يستحقها

ويقول تعالى عن أهل الشر والفساد ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْأَسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسًا تَصَرَّعُوا ، وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَرَبُّنَا لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ (٤٤) فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٥)

فبعد أن قطع الله دابر الظالمين قال الحمد لله رب العالمين . ونلاحظ هنا الفرق بين فتح لك ، وفتح عليك ، فتح لك يعني فتح في صالحك . ومنه ﴿ نَا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ (٦)

أما فتح عليهم يعني بالسوء نكاية فيهم ، بمعنى ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴾ (٤٤)

أعصاهم اسير ليهلكهم به ، وهم في حال نعمة ومكانة ، حتى إذا أخذهم الله كان أخذهم أليماً شديداً

(١) براء أسكنه وبوئه في الأرض متى له فيها وتبوات المنزل اتصدته سكناً

وفي قصة نوح عليه السلام ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُكِّ نَقَلَ الْأُحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنْ لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٨) [المرسود]

فحمد الله هنا على أمرين الحمد لله لأنه أغرق الكافرين الظالمين وحلّصنا منهم ، والحمد لله لأنه نجّى المؤمنين

ثم يقول سبحانه ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْعِبَادَةِ الَّذِينَ صُطِّفَى ..﴾ (٥٩) [المر] وهم المؤمنون الذين نصرهم الله ، وجعل العاقبة لهم . والسلام عليهم بعدما لاقوه من عنت الكفار وعيادهم ، فالحمد لله الذي أهلك المفسدين ، وأتى بالسلاام على المهتدين

ثم يطرح الحق سبحانه قصية ، ويأتى بها فى صورة سؤال واستفهام ، لتكرر أبلغ فى النفس من مجرد الإخبار بها ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩) [المر]

ولو أن الآية قالت . قل الحمد لله وسلاام على عباده الذين صطفى لأن الله خير وما يشركون به شرٌ لكان الكلام حيراً ، والحرير فى ذاته وبصرف النظر عن قائله يحتمل الصدق أو الكذب

أما حير تُعرض هذه لقضية فى صورة الاستفهام ، فقد جعلت مخاصيك هو الذى يطق بها ، كما لو أنكروا أحد الأصدقاء جميعك وأياديك عليه ، فبدر أن تحير أنت فعلت لك كذا وكذا تدعاه هو الذى يُخسر فتقول ألم أفعل لك كذا وكذا ؟ ولا يقول هذا إلا واثق ومعتقد أن الإجابة ستكون فى صالحه .

فالمعنى ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩) [المر] قولوا لنا أستم ونحن نرتضى حكمكم بعدما رأيتم وسمعتم من هذه القصة الله خير أم الذين أشركوا به حير ؟ ولا بد أن تاتى لإجابة الله خير ، لذلك

لما فُتِلَتْ هذه الآية انْفَعَل لها رسول الله ﷺ وأسرع بالجواب : « بل الله خير وأبقى وأحلُّ وأكرم »^(١).

مع يدل على أن الأفعال بالقرآن واجب ونقصد الانفعال بمعنیه ،
لا الأفعال بالصوت والنعمة كالذى نسمعه من هؤلاء (الذكيرة)
الذين يُشجّعون العقرئين بالصياح والصجيج الذى لا يتناسب وجلال
الآيات ، وهم مع ذلك لا يفهمون المعانى ولا يتأثرون بها ، لدرجة أن
منهم مَنْ يسمع آيات العذاب فيقول بأعلى صوته اللهم زدنا

وقد كان الكتبة من الصحابة يتفحصون بالآيات معنى ، حتى إن
أحدهم ليكمل الآية ويختتمها بما يناسبها قبل أن تُملى عليه ، لماذا ؟
لأنهم فهموا عن الله وتأثروا بالمعنى ، مما يدل على أن القرآن جاء
موافقا للعطرة السليمة ، ومن هذا التوافق قول أحد الصحابة^(١)
﴿فبارك الله أحسن الخالقين﴾ (٤) [المؤسد] منزل بها القرآن كما قالها .
والنبي ﷺ يقول عن سورة الرحمن « لقد قرأت سورة الرحمن
على إخوانكم الجن ، فكانوا أحسن استجابة منكم ، فكانوا كلما قلت
﴿بأي آلاء ربكم أنكر﴾ (١٧) [الرحمن]

قَالُوا لَا شَيْءَ مِنْ نِعْمَاتِكَ رَبِّهَا بِكَذِبِ فَلِكَ الْحَمْدُ^(٦)

إِذْ هُوَ يَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلْ بِهِ ، وَأَنْ تُجِيبَ مَعَهُ

(۶) آورده القرطبي في تفسيره (۵۱۰۵/۷) أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية يقول : يا ذا الجلال والإكرام ، وذكره السيوطي في الدر المنثور (۶ / ۳۷) وعواه لعبد بن حميد عن قتادة ، أنه كان إذا قرأ ، ولم يذكر رفعه للنبي ﷺ

(٢) هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وافقت ربي ووافقي في أربع . ملك هذه الآية ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ [المؤمنون] قلت انا فختبارك الله أحسن الخالقين . فترئت ﴿ فبما نكح الله أحسن المتألفين ﴾ [المؤمنون] ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٢٤٦) وعراة لابن أبي حاتم

(٢) أوردته السيوطي في د النذر المعتبر = (٧ / ٦٩) وعراه للترمذي وابن المنذر وأبي الشيخ في العظمة والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه

تجاوباً وادعاءً ، مع عدد آية التيسيع نُسِّحَ وعند آية الصد حمد الله ،
وعند آية الدعاء نقول آمين ، هذه مراجيد انفعالية سماع القرآن
والتجاوب معه ، لا أن نسمعه أو نهذه كهذا الشعر
ثم يقول الحق سبحانه .

﴿أَمْنَ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ
أَنْ تُبْشِرُوا شَجَرَهَا إِلَهَ مُعِ اللَّهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿أَمْنَ.. (٦)﴾ [النمل] هذا استفهام آخر ، وكان الحق - تبارك
وتعالى - بعد أن كتب الهزيمة على الكافرين والنصر للمؤمنين أراد أن
يُربِّب في انفس الإيمان بالله ، وأن تأخذ من نصر الله تعالى للمؤمنين
حميرة إيمانية ، ومواجهيد جديدة تظل شحنة قوية تدفعهم بحيث يكونون
هم أنفسهم على استعداد للتصدي لأعداء الدعوة والمناهضين لها

يقول سبحانه

﴿أَمْنَ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ
بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبْشِرُوا شَجَرَهَا إِلَهَ مُعِ اللَّهُ .. (٦)﴾ [النمل]

إن المسألة لا تقف عند معركة اصغر فيها المؤمنون على
الكافرين ، فهناك في خلق الله ما هو أعظم من ذلك ، فلو سألتهم
مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَقُولُونَ الله ولئن سألتهم مَنْ خَلَقَهُمْ
يقولون الله . فهذه مسائل لا يستطيعون إنكارها ، فكان الحق

(١) الهذ (بالذال) سورة القدره وفي حديث ابن عباس قال له رجل فوات الفصل
الليلة. فقال أمدا كهذا الشعر ؟ اراد ان يهد القرآن هذا متصرف فيه كما يسرع في قراءة
الشعر [لسار العرب - مادة - عدد]

تبارك وتعالى يقول لهم . الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء . أم ما تشركون ؟

وما دام أن الله تعالى ادعى مسألة الخلق لنفسه سبحانه ، ولم يقم لهذه الدعوى منازع ، فقد ثبتت له سبحانه إلى أن يدعيها غيره ﴿إِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ [المد] فإن كان هناك إله آخر خلق الخلق فإين هو . إما أنه لم يدر بهذه الدعوى ، أو نرى به وجب عن العواحة ، وفي كلتا الحالتين لا يصلح لها ، وإلا فليأت هو الآخر بخلق ومعجزات أعظم مما رآها

فإذا قال الله تعالى أنا الله ، ولا إله غيري ، والخلق كله بسمائه وأرضه صنعتي ، ولم يوجد معارض فقد ثبتت له القضية . ذلك يقول سبحانه ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَنصَرَّتْهُ أَوتُونَا نَعْلَمُ﴾ [آل عمران] فقضية الوحدانية شهد الله أولاً بها لنفسه ، ثم شهد بها الملائكة وأولو العلم من الخلق

ويقول سبحانه في تأكيد هذا المعنى ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا أُتُّوا إِلَى دِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الاسراء]

أي لا اجتماع هؤلاء الآلهة ، وثاروا على الإله الذي أخذ منهم ملكهم ، وادعاه لنفسه ، أو لدمروا إله لتقرّبوا منه ويتودّوا إليه .

وقوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [المر] السماء كل ما علاك فافظلك ، والماء معروف أنه ينزل من السحاب وهو مما علانا ، أو أن الإنزال يعنى إرادة الكون ، وإرادة الكون هي كل كائن تكون من السماء ، ألا ترى قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد]

وقوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد] ومعلوم أن الحديد يأتي من الأرض لكن إرادة كونه تأتي من السماء

ثم يقول سبحانه ﴿فَأَتَيْنَاهُ بِحَدائقِ دَانٍ بَهْجَةٍ ۖ﴾ [النمل] للماء فوائد كثيرة في حياتنا ، بل هو قَوَامُ حياة ، لذلك اقتضت الآية على ذكر الحدائق ، لأنها قوام حياة الإنسان في الأكل والشرب .
فإن قُلْتُ نحن معتبر الآن الحدائق الجمينة من باب الكماليات ، وليس بها مقومات حياتنا . نقول نعم هي كذلك الآن ، لكن في الماضي كانوا يسمون كل أرض زراعية محوطة بسور - حديقة ، أو حائط

وقال ﴿ذاتِ بَهْجَةٍ ۖ﴾ [النمل] مع أنك لو نظرت إلى القمح مثلاً وهو عَصَبُ القوت لوجدته أقل جمالاً من الورد ولياسمين والفل مثلاً ، وكان ربك - عز وجل يقول لك لقد تكفلت لك بالكماليات وبالجماليات ، فمن باب أولى أوفر لك الضروريات

والحق تبارك وتعالى - يريد أن يربقي بذوق عباده ويمشاعرهم ، واقرأ مثلاً قوله تعالى ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۗ﴾ [الأنعام] يعنى : قبل أن تأكل من هذه الثمار تأمل في جمالها ومنظرها لبديع ، وكأنها دعوة للرقى بالتذوق العام والتأمل في بديع صنُّع الله

ألا ترى أن الله تعالى أتاح لك النظر إلى كل الثمار لتشاهد جمالها ، ولم يُبِعْ لك الأكل إلا مما تملك ؟ لذلك قال - ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ ۗ﴾ [الأنعام] فإن لم تكونوا تملكونه ، فكيفكم التمتع بالنظر إليه

ومن هذا الارتقاء الجمالي قوله تعالى بعد أن جِئْنَا عَنْ الضَّرَورِيَّاتِ مِنَ الْأَنْعَامِ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تُسْرِحُونَ﴾ [النمل]

وقال ﴿وَالْحَيْلَ وَالْإِعْلَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل] (٨)

فأعطانا ربنا - عز وجل - ضروريات الحياة ، وأعطانا كمالياتها وجمالياتها وتأمل دقة الأسلوب في ﴿أَمْ حَلَّى السُّمُورَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ [النحل] (١) فالضمير في ﴿خلق﴾ ضمير العائب (هو) يعود على الله عز وجل ، وكذلك في (وأُنزل) أما هي (فَأَنْتَ) فقد عدل عن ضمير العائب إلى ضمير المتكلم (نحن) الدار على التعظيم ، فلماذا ؟

قالوا : لأن نعم الله فيها أشياء لا سجل للإنسان فيها كالخلق وإزالة المطر ، ومثل هذه المسائل لا شبهة لاشتراك الإنسان فيها ، وهناك أشياء للإنسان دخل فيها كالزرع والنبات ، فهو الذي يحرث ويزرع ويسقى .. الخ مما يوجب بأن الإنسان هو الذي يبتدئ النبات ، فأراد سبحانه أن يُزيل هذا التوهم ، فنسب النباتات صراحة إليه - عز وجل - ليريل هذه الشبهة

وردك - سبحانه وتعالى - يحترم فعلك ، ويذكر لك سعيك ، فيقول ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرَثُونَ﴾ (٦٦) أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٧) [الواقعة] مع لك عمل وسعى في هذه المسألة ، لكنك استخدمت الأرض المخلوقة لله ، وآلة الحديد المخلوقة لله ، واليدور المخلوقة لله ، والماء المخلوق لله ، مما مسألة الإنست نفسها فلا دخل لك بها . فلا تقل زرع ، لأننا نحن الزارعون حقيقة ، لكن قل حرثت وسقيت

لذلك تجد الرد في آخر الآية ذفياً لأي شبهة في أن لك دخلاً في مسألة الزرع ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ (٦٨) [الواقعة] وأكد الفعل بلام التوكيد لينفي هذه الشبهة

على خلاف الكلام عن الماء ، حيث لا شبهة لك فيه فيأتي بنفس الفعل ، لكن بدون لام التوكيد ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٦٨) أَنْتُمْ

أَتُرْتَمَوْهُ مِنَ الْمَرْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا^(١) فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

[الرافعة]

ومعنى ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل] العدل معلوم أنه صفة مدح فساعة تسمع ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل] قد تظن أنها صفة طيبة فيهم لكن لا بد في مثل هذا اللفظ من تدقيق ، لأنه يحصل معاني كثيرة . نقول عدل في كذا يعنى اصعب ، وعدل إلى كذا يعنى مال إليه ، وعدل عن كذا : يعنى تركه وانصرف عنه ، وعدل بكذا ، يعنى سوى

فالمعنى هنا ﴿يَعْدِلُونَ﴾ [النمل] عنه ، ويا ليتهم يعدلون عنه محسب ، إنما يعدلون عنه إلى غيره ، ويسوون به غيره ، كما قال سبحانه في موضع آخر ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الانعام]

أي يسوونه سبحانه بغيره

ثم يقول الحق سبحانه

﴿أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْ خِلَافَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلْ لَهَا رَاسِيًا وَجَعَلْ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

لما تكلم الحق سبحانه في الآية السابقة عن السموات والأرض أتى بأشياء مشتركة بينهما ، فالسمااء ينزل منها الماء ، والأرض تستقبل الماء ، وثبتت لنا الحقائق ذات المهجة

(١) الأجاج الملح الشديد الملوحة أج الماء يوج اشتدت ملوحته [القاموس القويم ٦/٧]

أما في هذه الآية ، والكلام عن الأرض ، لذلك ذكر لنا مسائل من خصوصيات الأرض . ﴿ وَأَمْ جَلَّ الْأَرْضُ قَرَارًا ﴾ [النمل] معنى قراراً أى استقراراً ، حيث خلقها سبحانه على هيئة مريحة تصلح لأن يستقر عليها الإنسان .

﴿ وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾ [النمل] الماء ينزل من السماء وينتفع به مَنْ سَقَطَ عَلَيْهِ مباشرة ، أما ما ينزل على الجبال فيجتمع في الوديان وتُصْنَعُ له السدود لينتفع الناس به عند القحط ، ومن ماء المطر ما يساب في مَجَارٍ تُسَمَّى الأنهار .

وتستطيع أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَ أنْهَرٍ والقناة الصناعية ، فالنهر ينساب الماء فيه من أعالي الجبال ، ومن أماكن متفرقة تتبع المنخفضات والسهل من الأرض الذي يستطيع لعله أَنْ يَشُقَّ مَجْرَاهُ فِيهِ فَنَتَرَاهُ ملتوياً متعرجاً ، يدور حول الجبال أو الصحور ليَشُقَّ مَجْرَاهُ

أما القناة الصناعية ، متراها على هيئة الاستقامة ، لا إذا اعترض طريق حفرها مثلاً أحد أصحاب النفوذ ، فيجعلهم على تغيير لمسار والانحراف به ليتفادى المرور بأرضه

وتستطيع أَنْ تلاحظ هذه الظاهرة إذا تبولت في أرض رملية وبظرت إلى مجرى ابول فتراه يسير متعرجاً حسب طبيعة الأرض التي يمر بها .

﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي ﴾ [النمل] الرواسي هي الجبال الثابتة الراسية ، وفي موضع آخر بين سبحانه الحكمة من هذه الجبال فقال ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُنْبِتَ بَكُمْ ﴾ [الزلزال]

فالحكمة من خلق الجبال تشبیهت الأرض حتى لا تضطرب ،

ولو أنها خلقت على هيئة الثبات والاستقرار لما احتاحت إلى الجبال ،
إنن هي مخلوقة على هيئة اسحركة ، ولا مد لها من منقلات

ولا تقتصر لحكمة من خلق الجبال على تثبيت الأرض ، إنما لها
مهمة أخرى في قوه تعالى ﴿ وَالْجِبَالُ أَرْسَالًا ۚ مَتَاعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَامِكُمْ ۚ ﴾ [البارعات]

فكيف تكون الجبال متاعاً للإنسان وللحيوان ؟

نعم ، هي متاع ، لأنها مخزن مياه ، حينما ينقطع المطر نحد
المياه التي تساقطت على الجبال ، إما في الأنهار ، وإما في
الشلالات ، وخلف السدود بين الوديان ، أو في العيون والآبار مما
امتصته الأرض .

وكما أن الجبال هي مخازن للمياه ، هي أيضاً مخازن للحصوبة
التي تمتد الأرض الزراعية عاماً بعد عام بقدر ، بحيث تستمر خصوبة
الأرض ، وسبق أن تكلمنا عن ظاهرة التربة التي تُفْتَت الطبقة العليا
من الصخور فتمرل إلى الوديان مع ماء المطر ، وتحتلط بالتربة
الزراعية فتزيد من خصوبتها

ولولا صلابه الجبال وتماسك صخورها لتفتتت في عدة سنوات ،
ولفقدنا مصدر الخصوبة بعد ذلك ، فهذه الظاهرة من علامات رحمة
الله بحكّقه ، لأنها تتناسب مع الزيادة السكانية بحيث كلما زاد السكان
زادت الرقعة الحصنة الصالحة للزراعة .

وسبق أن قلنا إنك حين تتأمل وضع الجبال مع الوديان تجد أن
الجل مُثلث قاعدته إلى أسفل ، وقمته إلى أعلى ، أما الوديان فعلى
عكس الجبال ، فهي مثلث قاعدته إلى أعلى وقمته إلى أسفل ، وهكذا

نرى أن كل زيادة من طمى الجبل والغرين^(١) الذى يتفتت منه يزيد فى مساحة الوادى ، فتزداد الرقعة الخصبة كل عام مع زيادة المكان .

لذلك يقول تعالى عن الجبال ﴿ قُلْ أُنْكُمُ لَكُمُ الْوَادِى حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِنْهَا نَافِثَةٌ ﴾ (١) وجعل فيها رُوساً من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها .. (٢) [مصدق]

فجعل الجبال الروسى هى محازن القوات من طعام وشراب ، ولك أن تتأص نيل مصر وواديه ، كيف تكون من الطمى الذى حملته المياه من أعالي الجبال فى إفريقيا ، لتكون هذه المصقة الحصنة فى مصر

ثم يقول سبحانه ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ (٣) [مصدق]

البحرين أى العذب والمالح لأن اسماء منه العذب ، ومنه المالح ، ومن قدرته تعالى وحكمته أن يحجر بينهما ، وإن كان الماء المالح هو مصدر اسماء العذب ، لذلك جعل الله تعالى مساحة السطح للماء المالح ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وكلما اتسع سطح الماء اتسع البحر الذى يكون السحاب ، بحيث يسقط المطر الكافى لمعيشة أهل الأرض

وما أجمل قول الشاعر المادح

أهدى لمجلسه الكريم وأنما أهدى له ما حُرِّتَ من نعمائه
كأنبحر يُمطره السحابُ وما له فضِّلَ عليه لأنه من مائه
ولكى تعلم مفضل الله علينا فى إنزال المطر وتوفير الماء العذب ،

(١) الغرين الطين الذى يجعله السيل ميبس على وجه الأرض رطباً أو يابساً وقال الأصمعي الغرين أن يجيء السيل فيبتث على الأرض فإذا جف رايب الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق [لسان العرب مادة غوت]

انظر إلى التكلفة والمشقة التي تعانيها لتقطير عدة سنتيمترات من الماء ، في حين أنك لا تدري بعملية التقطير الواسعة التي تسقى البلاد والعباد في كل أنحاء الدنيا .

وقد مثَّلنا لمسألة اسراع رقعة البحر مكوب الماء إذا أرفقته على الأرض ، فإنه يحفُّ في عدة دقائق ، أما لو تركت الماء في الكوب لعدة أيام ، فإنه لا ينقص منه إلا القليل

ومن الماء العذب ما سلكه الله تعالى ينابيع في الأرض ليخرجه الإنسان إذا أعوزه الماء على السطح ، أو سلكه ينابيع في الأرض بمعنى أن يسير العذب بحوار المالح ، لا يختلط أحدهما بالآخر مع ما عُرف عن الماء من خاصية الاستطراق

وهذه من عجائب قدرة الله الخالق ، فمن قَعِرَ البحر المالح تخرج عيون الماء العذب ، لأن لكل منهما طريقاً ومسلكاً وشعيرات يسير فيها بحيث لا يبيض أحدهما على الآخر ، كما قال تعالى

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢) ﴾ [الرحمن]

وكما أن الماء العذب يتسرب إلى باطن الأرض ليكون الآبار والعيون ، فكذلك الماء المالح يتسرب في باطن الأرض ليكون من تقاعلاته الأحجار الكريمة ، كالعمرق ، والمعادن كالحديد والمنجنيز والجرايت .. الخ

وبعد أن ذكر لنا هذه الآيات الخاصة بالأرض جاء بهذا الاستفهام ﴿ أَلَمْ يَخْلُقْ اللَّهُ .. (٦٠) ﴾ [المر] يعني خلق هذه الأشياء ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .. (٦١) ﴾ [الزل] والذين لا يعلمون أعماهم وقطعنا حُجَّتَهُمْ بعدم العلم .

ولو نظرنا إلى الأرض لوجدنا فيها آيات أخرى غير أنها مُستقرٌ وسكنٌ ، فالأرض كثيفة ، وفيها غبرة يسب صافية البياض ، ذلك لأن الله تعالى يريد لها أن تستقبل حرارة الشمس وضوءها ليستعيد منها النبات ، ولو أن الأرض كانت شفافة انعكس الضوء واحترق لما استفاد منها النبات ، لذلك نجد بعض المشروعات تنمو في الصيف ، وأخرى في الشتاء

ولما أحرقوا بعض النجارب على النبات ، فوضعوه في مكان مظلم ، ثم جعلوا ثقباً في ناحية بحيث يدخل الضوء وجدوا أن السنة بما أودع الخالق فيها من غريزة تنج ناحية الضوء لتأخذ حظها من النور والدفع ، فسبحان الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى .

ومن آيات الله في خلق الأرض أن جعلها على هيئة الحركة والدوران ، لتأخذ كل مناطقها حظها من الحرارة ومن البرودة ويتنوع فيها المناخ بين صيف وشتاء ، وحريف وربيع ، إنها أدوار تتطلبها مقومات الحياة

لذلك تجد علماء النبات يُقسّمون المناطق الزراعية على الأرض يقولون هذا حرام القمح مثلاً ، وهذا حزام الحوز ، وهذا حرام البطاطس ، فتجد كل حزام منها يصلح لنوع خاص من المزروعات يناسب سكان هذه المنطقة وبيئتها وحوها .

لذلك نجد أن كل نوع من المزروعات في مكانه المناسب لا تصيبه الآفات ، أما حين يُنقل إلى مكان غير مكانه ، وبيئته غير بيئته لا بد أن يُصاب

وفي الأرض خاصية أخرى تتعلق بالإنسان تعلقاً مباشراً ، فمن خصائص الأرض وهي من الطين الذي خلق منه الإنسان ، فهي في

الحقيقة أمه الأوى - فإذا مات لا يسمعه إلا أحضان أمه حين يتخلى عنه أقرب الناس إليه ، والصق الناس به ، عندها تستقبه الأم وتحتويه وتستر عليه كل ما يسوؤه .

ومن خصائص الأرض أنها تمتص فضلات الإنسان والحيوان ومخلفاته وتحوّلها بقدرة الله إلى مُخصَّب يزدهر به المروجات ، ويزيد به المحصول ، وفي الريف يحمون روث الحيوانات ذا الرائحة الكريهة إلى الحقول ، فإذا به ينبت فيه الوردة الجميلة الذكية التي يتشرق الإنسان لرائحتها .

إنها عجائب هي الخلق ، لا يقدر عليها إلا الله عز وجل أتذكرون المثل الذي يقول (فلان يعمل من العسيف شربات) هكذا قدرة الله التي تخلق الأضداد .

ألا ترون أن أفضل الفاكهة ناكلها الآن من الجبل الأصفر بمصر وهي تمرّوى بماء المجارى

وبعد أن حدّثنا الحق - تبارك وتعالى - عن هذه المظاهر العامة التي يحتاجها كل الخلق في السماء والأرض والجبال والمطر ، الخ يُحدّثنا سبحانه عن مسائل خاصة يحتاجها إنسان دون آخر ، وفي وقت دون آخر ، فيقول سبحانه

﴿ أَمْسْ يُجِيبُ الْمَضْطَرُ إِذَا دَعَا وَيَكْشِفُ الشَّوْءَ
وَيَجْعَلُكُمْ خُلَكَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ
قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

(يجيب) الإجابة هي تحقيق لمطلوب لداعيه ، والمضطر هو

(١) قال ابن عباس هو ذو الضرورة المجهود وقال السدي الذي لا حول له ولا قوة وقال ذو النون هو الذي قطع العلائق فما دون الله [حكاه القرطبي من تفسيره (٧ / ١٠٧)]

الذى استنفد الاسباب ، وأخذ بها فلم تجد معه ، فليس أمامه إلا أن يترك الاسباب إلى المسبب سبحانه فيلجأ إليه ، ذلك لأن الخالق - عز وجل - قبل أن يخلق الإنسان خلق له مقومات حياته وضرورياتها وسخرها لخدمته .

لذلك جاء فى الحديث القدسي : « يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتك من أجلى فلا تشغل بما هو لك عما أنت له ، ثم خلق الله لك الطاقة التى تستطيع أن تسفر بها هذه الأشياء وضمن لك القوت الضرورى من ماء ونبات ، فإن أردت أن ترقه حياتك فتحرك فى الحياة بالاسباب المخلوقة لله ، وبالطاقة الفاعلة فيك ، وفكر كيف ترتقى وتثرى حركة الحياة من حولك .

فالماء الذى ينساب فى داخل البيت حين تفتح الصنبور ، والضوء الذى يبعث بمجرد أن تضغط على زر الكهرباء ، والسيارة التى تنقلك فى بضع دقائق ، كلها رتقاءات فى حركة حياة الناس لما أعملوا عقولهم فيما أعطاهم الله من مادة وعقل وفكر وأسباب ، وهذه كلها يد الله الممدودة لعبده ، والتى لا ينغى لنا ردها .

فإذا ما حاولت ولم تفلح ، ولم تثمر معك الاسباب ، فعليك أن تلجأ مباشرة إلى المسبب سبحانه ، لأنه خالقك والمتكفل بك

واقرا قوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنَّةٍ أَوْ قَاعِدٍ أَوْ قَاتِلٍ ۚ ﴾ [يونس] ويا ليت ساعة دعا ربه ولجأ إليه فاستجاب به يجعل به عند ربه رجمة ويتوقع أن يصيبه اضّر مرة أخرى ، لكن إن كشف الله عنه سرعان ما يعود كما كان

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَضُرَّهُ مِمَّا كَدَّلَكَ رَبُّهُ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس]

﴿أَمْ يَجِيبُ الْمُنْظَرُ﴾ [النمل] فالمضطر إذن لابد أن يجيبه الله ، فمن قال دعوت فلم يستجب لي ، فاعلم أنه غير مضطر ، فليست كل ضائقة تمر بالعبد تعد من قبل الاضطراب ، كالذي يدعو الله أن يسكن في مسكن أفضل مما هو فيه ، أو يراتب ويدخل أوغر مما يأخذه الخ ، كلها مسائل لا اضطراب فيها ، وربما علم الله أنها الأفضل لك ، ولو زادك عن هذا القدر صفت وتكبرت

كما قال الحق سبحانه وتعالى ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ [النمل] أن رآه استغنى ﴿٧﴾ [الطوق]

فلقد طمعت الخير من وجهة نظرك ، وربك يعلم أنه لا خير فيه ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء]

فربك يصصح لك هذا خطأ في فهمك للمسائل فيقول لك سأحقق لك الخير ، لكن بطريقة أخرى أسب من هذه ، فلو أجبتك إلى ما تريد لحدث ما لا تحمد عقباه ، وكان الله - عز وجل - وهو ربنا والمتولى أمرنا يجعل على دعائنا (كفتور) ولو كان الله سبحانه موظفا يلي لكل منا طلبه ما استحق أن يكون إلها حاشا لله

فالإنسان من طبيعته العجلة والتسرع فلا يد للرب أن يتدخل في أقدار عبده بما يصلحه ، وأن يختار له ما يناسبه ، لأنه سبحانه الأعلّم بعواقب الأشياء وبوقتها المناسب ، ولكل شيء عنده تعالى موعد وميلاد .

واقراً قول الله تعالى ﴿وَلَوْ يُعِجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس]

ألا ترى بعض الأمهات تحب الواحدة ولدها وتشفق عليه ، فإن عصاها في شيء أو ضايقها تقول رافعة يديها إلى السماء (إني أشرب

نارك) او (إهى أعمى ولا أشوفك) فكيف لو أجاب الله هذه الحمقاء ؟
إذن من رحمته تعالى بنا أن يحتار لنا ما يصلحنا من الدعاء
ويُعافينا من الحقد والعجلة .

وقوله تعالى ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ (٦٦) [النمل] فكما أنه لا يجيب
المضطّر إلا الله لا يكشف السوء إلا الله ، ولو كان هناك إله آخر
يجيب المضطر ويكشف السوء لتوجّه الناس إليه بالدعاء ، لكن حينما
يُصاب المرء لا يقول إلا يا رب ولا يجد غير الله يلجأ إليه لأنه لن
يقشّ نفسه فى حال الضائقة أو المصيبة التى ألمت به

وقد مثّلنا لذلك - والله المثل الأعلى - بحلاق الصعة فى الماضى ،
وكان يقوم بعمل الطبيب الآن ، فلما أنشئت كلية الطب وتخرّج فيها أحد
أبناء القرية اتجهت الأنظار إليه ، فكان الحلاق يذمّ فى الطب والأطباء ،
وأنهم لا خبرة لديهم لتقوى له مكانته بين أهل القرية ، لكن لما مرض
ابن الحلاق ماذا فعل ؟ إن غشّ الناس على يقشّ نفسه أخذ الولد فى
ظلام الليل ولقّه فى البطانية ، وذهب به إلى (الدكتور) الجديد .

لذلك يقول كل مضطر وكل من أصابه سوء يا رب يا رب حتى
غير المؤمن لا بدّ أن يقولها ، ولا ندّ أن يتجه بعينه وقبه إلى السماء
إلى الإله الحق ، فالوقت حدّ لا مسوومة فيه

ويقول تعالى بعدما ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ .. ﴾ (٦٦) [النمل] أى
يحلف بعصم بعضها فيها ، كما قال ﴿ لَيْسَتِ خُلَفَاؤُهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا
اسْتَحْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. ﴾ (٥٥) [النور]

فهل يملك هذه المسائل إلا الله ﴿ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ﴾ (٦٦) [النمل]
والاستفهام هنا ينكر وجود إله غير الله يفعل هذا ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ
(٦٧) [اسم] يعنى لو تمكركم وتذكركم لعرفتم أنه لا إله إلا الله

ثم يقول الحق سبحانه

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ
يُرْسِلُ الرِّيحَ بَشِيرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ
مَعَكُمْ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٣)

هذه أيضاً من الأمور الخاصة التي تضرعُ بعض الناس دون
بعض ، وكانت قبل تقدُّم العلم ، حيث كانت النجوم هي العلامات التي
يهتدي بها املاحون في البحر والمسافرون في البر ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ
هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١٦) [البحر]

وقد برع في علوم الفلك والنجوم وفي علوم البحار علماء من
العرب وضَعُوا أُسُسًا لهذه العلوم ، لا عن علم عندهم ، إنما عن
مشاهدة لطوأم الكون ، وتوفيق وهداية من الله عز وجل .

وحين نتأمل ارتقاءات الإنسان في الحياة نجد أنها نتيجة مشاهدة
حدثت صدفة ، أو حتى بطريق الحصاد ، وإلا فكيف اهتدى الإنسان إلى
تخمير العجين ليخرج الخبز على هذه الصبغة وبهذا الطعم ؟ ذلك
يُسَمُّونَ العجينَ فطير وهو المِلَط الذي لم يتخمَّر ، وتخمير وهو
الذي تخمَّر وارتفع قليلاً وتحلَّله الهواء

وقد نقلوا هذا المعنى للرأي ، يقولون فلان رأيه فطير يعني
سطح منعجل ، وفكرة مختمرة يعني مدروسة بتأنٍ ، ومنه الفطرة
يعني الشيء حين يكون على طبيعته .

وربما اكتشفت إحدى النساء مسألة التخمير هذه بنجعة خطأ أو
مصادفة حين عجت العجين ، وتأخرت في خبزه حتى خمر ، فم

خبزته جاء على هذه الصورة المحيية إلينا ، كذلك الأمر في اكتشاف
ابنسلين مثلاً ، والغواصات والبخار والعجة . الح
وتأمل مثلاً لمانا تطيح العلوخية ولا تطبخ الدجاج ، إنها
- إذن - هداية الله الذي خلق فسوى ، واذى قدر فهدى

الحديد تعلمنا طرّفه بعد إدخاله النار ليلين ، لأن الله تعالى علمها
لبيه داود عليه السلام حين قال ﴿وَالنَّارُ لَهُ الْهَدِيدُ﴾ [مى]
إذن كثير من اكتشافات الكون وارتقاءاته تاتى بهداية الله .
وكلما مرّ الزمن تكشفت لنا أسرار لكون ، كلّ قى ميغاده وميلاده
الدى أراداه الله ، إما أن يستنبطه الناس بمقدمات إذا جاء ميلاده وإلا
قيأتى ولو مصادفة

واقرا إن شئت قوله تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ
..﴾ [الفره] فحين يشاء الله يكشف لك الأشياء ، وييسر لك
أسانها ، فردا لم تنتيه لها أراكها مصادفه ، ومن وسائل إعلام الله
لخلق مثلاً أهل البوادي ترى الواحد منهم متكئاً ينظر إلى السماء
ويقول لك السماء ستعطر بعد كم من الساعات ، وليس فى السماء
سحاب ولا غيم يدل على المطر ، لكنه عرفها بالاستقراء والتجربة

ومن هذه الهداية الإلهية أن ترى البهائم العحماوات وهى تاكل
بالغريزة ، تاكل الحشيش الجاف ، ولا تاكل مثلاً النعناع الأخضر ،
أو الريحان مع أن رائحته جميلة ، لماذا ؟

لأنه جعل لرائحة الطيبة ، لكن طعمه غير طيب ، وإذا أكل
الحيوان وشبع لا يمكن أن ياكل بعدها أبداً هى خلاف الإنسان الذى
ياكل حتى انتخمة ، ثم الحلو والبارد والساخن ، ويقولون (أرها

الألوان تريك الأركان) أى أر معدتك ألوان الطعام وأصنافه ، تريك الأركان الخالية فيها .

لذلك تجد رائحة روث الحيوان أقل كراهية من رائحة فضلات الإنسان ، لأنها تاكل بالغريزة التى خلقها الله فيها ، ونحن ناكل بالشهوة ، وبلا نظام نلتزم به .

وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشْرًا ۖ ۝ (٦٢) ﴾ [النمل] أى مبشرات بالمطر ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ ۝ (٦٣) ﴾ والمطر مظهر من مظاهر رحمة الله ﴿ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ ۖ ۝ (٦٤) ﴾ [النمل] أى : لا إله إلا الله يهدىكم فى ظلمات البحر والبحر لا إله إلا الله يرسل الرياح تشتركم بالمطر ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ (٦٥) ﴾ [النمل] تنزهه أن يكون له فى كونه شريك .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ أَمَّنْ يَدْرَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ يُرْزُقُهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ
لَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلٌ مَا تَوَابَرَهُنَّ كُمْ ۖ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ (٦٦) ﴾

مسألة الخلق هذه لا يستطيعون إنكارها ، وقد سألهم الله . ﴿ وَلَوْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ ۝ (٦٧) ﴾ [الزحرف]

وفى موضع آخر ﴿ وَلَوْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ ۝ (٧٥) ﴾ [لقمان]

لأنهم لا يملكون إنكارها ، وإن أنكروها فالرد جاهر ، على من خلق أولاً أن يُرينا شيئاً جديداً من خلقه .

ومعنى ﴿ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ۝ (٦٤) ﴾ [النمل] يعنى الخلق الاول من العدم ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۝ (٦٤) ﴾ [النمل] لأن الذى خلقنا من عدم كتب علينا لموت ، وأخبرنا

بالغيث أننا سنُبْعَث يوم القيامة ، وسيعاد هذا الخلق مرة أخرى ،
فالذين لم يملِكوا إنكار الحلق أكرهوا البعث . فقالوا كما حكى القرآن
﴿ ق وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا
شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَنَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) ﴾ [ق]

فاستبعدوا البعث بعد الموت ، وتحلل الاجساد في التراب . وهذه
القضية خاض فيها لفلاسفة بكلام طويل ، وللدُّعَاء عليهم نقول أنتم
في القوانين الوضعية تجعلون الثواب لمن أحسن ، والعقوبة لمن
قصر ، وتُحَرِّمُونَ بعض الأعمال بعينها ، وتصحون لها العقوبة
للمناسبة ، وفي القانون لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص
ولا نص إلا بإعلام

ولم تر في القانون الوضعي جريمة تُركت بلا عقوبة ، فإذا كان
البشر يضعون لمجتمعاتهم هذه القوانين التي تنظم حياتهم ، ليس
رب البشر أولى بقنن الثواب والعقاب ؟ وإذا كنت لا ترضى بنفسك
أن يُلْتَمَز المجرم من العقاب ، فكيف ترضى ذلك لله ؟

ثم لا تعلم أن كثيراً من المحرمين يرتكبون جرائمهم في غفلة من
القانون ، أو يُعْمَلُونَ على العدالة ويهربون من العقاب ، ويفلتون من
القوانين الوضعية في الدنيا ، ولو تركنا هؤلاء بلا عقاب أيضاً في
الآخرة فهم إذن الفاترون ، وسوف تشجع بذلك كل منحرف خارج
عن القانون .

أما إن علم أن له رباً قيوماً عليه ، وإن عَمِيَ على قصاء الأرض
فلن يُعَمَّى على قصاء السماء ، وإن أفلت من عقاب الدنيا فلن يُفْلِتَ
أبداً من عقاب الآخرة - إن علم ذلك استقام

لكن ، ما وجه استبعادهم للبعث ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٧) ﴾ [ق]

يقولون . هَبْ أَنْ إِنْسَانًا مَاتَ وَدُفِنَ وَتَحُلَّ جَسَدُهُ إِلَى عِبَاصِرِ
امْتَصْنَتِهَا الْأَرْضُ ، ثُمَّ غُرِسَتْ شَجَرَةٌ فِي هَذَا الْمَكَانِ وَتَغْذَتْ عَلَى هَذِهِ
الْعِبَاصِرِ ، وَأَكَلَ مِنْ ثَمَارِهَا عِدَّةُ أَشْخَاصٍ ، وَاسْتَقَلَّتْ جَرْنِيَّاتُ الْعَيْتِ
إِلَى الثَّمَارِ ثُمَّ إِلَى مَنْ أَكَلَ مِنْهَا ، فَحِينَ يُبْعَثُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فَلَا يُهْمَا تَكُونُ هَذِهِ الْجَرْنِيَّاتُ لِلأَوَّلِ أَمْ لِلثَّانِي ؟ إِذَا بَعَثْتَهَا لِلأَوَّلِ
كَانَتْ نَقْصًا فِي الثَّانِي ، وَإِنْ بَعَثْتَهَا لِلثَّانِي كَانَتْ نَقْصًا فِي الْأَوَّلِ .

وهذا الكلام مبهم على سبيل أَنْ الشَّخْصَ مَادَّةٌ فَقَطْ ، لَكِنْ
التَّشْخِصَاتُ مَادَّةٌ وَمَعْنَى وَهَبْ أَنْ شَخْصًا بَدِينًا يَرِنُ مِثْلًا مَائَةً
كِيلُو أَصَابَهُ مَرَضٌ أَهْزَلَهُ حَتَّى قُلَّ وَرَثَهُ إِلَى خَمْسِينَ كِيلُو مِثْلًا ، ثُمَّ
عُولِجَ وَتَحَسَّنَتْ صِحَّتُهُ حَتَّى عَادَ كَحَالِهِ الْأَوَّلِي . فَهَلِ الْجَرْنِيَّاتُ الَّتِي
نَقَصَتْ مِنْ وَرَثَتِهِ هِيَ نَفْسُهَا الَّتِي دَخَلَتْ فِيهِ بِالصَّحَّةِ وَالنَّغْذِيَّةِ ؟
بِالطَّبْعِ لَا ، أُنْغِيرَتْ شَخْصِيَّتُهُ بِهَذَا لِنَقْصِ ، أَوْ بِهَذِهِ الرِّيَادَةِ ؟ لَا ، بَلْ
هُوَ هَرِ

إِذِنْ لِشَخْصٍ جَرْنِيَّاتٌ مُخْتَلِفَةٌ التَّكْوِينِ ، وَلَهُ مَعْنَى وَرَوحٍ
سَاعَةً تَتَجَمَّعُ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ يَأْتِي الشَّخْصَ الْمَرْدُ

لِذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى رِيبًا عَلَيَّ مَوْلَايَ الْمُتَفَلِّسِينَ ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ
الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ (٤) [ق]

فَمَاذَا تَسْتَبْعِدُونَ الْإِعَادَةَ بَعْدَ الْمَوْتِ وَقَدْ أَقْرَرْتُمْ بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ
وَأَعْتَرَفْتُمْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ ، وَالْيَسْتِ الْإِعَادَةُ مِنْ مَوْجُودِ أَهْوَى مَنْ
الْخَلْقِ بَدَايَةِ مِنَ الْعَدَمِ ؟ ثُمَّ إِنْ الْإِعَادَةُ تَحْتَاجُ إِلَى قُدْرَةِ عَلَى الْإِبْرَارِ
وَلَى عِلْمِ .

أَمَّا الْعِلْمُ ، فَالْحَقُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يَقُولُ ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ

الأرض منهم وعندنا كتابٌ حفيظٌ ﴿٤﴾ [ق] يعنى يعلم وزنك ، ويعلم جراثيك ، لا يغيب منها ذرة واحدة^(١) .

أما القدرة ، فقد آمنتُم بها حين أقررتم بقدرته تعالى على الخلق من عدم . والإعادة أهون من الإنشاء الأول ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ..﴾ (٢٧) [الروم]

وإن كابر الضالقي - عز وجل - لا يُقال في حقه هيِّن وأهون . لكنها بعرفكم أنتم ، وبما يُقرب المسألة إلى لذهانكم .

وفي القدرة ايضاً يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿أَفَعِيبَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ..﴾ (١٥) [ق]

ثم يقول سبحانه ﴿وَمِنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ..﴾ (٦٤) [الزلزل]

الزرق كلُّ ما يُنتفع به ، وهو إما من السماء وإما من الأرض ، وإما من البقائهما حين يدرل الماء من السماء ، ويحتلط بتربة لأرض فيخرج النبات

﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ..﴾ (٦٤) [النس] يكرر نفس الاستفهام السابق لتأكيد أنه لا إله إلا الله ياتيكم بهذه النعم

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦٤) [الزلزل] أى هاتوا الدليل على وجود إله آخر يقول اب الذى بدأت الخلق ، وأما الذى أزرع من السماء والأرض . فإذا لم يأت من يقول هذا فقد ثبتت الدعوة لصاحبها حيث لم يَقم معارض - ودعك من مسألة لإعادة هذه ،

(١) قال ابن عباس قوله تعالى ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَلْقَى الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ (٤) [ق] ما تترك الأرض من نوحهم وأشعارهم ومخاضهم وقال قتادة يعنى الموتى تأكلهم الأرض . هـ هاتوا [الدر المنثور في التفسير للمأثور للسيوطي ٥١٠/٧]

يكفى أن يدعى الخلق : لأن القادر على الخلق قادر على الإعادة ، فلا يستحيل على الذى خلق من عدم أن يُعيد من موجود .

لكن ، ما مناسبة الكلام عن الرزق من السماء والأرض بعد مسألة الإعادة ؟ لا بُدَّ أن تكون هناك علاقة بينهما ، فالرزق الذى يأتى عن طريق النقاء ماء السماء بتربة الأرض وهو النبات دورة مثل دورة الإنسان وإعادة كإعادته ، حيث يتغذى الإنسان على نبات الأرض ، وباحد منه حاجته من الطاقة والغذاء ، وما تبقى منه يخرج على صورة فضلات تتحلل فى الأرض ، حتى ما تبقى منها فى جسم الإنسان يتحلل بعد موته إلى عناصر الأرض

كالوردة مثلاً بعد تضارثها وطراوتها وجمالها حين تقطف تجف ويتبخر ماؤها ، وكذلك اللون والرائحة فى الأثير الجوى ، وما تبقى منها من مادة حافة تتحلل فى التربة ، فإذا ما زرعنا ورده أخرى ، فإنها تتعدى على ما فى التربة من عنصر ، وما فى الأثير الجوى من لون ورائحة

إذن فعناصر التكوين فى الكون لم ترد ولم تنقص منذ خلق الله الخلق ، ولدورة النبات فى الطبيعة بدء ونهاية وإعادة أشبه ما تكون بخلق الإنسان ، ثم موته ، ثم إعادته يوم القيامة

وكان الحق - تبارك وتعالى - يعطينا الدليل على الإعادة بما نراه من دورة النبات ، دليلاً بما نراه على الغيب الذى لا نراه

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ

وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾

كما قال الحق سبحانه وتعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ .. (٥٩)﴾ [الأنعام]

والغيب كل ما غاب عن إدراكك وحسك ، لكن مرة يكون الغيب غيباً (إضافياً) يغيب عنك ، ولا يغيب عن غيرك ، فأنا لا أعرف مثلاً ما فى جيوبكم لكن أنتم تعرفون ، والذى سُرِق منه شيء وأخفاه السارق ، فالمسروق منه لا يعلم أين هو ، لكن السارق يعلم .

وإما يكون الغيب غيباً مطلقاً ، وهو ما غاب عتد جميعاً وهو قسماى قسم يغيب عنا جميعاً ، لكن قد كتشفه ككل الاكتشافات التى اهتدى إليها البشر . وهذه يكون لها مقدمات تُوصل إليها ، وهذا غيب نصف إضافى ، لأنه غيب اليوم ، لكن نراه مشهداً بعد ذلك ، فلا يكون غيباً .

ومثال ذلك تمرين الهندسة الذى نعطيه للأولاد بمقدمات ومعطيات ، يُعملون فيها عقولهم حتى يتوصلوا إلى الحى المطلوب ، وهذا النوع يقول الله عنه ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ . (٢٥٥)﴾ [البقرة]

فإذا شاء الله وجاء ميلاد هذا العيب أطلعهم الله تعالى على المقدمات التى توصل إليه ، إما بالبحث ، وإما حتى مصادفة . وهذا يؤكد قوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣)﴾ [فصلت]

ومن الغيب المطلق غيب حقيقى ، لا يطلع عليه ولا يعلمه إلا الله فقد استقل سبحانه وتسرّد بمعرفته . وهذا العيب يقول تعالى عنه ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَيْهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ . (٢٧)﴾ [الحى]

ومن هذا الغيب لمطلق قصصية القيامة ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (١٥) [السن] فالقيامة لا يعلم وقتها
إلا الله سبحانه ، إلا أنه جع لها مُقَدِّمَاتٌ وعلامات تدلُّ عليها وتُنسِئ
بِقُرْبِهَا

قال عنها ﴿أَكَادُ أَحْفِيهَا ..﴾ (١٥) [طه] البعض^١ يظن أن
﴿أَحْفِيهَا ..﴾ (٥) [طه] يعنى أداريها وأسترها لكن المعنى ليس
كذلك ﴿أَحْفِيهَا ..﴾ (١٥) [طه] يعنى أزيل حفاءها^٢ ، نفرِّق بين خفى
الشيء واخفاه خفى الشيء عنى ستره ودراه ، أما احفاه فمعنى .
أظهره ، وهذه تُسمَّى همزة الإزالة ، مثل أعجم الشيء يعنى أزال
عُجمته ومنه المعجم الذى يُوضِّح معانى المفردات .

وكما تكون الإزالة بالهمزة تكون بالتضعيف . نقول مرض فلان
يعنى أصابه المرض ، ومرَّض فلاناً يعنى عالجه وأزال مرضه ،
ومنه ، قشَّر البرتقالة يعنى أزال قشرها

فالمعنى ﴿أَكَادُ أَحْفِيهَا ..﴾ (١٥) [طه] أى أكاد أظهرها ، ألا ترى
أن لساعة علامات كبرى وعلامات صغرى ، ترى بعضها الآن ،
وتتكشف لك مع الايام علامه بعد أخرى

لكن يظل للقيامة وقتها الذى لا يعلمه إلا الله . بذلك يقول عنها
﴿لَا يُجَلِّيْهَا بَوْتُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (١٨٧) [الاعراف]

والنبي ﷺ يفخر بأنه لا يعلم موعدها ، فيقول حين سئل عنها

١) قاله ابن عباس فيما رواه عنه ابن رضى حاتم وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٢٢).

قال لا اظهر عليها أحداً غيرى

٢) خرج ابن رضى حاتم وابن الأبارى عن وهاب قال أقرأنها سعيد بن جبيرة (أكاد

أحفيها) [بفتح الالف] يقول أظهرها [الدر المنثور للسيوطى ٥/٦٢٢]

« ما المستول عنها بأعلم من السائل »^(١)

فَشَرَفَ لِرَسُولِ اللَّهِ الْآءَ يَعْلَمُ شَيْئًا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ عِلْمَهُ ، وَالْقِيَامَةُ غَيْبٌ مُطْلَقٌ لَمْ يُعْطِ اللَّهُ مَفَاتِحَهُ لِأَحَدٍ حَتَّى الرِّسَالِ

وَقَدْ يُكْرِمُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْضَ خَلْقِهِ ، وَيُطِيعُهُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْغَيْبِ ، وَمِنْ ذَلِكَ الْغَيْبِيَّاتِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهَا مُقَدِّمَاتٌ نُوَصِّلُ إِلَيْهَا ، فَلَا بُدَّ أَنَّهَا أَتَتْهُ فِي وَحْيِ الْقُرْآنِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ الْأَرْضُ وَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٢) فِي بَعْضِ سِينٍ .. (٤) ﴾ [الروم]

وَكَانَ الرُّومُ أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ ، وَكَانَ الْفَرَسُ كَهْرًا يُعْبَدُونَ النَّارَ ، لِذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَحَابَتُهُ يَتَمَوَّنُونَ انْتِصَارَ الرُّومِ عَلَى الْفَرَسِ ، فَدَلَّ الْوَحْيُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ بِخَبْرِهِ ﴿ غَلِبَتِ الرُّومُ (٢) ﴾ [الروم] لَكُنْهُمْ فِي النِّهَايَةِ ﴿ سَيَغْلِبُونَ (٣) ﴾ [الروم] وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَدَدَ عَلَيْهِمْ ﴿ فِي بَعْضِ سِينٍ .. (٤) ﴾ [الروم] لَكَانَ انْتِصَارُهُمْ دَائِمًا ، لَكِنْ مَنْ يُسْتَطِيعُ تَحْدِيدَ مَصِيرِ مَعْرَكَةٍ بَيْنَ قَوْتَيْنِ عَظُمَيَيْنِ بَعْدَ بَعْضِ سِينٍ إِلَّا اللَّهُ ؟

وَلَا أَنْ انْتِصَارَ الرُّومِ يُفْرِحَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ ، قَالَ سُبْحَانَهُ ، ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يُفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِهَيْبَةِ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الروم]

وَتَشَاءُ قُدْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ انْتِصَارُ الرُّومِ عَلَى الْفَرَسِ فِي نَفْسِ

(١) حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ أَخْرَجَهُ مُسْنَدٌ فِي صَحِيحِهِ (٨) ، وَكَذَا لِنَعَارِي فِي صَحِيحِهِ (٥٠) مِنْ حَدِيثِ هُرَيْرِ بْنِ الْأَخْطَلِ عَنْ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي صُورَةِ رَجُلٍ يَسْأَلُهُ ، وَمِمَّا سَأَلَهُ قَالَ « أَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ » قَالَ مَا الْمُسْتَوَّلُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ قَالَ فَلَاخِيزَنِي عَنْ أَمْرَانِهَا قَالَ أَنْ تَذْكَرَ الْأَمَةَ وَرَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ الْعَرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّيْءِ ، يَتَطَاوَلُونَ فِي الْهَيْبَةِ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَعَرٍ يَا عَمْرُؤُ ، أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ ؟ قَالَ لَا ، وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ ، أَتَاكَمُ بِعِلْمِكُمْ دِينَكُمْ ،

اليوم الذي انتصر فيه المؤمنون على الكافرين في بدر^(١)

ومن الغيب الذي يفيض الله به على عبد من عباده ما حدث من الصديق أبي بكر - رضي الله عنه - وقد أعطى ابنه عائشة - رضي الله عنها - مالا ، فلما حضرته الوفاة قال لها هاتي ما عندك من المال ، نعماً هما أخواك واختاك أخواك هما محمد وعبد الرحمن ، واختاك لا نعلم أن لعائشة اختاً غير أسماء ، فمن هي الأخرى^(٢) ؟

كان الصديق قد تزوج من ابنة خالته^(٣) وكانت حاملاً ، لكن الحق - تبارك وتعالى - تجلى عليه وألهمه أنها ستجيب بنتاً تنضم إلى عائشة وأسماء^(٤)

وقوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ بَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُنْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥] أي كما

(١) عن أبي سعيد الخدري قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس ، فاعجب المؤمنون بظهور الروم على فارس أخرجهم الواحد في أسياح الزول من ١٩٧

(٢) هي أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق التيمية ، تابعة ، أمها حبيبة بنت حارثة وضعتها بعد موت أبي بكر روى عنها جابر بن عبد الله الأنصاري [الإصابة ٢٧٦/٨]

(٣) هي حبيبة بنت حارثة بن زيد الخزرجية ، زوج أبي بكر الصديق ووالدة أم كلثوم ابنته التي مات أبو بكر وهي حامل بها فقال : دو بطر بنت حارثة ما أظنها إلا أنني فكان كذلك تزوجت بساف بن عتبة بن عمرو بعد وفاة أبي بكر انظر الإصابة في تمييز الصحابة (٤٨/٨)

(٤) زوج أبو بكر الصديق عمة نساء

- أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية وأنجب منها عائشة عبد الرحمن اسمها ربيب بنت عبيد كانت زوجة للحارث بن سبخيرة أو عبيد الله بن الحارث وولدت له الطفليين ثم مات عنها وتزوجها حليفه أبو بكر الصديق ماتت من حياة النبي ﷺ [الإصابة ٢٢٢/٨]

- حبيبة بنت حارثة ، وأنجب منها أم كلثوم وتزوجت بعده

- قتيلة بنت عبد العزى قرشية من بني عامر بن لؤي - وهي والددة أسماء ومبدأ الله قال ابن حجر العسقلاني في الإصابة (١٦٩/٨) : إن كانت عاشت إلى الفتح فالظاهر أنها أسلمت .

أنا لا نشعر بالموت ولا نعرف ميعاده ، كذلك لا نشعر بالبعث ،
ولا متى سنُبعث

ثم يقول الحق سبحانه

﴿بَلْ أَدْرَأَكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ
فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ عَنْهَا غَمُونَ﴾ ﴿٦٦﴾

معنى ﴿أدراك﴾ .. ﴿٦٦﴾ [النمل] أى تدارك يعنى توالى
وتتابع الحديث عنها عند كل الرسل ، ومنه قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا
أَدْرَأَكُوا فِيهَا ..﴾ ﴿٦٨﴾ [الاعراف] يعنى جُمع بعضهم على بعض .

إذن تتابع الإعلام بالآخرة عند كل رسل الله ، فما منهم لا وقد
دعا إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر ، وأتى بالدليل عليه

ومع متابعة التذكير بالآخرة قال الله عنهم ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ
مِنْهَا ..﴾ ﴿٦٦﴾ [النمل] أى من الآخرة ، فلماذا ؟ يقول تعالى ﴿بَلْ
هُمْ عَنْهَا غَمُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ [النمل] أى عميت أبصارهم وبصائرهم عنها ،
فلم يهتدوا ، ولو فتحت عيونهم وقلوبهم لآمنوا بها .

يقول تعالى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي
الصُّدُورِ﴾ ﴿٤٦﴾ [الحج]

إذن هناك شيء موجود بالفعل ، لكنى أغفلت ، أو تغافلت عنه
بإرادتى ، فأيات البعث والقيامة موجودة ومُتداركة ، لكن الناس غموا
عنها فلم يروها

ومعنى ﴿غَمُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ [النمل] جمع غَم ، وهو الذى عميت بصيرته
عن دلائل القيامة الواضحة

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ زَاكِنًا تَرَىٰ أَبَآؤُنَا
أَيُّنَا الْمُخْرَجُونَ ﴾

يريدون أن يستدلوا بعدم بعث الآباء على عدم نعتهم . لكن من قال لهم إن الآخرة ستأتى مع الدنيا ، وما سئيت الآخرة إلا لأنها تأتى آخرًا بعد انقضاء الدنيا

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ
إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

أى من لدن آدم - عليه السلام - والناس يموتون والأنبياء تذكر بهذا اليوم الآخر ، لكنه لم يحدث ﴿ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [التل] أى : كذب وافتراء وسج حياى كما فى أساطير السافيين ، لكن ما الدافع لهم لأن يتهموا الرسل فى بلاعهم عن الله هذا الاتهام ؟

قالوا لأن نفس المرء عزيزة عليه ، وكل مُسْرَف على نفسه فى المعاصى يريد أن يؤمن نفسه ، وأن يريحها وليس له راحة إلا أن يقول هذا الكلام كذب ، أو ينمى أن يكون كدياً ، ولو اعترف بالقيامة وبالبعث والحساب فمصيبته عظيمة ، فليس فى جُفَيْفَةٍ لا كفر بالله وعصيان لأوامره . فكيف إذن يعترف بالبعث ؟ فطبيعى أن يؤنس نفسه بتكذيب ما أخبر به الرسول

لذلك نجد من هؤلاء من يقول فى القدر إذا كان الله قد كتب على المعصية ، فلماذا يُعَذَّبُنِي بِهَا ؟ والمنطق يقتضى أن يكملوا

الصورة فيقولون . وإذا كتب على الطاعة ، فلماذا يثيبي عليها ؟
فلماذا ذكرتُم الشر وأَعفَلتم الخير ؟

إذن هؤلاء يريدون المنفذ الذي ينجون منه ويهربون به من
عاقبة أعمالهم

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُحْرِمِينَ ﴾ (١٨٧)

يدعواهم الله تعالى إلى السير في ممالك الأرض للنظر وللشامل
لا فيمن بُعث ، لأن البعث لم يأت بعد ، ولكن للنظر في عاقبة
المحرمين الذين كذبوا رسلهم فيما أتوا به ، وكيف أن الله هزمهم
ودحرهم وكتب النصر للرسول

وابعث مما جاء به الرسل ، فمن كذب الرسل كُتِبَ بالبعث مع أنه
واقع لا شك فيه ، لكن الحق - تبارك وتعالى - يُخَفِّيه لوقته ، كما
قال سبحانه ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ ۖ ﴾ (١٨٧) [الأنعام]
ثم يُسَلِّي الله تعالى رسوله ﷺ لِيُخَفِّفَ عَنْهُ أَلَمَ مَا يَلَاقِي فِي
سَبِيلِ الدَّعْوَةِ فيقول تعالى

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (٧٠)

وقد خاطب الحق سبحانه رسوله بقوله ﴿ فَفَعَلْنَاكَ بِإِذْنِ نَفْسِكَ عَلَى
آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٦) [الكهف]
والمعنى : مهك نفسك من الحزن ، والبضع كما قلنا العبدلغة في

الذبح بحيث توصله إلى البخاع^(١) والحق - تبارك وتعالى - يوضح أن مهمة الرسول البلاغ عن الله فقط ، ولا عليه أمن من آمن أو كفر من كفر ، إنما حب النبي ﷺ لأمته وحرصه على نجاتها جعله يجزي ويألم إن شرد منه واحد من أمته ، ألم يقل عنه ربه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨)

[التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه عنهم

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧١)

يقول المكذبون بالبعث ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ..﴾ (٧١) [النمل] أي بالبعث ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧١) [النمل] في أن هناك بعثاً

وسموا إخبار الله لهم بالبعث وعداً ، مع أنه في حقهم وعيد ، وفرق بين وعد وأوعد وعد للخير وأوعد للشر ، لكن الله تعالى يطمس على السنتهم ، وهم أهل الفصاحة فيقولون ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ (٧١) [النمل] وهو بالنسبة لهم وعيد ، لأن إبعاد المخالف لك بشر وعد لك بخير

وكان الحق - تبارك وتعالى - يقول لقد وعدنا بأمرين وعدنا رسلنا بالتأييد والنصرة ، ووعدت العالم كله بالبعث ، فإذا كنا صادقين في الأولى وهي مشاهدة لكم ومُحسنة فخذوه مقدمة ودليلاً على صدقنا في الأخرى ، وقد غايتم أن جميع الرسل انتصروا على

(١) قال الرمخشى هو من جمع الذبيحة إذا بالغ في ذبحها وهو أن يقطع عظم رقبتها ويبلغ بالذبيحة المذبح ، باباء ، وهو المرق الذي في الصليب ، والصنع ، بالنون ، دون ذلك ، وهو أن يبلغ بالذبيحة المذبح وهو السيط الأبيض الذي يجري في الرقبة قال ابن الأثير هكذا ذكره الرمخشى في الكشف وفي كتاب الفائق في غريب الحديث ولم أجده لغيره [لسن العرب مادة يحج]

مُكذِّبِيهِمْ إِمَّا بَعْثَابُ الْاسْتِثْصَالِ ، وَإِمَّا بَعْثَابُ الْهَزِيمَةِ وَالْانْكَسَارِ

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ

﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ

الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٧٦)

كلمة ﴿عسى ..﴾ [السر] تفيد الرجاء ، لكنها من الله تفيد التحقيق ، فلو قلّت مثلاً عسى أن يعطيك فلان ، لكان الرجاء ضعيفاً ، وأقوى منه لو قلّت عسى أن أعطيك لأننى لا أملك فلاناً ، لكن أملك نفسي ، وأقوى من ذلك أن أقول عسى أن يعطيك الله لأن أسبابى أما قد لا يمكّننى من الوفاء أما إن قال الله تعالى عسى ، فهى قمة التأكيد والتحقيق فى الرجاء ، وهى أعلى مراتبه وأملها

ومعنى ﴿رَدِفٌ لَكُمْ ..﴾ [السر] أى تنعمكم وجاء بعدكم من أردفه إذا أركبه خلفه على الدابة ، فهو خلفه مباشرة وفعلاً أصابهم ما يستعجلون ، فلم يمرّ طويلاً حتى جابت بهم الهزيمة فى سرٍّ ، فصديقنا فى الأولى حين قلنا : ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيَكُونُ الدَّبَرُ﴾ (٤٥) [السر] وقد عاينتم ذلك ، فخذوه دليلاً على انغيث الذى أخبرناكم به

ثُمَّ يَقُولُ رَبُّ الْعِزَّةِ سُبْحَانَهُ

﴿وَلِإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ

أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٧)

فمن فضله تعالى عليكم أن يؤخّر القيامة لعل الناس يبرعون ،

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٥١١١/٧) : ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٧٦) [السر] من

العذاب ، فكان ذلك يوم بدر وقبل عذاب القبر .

والأفاحابهم من أول تكذيب ، وهذا يببر أن الله تعالى يُمهّل الحَقُّ ليزداد فيهم أفس الهدى والإيمان ، ألا ترى أن المؤمنين برسول الله لم يأتوا جميعاً مرة واحدة في وقت واحد ، إنما على فترات زمنية واسعة .

لذلك قلنا إن المسلمين لأوائل كانوا في معاركهم مع الكفر يألسون إن فاتهم قتل واحد من رؤوس الكفر وقادته مثل عكرمه وعمرو وحالد وغيرهم ، ولو أطلعهم الله على الغيب لعلموا أن الله تعالى نجّاهم من أيديهم ليدخرهم فيما بعد لنصرة الإسلام ، وليكونوا قادة من قادته ، وسيوفاً من سيوفه المشهورة في رحوة الكافرين .

وقوله تعالى ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [الزل] دليل على أن البعض منهم يشكر ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَإِنْ رَيْكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ٧٤

ولك أن تقول في هذه الآية إذا كان الله تعالى يعلم ما تُكنُّ صدورهم وما يُعلنونه ، فمن باب أولى يعلم ما يُعلنون ، فلماذا قال بعدها ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [الزل] ؟

نقول لأن ما في الصدور غيبٌ والله غيبٌ ، وقد يقول قائل ما دام أن الله غيبٌ فلا يعلم إلا الغيب فنردّ عليه بأن الله تعالى يعلم الغيب ويعلم العلل

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ^(١)

إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ٧٥

(١) قال الحسن الغلبة هنا القيامة وقيل ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض ، حكاه البقاش وقال ابن شجرة الغلبة هنا جميع ما أحس الله تعالى من خلقه وعييه عنهم بهذا عام [ذكره القرطبي في تفسيره (٧/ ٥١١٥)]

معنى ﴿عائبة .. (٧٥)﴾ [المد] يعنى الشيء الغائب ، وبحقت به التاء الدالة على المبالغة ، كما نقول فى المبالغة رار ورارية ، ونسأ ونسأة ، وعالم وعلامة ، كذلك غائب وغائبة ، مبالغة فى خفائها .

و (من) هنا يرى البعض أنها زائدة ، لكن كلمة زائدة لا تليق بأسلوب القرآن الكريم وفصاحته ، ونُزِّهَ كلام الله عن الحشو والتغر الذى لا معنى له ، والبعض تأدب مع القرآن فقال (من) هنا صلة ، لكن صلة لاي شيء ؟

إذن لابد أن لها معنى لكى نوضحه نقول إذا أردت أن تنفى وجود مال معك تقول : ما عندى مال ، وهذا يعنى أنه لا مال معك يُعتدُّ به ، ولا يجمع أن يكون معك مثلاً عدة قروش لا يقال لها مال ، فإن أردت نفي المال على سبيل تأصيل العموم فى انفس تقول ما عندى من مال ، يعنى بداية معاً يُقال له مال مهما صَغُرَ ، فمن هنا إذن ليست زائدة ولا صلة ، إنما هى للغاية وتأصيل العموم فى النفي .

فالمعنى ﴿وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين (٧٥)﴾ [المد] أن الله تعالى محيط علمه أولاً بكل شيء ، مهما كان صغيراً لا يُعتدُّ به ، واقرأ قوله تعالى :

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرْدَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)﴾ [الأنعام]

كما أن قدرته تعالى لا تقف عند حد العلم إنما ويسجله ﴿إلا فى كتاب مبين (٧٥)﴾ [المد] أى فى أم الكتاب الذى سجل الله فيه كل أحداث الكون . فإذا ما جاءت الأحداث نراها موافقة لما سجله الله عنها

أزلاً . فمثلاً لما ذكر الحق - تبارك وتعالى - وسائل النقل والمواصلات في زمن نزول القرآن قال ﴿وَالْحَمَلُ وَالْأَفْئَالُ وَالْحَمِيرُ لَتَرْكِبُوهَا وَرِبَّةٌ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل]

فلولا تدبيل الآية بقوله تعالى : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل] لكان فيها مأخذ على القرآن ، وإلا فإين السيارة والطائرة والصاروخ في وسائل المواصلات ؟

إذن نستطيع الآن أن ندخل كل الوسائل الحديثة تحت ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل]

وسبق أن قلنا إن من عظمة الحق - سبحانه وتعالى - ألا يُعم بشيء لا اختيار لعبد فيه ، إنما بما له فيه اختيار ويفصحه باختياره ، كما حدث في مسألة تحويل القبلة ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٢٢)﴾ [البقرة]

فبعلتها الله تعالى صراحة ، ويُسميهم سفهاء ، لأنهم يعادون الله ويعادون رسول الله ، وبعد هذه الخصومة وهذا التجريح قالوا فعلاً ما حكام القرآن عنهم .

ولم نَرَ منهم عاقلاً يتأمل هذه الآية ، ويقول ما دام أن القرآن حكى عنا هذا قلن بقوله ، وفي هذه الحالة يجور لهم أن يتهموا القرآن وينالوا من صدقه ومن مكانة رسول الله ، لكن لم يحدث وقالوا فعلاً بعد نزول الآية ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٢٢)﴾ [البقرة] يعنى تركوا التوجه إلى بيت المقدس وتوجهوا إلى مكة ، قالوه مع ما لهم من عقل واختيار

وهذه المسألة حدثت أيضاً في شأن أبي لهب لما قال الله عنه .

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ (٢) سَيَصْلَىٰ
نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ (٣)﴾ [المسد]

لأنه قالها لرسول الله ﷺ لما جمعهم ليبلغهم دعوة الله ، فقال له
تباً لك الهذا جمعتنا^(١) وأبو لهب عم رسول الله ، كحمزة والعباس
ولم يكن رسول الله يدري مستقبل عمه ، فلعله يؤمن كما آمن حمزة
وصار أسد رسول الله ، وكما آمن العباس بن عبد المطلب

فلما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا ۝ (١)﴾ [المسد] كان بإمكانه أن يُكْثِبَهَا وأن
يؤمن فيسطق بالشهادتين ولو نفاقاً ، فله على ذلك قدرة ، وله فيه
اختيار ، لكنه لم يفعل .

إذن من عظمة كلام الله ومن وجوه الإعجاز فيه أن يحكم حكماً
على مختار كافر به ، وهو قرآن يُثَقَّى علانية على رؤوس الأشهاد ،
ومع ذلك لا يستطيع التصدي له ، ويبقى القرآن حجة الله على كل
كافر ومعاند

وبما نتأمل قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ
۝ (٦)﴾ [الحجر] يرى أن الحق سبحانه أدبر القرآن وتولى حفظه بنفسه
- سبحانه وتعالى - ولم يوكله إلى أحد ، مع أن في القرآن أشياء
وأحداثاً لم توجد بعد ، فكان الله تعالى يحفظها على نفسه ويُسجِّلُها

(١) عن ابن عباس قال لما نزلت ﴿وَأَلَدْرَٰ خَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ ۝ (٦٦)﴾ [الشعراء] خرج رسول الله
ﷺ حتى صعد الصفا (جبل مكة) فاجتمعوا إليه قال أرايتم لو أخبرتكم أن شيلاً
يخرج بسفح هذا الجبل أكلتكم مُصْبِقِي ٢ قالوا ما جربنا عليك كذبا قال قباني نذير لكم
بين يدي عذاب شديد قال أبو لهب تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا ٢ فنزلت هذه السورة
﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ (١)﴾ [المسد] ، خرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٨١ ، ٢)
وأحمد في مسنده (٣٧ / ١) ومسلم في صحيحه - كتاب الإيمان (حديث ٢٥٥) ،
والبخاري في صحيحه أيضاً (٧٣٦ / ٨) فتح الباري

ويعلمها ، لماذا ؟ لأنها ستحدث لا محالة .

فالحق سبحانه لا يخشى واقع الأشياء ألا تطارعه ، لأنه مالكها .
ألا ترى أن الإنسان يحفظ (الكمبيوتر) التي له ، ولا يهتم بالتى
عليه ؟ أما ربنا عز وجل فيحفظ لنا الأشياء وهي عليه سبحانه
وتعالى

واقرا إن شئت ﴿ سُبُحَنَّمَ الْجَمُعُ وَيُؤَلُّونَ الذُّبُرَ ٤٤٥ ﴾ [الجم] فإله
يُسجِّلها على نفسه ويحفظها ، لأنه القادر على الإنقاذ ، وفعلاً مُرِم
الجمع وولوا الأديار وصدق الله

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ
الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ٧ ﴾

فَرَّقَ بين أن تخاطب خالي الذهن ، وأن تخاطب مَنْ لديه فكرة
مُسَبِّقة ، فخالي الذهن يقبل منك ، أما صاحب الفكرة المسبقة
فيعارضك ، كذلك جاء من الكفار ومن أهل الكتاب من يعارض كتاب
الله وينكر ما جاء به ، ومع أنهم أعداء الإسلام وكارهون له لكن إن
سألتهم عما أخبر به القرآن يقولون نعم نعرف هذا من كتبنا ﴿ فَقَدْ
جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ٨٩ ﴾ [البقرة]

لذلك سيدنا عبد الله بن سلام^(١) عندما نظر إلى رسول الله علم أنه
الرسول الحق ، فمالت نفسه إلى الإسلام وقال والله إنني لأعرف

(١) هو أبو يوسف عبد الله بن سلام بن الحارث من بادية يوسف النبي عليه السلام كان من
بنى قينقاع ، كان اسمه الصغير فسماه النبي ﷺ عبد الله ، أسلم أول ما قدم النبي ﷺ
المدينة ، وقيل تأخر إسلامه إلى سنة ثمان كان أعم بنى إسرائيل ومن ساءتهم يرفى
بالمدينة عام ٤٢ للهجرة [الإمامة في تعيين الصحابة ٨١/٤]

محمداً كمعرفتي بابي ، ومعرفتي بمحمد أشد ، وصدق الله حين قال
عندهم ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ..﴾ (١٤٦) [البقرة]

علم عند الله أن الإسلام هو الطريق الذي يوصله إلى الله والذي
ينبغي لكل عاقل أن يتبعه ، فلما أراد أن يسلم أحب أن يكسب اجرة
بإعلان إسلامه وفضيحة المنافقين والكفار وأهل الكتاب ، فقال
يا رسول الله لقد استشرفت نفسي للإسلام ، وأخاف إن أسمعت أن
يذموني اليهود ويفعلوا بي كذا وكذا ، فاسألهم عني قبل أن أسلم ،
فسألهم رسول الله فقالوا هو خيرنا وابن خيرنا

وكانوا له الثناء والمدح عندهما قال عبد الله أما وقد قلت
ما قلت ، فأشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا بل هو
شرنا وابن شرنا ، وكانوا له عبارات السب والشتن^(١)

ثم يصف الحق سبحانه القرآن فيقول

﴿وَأَنزَلْنَاهُ ذِكْرًا وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٧)

معنى ﴿أنزله﴾ .. (٧٧) [النحل] أي : هداية دلالة وإرشاد ، وهذه
للمؤمن وللكافر ﴿وَرَحْمَةً﴾ (٧٧) [النحل] للمؤمنين فقط كما قال
سبحانه ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ..﴾ (٨٢)
[الاسراء] وفرق بين الشفاء والرحمة ، لأن العطف هنا يقتضي
لعفاية . الشفاء من الداء الذي جاء القرآن ليعالجه ، والرحمة ألا
يعاودك هذا الداء مرة أخرى .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٦٥/٨ - فتح الباري) وليسبق في دلائل النبوة
(٥٢٧/٢ - ٥٢٩) من حديث أس بن مالك رضي الله عنه وفي بعض ألفاظ الحديث
أنهم قالوا أولاً : ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا ، وفي لفظ آخر : خيرنا
وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٨)

قوله تعالى ﴿الْعَزِيزُ .. (٧٨)﴾ [النمل] أى الذى يتهر ولا يقهر ، ويغلب ولا يُغلب ، ويجبر ولا يُجبر عليه ، وهو مع ذلك فى عزته ﴿الْعَلِيمُ (٧٨)﴾ [النمل] فقد يكون عزيزاً لا يُغلب ، لكن لا علم عنده ، فالحق سبحانه عزيز عليم يضع العزة فى مكانها ، ويضع الذلة فى مكانها

كما قال سبحانه ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَبِيرُ . (٧٦)﴾ [آل عمران]

وقد وقف العلماء عند قوله تعالى عن نفسه ﴿يَدُكَ الْخَبِيرُ . (٧٦)﴾ [آل عمران] فاجتهد بعضهم فقال : التقدير بيدك الخير والشر ، وهذا التقدير يدل على عدم فهم لمعنى الآية فما عبد الله خير فى كل الاحوال ، لأن إيتاء الملك لمن ينصف فى الرعية خير ، ونزع الملك ممن يظلم به ويظلم خير أيضاً ، لأن الله سلب منه أداة الطغيان حتى لا يتعاضد ، ففى كل خير .

وما دام من صفاته تعالى أنه عزيز عليم حكيم رحيم ذو فضل ، فاطمنن أنها المؤمن بالله ، وتوكل على الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿تَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٧٩)

والتوكل أن تستضعف نفسك في شيء تحاول أن تقضيه بقوة ملا تجده عندك ، والتوكل الحق لا يكون إلا على الله الحي الذي لا يموت ، أما إن توكلت على بشر مثلك فقد يفاجئه الموت قبل أن يقضى لك حاجتك

وقال ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٧٩) [قند] أي أنك تتوكل على الله وأنت على الحق وعلى الطاعة له عز وجل ، لا على معصيته ، وما دُمْتَ تتوكل على الله وأنت على حال الطاعة فلا بد أن يكون بصيرك ومعينك .

ثم يُسألُ الحق سبحانه رسوله ﷺ ونُعزِّزه كي لا يالَم على مَنْ شربوا منه فلم يؤمنوا .

﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتِ وَلَا تَسْمِعُ الْقَبْرَ﴾ (٨٠)
﴿إِذَا وَلَوْ سَرَفْتَ رَبَّهُمَا﴾ (٨١)

والمعنى . لا تحزن يا محمد ، ولا تهلك نفسك على هؤلاء الذين لم يؤمنوا من قومك ، فما عليك ، لا البلاغ . والبلاغ كلام له أداة

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥١١٧/٧) « قد عورضت هذه الآية بقصة بدر وبالسلم على القبور . وما روى في ذلك من أن الأرواح تكون على شفير القبور في أوقات ، وبالر الميت يسمع قرع النعال إذا انصرفوا عنه إلى غير ذلك ، فالر الميت سمع الميت ثم يُسلم عليه » وقال أيضاً في التذكرة له (ص ١٦٤) « لا تعارض بينهما لأنه جائز أن يكون يسمعون من وقت ما أن في حال ما . فإن تخصيص المصوم ممكن ومصحح إذا وجد المخصص ، وقد وجد هنا » أو أن المراك في الإسماع النافع لهم

استقبال في السامع هي الآن ، فإذا تعطلت هذه الاداة لن يسمعوا ، وهؤلاء العوم تعطلت عندهم أداة السمع ، وهم كالموتى والذين أصابهم الصمم ، فآيات الله الكونية كثيرة من حولهم ، لكن لا يرون ولا يسمعون

وبيت الأمر يقف بهم عند حد الصمم ، إنما يؤثرون مدبرين من سماع الدعوة ، وهذه مبالغة منهم في الانصراف عن دعوته الحق ، لأنهم إن جلسوا فلن يسمعوا ، فما يلاك إذا ولوا مدبرين يجرؤون بعيداً ، وكان الواحد منهم يخاف أن يزول عنه الصمم وتلتقط أذنه نداء الله ، فيستميله النداء ، وعندها تكون مصيبته كبيرة - على حد زعمهم -

وهذا دليل على أنهم يعلمون أنه الحق ، وأنهم لو صفوا إليه لاتبعوه ، ألم يقولوا ، ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ۖ ﴾ [صافات] ذلك لأن القرآن جلالاً وجمالاً يأسر الألباب ، لذلك نهوا عن سماعه ودعوا إلى التشويش عليه ، حتى لا ينفذ إلى القلوب ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٨١)

فرق بين سماع قالة الحق أو قصية الصدق ، وأنت حالي الذهن ، وبين أن تسمعها وأنت مشغول بنقيضها ، فلكي يُعمر السماع ينبغي أن تستقبل الدعوة بذهن خال ثم تبحث بعقلك الدعوة وما ينقضها ، فما اجتذبت إليه واطمأنت إليه نفسك فأدخله وهذه يسمونها - حتى في الماديات - نظرية الحيز أي أن الحيز

الواحد لا يتسع لشيئين في لوقت نفسه . وسبق أن مثلنا لذلك بالضرورة حين نملؤنا بالماء لا بد أن يخرج منها الهواء أولاً على شكل فقاعات ! لأن الماء أكثف من الهواء

ومعنى ﴿إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨١) [البلد] ولقائل أن يقول ما دام تُسمع من يؤمن بآياتنا ، فما فائدة السماع وهو مؤمن ؟ نقول . الآيات ثلاثة ، مترتبة بعضها على بعض ، فأولها . الآيات الكونية العقيدية التي تشاهدنا في الكون وتستدل بها على وجود إله خالق قاهر لتسأل : من هذا الإله الخالق فيأتي دور الرسول الذي يُبين لك ويحل لك هذا اللغز ولا بد له من آيات تدل على صدقه في البلاغ عن الله هي المعجزة . فلما غفلنا عن الآيات الكونية ذكرنا بها الرسول ، فقال ومن آياته كذا وكذا .

فإذا آمنت بالآيات الكونية وآيات المعجزات ، فعليك أن تؤمن بآيات الأحكام التي جاءت بها معجزة النبي ﷺ ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَإِذَا رَفَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (٨٢)

كلمة ﴿وَفَع الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ..﴾ (٨٢) [البلد] أى . سقط كانه وبطبيعته يسقط لا يحتاج لمن يجبره على السقوط والسقوط ﴿عَلَيْهِمْ ..﴾ (٨٢) [البلد] كما في قوله تعالى ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِّنْ لُّوقِهِمْ ..﴾ (٧٦) [البلد]

والوقوع هنا يدل على أنهم سيتعرضون لشدائد ومتاعب ، وبتتبع هذه المادة (وقع) في القرآن تعد أنها جاءت كلها في الشدائد إلا

في موضع واحد^(١) هو قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ..﴾ (النمل ١٥٥) [النساء]

وما داموا لم يسمعوا للآيات ولم يقبلوها ، ولم يلتفتوا إلى منهج الله وصموا عنه أذانهم ، فلم يسمعوا كلام أمثالهم من البشر فسوف تُخرج لهم دابة تكلمهم

﴿أَخْرِجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ..﴾ (النمل ٨٢) وانظر إلى هذه الإهانة وهذا للتوبيخ : أنتم لم تسمعوا كلام أمثالكم من البشر ، ولم تفهموا من يخاطبكم بلغتكم ، فاسمعوا الآن من لادنى ، وافهموا عنها ، وفسروا قولها .

لكي ماذا ستقول الدابة لهم ؟ وما نوع كلامها ؟ ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (النمل ٨٢) أي . بآياتنا السابقة لا يؤمنون . وما أنا ذا أكلّمهم ، وعلى الماهر فيهم أن يقول لي . كيف أكلّمه .

وقد اختلف الناس في هذه الدابة^(٢) ، وفي شكلها وأوصافها ، وكيف

(١) وردت لفظة (وقع) في القرآن ٧ مرات

٥ منها ، بمعنى وقوع العذاب والشدة وبرئها (الأعراف ٧٦ ، ١٣٦) ، (يونس ٥١) ، (النمل ٨٢ ، ٨٥)

- موضعان بعدهما ما ذكره فضيلة الشيخ (النساء ١٠) والثاني ، قوله تعالى ﴿لَوْ لَوْحٌ مَرْسُومٌ﴾ (الأعراف ١٦٦) أي ثبت الحق

(٢) قال القرطبي في تفسيره { ٥١٩/٧ } : اختلف في تعيين هذه الدابة وصفها ومن أين تخرج . جئنا كثيراً

الأول ، أنه فصیل دابة صالح وهو صاحبها والله أعلم لما ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده عن حذيفة

الثاني . روى أنها دابة مرغية شعراء ، ذات قوائم طولها ستون ذراعاً

الثالث . يقال إنها الجساسة ، وهو قول عبد الله بن عمر

الرابع . وروى عن ابن عمر أنها على خلفه آدميين وفي السحاب وقوامها في الأرض

الخامس . وروى أنها جمعت من خلق كل حيوان

قال القرطبي . قد رفع الإشكال في هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليعتمد عليه . أي أنها فصير دابة صالح

يأتى القول من غير مألوف القول وهو الدابة ؟ لكن ما دام أن الله تعالى أخبر بها فهي حق ، لا ينبغي معارضة ، وعليها أن نأخذ وقوع ما حدث به القرآن قبل أن يكون دليلاً على صدقه فيما يحدث به فيما يكون

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ قَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ

بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (٨٢)

الفوج : هم الجماعة والزمرة من الناس . وأول من يُجمع فى هذا الموقف هم العتاة والجبابة الذين تولوا تكذيب آيات الله ، يحشرهم الله أولاً أمام العامة يتقدمونهم ويسبقونهم إلى النار ، كما قال سبحانه عن فرعون ﴿ بِقَدَمِ قَوْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورَثَهُمُ النَّارُ .. ﴾ (٩٨) (هود) فكما تقدمهم فى الضلال فى الدنيا يتقدمهم إلى النار فى الآخرة . وحين يرى الضالون إمامهم فى الضلال يقدمهم ينقطع أملهم فى النجاة ، فربما تعلقوا به فى هذا الموقف ينتظرونه أن يخلصهم ، لكن كيف وهم يسبقهم إلى هذا المصير ؟

ومعنى ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (٨٢) [العدل] قلنا فى معنى ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ (٨٢) [النمل] أى يُمنعون ، والمراد بمنعون أن يسبق أولهم آخرهم^(١) بحيث يدخلون جميعاً ، فالحق - تبارك وتعالى - يجمع أولهم على آخرهم (ليسمرفوا) سويًا فى النار . التابع والمتبوع كلهم سواء فى الذلة والمهانة ، فربما حاول أحد العتاة أو الجبابرة أن يسبق حتى لا يراه تابعوه ، ليفنصحه أمره ، فيؤخره الله ليفضحه على رؤوس الأشهاد

(١) هذا قول فتادة فيما نقله القرطبي فى تفسيره (٥١٢٣/٧) وقبور مجاهد فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦ ٢٨٤) وعزاه لعبد بن محمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم . وهناك قول آخر أى يساقون . قاله ابن زيد . وقال القرطبي أى يُمنعون ويساقون إلى مرجع الحساب

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا
عِلْمًا أَمَّا أَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ٨٤

فى سورة الاعراف يُورد الحق - تبارك وتعالى - مذكرة تفصيلية لهذا الموقف . ولهذا الحوار الذى يدور فى عَرَصات القيامة ، فيقول تعالى ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ بِمَا لَهُمْ نصيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُخَوِّفُونَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَافِرِينَ ﴾ (٣٧) قال ادخلوا فى أمر قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادأركم فيها جميعاً قالت أخرجهم لأولاهم ربنا هؤلاء أصلونا فاتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ (٣٨) وقالت أولاهم لأخرجهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ (٣٩) [الاعراف]

﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَظْهَرُونَ ﴾ ٨٥

قوله ﴿ ووقع ﴾ [ووقع .. (٨٥)] [النمل] أى . وجب لهم العذاب ﴿ بما ظلموا ﴾ .. (٨٥) [النمل] وكأنه شئ محسوس يسلط على رؤوسهم ﴿ فهم لا يظفون ﴾ (٨٥) [النمل] بعد حرست أنفسهم من قول ما راوا ، فلا يجدون كلاماً يظفون به ثم يقول الحق سبحانه

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَ نَاحِلٍ لِّسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا
إِن فِي ذَٰلِكَ لَا يَسْمَعُونَ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ٨٦

ينقل الصديق من الكلام عن الآخرة إلى آية كونية ، وهذه سمة من سمات أسلوب القرآن الكريم ، حيث يراوح بين الدعوة إلى الإيمان وبين بيان الآيات الكونية ، فبعد أن حدثنا عن الآخرة ذكر هذه الآية الكونية ، وكأنه يقول لا عُدْرَ لمن يُكذِّبُ بآيات الله ، لأن الآيات موجودة مشاهدة

لذلك قال ﴿ أَلَمْ يَرَوْا .. (٨٦) ﴾ [الزل] أي ألم يعلموا ويشاهدوا ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْنَا اللَّيْلَ لَنَسْكُنُوا فِيهِ .. (٨٧) ﴾ [الزل] أي للنوم والراحة والنهار مُبْصِرًا .. (٨٨) ﴾ [الزل] أي بما فيه من لاشعة والضوء الذي يُسبب الرؤيا .

وسبق أن بيَّنا دور العالم المسلم ابن أبيهيم في تصحيح نظرية رؤية الأشياء ، وكانوا يعتقدون أن الشيء يُرى إذا خرج الشعاع من العين إليه ، والصحيح أن الشعاع يخرج من الشيء المرئي إلى العين . فكان الشعاع هو الذي يُبصر ، فهو سبب للرؤيا ، ولولاه لا يرى الأشياء .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) ﴾ [الزل] فربك - عز وجل - نظم لك حركة حياتك بليل تسكن فيه ، وتخلد للراحة ونهار تسعى فيه وتبتغي من فضل الله كما قال تعالى ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلَتَبْشُرُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٧) ﴾ [النصر]

ولن تستقيم لنا حركة الحياة إلا إذا سرنا على هذا النظام الذي ارتصاه الله لنا ، فإن قلبَ الناس هذه الطبيعة فسهروا حتى الفجر ، فلا بد أن يلاقوا عاقبة هذه المخالفة في حركة حياتهم : تكاسلاً وتراخياً وقلة في الإنتاج . إلح

والحق - تبارك ومعالي - يشرح لنا هذه القضية في موضع آخر .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا^(١) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ بِأَتْيَكُمْ بَصِيرًا أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ بِأَتْيَكُمْ بَصِيرًا تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

ففي الكلام عن الليل قال . ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] وعن النهار قال ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص] لماذا ؟ قالوا لأن حاسة الإدراك في الليل هي السمع ، وفي النهار البصر . وفي هذا إشارة إلى طبيعة كل منهما حتى لا نُغيَرها نص ، بنسهر الليل ، وننام النهار

وفي قوله تعالى ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ . (٧٢)﴾ [القصص] ما يسميه العلماء باللف والنشر^(٢) ، أي لَفَ المحكوم عليه وهو الليل والنهار معاً ، ثم نشر حكم كل منهما على وجه الترتيب لتسكنوا فيه وهي تقبل الليل ، ولتبتغوا من فضله . وهي تقابل النهار

إنن . بعد أن استدلل الحق - تبارك وتعالى - بالموجود فعلاً من آيتي الليل والنهار أراد أن يستدل بعدمهما في ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا .. (٧١)﴾ [القصص] و ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا .. (٧٢)﴾ [القصص]

(١) السرمدة الزمن الطويل أو الدائم . [القاموس القريم ٣١٢/١]
(٢) اللف والنشر هو أن يُذكر شيئان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ويدوّن إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به ومثال الإجمالي قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هَؤُلَاءِ أَهْلًا (١١١)﴾ [البقرة] أي وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا اليهود . وللتصاري لن يدخل الجنة إلا التصاري [راجع تفصيل هذا في البرهان في علوم القرآن للسيوطي ٢٨٠/٢]

ثم يعود السياق مرة أخرى إلى الحديث عن القيامة

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ ذَاخِرِينَ﴾ (٨٧)

وكان الله تعالى يقول لى التفت إلى العبرة في الآيات الكونية .
حيث ستنفخ في يوم آت هو يوم القيامة ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ .
(٨٧)﴾ [النمل] وهو البوق ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا
مَنْ شَاءَ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [النمل] والفرع الحوف الشديد الذى يأخذ كل
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ، وكل مَنْ فِي الْأَرْضِ ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ .. (٨٧)﴾
[النمل] قالوا : هم الملائكة إسرافيل الذى ينفخ فى الصور
وجبريل ، وميكائيل ، وعزرائيل^(١)

لذلك لما تكلم سيدنا رسول الله ﷺ عن مسألة الصعق هذه قال
« فافيق من الصعقة بأجد أحى موسى ماسكاً بالعرش »^(٢) ذلك لأن
موسى عليه السلام صعق في الدنيا مرة حين تجلّى ربّه للجبل . كما
حكى القرآن ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَحَرَّمَوسَى صَحْقًا ..
(١٤٣)﴾ [الأعراف]

(١) عن أبي هريرة عن قوله ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ (٨٧) [النمل] قال هم الشهداء أورده السيوطي في الترغيب والترهيب (٢٨٤/٦) وعزاه لسميد بن منصور وابن جرير الطبري قال القرطبي في تفسيره (٥١٢٦/٧) « وهو قول سميد ابن جبير أنهم الشهداء متقلبو السيوف حول العرش . وحديث أبي هريرة صححه القاضي أبو بكر بن العري طبعوه عليه لأنه نص في تبيين غيره لجهاد ، والله أعلم »

(٢) قاله مقاتل ، وفيها أورده عنه القرطبي في تفسيره (٥١٢٦/٧)

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٣٩٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٣٧٤) بدووه من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال « الناس يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكْبَرُ أُولَ مَنْ يُفْقِقُ فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى أَخَذَ بِقَاضِيَةٍ مِنْ لَوْنَمِ الْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَفْلَقَ قَبْلِي أَمْ جُدِي بِصَعْقَةِ الطُّورِ »

وب كان الله تعالى ليجمع على نبيه موسى عليه السلام
صعقتين ، لذلك لم يُصعق صعقة الآخرة .

وقوله سبحانه ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ ذَاخِرِينَ ۝٨٧﴾ [النمل] أى صاغرين
أزلاء ، لا يقابى على الله منهم أحد ، حيث لا قدرة له على ذلك ؛ لأن
القيامة أنهت الاختيار الذى كان لهم فى الدنيا ، وبه ملكهم الله شيئاً
من الملك ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ
مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ۚ ۝٢٦﴾ [ال عمران]

فاعطى الله تعالى طرفاً من الملك ، ووهبه لبعض عباده فى دنيا
الاسباب والاختيار ، أما فى الآخرة فالملك لله تعالى وحده ، لا ينازعه
فيه أحد ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [مائدة]

فى القيامة يُنزع منك كل شىء تملكه وكل قدرة لك على ما تملك
حتى جوارحك لا قدرة لك عليها ، ولا إرادة لتفعل لك ، هى تبع
إرادتك فى الدنيا ، وبها ترى وتسمع وتمشى وتبسط ، أما فى الآخرة
فقد سبكت منك هذه الإرادة ، بدلين أنها ستشهد عليك ، وتُحاجك يوم
القيامة

ثم ينتقل السياق بنا مرة أخرى إلى آية كونية .

﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُمِعَ إِلَهُ
الَّذِي أَنْقَرَكُلُّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَيْرٌ لِّمِمَّا تَفْعَلُونَ ۝٨٨﴾

قوله تعالى ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ۚ ۝٨٨﴾ [النمل] أى تظنها ثابتة ،
وتحكم عليها بعدم الحركة ، لذلك نسميها الرواسى والاوئاد ﴿وَهِيَ
تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ ۝٨٨﴾ [النمل] أى ليس الامر كما تظن ؛ لأنها

تتحرك وتمر كما يمر السحاب ، لكنك لا تشعر بهذه الحركة ولا تلاحظها لأنك تتحرك معها بنفس حركتها .

وعبثاً أننا في هذا المجلس ، أنتم أمامي وأنا أمامكم ، وكان هذا المسجد على رحاية أو عجلة تدور بنا ، أيتغير وضعنا وموقعنا بالنسبة لبعضنا ؟

إذن لا نستطيع أن نلاحظ هذه الحركة إلا إذا كنت أنت خارج الشيء المتحرك ، ألا ترى أنك حين تركب القطار مثلاً ترى أن أعمدة السكك الحديدية هي التي تجرى وأنت ثابت .

ولأن هذه الظاهرة عجيبة سيفيق عندها الحكيم يريد الله عنهم هذا العجب ، فيقول ﴿صَنَّ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَنَ كُلُّ شَيْءٍ ..﴾ [الزلزال] يعني لا تتعجب ، فالمسألة من صنع الله وهندسته وبديع خلقه ، واختار هنا من صفاته تعالى ﴿الَّذِي أَنْتَنَ كُلُّ شَيْءٍ ..﴾ [الزلزال] يعني : كل خلق عنده بحساب دقيق مُنَقَّر

البعض^(١) فهم الآية على أن مر السحاب سيكون في الآخرة ، واستدل بقوله تعالى ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة] وقد جانبه الصواب لأن معنى ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة] أنها ستفتت وتتناثر ، لا أنها تمر ، وتسير هذه واحدة ، والآخرى أن الكلام هنا مبني على الظن ﴿تَحْسِبُهَا جَامِدَةً ..﴾ [الزلزال] وليس في القيامة ظن ، لأنها إذا قامت فكل أحداثها مُتَيَقَّنَةٌ

ثم إن السحاب لا يتحرك بذاته ، وليس له موقر يُحرِّكه إنما يُحرِّكه الهواء ، كذلك الجبال حركتها ليست ذاتية فيها ، فلم ترَ جبلاً

(١) قال القشيري وهذا يوم القيامة [نقله القرطبي في تفسيره ٧ / ٥١٢٧]

تحرك من مكانه ، فحركة الجبال تابعة لحركة الأرض : لأنها أوتاد عليها ، فحركة التوتد تابعة للموتود فيه .

لذلك لما تكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن الجبال قال ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ^(١) بِكُمْ .. (١٥)﴾ [النحل]

ولو خلقت الأرض على هيئة لسكون ما احتاجت لما يثبتها . فلا ند أنها مخلوقة على هيئة الحركة .

في الماضي وقيل تطور العلم كانوا يعتقدون في المنجمين وعلماء الفلك فكفروا أنهم يعلمون الغيب ، أما الآن وقد توصل العلماء إلى قوانين حركة الأرض وحركة الكواكب لأخرى في المجموعة الشمسية واستطاعوا حساب ذلك كله بدقة مكنتهم من معرفة ظاهرة الخسوف والكسوف مثلاً ونوع كل منهما ورقته وفعلاً تحدث لظاهرة في نفس الوقت الذي حدوده لا تتحلف

واستطاعوا بحساب هذه الحركة أن يصعدوا إلى سطح القمر ، وأن يطلقوا مركبات الفضاء ونُسروها بدقة حتى ن إحداهما تلتحم بالأخرى في الفضاء الخارجي

كل هذه الظواهر لو لم تكن مبنية على حقائق متيقنة لأدت إلى نتائج خاطئة وتخلقت .

ومن الأدلة التي تثبت صحة ما نميل إليه في معنى حركة الجبال ، أن قوله تعالى ﴿صُنِعَ لِلَّهِ الْإِنزِيقُ كُلُّ شَيْءٍ . (٨٨)﴾ [البر]

امتنان من الله تعالى بصنعتة ، والله لا يمتن بصنعتة يوم القيامة ، إنما

(١) ما يمسد تحركه واهتز أي لثلا تميد وتصطرب فالجبال العالية ثوارس البحار العميقة [القاموس القويم ٢/ ٢٤٦]

الامتنان علينا الآن ونحن في الدنيا^(١)

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَرَجٍ
يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ (٨٩)

لهذه الآية صفة لطيفة بما قبلها فكما أن الآيات الكونية التي أخبر بها الحق - تبارك وتعالى - حقيقة واقعة ، وتأكدت أنت من صدقها حيث شاهدها بنفسك وأدركتها بحواسك ، فكما أخبرناك بهذه الآيات تُخبرك الآن بحقيقة أخرى ينبغي أن تصدقها ، وأن تأخذ من صدق ما شاهدت دليلاً على صدق ما غاب عنك ، فربك يُخبرك بأنه ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ..﴾ (٨٩) [النمل]

الحسنة : فعل الانفعال فيه يكون لمطلوب الله في العبادة ، فإن فعلت الفعل على مراد الله تعالى كنت لك حسنة ، والحسنة عند الله بعشر أمثالها ، وتضاعف إلى سبعمئة ضعف على مقدار طاقة الناعل من لإخلاص والتجرد لله في فعله .

والمعنى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ..﴾ (٨٩) [النمل] أى : في الدنيا ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ (٨٩) [النمل] أى : شيء عنها في الآخرة .

وسمع من البعض مَنْ يقول . إذ كان قولنا لا إله إلا الله

(١) قال الماوردي في تفسير الآية : أنها ضرب المثل ، وفيما ضروب له ثلاثة أقوال أحدها أنه مثل ضربه الله تعالى بلديا يش الناصر إليها وألفه كالجبال ، وهي أحده بحظ من الزوال كالسحاب قاله سهل بن عبد الله

الثاني أنه مثل ضربه الله بالإيمان تحسبه ثابتاً في القلب وعمله صاعد إلى السماء الثالث أنه مثل ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش [نقله القرطبي في تفسيره ٥١٢٨/٧]

(٢) قال ابن عباس ومجاهد : أى وصل إليه الصبر منها وليس ، خير ، للتفصيل قال عكرمة وابن جرير : أما أن يكون له خير منها يعني من الإيمان فلا فإنه ليس شيء خيراً من قال لا إله إلا الله ولكن له منها خير [تفسير القرطبي ٥١٢٩/٧]

حسنة فالثواب عليها خير منها وهذا القول ناتج عن فهم غير دقيق
لمعنى الآية . لأن الله تعالى الذي أقر به في الشهادة هو الذي يهتني
هذا الثواب ، فمن جاء بالحسنة له حير ما شيء من هذه الحسنة
ومُسبب عنها . كما لو قلت : مأمور المركز خير من وزير الداخلية
أي خير جاءنا من ناحيته ، ووصل إلينا من طرفه ، أليس هو صاحب
قرار تعيينه ؟

ومن ذلك ما يقوله أصحاب الطريق والمجاذيب يقولون محمد
خير من ربه ، وفي مثل هذه الأقوال لعب بأفكار الناس وإثارة
لمشاعرهم ، وربما تعرض للإيذاء ، فكيف يقول هذه الكلمة ومحمد
مرسل من عند الله ؟ وحين تُمعن النظر في العبارة تجدوها صحيحة ،
فمراد الرجل أن محمداً خير جاءنا من عند الله .

أو يكون بمعنى ﴿لَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ..﴾ [المنزل] أن الجزاء على
الحسنة خير من الحسنة ، لأنك تفعل الحسنة فعلاً موقوتاً ، أما
خيرها والثواب عليها ، فسيظل لك خالداً بلا نهاية
ثم يقول الحق سبحانه .

(١)
﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ
هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُتِبَ عَلَيْهِمْ﴾

معنى ﴿فَكُبَّتْ ..﴾ [المنزل] القيت بعنف . وخصر الوجوه مع
أن الأعضاء كلها سنكب ، لأنه أشرفها وأكرمها عند صاحبها ، والوجه

(١) أي بالشرك قاله ابن عباس والنخعي وأبو هريرة ومجاهد وقيس بن سعد والحسن
قال القرطبي في تفسيره (٧ / ٥١٣) . وهو إجماع من أهل التأويل في أن الحسنة
لا إله إلا الله . وأن السيئة الشرك في هذه الآية .

موضع العرة والشموع ، فالحق - تبارك وتعالى - يريد لهم الذلة والمهانة ، وفي موضع آخر يُبين أن كل الأعضاء ستكَبُّ في النار ، فيقول تعالى ﴿ فَكُذِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْعَادُونَ ﴾ (٩٤) [الشعراء]

وليس هذا المصير ظلماً لهم ، ولا افتراء عليهم ﴿ هَلْ تَجُرُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٥) [النمل] وكما يقول سبحانه ﴿ لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ . (٩٧) ﴾ [غافر] فلم يَـجـامل صاحب الحسة ، ولم نظلم صاحب السيئة .

﴿ إِنَّمَا أَمْرٌ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٩٦)

فما دام أن الله تعالى أعطانا هذه المعلومات التي تلفتنا إلى قدرته في آياته الكونية ، ونذكرنا بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب ، فما عليك إلا أن تلتزم (عرفت فالزم) واعلم أن مَنْ أبلغك منهج الله سيسبقك إلى الالتزام به فالشرح كما أمرني

﴿ إِنَّمَا أَمْرٌ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ .. ﴾ (٩٦) [النمل] فإن طلبت منكم شيئاً من التكليف فقد طالبت نفسي به أولاً ، لأنني واثق بصدق تنليخي عن الله : لذلك ألزمت نفسي به .

والعبادة كما قلنا طاعة العابد للمعبود . فبم أمر وفيما نهى ، لأن ربك خلقك من عدم ، وأمدك من عدم ونظم لك حركة حياتك ، فإن كلفك فاعلم أن التكليف من أحلك وإصلاحك ، لأنه رب متولٍ لتربيته ، فإن تركك بلا منهج ، وبلا أفعل ولا تفعل ، كانت التربية ناقصة .

إذن من تمام الربوبية أن يوجهني ربي كما نُوجِه نحن أولادنا الصغار وتربيتهم ، ومن تمام الربوبية أن توجد هذه الأوامر وهذه

النواهي لمصلحة المربي . وما دام أن ربك قد وضعها لك فلا بد أن تطيعه .

لذلك نلاحظ في هذه الآية ﴿ إِنَّمَا أَمْرٌ أَنْ أُعْبِدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ .. ﴾ [النمل] ولم يقل أمرت أن أطيع الله ، لأن الألوهية تكليف ، أما الربوبية فمعطاء وتربية ، فالآية تُبين حيثية سماعك للحكم من الله ، وهي أنه تعالى يُربيك بهذه الاوامر وبهذه النواهي ، وسوف تعود عليك ثمرة هذه التربية

لذلك ، الصديق أبو بكر حينما حدثوه عن الإسراء والمعراج لم يمرر المسألة على عقله ، ولم يفكر في مدى صدقها ، إنما قال عن رسول الله « إن كان قال فقد صدق »^(١) فالمعجزة عنده أن يقول رسول الله ، ثم يُعَلِّل لذلك فيقول : إنني لأصدق في الخبر يأتي من السماء فكيف لا أصدق في هذه .

وقال تعالى : ﴿ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ .. ﴾ [النمل] أي . مكة وحصنها بالذکر . لأن فيها بيته ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِمَكَّةَ مُبَارَكًا .. ﴾ [آل عمران] ثم يذكر سبحانه وتعالى من صفات مكة ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا .. ﴾ [النمل] فهي مُحَرَّمَةٌ يحرم فيها القتال ، وهذه وسيلة لحماية العالم من فساد الحروب وفساد الخلاف الذي يُفُضِي لكل فريق لأن تأخذه العزة . فلا يجد حلاً إلا في السيف

(١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٢ / ٢٦٦) من حديث عائشة أنها قالت « لما أسرى بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فلرث الناس ممن كانوا أسرى به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبي بكر فقالوا : هل لك في صاحبك يزعم أنه أسرى به في الليل إلى بيت المقدس قال أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم قال : لئن كان ذلك لقد صدق قالوا : ونصدق أنه ذهب للجنة إلى بيت المقدس وجيء قبل أن يصبح ، قال : نعم ، إنني لأصدق بما هو أبعد من ذلك ، أصدق بخبر السماء من خبره أو روحه ، فذلك سُمِّيَ أبو بكر الصديق ،

وكان الحق - تبارك وتعالى - يعطى لخلقه فرصة للمداراة وعذراً يستقرون خلفه ، فلا يتساقون خلف غرورهم ، فحين تمنعهم من الحروب حرمة المكان في الحرم ، وحرمة الزمان في الأشهر الحرم - لأن كل فعل لا بد له من زمان ومكان - حين يمنعهم الشرع عن القتال فإن لاحدهم أن يقول لم أمتنع عن ضعف . ولولا أن الله منعني لفعلتُ وفعلتُ ، ويستتر خلف ما شرع الله من منع القتال ، إلى أن يذوق حلاوة السلام فتلين نفسه ، وتتوق للمراجعة

واحرمة مكة كان الرجل يلقى فيها قاتل أبيه ، فلا يتعرض له احتراماً لحرمة البيت ، وقد اتسعت هذه الحرمة لتشمل أجناساً أخرى ، فلا يُعضد^(١) شجرها ، ولا يُصاد صيدها .

ثم يقول تعالى ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ...﴾ (٩١) [النمل] لأن الله تعالى حين يصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، ويصطفى من الأرض أمكة ، ومن الزمان ، يريد أن يشيع الاصطفاء في كل شيء

قالحق - تبارك وتعالى - لا يُحاسب أحداً ، فحين يرسل رسلاً يبلغ رسالته للناس كافة ، ويعود نفعه على الجميع ، وكذلك في تحريم المكان أو الزمان يعود نفعه على الجميع ؛ لذلك عطف على ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا...﴾ (٩١) [النمل] فقال ﴿كُلُّ شَيْءٍ...﴾ (٩١) [النمل] فالتحريم جه من أجل هؤلاء .

ثم يقول سبحانه . ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩١) [النمل] أى - المنفذين لمنهج الله يعنى لا اعتقد عقائد أخير بها ولا أنفذها . وقد قرن الله تعالى بين الإيمان والعمل الصالح ، لأن فائدة الإيمان أن

(١) عند الشجر يعضده ، فهو معشود . فعضه بالعضد . والمعشود ما قُصع من الشجر أى بضره لئلا يسقط ورقه فينخدعوا خلفاً لإبلهم [لسان العرب - مادة عضد]

تعمل به . كما قال تعالى ﴿ وَالنَّصْرُ ۖ إِنَّا لِلْإِنْسَانِ لَفِيْ خُسْرٍ ۚ ﴾ (٢) إلا
الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. ﴿ (٣) ﴾ [المصر]

فأله تعالى يريد أن يُعدي الإيمان والاحكام إلى أن تكون سلوكا
عليا في حركة الحياة .

﴿ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَأَنْتُمْ يَهْتَدُونَ لِنَفْسِهِ ۖ
وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ (٦٦) ﴿

أنت حين تقرأ القرآن في الحقيقة لا تقرأ إنما تسمع ربنا يتكلم ،
ومعنى ﴿ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ .. ﴾ (٦٦) ﴿ [المر] يعني استندم أنسك بالكتاب
الذي كلفت به ، ليدل على أنك من عشقك للتكليف عشقت المكلف ،
فأحببت سماعه ، وتلاوة القرآن في ذاتها لذة ومتعة

فأنا سأخذ من تلاوته لذة . واستديم البلاغ بالقرآن للناس ، وبعد
ذلك أنا نموذج أمام امتي ، كما قال سبحانه . ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي
رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. ﴾ (٦١) ﴿ [الاحزاب]

يعنى . شيء يُقتدى به ، وما دام أن الرسول قدوة ، فكل مقام
للسؤل غير الرسالة من سار على قدم الرسول واحد معه ، وكذلك
مكان كل إسان في التقوى ، على قدر اعتباره واقتدائه بالأسوة . أما
الرسالة فدعك منها ، لأنك لن تأخذها .

ومعنى ﴿ فَأَنْتُمْ يَهْتَدُونَ .. ﴾ (٦٦) ﴿ [الندل] أى وصيته لدلالة واقتنع بها
﴿ فَأَنْتُمْ يَهْتَدُونَ لِنَفْسِهِ .. ﴾ (٦٦) ﴿ [الندل] لأن الله سيعطيه للمعونة . ويزيده
هداية وتوفيقا ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (٦٧) ﴿ [محمّد]
إن فالهداية والتقوى لا تنفع المشرع ، إنما تنفع العبد الذي اهتدى

ثم يذكر المقابل ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَكُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (٩٢) [العمل]
أنا لا يعينني إلا أنسى من العذريين وأنت إنما تصل على نفسك ،
وتتحمل عاقبه ضللك .

وبعد أن أنعمت ما جاسبك ربك به بأن تعبد رب هذه البلدة وكنت
من المسلمين وبعد أن تلوت القرآن ، واستدعت الأنس واللذة بسماع
الله يتكلم ، ثم بلغت للناس ، فإذا فعلت كل هذا الحمد الله الذي وفقك
إليه

﴿وَقَدْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ عَايِنْتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا
وَمَارِيكَ بِغَضَلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣)

أي الحمد لله على نعمه وعى ما هداها ، والحمد لله الذي
لا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، والإنذار إليه

والله سيركم آياته في أنفسكم وفي غيركم ، فتعرفون دلائل
قدرته سبحانه ووجدانيته في أنفسكم ، وفي السماوات والأرض .

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٤) [العمل]

بل هو شهيد على كل شيء

سُورَةُ الْقَصَصِ

سورة القصص^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسم

الحروف المقطعة في بدايات سور القرآن مرة يأتي حرف واحد مثل (ق ، ن) أو حرفان مثل (طس ، حم) أو ثلاثة أحرف مثل (الم ، طسم) أو أربعة مثل (المر) أو خمسة مثل (حمسق ، كهيعص) وكل منها له مفتاح وأسرار لم يفتح علينا بعد لمعرفة وما قد في معنى هذه الحروف مجرد محاولات على الطريق .

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ

(١) سورة القصص هي السورة رقم (٢٨) في ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٨٨ آية . وهي سورة مكية كلها في قول المصنف وعروة . قال ابن عباس وقتادة [٧١] آية نزلت ببكة والمدينة وقال ابن سلام بالمحفة في وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وهي قوله عز وجل ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّهُ إِلَى مَعَادٍ ﴾ [القصص] [راجع تفسير القرطبي ٥١٣٢/٧] نزلت هذه السورة بعد سورة النمل (كما هي في ترتيبها في المصحف) ونيل سورة الإسراء [الإنتقان في علوم القرآن ٢٢/١]

يعنى - ما يأتى فى هذه السورة آيات الكتاب المبين .

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ
بِالْحَقِّ لِتَقْوِمُ يَوْمَئِذٍ مَثُوتٌ ﴾

أى - نقص عليك ﴿ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ .. ﴾ [النقص] والنبأ الخبر الهام الذى يجب الالتفات إليه ، وهل هناك أهم من إرسال موسى - عليه السلام - إلى من ادعى الألوهية ؟ لذلك أفرد لهما هذه السورة ، فلم يردّ فيها ذكر آخر إلا لقارون ، لأنها تعالج مسألة القيمة مسألة التوحيد ، وتردّ على من ادعى الألوهية ، وبارح الله تعالى فى صفاته

وقوله ﴿ بِالْحَقِّ .. ﴾ [النقص] لأن تلاوته وقصصه حق ، كما فى قوله تعالى - ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ النِّصْحُ الْحَقُّ .. ﴾ [آل عمران] والقصص مأخوذ من قصّ الأثر وتتبعها ، وقد اشتهر به بعض العرب قديماً ، ومهوروا فيه حتى إنهم ليعرفون أثر الرجل من أثر المرأة - إلخ ، وقد اشتهرت عندهم قصة الرجل الذى فقد جملة ، وقابل أحد انقصاصين ، وسأله عنه فقال - جملك أبتر^(١) الذئب ؟ قال نعم ، قال أعور ؟ قال نعم ، قال - أعرج ؟ عندها لم يشك صاحب الجمل أن هذا الرجل هو الذى أخذ جملة - فأمسك به وقاصاه .

وفى مجلس القضاء قال الرجل - والله ما أخذتُ حملك ، لكنى رأيتُ الجمل سعةً بعُره خلفه ، أما هذا فيصع بعُره مرة واحدة ،

(١) الأبتَر - المخلوع الذئب (السيل) من أى موضع كان من جميع الدواب - والبتَر استئصال الشراء قطعاً [لسان العرب - مادة بتر]

فعرمت أنه مقطوع الذنب ، ورأيت أحد أخفافه لا يؤثر في الرمل
فعرفت أنه أعرج ، ورأيت ياكل من ناحية ويترك الأخرى فعرفت أنه
أعور .

والحق - تبارك وتعالى - حين يقصُّ علينا بقصِّ الواقع ، فقصص
القرآن لا يعرف الخيال كقصص البشر ، لذلك يسميه القصص الحق ،
وأحسن القصص ، لأنه يروى الواقع طبق الأصل .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا
يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ^(١)
نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾

معنى ﴿عَلَا .. ٤﴾ [القصص] من العلو أى استعلى ،
والمستعلى عليه هم رعيته ، بل علا على وزرائه والخاصة من رعيته ،
وعلا حتى على الله - عز وجل - فادعى الألوهية ، وهذا منتهى
الاستعلاء ، ومنتهى الطغيان والتكبر ، وما دامت غده هذه الصفات
وهو بشر وله هوى فلا بد أن يستخدمها في ذلال رعيته

﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا .. ٤﴾ [القصص] جمع شيعه ، وهى للطائفة التى
لها استقلالها الخاص ، والمفروض فى المملوك أن يسوى بين رعيته ، فلا
تأخذ طليقة أو جماعة حظوة عن الأخرى ، أما فرعون فقد جعل الناس
طوائف ، ثم يسلط بعضها على بعض ، ويسخر بعضها لبعض

(١) استحياء استبقاه حياً ولم يقتله ومعنى ﴿يَذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ ۝٤﴾
[البقرة] أى أنهم يقتلون الذكور فقط ويتركون البنات والنساء على قيد الحياة
[القاموس المفهرم ١٨٣، ١]

ولا شك أن جعل الأمة الواحدة عدة طوائف له ملحظ عند المفاعل ، فمن مصلحة أن يزرع الخلاف بين هذه الطوائف ويشغل بعضها ببعض ، فلا تستقر بينهم الأمور ، ولا يتفرغون للتفكير فيما يقلقه ويهز عرشه من تحته ، فيظل هو مطلوباً من الجميع .

والقبط كانوا هم سكان مصر والجنس الأساسي بها ، ثم لما جاءها يوسف - عليه السلام - واستقر به الأمر حتى صار على خزائنها ، ثم جاء إخوته لأخذ أقاتهم من مصر ، ثم استقروا بها وتناسلو إلا أنهم احتفظوا بهويتهم فلم يذروا في المجتمع القبطي .

وبالمناحية يخطيء الكثيرون أن القبطي يعني النصراني وهذا خطأ ، فالقبطي يعني المصري كجنس أساسي في مصر ، لكن لما استعمرت الدولة الرومانية مصر كان مع قدوم لمسيحية فأطلقوا على القبطي (مسيحي)

لكن ، ما السبب في أن فرعون جعل الدس طوائف ، تستعد كل منها الأخرى ؟ قالوا لأن بني إسرائيل كانوا في خدمة المستعمر الذي أزاح حكم الفراعنة ، وهم ملوك الرعاة ، فلما طرد ملوك الرعاة من مصر كان طبيعياً فيمن يحكم مصر أن يضطهد بني إسرائيل ، لأنهم كانوا موالين لأعدائه ، ويسيطرون في ركابهم ، ومن هنا جاء اضطهاد فرعون لبني إسرائيل .

ولقرآن الكريم حينما يتحدث عن ملوك مصر في القديم وفي الحديث يُسميهم فراعنة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ [الفجر]

وهما في قصة موسى - عليه السلام - قال أيضاً فرعون ، أما في قصة يوسف عليه السلام فلم يأت ذكرٌ للفراعنة ، إنما قال ﴿الْمَلِكُ .. (١٣)﴾ [يوسف] وهذه من مظاهر الإيجاز في لقرآن الكريم ، لأن الحكم في مصر أيام يوسف كان لملوك الرعاة ، ولم يكن للفراعنة ، حيث كانوا يحكمون مصر قبله وبعده لما استبدوا ملكهم من ملوك الرعاة ، لذلك في عهد يوسف بالذات قال ﴿الْمَلِكُ (٥٠)﴾ [يوسف] فلم يكن للفرعون وجود في عصر يوسف .

فمعنى ﴿يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ .. (٤)﴾ [التقصص] يعنى تستبد طائفة الأقباط ، وهم سكان مصر الأصليون بطائفة بني إسرائيل لينتقموا منهم جراء موالاتهم لأعدائهم .

وأول دليل على بطلان الوهية فرعون أن يجعل أمته شيعاً ، لأن الملوهم ينبغي أن يكونوا جميعاً عند الإله سواء ، لذلك يقول تعالى في الحديث عن موكب النيران ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٦)﴾ [الأنعام]

ذلك لأن دين الله واحد ، وأوامره واحدة للجميع ، فلو كنتم متمسكين بالدين الحق لجعلتم الناس جميعاً شعبة واحدة ، لا يكون لبعضهم سلطة زمنية على الآخرين ، وإذا رأيت في الأمة هذه التفرقة وهذا التخرُّب فاعلم أنهم جميعاً مدينون ، لأن الإسلام - كما قلنا - في صفاته كالماء الذي لا طعم له ، ولا لون ، ولا رائحة

وهذا الماء يحبه الجميع ولا بدُّ لهم منه لاستبقاء حياتهم ، أما أن تُلَوَّنَ هذا الماء بما نصب ، فأنت تحب البرتقال ، وأما أحب المانجو . وهذا يحب الليمون إلخ إذن ، تدخلت الأهواء ، وتفرق الدين الذي أراده الله مجتمعاً .

لذلك يقول رسول الله ﷺ : « ستفترق أمتي بضع وستون ، أو بضع وسبعون فرقة ، كلهم في النار إلا ما أنا عليه وأصحابي »^(١)

شبهة الإسلام إذن واحدة ، أما أن فرى على الساجدة عشرات الفرق والتشيع والجماعات ، فأيها يتبع المسلم ؟ إذن ما داموا قد فرقوا دينهم ، وكانوا شيعا فلست منهم في شيء .

ثم يفسر الحق سبحانه هذا الاستضعاف ﴿يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ ، [القصص] فيقول ﴿يَذْبَحُ آبَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ .. (١)﴾ [القصص] وقلنا إن الإفساد أن تأتي على الصالح بذاته فتفسده ، نعم الفساد - إذن - قتل الذكور واستحياء النساء ، لأن حياة الناس لا تقوم إلا باستبقاء النوع ، فقتل الذكور يمنع استبقاء النوع ، واختار قتل الذكور ، لأنهم مصدر الشر بالنسبة له ، أما انساء فلا شركة لهن ، ولا خوف منهن ، لذلك استبقاهن للخدمة وللإستدلال

وحين نتتبع هذه الآية نجد أنها جاءت في مواضع ثلاثة من كتاب الله ، لكل منها أسلوب خاص ، ففي الآية الأولى يقول تعالى ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ (١٤)﴾ [البقرة]

وفي موضع آخر ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ .. (١٤٦)﴾ [الأعراف] وهاتان الآيتان على لسان الحق تبارك وتعالى

أما الأخرى فحكاية من الله على لسان موسى - عليه السلام - حين يُعَدُّ نِعَمَ الله تعالى على بني إسرائيل ، فيقول

(١) أخرجه القرطبي في سننه (٢٦٤٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « إن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة قالوا ومن هي يا رسول الله ؟ قال ما أنا عليه وأصحابي »

﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أُنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ..﴾ (٦) [إبراهيم]

فالواو في ﴿وَيَدْبِحُونَ ..﴾ (٦) [إبراهيم] لم ترد في الكلام على لسان الله تعالى ، إنما وردت في كلام موسى ، لأنه في موقف تعداد نعم الله على قومه وقصده ، لأن يُصَحِّحَ نعم الله عليهم ويُذَكِّرَهُمْ بِكُلِّ النِّعَمِ ، فعطف على ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ..﴾ (٦) [إبراهيم] قوله ﴿وَيَدْبِحُونَ ..﴾ (٦) [إبراهيم]

لكن حين يذكّر الله تعالى فلا يمتنّ إلا بالشيء الأصيل ، وهو قتل الأولاد واستحياء النساء ، لأن الحق - تبارك وتعالى - لا يعتنّ بالصغيرة ، إنما يمتنّ بالشيء العظيم ، متذبيح الأبناء واستحياء النساء هو نفسه سوء العذاب

وقوله مرة ﴿يَدْبِحُونَ ..﴾ (٤٩) [البقرة] ومرة ﴿يَقْتُلُونَ ..﴾ (١٤) [الأعراف] لأن قتل الذكور أخذ أكثر من صورة ، فمرة يُذْبِحُونَهُمْ ومرة يحنقونهم

ومعنى ﴿يَسُومُونَكُمْ ..﴾ (١٤١) [الأعراف] من السَّوْمِ ، وهو أن تطلب الماشية المرعى فنتركها تطالع في الخلاء ، وتلتقط ررقها بنفسها لا نقدمه نحن لها وتسمى هذه سائمة . أما التي نربطها ونقنم لها غذاءها فلا تُسَمَّى سائمة

فالمعنى ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ..﴾ (١٤١) [الأعراف] يعنى . يطلبون لكم سوء العذاب ، وما داموا كذلك فلا بدّ أن يفتنوا لكم فيه . ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥)

فلن يدوم لفرعون هذا الظالم ، لأن الله تعالى كتب ألا يفلح ظَلُوم .
والأ يموت ظَلُوم ، حتى ينتقم للمظلوم منه ، ويُرِيه فيه عاقبة ظلمه ،
حتى إن المظلوم ربما رحم الظالم ، وحسبك من حادث بامرئ ترى
حاسديه بالأمس ، راحمين له اليوم .

وهنا تُطالعنا غضبة الحق - تبارك وتعالى - للمؤمنين ﴿وَنُرِيدُ أَنْ
نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [٥٠] ﴿[القصاص] والمنة عطاء
مُعَوَّض ، ومدون مجهود من معطى المنة ، كأنها هبة من الحق
سبحانه ، وغضبة لأولياءه وأهل طاعته ، لأن الحق - تبارك وتعالى -
كما قال الإمام علي إن الله لا يُسلم الحق ، ولكن يتركه ليعلمو شيرة
الناس عليه ، فإذن هم يقاتلوا عليه غار هو عليه

والحق - تبارك وتعالى - حينما يقاتل على الذين استضعفوا لا يرفع
عنه الظلم فحسب ، وإنما أيضاً ﴿وَنَجْعَلُهمُ أئمةً ..﴾ [٥١] ﴿[القصاص] أئمة
في الدين وفي القيم ، وأئمة في سياسة الأمور والملك ﴿وَنَجْعَلُهمُ الْوَارِثِينَ
[٥٢]﴾ [القصاص] أي يرثون مَنْ ظلمهم ، ويكونون سادة عليهم وأئمة بهم ،
فانصر على كم مرحلة تأتي غيرة الله لأهل الحق

ولولا أن قرعون - الذي قوى على المستضعفين وأذلهم - تأبى على
الله ورفض الانقياد لشملته رحمة الله ، ولعاش هو ورعيته سواء

لذلك أهل الثورات الذين جاءوا للقضاء على أصحاب الفساد
وانصاف شعوبهم ممن ظلمهم ، كان عليهم بعد أن يقضوا على
الفساد ، وبعد أن يمنعوا المفسد أن يفسد ، ويحققوا العدالة في
المجتمع ، كان عليهم أن يضموا الجميع إلى أحضانهم ورعايتهم ،
ويعيش الجميع بعد تعديل الأوضاع سواسية في مجتمعهم ، وبذلك
نأمن الثورة المضادة .

ثم يقول تعالى استكمالا لمثته

﴿وَنُفِخَ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾^(٦)

قوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الْأَرْضِ .. (٦)﴾ [القصاص] معرف أن الأرض مكان يحدث فيه الحدث ، لأن كل حدث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فالمعنى نجعل الأرض مكاناً يمكن فيها ، والتمكين يعنى يتصرف فيها تسلطاً ، ويأخذ حيرها .

وقد شرح الحق سبحانه بنا التمكين في عدة مواضع من القرآن ، ففي قصة يوسف عليه السلام ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ مَكِينٌ أَمِينٌ﴾^(٥٤) [يوسف] مكين يعنى . لك عندنا مكانة ومركز ثابت لا ينالك أحد بشيء ، ومنها قوله تعالى . ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ .. (٢١)﴾ [يوسف] يعنى أعطيناه سلطة يأخذ بها خير المكان ، ثم يُصرف هذا الخير للآخرين .

وقوله تعالى ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾^(٦) [القصاص] وهامان هو وزير فرعون ، ولا بد أنه كان لكل منهما جنود خاصة غير جنود الدولة عامة ، كما نقول الآن الحرس الجمهورى ، والحرس الملكى ، والجيش

أو أن هامان يصنع من باطن فرعون ، فالملك لا يزاول أموره إلا بواسطة وزرائه ، وفي هذه الحالة يأخذ الجنود الأوامر من هامان أو أن هامان كان له سلطة ومركز قوة لا تقل أهمية عن سلطة فرعون ، وربما رفع رأسه وتطاول على فرعون في وقت من الاوقات

وقد رأينا هذا عندنا في مصر - لذلك يقولون في المثل الريفي المعروف - تقول لمن يحاول خداعك (على هامان) ؟ يعنى ، أنا لا تتعلى على هذه الحيل .

والضمير في ﴿ مِنْهُمْ . ﴾ (٦) [القصص] يعود على المستضعفين ﴿ مَا كَانُوا بِحَذْرٍ ﴾ (٦) [القصص] أى سنزيهم الشيء الذى يخافون منه ، والمراد النبوة التى جاءتهم ، إما عن طريق الكهنة ، أو عن طريق الرؤيا ، حيث رأى فرعون نارا تاتى من بيت المقدس ، وتسلط على القبط في مصر ، لكنها لا تؤذى بنى إسرائيل فلما عبروا له هذه الرؤيا قال لا بد انه سيأتى من هذه البلد من يسلب منى ملكي^(١)

ويروى أن الكهنة أحبروه أنه سيولد في هذه السنة مولود يكون ذهاب ملكك على يديه

فسوف يرى فرعون وقومه هذه المسألة باعينهم ويبأهرونها بأنفسهم ، وسيقع هذا الذى يخافون منه - ذلك أمر فرعون بقتل الذكران من بنى إسرائيل ليحتاط لامره ، ويبقى على ملكه ، لكن هذا الاحتياط لم يغن عنه شيئا ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ
فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ
وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٧)

(١) قال السدى فيما أخرج ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٨١/٦)

عجيب أمر فرعون ، فبعد أن أمر بقتل الأولاد من بنى إسرائيل
يأتيه في البحر تابوت به طفل رضيع ، فلا يخطر على باله أن أهله
ألقوه في البحر لينجوه من فرعون ، فكيف فاتته هذه المسألة وهو
إبه ؟ لم يعرفها بالوحيته ، ولا عرفها حتى بذكائه وفطنته

وإذا كان الكهنة أخبروه بأمر ذهاب ملكه على يد وليد من هؤلاء
الأولاد ، وإذا كانت هذه النبوءة صحيحة فلا بد أن الرلد سينجوه من
القتل ويكبر ، وبقصي على ملك فرعون ، وما دام الأمر كذلك فسوف
يقتل فرعون الأولاد غير لدى سيكون ذهاب ملكه على يديه

وتشاء رادة الله أن يتربى موسى في قصر فرعون ، وأن تأتي
إليه أمه السيدة الفقيرة لتعيش معه عيشة الترف والثراء^(١) ، ويصير
موسى بقدرته الله فرة عزة للملكة ، فانظر إلى هذا التعميل ، تخفيل
عقل وطمس على بصيرة فرعون الذي ادعى الألوهية

وبذلك نفهم قول الله تعالى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَقَلْبِهِ﴾ (٢٦) [الأنفال] فعليه يُعطى على بصيرته ويُعنيها

وقوله تعالى لام موسى ﴿أَرْضِعْهُ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَنقِصْهُ فِي
الْيَمِّ﴾ (٧) النص من النساء فقل إن حافت على ولدها أن
تُلفيه في اليم ؟ من ترضى أن تُنحيه من موت مطعون إلى موت
محقق ؟ وقد جعل الحق سبحانه عاطفة الأمومة تتلاشى أمام وارد
الرحمن الذي أتاه ، والذي لا يؤثر فيه وأرد الشيطان

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره (٢٨١/٢ ٢٨٢) : «استدعت أسماء امرأة الملك أم موسى
وأعنت إليها وأعطاها عطاء جريلاً وهي لا تعرف أنها أم هي الحقيقة ولكن لكونه وافق
تدبيرها ثم سألها أسماء أن تقيم عندها فيرضعه فأبنت عليها وقالت إن لي بهلاً وأولاداً
ولا أقدر على المقام عنده ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت ، فأجابتها امرأة
فرعون إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والصلابة والكسوى والإحصاء الجريين فرجعت
أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدعها الله بعد خوفها أمها في عو وجهه وردق دار .

ثم يهيب الحق سبحانه كذلك امرأة فرعون ليتم هذا التدبير الإلهي لموسى فنقول ﴿فَرَأَتْ عَيْنٌ لِي وَلَكَ ..﴾ (٦) [القصر]

فيرد عليها فرعون - بل لك أنت وحدك ، وكأنه يستشعر ما سيحدث ، ولكن إرادة الله لا بدّ تافذة ولا بدّ أن يأخذ القدر مجراه لا يمنع شيء ، لأن الله تعالى إذا أراد شيئاً فلا راد لإرادته

فمع ما علمه فرعون من أمر الرؤيا أو النبوة ربّي الوليد في بيته ، ولا يحلو الأمر أيضاً من سيطرة المرأة على الرجل في مثل هذا الموقف

لذلك النبي ﷺ حينما قرئت هذه الآية قال : «والذي يَحْلِفُ بِهِ ، لو قال فرعون كما قالت امرأته - قرّة عين لي ولك - لهداه الله كما هداها»^(١) . إنما ردّ الخير الذي ساقه الله إليه ، لذلك أسلمت زوجته وماتت على الإيمان .

وهي التي قالت : ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِبْدَكَ بِسْمًا فِي النُّجْبَةِ وَتَجْنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَتَجْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١١) [التحریم] أما هو فمات على كفره شرّ ميتة

وسبق أن تكلمنا في وحي الله لام موسى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ..﴾ (٧) [القصر] وقلنا إن الوحي من عموم اللغة إعلام بطريق حقي دور أن نتحدث عن الموحى ، أو الموحى إليه ، أو الموحى به أما الوحي الشرعي فإعلام من الله تعالى برسوله بمنهج خلقه

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/٥٦٩) عن ابن عباس وعمره لابن أبي عمر العمري عن مسنده وهيب بن حميد والتميمي وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مريويه ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : «والذي يَحْلِفُ بِهِ ، لو أقر فرعون بأن يكون قرّة عين له ، كما قالت امرأته بهداه الله به ، كب هدى به امرأته ولكن الله عز وجل حرّم ذلك»

فأنه تعالى يوحى للملائكة ﴿إِذْ يُوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَهَبُوا الدِّينَ آمَنُوا ..﴾ (١٢) [الأنفال]

ويُوحى إلى الرسل ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ..﴾ (١١٣) [النساء]
ويُوحى للمؤمنين الصادقين في خدمة رسول ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ..﴾ (١١٤) [المائدة]

يوحى إلى اسحق ، بل وإلى الحصاد ﴿إِذَا رَلَّوْنَا الْأَرْضَ زَلَّوْنَاهَا (١) وَأَخْرَجْنَا الْأَرْضَ أَنْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

وقد يكون الإعلام والوحى من الشيطان ﴿وَإِنَّ لَشَّيَاطِينَ يُوْحُونَ إِلَى أُولِيَائِهِمْ ..﴾ (٢٠) [الأنعام]

ويكون من الصالحين ﴿يُوحَىٰ بِغُصْنِهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ زُخْرُفِ الْقُورِ عُرُورًا ..﴾ (١١٢) [الأنعام]

فالوحي إلى أم موسى كان وحياً من لمرتبة الرابعة بطريق النفث في الدرع ، أو الإلهام ، أو بدوياً ، أو بملك نُكَلِّمَهَا ، هذا كله يصح وهذا الوحي من الله ، وموصوعه ﴿أَنْ أَرْضَعِهِ فَإِذَا حَفَّتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ ..﴾ (٧) [القصص] وهذا أمر ﴿وَلَا تَحْزَنْ وَلَا تَحْزَنْ ..﴾ (٧) [القصص] بهي ﴿إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص] وهذه إشارة في خبرين فهذه الآية ذن حمعت لام موسى امرين ، ونهيين ، وبشارتين في إيجاز بليغ مُعْجَز

ومعنى ﴿أَرْضِيهِ .. (٧)﴾ [القصص] يعنى مدة أمانك عليه ﴿فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ (٧)﴾ [القصص] ولم يقل من أى شىء بيدل على أى مصروف تحشاه على وليدها ﴿فَأَنقِيهِ فِي الْيَمِّ (٧)﴾ [القصص] ويراعى للحق سبحانه مشاعر الام وقلمها على ولدها ، خاصة إذا ألقته فى البحر يطمئنتها ﴿وَلَا تَخَافِ .. (٧)﴾ [القصص] لأن الله سييسر له تربية خيراً من تربيتك فى ظل بيت الغنى والمك

﴿وَلَا تَحْزَنْ .. (٧)﴾ [القصص] أى لمراقبه لأن هذا انفراق سيُعَوِّضُكَ ، وَيُعَوِّضُ الدُّنْيَا كُلَّهَا حَسَراً ، حين نقصى على هذا الطاعية ، ويأتى بمنهج الله الذى يحكم خلق الله فى الأرض

ثم عسى بعد هذا أن الله رائده إليك ، بل وجاعله من المرسلين إنى أنا الذى أحفظه ، ليس من أجلك فحسب ، إنما أيضاً لأن له مهمة عندى .

يقولون ظلت أم موسى تُرضعه فى بيتها طالما كانت آمنة عيه من أعين فرعون ، إلى أن جاءها أحد العسس يفتش البيت فخافت على الولد فلغته فى خرقة ودسته فى فجوة بجوارها ، كانت هذه الفجوة فى الثَّرن ، ألقته فيه وهو مسجور^(١) دون أن تشعر - يعنى من شدة خوفها عليه - حتى إذا ما انصرف العسس ذهبت إليه ، فإذا به سالماً لم يُصنعه سوء وكان الله تعالى يريد لها أن تطمئن على حفظ الله له ، وأن وعده الحق

وقد وردت مسألة وحى الله لام موسى فى كتاب الله مرتين معا دعا السحريين من المستشرقين إلى اتهام القرآن بالتكرار الذى

(١) سجر التنور يسجره أوقده وأجماه ، وقيل أشبع وتوده [لسان العرب - مادة سجر]

لا فائدة منه ، وذكروا قوله تعالى ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَن اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذُوبِيهِ فِي الْمَوْتِ فَلْيَقْهَ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه]

لكن فرق بين الوحي الأول والوحي الآخر الوحي الأول خاص بالرضاعة في مدة الامام ، أما الآخر فبعد أن خافت عليه أوحى إليها لنقذه في اليم

وتأمل ﴿ أَن اقْذِفِيهِ .. (٣٩) ﴾ [طه] والقذف إلقاء بقوة ، لا أن تضعه بحنان ورفق ، لأن عناية الله ستحفظه على أي حال ﴿ فَلْيَقْهَ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩) ﴾ [طه] وهذا أمر من الله تعالى لييم أن يخرج الوليد سالماً إلى الساحل ، لذلك لم يأت في هذا الوحي ذكر لعملية الرضاعة

فكان الوحي الأول جاء تمهيداً لما سيحدث ، لتستعد الأم نفسياً لهذا العمل ، ثم جاء الوحي الثاني للممارسة والتنفيذ ، كما تحدث جارك ، وتحدثه من البصوص وتنصحه أن يحنط لهذا الامر ، فلذا ما دخل الليل حدث فعلاً ما حدثته منه فرحت تنادي عليه ليسرع إليهم ويضربهم

لذلك يختلف أسلوب الكلام في الوحي الأول ، مياتي رتيباً مطمئناً ﴿ أَن أَوْصِيهِ إِذَا حَفَّتْ عَلَيْهِ فَأَنْقِهِ فِي الْمَوْتِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص] هكذا في ببرة هادئة لأن المقام مقام نصيح وتمهيد ، لا مقام أحدث وتنفيذ .

أما الوحي الثاني فيأتي في سرعة ، ومنبرة حادة ﴿ أَن اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذُوبِيهِ فِي الْمَوْتِ فَلْيَقْهَ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩) ﴾ [طه] والعجلة في اللفظ تدل على أن المقام مقام مباشرة للحدث فعلاً

وفى الاولى قال ﴿فَأَلْفَيْهِ ۖ ۞﴾ [٧] [الفصل] ، أما فى الثانية فقال ﴿فَأَلْفَيْهِ ۖ ۞﴾ [٢٩] [طه] والام لا تقذف وليدها ، بل تضعه بحنان وشفقة ، لكن الوقت هنا ضيق لا يتسع بممارسة لحنان والشفقة

والامر لليم أن يلقي التابوت بالساحل له حكمة ، لأن العمق موضع للحيوانات البحرية المتوحشة التى يحاف منها ، أما بالقرب من الساحل فلا يوجد إلا صغار الاسماك التى لا خطورة منها ، وكذلك ليكون على مرمى العين ، فيطمئن عليه اهله . ويراها من ينقذه ليصل إلى البيت الذى قدر له أن يتربى فيه .

وفعلأ . وصل التابوت إلى الساحل وكان فرعون وزوجته آسية وابنته على الشاطئ ، فلما أخرج لهم التابوت وجدوا فيه الطفل الرضيع ، وكان موسى عليه السلام أسمر اللون ، مجعد الشعر ، كبير الأنف يعنى لم يكن عليه السلام جميلاً تنجذب إليه الانتظار ويفرح به من يراه

بذلك يمتن الله عليه بقوله . ﴿وَأَلْفَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ۖ ۞﴾ [٣٩] [طه] أى ليس بذاتك أن يحبك من يراك إنما بمحبة الله^(١) ، لذلك ساعة رآته آسية أحبته وانشرح صدرها برؤيته ، فتمسكت به رعم معرضة فرعون لذلك

كما أن ابنة فرعون ، وكانت فتاة ميروضة أصابها البرص^(٢) ،

(١) وقد ذكر القرطبي فى تفسيره (٥١٣٧/٧) أن . بعض التوابل العوكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها فقالت (لها أم موسى) لينقضى حبك اليوم ، فعالجها فلما وقع إلى الأرض مائلها نور بين عيني ، ولرنعش كل مفص منها ، ودخ حبه فليها ، ثم قالت ما جئتك إلا لاقول مولدك وأخبر فرعون ولكن وجدت لايتك حباً ما وجدت مثله تط ، فاحتفظ به .

(٢) البرص مرض جلدى يحدث مبكراً ببسببه فى الجلد تشوهات ، وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة [القاموس القويم ١/ ٦٤]

ورأت في الرؤيا أن شفاءها سيكون بشيء يخرج من البحر ، فتأخذ من ريقه ، وتدهن موضع البرص فيشفى ، فلما رأته موسى تذكرت رؤياها ، فأخذت من ريقه ودهنت جلد لها ، فشُفيت في الحال فتشبهت به هي أيضاً .

فاجتمع لموسى محبة الروجة ، ومحبة البنث ، وهما بالذات اصحاب الكلمة المسموعة لدى فرعون ، بحيث لا يرد لهما طلباً

وفي انصياع فرعون لرغبة زوجته وابنته وضعفه أمامهما رغم ما يعلم من أمر الطفل دليل على أن الروجة والأولاد هما نقطة الضعف عند الرجل ، ووسيلة السيطرة على شهامته وحزمه والضغط على مراداته

لذلك يطعننا الحق - تبارك وتعالى - على نفسه ، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۚ ﴾ [الحج]

ذلك لأن صاحبة غائباً ما تستعين زوجها بوسيلة أو بأخرى ، أما الولد فيدعو الأب إلى الحب والخضوع ، والحق - تبارك وتعالى - لا يوجد لديه مركز قوى ، تصبغ عليه في أي شيء ، فهو سبحانه مُنَزَّه عن كل نقص

وحكوا في دعابات أبي نواس أن أحدهم وسَّطه ليشفيع له عند الخليفة هارون الرشيد ، فشفع له أبو نواس ، لكن الخليفة لم يُجِبْهُ إلى طلبه ، وانتظر الرجل دون جدوى ، ففكر في وساطة أخرى ، واستشفع بآخر عند زبيدة زوجة الرشيد ، فلما كلمته أسرع إلى إجابة الرجل ، وهذا غضب أبو نواس وعاتب صاحبه الرشيد ، لكنه لم يهتم به ، فقال له اسمع إذن

ليس الشَّفِيعُ الَّذِي يَأْتِيكَ مُؤْتَرَاً مِثْلَ الشَّفِيعِ الَّذِي يَأْتِيكَ عُزِيَانَا

ولهذه العناية الإلهية بموسى عليه السلام نلاحظ أنه لم قال له
ربه ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ [طه] خاف موسى من هذه
المهمة ، وكان اسم فرعون في هذا الوقت يُلقب الرعب في النفوس
حتى أن موسى وهارون قالا ﴿ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ^(١) عَلَيْنَا أَوْ أَنْ
يُطْفِئَ^(٢) ﴾ [طه]

لذلك طلب موسى من ربه ما يُعينه على القيام بمهمته ﴿ قَالَ رَبِّ
اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ (٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي
يُفْهِمُوا قَوْلِي ﴾ (٢٨) وَأَجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴾ (٢٩) هَارُونَ أَخِي ﴾ (٣٠) اذْهَبْ بِهِ
أُزْرَىٰ ﴾ (٣١) وَأَشْرِكْهُ لِي أَمْرِي ﴾ (٣٢) كَيْ نَسْبَحَكَ كَثِيرًا ﴾ (٣٣) وَتَذَكَّرَ كَثِيرًا
﴿ إِنَّا كُنَّا نَبَأَ بَصِيرًا ﴾ (٣٥) [طه] فعادًا قال له ربه ، ﴿ قَالَ قَدْ
أُولِيتْ سَؤْلُكَ يَمْحَرُّ ﴾ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾ (٣٧) [طه]

أى أوتيت كل مسئلتك ومطلوبك

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ فَالْقَلْبَةُ^١ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرْنًا^٢
فِرْعَوْنَ وَهُمْ نَجُونَ وَجُنُودُهُمَا كَانُوا خِطِئِينَ^٣ ﴾

الْقَلْبَةُ وَالْقَلْبَةُ أن تجد شيئًا بدون طلب له ، ومنه اللقيط ، وهو
الطفل الرضيع تجده في الطريق دون قصد منك ، أو بحث وكذلك
كان الأمر مع القابوت ، فقد جاء آل فرعون وهم جلوس لم يَسْمَعُوا

(١) عود على القوم ظنهم بجوار الحد في الحكم قال تعالى عن موسى وهارون ﴿ إِنَّا
نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِئَ ﴾ [طه] يظلمنا فرعون ويتصدى علينا [اللاموس القويم

إليه ، ولم يطلبوه ، فما أنْ رآوه أخذوه ، لكن ما علة التقاطه ؟

الزوجة قالت ﴿ قُرْتُ عَيْنَ لِي رَكَتٌ ۖ ۞ ﴾ [القصص] وقالت في
حيثية أخرى ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۖ ۞ ﴾ [القصص] فلم
يكن لهم بنون ، فأرادوه أخاً للبنث ، وأرادته البنت صيدلية علاج ،
لكن مل ظلت هذه العلة قائمة ووجدت فعلاً ؟

لا ، إنما التقطوه لتقدير آخر ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرَمًا ۖ ۞ ﴾
[القصص] لا ليكون قرة عين ، فاللام هنا في ﴿ لِيَكُونَ ۖ ۞ ﴾
[القصص] لام عاقبة يعنى كان يفكر لشيء ، فجاءت العاقبة شيء
آخر

وفي هذا إشارة وبيان لغناء فرعون والطمس على بصيرته وهو
الإله !! فبعد أنْ حذَّره الكهنة ، وبعد الرؤيا التي رآها وعلمه بخطورة
هذا المولود على ملكه وعلى حياته يرضى أنْ يُرْبِيَهُ فِي بَيْتِهِ ، وهذا
دليل صدق قومه تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ۖ ۞ ﴾
[الأنفال]

ومعنى ﴿ حَزَنًا ۖ ۞ ﴾ [القصص] يعنى حُزْنٌ مثل ، عَدَمٌ وَعُدَمٌ ،
وَسَقَمٌ وَسَقَمٌ ، وَبُخْلٌ وَبُخْلٌ ، فالمعنى يأتى بالصيغتين
وتقول الحق سبحانه ، ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا
خَاطِئِينَ ۖ ۞ ﴾ [القصص]

هم خاطئون ، لأن تصرفاتهم لا تتناسب مع ما عرفوه من أمر
الوليد ، فلم يُقَدِّرُوا المسائل ، ولم يستنبطوا العواقب ، وكان عليهم أن
يشكُّوا في أمر طفل جاء على هذه الحالة ، فلا ندُّ أن أمه قصود
بجائه من يد فرعون

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ
أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ١

معنى ﴿ قُرْتُ عَيْنٍ .. ﴾ (١) [القصص] مادة قُرُ تقول : قُرُ بالمكان
يعنى : أقام وثبت به ، ومنه قُرور يعنى ثبات ، وتأتى قُرُ بمعنى
البرد الشديد ، ومنه قول الشاعر

أَوْفَدَ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيَلٌ قُرٌّ وَالرَّيْحُ يَا غَلَامُ رِيحٌ صَرٌّ
إِنْ جَلَبْتَ ضَيْفًا فَانْتَ حَرٌّ

إذن قرة العين إما بمعنى ثباتها وعدم حركتها ، وثبات العين
واستقرارها إما يكون ثباتاً حسيّاً ، أو معنويّاً ، والثبات المعنوي أن
تستقر العين على منظر أو شيء بحيث تكفى وتقع به ، ويغنيها عن
التطلع لغيره

ومنه قولهم - فلان ليس له تطلعات أخرى ، يعنى اكتفى بما
عنده ، ومنه ما قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ
عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَشَّاهَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ (١٣٦) [هـ]

لذلك يُسمَّون الشيء الجميل الذى يحذب النظر فلا ينظر إلى
غيره (قيد النظر) يقول الشاعر

سَمَرْتُ عَيْنِي فِي الْقَمَرِ قَالَتْ مَنِي مَنُ مَنْظَرِ
يَا لَيْتَ لَا تَمِي عَذْرُ فَحَسَنَهُ قَيْدَ النَّظَرِ

أما الثبات الحسى فيعنى ثبات العين على ذاتها بحيث لا ترى ،
ومنه قول المرأة للحليفة أقر الله عينك ، وأتم عليك نعمتك تؤمهم

أنها تدعو له ، وهي في الحقيقة تدعو عليه تقصد أقر الله عينك
يعنى سكتها وجعلها بالعمى ، وأتم عليك نعمتك وتعام الشيء
بدلية بقصه على حد قول الشاعر

إِذَا تَمَّ شَيْءٌ بَدَأَ نَقْصُهُ تَرْتَبُ زَوَالاً إِنَّا قِيلَ تَمَّ

أما القر بمعنى البرد ، فمن المعلوم عن الحرارة أن من طبيعتها
الاستطراق والانتشار في المكان ، لكن حكمة الله خرقت هذه القاعدة
في حرارة جسم الإنسان ، حيث جعل لكل عضو فيه حرارته
الخاصة ، فالجلد الخارجى تقف حرارته الطبيعية عند ٢٧° في حين
أن الكبد مثلاً لا يؤدي مهمته إلا عند ٤٠°

أما العين فإذا رادت حرارتها عن ٩° تنصهر ، ويفقد الإنسان
النصر والعجيب أنهما عضوان في جسم واحد ، فهي آية من آيات
الله في الخلق ، لذلك حين يدعو لشخص نقول له أقر الله عينك
يعنى جعلها بدرجة سالمة ، ألا ترى أن الإنسان إذا عَصِبَ تسخى
عينه ويحمر وجهه ؟

فالمعنى هنا ﴿فَرَّتْ عَيْنِي لِي وَكَذَلِكَ﴾ [القصر] يعنى يكون نعمة
ومتعة بنا ، نفرح به ونفنع ، فلا ننظر إلى غيره .

وفي موضع آخر يشرح لنا الحق سبحانه قُرَّةَ العين . ﴿قَدْ يَعْلَمُ
اللَّهُ الْمُصَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا
(١٨) أَشْحَاةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي

يَمْشِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ . . (٩)﴾ [الأحزاب]

فهؤلاء تدور أعينهم هنا وهناك كما يقول بحس (فلاس عيه
لايجة) يعنى لا تهدأ ، إم من خوف ، أو من قلق أو من اضطراب ،
وهذا كله يناسي قُرَّةَ العين

وقولها بعد ذلك ﴿لَا تَقْتُلُوهُ...﴾ [القصص] (١) تعنى أنهم فعلاً هموا
بقتله ، نفى بالهم إذن أن ملاك فرعون على يدى هذا الطفل ، وهم
على يقين من ذلك .

﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص] (٢) يعنى لا
يشعرون بنفعه لهم أو عدم نفعه ، وهل سيكون لهم ولداً أم عذراً ؟

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَأَصْبَحَ قُودًا أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۚ إِن كَادَتْ
لَتُنْدِي بِهِ لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَّ قُلُوبَهَا لَتَكُونُ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣)

القود هو القلب ، لكن لا يُسمى القلب قوداً إلا إذا كانت فيه
فضايل تحكم حركتك ، فالمعنى أصبح قوداً أم موسى ﴿فارغاً...﴾ (٤)

(١) جاء في تالويل هذه الكلمة عدة تأويلات منها

أى حائلاً من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى قال ابن مسعود وابن
عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والسماع وغيرهم

- أى فارغاً من الوحي إذ أوحى إليها حين أمرت أن تلقى في البحر ﴿ولا تعالي ولا
تخزي﴾ (٥) [القصص] والمهد الذي عبده إليها أن يردده ويجهله من المرسلين قاله
الحسن وابن إسحاق وابن زيد

- أى فارغاً من العلم والحرى لعلها أنه لم يعرف قاله أبو عبيدة والاحفش

- أى ذهب عقلها قاله مالك والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار
عقلها من فرط الجرح والبعض

قال السجسي أصبح هذه الأقوال الأولى ، والله قالوه أعلم بكتاب الله عز وجل ، فإذا
كان فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحي ، وقول أبي عبيدة
فارغاً من العلم غلط تهيج ، لأن عبده ﴿إن كادت لتدعي به لولا أن ربنا عل قلبها﴾ (٦)
[القصص] [تفسير القرطبي ٥٦١٦/٧]

[القصص] أى لا شيء فيه مما يضبط السلوك ، فممين ذهبتم لترمى بالطفل وتذكرت فرقه وما سيتعرض له من أخطار كادت مشاعر الأمومة عندها أن تكشف سرها ، وكادت أن تسرقها هذه العاطفة .
﴿ إِنَّ كَادَتْ تُبْدِي بِهِ .. ﴾ [١١] [القصص] يعنى . تكشف أمره ﴿ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ [١٢]

وسبق أن قلنا إن لإنسان يدرك الأشياء بآلات الإدراك عنده ، ثم يتحول هذا الإدراك إلى وجدان وعاطفة ثم إلى نزوع وعمل ، ومثلنا لذلك بالوردة التى تراها بعينيك ، ثم تعجب بها . ثم تنزع إلى قطفها . وعند النزوع تواجهك قضايا فى افؤاد تقول لك لا يحق لك ذلك . فربما رفض صاحب البستان أو ماضاك ، فالوردة ليست ملكاً لك وكذلك أم موسى . كان فؤادها فارغاً من القضية التى تطمئننا على وليدها . بحيث لا تفسى عواطفها هذا السر .

ومعنى ﴿ رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ [١٢] [القصص] أى ثبتناها ليكون الأمر عنده عقيدة راسخة لا تطفو على سطح العاطفة . ومن ذلك قوله تعالى عن أهل الكهف ﴿ رَّبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [١٤]

إن الربط على القلب معناه الاحتفاظ بالقضايا التى تتدخل فى النزوع ، فإن كان لا يصح أن تفعل فلا تفعل ، وإن كان يصح أن تفعل فافعل ، فهذه القضايا الراسخة هى التى تصبط التصرفات ، وكان فؤاد أم موسى فارغاً منها

لذلك نقول لمن يتكلم بالكلام الفارغ الذى لا معنى له دعك من هذا الكلام الفارغ - أى الذى لا معنى له ولا فائدة منه ، ومن ذلك قولهم فلان عقله فارغ يعنى من القضايا النافعة . وإلا فليس هناك شيء فارغ تماماً لا بد أن يكون فيه شيء ، حتى لو كان الهواء .

ومنه قوله تعالى ﴿وَأَفْسَدْتُهُمُ هَوَاءً﴾ (٤٢) [إبراهيم] ويقولون في العامة (فلان معتدوش ولا هوا) ذلك لأن الهواء أحر ما يمكن أن يفرع منه الشيء .

ومعنى . ﴿إِنْ كَادَتْ تُبْدِي بِهِ ..﴾ (٤٣) [القصاص] يعنى قاربت من فراع فرادها أن تقول إنه ولدى^(١) ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبًا لَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصاص] لأن الإيمان هو الذى يجلب لك النفع ، ويمنعك من الضر ، وإن كان فيه شهوة عاجلة لك ، فمنعها إيمانها من شهوة الأمومة في هذا الموقف ، ومن ممارسة العطف والحنن الطبيعيين في الأم ، لأن هذه شهوة عاجلة يشبعها صرر كبير ، فمن أحسوا أنه ولدها قتلوه ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَقَالَتِ لَأُخْبِتَنَّ أَفْسُيْتَهُ فَأَبْصُرْتُ بِهِ عَنْ جُنُبٍ
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١١)

فُصِيهِ يعنى تتبعى أثره ، وراقى سيوره إلى أين ذهب ؟ وماذا فعل به ؟ وحين سمعت الأخت هذا الأمر سارحت إلى التنفيذ ، لذلك استخدم الفاء الدالة على التعقيب وسرعة الاستجابة ﴿فَبَصُرْتُ بِهِ﴾ (١١) [القصاص] ولم يقل فقصته ، لأن البصر وإن كان بمعنى الرؤية إلا أنه يدل على العناية والاهتمام بالمرشى .

(١) قال ابن عباس ي تصيح عند إلقائه والساء وقال اسدى ثلاث تقول لما حملته لإرضاعه وحضنته هو ابني وقيل إنه لما شب سمعت الناس يقولون موسى ابن فرعون ، فشق عليها وضاق صدرها ، وكادت تقول هو ابني [تفسير القرطبي ٧/٥١٤٢] .
(٢) القمر اتبوع الأسو ويقال خرج فلان قصصاً في كثر فلان وذلك إذا اقتسى أثره [لسان العرب - مادة قصص]

ومعنى ﴿عَنِ جَنْبٍ.. (١١)﴾ [القصص] من ناحية بحيث لا يراها أحد ، ولا يشعر بتتبعها له ، واهتمامها به . ومن ذلك ما حكاه القرآن من قول السامري ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ . (١٦)﴾ [ملء] أى رأى من حيث لا يطلع أحد عليه .

ونلاحظ هنا أن أخت موسى أخذت الأمر من أمها ﴿فَصْنِعَتْ (١١)﴾ [القصص] فقط ولم تطلت نظرها إلى هذا الاحتياط ﴿عَنِ جَنْبٍ.. (١١)﴾ [القصص] مما يدل على دكاء الفتاة وقيامها بمهمتها على أكمل وجه ، وإن لم تكلف بذلك ، وهذا من حكمة المرسل الحريص على أداء رسالته على وجهها الصحيح .

وما أجمل ما قاله اشاعر فى هذا المعنى

إِذَا كُنْتُ فِي حَاجَةٍ مُرْسِلًا فَارْسِلْ حَكِيمًا وَلَا تُوصِلْ

وقوله تعالى ﴿عَنِ جَنْبٍ.. (١١)﴾ [القصص] يظن البعض أن جنب يعنى قريب منى ، وهذا غير صحيح ، لأن معنى الجنب ألا تكون فى مواجهتى ، لذلك يقول تعالى ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ (٣٦)﴾ [النساء] إذن الجار الجنب مقابل الجار القريب ، فمعناه الجار البعيد

فكان الفتاة حين ذهبت لتتبع سائر القابوت أخذت مكاناً بعيداً منه ، حتى لا يطلع أحد إلى متابعتها له .

ومن ذلك قولنا (فلان تجنبنى ، أو فلان واخذ جنب منى) أى يتبعنى ، إذن المعنى بهم هذه الكلمة على عكس مدلولها

ألا ترى لقول إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥)﴾ [إبراهيم] وقوله تعالى ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٢٤)﴾ [الحج] فلاجتنب يعنى الابتعاد

وفي تحريم الخمر قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ ^(١) رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ . (٩) ﴾ [المائدة] فطلع علينا مَنْ يقول هذا ليس نصاً في التحريم ، لأنه لم يقلْ حرِّمْتُ عليكم ، فهي مجرد موعظة ونصيحة .

ويقول لو فهمت معنى ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ .. (٩) ﴾ [المائدة] لعلمت أنها أقوى في التحريم من حرمت عليكم ، لأن معنى حرِّمْتُ عليكم الخمر يعني لا تشربوها ، أما ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ (٩) ﴾ [المائدة] يعني ابتعدوا عنها كلية شرباً أو نبيحاً أو شراء ، أو نقلاً ، أو حتى الجلوس في محالها

ثم تتحدث الآيات بعد ذلك عن تمهيدات الاقدار للاقدار ، فنقول

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهُ ﴾ (١٢)

التحريم هنا لا يعني التحريم بالنسبة للمكلف هذا حلال وهذا حرام ، إنما ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ .. (١٢) ﴾ [التسمن] يعني معناه أن يرضع من المرضعات الثلاث يأتون بهن لتتقلب عليه المرضع واحدة بعد الأخرى ، إلى أن تأتيه أمه .

و﴿ الْمَرَاضِعَ . (١٢) ﴾ [التسمن] جمع مُرْصِع . ونقول أيضاً مرضعة ، ولكل من اللغتين مدلول . على خلاف ما يظنه البعض أنهما بمعنى واحد .

(١) الأزلام جمع زَلَمَ وفي قطعة من المشط تشبه السهم يقرعون بها فيقسمون بها الديائع ، يُكتب على كل زَلَم عدد الأنصباء يلخصه من المقامرين مَنْ يخرج له وهو نوع من الميسر المحرم شرعاً [اللاموس القويم ٢٨٩/١]

واقرا أول سورة الحج . ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ (٢) [الحج]

المرضع : التي من شأبها أن تُرضع ، وصالحة لهذه العملية ، لكن المرضعة التي تُرضع الآن معلاً ، وعلى ححرها طفل يلتقم ثديها ، وفي موقف القيامة ستذهل هذه عن طفلها من هول ما ترى ، إذن فالتي تذهل هي المرضعة لا المرضع

والضمير في ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ (١٢) [القصص] يعود على أخت موسى ، لأنها ما زالت في مهمة تتبّع الولد وقد سمعها هامان تقول ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (١٢) [القصص] فقال لها لا بد أنك من أهل هذا الولد ؟ وتعرفين قصّته ، فقالت بل ناصحون لمك مخلصون له^(١) وفعلوا وافقوها على ما نصحت به ، لأنهم محذرون ، فالولد يابى الرضاعة من الأخريات

ثم يقول الحق سبحانه

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣)

وسبق أن وعدها الله ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ (٧) [القصص] وما هو أوّل تحقيق الوعد الأول ، وهو بشرى بتحقيق الوعد الثاني ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧) [القصص] لكن هذا في مستقبل الأيام ، وسوف يتحقق أيضاً .

(١) قال ابن عباس : فلما قالت ذلك أخذوها وشجروا في أمرها وقللوا لها وما يبريك بصلحهم له وشققتم عليه ؟ فقالت لهم : مصحبهم له وشققتم عليه رعبتكم في سرور الملك ورجاء مصحبتهم [تفسير ابن كثير ٣ / ٢٨١]

وقوله سبحانه ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِهِ ۖ ﴾ [القصص] يدل على أن الأسباب في يد المسبب سبحانه ، فمن الذين رددناه ، لا أخاه ولا فرعون ، لأننا نُسِيرُ الأمور على وفق مرادنا ، ونُعْهَدُ لها الطريق حتى أتينا نحول بين المرء وقلبه ، لينفذ قضاؤنا فيه

وقوله تعالى ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص] يعني لا يعلمون أن وعد الله حق ،

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٤﴾

الأشدُّ يعني القوة واكتمال النمو ، وقد حدّدوا لذلك سنَّ الثامنة عشرة . إلى العشرين ﴿ واستوى . ﴾ [القصص] الاستواء هو بلوغ العقل مرحلة النصح الفكري ، فلما اكتملت لموسى - عليه السلام - قوة الجسم ونضج العقل ﴿ آتياه حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص]

ثم يقصُّ الحق سبحانه ، فيقول

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا

رَجُلَيْنِ يَتَسَلَّلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا فَاسْتَغْنَاهُ

الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ

عَلَيْهِ قَالِ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥﴾

أراد موسى عليه السلام - أن يدخل القرية على حين غفلة من أهلها ، لأن بنى إسرائيل كانوا مضطهدين ، وكان القبط في بعض المدن ذات الكثافة العددية منهم يَمرُمون على بنى إسرائيل دخول قراهم . لذلك اختار موسى وقت غفلة الناس ، لكنه لم يدخل في الليل لأنه لا يهتدى إلى الطريق ، فقبل دخولها وقت القيلولة والناس في بيوتهم^(١)

﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته .. ﴾ [القصص] يعني من بنى إسرائيل ﴿ وهذا من عدوه ﴾ . ﴿ [القصص] يعني الاتباط ﴾ فاستغاث ﴿ [القصص] أي طلب منه العون وانجدة ﴾ فوكره موسى .. ﴿ [القصص] يعني صربه بجُرح يديه . فجاءت نهاية القبط وأجله مع هذه الصربة ، لا أنه مات بها ، وكثيراً ما تحدث هذه المسألة في شجار مثلاً بين شخصين ، فيضرب أحدهما الآخر فيقع ميتاً ، وبتشريح جثته يتبين أنه مات بسبب آخر

ومثال ذلك حين تكلف شخصاً بقضاء حاجة لك ، أو توسطه في أمر ما ، فيدخل عند المسئولين ويسعى إلى أن يقضى لك حاجتك فتقول « فلان قضالى كذا وكذا » وهو في الحقيقة ما قضى في الأرض إلا بعد أن قضى الله في السماء

لكن الله تعالى أراد أن يكرم الواسطة ، فجعل قضاءها موافقاً لقضائه سبحانه ، فنقول في هذه الحالة قضى الله المصلحة معه لا به .

كان القبط - كما قلنا - يكرهون بنى إسرائيل ويعذبونهم ، فلما

(١) قال سعيد بن جبير رقتاده وقاله ابن عباس أيضاً ، وهي رواية عنه هي بين العشاء والعصا [تفسير القرطبي ١٤٦/٧]

قتل موسى القبطي زاد غضبهم وكرهيتهم لبني إسرائيل ؛ لذلك أحس موسى أن هذا العمل من لشيطان ، ليزيد هذه العداوة ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٥) [النصير]

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾
 إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾

يُعلمنا موسى - عليه سلام - أن الإنسان ساعة يقترف الذنب ويعتقد أنه أذنب لا يكابر ، إنما ينبغي عليه أن يعترف بذنبه وظلمه لنفسه ، ثم يبادر بالتوبة والاستغفار ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ۖ ۞ ﴾ (١٦) [النصير] يعني يا رب حكّم هو الحق ، وأنا الظالم المعترف بظلمه

ومن هنا كان الفرق بين معصية آدم عليه السلام ومعصية إبليس آدم عصي واعترف بذنبه وأقر به . فقال ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ (٣٣) [الأعراف] فقبل الله منه وغفر له . أما إبليس فعّل عدم سجوده ﴿ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِبَآءً ﴾ (٦١) [الإسراء] وقال ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (٧٦) [مر] فردّ الحكم على الله

لذلك نقول لمن يفتي بغير ما شرع الله فيحلل الحرام لسبب ما ، نقول له احذر أن تردّ على الله حكمه ، لأنك إن فعلت فانت كإبليس حين ردّ على الله حكمه ، لكن افتّ بالحكم الصحيح ، ثم تعلّل بأن الظروف لا تساعد على تطبيقه ، فعلى الأقل تحتفظ بإيمانك ، والمعصية تمحوه التوبة والاستغفار ، أما الكفر فلا حيلة معه

لما استغفر موسى ربه عفو له ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٦) [النصير] يُعرف الذنب ، ثم يغفره رحمة بنا ، لأن الإنسان حين تصيبه غفلة

فيقع في المعصية إذا لم يجد باباً للتوبة وللرجوع يئس وفقد الأمل ،
وتمدى في معصيته ونسليه (فاقد) عنده سُعار للجريمة ، ولا مانع
لديه من ارتكاب كل الذنوب

إذن : مشروعية التوبة والاستغفار تعطى المؤمن أملاً في أنه لن
يُطرد من رحمة الله . لأن رحمة الله واسعة تسع كل ذنوبه مهما
كثُرَتْ

لذلك يقول تعالى في مشروعية التوبة ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ..
(١٧٨) ﴾ [التوبة] والمعنى شرع لهم التوبة وحُثُّهم عليها ليتوبوا
بالفعل فيقبل منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ
ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝١٧٩ ﴾

قوله ﴿ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. (١٧٩) ﴾ [القصص] يعنى بالمفردة
وعذرتنى وثبتت على ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧٩) ﴾ [القصص] أى
عهد الله على ألا أكون مُعيناً للمجرمين^(١)

ثم يقول الحق سبحانه

(١) أى من المعرفة والحكمة والترجيح . قاله القرطبي في تفسيره (١٤٤٨/٧) وقال ابن
كثير في تفسيره (٢٨٢/٣) : « أى بما جعلت لى من الجاه والعر والنعمة »
(٢) أراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه فى جملة ، وتكثير مصادره ، حين كان
يركب بركبه كالولد مع الوالد . وكل من يُسمى ابن فرعون ، وإما بمظاهرة من أدت مظاهره
إلى الجرم والإثم كمظاهرة الإسرائيليين المؤمنة إلى قتل الذى لم يحل له قتله [القرطبي
في تفسيره ١٤٤٨/٧]

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَصْرَحَهُ
بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَمَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١٨)

أى بعد أن قتل موسى القبطي صار خائفا منهم ﴿يترقب﴾ ..
(١٨) ﴿[القصص]

يظهر في وجوه الناس ، يرقب أفعالاتهم بحوه ، وربما جاءوا
ليأخذوه^(١) كما يقولون يكاد المريب أن يقول خذوني ، فلو جلس
قوم في مكان . ثم ماجاهم رجال الشرطة تراهم مطمئنين لا يخافون
من شيء ، أما المجرم فيفر هاربا .

ومن ذلك ما يقوله أهل الريف (اللى على راسه بطحة يحسس
عليها)

وهو على هذه الحال من الخوف والترقب إذ بالإسرائيلى الذى
استغاث به بالأمس ﴿يَسْتَصْرِحُهُ﴾ .. (١٨) ﴿[القصص]

استصرخ به بالأمس ، ونادى على من يُخلصه ، وهو انفعال للاستنجاد للخلاص من
مازق ، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن إبليس ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا
بِمُصْرِخِي﴾ . (٢٢) ﴿[إبراهيم]

وسبق أن تكلمنا في همزة الإزالة نقول صرح فلان يعنى
استنجد بأحد ماصرخه يعنى أزال سبب صراخه ، فمعنى الآية أنا
لا أزيل صراخكم ، ولا أقم تزيلون صراخى

عندها قال موسى عليه السلام لصاحبه الذى أرقعه في هذه

(١) قال سعيد بن جبير يتلفت من الخوف وقيل ينتظر الطيب . ويتنظر ما يتحدث الناس
به [تفسير القرطبي ٥٦٥٠/٧] وانظر الدر المنثور للسجوطي (٦ / ٤٠)

الورطة بالامس ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌ مُّبِينٌ﴾ [القصص] تريد أن تُقويَ بأن
أفعل كما فعلت بالامس ، وما كان موسى - عليه اسلام - ليقع في
نفس الخطأ الذي وقع فيه ، فلا يُلدَغ المؤمن من حُرٍّ مرتين^(١)

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَى
أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتُ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ
جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾

قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا...﴾ [القصص]
يعنى أن موسى حن مرة أخرى للذى من شيعته وهو الإسرائيلي
وباصره ، ولكن الرجل القبطى هذه المرة واجهه ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا
قَتَلْتُ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص] فهو يعرف ما حدث من موسى ،
وما دموا قد عرفوا أنه القاتل ، فلا بُدَّ لهم أن يطلبوه ، وأن يستقموا
منه .

وقوله تعالى ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ
الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص] إن هنا نافية يعنى ما تريد إلا أن تكون
جباراً فى الارض ، فقد قتلت نفساً بالامس ، تريد أن تقتلنى اليوم .
إذن عرفوا أن موسى هو القاتل ، وهناك ولا بُدَّ من يسعى

(١) نص حديث لرسول الله ﷺ ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١٢٢) ، وكذا مسلم فى
صحيحه (٢٩٩٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه
(٢) القاتل هنا هو الإسرائيلي الذى من شيعه موسى والذى كان قد استصرجه بالامس قال
سعيد بن جبير أراد موسى أن يبطش بالقبطى فتوهم الإسرائيلي أنه يريد ، لأنه أعظم له
فى القول ، فقال ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتُ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص] مسمع القبطى
الكلام فامشاه [تفسير القرطبي ٥١٥١/٧]

للإمساك به ، وفي هذا الموقف لحق الرجل المؤمن

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأُ
يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِغَتُلُّوكَ فَخُذْ إِنِّي لَكِ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (٢١)

هو الرجل المؤمن من آل فرعون ، جاء لينصح موسى بالخروج
والهرب قبل أن يُمسكوا به فيقتلوه^(١).

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي
مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٢)

لأنهم يضطهدوننا ويعذبوننا من غير ما جريرة ، فما بالك بعد أن
وجدوا فرصة ودريعة ليزدادوا ظلماً لنا ؟
ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي
أَن يَهْدِيَني سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (٢٣)

معنى ﴿تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص] يعني ناحيتها ، وأراد
أن يهرب من مصر كلها ، ولم يكن يقصد مدين بالذات ، إنما سار
في طريق صادف أن يؤدي إلى مدين بلد شبيب عليه السلام .
ولو كانت مدين مقصودة له لما قال بعد توجهه . ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن
يَهْدِيَني سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (٢٣) [القصص] فموسى حينما خرج من مصر خائفاً

(١) قال أكثر أهل التفسير هذا الرجل هو حرقل بن سبورا مؤمن آل فرعون ، وكان بين عم
فرعون ذكوه لثعلبي وقيل طلوت ذكره السهيلي وقال المهدوي عن قتادة اسمه
شمعون مؤمن آل فرعون [تفسير القرطبي ٥٦٥٢/٧]

يريد الهرب لم يفكر في وجهة معينة ، فالذى نُبهمه أن يخرج من هذه
البلدة ، وينجو بنفسه

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ
النَّكَّاسِ يَسْقُونَ ﴿٦٠﴾ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴿٦١﴾
قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا
شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٦٢﴾﴾

عرض القرآن الكريم هذه القصة في إيجاز بليغ ، ومع إيجازها
فقد أوضحت مهمة المرأة في مجتمعها ، ودور الرجل بالنسبة للمرأة ،
والضرورة التي تلجئ المرأة للخروج للعمل

معنى ﴿وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ . ﴿٦٠﴾ [القصص] بمعنى جاء عند الماء ،
ولا يقتضى الورد أن يكون شرب منه والورد بهذا المعنى حل لنا
الإشكال في قوله تعالى ﴿وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ..﴾ ﴿٦١﴾ [مريم] فليس
المعنى دخول النار ، ومباشرة حرها ، إنما داهبون إليها ، ونراها
جميعنا - إذن - وردنا العين يعني جئنا عندها ورأيناها لكن
الشرب منها ، شيء آخر

﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ . ﴿٦٢﴾ [القصص] أى على الماء ﴿أُمَّةً﴾ . ﴿٦٢﴾
[القصص] جماعة ﴿يَسْقُونَ ..﴾ ﴿٦٠﴾ [القصص] أى مواشيهم ﴿وَوَجَدَ
مِنْ دُونِهِمُ ..﴾ ﴿٦١﴾ [القصص] بعيداً عن الماء ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ
..﴾ ﴿٦٢﴾ [القصص] أى ، تكفان الغنم وتمنعانها من الشرب لكثرة

(١) أى تسومان غنمهما ، أو تكفان الغنم عن التفرق أو عن الرحام [الفاموس القويم

الزحام على الماء ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا..﴾ [القصص] ٢٣ ﴿أَيَ مَا شَأْنُكُمَا ؟
وفى الاستفهام هنا معنى التعجب يعنى . لماذا تمنعان الغنم أن
تشرب ، وما أنيتما إلا للسقيا ؟

﴿قَالَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدَّرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص]
وقولهما ﴿حَتَّى يُصَدَّرَ الرِّعَاءُ..﴾ [القصص] ٢٣ يعنى . ينصرفوا
عن الماء ، غصدر مقابل ورد ، فالأتى للماء وارد ، والمنصرف عنه
صدر نقول صدر يصدر أى بداته . وأصدر يصدر أى غيره
بالمعنى لا نسقى حتى يسقى الناس وينصرفوا . و ﴿الرِّعَاءُ..﴾
[القصص] ٢٣ جمع رَاع ثم يذكران العلة فى خروجهما لسقى
الغنم ومباشرة عمل الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص]
ثم يقول الحق سبحانه

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ

رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ٢٤

معنا - إذن - فى هذه القصة احكام ثلاثة ﴿لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدَّرَ
الرِّعَاءُ..﴾ [القصص] ٢٣ أعطت حكماً و ﴿أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص]
أعطت حكماً و ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ [القصص] ٢٤ أعطت حكماً ثالثاً .
وهذه الأحكام الثلاثة تُنظم لمجتمع المسلم مسألة عمل المرأة ،
وما يجب عليها حينما تُضطر المرأة للعمل . فمن الحكم الأول نعلم أن
سقى الأنعام من عمل الرجال ، ومن الحكم الثانى نعلم أن المرأة
لا تخرج للعمل إلا للضرورة ، ولا تؤدي مهمة الرجل إلا إذا عجز
الرجل عن أداء هذه المهمة ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص]

أما الحكم الثالث فيعلم المجتمع المسلم أو حتى الإنسانى إذا رأى المرأة قد خرجت للعمل فلا بد أنه ليس له رجل يقوم بهذه المهمة ، فعليه أن يساعدوا وأن يُيسرَ بها مهمتها

وأذكر أنني حينما سافرت إلى السعودية سنة ١٩٥٠ ركبتُ مع أحد زملاء سيارته ، وفي الطريق رأيته نزل من سيارته ، وذهب إلى أحد المنازل ، وكان أمامه طاولة من الخشب مُغطاة بقطعة من القماش ، فاحذف ووضعها في السيارة ، ثم سرباً فسألتُه عما يفعل ، فقال من عادتنا إذا رأيتُ مثل هذه الطاولة على باب البيت ، فهي تعنى أن صاحب البيت غير موجود ، وأن ربة البيت قد أعدتُ العجيب ، وتريدُ منُ يخبره فإذا مرَّ أحدنا أحذه فحبره ، ثم أعاد الطاولة إلى مكانها

وفي قوله تعالى ﴿لَا تَنفَى حَتَّى يَصْطَرَّ الرَّعَاءُ .. (٢٢)﴾ [الفصم] إشارة إلى أن المرأة إذا اضطرتُ للخروج للعمل ، وتوفرتُ لها هذه الضرورة عليها أن تأخذ الضرورة بقدرها ، فلا تختلط بالرجال ، وأن تعزل نفسها عن مزاحمتهم والاحتكاك بهم ، وليس معنى أن لضرورة أخرجتُ المرأة لتقوم بعمل الرجال أنها أصبحتُ مثلهم ، فتبيع لنفسها الاحتلاط بهم

وقوله تعالى ﴿ثُمَّ قَوَّيْنَا إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَتَيْتُ إِلَيْكَ مِنْ حَيْثُ فَخِيرٌ (٢٤)﴾ [الفصم] فكان موسى - عليه السلام - طوال رحلته إلى مدين مسافراً بلا زاد حتى أجهدته الجوع ، وأصابه الهزال حتى صار جليداً على عظم ، وأكل من نخل الأرض^(١) ، وبعد أن سقى

(١) قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر وكان حافياً - فلما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه وجلس في الظل وهو سموة الله من حلقه وإن يطبه للاصق بظهره من الجوع وإن حضرة البقل لتُرى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق ثمرة [تفسير ابن كثير ٢٨٢/٣]

للمرأتين تولّى إلى ظلّ شجرة ليستريح ، وعندها لهنّ بهذا الدعاء ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنرَلْتُ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٧٤) [القصص]

كان الحق - سبحانه وتعالى - يريد من لضعيف أن يتّجه إلى المعونة ، وحين يتّجه إليها فلن يفعل هو ، إنما سيعمل الله له ، لذلك نلاحظ أن موسى في ندائه قال ﴿رَبِّ ..﴾ (٧٤) [القصص] واختار صيغة الربوبية ، ولم يقل يا الله ، لأن الألوهية تقتضى معبوداً ، له أوامر وبواه ، أمّا الرب فهو المتولّى للرعاية والرعاية ، فقال يا رب أنا عندك وقد حثت بي إلى هذا الكون ، وأنت جاثع أريد أن أكل

ومعنى ﴿أَنرَلْتُ ..﴾ (٧٤) [القصص] أن الخير منك هي الحقيقة ، وإنّ جاءني على يد عبد مثلي ، ذلك لأنك حين تُسلم أيّ خير في الدنيا لا بدّ أن ينتهي إلى الله المتّعم الأول ، وضربنا بذلك مثلاً برعف العيش الذي تأكله ، بنائه ببنّة لولا عناية الله ما ننت

لذلك يقولون في (الحمد لله) صيغة العموم في العموم ، حتى إنّ حمدت إنساناً على جميل أسداه إليك ، فأنت في الحقيقة تحمد الله حيث ينتهي إليه كلّ جميل

إنّ فحمدّ الناس من باطن حمد الله واحمد بكلّ صورته وبكلّ توجهاته ، حتى ولو كانت الأسباب عائدة على الله تعالى ، حتى يقول بعضهم لا تحمد الله حتى تحمد الناس^(١) .

ذلك لأنّ أزمة الأمور بيده تعالى ، وإنّ جعل الأسباب في أيدينا ، وهو سبحانه القادر وحده على تعطيل الأسباب ، وأذكر أن بعض

(١) أخرج أحمد في مسنده [٢٥٨/٢] ، والترمذي في سننه [١٩٥١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » . قال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » .

الدول (باكستان) أعلنت عن وفرة عندهم في محصول القمح ، وأنها ستكفيهم وتفيض عنهم للتصدير ، وقبل أن يوضح المحصول أصابته جائحة فأهلكته . فاختلفت كل حساباتهم ، حتى استوردوا القمح في هذا العام .

هذا معنى ﴿ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنرَلْتُ إِلَىٰ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (٢٤) [القصص] فالخير منك يا رب ، وإن سقته إلى على يد عبد من عبيدك ، وفقرى لا يكون إلا إليك ، وسؤالي لا يكون إلا لك .

وتم بكّد موسى - عليه اسلام - ينتهى من مناجاته لربه حتى جاءه الفرج

﴿ فَأَجَاءَنَّهُ إِخْدَانُهُمَا ﴾

تَعَثَّى عَلَىٰ أَسْتَحْيَاءٍ ۖ قَالَتْ ابْنَ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾

قوله ﴿ إِخْدَانُهُمَا .. ﴾ (٢٥) [القصص] أى إحدى المرائين ﴿ تَعَثَّى عَلَىٰ أَسْتَحْيَاءٍ .. ﴾ (٢٥) [القصص] يعنى مُسْتَحْيَةٍ فى مجيئها ، مُسْتَحْيَةٍ فى مُشِيئها ﴿ قَالَتْ ابْنَ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا .. ﴾ (٢٥) [القصص]

لما جاءته هذه الدعوة لم يتردد فى قبولها ، وانتهاز هذه الفرصة .

(١) قال عمرو بن ميمون سم تكن سلفاً من النساء ، خراجه ولاجه وقيل جامعاً سائرة وجهها بكم برعها ، قاله عمر بن الخطاب [تفسير القرطبي ٥١٥٧/٧] والعراة السلف السليطة الجريئة والسلفعة البذية الفعاشة القليلة الحياء . ر اسان العرب - مادة سلف [

فهو يعلم أنها استجابة سريعة من ربه حين دعاه ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتُ
إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٤) [القصص] وهي سبب من الأسباب بمذه الله له ،
وما كان له أن يرد أسباب الله ، فلم يتأب ، ولم يرفض دعوة الأب .

ولم يذكر لنا السياق منا كيف سار موسى والفتاة إلى أبيها لكن
يُروى أنهما سارا في وقت تهب فيه الرياح من خلفها ، وكانت الفتاة في
الأمام لندله على الطريق ، فلما ضم الهواء ملابسها ، فوصفت
عجيزتها ، قال لها - يا هذه - سيري خلفي وتليني على الطريق^(١) .

وهذا أدب آخر من آداب النبوة .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ...﴾ (٢٥) [القصص] أي سيدنا شعيب عليه السلام
﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ...﴾ (٢٥) [القصص] أي ما كان بينه وبين
القطي ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥) [القصص] يعني
طمأنه ومدا من روعه

﴿قَالَتِ إِحْدَاهُمَا يَكُونُ آمَسَّجِرَةٌ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (٢٦)

وهذا حكم رابع نستفيدة من هذه الآيات ، نأخذه من قول الفتاة
﴿يَكُونُ آمَسَّجِرَةٌ...﴾ (٢٦) [القصص]

وعى قولها دليل على أنها لم تعشق الخروج للعمل ، إنما تطلب
من يقوم به بدلاً عنها ، لتقر في بيتها .

ثم تذكر السنت حيثيات هذا العرض الذي عرضته على أبيها ﴿إِنَّ
خَيْرٌ مِّنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (٢٦) [القصص] وهذان شرطان لا بد

١. أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٠٥) وعراه للبريد بن رباح بن شيعة في المصنف
وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب



منهما في الأجير : قوة على العمل ، وأمانة في الأداء . وقد تسأل :
ومن أين عرفت البنت أنه قوى أمين ؟

قالوا : لأنه لما ذهب ليسقى لهما لم يراحم الناس ، وإنما مال
إلى ناحية أخرى وجد بها عُشياً عرف أنه لا ينبت إلا عند ماء ، وفي
هذا المكان أراح حجراً كبيراً لا يقدر على إزاحته إلا عدة رجال ، ثم
سقى لهما من تحت هذا الحجر ، وعرفت أنه أمين حينما رفض أن
تسير أمامه ، حتى لا تظهر له مفاتن جسمها .

ويأتى دور الأب ، وما ينبغي له من الحزم في مثل هذه
المواقف ، فالرجل سيكون أجيلاً عنده ، وفي بيته بنتان . سيتردد
عليهما ذهاباً وإياباً ، ليلَ نهار ، والحكمة تقتضى إيجاد علاقة شرعية
لوجوده في بيته : لذلك رأى أن يزوجه إحداهما ليخلق وضعاً ،
يستريح فيه الجميع :

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ
تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَاجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ
وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمُنَّ عَلَيْكَ فَسَوْفَ تُنَفِّرُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ

الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾

في الأمثال نقول : (اخطب لبنتك ولا تخطب لابنتك) ذلك لأن

(١) تزوج موسى عليه السلام الصغرى منهما ، فعن أبي هريرة قال ، قال ﷺ : « قال لى
جبريل : يا محمد ، إن سلك اليهود أى الأجلين قضى موسى ؟ قلل : لو فاسما ، وإن
سألك أيهما تزوج ؟ قلل : الصغرى منهما ، وأورد السوطى فى الدر العنثور (٤١/٦)
وعزاه لامين مردويه ، وأورد نحوه أيضاً من حديث أبى نر وعزاه للبزار وابن أبى حاتم
والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف .

كبرياء الأب يمنعهُ أن يعرض ابنته على شاب فيه كل صفات الزوج الصالح - وإن كان القلة يفعلون ذلك - وهذه الحكمة من الأب في أمر زواج ابنته نحلٌ لنا إشكالات كثيرة ، فكثيراً ما نجد الشاب سوى الدين ، سوى الأخلاق ، لكن مركزه الاجتماعي - كما نقول - دون مستوى البنت وأهلها . فيتهيّب أن يتقدّم لها فيرفض .

وفي هذه الحالة على الأب أن يُجزيء الشاب على التقدم ، وأن يلمح له بالقبول إن تقدّم لابنته ، كأن يقول له : لماذا لم تتزوج يا ولد حتى الآن . وألف بنت تتعذّك ؟ أو غير ذلك من عبارات التشجيع .

أما أن ترتقي إلى مستوى التصريح كسيدنا شعيب ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ۚ ﴾ [القصص] فهذا شيء آخر ، وأدب عالٍ من العارض ، ومن المعروف عليه . وفي مجتمعاتنا كثير من الشباب والفتيات ينتظرون هذه الجرأة وهذا التشجيع من أولياء أمور البنات .

ألا ترى أن الله تعالى أباح لنا أن نُعرض بالزواج لمن تُوفي عنها زوجها ، قال تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ۚ ﴾ [البقرة] ولا تخفى علينا عبارات التلميح التي تلفت نظر المرأة للزواج .

وقوله : ﴿ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ ۚ ﴾ [القصص] أي : تكون أجيراً عندي ثمانى سنوات ، وهذا مَهْرُ الفتاة ، أراد به أن يُغلي من قيمة ابنته ، حتى لا يقول زوجها : إنها رخيصة ، أو أن أباهما رماها عليه .

﴿ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ

شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ [القصاص] يعنى : حينما تعايشنى ستجدنى طيباً المعاملة ، وستعلم أنك مُوفَّق فى هذا النسب ، بل وستزيد هذه المدة محبة فى البقاء معنا .

فاجاب موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ
فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ ﴿٢٨﴾

أى : أنا بالخيار ، اقضى ثمانية ، أم عشرة ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ﴿٢٨﴾ [القصاص]

وقد أخذ العلماء حكماً جديداً من هذه الآية ، وهو أن المطلوب عند عقد الزواج تسمية المهر ، ولا يشترط قبضه عند العقد ، فلك أن تؤجله كله وتجعله مؤخراً ، أو تؤجل بعضه ، وتدفع بعضه .

والمهر ثمن بضع المرأة ، بحيث إذا ماتت ذهب إلى تركتها ، وإذا مات الزوج يؤخذ من تركته ، بدليل أن شعيباً عليه السلام استأجر موسى ثمانى أو عشر سنين ، وجعلها مهراً لابنته .

ونلاحظ أن السياق هنا لم يذكر شيئاً عن الطعام ، مع أن موسى عليه السلام كان جائعاً ودعا ربه : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ﴿٢٩﴾ [القصاص]

لكن يرى أهل السير أن شعيباً عليه السلام قدّم لموسى طعاماً ، وطلب منه أن يأكل ، فقال : استغفر الله ، يعنى : أن أكل من طعامك كأنه مقابل ما سقى للبنتين الغنم ؛ لذلك قال : إِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَبِيعَ عَمَلَ الْآخِرَةِ بَعْلُ الْأَرْضِ ذَهَباً ، فقال شعيب : كُلْ ، فإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ

نطعم الطعام ونقرى الضيف ، قال : الآن نأكل^(١)

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٢٩)

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ .. ﴾ (٢٩) [القصر] أى : الذى اتفق عليه مع شعيب عليه السلام ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ .. ﴾ (٢٩) [القصر] قلنا : إن الأهل تطلق على الزوجة ، وفى لغتنا العامية نقول : معى أهلى أو الجماعة ونقصد الزوجة ؛ ذلك لأن الزوجة تقضى لزوجها من المصالح ما لا يقدر عليه إلا جماعة ، بل وتزيد على الجماعة بشيء خاص لا يؤديه عنها غيرها ، وهو مسألة المعاشرة ؛ لذلك حلت محل جماعة .

ومعنى ﴿ آنَسَ .. ﴾ (٢٩) [القصر] يعنى : أبصر ورأى أو احس بشيء من الأنس . ﴿ الطُّورِ .. ﴾ (٢٩) [القصر] اسم الجبل ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا .. ﴾ (٢٩) [القصر] انتظروا ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. ﴾ (٢٩) [القصر] يخبرها بوجود النار ، وهذا يعنى أنها لم ترها كما رآها هو .

وهذا دليل على أنها ليست ناراً مادية يؤقدها بشر ، وإلا لاستوى أهله معه فى رؤيتها ، فهذا - إذن - أمر خاص به ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ .. ﴾ (٢٩) [القصر] يعنى : رجاء أن أجد من يخبرنا عن الطريق ، ويهديننا إلى أين نتوجه ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٢٩) [القصر]

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤٠٧/٦) عن أبى حازم وعزاه لابن عساکر . بنحوه .